

ونجد أن شيخنا رشيد رضا الذي نقل لنا تاريخ الإمام محمد عبده يروي قصة لقاء بينه وبين ذلك المدهو البهاء في بيروت ، وحكى الشيخ رشيد عن الإمام محمد عبده أن هذا البهاء كان يأتى للصلوات الخمس ويصل الجمعة . وعندما سأله عن تلك المسألة المسية بالبهاية . أجاب بأنها محاولة للتقريب بين الشيعة وأهل السنة . وعندما أمرت الدولة العثمانية بمحاكمة ذلك البهاء توسط قنصل روسيا فاحتفوا بفتيه إلى بغداد . وعاش فترة فيها ثم مات وقام الأمر من بعده لابنه عباس المسمى عبدالبهاء .

لقد كانت البداية برجل سعى نفسه الباب صاحب كتاب البيان وقال فيه : « علمون مطرود من يدعى أنه جاء بشرعة بعد شريعة إلا بعد مرور ألف سنة » . وما إن تمر سبع سنوات حتى جاء رجل ثان يسمى نفسه البهاء ، وأعلن أنه جاء بشرعة جديدة ، ويعقد الوصية لابنه المسمى « عبدالبهاء » . ثم يكون الأمر من بعده إلى ابنه المسمى « شوقى أفندى » وكان يقبم بعكاً . هكذا انقضت أكاذيبهم . ورئيس البهاية الحالي هو يهودى اسمه بترسون .

إنذ فالردة عن الإسلام لم تكن نابعة من نفوس المسلمين ولكن مدفوع إليها من خصوم الإسلام الذين يأخذون أى رجل ملحد فيه بعض من الذكاء ويتفخون فيه بدعائياتهم حتى يشوهوا دعوة الإسلام . وأنشأوا مراكز مثل هذه الانحرافات فى بلجيكا وأمريكا وإنجلترا . وحاولوا الشاذ إلى البلاد الإسلامية لينشروا فيها دعوتهم ومبادئهم . وكانوا يأخذون المرأة كنقطة هجوم على الإسلام . ويتهمون الإسلام بأنه يضع المرأة فى الحرم ، ويجسها فى خيمة وإلى آخر تلك الدعايات التى تشوه تكريم الإسلام للمرأة .

ومن العجيب أى سمعت بأذى من واحدة من بنت لتلك الحضارة الغربية . تقول : كنت أتمنى أن أكون مسلمة وأماً لشاب مسلم .

فعلينا نحن المسلمين ألا نتخذ بتلك الدعايات وتلك المذاهب التى تتسلل من باب تحريف المنهج والمراد بها قتل قيم الإسلام التى تحمى الإنسان وتحترم مشاعره ؛ لذلك يجب أن ننتبه إلى دعوات المتسللين إلى مجتمعاتنا بغية عدم ديننا . وحمل

الحكومات أن تضرب على أهلي العابثين بدين الله لا أن تترك مسائل الدين لهبات الأفراد . وكل منا مطالب بأن يرد عن دين الله كل دخيل عليه وكل محاولة لوضع أمور ليست من الدين في شيء . وجزى الله فضلاء مصر خيراً حينما تصدوا لكل هذه الدعوات ووقفوا دفاعاً عن الإسلام لتبين وإيضاح كل أمر دخيل عليه ، فليستور الدولة ينصر على أن مصر بلد مسلم ، وإن كانت بعض التقنيات في دور التشريع ، وجزى الله فضلاء مصر هنا خيراً ، فقد وضحو تلك المسائل وبينوها . وعرفنا بسلوكهم أن خيرة الإيمان هي التي تحكم سلوك المسلم الحق ، وإن تخلت عنه بعض القوانين التي عليه أن يحكم بها .

وكلما حدث حادث من تلك الحوادث لنا أن نتذكر القول الصادق من الله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

(من الآية ٥١ سورة المائدة)

وكل هذه الحركات المناوئة للإسلام تنتهي وفي الإسلام قوماً بأبناؤه الذين يحبهم الله ويحبونه . هؤلاء الذين وصفهم الحق :

﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَمْزَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يَجْتَنِبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً

لَا بَرٍّ

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ويذيل الحق سبحانه هذا القول الكريم :

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعم إنه فضل من الله ؛ لأنهم ما داموا يحبهم الله ويحبون الله وهم أذلة على المؤمنين وأمزة على الكافرين فقد جعلهم سبحانه حملة لواء منهجه لتكون كلمة الله هي العليا . وذلك بفضل من الله . ولنعلم أن الخير لا يعود منا على الله ؛ لأنه سبحانه هو واجب كل خير ، ولم يأت لنا الخير من بعد خلقنا ، ولكن نحن الذين طرأنا على الخير ، نحن طرأنا على الأرض ، وعلى السماء بما فيها من كل كنز الخير ،

ففي الأرض العناصر والمعادن والقوت ، وفي السماء الشمس والقمر والنجوم ، وكل ذلك فضل الخالق على المخلوق .

إن فضل الله يؤتاه سبحانه وتعالى من يشاء وتوسع قدرته لكل مطلوب ، لذلك لا يمن المؤمن على الله بإيمانه ، فليس عند الله أزمة في الذين يؤمنون به ، وهو قادر على أن يأتى بقوم يحملون دهره ، فإذا ما ارتضت رأس الباطل لهذا دليل على أن طغافها قد حان ، لأن الزهد ينحسب بقاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض .

فكان الله حين يتدب للمؤمنين مهمة إيمانية فلا يقال : إن المؤمنين إنما يفعلون ذلك لمصلحة ربهم . لا ، ولكن ذلك فضل من الله على المؤمنين حين ينظرهم لمهمة حل البلاغ من الله ، ويهود الخبير إلى المؤمنين ثمرة مضاعفة . إذن لمعين يكون اختيار الله للمؤمن مهمة إيمانية لهذا فضل من الله على المؤمن . ونعرف أن الفضل هو الأمر الزائد عن العدل فالحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قُلْ فَضْلُ اللَّهِ يُبَرِّحُهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٥)

(سورة يونس)

وكل تكليف من الحق للمخلق هو فضل من الله ، لأنك إن نظرت إلى كل تكليف من الحق للمخلق لوجدت أن التكليف إنما يعود لصالح المخلق وما دامت الفائدة من التكليف تعود إلى المخلق فليس من المطلوب إذن أن يثاب المخلق المؤمنون المكلفون ، لكن الله يأتى أن يكلف خلقه بتكاليف ويذهبون إلى هذه التكاليف بطاعة وحب دون أن يجازيهم على ذلك بحسن الثواب . ولهذا نجد الحق يقول :

﴿ قُلْ لَا تَتَّبِعُوا عَلَىٰ مَا لَكُمْ مِّنْ حَقٍّ بَلْ أَتَىٰ بِمَن تَعْبَرُونَ مَذْهَبًا لِّمَن لَّمْ يَجْعَلْ لِّخَلْقِهِ إِيمَانًا ﴾ (١٧)

(من الآية ١٧ سورة المجرات)

المنة إذن هي حين تفضل على المخلق الذين أطاعوه بحسن حياتهم في إطار تكاليفه الإيمانية ، وفوق ذلك هناك الثواب ، وهذا هو عين التفضل من الحق على المخلق المؤمنين :

﴿ قُلْ فَضْلُ اللَّهِ يُبَرِّحُهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٥)

(سورة يونس)

وسأله نسمع وفضل الله ، فلنعلم أن فضل الله لا حدود له . ولد نجد من يقول : ولكن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَن سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ ۝﴾

(سورة النجم)

ونقول : لنفترض أن إنساناً مات ، ونجد الأمر من الخالق سبحانه وتعالى بأن نعمل عليه ، لندهوله بالرحمة . ردعازنا للميت بالرحمة بأن له بغير أكثر مما فعل هو في حياته ، ولولا أن صلاتنا على الميت تنيب الميت وتبيننا في آن واحد لولا ذلك ما أمرنا الحق بأداء هذه الصلاة .

وقد يقول قائل : هذا الخير الذي يأتي إلى الميت من دعاء المصلين عليه ليس من سعي الميت .

ونقول : إن «اللام» في قوله الحق :

﴿وَلِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النجم)

هذه اللام تفيد الاستحقاق والملكية . وهو قول كريم يحدد العدل ولا يحدد الفضل . ونضرب مثلاً من حياتنا نحن البشر - والله المثل الأعلى - نجد السيد يقول للخدام عنده : إن لك أجراً عندي يساوي مائة جنية . ثم يجيء السيد في آخر الشهر ويقول للخدام : خذ مائة وخمسين جنيهاً . العدل إذن هو أن يأخذ الخدام أجره وهو مائة جنية ، ولكن الخمسين جنيهاً الزائدة هي الفضل الزائد عن الأجر .

إننا حين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى بأن نصل على الميت فهذا تفضل من الله على الميت وعلينا أيضاً . هذا لون من تفضل الله على خلقه . وسبحانه يجازي كل إنسان بما عمل ويمنحه فرق ذلك ، ومن قصر في شيء من العمل . ويصل عليه الناس ويدهون له بالرحمة فتفيض رحمة الله على العبد وعلى غيره من العباد . وهذا هو مناط قول الحق :

﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْتَمِعُونَ ۝﴾

(سورة يونس)



وعندما نجتق في هذا الموقف وحده نجد أن الجزاء يكون أفضل من العمل .
وما الذي يجعل المؤمن يعمل على ميت مؤمن ؟ إنه إيمان هذا الذي مات وإيمان من
مات ملك له ، وعلى ذلك فملكية المؤمن لإيمانه تمتد بعد أن يموت لتشمل صلوات
ودعاء من صلوا عليه .

وذلك يدخل في فضل الله :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة التوبة)

وما دامت المسألة فضلاً من الله يشمل كل مؤمن فلا بد أن الحق عنده من السعة
ما يعطى الكل . وبيحانه واسع عليم . والحديث القدسي يقول : « يا هادي ، لو
أن أولكم وأخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل
إنسان مسأله ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر .
يا هادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوليكم إليها ، فمن وجد غيراً
فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلمن إلا نفسه » (١) .

إذن فضائل الله ملأى لا تعد . وسعة الحق مطلقة .

ولذا نعم أيضاً نجد أن الحب في الله يزداد دائماً ، فساعة نشاهد اثنين يتحابان في
الله ، فحبهما يزداد كل يوم ، لأنه الحب في الله . أما إن كان الحب لأمر محدود فذلك
الحب ينتهي ويترك كل منها الآخر بانتهاء السبب لذلك الحب .

ولنأخذ قضية واضحة أمثلة : من كان يحب في الله فالحب لغير المحدود لا حدود
له . ومن كان يحب في غير الله ، فالحب هنا محدود ويرتبط طرداً وعكساً بمدي
الإنراء من هذا المحدود . ومن يحب لغرض من أغراض الدنيا يقيس ما يعطيه لمن
يحب ، فإن زاد ما يعطيه على ما يأخذه يحس بالخسارة . وعندما يتبادل الحب في الله
فلا شيء ينقص عند الله أبداً ، لأنه سبحانه يعطي الاثنين معاً اللذين يتحابان فيه .
وسبحانه العليم أولاً ، وصاحب القدرة الذي يعطي كل إنسان المناط الذي
يستحقه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ

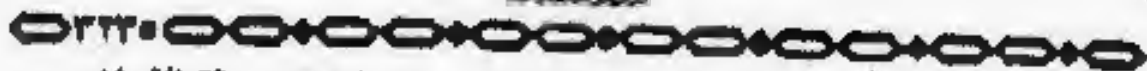
الصَّلَاةَ وَيَتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ زَاكِيُونَ ﴾

وحين نهانا الحق عن أن نتخذ اليهود والنصارى أولياء فعلينا أن نأخذ بالقياس أن النبي إنما يشمل كل خصوم ديننا ، فلا نتخذ آتياً من أعداء الدين ولياً لنا ، لأنه سبحانه وتعالى لم يتركنا بغير ولاية ، وهو ولينا وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا .

إذا أردنا المقارنة بين ولاية الله وولاية أعداء الله فلنعرف أن كل عذو له قدرة محدودة لأنه من البشر . أما ولاية الله لنا فلها مطلق القدرة . وأى عذو له قد يتظاهر لنا بالولاية تفافاً . أما ولاية الله لنا فلا تفاف فيها لأنه لا قوة أعمل منه . وإن كان الحق قد تمننا أن نتخذ من أعدائه أولياء فذلك ليحررنا من الولاية المحدودة ليعطينا الولاية التي لا تتغير وهي ولايته سبحانه وتعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهكذا يكون التعويض في الولاية أكبر من كل تصور . وسأحة نرى « إنما » فلنعرف أن هناك ما نسميه « القصر » أو « الحصر » .

مثال ذلك نقول : « إنما الكريم زيد » : كأن القائل قد استقرأ آراء الناس ولم يجد كريماً إلا زيداً ، وكأنه يقول : « زيد كريم وغير زيد ليس بكريم » واختصر الجملتين في جملة واحدة بقوله : « إنما الكريم زيد » وأثبت بهذا القول الكرم لزيد ونقاء عن غيره . أما إن قال القائل : « زيد كريم » فهذا القول لا يمنع أن يكون غيره من الكرماء .

إن الحق سبحانه يحصر الولاية في قوله : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهو قد نهانا من قبل عن ولاية أهل الكتاب ، وعن ولاية كل من لا توجد عنده مودة أو محبة نعين المؤمن على مهته الإيمانية . فلو كان عند أحد من أهل الكتاب أو للملاحدة محبة ومودة نعين المؤمن على أداء مهته لما بقي هذا الإنسان على منهجه



المحرّف أو على إلهاده ، بل إن ذلك سيجمعه بلذهب إلى الإيمان برسالة الإسلام .

إننا نجد بقاء الكافر على كفره أو إلهاده أو عدم إيمانه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم دليلاً على أنه لم يستطع الوصول إلى الهداية أو أنه - إن كان من أهل الكتاب - لم يستطع أن يكون مأموناً على الكتاب الذي نزل إلى نبيه وفيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فكيف - إذن - يمين إنسان مثل هذا إنساناً مسلماً ؟ . إنه لا يستطيع أن يمين ولا أن يوالى ولا أن يكون على هداية ، لأنه لم يستطع أن يهدي نفسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا تصلحوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

لأن الذي لا يستطيع أن يهدي نفسه لن يستطيع هداية غيره .

وحين نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن سؤال أهل الكتاب كان يعلم أنهم في ريب من أنفسهم ، وفي ضلال وخلط ، فهم إما يخلطون الحق بالباطل ، وإما في غيظ من الذين آمنوا ، لذلك نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسألهم ، وهذا هو الاحتياط للذين ، فقد يسألهم المؤمن سؤالاً ، فيجيئون بصديق ، فيكذبهم المسلم ، وقد يجيئون بكذب فيصدقهم المسلم ، لذلك لا يصح ولا يستقيم أن يسألهم المسلم أبداً عن شيء ، لأنه عرضة لأمر من اثنين : إما أن يصدق بباطل ، وإما أن يكذب بحق . وأهل الكتاب أنفسهم قد تضاربوا ، ألم يقل الحق على ألسنتهم :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وكذلك قالت النصارى :

﴿ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فأى المؤمنين نصدق ؟ أنصدق رأي اليهود في النصارى ؟ أم نصدق رأي النصارى في اليهود ؟ ولا نستطيع أن نكذب رأي اليهود في النصارى ، ولا نستطيع

أن نكذب رأي النصارى في اليهود ، إذن فحين يقول الحق سبحانه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » فعليها أن تفهم أنه سبحانه وتعالى ما دام قد نهاكم عن أن تتخللوا أولياء من دون الله فلن يترككم أيها المؤمنون دون ولي . بل منعكم فقط من ولاية من لا يمكن أن يكون صادقاً في معونتكم ولا في نصرتكم .

لقد أراد سبحانه أن يكون هو بطلاقة قدرته وليكم ، ورسول الله أيضاً وليكم ، وكذلك الذين آمنوا . ونجد من يقول : الحق هنا قد حدد الولاية فيه سبحانه وتعالى في الرسول صلى الله عليه وسلم وفي المؤمنين ، لماذا لم يقل - إذن - : أولياؤكم هم الله والرسول والذين آمنوا ؟

ونقول : هل كانت للرسول ولاية منفصلة عن ولاية الله والمؤمنين ؟ وهل كانت للمؤمنين ولاية منفصلة عن ولاية الله والرسول ؟ لا ، لأن الولاية كلها منصبة لله ، فلم يعزل الحق الرسول عن ربه ، ولا عزل المؤمنين عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقسم الولاية إلى أجزاء ، بل كلها ولاية واحدة وأمر واحد ، ونلاحظ أن الخطاب في « كاف الخطاب » هو للجميع : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، و« كاف » الخطاب هنا تضم المؤمنين ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى ولي الرسول وولي المؤمنين ، والرسول ولي المؤمنين . وجاء في المؤمنين قول الحق :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة التوبة)

كم درجة من الولاية هنا إذن ؟ الله ولي الرسول وولي المؤمنين . ذلك أنه سبحانه شاء بفضله ألا يعزل الولاية أو يقسمها بل جعلها ولاية واحدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم ولي المؤمنين ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، لذلك نجد أن كل مؤمن مطلوب من معونة ونصرة أخيه المؤمن .

إن الإنسان - كما نعلم - ابن اختيار ، وما دام الإنسان ابناً للاختيار فعلياً أن نعرف أن المؤمنين لن يظلوا كلهم في حالة توجيه النصيحة . ولن يظلوا جميعهم في حالة تلقي النصيحة . وكل واحد منهم يكون مرة ناصحاً ومرة يكون منصوحاً ، لمساعدة يصيب



الضعف مؤمناً في جزء من النهج يجد أخاه المؤمن قد هب لنصحه ليعتدل . وصاحة
بصوب الضعف الناصح في جزء من منهجه فللنصوح السابق يجب لنصح أخيه
ليعتدل . والذي خلق الخلق وهو أعلم بهم ، وعلم كيف تستوجب الأغيار الخلق ،
وكيف أن كل إنسان له خواطره وله ظنونه وله مواقف ضعف وله مواقف قوة .
إنه - سبحانه - لم يطلب من الناس أن يوصوا بالخير لحسب ولكنه قال :

﴿وَتَوَاصَرُوا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَرُوا بِالصَّبْرِ﴾

(من الآية ٣ سورة العصر)

لماذا إذن التواصي بالحق ؟ لأن سبيل الحق شاقة ، ولأن أصحاب الحق يلاقون
للتعصب من أصحاب الباطل ، لذلك لابد أن يوازر أصحاب الحق بعضهم بعضاً
فيقول الإنسان من أهل الحق لأخيه ما يساعده على التمسك بما هو أحرز من الراحة
والصحة والمال . ولا بد أن نجعل الحق واضحاً في حياتنا وسلوكنا ، وأن يظاكر أهل
الحق بما حدث لغيرهم وكيف صبروا ، هكذا يكون التواصي بين المؤمنين .

وتلك هي ولاية المؤمنين بعضهم لبعض : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء
بعض) .

إذن فقول الحق : « إنما وليكم الله » هو ما يسمونه في اللغة « أسلوب الحصر » ،
أي لا ولي لكم غير الله . وحين يُرد الإنسان من الولاية المحدودة القدرة ويجعل
المعوض له في غير محدود القدرة فذلك كسب كبير للعبد ، ولذلك يقول صلى الله عليه
وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب
الآخرة ، ومن ستره على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة » والله في عون العبد ما كان
العبد في عون أخيه ^(١) .

كيف تكون أنت أيها العبد في عون أخيك ؟ يتحقق لك ذلك من طريق أن تقدم
لأخيك المؤمن المعونة والنصرة والمواصرة والتواصي . وتقدم لأخيك من رقتك وطاقتك
وقدرتك ومالك ما يعينه . وإياك أن تحسب المسألة بأنك كنت تستطيع أن تفعل كذا
وكذا في الرقت الذي أعطيت لأخيك المؤمن ، بل يجب أن تحسبها بأن الله هو الذي

(١) رواه الترمذي في المعجم ، وأبو داود في الأصح ، وابن ماجه في المقدمة واحد ٢/٢٤٢ ، ١١٤ .

أعطاك الوقت والمال والجهد وأنت لا تفعل شيئاً بقدرتك أنت ، وأن قدرتك المحدودة عندما تعطى بعضاً منها لأخيك فأنت تفصل قوتك المحدودة بصاحب القوة غير المحدودة وهو الله . وبذلك يكون الله في عونك وتكون أنت الأكثر كسباً . فمن يرد الله بجهته فلا بد أن يكون مع الخلق دائماً بالمعونة ، وبهذا السلوك يرتقى المؤمن إلى أعلى درجات الذكاء .

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وسبحانه يريد أن يبين لنا مميزات أصحاب الإيمان ، لأننا حين نتعرف على شعب الإيمان وصفاته الجميلة إنما نميز بهذه الصفات المؤمنين من غيرهم . وإقامة الصلاة هي الصفة الغالبة في وصف الذين يؤمنون بالله ، لأن الصلاة هي الصلة المتجددة بإعلان الولاء لله خمس مرات في كل يوم . والنبي صلى الله عليه وسلم قال :

« بُني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت »^(١) .

وهذه الأركان الخمسة هي الدعائم والأسس التي تقام عليها عمارة الإسلام . وأى بيت لا يقوم بالأسس وحدها ، ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة وعشرات الفضائل والطلوبات غير الأسس ، وإذا ما راجع كل واحد منا علاقته بأسس الإسلام فلسوف يجد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، ومن بعد ذلك يقيم الصلاة . ثم يؤتي الزكاة ، لكن إن كان فقيراً فهو معفى من أداء الزكاة . وحتى الذي يؤدى الزكاة فهو يؤدىها في وقت واحد في السنة . ومن بعد ذلك يصوم رمضان . لكن المريض أو المسافر أو الذي له عذر فهو يخطو ويقضى الصوم ، ويندى عن الصيام المريض الذي لا يرجى شفاؤه والمجوز الذي نسيه بالصوم مثقة شديدة . ومن يحج البيت يفعل ذلك مرة واحدة في العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلاً .

هذه هي أركان الإسلام ، وفيها إعفاءات كثيرة للمسلم . اللهم إلا الصلاة فهي أساس يتكرر ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة »^(٢) .

(١) رواه البخاري ومسلم في الإيمان واحد ٢٦/٢ ، ٩٣ راجع إلى الطبراني .

(٢) رواه الترمذي في الإيمان ورواه أحمد .



ويقول صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » (١) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » (٢) .

لذلك لا تسقط أبداً ، فنحن نصل وننحن فيام ، ونصل وننحن لعمود ، ونصل وننحن على جوبنا . ونصل وننحن غير قادرين على أية حركة ، نصل بالإيماء . ومن لا يقدر على هز رأسه بحركات الصلاة في أثناء المرض الشديد فهو يصل بعينه . ومن أصابه - والعياذ بالله - شلل جعله لا يقدر على التحريك جفنيه بحركات الصلاة فهو يصل بالخطاطر وبالوحي أى يجرى لو كان الصلاة على قلبه . أما عن ذهب عنه الوحي فقد سقطت عنه الصلاة .

ولذلك يقول الحق : « والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة » ويقول بعد ذلك : « ويؤتون الزكاة » ، لأن إيتاء الزكاة معناه تقوية أثر حركتك لغيرك وتمدية أثر هذه الحركة للضعيف منك ، وسحبنا تزكى إلها تعطى مالا ، والمال هو ناتج من أثر حركتك في الوجود ، وعطاؤك من مالك بالزكاة يدل أيضاً على الإيمان . ثم يدبل الحق الآية بقوله : « وهم راكعون » . وهل الركوع هنا بمعنى الركوع في الصلاة ؟ أو بمعنى الخضوع لكل تكاليف منهج الله ؟ لو أنها نزلت هنا في مناسبة خاصة لحالة خاصة ؟

هناك رواية تقول : إن عبدالله بن سلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن قوماً من قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل . وشكا عبدالله عما يلقاه من اليهود ، فتركت تلك الآية .

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

- (١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه من جابر

(٢) رواه أحمد وأبو داود عن حنيفة .

وَمِمَّنْ رَّكْعُونُ ﴿٦٥﴾

(سورة المائدة)

فقال بن سلام : رضيها بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياء . وتزيد الرواية في موقع آخر : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس بين قائم وراكع ودخل إنسان إلى المسجد وسأل الصدقة فلم يعطه أحد فقال الرجل : أشهد الله أني جئت إلى مسجد رسول الله وطلبت الصدقة وما أعطاني أحد شيئاً ، وسمعه علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه وكان يوصل - فمد علي يده بحيث يراها الرجل وأشار له أن يأخذ من يده الخاتم كصدقة ، فأخذه الرجل . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل فقال : هل أعطاك أحد شيئاً . فاجاب الرجل نعم خاتماً ، وأشار إلى علي بن أبي طالب . وهنا نزلت الآية بتمامها .

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَمِمَّنْ رَّكْعُونُ ﴾ ﴿٦٥﴾

(سورة المائدة)

وأيما كانت المناسبة التي نزلت فيها الآية ، فالركوع معناه الخضوع ، والخضوع يكون لكل تكاليف منهج الله . فإذا كنا نقول : فلان ركع لفلان فهذا معناه أن فلاناً قد خضع لفلان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾

ونلاحظ أن الحق أوضح في الآية السابقة : إن الله هو الولي ، وهنا تكون أنت أيها العبد المؤمن من الذين يتولاهم الله ، تماماً مثل قوله : (يحبهم ويحبونه) .



وحين يكون الله في معرفتك فهو يعطيك من قدرته غير المحدودة فكيف تتولى أنت الله ؟ ويكون القول الخامس في هذا الأمر هو قول الحق :

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة صد)

والحق في الآية التي نحن بصددها جاء بالمقابل لا جاء في الآية السابقة عليها فهو القائل من قبل : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) .

وفي هذه الآية يأتي بالمقابل ليقول سبحانه :

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١)

(سورة المائدة)

هذه المقابلة توضح لنا كيف ينصر الله العبد ، وكيف يتنصر العبد لله . ولم يقل سبحانه في وصف من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا : إنيهم الغالبون فقط ، ولكنه أورد هذه الغلبة في معنى هام فقال : « فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » .

وكلمة «حزب» معناها : جماعة التي يعضهم مع بعض على صيغ يرون فيه الخير . ولا يمكن أن يجتمع قوم بقوة كل فرد فيهم بفكر كل فرد منهم إلا إذا كان هذا الأمر هو خيراً اجتماعاً عليه ، إذن فحزب الله في أي وضع وفي أي تكوين ولأية غاية هو الحزب الغالب . وعلى المستوى الفردي نجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فقم إلى الصلاة» (١) .

فما معنى حزبه هنا ؟ معناه أمر اتعبه وأرهقه وفكر فيه كثيراً . وبذلك يعلمنا رسول الله ألا نقصر رؤيتنا على رأينا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله . فهزم الأمر الذي يحزينا ولا نلجأ عليه بأن نقيم مع الله حزياً بالصلاة .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله المثل والقدوة نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحزبه أمر يتعلق بديهاته وإنما أمر يتعلق بمنهج الله وبالحسين ؛ لذلك

(١) روي أحمد وأبو داود عن أبيه .

يذهب رسول الله إلى من يعطيه ويعطى أهل الإيمان كل الطاعة . إنه يذهب إلى الصلاة . ويعلن أن أسبابه قد انتهت ولم يعد يقوى على تحمل هذا الأمر الذي خزيه ، ولأن الله لا يغلب شيء ، لذلك فسبحانه يرفع الهم عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويغلب كل أمر صعب . وإن خزينا هذا الأمر في نفوسنا فسنجد العجب .

إذن فحين تمر الأسباب على المؤمن في أمر ما ويكون قد أعطى كل جهده وما زال هذا الأمر يحزب المؤمن ويشتد عليه ويرهقه فعل المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ، ويصر الحق هذا الأمر للمؤمن بالخير . والمؤمن عندما يجزيه أمر ما إنما يذهب بالصلاة إلى المسبب وهو الله ، لكن على المسلم ألا يذهب إلى الله إلا بعد أن يستمد كل الأسباب ، فالأسباب إنما هي يد الله الممدودة ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد الله ويطلب ذات الله ، فإن انتهى الأحذ بالأسباب فليذهب إلى المسبب :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَمْطُرُ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ

مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾

(سورة النمل)

وسبحانه الذي يجيب المضطر وهو الذي يكشف سوء وهو الذي جعل البشر خلقاء في الأرض ، وسبحانه لا شريك له في ملكه ، وهو القائل :

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الْعِجَبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

يَبْعَثُونَ ﴿١٧﴾

(سورة النمل)

وإذا قال قائل : ولكني أدمر الله ولا يستجيب لي . ونقول : أنت لم تدع دعوة المضطر ؛ لأنك لم تستمد الأسباب . وعليك أن تستمد الأسباب كلها . فإن استفدت الأسباب فخلق يجيبك ما دمت مضطراً .

إذن فحزب الله عندما يغلب إنما يعطينا قضية مكرونة من « إن المؤكدة واسمها وخبرها » وهذه قضية قرآنية وهي تختلف عن القضية الكونية التي تصف واقع الحياة . ويقول الحق :

﴿وَمَنْ يَتُوبْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَلْزَمْنَا لَهُ لُزُومًا﴾ (٥٣)

(سورة التوبة)

وسبحانه يعلم ما يكون في كونه ، ولن تختلف قضية القرآن عن قضية واقع الكون . وساعة نحمد قوماً تجمعوا وفي صورتهم الرسمية الشكلية أنهم رجال الله ، ولا يتخلون فعلينا أن نعرف أنهم خدعوا أنفسهم وخذعوا الناس بأنهم حزب الله وواقع الحال أنهم ليسوا كذلك ، لأنه سبحانه قال :

﴿وَإِنْ جُنَدَتَا لَهُمُ الْعَيْنُونَ﴾ (٥٤)

(سورة الصافات)

وهذه قضية قرآنية . ونأخذ الأمر دائماً بسؤال : هل غلبت أم لم تغلب ؟ فإن كنت قد غلبت فإن جنديتك لله صادقة . وإن لم تكن فانت تخدع نفسك بأنها جندية لله وهي ليست كذلك . ولما المثل الواضح من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين صحابته في موقعة أحد وأمر الرماة أن يقفوا موقفاً خاصاً ، فلما وجد الرماة استهلال نصر المؤمنين على الكافرين ، وأن الذين يحاربون أسفلهم يأخذون الغنائم ، ذهبوا هم أيضاً إلى الغنائم وخالفوا أمر الرسول حينما قال لهم : « إذا رأيتمونا نخطأ الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا فرمنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » (١) .

فلما خالفوا أمر رسول الله أكانوا جُنوداً لله بحق ؟ لا ، بل اختلت جنديتهم لله . ولم يمنع وجود رسول الله فيهم سنة الله الإيمانية في كونه ألا تقع ، ولو ظنوا متصربين على الرغم من أنهم خالفوا الرسول لأن أمر رسول الله في نظرهم ؛ لذلك أراد الحق أن يوقع بهم ألم الهزيمة المؤقتة من أجل أن يتأدبوا ، وحتى يعضوا على أمر سيدهم وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتواجد . وقد أورد الحق ذلك الأمر ورسول الله فيهم من أجل مصلحة الإسلام ، فلو نصرهم على الرغم من مخالفتهم لرسول الله لجرأهم ذلك على أن يخالفوا .

يقول الحق بعد ذلك :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا
وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

والمزوء هو السخرية والسكوت . ومزء أهل الكتاب من أهل الحق لون من
الانفعال العكسي . فساحة يرى بعض من أهل الباطل واحدا ملتزما يصلى ، لا يخلق
في النساء قد يصفونه بصفات غير لائقة ، لأنهم لا يستقبلون التزامه إلا بون من
السخرية ، وحتى لا يفهم أنه غير منهم ، وقد يضلونه فيتبعهم .

ولغرض أن ثلاثة من الشباب جمعت بينهم الصداقة ثم انحرف منهم اثنان والتمز
واحد منهم . وكان لأحد المنحرفين أخت فيطلب ربه المنحرف يد هذه الأخت ،
ويأتى له المصائب الذي لم ينحرف ليطلب الأخت نفسها ، هنا نجد الأخ لا يوافق
على زواج أخته بالمنحرف ، بل يوافق على زواجها من الذي لم ينحرف ، لأنه لن
يخدع نفسه . وعندما يعاتبه المنحرف فهو يرد عليه : وهل أستمكت على أختي ؟ أنا
أعرفك حق المعرفة .

وهكذا نرى أن القيم هي القيم . وعندما يكون هناك إنسان على حق ويلتصق
بإناس على باطل نجدهم لا يتركونه وشأنه ، ولأنهم لن يستطيعوا أن يكونوا مثله
فلا أقل من أن يهزأوا منه حتى يحفظوا لأنفسهم بفسادهم . وعندما ننظر إلى العادات
المضادة التي تنتشر ، مثل شتم الميرورين أو تدخين المخدرات نجد أن الذي وقع في
مصيدة هذه المصائب يريد أن يمر غيره إلى مثل هذا المستنقع ونجد في القرآن
ما يقوله لنا خالق الطباع والعلم بها :

إِنَّ الَّذِينَ أُبْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة النازعات)

مثل قول أهل الباطل للمؤمن : احملنا إلى الجنة على جناحك . أو : أتريد أن تكون ولياً .

﴿ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النازعات)

ويرجع الواحد منهم إلى أهله ليحكى بسرود : لقد قابلنا إنساناً غارقاً في الإيمان وسخرنا منه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَفِيفِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة النازعات)

بل قد نجد أن أهل الإضلال ينهمون المؤمن بأنه على ضلال ، فإذا يكون العقاب يوم الحشر ؟

﴿ قَالَهُمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٦﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٧﴾ هَلْ نُؤَيَّبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة النازعات)

وكان الحق يسأل للمؤمنين : ألم أرسل لكم حنكهم ؟ إذن فالذين يتحذرون الذين هُرُوا ولعباً . وادعوا للإيمان غافلاً . إليكم أن قاموا لهم .

ولقد حذرنا الحق بداية :

﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

(ص الآية ٥١ سورة المائدة)

وهنا أمر بعدم اتخاذ الذين يتخذون الدين ملة للهؤلاء أولياء ، وعلى المؤمنين البهظة

والخبر : لأن الحق يقول : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » فإن كنتم مؤمنين حقاً فعليكم الأخذ بيقظة الإيمان ، عليكم ألا تقولوا لليهود والنصارى وكذلك من يتمسح في الإيمان ظاهراً ويريد الانتفاع بهرايا الإسلام ليأخذ حقوقه الظاهرية وقلبه مع غير المؤمنين . وتقوى الله تبدأ من أن ينفذ المزمع المنهج ، ويحاول أن يستقي للمنتفع مناعة اقتداره أمام خصومه بالأخذ بالمتبع المؤمن في حماية المنهج من لا يؤمن من اليهود والنصارى والكافرين والمخالفين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

والنداء هو دعوة بجهر . ومقابل النداء المناجاة . وثبتت هذه الآية أن الأذان مشروع بالقرآن ، وفي ذلك رد على الذين يقولون : إن الأذان قد شرع بالسنة . أو أن القرآن بيّن هذه الآية قد أقر تشريع الأذان .

« وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » ذلك أنهم كانوا يقولون عن الأذان : لقد صاحوا صياح الحمير . ووصفهم الحق بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » والعقل - كما نعلم - هو الأداة التي تؤدي مهمة الاختيار ما بين البدائل ، أي أن يختار الصالح من الأمور فيدرس مزايا كل أمر ومضاره ويختار الأمر الربح .

إن الحمير هو الذي يدفع العقل إلى أن يختار أمراً مخالفاً . فيجنى بالعقل إلى الضلال . وآفة الرأي الحمير . ولا يميل الإنسان عن جادة الصواب إلا إذا أراد أن يخدم هواه . ولذلك لا بد أن يكبح المؤمن جماح هواه بعقله ، والعقل مأخوذ من عقل البعير ، فصاحب الجمل يقيده ساقه بقطعة من الحبل حتى لا يجمع ويحتاج الإنسان إلى العقل ليكبح جماح الحمير ، ولينقل الإنسان من الضلال لا أن يبرد

الموى . والذين يبرهنون العقل محرراً من الفكر نقول لهم : انتم لا تفهمون معنى كلمة العقل . لقد جاءت كلمة العقل لمنع الموى لا ليجترى به الإنسان جهواه على رايه وسلوكه المستقيم ، والعقل هو الذى يمنع الفكر من أن يكون مبرراً للموى .

فلو كانوا يعقلون لفكنا لهم : إن الأهل الى تباحون بها عمر ففهموا مظلون وقد تضعكم في دنياكم ، وعمر الدنيا لا يستطيع أحد أن يحده بالنسبة لنفسه ، فدنيا الفرد قد لا تزيد على مائة سنة . ودنيا الإنسان هو عمره فيها . وقد ستر الله سب الموت وكيفية من الخلق حتى يعرف الإنسان أن عمره مظلون وقد يتهم قبل أن تطرف عنه . ولو كانوا يعقلون لما باحوا أخوتهم بدينهم . ولو عقلوا لأداروا مسألة البدائل في رموسهم ولعلموا أنهم يبرقون هذا من قضية الإيمان والإسلام إنما يفتنون موقفاً خاسراً ليس في مصلحتهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِثْلَ مَا لَا أَنْءَامَنَا بِاللَّهِ
وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ قَسِيفُونَ ﴾

وه قُلْ ، هي خطاب لرسول الله صل الله عليه وسلم . وحين يخاطب الحق الرسول ، فالخطاب أيضاً لأمة صل الله عليه وسلم ، فتقول نحن أيضاً :

﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِثْلَ مَا لَا أَنْءَامَنَا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ قَسِيفُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النحل)

و نَقَمَ يَنْقِمُ ، أى كره حتى أن أفعل هذا ، فلهذا تكلمون إيماننا بما أهل الكتاب ؟ هل الإيمان بما يكره ؟ وجاء الحق هذا بسؤال لا يتبدون على الإجابة عنه ، فمن آمن بالله وبرسوله وما أنزله علينا وما أنزل من قبل ، فما الذى يكره في هذا ؟ وأبلغ سيدنا

محمد صل الله عليه وسلم اليهود أننا تؤمن بالله وبالرسل ومنهم صلبنا هبى
ابن مريم عليه السلام ، فغضبوا منه كثيراً . فكيف يكره أهل الكتاب إيمان المسلمين
بالله ؟

مثل ذلك عندما يدعوك إنسان إلى تصرف غير مستقيم أو إلى الذهاب إلى مكان
مشبه فترفض ذلك فيكرهك هذا الإنسان ، فنقول له : أتكبره في سلوكي أن أكون
مستقيماً ؟ ونعلم أن الإنسان الأمين هو ثروة لمن يعرفه والذي يستحق التقية
والكرامية هو العمل الصالح ، أما الإيمان بالله فهو أمر محبوب لأنه يعلم الإنسان
الادب مع كل خلق الله ، ويعلم الإنسان الحفاظ على أعراض الناس ، ويعلم
الإنسان ألا يعتدى على أموال وعناء الناس ولا يفتنب الناس ، ولا يرتشى ، وإن
يخلص في العمل ولا يكلب في مهاد ، فأى شيء في هذا يستحق الكراهية ؟

إذن ، فمن يكره إنساناً لأى سبب من هذا فهو كره بلا منطق ، وكان من الواجب
أن يكون سبب الكره سبباً للمحبة . وقد يأتي من يقول لك : ليس في فلان من
حبيب إلا كذا .

وقد يورد سبباً معقولاً . ولكن لا يقول أحد أبداً : لا عيب في فلان إلا أنه
شهم ، لأن الشهامة لا يمكن أن تكون عيباً ، كأن القاتل قد أحمل ذمته حتى
يكتشف عيباً ، لم يجد إلا صفة رائجة ، وقال عنها : إن كنت تعتبر هذه الصفة عيباً
فهذا هو عيبه . ويسمون ذلك من أساليب الاداء الأتني عند العرب وهو تأكيد
المدح بما يشبه الذم ، فيقول قاتل . لا عيب في فلان إلا كذا . وساعة يسمع
السامع هذا يظن أن العيب الذي سيورده هو صفة قبيحة فيضاجأ بأنها خصلة جميلة .
وبذلك يؤكد القاتل المدح بما يشبه الذم : « قل يا أهل الكتاب هل تنصرون منا إلا أن
أما بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » .

أنتم تقولون : إنكم أهل كتاب وعندكم التوراة ، وكان يجب أن تعلموا كيف
يشذب الإيمان النفوس ويدفع عنها الشر ، لأن لكم سابقة في الإيمان ، فقد آمنتم
بالله وبالرسل السابقين على موسى وآمنتم بموسى ، وللمسلمون آمنوا بالله وآمنوا بما
أنزل إليهم وآمنوا بالرسل ومنهم موسى وهبى ومحمد صل الله عليهم وسلم فكيف
يكره ذلك ؟

وإن كان هذا مما يكره فعلينا كمؤمنين أن نسألكم : لماذا تنكرون علينا ذلك ؟
لاشك أنكم تنكرون علينا إيماننا بالله لأنها قضية غير واضحة في أذهانكم ولو كانت
واضحة في أذهانكم ما كرهتم إيماننا . إذن فمسألة الإيمان بالله غير مستقرة في
وجدانكم كأهل كتاب بدليل أنكم تكرهون من آمن بالله ، ودليل ذلك أنكم أنزلتم
الله منزلة لا تليق بكماله ، فجسمتموه وقلتم :

﴿ حَقَّ رَأْيَ اللَّهِ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلتم :

﴿ لَدَّ اللَّهُ قَبِيرٌ وَتَحْنُ أَهْبَاءٌ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وقلتم .

﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

إذن فأنتم تكرهون لنا أن نؤمن بالله إيماناً يليق بكمال الله ، لأنكم لم تؤمنوا بالله
صحيح الإيمان ، ولو طابق إيماننا إيمانكم ما كرهتمونا . وكذلك لم تؤمنوا بالكتب
بدليل أنكم حرقتوها . ولم تؤمنوا بالرسول لأنكم وقفتم من موسى عليه السلام هذه
المواقف . إذن فأنتم تنظفون منا وتكرهون أموراً لا نكره عند الطبع السليم ، وهذا
مذلل على أن طبعكم هو المختل . وإذا كنتم تكرهون هذا الإيمان لماذا تملكون لمن
تكرهون ؟ لا قوة لكم لضعلوا لنا أي شيء . ولكن حين يكرهكم الله لماذا يفعل
بكم ؟ إنكم حين تكرهوننا لا تملكون قدرة لعقابنا ، لكن الذي يكرهكم هو الله
وهذه القدرة المقتدرة ليستقم لنا منكم .

إذن فكراهيتكم لنا لا قيمة لها . وإذا كنا نجلبكم ، والمجازاة لون من جدال
الخصوم فإذا يعنيكم من كوننا مؤمنين ؟

مثال ذلك أن يتهمك إنسان بأنك بخيل فتقول له : هب أتني بخيل فعلاً لماذا
يعنيك من هذا ؟ وهذا ما نسميه مجازاة الخصوم ، لذلك نقول لأهل الكتاب : هب
أن لكراهيتكم لنا رصيداً وأنكم تستطيعون إلحاقنا ، فلكم شر من هذا وهو عقاب

الله ، ومنرى ماذا سيحدث لكم عندما يكرهكم الله . وهو قادر على كل شيء .
وحل فرض أن يهزمكم لنا هو شر ، فالأكثر فاعلية هو عقاب الحق لكم ؛ لأنه عندما
يكرهكم يقتل أن يعاقبكم بما شاء . إذن فالصفحة - صفحة كراهيتكم لنا - خاسرة من
ناحيتمكم .

ولذلك قال الحق :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ
اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَمَلَ مِنْهُمْ الْفُرْدَةَ وَالْمُنَازِرَةَ وَجَعَلَ
الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرًّا مَّكَانًا وَأَضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٦٠)

فإن سلتم جدلاً أنكم يا أهل الكتاب تعتبرون كيدكم لنا سيدينا بشر . هل
الرخم من أنكم لا تملكون أن تجازونا بشيء . وبها هوذا الحق يخبركم على لسان رسوله
بالأكثر شراً من هذا ، وهي العقوبة التي يصنعها الله لكم وهو قادر على إنزالها بكم
وهي الأكثر ضرراً . وهذا لون - كما قلنا - من عبارة الخصم . وعلمنا الله ذلك على
لسان رسوله فيقول لخصومه :

﴿ وَإِنَّا لَوَإِذَا كُنَّا لِلْهِدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة مائدة)

والرسول على الهدى بالقطع وخصومه على ضلال بالنقطع ، ولكن رسول الله
يسلم الأمر طالبا من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التي يدعو إليها
الإسلام . وسيجدون أن قيم الإسلام هي الهدى وأهم على ضلال . وتعلم أن
الهدى والضلال لا يجتمعان ، فمن كمسلمين على هدى ، وأنتم على ضلال .
وسيلة التمييز أن يحكم الإنسان عقله في المسألة ، وبذلك يرى من الذي على هدى
ومن الذي على ضلال . فانت لا تناش الخصم في أصل الدعوى ، ولكن سلم



ومثال ذلك - كما قلنا من قبل - المسجون الذي يطلب كوب ماء فيأتي له الحارس بكوب الماء ويقربه من فمه ثم يسكب كوب الماء على الأرض ، هذه العملية زُرعت في نفس السجين الأمل في الحصول أولاً ، ثم يكون سكب الماء على الأرض سبباً في التخليب والإيمان له ، لكن لو رفض الحارس أولاً تقديم الماء لعاش السجين في اليأس وهو إحدى الراسيتين .

ونرى ذلك أيضاً فحين ينتظر حكماً قد يكون إعداماً وقد يكون برائة ، ونكون فترة الانتظار هي المليئة بالقلق . وعندما يصرخون المنتظر في الميران يحدون وزنة في انخفاض . وبعد الحكم بإعدامه يبدأ وزنه في الزيادة . لأن اليأس إحدى الراسيتين . إذن فانقباض النفس وبعده القبض بعدها هو الأمر الأتكى والأشد قسوة على النفس ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَيَبْشِرُهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

هذه البشارة تأتي بالانقباض للنفس وتتلوها الانقباض ، ومثل قول الحق :

﴿ وَإِنْ يَسْتَفِيتُوا يَغَاثُوا يَمَآءَ وَكَأَنَّهُمْ يَشْرَوْنَ الرَّجْوَةَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة التكليف)

أي أنه قد وقع عليهم لون من العذاب يستدعي الإغاثة ، ومن بعد ذلك يغاثوا لا بما ينقلهم ولكن بما يزيد عذابهم .

وساعة يسمعون « يغاثوا » تخرج أساريهم وتسكن وتعلمن نفوسهم ، وبعد ذلك يحدث الانقباض بسماهم : « جاء كأنهل يشوي الرجوة » ، إذن فكلمة « مشوية » تأتي لهم شيء من الانقباض يتلوها العذاب .

هذا وإن أفعل التفضيل يأتي على صورة « أفعل » ، « أكرم » ، « أجود » ، « أشجع » فهذا لون من زيادة الصفة في طرف عنها في الطرف الآخر . اللهم إلا كلمات قليلة جاءت في اللغة على غير صيغة التفضيل منها كلمة « خير » وكلمة « شر » فلم تلك عنها كلمة « أخير » بمعنى أكثر خيراً . ولا كلمة أشد بمعنى أكثر شراً ، ومرة تأتي كلمة « غير » ويقابلها الخير الأقل . والذي يميز المعنى هو وجود كلمة

لماذا إذن يكون مصير هؤلاء إلى شر ؟ لأنهم كرهوا سلوك المؤمنين ولم يستطيعوا أن ينفسوا عن القول الذي في صدورهم بمقربة المؤمنين . ولكن الله يكرههم ويملك لهم العقوبة ويكون مصيرهم هو المصير الذي يوضحه الحق في قوله : « لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » واللغة هي الطرد من الرحمة . والطرد من الرحمة يعني حرمانهم من الخير .

ومثال ذلك - وهه المثل الأعلى - عندما يكون هناك خادم في خدمة إنسان ما وهو يسكن ويأكل ويلبس على حساب السيد ، فإذا لم يؤد هذا الخادم حقوق الخدمة على وجهها المطلوب ، لا يرضى عنه سيده ، ويطرده من الخدمة ، وحين يطرده الإنسان غاضبه فهو يحل للناس أن هذا الخادم لم يؤد حق الخدمة ، فلا يستغفمه أحد بعد ذلك . وهذا هو الغضب . وبهذا نعرف الفرق بين أن يطرده من الرحمة فقط ولا يغضب ذلك شيء ، أو أن يستمر الغضب بالإعلان عن السبب في الإخراج من الرحمة ، فهذا معناه أن الله بعد أن طردهم بلاحتهم بغضبه وسخطه وأن لعنه لهم لا ينفك عنهم .

والله سبحانه وتعالى يعلم لأهل الكتاب : إن طردى لكم من رحمتي وتواصل غضبي عليكم هو شر عظيم . وغضب الله - كما نعلم - يترتب عليه أنباء في كل حركة من حركات حياتهم ، إنه يمنع الهدى أن يخط إلى قلوبهم ، بأن يختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر . أو أن يجعل منهم القردة والخنازير . وإن تساءلنا : كيف يكون نسلهم ؟ نعرف أن الذي يخس لا يتناسل ، إنه يخس إلى أن يرى مسخاً ثم يؤخذ إلى الموت .

وهل هم الذين اعتدوا في السبت أو الذين عبدوا العجل أو الذين كفروا بعد نزول مائدة موسى ؟ إنهم كل هؤلاء . أو أنهم قردة ، أي في خصال القردة ، كالطيش وخفة الحركة وانكشاف العورة ، أو طبايعهم وخصالهم كالخنازير ، فهؤلاء لهم عيب وتتن وزخم كزخم الخنزير . وأهم ميزة في الخنزير أنه لا يفار عن أنته . وهذه موجدة فيهم . وخسنت فيهم عادة تشغل بناتهم في الدعاوة وغير ذلك من أهوال الباطل .

ومكنا نفهم قوله الحق : « وجعل منهم الفرقة والختازير » إما على أساس أنه
 المسخ الحقيقي . والمسوخ الحقيقي لا يظل متماثلاً محسوكاً وإنما يكون المسوخ لزمن
 محدود يراه الناس محسوكاً ثم يموت وينتهي ، وإما أن نفهمها على أن سلوكهم كسلوك
 الفرقة والختازير .

ويتابع الحق : « وعبد الطاغوت » والعبادة إنما هي طاعة العابد للمعبود فيها أمر به
 وفيها نهي عنه . والطواغيت هم الذين يزينون لهم الشر والفتن وأكل السحت
 والإثم . ويكون مصيرهم هو قوله الحق : « أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء
 السبيل » وهذا هو الواقع الذي يعيشون فيه وهو شر كله ، وهم لا يفكرون في السير
 في الطريق السليم .

وعندما نقرأ قول الحق كاملاً في هذه الآية :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثْوً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَحِضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ
 مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخِثَارِ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلَّ عَنْ سَوَاءِ

السَّبِيلِ ① ﴾

(سورة المائدة)

نعرف أنهم في حالة خفة من مسار الهدى الموصل للحق ، لأن « سواء السبيل »
 هو الأمر المستوي الموصل للعلية . وكانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين
 الجبال ، وكانوا يختارون السير في وسط الطريق حتى لا يضلوا من جرف هابط من
 الرمال فيقع بهم أو أن تقع عليهم صخرة من جبل .

ولذلك قال الحق :

﴿ قَالَ فَأَيُّ مَنِئِهِمْ إِيَّيَّ كَانَ فِي قُرَيْشٍ ② يَقُولُ أُوْءَلَكِ الْكَافِرِينَ ③ أَوْ قَاتِلَا
 وَكُنَّا تَرَاهَا وَحِطَّةً أَوْ نَالِيَدِينُونَ ④ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ⑤ فَأَطْلَعِ قَرَاءَهُ

فِي سَوَاءِ الْجَبِينِ ⑥ ﴾

(سورة الصافات)

أي أنه في وسط الجحيم . ويقول الحق بعد ذلك عن الذين غضب عليهم :

﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ خَلَوْنَا بِالْكَفْرِ وَهُمْ
قَدْ خَرَجُوا يَوْمَئِذٍ مَوَّالِينَ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ (١١)

وهؤلاء هم الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً وسخرية . وهم سادة يدخلون على المؤمنين يدخلون معهم الكفر . وعندما جلسوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا أيضاً بالكفر . أي أن الكفر قد لازمهم داخلين وخارجين . وكان جلوسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزدتهم أي قوة . وكان من الممكن أن يدخل إنسان على مجلسه صلى الله عليه وسلم ، وهو كافر ، وبعد ذلك تحسنه العناية الهداية فيخرج مؤمناً .

ومثال ذلك : فضالة بن حمير الليثي الذي جاء ليعتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفتح . وعندما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضالة قال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ فقال : لا شيء ، كنت أدكر الله عز وجل . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أمتفغر الله لك . ووضع يده عليه السلام على صدر فضالة . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلى منه (١٢) .

لقد مسته العناية ، فقد دخل - أولاً - بكفره وخرج - ثانياً - بيمين الإيمان . لكن هؤلاء دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر ، كان الدخول كان نفاقاً ، بدليل قوله الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » وهذا القول دليل نفاقهم ، فقد أعلنوا الإيمان لكنهم دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر . وكانوا يكتمون أن الدخول إلى رسول الله هو محض نفاق . وهذه خاصية لمن قالوا آمنا ، ولكن كان دخولهم إلى الإسلام نفاقاً ، لأن كفرهم أمر مستقر في قلوبهم لا يتزعزع ، وكان يكفي في الأسلوب أن يقول الحق :

(١٢) رواه ابن عبد البر في التمدد وابن حجر في الإصابة .

وقد دخلوا بالكفر وخرجوا به ، ولكنه قل : « وهم » وذلك تحديداً لهم
الكافرة ، فكان عملية الدخول بالكفر والخروج بالكفر هي عملية مسبقة ؛ لذلك
يكشفهم الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » .

وجاء سبحانه بأفضل التفضيل « أعلم » فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من
إشرقات الله عليه وتبريره له كان يعلم أيضاً أنهم منافقون . ولكن علم رسول الله
صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى علم الحق سبحانه وتعالى فعلم الله ذال وعلم رسوله فيحس
منه - سبحانه - .

إذن قوله الحق : « والله أعلم » لم يمنع أن هنالك أناساً قد علموا أنهم منافقون .
وقد استقر في ذهن النبي أنهم منافقون وأن الله أعلم بما كانوا يكتمون . والكنم هو
حس الإحساس النفس أن يخرج وأن يظهر واضحاً ، ومحاولة الكتم عملية غير
طبيعية لأنها سرية . ويكاد كفرهم أن يظهر ويخرج فيحاولون أن يكتموه لأنهم
يحرصون ألا ينكشفوا ، ولكن علم الله لا يخفى عليه خافية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

﴿ وَأَكْثِلُهُمُ الشُّعْثَةُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٦٢

والسارعة في الإثم تعني أنهم من بداية الأمر في الإثم ، ويسارعون فيه ، أي أنهم
كانوا على أولية الإثم ويمرون إلى آخرية الإثم ؛ فضلاً عن واضح من البداية ، وكان
عملتهم الكفر يفضحهم ، برغم محاولتهم كتمان ذلك . ويبدون أنفسهم مسارعين
إلى فعل الإثم ، أي أن عملهم يتبع إلى الكفر ، ويعلمهم الحق يضلون عن
الكتيان ، فتبدو منهم أشياء هي أكثر فصاحة من القول ، ذلك أن الإثم مراحل ؛
مرحلة قول ، ومرحلة فعل . والفعل أكثر فصاحاً من القول .

« وتري كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان » ويقول الحق : « كثيراً منهم »

صيفة لاحتمال أن يوجد الإيمان في قلب القليل منهم ، وذلك لشبهة أى إنسان يفكر في الإيمان . وهم أيضاً يسارعون في العلوان ، فلما كان الإثم هو الجرم على أى لون كان ، فالعلوان هو إثم يأخذ به إنسان حقاً لغيره ، مثال ذلك الإنسان الذى يعتقد ، إثمه لنفسه ولذلك يعانى من تضارب الملكات حتى يبدو وكأنه يأكل بعضه بعضاً .

إن الحق - كما نعلم - جريمة نفسية لم تعد الحد . ويقال عن الحق : إنه الجريمة التى تسبقها عقوبتها ، عكس أى جريمة أخرى ، فأى جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحد والحسد ، فتتأخر عقوبة الحد صاحبها من قبل أن يعتقد ، لأن الحد لا يعتقد إلا لأن قلبه ومشاعره تتمزق عندما يرى المحذور عليه في غير . ولذلك يقال في الأمر : « حسبك من الحسد أنه يفتن وقت سرورك » .

إذن فمن يرتكب إثماً في نفسه لا يتعدى أثر إثمه إلى غيره ، أما الذى يرتكب العلوان فهو ينقل حق إنسان إلى غيره . وهو قسبان ، هناك من يعتدى ليعطى حقاً لغيره حق . وهناك من يعتدى بالسكوت على الظالم ، فالظالم تملكه شهوة الظلم ، لكن من يرى الظالم وسكت ولا ينهيه فهذا علوان أيضاً ، لأن الظالم عنده حق نفسه ما يدفعه إلى أن يظلم ، أما الشاهد الذى يصمت فليس عنده في نفسه ما يدفعه إلى أن يسكت . فمن - إذن - الأكثر شراً ؟ إنه الذى يصمت عن تنبيه الظالم إلى أنه يظلم .

« ونرى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعلوان ، نلاحظ أن كلمة « سارع » مثل كلمة « ناس » تدل على أن هناك أناساً في سباق ، كأنهم يتسابقون على الإثم والعلوان ، كان الإثم والعلوان غاية منصوية في أفعالهم ، ومتفقة مع قلوبهم .

« وأكلهم السحت لبش ما كانوا يعملون » والسحت هو كل مال مصدره حرام ، سواء أكان رشوة أم ربا أم سرقة أم احتلاساً أم لحطفاً أم اختصافاً ، كل تلك الألوان وما أمثلها من السحت إنما أخذ الحق لغيره . وأخذ حق الغير له صور متعددة ، فإن أخذ أحد شخصه فذلك هو السرقة . وإن سارع إنسان لحطف شيء من بضاعة إنسان آخر فهذا هو الحطف . وإذا لحق به صاحب البضاعة والمحاذيا وتشاداً فهذا المجاذبة تخرج بالحطف إلى دائرة الحطب . وإن كان الإنسان أميناً على شيء وأخذه بهذا هو

الاختلاس ، وكل ذلك أكل مال بالسحت . وبش هذا اللون من العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ تَوَلَّوْا يَنْهَهُمُ الرَّبَّيُّوْنَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ
وَأَكْلِهِمُ السَّخْتِ لَئِنْ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ٦٢

والربانيون هم الذين يُنسبون إلى الرب في كل تصرفاتهم ، وكذلك الأحبار الذين يعرفون الدين ، ولا هؤلاء ولا أولئك يهون هؤلاء الناس من أهل الكتاب عن ارتكابهم الإثم وأكلهم السحت ، فكيف يُنسب هؤلاء الربانيون والأحبار أنفسهم - قلادة للضمير الديني دون أن يقوموا بواجبهم بوعظ الناس ؟ وفي هذا تأكيد على أن الربانيين والأحبار إنما يريدون فقط سلطة الهيمنة على الناس

والربانيون هم رؤساء النصارى والأحبار هم رؤساء اليهود . وكان من بين اليهود والنصارى . . تملكه شهوات أكل السحت والظلم وقول الإثم ، فلماذا لم يتحرك المنسوبون إلى الله للنهي عن ذلك وهم الذين انحلوا حظهم في الدنيا من أنهم منسوبون إلى حابة منهج الله من انحرافات البشر ؟ ألم يكن من واجبهم نهى الظالمين والأثمين عن الظلم والإثم ؟

إن الذي يظلم له شهرة في أن يتضح من الظلم ، أما أنتم أيها الربانيون والأحبار فلماذا لا تتحركون لوقف ذلك ؟ لاشك أنهم قد استلوا سروراً من هذا الإثم وذلك العنوان وأكل السحت ، ومبعث سرورهم أن الواحد من هؤلاء لو كان سلباً في تصرفاته وأحكامه لفلر على المنهج ، لكنه يقبل الانحراف ؛ لأن من مصلحته أن ينحرف فيه حتى لا يلومه أحد . وجاء الحق بعد لولا في أول هذه الآية تحضيضية أي يقصد بها الحث على الفعل . . أي كان يجب أن ينهاهم الربانيون والأحبار عن

أكل السحت وقول الإثم والميلوان . لم تجعل دقة الأداء القرآني - كما هو دائماً - في قوله الحق : « لبس ما كانوا يصنعون » .

ونذكر أن تدليل الآية السابقة قال فيه الحق عن سلوك العامة من أهل الكتاب : « لبس ما كانوا يعملون » ، إذن فالحق يفرق بين لبس عن صناعة ولبس عن عمل . ولبس الرمانيون والأخبار هو لبس الصناعة . ونعلم أن كل جراحة من جوارح الإنسان لها حدث خاص بها : فالعين حدثها أن ترى ، والأذن حدثها السمع ، واليد اللمس ومناولة الفعل ، والرجل تسمى ، واللسان جال عمله الكلام . والجوارح تنقسم إلى قسمين : اللسان وحدثه القول ، وبقية الجوارح أحداثها أفعال ، بل دليل أن الله يقول :

﴿ حَكِيمٌ مَّتَّعًا إِنَّهُ لَنِ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(سورة الصافات)
إذن فالقول مقابل الفعل . والقول عمل ، والفعل عمل . ومادام هناك قول وفعل من عامة أهل الكتاب في ذلك لطجال لذلك يقول الحق : « لبس ما كانوا يعملون » .

وقال عن الرمانيين والأخبار : « لبس ما كانوا يصنعون » لإيضاح الفرق بين من يعمل ومن يصنع ، فمن فُتق ثوبه وجاء بإبرة وخيط ليصلحه ، فهو خياط ، ولكن الذي يعترف ذلك هو « الخياط » ؛ فصاحب الحرفة هو من يأخذ وصنعها لأنه يجيدها ، أما الذي يمارسها مرة واحدة فلا يأخذ من الصنعة إلا بقدر ما يدل على أنه لم يتقنها .

وكان الرمانيون والأخبار قد اتخذوا أمر الدين والكهنة صناعة بتجريد كبير . وذلك هو الذي جعل السلطة التقنية في العالم كله تنقل من منيع السباه إلى منيع الأرض . وحينما نرجع إلى تاريخ القانون نجد أن الأصل في العنيتين كان من الكهنة الذين كانوا منسوين إلى الله وخبر السباه ، وهم الذين كانوا يحكمون بين الناس ، لكنهم أفسدوا ، وراى المجتمع أنهم يحكمون في قضية يحكمهم ، ثم في قضية مشابهة يحكمون بتقليد الحكم السابق ، وأنهم لو نشوا في سبيل ذلك ، وعلزوا بين الناس ، وعرف الناس أن الكهنة غير مأمورين على العدالة ، لذلك تركوا الكهنة وبدلوا يضعون



قوانين خاصة بهم بعينة عن حكم الكهنة . وهكذا انتقلت المسألة من تقنيات وحكم الكهنة إلى المجمع الذي لم يعد يتمسك بالذين بسبب انحرافات أحكام الكهنة عن العدل وأنهم باعوا الأحكام لصالح من يدفع أكثر ، أو يحكمون لصالح النفوذ . وهكذا صارت المسألة صناعة لهم . وبشت تلك الصناعة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا
بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ
كَيْدَهُمْ مِنْهُمْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفِقْنَا وَكُفِّرْنَا
بَيْنَهُمُ الْمَدُونَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا
لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

ونعرف أن اليد جلوحه حرة الحركة تتفعل يمناً وتتفعل شمالاً وتتفعل إلى أسفل وإلى أعلى ، ولها من الأصابع ما جعل الله لكل أصبع مع زميله مهمة . وليلاحظ كل منا أصابعه في أثناء أى عمل ، سجدتها تسجد وتتقلب بحركة لولبية منجمة لتزدي المهمة . وتختلف الأصابع بالمفاصل والعقل وحجم كل عقلة يختلف عن الأخرى ، لتزدي المهمة بانسجام . وساعة تعرف هذه الجلوحه من أدله مهمتها فانت بذلك تكون قد علمتها ، أى ربطتها من التصرف المطلوب منها .

ومعنى قوله : « يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » أى أن يد الله - والميلاد بالله - مشلوله الحركة .

وقد قالوا ذلك قبل ظهور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل زحف الإسلام عليهم ليهتفوا باطلهم . وحلت أن تفرغوا لصناعة آلات الحرب وبناء الحصون والزراعة ، وانشغلوا من الزراعة فغابت محاصيلهم وجاء وقت الحصاد فلم يجلبوا ، فقال « فتخاص » وهو واحد من اليهود : لماذا قبض الله يده هنا ؟ إن يد الله مغضوبة . ونلاحظ أن الذي قال ذلك هو شخص واحد ، ولكن الحق يقول هنا : « وقالت اليهود يد الله مغضوبة » . ومعنى ذلك أن « فتخاص » عندما قال ذلك سمعوه وسرّهم ما قال ، ووافقه عليها .

أو أنهم حينما شاعروا برسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الهجرة وقد آخى بين المهاجرين والأنصار ، وكانت حجر على المسلمين اللبالي دون طعام فيراهم اليهود فيشترون على تلك الحال ويقولون : إن يد الله مغضوبة عن محمد وآله .

أو أنهم قالوا : إن يد الله مغضوبة في الآخرة عن ههنا ، لأنه سبحانه أباماً مملوكة . والذي يبيع نفسه أن يجعل الله متعللاً لأحداث خلقه إنما يكفر بالله ، لأنه يتزل الله من مكانته . فإذا كانت يد الله مغضوبة ، فهذا الرباط والنزل واللعن يكون من خلق الله . وكيف يقدر خلق من خلق الله أن يربط يد الله ؟ لقد اجتروا على مقام الأكرهية وهذا من سوء الأدب ، تماماً كما قالوا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَبِيرٌ وَتَمَنُّ أُنْيَاءَ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وحينما قالوا : « يد الله مغضوبة » ورة الحق عليهم : « بل يدها مبسوطتان » وقال قبلها : « حلت أيديهم » فهل يدعو الحق عليهم ؟ طبعاً لا ، لأنه هو المصدر الذي يتجه إليه الخلق بالدعاء وهو القادر على كل الخلق . ولكن الحق حين روى ما قالوه إنما يتجه للعلن الإيماني الذي يستقبل كلامه أنه ساعة يجد وصفاً لا يناسب الله فعله أن يدفع هذا الكلام حتى قبل أن يرى الرد عليهم .

« وقالت اليهود يد الله مغضوبة حلت أيديهم » وهذا يعلمنا أننا إذا سمعنا وصفاً لا يليق فلا بد أن ننفضه ، لأن الحق لا يدعو على عبده ، لأن الدعاء هو أن يرفع حاجز طلبه إلى قادر لينفذ المطلوب له .

إذن فإن قالها الحق فهي إما أن تكون خيراً ، وإما تعليماً لنا ، فإذا كانت خيراً
نلاحظ أن الله كتب عليهم البخل ساعة قالوا هذا ومنذ لحظة هذا القول ، وإن كان
القصد هو تعليمنا ، فنحن نتعلم الأدب الإيماني ، ونرد أي وصف لا يليق بجلال
الله .

وهذه المسألة لها نظير ، فعندما علم الحق سبحانه وتعالى تشوق رسوله والمؤمنين أن
ينهبوا إلى المسجد الحرام ، قال لرسوله :
﴿ لَتَنفَذَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الفتح)

وهل هذا إخبار من الله ، أو هو تعليم لنا ؟ إنه تعليم لنا أن تفعل ذلك عندما
نشئ إلى فعل . وكذلك هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » لذلك علمنا سبحانه
أن نقول : « خلت أيديهم » مطلقاً علمنا أن نقول : « إن شاء الله » حتى ننسب كل
قدر لله . وقد حاول الفلاسفة أن ينسونا تقليد المشقة ، فقالوا : إن الله خلق
النواميس والأكوان وجعل لها قوانين تعمل في الكون . وهل زاول الحق سلطانه ساعة
خلق النواميس ثم ترك الأمور لذاتها ؟ لا ؛ لذلك جاء سبحانه بمعجزات تحرق
النواميس ليدلنا على أن النواميس لم تأخذ هي الكلمة للتصرف بل إن يد الله مازالت
في كونه ، فالنار - على سبيل المثال - التي تحرق بآتيها الأمر :
﴿ كُوفِيَ نَادَاً وَسَخَّماً ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأنعام)

والماء الذي يفرق بآتيه الأمر :

﴿ فَلَوْحًا مِّنَ السُّمُورِ إِنَّا فُجِّرْنَا بِهِ فَتَكَلَّمَ إِلَيْنَا فَنَلَّكَ نَكَلًا ۖ كُلٌّ لِّفِرْقٍ كَاطِرَةٍ عَظِيمٍ ۝٦٩﴾
(سورة الشعراء)

وقال :

﴿ فَأَضْرِبْ لَّهُمْ خَرَابًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دََّكَ وَلَا تُخْشَى ۝٧٠ فَأَتَيْنَهُمُ رَمَوزُ
بِجُودِهِ فَنَبَّيْنَهُمْ أَنَّ إِلَهُ مَقْصِيئِهِمْ ۝٧١﴾

(من الآية ٧٠ ، ٧١ سورة طه)

والمصا التي خلقت من خضن شجر جاف ، تتحول إلى أقمى ، أي تقلها كلها

إلى جنس آخر، من نباتية إلى حيوانية . هذا هو خرق التواضع .

ويقول الحق عن هؤلاء الذين ادعوا أن يد الله مغفولة . « غلبت أيديهم ولعنوا بما قالوا » أي أنهم طردوا من رحمة الله ، لأنهم هم الذين بشروا على أنفسهم وقالوا إن يد الله مغفولة ، وسببها قلنا أن يمنع عظامهم .

ويتابع سبحانه : « بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ، وهو يعطى من يريد ، وكلمة « اليد » في اللغة تطلق على الجارحة وتطلق على النعمة ، فيقول الرجل : إن نعلان على يد لا أنساها ، أي أنه قدّم جيلًا لا ينسى . واستعملت اليد بهذا المعنى لأن جميع التمارلات تكون باليد . وتطلق اليد ويراد بها الملكية فيقول سبحانه :

﴿ أَوْ يَغْفِرَ الَّذِي يَدِيهِ عَقْدَةُ الْيَسْكَاجِ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

أي الذي يملك أن يسكب المرأة ، هو الذي يغفر . وفي القتال نجد القول للحكيم :

﴿ قَتَلُوهُمْ يَدِيَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

أو تطلق اليد على من له ولاية في عمل من الأعمال ، لذلك نجد الحق قد قال :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

وآدم هو الخلق الأول وكلنا من بعده مخلوقون بالتناسل من الزوجية . وقد كرم الله الإنسان بأنه خلقه بيده ، وخلق كل شيء به كس . إذن : كلمة « اليد » تطلق على معاني متعددة . والرسول يقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدماهم وهم يد على من سواهم » (١) .

أي عندما تجتمع الأيدي تكون هي اليد القادرة . وعندما نفرا كلمة « يد الله » فهل نحصرها في نعمته أو ملكه ؟

(١) روى أحمد وأبو داود والبيهقي في السنن الكبرى والحاكم في المستدرک والمصنف الحنفى في كثر الرجال وابن كثير في التفسير .

﴿ تَبَرُّكَ إِلَهِىَ يَمِىهِ الْمَلَكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ① ﴾

(سورة الملك)

والله سبحانه وتعالى أعلم بذاقه لطيف عند الوصف ، نعم له يد ، وله يدان ،
ولهك أن تصور أن كل ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك ، لأن الأصل أن لك وجوداً
الآن ، والله وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك . حتى
لا تشبه ونقول : إن له يداً مثل أيدينا ، فلتل إن المراد باليد هو القدرة أو النعمة ،
والهدف الراقى هو تزيه الحق . وهناك من يقول : إن له يداً ولكن ليست كأيدينا
لأننا نأخذ كل ما يلى وصفاً له حل أنه ليس كمثله شيء ، والتأويل يمكن . مثلاً
يقول الحق : أنه قد صنع موسى من جنه .

ونأخذ أى مسألة تتعلق بوصف الله إما كما جلست ، بأن له يداً ولكن ليست
كالأيدي ، وله وجود لا كالوجود البشرى ، وله عين ليست كالعين ، ولكن كل
وصف له نأخذ في إطار ليس كمثله شيء . وإما أن نأخذ الوصف بالتأويل ،
ويراد بها النعمة ويراد بها القدرة . ويقول الحق : « بل يدها مبسوطتان » والمراد هنا
هو النعمة . ولم يكف سبحانه بأن يرد بأن له يداً واحدة تعطى . لا ، بل يرد بما
هو أقوى مما يمكن ، فهو يعطى بيده الاثنين ، وهو القائل :

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَهُ وَبَاطِنُهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة لقمان)

إنه يعطى الظاهر ويعطى الباطن . ولهك أن تقول تلك اليد اليمنى وتلك اليد
اليسرى ، لأن كلتا يدي الله يمين . « بل يدها مبسوطتان » فنفق كيف يشاء ، لى أنه
سبحانه لا يمكن أن يكون بخلًا ، حتى وإن منع الحق لذلك منع وعطاء وإتفاق ،
لأن الذى يعطى بنعمة ، قد يلجأ به الطغيان إلى بلاء وسوء مصير ، لذلك يقبض
سبحانه عن النعمة ليعطيه الأمن من أن ينصرف بالنعمة . ولذلك نجد القول الحق
في سورة النجم :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَنَّهُ وَهوَ غَرِيبٌ وَفَسَحٌ فَهَقُولُ رَبِّهِ أَكْرَمِينَ ⑤ وَأَمَّا

إِنَّا مَا ابْنَنَّهُ فَقَلْبَرُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَهَقُولُ رَبِّهِ أَهْنَيْنِ ⑥ ﴾

(سورة النجم)

ورد الحق بعد ذلك بقوله : (كلا)

ولا الإعطاء هنا للإكرام ، ولا المنع للإهانة . فكيف يكون الإعطاء دليل الإكرام وقد يعطيك الله ولا تؤدي حق النعمة ؟ وكيف يكون المنع دليل الإهانة وهو قد منعك من وسيلة انحراف ؟ إذن فهو قد أعطاك بالمنع - في بعض الأحيان - إنه قد أعطاك الأبقى وهو الهداية إذن فسمعه أيضاً عطء .

« بل يدها مسوطةتان يعني كيف يشاء » والناس تنظر دائماً إلى عطاء الله بعطاء الإيجاب ، ولا ينظر عطاء السلب أي المنع ، وهو أن يصرف عنك الحق مصرف سوء . وسق أن صرف مثل بالرجل الذي تحرق الخلال في مصدر ماله وينقى الله في عمله ويأخذ دحله ويدير حركة حياته في إطار هذا الدحل ، ويدعمه عند الرجل إلى منزله فيجد حرارة الاس مرتفعة قليلاً ، ولأن ماله حلال وذرات جسمه تعرف أن ماله حلال ؛ لذلك يستقبل الأمر بهدوء ويعرض الاس عن طيب في مستوصف خيرى بقروش قليلة . فيصف الطبيب دواء بقروش قليلة ويتم شفاء الابن

هذا الرجل يختلف حاله عن حال رجل حرأق بجاله من السمات ، وساعة يرى حررة امه قد رتقت نجد ماله يدور بين ألف خاطر سوء ، ويدور الرجل بابنه على الأطباء ولا يصدق طبيباً واحداً

الرجل الأول ررقه الله الاطمئنان بمنع هواجر الحذا من ماله وحواطره ، أما الرجل الثاني فهو يفتق أصعاف ما أكله من سمات . إذن « بل يدها مسوطةتان » أي أن هناك عطاء السلب والعطاء الذي يحبه الإنسان هو عطاء المال وهو عطاء يذهب إلى الغاية . أما المنع فهو يمنع الإنسان من ارتكاب أثم . وبعد ذلك يأخذ الإنسان نعيمه في الأجرة . ونحن نجد كثيراً من الناس تدعو ، ولكنهم لا يعلمون أن الله قد أعطى بالمنع

يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُمْ بِالتَّخْفِيرِ ۚ وَكَانَ الْإِنْسُ نَجْوَلاً ﴾

(سورة الإسراء)

لذلك يعطى الحق أحياناً أشياء يكون العبد قد ألح عليها ، وبعد ذلك يتبين الإنسان أنها شر ، كان الحق صاعقة مع الإنسان لفترة كان ذلك صيانة له .

« بل بداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » إذن فكيف إنفاق . وسبحانه ينفق كيف يشاء ، فلا يبخل أبداً حتى وإن منع ، فالمنع في موضعه لصحيح هو عين الإنفاق ، وهكذا يكون عطية الله عطية العمة ظاهرة كانت أو باطنة . إن أردت - ، اليد ، القدرة فيدا الله مبسوطتان بالثواب لقوم وبالعقاب لقوم آخرين ، وهو سبحانه وتعالى يعطى الحضرة النبي صلى الله عليه وسلم المنفعة الإيمانية ضد كل مشرد عليه ، أو ضد كل متآب ومسكر من الكافرين أو من أهل الكتاب

فكانه سبحانه وتعالى يوضح : وطن نفسك يا محمد ولتوطن أمتك نفسها على أن هؤلاء الكفرة لن يكتفوا بالقدر اليسير والقليل من الكراهية لك ، بل كلما جاءت لك نعمة بريادة الهدى من الله سبحانه وتعالى ، وسيزداد ثودهم وحقدهم عليك ، فوطن نفسك على ذلك . وفي هذا ما يعطى منة إيمانية ، يسد كل مسدد وسوء النعمس ويجعل النعمس على استعداد لاستقبال ما يحدث حتى ولو كان من المكارة

ولتقرب هذا الأمر من الدهن . لا تشبيهاً ولكن لمجرد تعريب الأمر من الدهن - والله المثل الأعلى - لسطر إلى ما حدث في أوروبا في أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت إنجلترا تخاص الحرب ضد النازية ، وكانت الأحوال تنساقط من الطائرات على المدن الإنجليزية . وجاء تشرشل ليفود الحرب فقال للإنجليز . إن الهول والصعاب هي التي تنتظركم فوطوا أنفسكم على مواجهة الشدائد .

وإذا كان هذا قد حدث في حرب بين شعبين ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وهو يعلم ضرورة التشجيع لآمنه التي تحصل راية المنهج الكامل للهداية . كان لابد إذن من أن يوطن نفس رسوله وتموس المؤمنين معه على مواجهة الحسد والبعض والمخذ والمكر والتبیت

ويقول الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقيا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » . ولا يأتي قول الحق : « بينهم » إلا إذا كان هناك طائفتان ، والمقصود إما الطوائف اليهودية فيها وبينها ، وإما طوائف النصرانية فيها ، أو بين اليهودية والنصرانية ، خصوصاً أن هذه الآيات مستهلة بقوله الحق : « يا أهل الكتاب » . فإذا كانت لليهود والعداوة والبغضاء قائمة بين طوائفهم بعضها مع بعضها الآخر وإذا كانت للنصارى والعداوة والبغضاء حاصلان فيما بين طوائفهم ، وإن كانت بين اليهود كقسم وبين النصارى كقسم فهي مسألة ممكنة . وهذه العداوة والبغضاء لا تنتهي أبداً بل هي قائمة بينهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق : « كلوا أوقدوا ناراً للحرب أطعماها الله » وهذا خبر عما وقع في حوض الإسلام ، ومثال ذلك خروج « بنو قينقاع » على العهد بعد أن جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق بني قينقاع وقال لهم :

« يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً » (١) .

فرفضوا وقالوا : يا محمد لا يفرتك من نفسك أن قلت نمرًا من قريش كانوا أغلراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لورقاتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك لم تلق مثلاً . فترل بهم قول الحق :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُونَ وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١١ ﴾

(سورة آل عمران)

فكان « بنو قينقاع » أول اليهود الذين نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيها بين موقعي بدر وأحد .

وكان سبب ذلك أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها - بضاعة - لبيعها في سوق « بنو قينقاع » ، فجلست إلى صائغ يهودي بالسوق ، وحاول اليهود إجبارها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، وهي

(١) رواد ابن إسحاق وابن كثير في التفسير

لا تشعر به ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها فصاحت المرأة . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشهدت اليهود عن المسلم فقتلوه ، وحدثت بذلك الفتنة ، لكن الله أظلم أعمى وأجل « بنى قينقاع » ، ثم « بنى النضير » وكان لهم - قبل ذلك - التجمع القوي في المدينة بالزراء والعلم . وقاتل المسلمون « بنى قريظة » وأحلوا أهل نضير ، وتملك واستولى المسلمون على وادي القرى . حدث هذا في حرض الإسلام فماذا حدث في غير حرض الإسلام ؟

لقد رأيناهم أيام المجوس وقد أهلكتهم بختنصر ، وكذلك تينوس الرومان . ورأيناهم مقطعين في الأرض في كل زمان ومكان . وقد يقول قائل . إذا كان الحق قد قال : « كلما أوفدوا باراً للحرب أطعها الله » فلماذا لا تنطفيء الحرب الخالية ببسا وبينهم ؟ ويقول . إن الذي يطفئ نيران الحرب لا بد أن يكون من جنود الله وعندما يصبح جنوداً لله علسوف تنطفئ هذه الحرب .

والثال القريب ما هو انتصارنا في العاشر من رمضان . لقد كان انتصارنا بالعمل تحت راية « الله أكبر » وقد جرى الله بالخير الصباط والجنود الذين كانوا يعلمون أن المتاد في جانب العدو كان أكبر من عتادنا ، لكن النتيجة كانت في صالحنا لأننا دخلناها تحت ظل « الله أكبر »

أما الذين ادعوا أنه انتصار حضاري فنقول . عن أي حضارة نتحدثون ؟ والإسلام هو تبع الحضارة المتوازنة ، وليس الادعاء بالحصارة هو الخروج عن مهب الله . إنا إن ثبنا على مبدأ « الله أكبر » لا كشعار ولكن كتطبيق لأطفا الله نيران أي حرب

وبترك سبحانه في كونه السنن التي تعطى التجارب الواقعية لمن يتشكك في الإيمان . ومثال ذلك ما حدث من محاولة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض المنافقين في غزوة أحد فكانت الهزيمة تلحق بهم . وفي غزوة حنين قالوا . لن نغلب اليوم من قلة ولذلك يقول سبحانه .

﴿ قَدْ نَصَّرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنْجِيتُمْ كَلْبًا ثُمَّ لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْعًا
وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِيْنَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وقد ترك الله هذه السنن الكونية ليلفت إلى غافل عن الدين أن الخصم ينال منه ؛
فالغفلة تؤدي إلى الانحراف ، والانحراف لا يمكن أن يؤدي إلى النصر . هكذا يحذر
الخلق معسكر الإيمان . أما معسكر الكفر فالخلق يريد له الدلة ، فبعطيه في بعض
اللحظات نصراً على المؤمنين في أوقات خفتهم ، وما أن يفتق المؤمنون من الغفلة
حتى تلقى ضربتهم لمعسكر الكفر . وثاني الضربة وقت أن يكون معسكر الكفر في علو
وخلو . ولنا في ليل الرمي الإيضاح .

يقول المثل : لا يقع مؤمن من عل حصينة ، والمقصود أن التواضع يحس
الإنسان من وهم العلو والكبر ؛ لأن الذي يقع هو الذي يتخيل أنه علا في الأرض
ولذلك يعميه الله عن الحرم ، ويأقن قوله :

﴿ وَلَيُبَيِّرَنَّ مَا عُلُوًّا تَبَيَّرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

أي أن يتم العصف بكل شيء . وأهل السياسة عندما يريدون أن يتزلوا
بخصومهم العطب يرفعون خصومهم ويهدون لهم في حبال الصبر والإمهال حتى يعلو
الخصم كثيراً ثم ينكشف ويظهر سوء سلوكه فقع أمام الناس . ولذلك نجد القرآن
صريحاً مطلق الصراحة في هذا المجال :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا يُوعَدُونَ أُولَئِكَ مَلَكُوتُكَ يَوْمَئِذٍ إِذَا تُرِجُوا فِيهَا أُولَئِكَ نَسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
بَعَثْنَا فِرَاقَهُمْ مُبِلِّسُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فسبحانه بعد قتلهم ليأخذوا وليئزوا وليترخوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد
ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شيء . وأمثله ذلك في الحياة كثيرة .
لقد رأينا الدول القوية تساعد خصومنا ، واتفق المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي
لسنوات على مساعدة الخصم ، وقلنا لهم : أنتم الآن في مقام : (فلما نسوا ما ذكروا

به) . وأنتم أيها المحصورون قد تنتقلون إلى مقام : (حق إذا فرحوا بما أوتوا) . وسوف تنتقلون من بعد ذلك إلى مقام : (أخذناهم بلف فإذا هم مبلسون) .

وقد حدث أن سقط الاتحاد السوفيتي بأكماله ، وأخذهم الله بنقطة يابدي الناس منهم ، وكثيراً ما تحدث الكوارث لمن يضطهد أهل الإيمان . إذن : فلا داعي لأن يفتر أحد بما وصل إليه .

ويقول الحق :

﴿ وَلَيَبْذُرَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفَيْنًا وَّكُفْرًا ۖ وَالْقَلِيلُ يَنْتَهُمُ الْعَذَابَ ۚ وَالْبِخْشَاءُ إِلَىٰ بَرَمٍ الْقَيْمَةِ ۚ كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا قَحْرِبَ لَطْفًا ۖ اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة لقطة)

وهم مكبوتون ذاتياً . ملحق لا يفتنهم من كل أهرائهم . لذلك : كون في الأرض فساداً بأساليب الاختفاء . ومن يقرأ : بروتوكولات صهيون ، يجد احتراقهم بأنهم أصحاب النظريات التي تقود إلى الأفكار الخاطئة كالمركزية والوجودية والدارونية وهي أمور مرتبة من نبل ليظهر أثرها الضار في الشعوب غير اليهودية . أما اليهود فقد حصنهم ضد هذه المبادئ الفاسدة ، هكذا أرادوا التثبيت ضد العالم ، وهكذا يكون سعيهم بالفساد بين الناس . وإذا نظرنا إلى الانحراف الحالي في الكون فإننا نجد لهم وراثة .

فالأسمالية الشرسة من اليهود . والشيعوية الشرسة من اليهود . وهؤلاء الذين يذهبون أنهم أنبياء من بعد رسول الله إنما يحدث لهم ذلك بفعل اليهود ، وكذلك الجمعيات التي تتخفى وراء أسماء « الماسونية والروتاري والليونز » ، كلها من اليهود . ومع ذلك تنتمت إلى قوم يقولون إنهم متحضرون ويفخرون بأنهم أعضاء في الروتاري ، ونسألهم : ماذا تفعلون في تلك الأندية ؟ . يقولون : نقيم بالأعمال الخيرية والخدمات . ونقول لهم : لماذا لا تفعلون أعمال الخير باسم الإسلام ؟ . وهل تظنون أن هناك خيراً يأس من خارج الإسلام ؟

ويكتشف الكون كل فترة من الزمن أن الفساد الذي فيه إنما هو بسبب هؤلاء الناس وبسبب مكائدهم ؛ لذلك يصيبهم الحق بالكورث كل فترة من الزمن ؛ لأنهم يسمون في الأرض بساد . وهذا السعي في الأرض بالفساد إنما يأخذ صوراً متعددة ، مرة يأخذ شكل النظريات العلمية ، ومرة يأخذ شكل التطرف في الأنظمة السياسية من رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة ، وكل ذلك تخريب لحياة الناس . والناس حين تخرب نظاماً فهي تقيس نجاحه أو فشله بمقدار ما يعود عليها من خير أو من شر .

لقد كانت روسيا - على سبيل المثال - تمد العالم بالقمح من سيبيريا . ولكنها الآن تشكو قلة الزراعة وتنتظر من يبيع لها القمح . وعلى الجانب الآخر يجد الرأسمالية الشرسة تطهير أبناء تلك البلدان في الحياة عبر للثوية باسم الحرية . وقد شهدت ألمانيا - مثلاً - قسمة عاصمتها القديمة « برلين » إلى قسمين ، ولكل قسم حياة ، وشهدت إعادة التوحيد لأرض ألمانيا بما يصاحبه من مشكلات جمة .

وقد نذهب بعض المجتمعات إلى أيدي أناس لهم شراسة أشد كاخرب الحاكم في كل دولة لا تتع منهاجاً متوارياً ، ونجد رجال هذا الحرب كهبة تأخذ الدعوة وتقيس الدعوة حتى لا يثمد عليهم أحد ، فمروق العادل في أيديهم ومصنع الرأسالي في أيديهم وهم يعيشون حياة الأمراء ولا يجرؤ أحد على أن يسألهم

ومثال ذلك أيضاً نظرية الوجودية التي تدعو كل إنسان ليثبت وجوده ، وصاحتها موجة من الإحلال اللا مسئول ، ذلك أنهم لم يفهموا إثبات الوجود على أساس أنه مسئولية العمل الصالح في الكون ، ولكن فهموا الأمر على أنه اطلاقى عزائز على ابرعم من أن المفترض في كل إنسان إذا أراد أن يمد يده ، فعلى يده أن تتوقف حيث يوجد أحد إنسان آخر . لكن هؤلاء الناس عاملوا الناس كأطفال ، تماماً كما يأتي الأب لأنه يلعب بها وشكى آلة تليفون ، يقدمها الأب لابنه ليستعمل طاقته فس أن يكون مكلماً ، ولكن الأب لا يسمح للابن أن يلعب بآلة التليفون الحقيقية ، وهؤلاء الناس يأخذون الكبار إلى اللعب واللهو حتى لا يتدخل الكبار في أمور الجد

ومثال ذلك لعبة كرة القدم ، إنهم ينفعون فيها بالطولة وينقلون قوايس أحد إلى اللعب . وهل المباراة بثلاث ساعات تخدم قوات الأمن قد سدت الطرق إلى الملعب

الذى يشهد الحضارة . ولو أخطأ الحكم خطأ نافعاً فإن الجمهور يثور ويصح . لكن عندما يحطىء الحكام واحكومات ألف خطأ فلا أحد يتكلم ، لماذا ؟ لأنكم نقلتم قوانين الحد إلى اللعب واللهو وتركتم الحد بلا قوانين

مثال آخر . نجد كل فاكهة أو محصول أو صناعة في لوجود يقيمون ها الاحتمالات ويتوجرون عليها منكة ، ملكة الكروم ، ملكة القمح ، ملكة الأرياء ، وكل ذلك من أجل إبراز مفاتن النساء ، ولا يوجد تكريم للعقول التي تنتج . وعلى سبيل المثال نجد ملابس الشباب الرياضية تعطى حسد الشباب من اندكور ، لكنهم لا يفعلون ذلك بالنسبة للإناث ، لماذا لا يفعلون أجساد البسات أيضاً أثناء ممارسه ارياضة ؟ والغرض - بطبيعة الحال - هو دعة أعصاب الناس ، وكل ذلك إفساد في الأرض

« ويسعون في الأرض فساداً » ومن العجيب أن سعيهم للفساد يمسونه ثوب الحق وثوب الارتقاء وثوب الحضارة . ويأتى ألس من المسلمين ويشجعون مثل هذا الفساد ، ويسبون الحقيقة الدينية وهي : « والله لا يحب المفسدين » فسحانه وتعالى قد خلق الكون على هيئة الصلاح ، فإذا استقلت حر الله بصلاح الوجود الذى طرات أنت عليه فأنت تحسن حيائك وعملك ، أما إن لم ترد صلاح الكون معيك ألا تأتى بفساد

والحق خلق الكون على نظام دقيق ، ويرى ذلك في الأشياء التي لا دخل للإنسان فيها ، ويجدها في مسهى الدقة والاستقامة ، الشمس والكواكب والمصول والرياح ، لكن الفساد يأتى عندما تدخلت يد البشر بغير منهج الله . إذن فالفساد هو الذى يصرف الناس عن منهج الله . ويجد بعضاً من الناس يركنون وموسمهم ويفضون أن ما يعملونه هو الصلاح ، فينطبق عليهم قول الحق

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ١١

الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾



هذا هو حكم الحق فيهم . . إهم يذعنون الصلاح ، ولكن يجب عليهم أن يرتدعوا فلا يفسدوا . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَكُنَّا مُرْسِلِينَ مِنْهُمْ مَنِّيَّائِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّت
الْتَّعْيِيرَ ﴾

هذا القول يدل على أن أهل الكتاب جميعاً في غير حظيرة الإيمان ، والحق يوضح لهم : إن فسادكم كان سابقاً على ظهور الإسلام ، ولهذا جاء الإسلام ليخرج الناس من فسادكم أنتم . لقد كان لكم مني من الله ولكنكم حرفتموه ، وإن لكم رسلاً أرسلهم الله إليكم ولكنكم أسأتم إليهم ، وعلوفاً دينية ابتدعتوها . وجاء الإسلام لا ليهدي الملاحدة فقط ، ولكن ليهدي أيضاً الذين أضلهم أرباب أهل الكتاب . وكانوا من بعد الإسلام يحاربون الإسلام بالاستشراق ، وكانوا يؤلفون الكتب ليطعنوا الإسلام . لكنهم وجدوا أن الناس تنصرف عنهم ، لذلك جاعوا من مدح الإسلام وفسد في أثناء المدح ما يفسد به عقيدة المسلمين .

إننا نجد بعضاً من المؤلفات تتحدث عن عظمة الإسلام نال من الغرب ، ولكنهم يحاولون اللطعن من باب خفي كأن يقولوا : إن محمداً عبقرى نادر في تاريخ البشرية ويننون كل القول على أساس أن ما جاء به محمد هو من باب العبقرية البشرية ، لا من باب الرسالة والنبوة . ولجند مثلاً هل قلت رجلاً أوروبياً يؤلف كتاباً عن مائة عظيم في العالم ووضح محمداً صلى الله عليه وسلم على رأسهم جميعاً . ونقول له : شكراً . ولكن لماذا لم تؤمن أنت برسالة محمد بن عبدالله ؟

إن شهدتهم لنا لا همنا في كثير أو في قليل . لقد هاجمونا من قبل بشكل علني . ويحاولون الآن الهجوم علينا بشكل مستتر . وهم أخذوا بعضاً من آباء البلاد الإسلامية ليربوه في مدارس الغرب وجامعاته من أجل أن يجهلوا من هؤلاء الشباب

دعاة لقضاياهم في إفساد المسلمين ، ولم ينجحوا إلا مع القليل ، لذلك نقول
لشبابنا : احلروا أن تكونوا المفسدين وتدهوا أنكم المصلحون ، فلا تأخذوا المسألة
بالطلاء الخارجى ولكن انظروا إلى عمق القضايا ، وتذكروا قول الحق :
﴿ قُلْ هَلْ تَتَّقُونَ بِالْأَخْسَرِينَ أَمْثَلًا ۖ الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۖ ﴾

(سورة الكهف)

هنا أن نرقب كل فساد في الكون ، وسنجد أن لأصابع أعداء الإسلام الرأ
وافساحاً . لقد كان من اجترار الصهيونية إلى حد الوقاحة أن تقول : ليطمن شعب
الله المختار ، يخشون في المائة من وسائل الإعلام في العالم خاضعة لإرادتنا ولا يمكن
أن يعلم فيها إلا ما نحب أن نعلم . والحق سبحانه وتعالى عندما يقول :
﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ سَمِعُوا وَآمَنُوا وَاتَّقَوْا أَكُفِّرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَهَنَّمُ

النَّارِ ۖ ﴾

(سورة المائدة)

فسبحانه وتعالى بهذه الآية يقدم الفرصة هؤلاء الناس حتى يدخلوا إلى حظيرة
الإيمان ويستغفروا الله عن خطاياهم الماضية وليبدأوا حياة جيدة هل نفاء وصفاء بدلاً
من التعريف والتسليل . وليعرفوا معرفة حقة قوله تعالى في رسوله : « وما أرسلناك
إلا رحمة للعالمين » .

هذا القول يجب أن يتهاوت إليه غير المسلمين مع المسلمين ليأخذوا من ينبوع
الرحمة ، وفي ذلك تصفية عقلية شاملة تنبع لكل إنسان أن يبدأ طريق إصلاح
نفسه .

وقوله الحق : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا » إنما يدعوهم إلى الإيمان ،
والتقوى . والإيمان محله القلب ، أى أن يستقر في القلب الاعتقاد بوجود إله أهل ،
وأن تؤمن بالبلاغ عن الإله الأعلى بواسطة الرسل ، وأن تؤمن بالرسول وبالمتابع الذى
جاموا بها ، وأن تتبع هذه المتابع ، وأن تؤمن بأن المرجع إلى الله . هذا الإيمان

ينعكس على الحركة الإيمانية في الأرض ، ويعتق الإيمان مع التقوى اتجاة الإنسان إلى الصالح من العمل . وأن يتعد عن غير الصالح من العمل اتباعاً لقول الحق : ﴿ وَالْعَصِيرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝ إِلَّا الْفَرِيقَ ۝ أَسْنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولذلك نجد قرناً لأحد العلماء الصالحين من العرب هو : إن الإيمان كالعمود والأعمال كالأطياب . وعرف أن كل بيت له أساس من الأعمدة ، وله أوتاد تثبته . والحكمة العربية هي بيت من القماش السميك على عمود من الحشب وتشد الحزمة إلى الأوتاد بحبال ، وهذه الحبال هي الأطياب ولا تقوم الحزمة إلا إذا ربطت بالحبال وشدت إلى أوتاد . وكان العرب يفك هذه الحزمة ، ويحملها على ظهر بعيره لينصبا في أى مكان . وكان العرب يختار القماش الذى إن نزل عليه المطر ، يمتص الماء ويمنع سقوطه داخل الحزمة .

إذن فالإيمان عمود ، والأعمال أطياب . وهكذا تكون دعوة الحق لأهل الكتاب حتى يؤمنوا ويعتقوا الله حتى يكفر عنهم سيئاتهم ، والكفر - كما نعرف - هو السر والتغطية والعفو هو عفو الأثر ، كان الحق سيغطفى على سيئاتهم ثم يحو أثرها وذلك بأن يعفو عنها ؛ لأن الإسلام إنما جاء رحمة يجب أن تستغل ليكفر الحق عن سيئاتهم التى ضلوا بها شعوبهم .

لقد كان من الواجب عليهم أن يعرفوا أن مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فرصة للتراجع عن الكفر والبهتان . وقد جاء صلى الله عليه وسلم ليقيم تصفية عقيدة في الكون ، فللمعد يجب عليه أن يتعرف على خالق الوجود ويؤمن به ، والمبطل لمهج الله ينبغي أن يعود إلى منهج الله . وتلك هي التصفية العقيدة الشاملة . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾



مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أى أنهم لو طبقوا التوراة والإنجيل دون تحريف ، وأمنوا بالقرآن فكان خيرا لهم .
والتوراة كتاب اليهود ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، وقد أنزل الله بعد ذلك
الكتاب الجامع المانع وهو القرآن الكريم ، ولما علم الحق بالإيمان بما جاء في التوراة
والإنجيل من بشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل
- من قبل تحريفها - إنما يقود إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزله الله إليه
واليهود - كما عرفنا - هم الذين ترعدوا العرب بحجره رسول الله ، لكن العرب
سبغوا إلى الإيمان بمحمد بن عبدالله ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا
فلما علمهم ما عرفوا كفروا به .

لقد كانوا - أهل كتاب - يملكون المذخل الطبيعي للإيمان بالقرآن وهو الإيمان
بالتوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح ، لأن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم . وكان سيدنا عبدالله بن سلام وكان من أسيار اليهود يقول : « لقد عرفت
محمدا حين رأيته كمعرفتي لأبي ومعرفتي لمحمد أشد » . وحينما يعد الحق أهل
الكتاب إن آمنوا واثقوا بأن يكفر عنهم السيئات ويدخلهم جنات النعيم ، فسبحانه
لن يكفر عنهم سيئاتهم ويقومهم من عذاب النار فصعب ، ولكن سيمحو هذه
السيئات ويدخلهم الجنة . وسبحانه هو الأعظم بهم ، ويعلم أن منهم المذبحين
المرتبطون بالدنيا لذلك جاء لهم بخير الإيمان في الدنيا فقال :

« ولو أنهم أتوا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن
تحت أرجلهم » فسبحانه يجد لهم أيضا بد الأسباب في الدنيا ، والمؤمن هو من يرقى
في الأخذ بالأسباب فيأخذ منهم الدنيا والآخرة ، أما الكافر فيأخذ الأسباب دون أن
يشكر الخالق عليها .

لقد أراد الحق لأهل الكتاب أن يحسنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وصحيح الإنجيل حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعي للإيمان بالقرآن ، فهذا هو السبيل إلى تكهير السبثات بالألا يدخلوا النار بل ويدخلون الجنة في الآخرة . وهم بالإيمان لا يأخذون خير الآخرة فقط بل يأخذون خير الدنيا أيضاً ؛ لأن الحق لا يقس على مجتهد في الأسباب ، وهو لقائل :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٥٥ ﴾

(سورة الشورى)

فمن يقس منهم على الكفر يأخذ من أسباب الدنيا ولكنه لا يأخذ أبداً من عطاء الآخرة :

﴿ وَقَدْ سَأَلْنَا إِلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ بِحُجَّتِهِ هَآءَ مَثُورًا ٥٦ ﴾

(سورة الفرقان)

وبذلك يوضح الحق مصير أهل الكفر في الآخرة أولاً ، ويوضح من بعد ذلك مصيرهم في عاجل الدنيا ، فإن أخذوا بالأسباب عطاهم الله نتائج الأسباب ، وهو سبحانه الذي يحفظ بطلاقة القدرة ، فقد يعطل الأسباب ويسلب الأشياء حواصنها . فالزراع قد يأخذ بكل الأسباب من حرث للأرض وتسميد لها وانتقاء نسلالة البذور ، ولكن إعصاراً قد يهب فيقلع كل شيء أو فيصدمها يعرق البرد ، أو حشرة فتاة كدودة القطن تأكل المحصول إذن ، فالأسباب وراءها تُسبب له طلاقة الملتمة ، وسبحانه هو الذي وضع الفوائس الكونية ، وهو - أيضاً - الذي يسلبها حواصنها .

فأنت أيها الإنسان سيد الكون بإرادة الله ومفهور في كثير من الأقضية لقهرية الحمار صحيح أن لك بعض الاختيارات في بعض الأشياء ، ولكن هناك قهريات في أمور لا دخل لك فيها ، فالمرص قد يقتل ، والحدث المباحي قد يقتل ، وتلك أشياء من قهريات الله التي تخرج الإنسان عن الأسباب

إن الحق سبحانه يريدنا أن بلاداً كانت دائمة المطر ثم أصابها الجفاف ، لماذا ؟ لأن

الناس تغتر من رتبة النعمة ، ولذلك يملك الحق الكون ببلده ، وهو سبحانه لا يسلمه لأحد أبداً . لذلك يأتي في بعض الأحاديث ويقبض أسبابه حتى لا يفتن الإنسان بالأسباب ورقابتها .

وأمثلة ذلك في حياتنا كثيرة ، نرى المزارع الذي يملك عشرات الأفدنة فتساعده الدودة فتأكل على الأخضر والباس ، بينما جلوه الذي لا يملك إلا قطعة صغيرة وقليلة من الأرض تطرح الخير كله لصاحبها ، لأنه دفع ما يسميه أهل الريف « غرة الأرض » أي زكاتها . والدودة في هذه الحالة تكون هي من جنود الحق فتأكل للملك الباطل ولا تلمس للملك الحلال .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة التوبة)

ولذلك يقدم الحق أسبابه لمن يسعى فيها ، ويزيد للمؤمن . ويقول : « ولو أنهم أتوا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » والرزق - كما علمنا - قسمان : قسم مباشر وقسم يأتي بالبرق المباشر ، والرزق المباشر هو ما نستفيع به حل النور ، كطعام نأكله أو ماء نشربه ، أما الرزق الأخر فهو المال الذي قد نشترى به الرزق المباشر . وجاء سبحانه بأمور الحياة الواقعية حتى تفهم أن النهج إنما نزل لينظم حركة الإنسان في هذه الحياة ، والآخرة هي الجزاء هل حسن العمل في الدنيا .

وبعد أن وعدهم - سبحانه - بالجنة جراءة للإيمان بمد لهم الأسباب في الدنيا راحة وسعة وثراً ومساعدة . ونجد من يسأل : وكيف يأكلون من فوقهم ؟ ونقول . إن الأكل هو المطهر الأساسي لحياة الإنسان ؛ لأن كل حركة يصنعها الإنسان هي فرع من وجود حياته . ووجود حياة الإنسان يتوقف على ثلاثة عناصر مهمة هي الأكل والشرب والتنفس . فإذ ما أردنا استبقاء الحياة والتناسل فلا بد من توفير هذه المصادر الثلاثة .

إننا عندما ننظر إلى ترتيب الثلاثة في الأهمية نجد أن الإنسان قد يصبر على الطعام

شهوراً . وقد يصبر على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام ، أما الثنفس فلا يطيق الإنسان ألا يجد الهواء لمدة دقائق .

ومن راقه الحق بالخلق أن جعل الخيارة لهذه الأترواع المقومة لاستبقاء الحياة تنرب حسب أهميتها . لذلك ترى من يملك على إنسان آخر طعامه ويتحكم فيه ، لكن الحق يجعل في جسد الإنسان ما قد يقبضه شهراً . ويرى أن الخيارة في الماء أقل من الخيارة في الطعام ، لذلك لم يملكها الحق إلا نادراً ، ذلك أن الإنسان لا يطيق الصبر على العطش ، لا لمدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام . وأما الهواء فلم يجعله الحق ملكاً لأحد على الإطلاق ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يستغنى عنه إلا بمقدار الشهيق والزفير ، ولا يستطيع الإنسان أن يدخره في حجم رئته ، الملئ لم يأس الحق أحداً من الخلق على ملكية الهواء .

وفوه الحق : « لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » مقصود به أن الاستفادة في تطبيق مهبج الله تُخضع الأسباب الكونية لهم ، أما إذا ما تمرد الإنسان على مهبج الله فقد يعضيه الله زهرة الحياة الدنيا ثم يأخذه أخذه عزيز مقتدر ، فالنواميس الكونية لم تعزل عن يد الحق .

لذلك يخطب - سبحانه - الخلق خطاباً ، فإن انصاعوا لمخطب ، يسر لهم كل ما سخره لهم في الكون . وإن لم ينصاعوا فهو بحسبك الأسباب وبممكنه أن يخرق قوانينها ، فلا الأرض ولا الهواء ولا أى شيء يخرج عن طاعة الله ، فإذا ما تمردت جماعة على نعم الله أو على الله سبحانه يجعلهم نكالا لغيرهم ريقض عنهم لأسباب .

والإنسان سيد هذه الكائنات في هذا الكون ، وهو متعزل - أيضاً - بقدرته ربه وقد يمرض ، وقد يموت ، وقد ينكسر ، وقد يفرق ، فإذا كان الإنسان وهو المتعزل به « كى » من ربه فكيف حال الأشياء الأدنى منه ؟ إنها أيضاً متصاعة - « كن » . والحق قادر أن يقول للأرض : كونى جديداً ، وهو القادر على أن يوقف المطر لأنه هو سبحانه الذى يجعل الأشياء تسير سيراً رتيباً . ألم يقل الحق سبحانه وتعالى في خطابه لكل خلقه عن الأرض : (بأن ربك أوحى لها) فإذا كان الحق قد أوحى للأرض

شُكْرُ الْكَائِنَاتِ



لتبرز الكوز أو تحدث الرلزل ، فما بالنا بكل شيء آخر ؟ . إن كل شيء إنما يسير بأمر الله ، ذلك أن كل شيء يسبح بحمد الله ، ولكن الإنسان لا يفقه لغات غيره من الكائنات : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

وخطاب الله لكل خلقه يفهمه المفعول له من أى جنس من أجناس الوجود ، ولو علمك الله هذا الانفعال ، لسمت نعمة الكائنات الأخرى مثال ذلك سيلدا صليان عليه السلام الذى سمع قول عملة لبغية النمل :

﴿ أَذْخَرُوا سَكِّكَ لَا يَحِطُّ سَكِّكَ سَلِيمٌ وَحَنُودٌ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة النمل)

ومادا قال صليان من بعد ذلك ؟ .

قال صليان :

﴿ رَبِّ أَوْرِغْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِنِعْمَتِكَ أَيْبَى أَهَمَّتْ طَيِّ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النمل)

وهو سبحانه الفائل :

﴿ وَتَحَرَّنَ مَعَ دَاوُدَ الْجَبَّالَ يُسَبِّحُنَ وَالطَّيْرَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

واملحده قال فى القرآن :

﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يَخْرِجُ أَنْعَابَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن- لكل كائن فى الوجود يعرف قصبة الإيمان وقصبة التوحيد وكل من فى الوجود يفعل لربه . ويمكن كل الأشياء التى تمطر للإنسان حياته أو نوعه فمادا عن حال من يتمرد على الله ؟ . إنه سبحانه قد يقول للأسباب انقبضى عنه وبرى ذلك فى حال بعض البلاد على ألوان مختلفة ، فالبلاد التى تقع فى منطقة يعرف عنها أنها دائمة المطر ، يهرق الله طبيعة البثبة فتصير إن جماد ، وغيرها التى تستطيع أن تصل إلى الغضاء الخدرسى لا تقدر على مواجعة إعصار ، وذلك ليتأكد لنا أن بد المكون - سبحانه - فوق أسباب الكون

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولو أنهم أقاموا التوراة ولاجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » أى أن بأن الخبر من كل

ناحية . فإنا كان يراد بالأكمل الأكل المباشر ، فلنظر هو الذي ينزل من أعلى يروى الأرض فيخرج الورع ، وكذلك النحل يعلونا ويأثينا بالتمر ، وكذلك أشجار المأكهة من يرتقال وتفتح وغير ذلك . لما ما تحت الأقدام فهي الخضراوات ، والمواكه التي تنمو دون أن يكون لأى منها ساق على الأرض كالبطيخ والشمام وغير ذلك .

ولنا في سقوط الفاكهة من على أشجارها العالية بعد تمام النضج الحكمة البالغة ، فالرزق الذى طاب وإن سم تسع إليه يأت إليك تحت قدمك .

وإن توسعنا في فهم قوله الحق : « لا تكونوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . فله أسرار فوق الأسرار ، وله فيما تحت الأرض أسرار . ألا نأخذ كل شيء يعينا على الحياة من طيعة الأرض سواء أكان حديداً أم نحاساً أم بترولا ؟ . وهكذا نجد أن كل شيء في الوجود يخدم بقاء نوع الإنسان أو امتيانه حياته هو من عطاء الله .

يذن علو أن أهل الكتاب أقاموا النوراة والإنجيل والقرآن وساروا على المنهج لربهم الله كل سمير . ويؤكد الحق هذا المعنى في آية أخرى فيقول (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لمتنع عليهم بركات من السماء والأرض) .

ونرى أن الحق قد أقام على بعض الناس من النعمة الشيء الواسع والكثير ومن بعد ذلك يطس أهلها بالنعمة فيسمهلهم ريت إلى أن يعلو أمرهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وحياتنا المعاصرة خير شاهد على ذلك ؛ فكل بلد أخذت نعمة الله تحتاج بها الله وتكون صد منهج الله نحمدها تبوء بالفساد . ويأتى بأس أهلها فيما بينهم شديداً ويخربون بيوتهم بأيديهم . وكم من بلاد كانت منعمة الناس أن يذهبوا إليها لكسوف أو الانقلابات ثم يأتى بأس أهلها بينهم وتحررت بأيدي أبنائها . وفي واقع الكون ما يزيد صدق ذلك ، وكان الحق يقول لنا . اصبروا يا أولى الأبصار .

ويقول سبحانه .

﴿ وَحَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ ﴾
(من الآية ١١٢ سورة النحل)

والمراد بالقرية ليس قرية الريف التي نتعارف عليها اليوم ، لأن القرية في عرف العرب القديم هي المكان الذي يقاس العاصمة . وكانت البيعة العربية قديماً بيعة والسدي ، أي أنهم يقيمون في البادية ويستقلون من مكان إلى مكان ، ولم يكونوا متوطنين في مكان واحد . وكانت عاصمة البدو هي القرية التي تتكون من عدد صغير من البيوت . ولذلك يسمى القرآن الكريم مكة ، وأم القرى . ويضرب الله مثلا بالقرية الأمة المظمتة التي يأتيها رزقها واسعا من كل مكان ، أي أن حيرها ليس ذاتياً ولا مانعاً منها ولكن يأتيها من كل مكان . وفي العصر الذي نعيشه نجد أن خير الدنيا يصب في قلب بعض القرى ، وما إن يكبر أهل القرية بأنعم الله هي الذي يحدث ؟

﴿ فَأَذْنَبَ اللَّهُ لِبَاسٍ أَلْجُوعٍ وَالْخَوْفِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذا واقع نراه في كثير من البلاد التي أخذت نعم الله عدلتها كفرأ فأحلوا قومهم دار البوار . ويرينا سبحانه القرى التي يلبسها الحق لباس الجوع والخوف . وعندما ينظر إلى قول الحق . لباس ، يرى أن الجوع له لدعة ، واللباس له شمول ويلهمهم الجوع كما ينهم الثوب ، وكذلك الخوف فتصدر كل جارحة فيهم حائفة أي أن الحق صلط عليهم الجوع فلا يجدون مواد الاقنيات . وكذلك الخوف يأتيهم فإما أن يكون الخوف بسبب لباسهم فيها بينهم لأن عداوة بعضهم بعضا شديدة ، وإما أن يكون الخوف من عدو خارج عنهم . وهذا واقع معاصر

وكيف يكون الكفر بنعم الله ؟ الكفر بنعم الله إما أن يكون بمعنى ستر النعمة . واستغافا في معاصي الله ، ومثله مثل الكفر بالله أي ستر وجود الله ، وقد يكون لكفر بنعمه الله بالتكامل عن استنباط النعمة من مظاهرها . وهذا العالم الآن بأن من أناس كسالى عن استنباط نعم الله المظمورة في كونه ، وأناس يجنون في استنباط نعم الله ويحسونها لأنفسهم ولا يعطون منها الصعاب ، ويستخدمون النعمة في المعاصي . دن فقله الحق .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُ لَاقِلُ الْفَرَى ۖ أَسَؤُا وَاتَّقُوا لَعَمَلُنَا عَلَيْهِمْ بِرَغْبَةٍ مِّنْ أَسْمَاءِ رَأْسِ

وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١٣﴾

(سورة الاحزاب)

ويقوله الحق : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . هو حكم عام ، فهل وجد من يذمه ؟ . نعم ، هناك أناس منهم عرفوا ذلك وساروا إلى السبيل المستقيم ، وعن هؤلاء يقول سبحانه : « منهم أمة مقتصدة » والمقتصد هو الذي يسير في السبيل القاصد ، وهو السبيل المستقيم إلى الغرض فلا ينحرف هنا أو هناك .

إذن قوله الحق : « منهم أمة مقتصدة » . أي منهم أمة تسير إلى أغراضها وإلى هائتها على الطريق المستقيم . وهذه إشارة إلى أن بعضاً من أهل الكتاب يفعل ذلك ، والبعض الآخر لا يفعل ، وهذا القول أشار أيضاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يخل وجوده وكونه من خلية بحير فيه ، وقد تكون خلية الخير هذه من أضعف الناس الذين لا شوكه لهم في الدنيا ولا جاه ولا قوة . ولولا هؤلاء الناس لهد الله الأرض ومن عليها . ووضح الرسول صل الله عليه وسلم هذا الأمر بقوله : « لولا عبادة رُكع ، وصية رُضع ، وبها تم رُقع نصيب عليكم العذاب مما تم رُصن رُصا » (١) .

كأننا مكرمون في هذا العالم من أجل الضعاف فيها . وكأن الحق لا يحبب الخير من كونه ، بل يجعل في الكون ذرات استبقاء للخير . ولذلك نجد من يقول : إذا بالغ الناس في الإلحاد زاد الله في الملة . وقد نجد بلداً كلها من الملاحنة ، ونجد فيها عبداً واحداً مبتلا لربه ، ويكون هذا الرجل هو الذي يستبقى الله من أجله هواء تلك البلدة وماءها . ولذلك قال سبحانه : « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ

لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ
النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

تبدأ الآية بخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عظمة رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلو مكانته عند من اصطفاه خاتماً لرسالاته في الأرض أن الله ذكر الرسل في خطابه لهم بتداه أسماؤهم فقط كقوله الحق :

﴿ يَتْلُوهُمْ أَفْهَامًا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة البقرة)

أو قوله الحق :

﴿ يَمْشِي إِلَى آثَارِهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

أو قوله الحق :

﴿ يَنْجِسُ آيَاتِ اللَّهِ أَنْ تَقْلَبَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

أو قوله الحق :

﴿ يَنْفُخُ أَفْئِدَةً كَالْعُودِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة هود)

فسيبغاته بنادي كل رسول له بالاسم المخصص للذات بصرف النظر عن أي صفة ، لكن رسول الله لم يتناد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالشخص للوصف : « يا أيها الرسول » . أو قوله الحق : « يا أيها النبي » .

فكانت يا رسول الله قد اجتمعت فيك كل مسائل الرسالة لأنك صاحب الدين الذي سيتهى العالم عنه ولا يكون بعد ذلك في الأرض رسالة إلا فهم يؤتبه الله لأحد في كتاب الله .

ومن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أقسم بحياته ، على الرغم من أن الحق لا يقسم بحياته أحد من البشر إلا رسوله ، فقد أقسم بحياته . وهو سبغاته

يقسم بما يشاء على ما يشاء ، أقسم بالريح والفضى والليل واللائكة ، لكنه ما حلف بحياة بشر أبداً إلا حياة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَغَيُّ مَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٦) .
(سورة الحبر)

أى وحياتك يا محمد هم فى مكرتهم يعمهُون أى يترددون حيارى . ويقول الحق هنا مخاطباً الرسول : « يا أيها الرسول » . وما دام محمد هو الرسول الخاتم الذى جاء مصداقاً لما بين أيديهم من الكتب ، فمعنى هذا أن كل خبر فى أى كتاب سبق القرآن موجود فى القرآن وفيه أيضاً زيادة بما تتطلبه مصالح الحياة المستجدة . وما دام الخطاب للرسول فهذا يعنى أنه رسول مرسل من قبل الله بمنهج خلفه ليلقه لهم : « بلغ ما أترى إليك من ربك » . وكيف يقول الحق لرسوله : « بلغ » وهو يعلم أن مهمة الرسول هى البلاغ ؟

لقد أراد سبحانه بذلك إخبار الناس أنه إن أبلغهم بما يكره بعضهم فهو يبلغ التزاماً بأمر الله ، فهو لا يتوان من عبء ، ذلك أن الرسول عليه البلاغ ، فإن أبلغ أحداً ما يكرهه فليس له مصلحة فى ذلك . ويورد سبحانه ذلك حتى إذا بلغ الرسول حكماً من الأحكام عليهم أن يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله وسبحانه يعلم أن رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله المخر عند البشر ، فهو سبحانه حين يخاطبهم بشيء قد يكرهونه ، فهو يلاغ من الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أترى إليك من ربك وإن لم تعمل فبا بلغت رسالته » . أى أنه إن لم يفعل ولو فى جزئية يسيرة من المنهج فهذا معناه أن البلاغ ناقص والله يريد أن يكون البلاغ كاملاً بالدين المتكامل .

إن التركة الإيمانية تقتضى أن يأتى القول بهذه الطريقة حتى يسجى البلاغ بشكل كامل ، فقد نزل المنهج بكلية ، ويجب أن يطبق بكلية من أجل أن يتصلح الكون وحتى لا تفسد حركة الإنسان فى الكون ، فقد أترى سبحانه المنهج وأحكمه ليسير العالم على حسب تصحيحه له دون أن يختل . ولذلك يقول الحق : « وإن لم تعمل فبا بلغت رسالته » . ويليك يعطى الحق رسوله المناعة الكاملة . فلم يأت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لخير الناس .

لقد سبق أن خلق الله آدم وأعطاه المنهج . وكان على آدم أن يبلغ المنهج إلى اللذة وقد فعل ، لكن بعضاً من أجيال بني آدم غفلت عن المنهج ، فبعث الحق الرسل لتذكّر بالمنهج . ولا يأتي رسول إلا بعد أن يكون الفساد قد فشا وانتشر بين الناس . وقد جعل الله في النفس الإنسانية نفساً ثوامة ، ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة .

إن مهمة النفس الثوامة هي أن ترد على كل ما توسوس به النفس الأمارة بالسوء . لكن إن لم تلم النفس الثوامة ، فالنفس الأمارة بالسوء تنهذى ولا يردعها رادع . أما النفس المطمئنة فهي النفس التي تطمئن إلى منهج الله . ومثال ذلك الإنسان الذي تلح عليه شهوته لارتكاب معصية ما فيتركها ، ومن بعد ذلك يندم ويلوم نفسه ، ويتوب عن المعصية ، هذا الإنسان يردع نفسه ذاتياً . لكن إن سيطرت النفس الأمارة بالسوء فلا رادع .

وماذا إذا ساد الفساد بين عموم الناس ؟ وماذا لو لم يتناهوا عن المنكر الذي يفعلونه ؟ هنا لا بد أن يرسل الحق رسولا بمعجزة جذيلة ليأخذ العالم إلى منطق الرشاد ومنهج الحق .

ولا يختار الحق الرسول إلا إذا علم الرسول أنه مبلغ عن الله . وسبحانه في الآية التي نحن بصددتها يعطى رسوله المعجزة إن بلغ قومه شيئاً يسوزهم ، هي هل الرسول إلا البلاغ في قوله . « وإن لم تفعل مما بلغت رسالته » . ونعرف أن الرسالة تقتضي : المرسل وهو الله ، والمرسل إليهم وهم الخلق ، ومرسلًا وهو النبي صل الله عليه وسلم والمرسل به وهو ما نزل على الرسول ليلغنه . وفي كل أمر مثل هذا نجد أن كلمة « أرسل » تتمتع إلى معمولين : المرسل : مثال ذلك أرسلت فلاناً إلى فلان ، والمرسل إليه : وهو فلان . إذن فهنا معمولان ثان ، أولها تعدى الفعل إليه بذاته والآخر تعدى إليه الفعل بحرف الجر .

وحرف الجر هنا هو : « إلى » . وبطبيعة الحال يحرف الرسول أنه مرسل إلى الناس من الله رعاية لمصالحهم ، فليس في أمر الرسالة شيء لمصالح الله . وإن رأيت تعدياً بـ « إلى » فهو لتحديد الغاية المرسل إليها ، مثل قوله الحق .

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾

(من الآية 29 سورة الاحقاف)

وهذا يوضح أن عيسى - عليه السلام - جاء مبعوثاً بمنهج إلى بني إسرائيل لصالح
بني إسرائيل ومثلما يقول الحق : وأرسلناك للناس رسولا ، إلى لصالح الناس .
« واللام » هنا تفيد المعنيين : المعية والمعاية .

« بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل عما بلغتك رسالتك » أي أنه صلى الله عليه وسلم إن لم يبلغ الرسالة كاملة بمعنى ذلك أن البلاغ يكون ناقصاً ومعاد الله أن يكون بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنقص شيئاً ، مفتح الله كل متكامل

وقد يقول قائل : ولكن الناس قد لا تؤدي فروض الله في مواعيدها ، وانتال على ذلك هو الصلاة ونقول : إن هذا عجز في إدارة الناس لحياتهم حسب منهج الله . ومن واجب المجتمعات أن تنظم حركة الناس اليومية من بعد صلاة المغرب إلى الظهر وفي ذلك قدر هائل من الحيوية والشايط ، وينتهي العمل عند الظهر ، فلا تصادم حركة الناس مع منهج الله ، ولا توجد عرقلة ولا نشر في حركتهم

ثم يقول الحق : « والله يعصمك من الناس » وكان لا بد أن يأتي هذا القول الحكيم ؛ لأننا نعرف أن الرسول لا ينجي إلا بعد أن يعم الشر ويسود الفساد ، ذلك أنه لو لم يسد الفساد ، ولم يعم الشر لكانت الله بالمجتمع ليردع بعضه بعضاً ، أو يكتفى الحق بأن تردع النفس اللوامة النفس الأمارة بالسوء لتستوى النفس المظلمة على عرش السلوك البشري

لكن عندما يعم الفساد يكون فالسواء ترسل الرسول بمنهج يصلح حال الشريعة وبطبيعة الحال لن يترك المجتمع الشرير الرسول لحاله بل يفارقه ؛ لأن مثل هذا المجتمع يريد أن تكون كلمة الكون غير متواردة ؛ لأن هناك مستمعين بالفساد والنشر ، وهم اندفعون عن الفساد ، فإن جاء من يصيب الصحفاء واضطربون فلا بد أن يتعرض للمتاعب التي تأتيه من قبل الأقوياء المسددين .

إن هذه المناصب تبدأ أول ما تبدأ في النفس ، ولأن الرسول مخاطب من الله فيمكنه أن يتحملها لأن الحق قد أعد له المهمة ، ومثل تلك المناصب تأتي أيضاً للتابع ، لذلك يمدحهم الله بالمد الذي يجعلهم يتحملونها . والحق يحفظ لرسول ذاته عني الرغم من كل ما يحدث « والله يعصمك من الناس » .

فكان الحق يقول لرسوله : « اطمئن يا محمد ! لأن من أرسلك هدية للناس لن يحلى بينك وبين الناس ولن يجزئ أحد أن ينهي حياتك . ولكي سامتك من الحية إلى أن تكمل رسالتك وإياك أن يدخل في روعك أن الناس يقترون عليك ، صحيح أنك قد تنال ، وقد تعاني من أهراض التعب في أثناء الدعوة ، ولكن هناك حمية إلهية لك ونحن نعلم قدر المناصب التي تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم تكسر رياحته صلى الله عليه وسلم في عزرة أحد؟ ألم يشج وجهه؟ ألم تدم أصبعه فيقول : « إن أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت » ؟

لكن قول الحق سبحانه لرسوله : « والله يعصمك من الناس » لم يكن المقصود هو مع الجهاد في سبيل الله والمصانة في سبيل نشر الدعوة ولكن الحق يبين لرسوله : إن أحداً غير قادر على أن يأخذ حياتك

ولم يمع سبحانه المناصب من رسول الكريم حتى لا يكون هناك أحد اندفع إلى الله لا يتحمل من الآلام أكثر مما تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولنظر ونتمع جيداً إلى ما ترويه عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حول هذه الآية إنها قالت :

«سهر رسول الله ذات ليله وأنا إلى جنبه ، فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ قال : (كنت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرصني الليلة) ، قالت : وسما نحن في ذلك إذ سمعت صوت سلاح فقال صلى الله عليه وسلم من هذا ؟ فقالوا سعد وحذيفة جئنا بخرصك فنام صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيظه ونزلت هذه

(١) الرياسة : السيف القتيب والطلب

(٢) داه البهق في دلائل النبوة

الآية فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قبة آدم وقال : « انصرفوا أيها الناس فقد عصمتني الله » (١)

وهناك باحثة بلجيكية عكفت على دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصلت إلى هذه النقطة ، فتوقفت عندها لتقول : لو كان هذا الرجل يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه في حياته ، ولو لم يكن وثقاً من أن الله يحرمه لما فعل ذلك كتحرية واقعية تدل على ثقته في خالقه . وأصامت الباحثة البلجيكية . ولذلك أنا أقول بملء اليقين : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . لقد أسلمت المرأة لجرد وقرفها عند لحظة واحدة من لمحات حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويقول الحق من بعد ذلك : « إن الله لا يهدي القوم الكافرين » . ومعروف أن الهداية تعني الدلالة الموصلة إلى الغاية ، وهي أيضاً الدعوة التي توصل طالب الهداية إلى الغاية . وكان الكفار الذين يبيتون للرسول وينهكون أنفسهم في المكر والتفكير والتبذير ، يقطع الحق سبحانه وتعالى عنهم كل سبيل ، ويصره عليهم ، ويأتى التطبيق العمل نصر الله للمؤمنين في بدر .

﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)
لقد بيتوا ، ولكن عند المواجهه لم يقدرُوا على محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يستطعوا إبداءه ، رغم المكر والتبذير ، لأن الحق قطع عليهم كل سبيل لإبداء محمد ، ولن توجد وسيلة من وسائل الذوم والخبث ففدرة علي مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تمثل ذلك يوم حرج رسول الله مهاجر وعطى الله أنصار قتيان القبائل الذين حلوا سيوفهم بيقبلوا محمداً وليرقى دمه بين القبائل فلم يصره لأن الله جعل على أنصارهم خشاة

إذن فكلمنا فكروا في طريقة صد الله عليهم متاذة تميد فكرتهم . وكأنه يقول هم - لن تستطيعوا مضادة محمد في صبحه لا بالعلن ولا بالذس ولا بالخصية ، بل أنتم

(١) دواء العرطس - وروى مسلم قالت - أي السيد عائشة - فبين نحن بذلك سمعنا حشيشه سلاح (أي مشقة) فقال من هذا ؟ قال سعد بن أبي وقاص فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم - حاجاء بك ؟ فقال ومع في صبي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبنت احرمه فدعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سمع

- أيها الكفار - تحذمون الدعوة من حيث تريدون هدمها ، فقيامكم ضد محمد في بداية الدعوة كان لإثبات أن الحق جل وعلا أراد أن يشتد حود الدعوة بكفر أهل فريش ، وعندما أردتم قتل محمد وأن يفرق دمه بين القبائل خرج محمد سالماً وأغشى الله أبصار الذين أرادوا القتل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم ، ولى الطريق إلى الهجرة يكون دليله من الكفر وهو عبدالله بن أريقط . كان ذلك لعلم أن الكفر كان وسيلة الهداية إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عبدالله بن أريقط وهو كافر لا نغريه المكافأة أن يشي ويسعى بالرسول لدى مشركي مكة ، ولكم لم يتخذوا من كل ذلك عبرة . وكذلك الغم تعفى الأثر ، والأرض تشد فوائم فرس مراقبة لتفوص ونسوح فيها .

إذن فكل جود الله في صف محمد بن عبدالله وهكذا رأينا كيف لم يهد الحق القوم الكافرين إلى العاية التي أرادها وهي التمكن من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لا يهديهم الله إلى الإيمان . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
وَلَا يَرِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا
وَكُفْرًا قَلِيلًا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

وا قل - كما تعرف - هي حطاب له صلى الله عليه وسلم ، وما بل ذلك ملاح من الله لأهل الكتاب إنهم بلا منهج لأنهم لم يقيموا التوراه والإنجيل بل حوقوها ، ولم يؤمروا بالقرآن ، وهو المنهج الكامل المراد على محمد بن عبدالله

وحين يقول الحق : « لستم على شيء » فكلمة « شيء » تقال لأذن مرد من أى جنس ، بالقسمة شيء ، وورقة الشجرة شيء ، وما يطلق عليه شيء - إذن - هو الأقل .

وقوله الحق : « لستم على شيء » أى إياكم أن تظنوا أنكم حين تقومون بشئ من جزء من تعاليم التوراة والإنجيل وتحفون الباقى ونهملونه تكونون قد أخذتم شيئاً من الهداية ، لا ، فأنتم لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وتؤمنوا بالكتاب الذى أنزل على محمد . والمنهج ليس عرضة لأن تأخذوا منه ما يعجبكم وأن تتركوا ما لا يعجبكم .

وعندما يقال : « لستم على شيء » . ونعرف أن الشيء هو أقل مرتبة في الوجود ، ولذلك نقول : شيء خير من لا شيء . ويقال بالعامية : هاش خير من لاش و « هاش » هو الهالك من ثياب المنزل الممزقة ، أى أن الذى يملك ملابس مخرقة أفضل ممن لا يملك شيئاً على الإطلاق .

وقوله الحق : « لستم على شيء » حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . هو إيصال لهم أنهم في المرتبة الأدنى من الكائنات لأنهم بلا منهج ونصيف : « وليريد كثير منهم ما أنزل إليكم من ربكم طغياناً وكهراً » أى أنهم لن يظلوا على درجة واحدة ثابتة من الطغيان والكفر ، بل كلما أنزل الحق إليكم آية يا محمد ، وكلما نصرك الله في أمر ازدادوا هم طغياناً وكهراً . وكان من المفروض أن زيادة نزول الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكون إضعافاً تشددهم وتزيقاً لقلوبهم ، لكنه سبحانه أراد أن تشدد شراستهم وحقدهم في أمر الاعتراف بالإسلام .

وقد حدث من الوليد وكان فارس إمامية ضد الإسلام أن قال لعمر بن الخطاب : لقد استنصر الأمر لمحمد واتجه الاثنان إلى الإسلام على الرغم من أن كلا منهما يعرف قوته ومكانته بين قومه . وبعد أن رأى خالد وعمر أن الحجة هي نصيب الواقف ضد محمد فهما علا شأنه ، ذهبوا إلى الإسلام . وهذا هو موقف المشركين للأمر دون حقد ولذد . أما الذى يزدهم بالممانعة حقدًا ولذدًا فتريده آيات الله لنصرة

منهجه حقداً ولدداً وطنياناً ، لأن الله شاء ألا يهديهم . ولذلك تصير كل آية في صف الإيمان والمؤمنين مصدر إثارة وغبط ومربرة في نفوس أهل الكفر . وهكذا يوطن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره تجاه هؤلاء الكفار .

إنك يا رسول الله لا تواجه طائفة محدودة ولكنك تواجه طائفة من الشر النامي . وكل آية ، بما تنهى الذي في أعياقه بلية من خير ، أما الذي يتنهي الخير من دخله فالمسألة تزيد شراسة في قلبه . إن الشرير يصعد الشر ويزداد جرمه وإثمه ، أما الخير فيرسل من قبلة الحرم إلى أقل درجة . ونا المثل في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فالحق يقول على لسان إخوة يوسف :

﴿يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْبَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبُ إِبْنِ أَبَانَا لَنِي صَلَاحٌ مُبِينٌ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

ومن بعد ذلك قالوا لأبيهم : « مالمك لا تأمنا على يوسف » . ثم أحلوا في التثبيت والتدبير وقالوا : « أرسله معنا عدو يرتع ويلعب » . وكان أول تدبيرهم هو ما قاله الحق حكاية عنهم « اقتلوا يوسف »

ومعنى القتل هو إزهاق الروح ، وهذه أعلى درجات الشر ، لكنهم يتراجعون عنها ، يقولون : « أو اطرحوه أرضاً » . فهم لم يرغبوا في قتله ، واكتفوا بأن يتركوه في مكان بعيد ، وتصوروا أن بعض لسيارة قد يلتقطه فيبعده يوسف عن أبيه . إذن هم بدأوا التدبير قتلاً ، ثم انتهوا بالتمكيد لسحابة يوسف .

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحُلْ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

والمرحلة الثالثة قولهم : « ألقوه في غيابة الجب » . ولحب فيه مياه ، وهناك أناس كثرون يذهبون إلى مصادر المياه هكذا يورد الحق لنا كيفية نمو الخير من بطن الكيد

إذن فقول الحق : « وليريدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طمأنناً وكهراً » أي أن الكثير منهم سيواصل رحمة التصعيد في الشر ، فوطن نفسك يا محمد على ذلك .

ونلاحظ ان الحق قد وضع صيانة لاحتمال أن تفكر قلة منهم في الإيمان ، لذلك لم يشملهم كلهم بالحكم ، ولكن الحكم شمل الكثرة من هؤلاء الكافرين . ولذلك يقول الحق لرسوله : « فلا تأس على القوم الكافرين » أي لا تحزن عليهم يا رسول الله . فعلى الرغم من عداوة وشراسة من صادموا دعوته صلى الله عليه وسلم ومحاولتهم كل تلك المحاولات ، كان لا يكف عن الدعاء لهم : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون »^(١) وكان لا يكف عن القول : « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده الله »^(٢) وقد تم ذلك بالعمل .

وكان الصحابة بعد العروات الأولى يقول كل منهم للآخر : أنا حزين لأن عمراً أفلت مني ولم أقتله . ويقول الآخر : وأنا حزين لأن عكرمة أفلت مني . ويقول الثالث : وأنا لا أدرى كيف أفلت منا خالد بن الوليد . ولم يمكن الحق الصحابة الأوائل من هؤلاء المقاتلين الأشاوس لأنه يدخرهم للإسلام ، فكان عدم تمكين المسلمين من هؤلاء تمكياً للإسلام ليحملوا السيف للإسلام مدفعين وياشرين لدعوته . وها هو ذا عكرمة بن أبي جهل يتلقى الطعنه الأخيرة في حياته فيضع رأسه على فخذ خالد بن الوليد ويسأله : أهذه مينة ترصني على رسول الله ؟ إذن فقد أراد الله من عدم تمكين المسلمين منهم في أوائل العروات أن يكونوا حذراً للإسلام بقدراتهم القتالية فاستفاهم أسياء ليخدموا الدعوة . ويقول الحق بعد ذلك

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئُونَ
وَالنَّصَارَى مَن ، آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَلَا حُوفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(١) أخرجه الترمذي في إتحاف السادة المحققين ، والسيوطي في الدر المنثور

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق ، ومسلم في الجهاد

هم - إذن - أربعة ألوان من الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله . وهذه الآية وردت في صورتها لعامة ثلاث مرات ، مرة في سورة المائدة ، ومرة ها في سورة المائدة ، ومرة في سورة الحج .

فقى سورة البقرة بقول الحق :

﴿۱۷﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَسِيحِيَّةَ وَالنَّصَارَى وَالْمَنْ يَلْفَ لَهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ رَحِمَ صَاحِبًا لَهُمْ أَجْرُهُمْ جَدِّ رَحِيمٍ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿۱۸﴾

(سورة البقرة)

ونلاحظ أن كلمة «الصايبين» في هذه الآية منصوبة .

وفي سورة المائدة نجد قول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَدُوا وَالصَّيِّفُونَ وَالنَّاصِرُونَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

(مسودة الثالثة)

وللحظ أن كلمة «الصبايئون» هنا مرفوعة ومقدمة على كلمة «النصارى» .

وفي آية سورة الحج يقول الحق :

﴿۱۷﴾

(سوره الحج)

هذا إخبار عن أربعة ، وراد الحق عليهم اثنين في آية الحج ، وبعد أن الإحار
يختلف ، وكذلك يختلف الأسلوب ، فمرة تتقدم النصارى على الصابئين ، ومرة
تتقدم الصابئون على النصارى . ومرة تكون الصابئون مرفوعة ، ومرة تكون منصوبة
بالأاء .

وأما اختلاف الإخبار، فهو سبحانه يخبرنا في سورة البقرة ويقول:

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(من الآية ٦٢ سورة البقرة)

والخبر في سررة الخالدة هو:

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
(من الآية ٦٩ سورة شتعة)

(من الآية ٦٩ سورة طه)

والخبر في صورة الحج هو:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ بَيْتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

(عمر الآية ١٧ سورة الحج)

والآيات الثلاث في مجموعها تتعرض لمعنى واحد ، ولكن الأساليب مختلفة وكذلك الغايات فيها مختلفة .

ونلاحظ هنا أن الحق قال : « آمنوا » والإيمان هنا هو الإيمان العظمى أى بالعم وليس بالقلب ، وانتصمون بذلك هم المعتزون والذين عادوا ، هم أتباع موسى ، والنصارى هم أتباع عيسى ، والصائبون ليسوا أتباعاً لأحد فقد كانوا أتباعاً لنوح ثم صلبوا عن ديانة نوح وعبدوا الكواكب ، أو هم قوم عدلوا عن اليهودية ولصراية وعبدوا الملائكة . والمحسوس وهم حدة النار [ذن فالحق يريد أن يجبرى تصفية إيمانية فى الكون ، فمن ينادر ويدخل فى هذه التصفية . يسلم من شر ما فعله قبل مجيء الإسلام ، ذلك أنهم أضلوا أناساً أو حكموا بالظلم .

والحق في سورة البقرة يقول (فليهم أجرهم عند ربهم) أي أنه - سبحانه - عمر لهم ما فعلوا من سوء وجرائم على عنبهم الصالح الذي لم يحبطوه ويذهبوه بمثل السيئات والآثام . هذا ما يتعلق بالآيتين . آية سورة البقرة ، وآية سورة المائدة ، وبلاحظ أن آية سورة المائدة لم يرد فيها قوله . (فليهم أجرهم عند ربهم) ولعل ذلك راجع إلى الاكتفاء بذكرها في سورة البقرة ، وذلك له نظير في القرآن الكريم . كحمل المطلق على المفيد وبحر ذلك .

أما آية سورة الحج فهي التي يأتي بها الحكم : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة »
كأنهم لم يؤمنوا ولن يحملوا الصالح ، فتكون هذه هي الصفة العنصرية في الكون .

وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضي المسألة الإيمانية في الأرض ويقول
عن المؤمنين بألسنتهم وهم المتأخرون : « إن الذين آمنوا » وهو ابتداء الخبر ، وتكون
فيه « الذين آمنوا » في محل نصب لأنه اسم « إن » كما يقول النحاة ، وهو سبحانه قال
هنا : « الصابئون » وهي معطوفة على منصوب . وهذا كسر للإعراب . إن
الإعراب يقتضي أن تكون الكلمة منصوبة فتكون « الصابئين » لما إذا عدل الحق
من إنزال الكلمة حسب سياقها من الإعراب وأنزلها بكسر الإعراب مع أنه في آية
أخرى قال : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين) .

لقد جاءت هنا في مكانها ودون كسر للإعراب ، وهي قد جاءت مرة قبل كلمة
« النصارى » وجاءت مرة أخرى بعد كلمة « النصارى » . وهنا لا بد أن نتعرف على
زمنية الصابئين ، فقد كانوا قوماً متقدمين قبل مجيء النصرانية ، فإن أردنا أن نعرف
زمانهم نجد القول الحق يقدمهم على النصارى ، وإن أردنا أن نعرف منزلتهم فإننا
نقرؤها في موضع آخر في القرآن ونجدهم يتلون بعد « النصارى » . إذن فعندما أخرج
الحق لزمانهم جاء بهم متقدمين ، وعندهم أرح لكتهم وصددهم ومقدورهم يؤجرهم
عن النصارى ، لأنهم أقل صلوة فهم لا يحلون جمهرة كثيرة كالنصارى

وجاء به الحق مرة منصوبة ومرة مرفوعة ، لتعرف وبلغت إليهم . وكسر
الإعراب كان لمقتضى لفت الانتباه . وكان الصلوة قوماً يجدون الكواكب والملائكة ،
وهذا لون من الضلال .

إذن فهناك اليهود الذي عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء موسى عليه السلام مبلياً
عنه ، وهناك النصارى الذين عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء عيسى ابن مريم - عليه
السلام - مبلياً عنه ، وهناك المتأخرون الذي أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولكن لم يلمس
الإيمان قلوبهم .

وأراد الحق أن يلفتنا إلى أن الصابئين هم قوم خرجوا عن دائرة التسليم بوجود إله خالق غيب ، ومحدثنا الحق أنه يغفر لهم إن آمنوا وعملوا صالحاً . فالإيمان بالله شرط أساسى لقبول العمل الصالح والإثابة عليه . وجاء بهم متقدمين عن النصارى احتراساً وتوقياً من مظنة أنه لا يعفو عنهم إن آمنوا وعملوا العمل الصالح .

ولملاحظ أنها جاءت أيضاً في معرض جمع الله فيه بينهم وبين من يعملون أغياراً من دون الله ؛ لأن من يلصق ألوهية بغير الله يكون كمن عبد الكواكب ونخرج عن التوحيد .

إنه سبحانه وتعالى يتيح لكل إنسان أن يدخل حظيرة الإيمان ويقيم تصمة عقيدة يدخل فيها الكل إلى رحاب الإيمان ويقطعون صلة لهم بالشرك . فلو آمن المنافقون واليهود والنصارى والصابئون وعملوا الصالحات فلهم الأجر والثوبة من الله ولا خوف عليهم من عذاب الآخرة ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ، وجاء العمل الصالح بعد الإيمان ؛ لأن الإيمان إذا لم يفتّر بعمل صالح يكون عرصة للسلب والعياد بالله ولا فائدة فيه ، وسبحانه يريد أن يسيطر الإيمان على حركة الحياة بالعمل الصالح فهامر كل مؤمن بصالح العمل حتى يكون لهم الأجر عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

أما الدين يصرّون على موقفهم الكفرى ، فإن الله يفصل بينهم يوم القيامة لأنه على كل شيء شهيد . وكلمة « يفصل » تدلنا على أنه سبحانه وتعالى سيصدر الحكم الذى يبين صاحب الحق من غيره . ونعرف أن الذى يحكم إنما يحكم بيته . والبيته هي الإقرار ، والإقرار - بلفظ القانون - سيد الأدلة . أو الحكم بشهود ، أو الحكم باليمين ، وهو سبحانه يفصل بين المواقف المختلفة والمصل هو القضاء بحكم . وعندما يكون الذى يحكم هو الذى شهد ، فهو المعادل . لذلك قال الحق : « إن الله على كل شيء شهيد » .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ قَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ لَآتِهِمْ
أَنْفُسَهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ٧ ﴾

والميثاق هو العهد المؤكد الموثق ، الذي يفتحي الوفاء الشديد ولا توثق العهود
إلا مظنة المحالفة . والمواثيق في الإيمان بالله كثيرة فهناك الميثاق الأول عندما كما
جميعاً في ظهور الأنبياء

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنِيَّ أَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ۚ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

أو الميثاق الذي أحده الله لنصرة رسول الله صل الله عليه وسلم
﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَتَسْهَبُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٨١ ﴾

(سورة آل عمران)

أو الميثاق الخاص الذي أحده عن كل أمة وفي كل جريئة من جريئات الدين
يؤخذ ميثاق ، فحين في الإسلام مأخوذ عليها الكثير من الميثاق وكذلك رأينا النبي
وقد أخذ لنفسه الميثاق في العقبة ، رأى الرسول أن ما يربطه بالأوس والخزرج
الكثير ، كما يربطه بكل قوم يحضرون إلى الوحدة تحت راية إيمان واحد ، وكان اليهود

يعتبرون عرب الأوس والخزرج مجرد هيج ونخدم يعملون لهم ، وارتأوا السيادة لأنفسهم . وكلما اختلفوا معهم هددوهم بحجى رسول قادم سيؤمنون به وسيفتلونهم تقبلاً .

وكان كل من الأوس والخزرج يحاول أن يستميل اليهود إليه ، فالأوس خالفت بنى قريظة وحالف الخزرج بنى قينقاع وبنى النضير . وتلقى الاثنان الوعيد من اليهود بعد ظهور النبى القدام ، وذلك ما جعل كلًا من الأوس والخزرج يسرع إلى التعرف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء في موسم الحج نفر من ستة رجال ودعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأمنوا به صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بهم من العداوة والشر ما يبهم معي أن يجمعهم الله لك فستقدم عليهم فتدعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم لذي أجسادك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

وجاءوا في العم الذي إلى ذلك إلى موسم الحج وزادوا حتى صاروا اثني عشر رجلاً . وكانت المعاهدة ألا يشرك منهم أحد بالله وألا يسرق وألا يروى وألا يقتل أولاده وألا يأخذ يهتان يفتريه بين يديه ورجليه ، ولا يعصى رسول الله في معروف وعادوا إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن وفي العام الثالث جاء ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما سيبه بنت كعب أم عمار ، وأسماء بنت عمرو عدى ، وكانت مبايعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى ذلك إرباب قريش ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم

(أبايعكم على أن تحمقوا عما تمعقوا منه نساءكم وأبناءكم) فخذ البراء من معروف بيده ثم قال . نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنصنعك عما نمنع منه رومًا مايفتنا يا رسول الله ، فتحرى والله بنو الحرب وأهل الخلفة (السلاح) وتكلم أبراهيم بن لتيهان فقال : يا رسول الله إن يسا ويبر الرحال حبالاً وإن قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أعهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فسبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم وأهلم الهدم ، أنا منكم وأنتم معي أحارب من حاربتهم وأسأله من سألهم . وسط يده صلى الله عليه وسلم مبايعوه وكانت بيعة العقبة مشافاً يصمن لأهل البيعة الحنة إن أوتوا به وقد أوتوا وهذا

لأن من اليهود والنصارى وحين يخبرك الحق هنا أنه أحد من بنى إسرائيل الميثاق ،
بمعنى ذلك أن هناك عهداً موثقاً مؤكداً .

﴿ فَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى
أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد أخذ الحق الميثاق وأرسل رسلاً بالإنجيل ، فكلمهم كلما جاءهم رسول
تباحثوا . هل المسيح الذي جاء به على هراهم أو لا ؟ فون لم يكن المسيح على هراهم
قتلوا الرسول أو كذبوه على الرغم من أن الميثاق عهد مؤكد مانع الرسول إن جاء
بمحمزة ومنهج ملاحاً من الله وتنفيذاً له في حركة الحياة
لكن بنى إسرائيل كانوا يترددون عن مباحج لرسول لأنها لا تأتي في تهواه أنفسهم
وأول التمرد التكذيب وهو أول خطوة في طريق الإحلال بالحق ، ولم يكتفوا
بالتكذيب ، إنما حولوا حصار الرسول حتى لا يصل المسيح إلى أذان تهتدي به
ولذلك لا يكتفون بالتكذيب بل قد يقتلون الرسول لأنه جاء بما لا تهوى أنفسهم

ما هو الهوى أولاً ؟ هو من مادة : الهاء والنون والالف المقصورة أي ترسم ياء ،
ويجعلها منطوقة مرة هوى ومره هواء ومرة هوى ، بصم هاء وكسر النون
وتشد البد الياء ، وكلها تدل على التعلق والانجذاب وهوى هو بصف الشيء في
النفس ، الميل إليه فالحشيء تستلطفه في نفسك فسرع إليه بروحاً وقد يكون غير
مستحب أو غير مبول ولا مشروع .

وهل كل الهوى كذلك ؟ لا ، لأن هناك هوى الإيمان الذي علمت إليه رسول الله
صل الله عليه وسلم حين يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هوى تعلقاً لما جئت
به » (١)

إذن فمن الممكن أن يتجه الهوى إلى الخير . وهو الهوى الذي يحمل النفس على أن
يسير الإنسان تبعاً للحق . أما الهوى فهو الذي يتنصسه الإنسان ويستحب من

(١) رواه البيهقي في شرح السنة ، ونجدي في منكر المصاحح والحقى إحدى في بحر نبال .

الأكسجين ليغذى به الجسم وتسير به الحياة . ولذلك يقول الأثر : وأقبلت
كانت نفس المرتد .

إنه الإقبال الرقيق ، فمن عرف أننا إن أكلنا شيئاً نحبه فإننا نشعر بطعمه ،
وعندما نشرب شيئاً نحبه فنحن نتلوق طعمه ، أما التنفس فهو أمر لا إرادى ،
فعندما نتنفس شيئاً نحبه يكون إحساساً لطيفاً .

وهناك نطق ثالث ويمرر عن السقوط ، وهو الهوى من هوى هوى - بالكسر للوارى -
ولذلك يقال : هوى الدلو ، أى زول النلو إلى المياه التى فى البئر . هوى نوع من
الهوى تقصده الآية ؟

يقول الحق : « كلما جاهدكم رسول بما لا تهوى أنفسكم فرياً كذبوا وفريقاً
يقتلون » إذن فالهوى الذى يُشَدُّ عنه هنا هو هوى النفس المجردة عن المنهج ، وهو
الذى يتحكم فى حركة هذه النفس ويقودها إلى غير طاعة الله . وهل ترك الحق
النفس الإنسانية دون عاصم لها ؟ لا ، لأنه أنزل الرسل تحمل مهبجاً مخلصه
« افعل » و « لا تفعل » . وهكذا يمكن أن يصير المنهج قياً على خواطر النفس .

لكن لماذا الحق قد أراد أن يكون المنهج قياً على خواطر النفس ، فلماذا أوجد
النفس ؟ لقد أوجد سبحانه النفس لأن وجودها يشق عليه أن يهوى إنسان الحق
والحلال لاستبقاء النوع ولجمود العمل لحلال الرزق . إذن فالغريزة تكون موجودة
وقد خالفها الله لهمة ، ولكنه يعصمها بالمنهج من الخروج عن مهمتها .

ويقول فائل : مادام الله قد خلق غريزة الجنس . . فلماذا لا تتركها لتعبر عن
نفسها ؟ ونقول له : اتق الله واعلم أن الغريزة الجنسية إنما جاءت لبقاء النوع ،
واستعدادها فيما يغضب الله فناد للنوع وانحراف يعاقب عليه المنهج .

وكذلك أوجد الحق غريزة حب الطعام ليقوم الإنسان حياته ولم يوجد لها للفضاء
على الحياة بالنهم والتمخمة والشره . وكذلك غريزة حب الاستطلاع ليست موجودة
للتجسس على الناس ، ولكن هى لاستكشاف أسرار الكون واستنباط الجديد فيه

ينفع الناس . إذن فكل غريزة إنما توجد من أجل مهمة ، فإن خرجت عن مهمتها ، فالشرع يتحكم ويقول . لا . إن هناك إلهاماً يمكن أن تستخدم فيه العرائز ، والشرع إنما يأمر لا يمحوا العرائز ، ولكن ليعلن من الغرائز ليستعملها الإنسان فيما ينفع لا فيما يضر

ويقال في المثل العربي : « آفة الرأي الهوى » فإذا ما وقف انسان أمام القاضي وأحدهما مظلوم والآخر ظالم فالقاضي العادل هو الذي يرفع الظلم عن المظلوم حتى وإن كان له هوى مع الظالم ولذلك نجد الحق قد عصم ورسوله فقال :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴾

(من الآية ٢ سورة النجم)

والسطحيون هم الذين لا يلتفتون إلى عظمة هذا الأداء البياني ويتساهلون : ملهم الحق يصوب لمحمد فكيف إذن لا ينطق عن الهوى ؟ ونقول : أنتم لا تحنون القهم عن الله ولا عن رسول الله ، فعدما صوب الله لرسوله لم يكن الرسول قد خرج عن حكم إرادته الله ، ولم يعدل حكماً لله حسب هواه الشخصي ، وإنما هو ببشرية صلى الله عليه وسلم كان يصل إلى حكم ما ويراها ثم ترى السماء تعديلاً له ، فينطق بمحمد بالتعديل كما أنزله الله ولم يجالط صلى الله عليه وسلم ربه في أي أمر وحاش كل تصويب لله في أشياء لم يبق فيها حكم ، وكان كل تصويب قد جاء لاجتهاد شرعي من رسول الله ، ولم يكن في ذلك أي هوى .

وحيث قال الحق : (وما ينطق عن الهوى) إنما يبين أنه لم يكن عند محمد حكم من الله يخالفه الرسول صلى الله عليه وسلم اتباعاً للهوى ، فمعنى الهوى أن يكون هناك مذهب ثم يعدل عنه ، وكل التصويبات التي صوّها الله جاءت في أمور لم يكن فيها حكم . وهذا نجد تصويب الحق لرسوله ينسم بالالطف ، فيقول سبحانه .

﴿ عَمَّا أَفْتَىٰ ۚ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَظَنُّوا أَنَّهُ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَدْعُهُمْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۚ ﴾

(سورة التوبة)

وهذا العفو لم يكن نتيجة لمخالفة حكم من أحكام السماء ، ولكن هو عفو مسموح : لأن رسول الله أحد بالاجتهاد الشرعي في الأمور التي لم يكن فيها حكم الله ، وهو قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ رَحِّمْ مَنَ أَسْلَ أَفَهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة النور)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرّم أموراً على نفسه ، ولم يحرمها على الناس ، وهنا يوضح له الحق لا تحرم على نفسك ما أحلّ لك . إذن هذا أمر لمصلحة الرسول . وعندما جاء زيد بن حارثة ليخبره بأن يكون مع رسول الله كعبد له ، وأن يكون مع أمه ، أثر زيد رسول الله ، فكافأه صلى الله عليه وسلم بأن جعله في مقام الابن ، وكان النبي محروماً عند العرب ، وبأدى الناس زيدا يريدون محمد ، فلما أراد الله أن يعطى النبي قال : (ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله)

وكلمة « أقسط » تعني عدل ، ومعناها أن القسط أيضاً في دثرة العدل وعدم . يقال : فلان له القسط ، أي له العدل . إذن فالقسط أولاً لرسول الله ، ولأكثر قسط هو حكم الله ، فكانت يا محمد قمت بالقسط عند البشر ، ولكن الله يريد لك الأنسط

إذن فقول له الحق سبحانه : (وما ينطق عن الهوى) هو قول لا يستدرك عليه من مخالف النهج الإسلام ، فإذا ما قال مخالف للنهج الإسلام ، إن الله يصوب لمحمد . فكيف لا ينطق محمد عن الهوى ؟ . يقول . وهل تعرف معنى الهوى ؟ إن الحكم بالهوى يعني أنه وجد حكم الله فيعد الحكم طواه ، ولم يحدث ذلك من سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكل تصويب من الله لم يأت على لسان رجل آخر ، إنما جاء على لسان رسول الله نفسه . وهذه هي منتهى الأمانة في البلاغ عن الله .

والحق يقول عن بني إسرائيل : « كلنا حاءهم رسول ي لا نهوى أنفسهم هريقاً كذبوا و هريقاً يقتلون » إذن فهم هريقان منهم من لا يقبل على الإيمان بالنهج الهوى في نفسه فيكذب ومنهم من يقتل نفسه بالبدد وشبهة الخصومة على الرسول ويحشي أن يحيا الرسول للإبلاغ قوم آخرين . فيحاول أن يعطى الرسول

والتكذيب هو أول نقطة في اللدد ، ثم هناك من يترقى في اللدد ويبحثي أن يصل البلاغ إلى قوم آخرين ليحاول أن يقتل الرسول . والتكذيب هو إنكار لقول أو فعل . أما القتل فهو إزالة لأصل الحياة . والذي يقتل هو الأكثر لهدأ .

ونتجنب دقة القرآن حين يأت الحق بصيغة الماضي ، لعنة وصيغة المضارع لعنة أخرى : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » لأن التكذيب هو تأب من المكذب ، أما القتل فهو تأب على وجود الرسول من الذين يكذبون . والأشع هو القتل ، لأنه إزالة لكل أثر من آثار وجود المقتول . وجاء التكذيب في صيغة الماضي وجاء في المسألة لبسمة بصيغة المضارع

فما حدث حين يكون بشعاً فهو يبرد بعد مرور فترة من الزمن . وهذا ما يجعل المجتمع يشود عندما تحدث جريمة مشعة ، ولكن ما إن يمر عليها عشر سنوات ويصدر الحكم بقتل المجرم لا يتفعل الناس ، بل منهم من يتعاطف مع المجرم . ولذلك يحذرون الحق أن منسح من الادهان صورة قتلهم للرسول ، بل يجب أن يستحضر بشاعته دائماً فلا يعطف على الذين قتلوا الرسول ، وقد قال عليه العريفة إن لتعبير بالفعل المضارع يكون لاستحضار صورة الفعل .

وساعة يأمر القاضي العادل بالقصاص من إنسان قتل إنساناً آخر ، فهو لا يجعل القتل حدثاً مسياً لأنه ماضٍ ، بل يستحضره في ذهنه وكأن دمه مراً ينزف ومكان الطعنة واضحاً ، لأنه لا يأخذ شيئاً مستوراً بالماضي ، بل يأخذ شيئاً واقعياً الحال . وكان الحق يأمرنا باستحضار صورة ما حدث أمامنا . ومثال آخر لاستحضار الصورة : سجد الحق بقولك :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَوَّلَ مَنْ أَلْهَمَ مَاءً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

إنه أول الماء ، لكنه يتبع ذلك :

﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الحج)

هو سبحانه يستخدم العمل المضارع لتظل الصورة في أذهاننا مستحضرة في الحال وفي الاستقبال . والحق يقول : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » وكيف يقول الحق : إنهم يقتلون الرسل ، والرسل لا تقتل ، وأنه سبحانه يريد أن يجعل لهم من العمر ما يمكنهم من تمام البلاغ عنه ، إن الأنبياء فقط هم الذين يجوز عليهم القتل ؟ ونقول : إن الأنبياء رسل أيضاً بدليل أن الحق قال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إن كليهما مرسل ، والفرق أن الرسول يصحب ويرسل معه مبعوثه ، والنبي مرسل كنموذج هداية بمنهج قد سبق . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثَمَمًا
تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِنْهُمْ
وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

« وحسب » إن كانت بفتح الحاء وكسر السين فمعناها الظن ، وإن كانت بفتح الحاء وفتح السين فبمعنى « عدد » ، والحسبان هو أن تظن وترجع وجود الشيء . والذين أخذ عليهم الله الميثاق وهم - بنو إسرائيل - ظنوا أن تكذيب الرسل وقتلهم لا يكون فتنه . ومعنى أنهم لم يعلموا علم اليقين ، وقد رجحوا ألا تكون فتنه والأصل في الفتنه - كما قلنا - عرض الذهب على النار ليتم تنقيته من الشوائب والفتنة - كما نعرف - هي الاختبار ، إما أن ينجح فيه الإنسان وإما ألا ينجح فكيف جاءهم الظن أن هذا ليس اختباراً ؟ لقد جاءهم هذا الظن من الخطأ الذي وقعوا فيه عندما قالوا :

﴿ نَحْنُ أَسْتَوُا لِلَّهِ وَاحْسَنُوا ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

والخطأ الذي تمادوا فيه عندما قالوا .

﴿ لَنْ نَحْمِلَهُ الْكَسْرَ إِلَّا أَبَآمًا مَعْدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

لقد ظنوا أن الحق سبحانه فقط على عبادة العجل ولن يعاقبهم على أي شيء آخر . وكان هذا خطأ خادشاً إن المنهج لم يأت ليحسب أساساً بدوائهم بها فعنو . ولكن المنهج جاء ليحاسب كل إنسان حسب ما عمل . ومن العجيب أنهم ظنوا الطل الخاطيء ولم يقوموا بحساب الأمر بحسبه الصحيح على الرغم من أنهم أهل تفوق في العد والحساب ، فالحساب هو الذي يضمن صحة أمر أو يكذبه . ومن العجيب أن من رحمة الحق بالخلق ساعه يواجههم فهو يقول : لك كذا وعليك كذا لكن ساعه يرزقهم فهو يرزقهم . بغير حساب

ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك وقال عنهم الحق : « وحسبو ألا تكون فتنة » أي ظنوا أن ذلك الأمر لا اختار فيه وأنهم غير محاسبين عليه . ويعرف أن « أن » تنصب الفعل . وقال لي مائس : لقد سمعت قارئ القرآن في المدياع يظننها « وحسبوا ألا تكون فتنة » .

وقلت له : إن هناك ثلاثة من أكار القراء في صدر الإسلام هم « أبو عمرو » و « حمزة » و « الكسائي » ، وكان لكل منهم أسلوب مميز . وعندما يعلم أن « أن » تنصب الفعل لا بد أن يكون الفعل الذي يليها لا يدل على العلم واليقين والثبوت . « فإن » بعد العلم لا تنصب ، كقوله الحق

﴿ عَلَّمَ أَنْ يَكُونُ بِكُمْ مَرْصُومًا وَأَحْرُوفٌ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الرمل)

وألمية ابن مالك تقول (وليس نصبه وكى كدائماً لا بعد علم) . أما « أن » التي من بعد ظن فمن الممكن أن تنصب ومن الممكن أن يُرفع الفعل بعدها ، قالدي رجع وجود الفعل وأدركه إدراكاً راجحاً يرجع ، والذي لم يكن لديه هذا الإدراك الراجح ينصب ، والرفع هو قراءة الكسائي وأبو عمرو وحمزة . فقد سوا الأمر على أن الرجحان يقرب من اليقين . ومادام قد حدث ذلك تكون « أن » هنا هي « ن » المؤكدة ، لا « أن » الناصبة ويسمونها أن المحففة من الثقيلة فأصلها أن . « وحسبوا

« لا تكون فتنة » . وثاني « فتنة » بالرفع لأنها اسم تكون . و « تكون » من « كان » .

و « كان » لها اسم مرفوع وخبر منصوب . وهي هنا ليس لها خبر ، لأنها من « كان التامة » . فهناك « كان الناقصة » وهناك « كان التامة » . ونقول ذلك حتى نتقن فهم القرآن ، مثلما نقرأ قوله الحق .

﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۖ ﴾ (من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

و « كان » فعل ماضٍ ، و « ذو عسرة » اسم كان التامة ، لذلك لا خبر لها ، لأن المقصود هو القول : « وَإِنْ وَجِدَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ » . ولا بد لنا أن نعرف ما معنى « تام » وما معنى « ناقص » ؟ نعلم أن كل لفظ ننطق به يدور حول أمرين اثنين ، إما لفظ مهمل وغير مستعمل وإما لفظ مستعمل . والمستعمل هو الذي له معنى يصل إلى الذهن ساعة نطقه ويستقل به الفهم ، فإن كان لا دخل للزمان فيه فهو الاسم ككلمة « أرض » و « شمس » و « قمر » . وهناك لفظ لا يستقل بالفهم كحرف الجر « في » مثلاً . صحيح أنه يدل على شيء في شيء ، ولكنه لا يستقل بالفهم ، لذلك لا بد أن ينضم لشيء ، كقولنا : الماء في الكوب أو قولنا . التلميذ في الفصل . فإن كان للفظ معنى ومستقل بالفهم ، والزم له دخل فيه فهو الفعل .

مثال ذلك قولنا : السماء . إن السماء كانت في الماضي وهي في الحاضر وهي في المستقبل . إذن فالزمن لا دخل له بها ، وكلمة « كلوا نجدها تأتي من الأكل ، وهي معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه . ولفظ « في » يدل على معنى غير مستقل بالفهم فلا بد من أن ينضم لشيء آخر .

إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى قد يكون مستقلاً بالفهم أو غير مستقل ، فإن كان مستقلاً بالفهم فإننا نسأل : هل الزمن جزء منه؟ وفي هذه الحالة يكون « فعلاً » وإن لم يكن الزمن جزء منه فهو الاسم . وإن كان غير مستقل بالفهم ويريد شيئاً آخر ليستقيم المعنى فهو « حرف » .

وهكذا تعرف الألفاظ . والفعل هو معنى زائد عليه زمن « كقولنا : أكل » فهو
نعم تناول إنسان طعاماً في زمن ماضٍ ، وهكذا نفهم قولنا : « كان » . فإن قلنا
« كان » بمعنى حدوث شيء في الماضي ، كقولنا : « كان زيد مسافراً » فهو ناقصة
وفي صيغة هذا نفهم قول الحق :

﴿ وَإِنْ كَانَ دُورُ عُمْرِهِ قَاطِرًا لِّأَنْ مَّيْسَرَةً ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

فإن أردت الوجود فقط من غير شيء حديد طارئ عليه ، فالفعل يكون تاماً
لا يحتاج إلى خبر . وإن أردت الوجود مع أي شيء آخر فهو الفعل الناقص الذي
تكملة به خبر . مثل قوله تعالى « وحسبوا ألا تكون فتنة » أي ألا توجد فتنة ، فهو
لا يحتاج إلى خبر

وكان مثل بني إسرائيل كمثل التلميذ الذي يذهب إلى المدرسة ولا يعلم أب فيها
اختياراً آخر العلم فيمنع الوقت في غير تحصيل ولا حد ولا اجتهد بل في هو
ولم . وكان هذا حسباناً خاطئاً ، لأن المسيح لم يات احتباطاً ، ولكنه جاء كخاتم
حركة للحياة ليعمله المؤمن . وكان المفروض أن يستقبلوا المسيح على حسب تعاليم
المسيح ومن المحبب أنهم ضلوا ولم يحسبوا بالحساب على الرغم من أنهم أهل علم
بالحساب . فهم حسبوا - بكسر السين - وما حسبوا - بفتح السين - وكان المفروض
أن يقوموا بالحساب ، فالحساب هو الذي يقصر صحة المسائل

وكل شيء عند الله يكون بالحساب ، حساب للعبد وحساب عن العبد
« وحسبوا ألا تكون فتنة » أي طمأنوا أنها ليست اختباراً وظنوا أن الرسائل والمناهج
هي مسألة لا اختبار هم فيها . فلما عرفوا نعموا عن ذلك وصحوا أداهم عنه
وبعلم أن وسائل الإدراك في النص البشري هي السمع والابصار والافتد

﴿ وَاللَّهُ أَرْحَمُ بِمَنْ يُنْظَرُ أَتَهْتِكُ لَا تَقْبُولُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

إذا فوسائل الإدراك : سمع ، وبصر ، وفؤاد . وما نراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه . أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غير له . وذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين . والسمع هو وسيلة الإدراك التي توجد أولاً في الإنسان حين يولد . ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شيء من عينيه ، لأنه لا يرى بدقة وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ومن بعد ذلك يبدأ في الرؤية . لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه يتفعل ، كأن حاسة السمع هي التي توجد أولاً ، ولذلك يأتي لنا الحق بذكر السمع أولاً ومن بعد ذلك الأبصار ثم الأذنلة .

« صموا وصموا » وهو سبحانه يسألهم أولاً من التجربة الشخصية فيهم ، ولم يسألهم عن الذي سمعوه عن غيرهم فقط ، « فعموا » أي لم يروا حتى لأمر المتعلقة بهم ، ولم ينظروا في آيات الكون ولم يسمعوا البشير ولا النذير ولا المنهج من الله ولا اتقفوا على تنبيهه . ومبعضاته يعاتبهم أولاً على ما يتعلق برؤيائهم هم ، فالأذن تسمع من الغير ، لذلك أحل عليهم أولاً أنهم لم يستعملوا عيونهم . وحتى لو امتنعنا عنهم لم يروا آيات الكون بأنفسهم فما بالهم لا ينظرون وقد جاءهم الرسول ودعاهم لينظروا في كون الله وأن يعتبروا .

فإذا كانوا أولاً في غفلة فلم يروا ، فلماذا لم يتنبهوا ويسمعوا سماع إيمان وانقياد عندما جاءهم البشير والنذير لينبههم ، لذلك « فعموا وصموا » منطقياً جداً هنا .

وبعد ذلك قبل الله منهم ، وأجابهم من فرعون وطلق لهم البحر ، وصبروا ، ولكنهم بمجرد خروجهم من البحر ، وسروا على قوم يحكفون ويلرمون ويقبلون على أصنام لهم يعبدونها . قالوا لموسى : نريد إلهاً كما لهم آلهة . وأمرهم موسى أن يتوبوا وقبل الله توبتهم مع كثرة ما ارتكبوا من ذنوب . ومن بعد ذلك يتوب الله عليهم . « ثم تاب الله عليهم » .

والتوبة هي فتح مجال للنفس السوية لنتطلق في الخير من جديد ، فلر لم يتوب الله على من أذنب فعاداً يكون مرقف الذنب بلا توبة ؟ إنه يتمادي ويحس أنه ظالم في طريق الشر بلا عودة . حين يقبل الحق توبة الذنب ، فذلك معناه أنه سبحانه يريد أن يحمي المجتمع من شره . والتوبة مراحل الأولى : حين يشرع الله التوبة ، والثانية : أن يتوب العبد . والثالثة : هي قبول الله للتوبة . وهذا ما جاء به الحق .

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ماذا تعني توبة الله عليهم ؟ سبحانه لن يتوب عليهم توبة القبول إلا بعد أن يتوبوا . إذن توبة الله عليهم الأولى هي التشريع لهم بالتوبة ، ثم توبتهم ، ثم قبول الحق للتوبة . لكن هؤلاء عموا وطمعوا ، وعلى الرغم من ذلك لطف الله بهم . فإذا حدث منهم بعد ذلك ؟ عموا وطمعوا مرة أخرى « ثم تاب الله عليهم ثم عموا وطمعوا كثير منهم والله بصير بما يعملون » .

« وطمعوا » مأخوذة من الفعل « طمع » ، ومثلها مثل « أكلوا » و« شربوا » و« حضروا » ، فأي الفاعل ؟ الماعل هو « واور الجماعة » . وابن مالك قد طبع المسألة ، فساعة تسند الفعل إلى اثنين أو إلى جماعة ، فلا بد أن تجرد الفعل من علامة التثنية أو الجمع ، فلا نقول : « فاما زيد وعمر » ولكن نقول : « قام زيد وعمر » ، ولا نقول : « قاموا التلاميذ » بل نقول : « قام التلاميذ » ، لأن بدلوا « التلاميذ » هو بدلون « التلاميذ » ، قال ابن مالك :

وجرد الفعل إذا ما أسندا لاثنين أو جمع كـ « طاز الشهداء » أي أن الفعل إذا أسند لثنى أو مجموع وجب تحريكه من العلامة التي تدل على التثنية أو على الجمع . أما كلمة كثير فتعرب إما على أنها البدل من واور الجماعة ، وإما على إضمار مبتدأ أي العَمَى وَالْعُمَمُ كثير منهم ، وإما على أنها فاعل ويكون ذلك قد جاء على لغة طائفة من العرب وهم بنو الحارث بن كعب ، وهؤلاء قد يكونون بعلامة تدل على التثنية أو الجمع إذا أسند الفعل إلى اسم ظاهر مثنى أو مجموع مثل : قاموا الرجال وسافروا محمد وعلى .

وحمل بعضهم قوله تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » على هذا ، وكان قول الحق : « كثير منهم » صيانة للاحتيال بأن قلعة منهم تدبر أمر الإيمان في قلوبهم ، وكلمة « كثير » جاءت حتى ننتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يعمل أبداً القلة التي تدبر أمر الإيمان في خواطرهم . ليؤكد ويعاضد ما جاء في قوله تعالى : « وإن أكثركم فساقون » . « ثم عموا وطمعوا كثير منهم والله بصير بما يعملون » و« بصير » مثلها مثل « عليم » ، أي شاهد وليس مع العين أين . ويقول الحق من بعد ذلك :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ
رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَدَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾

وهناك ثلاث آيات تعرض لهذه المسألة « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » والآية الثانية :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة النصارى)

والآية الثالثة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَى ابْنُ مَرْيَمَ أَتَى النَّاسَ الْغَافِلِينَ وَأَتَى الْقَوْمَ الْهَاسِلِينَ مِنْ قَوْمٍ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴿١١٦﴾ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة النصارى)

إذن فالخلاف في المسألة جاء على ثلاث صور :

طائفة تقول . المسيح هو الله . وطائفة تقول . إن المسيح هو إله مع اتس
آخرين . وطائفة تقول . إن المسيح هو ولده إلهان . ولكل طائفة رد . والرد يأتي من
أبسط شيء نشاهده في الوجود للكائن الحي ، فالإنسان - كما يعرف - سيد الكون
والأرض منه يخدمه . فالإنسان يحتاج إلى الحيوان من أجل منفعته ، وكذلك يحتاج
إلى النبات والجسد . هذا السيد - الإنسان - يحتاج إلى الأدنى منه . والحق سبحانه
وتعالى أراد أن يرد على تآليه سيئنا عيسى وسيدتنا مريم ، فقال -

﴿ كُنَّا بِأَكْلَانِ الطَّعَامِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النصارى)



وهذا استدلال من لوصح الأدلة . لا للميلسوف فحسب ولكن لكل المستنعات ،
فياداما يأكلان الطعام فقد احتسبا إلى الأبد منها . والذي يحتاج إلى الأبد منه
لا يكون الأهل ولا هو الواحد الأحد . والمتبحرون طيه الفرق الثلاثة مختلفون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولا تقولوا ثلاثة » وكلمة « ثالث ثلاثة » تستعمل
على أنه واحد من ثلاثة لكن غير معين . فكل ثلاثة يسمعون معاً ، يقال لكل واحد
منهم إنه « ثالث ثلاثة » . وليس هذا القول بمنزلة إلقاء في حادثة واحدة ، أن تقول
ثالث ثلاثة آمة ؛ لأن الإله لا يتعدد . ويصح أن تقول كلمة : « ثالث اثنين » لأن
الله يقول :

﴿ مَا سَكُنَ مِنْ جَحِيمٍ لَأَبْرِئَهُمْ إِلَّا هُورًا بَعِيثًا وَلَا تَمَّةً إِلَّا هُورًا سَدِسًا ﴾

(من الآية ٧ سورة المجادلة)

إذن فمن الممكن أن يقول : هورايح ثلاثة ، أو خامس أربعة أو سادس خمسة
وهو الذي يصير الثلاثة به أربعة أو يصير الأربعة به خمسة أو يصير الخمسة به ستة
إننا إن أوردنا عدداً هو اسم فاعل وبعد ذلك أضفناه لما دونه ، فهذا تعيين بأنه
الآخر . فإن قال قائل : الله رابع ثلاثة جالس . فهذا قول صحيح لكن لو قلنا
إسم آله فهذا هو المحرم . والمسوع ، لأن الإله لا يتعدد

ويلاحظ أن الحق لم يقل : ما يكون من نجوى اثنين إلا هورائهم ؛ لأن النجوى
لا تكون إلا من ثلاثة ، فإن جلس اثنان معاً فهما قد يتكلمان معاً دون نجوى ؛ لأن
النجوى تتطلب ألا يسمعهم أحد . والنجوى مُسَارَّة ، وأول النجوى ثلاثة . ولذلك
بدأها الحق بأول عدد تطبق فيه ، فإن قلت : « ثالث ثلاثة » فهذا قول صحيح إن
لم يكونوا ثلاثة آله .

والحق أراد أن يدفع هذا القول بالطلال حين قال : « كنا يأكلان الطعام »
والطعام مقوم للحياة ومعطى للطاقة في حركة الحياة ؛ لأن الإنسان يريد أن يستبقى
الحياة ويريد طاقة ، والطعام أدنى من الإنسان لأنه في خدمته ، « فإذا ما كنا يأكلان
الطعام فهما في حاجة للأبد وإن لم يأكلا فلا بد من الجوع والفراق

ولذلك فهما ليسا آلهة . بعضهم يقول : « كانا ياكلان الطعام » هي كناية عن شيء آخر هو إخراج الخبث . ونقول : ليس إخراج الخبث ضرورياً لأن الله سيطلعنا في الجنة ولا يخرج منا خبث . فهذا ليس بدليل . ويرتقى الحق مع الناس في الجدل ، فاليهود قالوا في المسيح - عليه السلام - ما لا يليق بمكانته كنبي مرسل وقالوا في مريم عليها السلام ما لا يليق باصطفائها من الحق .

واليهود إذن يحصرهم المسيح . وأتصلر المسيح هم الحواريون ! فإذا كان لم يستطع أن يصنع من تحصره ما يحصرهم ولا مع حواريه ما يعمهم فكيف يكون إلهاً؟ والنص القرآني يقول عن مريم :

﴿ بِمَرْيَمَ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (سورة آل عمران)

والمسيح نفسه كان دائماً مع الله خاضعاً عابداً . والذي يعبد إنما يعبد من هو أعلى منه ، فالإله لا يعبد ذاته . وإذا كان هذا قول من يتسبون إلى السماء إيماناً بإله وإيماناً بمسيح ، فمماذا عن قول الذين لا يتسبون إلى السماء من الملاحدة الذين ينكرون الألوهية ؟

إذن كان من الواجب أن يؤمن المنسوبون إلى السماء بواسطة ماسيح وبواسطة أتبياء وأن يصفوا هذه المسائل فيما بينهم . وعلى سبيل المثال كان العالم موجوداً ومثلراً قبل المسيح فمن إذن كان يغير العالم من قبل ميلاده؟ ولذلك أراد الحق سبحانه جل جلاله أن يحسم الموقف . والقرآن يعلمنا .

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِبْنَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (من الآية ٢١ سورة سبأ)

أيمكن أن يكون التناقض محققين ؟ لا ، لأن أحدهما لابد أن يكون على هدى ولا بد أن يكون الآخر على ضلال . ولذلك نقول . كلامكم لا يلزمنا وكلامنا لا يلزمكم . ونعوذ الأمر إلى إله الذي يؤمن به . وحتى نضفي هذه المسألة بذكر قول الحق :

﴿يَتَّبِعْ قَتْلَ لَعْنَتِ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٦١ سورة آل عمران)

ويقول . اجعل لعنتك على الكافرين . حتى نخرجنا من هذا الخلاف ولا نجعل واحداً منا يسيطر على الآخر ، فالتصاحب الشان . بها نحن أولاء ما نصت وسان وأولادنا ندعو دعاء واحداً : اجعل لعنة الله على الكافرين ما وما نلاعس قوم وابتهلوا إلا وأظهر الله المسألة في وقتها ولم يصل أحد من أهل الكتاب هذه المسألة ، والحق يقرب :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
 (٧٣)

إذن فالدين لا يعلمون التوبة عن ذلك يعلمون في الكفر ويعلمون ثم ينجح الحق .

﴿أَهْلًا يَسْتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَأَلَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾
 (٧٦)

فكان هذا القول يقتضي التوبة واستغفار الحق ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا
يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ حَتَّىٰ تُبَيِّنَ
لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ إِنَّهُ يُوفِّكُون ۝٧٥﴾

وهذا آية ٧٥ ، يعني انصرف أو صرف ، أي يصرفهم غيرهم . وهذا يعني أن هذا
إيهام من الشيطان ؛ لأن المسيح عليه السلام ما هو إلا رسول مثل من سبقوه من
ارسل وأمه (صديقة) مصدقة بما جاء به ، والدليل على بشرتهما أنها يحتاجان
كسائر البشر لما يقوم حياتهما من طعام وشراب وكساء ، ولأن الوهيّة المقدسة منهم تتناقض
مع هذا الاعتقاد وهذا هو الإلفك بعينه الذي يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى .
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ
لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٧٦﴾

والعقل يستكر أن تعبد أحداً غير الله ، وغيره لا يملك أن يصيح النصر للحصوم ،
ولا النعم بنفسه أو لأشياعه وأنصاره بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوه ومضت عبى
عليه السلام أو الحواريون أن يصروهم ولا استطاعوا أن يفعلوا شيئاً يسمعون به
أنفسهم

ونحن الحق الآية بقول : « والله هو السميع العليم » . وكلمة « السميع » تدل
على قول « كلمة » العليم » تدل على شيء يدور في الخواطر ، وأشيء الذي يدور في
الخواطر أهو حراسة سلطة رسمية جعلتهم يقولون هذا الكلام ؟ إنه سبحانه العليم

بدلت . فإن كان قد حصل كلام فهو قد سمعه ، وإن كانت قد دارت حواطر في النفس فهو يعلمها ؛ لأن العاقل قبل أن يتكلم لا بد أن يدبر الكلام في النفس . وكل كلام لا بد له من نزوع . وهو سبحانه السميع العليم ألا وأند . ويقول الحق :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا
مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ
السَّبِيلِ ﴾ (٧٧)

عندما يوجد شيء مشترك بين النصارى واليهود يحدتهم الله بقرله . « يا أهل الكتاب، أما الشيء الخاص فهو يتحدث به لكل فئة بمفردها . والعلو هو أن يتطرف إنسان في حكم ما إيجاباً أو سلباً . وهو إما الإفراط في الملة العالية وإما التمریط في الملة الدنيا . ولذلك نجد المتناقضات دائمة في العلو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسيدنا عليّ - كرم الله وجهه - : « يا عليّ ، يهلك بك رجلاان . . . يحب عال وبعض عال » ويقول : « يا عليّ، لا يحبك إلا مؤمن ولا يعصك إلا منافق » (١) .

ويقول : « يا علي ستقاتلك الفئة الباغية » (٢)

إن هناك من أحب سيدنا علياً إلى درجة أنهم اعتبروه نبياً وقالوا . إن الوحي أوحى علياً وجاءه إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أو اعتبروا عبداً لها !! وكل ذلك علو ، فقد أحتوه إلى منزلة فيها غلو وإفراط .

(١) رواه الطبراني في الأوسط

(٢) رواه الشيخ المفيد في كرم المبال ، والمحفوظ في جامع المسند

أما الخوارج فقد قالوا عن سيدنا علي ، إنه كافر جاء العلوي - إذن - من ناحية
البحرين فجعلوه نبياً أو فوق ذلك ، يدخلهم في الشرك ، أو من المخضين القائلين بكنيته
وإخراجه من دائرة الدين ، ولذلك يجب ألا تغلروا في الدين فلا تحب إنساناً ونزاعه
فوق مستوى البشر ، ولا نبغض إنساناً ومول به إلى الخضبض . بل يجب أن نعطي
كل واحد قدره ومقداره الذي وضعه الله فيه ؛ لأن وضع الله له هو تكميمه :
﴿ قُلْ يَتَأَمَّلِ الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ
قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِّنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٥٧)

(سورة النازعات)

رجاء مثل هذا القول في آية أخرى :

﴿ يَتَأَمَّلِ الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وحق بهم أن مسألة الغلو إنما جاءت في ادعاءات ألوهية البشر ؛ قال الحق بعد
ذلك :

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ آخِزًا لِّكَ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنَّا ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

فلا داعي للغلو بنسب الألوهية له أو أنه ثالث ثلاثة فإن كنتم متشككين
ورسلتم إلى هذا الشك بسبب عدم عصر الذكورة في عيسى ، فافهموا أن كل
الأمور جاءت به ؛ كن ، ؛ لأنه وإن وجدت مقدمات للإنسان ، فوق هذه المسألة إلى
واحد لم يأت من إنسان ، ويستصل إلى آدم وأدم من نواب ؛ إذن كل الكون كلمة .
وإن وجدت أسباباً لها طموه الله في الكلمة الأولى ، فحين يحيى إنسان أمشيء
بكلمة فلا تقول : إن هذا شيء عجيب ؛ لأن الكون كله إنما نشأ بكلمة :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٧)

(سورة يس)

وإن كانت الفتنة قد نشأت في ظاهر الأمر من أن المسيح ليس له أب في عالم
الإنسان وقانون التناسل ، فما كان يجب أن تكون الشبهة في هذا ؛ لأنه مخلوق من
أم ، وأدم مخلوق بلا أب ولا أم . وكان يجب أن تكون الفتنة في آدم أكبر . والكلمة
من الله تسمى حياة والحياة إدخال روح في مادة لتبنيها الحركة والحس ومقومات

الحياة إذن فالكلمة فقال من الله فتلقى الروح لتدخل في المادة : (وكلتہ الغلغا إلى مريم وروح منه) « وروح منه » مثبها مثلها قال في آدم : ﴿ قَدْ آتَيْنَاهُ رُوحَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢١)

(سورة الحجر)

إذن فآدم كلمة ، وآدم روح منه ، وكذلك المسيح ، فلا شبهة هنا ولا شبهة هناك . ويطلب الحق من المنسوين إلى لسياء . (انتهوا خيراً لكم) . فإذا كنتم منسوين إلى السياء فلا تذهبوا أفكار الناس بمنزل هذه المسائل ، وكان يجب أن تفقروا بمعنى عندما أراد الله له من تكريمه ، لأن التكريم هو أن يكون أسوة حسنة ، فلو كان من جنس آخر غير البشر لامتنت الأسوة فيه ، لأن الأسوة إنما تكون من جنس من يتبها ، فلو رآه لناس حاشماً متعبداً لما استطاعوا أن يفعلوا مثله لو كان من مادة أخرى غير مادة البشر .

وقلت مرة : لو أن إنساناً رأى أسداً يعتمر في الغابة ويصوم ويحجول على الحيوانات ، أيعكر واحد من الرائي أن يجعل نفسه أسداً ؟ لا . لكن لو رأى فارساً مثله شجاعاً في حرب يصوم ويحجول في الأعداء فهو يقلده ويحاول أن يكون مثله . إذن فالأسوة لا تكون إلا مع وحدة الجنس ، فلو أنه لم يكن من جنس البشر لما صلح أن يكون رسولاً .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق » لقد جاء الحق هنا بالحديث شاملاً لكل أهل الكتاب ، لأن كلا منها جاء بطرق الأمور . فاليهود اتهموا سيدنا البنول المصطفية مريم بما ليس فيها ، ولولئك جندوا بالمعالة في الجهة الأخرى ؛ لذلك يأمرها الحق بعدم المعالة ؛ لأن الحق لا يتعاند ؛ فهو شيء ثابت لا يتغير أبداً ولا يتعارض . والإنسان إن رأى حدثاً من الأحداث بعينه ثم طلب منه أن يحكيه فهو يحكي الآن ويحكي غداً ويحكي بعد عام وتظل روايته واقعة لأنه شهده وهذا هو الواقع المشهود يفرض نفسه عليه ، لكن الكاذب لا يذكر ذلك ، وقد يفرون قضية ويكون فيها كاذباً فلا بد أن يغير من الحقيقة عندما يحكيها مرة ثانية . ولذلك يقال « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » .

إن الذي يحكم الحق هو واقعة ، لأن المتكلم به يستقرى واقعة . لكن الكاذب لا يستقرى واقعة فلا يعلم ماذا كذب في المرة الأولى . ونذكر الكاذب الذي جلس يقول : مرة كنا سائرين وخرجنا من القرية هاهين إلى المدينة لتأتى بحاجات عيد الفطر . وكانت الدنيا قمرًا كالظهر وقوله : « قمرًا كالظهر » هي التي تكشف كذبه ، فكيف يكون في ليلة العيد قمرًا ، وأول ليلة في عيد الفطر هي أول ليلة في شوال ، وليس فيها أي قمر ، الهلال يكاد يكون غفياً

إذن فالذي يستوحى واقعة لا يتغير كلامه لأنه حق . والذي يستوحى غير الواقع لا يذكر ماذا قال فيخلط لذلك لا يقول إنسان غير الحق لأن قوله سيتضارب وإذا تضارب هذا القول في مسألة الألوهية فإن الناس قد تشك في منهج السبأ الذي يتبعونه . وإذا شك الناس في منهج السبأ سيكون عليكم ودر إصلال الناس ، لأن الذي يتعرض هذه القضية يجب ألا يجرب الناس عليه أي شيء من المخالفة . ولعلت قال سيدنا إبراهيم عليه السلام

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٥ سورة المتحفة)

لماذا قال سيدنا إبراهيم هذا الدعاء ؟ لأنه إن قال شيئاً ثم عمل بما ينقضه فقد يتصور من يراه أنه - والعباد بالله - كذاب

« قل يا أهل الكتاب لا تعملوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد صلوا من قبل وأصلوا كثير وصلوا عن سواء السبيل » وبإلوتهم صلوا فقط في ذواتهم بل هم يحاولون إصلال غيرهم . لذلك قال سبحانه .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِعْثِكُمْ كَغَارَ أَحَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه يوضح لهم : لا تعملوا ذلك حتى لا تضلوا ، لأن وزرك أن تعمل ، وهناك ودر آخر هو أن فصل غيرك . ولذلك يقول الحق .

﴿ لِيَحْمِلُوْا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ بَرًا وَبَارًا تَوَزَا لِّلَّذِينَ يُضْلُوْهُمْ بِغَيْرِ ظَنِّمْ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة السجدة)



قال الحق ذلك مع أنه لئال : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . وحتى تفهم الأمر علينا أن نعرف أن الوزر الأول هو وزر الضلال ، والثاني هو وزر الإضلال .

« ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا » أي لا تقلدوا أناساً اتبعوا الهوى . والهوى هو لُطف مرقع الشيء وقربه إلى النفس فيصنعه الإنسان على طريقة لا تبغى . ولذلك كل كلمة « هوى » في القرآن جاءت في مجال الخسران والضللال . وعلمت تقرأ قوله الحق : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وهو القائل سبحانه : (رائج هواه فترى) .

وقد جاء الهوى في قول الرسول صل الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)^(١) .

أي أن المطلوب أن يطوع الإنسان هواه لمطلوب الله . وما دام قد طوع هواه لمطلوب الله ، فهذا يعنى أن هواه الشخصى قد امتنع . « ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » إن هذا هو الهوى من اتباع الهوى الذى يضل ويكون سبباً في الإضلال عن سواء السبيل .

ويقول الحق بعد ذلك :

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَ شَرَحَ الْمُنْتَهِى وَالْمُرْزُوقِي فِي مُشْكَلَةِ الْمُصْلِحِ ، وَالْفَتَى الْهِنْدِيُّ فِي كِتَابِ الْمَهَلِ .

الحق سبحانه وتعالى يعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة تصبره على ما يلاقه من خصومه من أهل الكتاب ، وكأنه يقول له : إن هذا الأمر ليس بدعاً وليس عجيباً ، لأن تاريخ أهل الكتاب الطويل يؤكد هذا ، فما هوذا موقفهم من نبي الله داود ، وكذلك موقفهم من عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا يجعل لك أسوة هؤلاء الرسل الذين فالهم من أذى هؤلاء . فالمسألة ليست خاصة بك وحدك ، وإنما هي طبيعة فيهم ، ويوسط سبحانه في التسمية عن رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يجعل موقفه موقف الصلابة الإيمانية التي لا تخاف ولا تهتز ، فينسب هذه الأشياء لنفسه فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَدُونَكَ وَلَئِنْ أَطَّلَعْنَا عَلَيْهِمْ لَتَلَوَّنَا حَتَّى يَمُوتُوا بَاطِلًا وَكُفْرًا وَكَانَ اللَّهُ مُبْصِرًا فَاعْلَمْ ﴾

(سورة الأنعام)

فمرة قالوا عن الرسول إنه مجنون ، ومرة أخرى قالوا : « ساحر » وثالثة قالوا : « كذاب » وهم يعرفون كذبهم ، فهم على الرغم من اتهامهم للرسول بالكذب والجنون والسحر إلا أنهم لا يأمنون أحداً على مصالحهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الأمين دائماً . وكان لهم أن ينصحبوا من موقفهم هذا ، وس صدقهم عن دين الله بالكفر ، وعلى الرغم من ذلك فصنعوا يكون هناك شيء نسين ونفيس فلا يؤمن عليه إلا محمد بن عباده

ما هذا لأمر العجيب إذن !!

لقد عرفنا صدق النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقة رسالته - ما في ذلك ريب - ولكن لأنهم أمموا أصروا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية هم يعرفون أن محمداً هو الأمين . ولذلك نرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع علياً - كرم الله وجهه - ويتركه في مكة ليؤدي الأمانات التي كانت عنده هؤلاء جميعاً

إذن (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك) . أي أنك يا رسول الله عندهم المصدق . أنت عندهم يا رسول الله الأمين أنت عندهم يا رسول الله

في متهى السموا الخلقى . ولو لم تنل إنك رسول من الله لكانوا قد رطوك إلى أهل المنزل . ولكنك ببلاغك عن الله زلزلت سلطتهم الزمنية .

ولقد حاولوا أن يشنوك عن الرسالة ، فعرضوا عليك الملك ، وعرضوا عليك الثراء ، ولو كنت تقصد شيئاً من ذلك لحققوا لك ما تريد . ولكنك تختار البلاغ الأمين عن الله .

لقد عرضوا عليك للملك طواحية . وعرضوا عليك الثروة . وذبوا لك أمر السيادة فيهم شريطة أن تتخل عن الرسالة . لكك مختار السبيل الواضح الذى لا لبس فيه حل الرهم عما فيه من متاعب ، مختار السبيل الذى يكلفك أمك وأمن من يتبع . إنك تتبع ما أنزل إليك من ربك .

ومن بعد ذلك جعلوا ليهاصروك في الشعب ليهارسوا معك الخصار الاقتصادى بتجربتك ونجوع من معك . ومع هذا كله ما تنالزت عن البلاغ . وكان يجب أن يفتنوا إلى أنك لا تطلب لنفسك شيئاً . لا المال ولا الجاه بل أنت رسول من الله لا تأكل من صدقة أحد ، لا أنت ولا أمك . وكان يجب أن يقصدوا : لماذا تدخل بنفسك إلى هذه الحرب الضارية ، فلا أنت طالب جاء ولا أنت طالب مال ، ولا أنت طالب لمعة من تلك المتع . وكان يجب أن يأخذوا العبرة ، فهم يعرضون عليه كل هذه الأشياء ، وهو يرفضها ، لأنه خاتم الأنبياء ، لذلك يمثل فيه غير كل من سبقه من الأنبياء . يمثل فيه حل سبيل المثال ما قاله سليمان لوغد يلقى ملكة سبأ .

﴿ قَدْ أَتَيْنَا اللَّهَ تَحِيَّاتًا أَنْتُمْ تَلَّ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ تَفَرَّحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

إنذ كان يجب على الناس أن يفتنوا إلى أن النبوة حينها تلى إنما تلى لتلفت الناس إلى الساء وإلى مبعها ولتنظم حركة حياتها في الكون ، وأن امتنع أولاً وانصبراً بالنهج هم أنفسهم ، لأنهم هم الذين يشقون بمخالفهم منهج الله .

وليجرد كل إنسان نفسه من كل شيء ويظهر إلى النهج ولسوف يجد أنه في صالحه . فيها هودا سليمان الذى دانت له الدنيا وأعطى ملكاً لم يعطه الله لأحد من

بعده فسخّر الله له الريح وسخر له الجن يفعلون له ما يشاء . وكان سليمان يعطى الدقيق النقي للعبيد ليستمتعوا بلطيفيات ، ويأكل هو ما تبقى من سخالة الدقيق ، وكان ذلك دليلاً من الله أن هذه الماهیج ليست لصالح نبي ، ولكن كل نبي إنما يريد بالمنهج صالح من أوصل إليهم .

وكانت مقاومة أهل الكتاب لبي الله داود ، وكيف أنهم اعتدوا في يوم السبت مدحا عليهم داود عليه السلام مسحهم بالحق قرعة ، ولعنهم في الزبور ، وكذلك قالوا الإمام في مريم البتول ولعنهم الله في الإنجيل . ولم يكن اللعن إلا بناء على ما فعلوا ، لذلك يدين الحق الآية بالقول : « ذلك مما عصوا وكانوا يعتدون » .

والعصيان - كما نعلم - هو العصيان في ذات الإنسان وفي أموره الخاصة التي لا تتعدى إلى الغير ، أما الاعتداء فهو أيضاً معصية ولكنها متعدية إلى الغير . مثال ذلك : الحافد إنما يعاقب نفسه ، أما السارق أو المرتش فهو يضر بغيره . إذن فهناك معصية وهناك عدوان ، المعصية تعود على صاحبها دون أن تتعدى إلى الغير ، أما العدوان فهو أخذ حق من الغير للنفس ، وضرر يرتكبه الفرد فينتقل أثره إلى الغير .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ
فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ٧٩

ونعلم أن حراسة منهج الله تعطى الإنسان السلامة في حركة الحياة هل الأرض . وقد جعل الحق سبحانه في النفس البشرية متاعاً ذاتية ، فسادة توجد في الإنسان شهوة على أي لون سواء في الجنس أو في المال أو في الجاه ، فقد يحاول الوصول إليها بأي طريق ، ولا يسمه من ذلك إلا الضمير الذي يفرض عليه أن يسير في الطريق الصحيح . هذا الضمير هو خيرة الإيمان ، وهو الذي يلوم الإنسان إن أقدم على

معصية ، هذا إن كان من أصحاب الدين .

ولنا أن تدقق في هذا القول القرآني لأنه يجعل الوصف الدقيق للنفس البشرية في حالتها المتقلبة ، فيها هوذا قابيل يتحدث عنه القرآن .

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

ومن بعد ذلك ، قتل قابيل هابيل ، ثم هدأت النفس من سعار الغضب وسعار الحقد ، وانتقل قابيل إلى ساطور جهنم القرآن .

﴿ فَأَصْحَحْ مِنَ الْخَنَسِيرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

بعد أن عوّج غصبه إلى أن قتل أخاه وسلبه الحياة يبحث الله له عراباً ليريه كيف يوازي سوءة أخيه ؛ لأنه لم يكن يعرف كيف يوازي جثيان أخيه . وانتقل بالنفس من مرحلة أنه لم يبرح حق أخيه في الحياة فإراد أن يبرح حق أمته ، إذن فالنفس الشريرة وإن كانت لها شهوات إلا أن لها اعتدالاً مزاجياً يتدخل بالدم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية . ولذلك تجدد كثيراً من الناس تعاني من متاعب لأهم لم يرتكبوا معاصي ، لكنهم يريدون الاعتراف بها لأي إنسان وأي إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر .

لكن لماذا يريد الإنسان أن يعترف لأحر بمعاصيه ؟ . إنه اعتراف للنفس ؛ لأن كل حركة في النفس البشرية تتبع عنها تأثير في الترويع ، فعندما يعضبك أحد فانت تشرع إلى الانتقام ، ولهذا يأمرك الشرع حين يعضبك أحد أن تشير من وصمك وقل : حسبنا الله ونعم الوكيل ، حتى تصرف الطاقة السعلوية عندك ، فإن أعضبك أحد وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعداً فاضطجع ، وإن كنت ثابتاً في مكان فلتسرح بضم خصلوات . والشرع حين يطلب منك أن تتحرك لحظة العصب فذلك ليزيل من جسدك بعض الطاقة العاصفة الزائدة التي تسبب لك الغليظ فتقل حدة العصب

ولذلك فالشاعر العربي ينصح من مستمع للشكوى ألا يرد السامع بل يصغي لصاحب الشكوى ، لذلك يقول :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
بوسيك أو بسليك أو بتوجع

وحينما تظهر المشاركة لصاحب الشكوى فانت تربحه ، ونهديه إلى الاطمئنان .
وينصح الشاعر صاحب الشكوى أن يضعه عند ذي المروءة ؛ لأن ذا المروءة إنما
يمطيك لذه ومشاعره وهو جدير أن تتأمله على السر ، وكأن الأسرار في جحرانة لمن
يعرف أحد ما بداخلها ، ويمثل هذا الاعتراف يريح الإنسان نفسه ، ويصرف انفعاله
إلى شيء آخر . وعندما تكرر النفس البشرية فعل السوء ، ولا تجد من ينهها أو
ينهاها ، فالسوء يعم ويتشر ، هنا تتدخل السماء بإرسال رسول .

ويوضح الحق أن السبب في إرسال رسول هؤلاء الناس أنهم كانوا لا يتأهون عن
مكر فعلوه ، والتأهى عن المنكر إنما يكون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر ،
ولا يظن المومن أنه بمنجاة من غاطر السوء في نفسه لأن كلاً منا بشر وعرضة
للأخيار ، ومن لطف الله لحظة أن يب غاطر السوء على مؤمن أن يجد أحاً غالياً من
حواطر السوء فيواصيه بالحق ويواصيه بالصبر ؛ لأن الفرد إن جاءه معار الشهوة في
اللحظة التي يحرق فيه السعار نفسه عند صديق له فقد يتعمقان على المنكر ، أما إن
جاء معار الشهوة للإنسان وكان صديقه مؤمناً غالياً من حواطر السوء ، فهو ينهاه
ويوصيه بالحق والصبر . وهكذا . يتبادل المؤمنون التناهى بالتواصى ؛ فمرة يكون
الإنسان ناهياً ، ومرة أخرى يكون الإنسان منبهاً .

وكذلك أعطى الله هذه المسألة كلمة التواصى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝٢ لَ كَفِيرٌ ۝٣ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٤ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٥ ﴾

(سورة العصر)

وهم يخصص الحق قوماً ليكونوا الناهين ، وقوماً آخرين ليكونوا المنهيين ، لا ، بل
كل واحد منا عرضة أن يكون ناهياً إن اتجهت خواطر صاحبه إلى الحرام ، وعرضة
أيضاً لأن يكون منبهاً إن كادت نفسه تتجه إلى الحرام ، وبذلك تتبادل الناس

واليتامى ، ويسمون ذلك « المعاملة » مثلاً نقول : « شارك زيد حسرا » ، ولا يشارك الإنسان نفسه إنما يشارك غيره ، ومعنى هذا أن هناك شخصاً قد كان فاعلاً مزمعاً ، ومرة أخرى يكون مفعولاً ، وكيف تكون صيغة المضارع هذه ؟ . إنها مثل « تشارك » و« تضرب » أى أن يأتى الفعل من اثنين . ومن السهل إذن أن يبنى إنسان صديقاً له لو ينهاه صديق له ، وقد نضرها على أن الجميع يبنى نفسه بفعل القوة الحمية الفطرية التى توجد فى كل نفس ، أى أن كل نفس تبنى نفسها . إذن فالمضارع إما أن يكون فى النفس وإما أن يكون فى المجتمع .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » ولنتنبه هنا إلى أنهم قد فعلوا المنكر بالفعل ، فكيف يكون السامع عن المنكر ؟ . يمكن أن نعهم العبارة على أساس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله ، أى أن الإنسان منهم كان يرى وميلاً له ينهاه لارتكاب منكر فلا ينهاه . ومثلها فى ذلك قوله الحق :

﴿ إِذَا قُتِلْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْلِبُوا جُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾

(سورة التوبة ٦)

وهذا القول لا يعنى أبداً أن يتوحأ الإنسان بعد أن يدخل فى الصلاة . إنما يعنى أن تبدأ الوضوء لحظة الاستعداد للصلاة ، يعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأدائها .

وقوله الحق : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » يجهلنا فى حالة انبثاء وفراصة إيمانية وبفظة . وملتفت كل منا إلى نفسه ويرقيها ويراقبها ، وإلى أى اتجاه تسير ، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أى مكان موبوء أو فعل غير مستقيم . وكذلك يمتنبه الإنسان إلى أخلاقه وأفعاله حتى يتناهى عن أى منكر فلا تقع أبداً فى دائرة هذا الحكم . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبشر ما كانوا يفعلون . فكاننا جميعاً علينا أن نحيا فى بظة إيمانية ، وأن نقول : لا ، لكل بلادة ولأى حركة من حركات المنكر .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبشر ما كانوا يفعلون » وساعة نسمع « لبشر » فنعرف أن اللام إذا سبقت فهى للنفس ، وحين يقسم الله فهذا تأكيد

للقضية ، فهل هذا تأكيد على طريقتنا نحن البشر ؟ لا . فليس أحد منا كاذب ، ونحن في حياتنا نعرف الأدلة على الحق ، إما إقرار ، وإما شهادة ، وإما قسم .

والقاضي لا يحكم إلا بإقرار المتهم أو بشهادة الشهود ، أو باليمين ، وسوى يأتى الحق بالحكم بهر يأتى به على معرفة بالحق . وصم التناهي عن المنكر هو فعل وقول معا . ربما أن الحق لم يقل : لبس ما كانوا يقولون ، ذلك أن القول مقبل للعمل ، وكلاهما أيضاً عمل ، فالقول عمل جارحة اللسان ، والفعل هو عمل الجوارح كلها ، ويصح القول والعمل وصف « العمل » . ونلاحظ أن المسألة لا تقتصر على القول ، إنما هي عمل قد نتج عن فعل .

ولتر الحديث النبوى القائل : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » (١) .

وقوله الحق : « لبس ما كانوا يفعلون » دليل على أنهم كانوا يفعلون المنكر والقيح قولاً وعملًا .

ويتابع الحق من بعد ذلك فيقول :

كَثَرُوا لِيُكْفِرُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْا الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُكْفِرُوا مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾

ونلاحظ العارق بين أن يخبر الحق رسوله بأمر حدثت من قبل مثل قوله الحق

لَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ رِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿٨٠﴾

(من الآية ٧٨ سورة التوبة)

(١) دواء الجسد ، وادوية ، والتسلي والتفاني - وبين ما به من له سجد

وبين الواقع الذي يجري في زمن رسول الله ﷺ فالخير الأول هو خير من أمر صدر منهم مع من سبق من الرسل ، لكن هناك أشياء بأمر رسول الله أنت تراها بنفسك ، وهذا دليل على أن كفرهم لم يكن نزوة وانتهت ، لا ، بل كفرهم أصبح ملكة فيهم انطبعت هيئتها نفوسهم ، كيف ؟ نعم أن الإسلام حينما جاء واجه معسكرات شتى ، وهذه المعسكرات كانت تصد حركة الإنسان في الحياة ، ولحق سبحانه وتعالى خلق الكون مستغراً للإنسان ويريد أن يطل الإنسان تخارصاً لصالح الكون أو أن يزيد صلاح الكون والا يسمح بتسرب الفاسد إلى الصالح .

إن هذا هو مراد الحق من وجود منهج للإنسان . وهدف المنهج أن يحمي حركة الحياة كلها من الفساد وأن يزيد صلاحية الكون ، فعملنا في الكون دائماً لصالحنا ، ولا يوجد عمل يفعل مخلوق يأتي للحق سبحانه وتعالى بصفة زائدة على كماله - سبحانه - ، لأن الحق له كمال الصفات ، وهو الذي خلقنا وأوجدنا وأمدنا ، وتكليفنا منه لم يزيد سبحانه شيئاً ، فهو - سبحانه - مستغن بذاته عن جميع خلقه .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذن - ليحارب معسكرات هي معسكر أهل الشرك في مكة ، ومعسكر أهل الكتاب ، وكان المفترض في أهل الكتاب أن لهم صلة بالنساء وهم ألفة بمنهج الرسل . ومعسكرات الرسل وعندهم البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم ، ومعسكر المنافقين الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة الإسلام ، فأعلنوا التحول في الإسلام وهم لم يؤمنوا بل أضمر الكفر .

وعندما توقف عند معسكر أهل الكتاب ، كان من الطبيعي أن ينتظر منهم رسول الله أن يؤمنوا لأنه جاء بالمنهج الذي يقوى من صله اسماء بالأرض ، لو كانوا صادقين وحريصين على تلك الصلة . وخصوصاً أنهم كثيراً ما تباهاوا بمقدم النبي قبله لك تأتي الرسالة . وكانوا يقولون للأوس والخزرج :

لقد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا ، يأتي مستبعمه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وفي ذلك جاء قول الحق .

﴿ وَكَأُوَامِنْ قَبْلُ يَسْتَفِخُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(سورة البقرة ٨٩)

وقالت لهم كتبهم : إن النبي إنما يأتي في أرض ذات بحيل ، وهذا يطبق على مكان مبته صلى الله عليه وسلم . إندك فقد عرفوا المكان ، وعرفوا الصفات ، وعرفوا الجبهات التي سيحارب فيها لأنه سبق لأنبيائهم أن حاربوا فيها . وعندما جاء محمد رسولاً من عند الله اهتزت سلطنتهم الرومية ، وأرادوا أن يستبقوها بتحريرهم منهج السماء . وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالنهج الرباني ليعيد حركة الكون إلى الإيمان . ودخس رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بينما كانوا ينسجون الإكليل كتاج لملك يتصبونه .

هكذا أوقف رسول الله سلطنتهم الزمنية ولم يجد لهم الجده ، ووجد الأوس والخزرج ، وكان اليهود يمشون على الشقاق بينهما ، يبيع الأسلحة والإقراض بالربا . ومع مجيء محمد صلى الله عليه وسلم تهدم بنيان سلطنتهم ؛ لذلك حاولوا أن يشجعوا خصوم رسول الله وهو مازال في مكة ليهزموا الدين الجديد حتى لا يزحف الدين إلى المدينة ويهدر سلطانهم

وفي ذلك جاء القول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ يَهْدِي اللَّهُ وَيُخَيِّبُهُمْ ثُمَّ قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقُ عَمٍّ فِي الْآخِرَةِ

وَلَا يُكْنِيهِمُ اللَّهُ وَلَا يَنْطُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَكُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة آل عمران)

والثمن القليل هو الأية والرئاسة وسدة الحكم . وما هوذا كعب بن الأشرف كبير يهود وله ثروة ولسان ، يخرج إلى قريش ليناقشهم في ضرورة وأد الدين الجديد والقضاء عليه . فقالت له قريش : بك من أهل الكتاب ولك صلة بالسماء .

فيقول لهم : إنكم أهدي من محمد سيلاً !! كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدي من محمد سيلاً ؟ .

وهكذا نرى قوله الحق : « ترى كثيراً منهم يتولون الدين كفراً » . لقد تحالفوا مع معسكر الشرك الذي كان بينهم وبينه خصومة حتى لا تتسرب السلطة من أيديهم . وتعاونوا مع الدين أشركوا لإيقاف زحف الدين الجديد .

﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الْاِلهَ كُفْرًا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ نَفْسُهُمْ اَنْ يَحِطَّ اَللهُ

عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَدِيدُونَ ﴿٥١﴾

(سورة النمل)

ويتولونهم أى ينصرونهم ويعينونهم ويدعون أنهم على حق ، وكأن الدين الجديد على باطل . ويقسم الحق هنا أنه يشع ما رينت لهم النفس الأماراة بالسوء ، لأنهم افتقدوا للنفس اللوامة ، وعطيت عليهم النفس الأماراة بالسوء .

وتتابع الآية : « أن يحط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون » ويشأ عن السخط الاعتماد على طريق الهداية . واليحد عن طريق الهداية يقود إلى اعداب الخالد . كان الحق يوضح لهم : على فرص أنكم أنعدتم متاعاً قليلاً فى الحياة ، ولكمكم أتيتم لأنفسكم بمناعب أزلية تنتظركم فى الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاَللهِ وَالْيَوْمِ

وَمَا اُرْسِلَ لَيْسَ مَا اتَّخَذُوهُمْ اَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ

كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٢﴾

فلو كان عندهم إيمان بالله حقيقة وبالنتيج المترل من الله ، ما اتخذوا أهل الشرك أولياء ، ولكن كثرة هؤلاء أهل فسق . ويلاحظ أن الكثير فاسق ، وهذا يعنى أن القليل غير فاسق .

ويقول الحق بعد ذلك :

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم
مُّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصٌ وَرَهْبَانٌ أَنَّهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقسم لرسوله صلى الله عليه وسلم أن واقع الحياة مع فرقتي اليهود والنصارى سينجلي واضحاً على الرغم من أن كل جانب منها يحالف لرسول الله في ناحية ، فمراجعيد هؤلاء الناس وأموالهم مختلفة ولكنهم اتفقوا جميعاً في الهدف .

فاليهود أشد عداوة لأنهم أخذوا سلطة رسمية جعلتهم السادة في المنطقة ، أما النصارى فلم تكن لهم سلطة ولا سلطة زمنية وكانوا حاكفين في صولتهم وبيعتهم يعبدون الله واجانب الذي ليس له سلطة زمنية لا يجادى من جاء ليسحب من أهل الحور سلعتهم الزمنية ويقيم العدل بين الناس فما العنة في ذلك ؟

يقول الحق : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » وه القسيسون « جمع قس وهو المتفرغ للعلم الرباني وه الرهبان « هم الذين تفرغوا للصلاة . فكان القسيس مهتم أن يعلم العلم . والراهب مهتم أن يتفقد مطلوب العلم ويترهب .

إننا نجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى قد امتن بشيئين وبذلك جعلهم أقرب مودة للذين آمنوا ، امتن سبحانه بأن منهم قسيسين يحافظون على علم الكتاب ، وامتن بأن منهم رهباناً يتفكرون مدلول المطلوب من العلم ، وبذلك صاروا أقرب مودة للذين آمنوا إن ظلوا على هذا الوضع ؛ لأن العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدمًا . وما دام قد علمها - سبحانه - بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون فذلك لأنهم لا يطارلون إلى رئاسة وليس لهم تكبر أو ترفع ، لأن طبيعة دينهم تعطىهم طاقة روحية كبرى حتى إنهم يقولون : « من ضربك على خبطك الأيمن أدر له عذرك الأيسر » . وهذا يعطىهم شحنة إيمانية نراها باضحة عليهم .

« ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » وقد جاء واقع الكون مقيداً لهذا ، فعواقب اليهود من رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة حتى إنهم نزلت بهم الحقة ولكن منهم الخفد ودفنهم الخدر أن أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ليقتلوه وحلّلوا دس السم له .

وحين نجد إنساناً لا يجد طريقاً إلى الخلاص من خصمه إلا بأن يقتله ، فيمكنك أن تواجهه قائلاً : أنت لا تمكك شجاعة تراحمه بها في حياته ، ولو كنت تمكك تلك الشجاعة ما فكرت في أن تقتله . وهذا دليل على أنه أضعف منه وليس أشجع منه ، فلو كان قوياً لكان عليه أن يواجه هذا الخصم مواجهة في حركة حياته ولا يفكر في قتله ، لأن الضعيف هو من يرى أن حياة الخصم ترهقه .

لقد كان اليهود أهلاً لهذا الضعف في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونعلم أنه صلى الله عليه وسلم حينما جهر بدعوته اتبعه بعض من الناس ، ولكن هؤلاء المؤمنين الأوائل عانوا من اصطهاد أهلهم وقومهم ، حتى إن البيت الواحد انقسم ، مثال ذلك نجد أن أم حبيبة السيدة رمة وهي بنت أبي سفيان تؤمن بينما والدتها هو شيخ الكفرة آنذاك ، وتذهب أم حبيبة مع زوجها إلى الحبشة ويحرص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الخلايا الإيمانية لأنه يعلم أنها ستفرخ الإيمان من بعد ذلك . وبذلك الهجرة إلى الحبشة أراد صلى الله عليه وسلم أن يجمى بطور الإيمان لتكون هي مركز انتشار الإيمان من بعد ذلك ؛ لأنهم سوف يؤدون مهمة إيمانية ، والشجاعة - كما نعلم - تقتضى الحرص - وشاعرنا أحمد شوقي - رحمه الله -

قال في إحدى مقطوعاته النثرية التي سماها «أسواق الذهب» : ربما تقتضيك الشجاعة ، أن تحين ساعة ؟

وهذه الشجاعة لا تكون على الممدى فقط ولكنها تكون شجاعة في مواجهة النفس ، مثال ذلك : لو أن جماعة من الأقرباء كانوا جالسين معاً في جلسة سمر ، لم يفعل عنهم معلوك يحمل مسدساً ، وقام متوجهاً السباب لكل منهم ، ها يتحامل عليه هؤلاء إلى أن يتمكنوا منه ليعاقبوه .

إذن فالشجاعة تقتضي أن يجبر الإنسان خطوة إلى أن يتمكن من الخصم . وهذه هي الكياسة والحيلة ، فالإيمان ليس انتحاراً ، بل يقتضي الإيمان ألا يدخل المؤمن معركة إلا وعنده حسابان في الكسب . وما هوذا حضرة النبي صلى الله عليه وسلم يسمى خالده بن الوليد « سيف الله المسلول » في معركة لم ينتصر فيها خالد ، ولكنه انتصر انتصاراً سلبياً بأن عرف كيف يسحب الجيش ، فالأمر بسحب الجيش يحتاج إلى قوة أكثر مما يحتاج إليه النصر . فللنصر تكون الريح معه أما المهزوم فتكون الريح ضده .

ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿ وَمَنْ يُؤْمِرْ يَوْمَئِذٍ بِهِ إِلَّا مَتَحَرِّفٌ لِّفِتَالٍ أَوْ مُنْعِرٌ إِلَىٰ قِتَّةٍ مَّكَدِيٍّ يَعْطِبُ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١١﴾

(سورة الأنفال)

إدراك المناورة والتكيد من المهارة القتالية لأنها تتيح من بعد ذلك القدرة على مواجهة العدو .

ونشير الور الإلهي بعصيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسخرض الأرض كلها حتى يختار مكاناً آمناً يذهب إليه هؤلاء المؤمنون ، فاختار الحبشة . لم يشأ صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالذهاب إلى أي قبيلة من القبائل ؛ لأنه يعلم أن كل قبائل الجزيرة تخشى قريشاً ، فموسم الحج جامع للقبائل تحت صلالة قريش . ومن ينفذ

ضد إرادة قريش فاستعرض للمتعاب . وعلى ذلك لن يأمن رسول الله على خلايا الإيمان أن يذهبوا إلى أي قبيلة . واستقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض كلها ، واختار الحبشة ، لماذا ؟ .

ها هي ذبي كلبات رسول الله صلى الله عليه وسلم بآنية إلى زماننا : « إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد فاقبضوا ببلاده حتى يبعث الله لكم خراجاً مما أنتم فيه » (١) .

وفي حديث الزهري : لما كثر المسلمون ، وظهر تعذيب الكفار - قال عليه الصلاة والسلام : « تفرقوا في أرض الله فإن الله سيجمعكم » قللوا : إلى أين تذهب ؟ قال : إلى ها هنا وأشار بيده إلى أرض الحبشة (٢) .

وتسللوا في جتح الليل إلى الطريق متجهين إلى الحبشة وعندما علمت قريش بالخبر حاولت أن تقطع عليهم الطريق لتمنعهم إلى مكة لتواصل الحملة عليهم والتكيل بهم لصددهم عن الإسلام . ولكن الحق أراد أمراً مختلفاً وكان الطريق سهلاً ، ووصلوا إلى الحبشة ، وأنجاهم الله من كيد الكافرين

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك - بما علمه له ربه - الخبرة الكاملة بالرقعة الأرضية ويعرف من يظلم من الحكام ومن لا يظلم . وصدق رسول الله في فراسه الإيمانية ، فحينما ذهب المؤمنون المهاجرون إلى الحبشة وجدوا أسهم دخلوا دار أمن ، أمروا فيها على دينهم . وبعث جنود قريش وأرادوا استرداد هؤلاء القوم من النجاشي ملك الحبشة فأرسلوا صناديدهم ومعهم الهدايا والتحف لملك الحبشة .

سافر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، وصحابة بن الوليد بن المغيرة . وطلب وفد قريش من النجاشي أن يسلمهم هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة ، وسألوا الدس للمهاجرين عند النجاشي ، فاتهموا المسلمين المهاجرين أنهم قوم تركوا دين الآباء واعتنقوا ديناً جديداً يعادي الأديان كلها ويقولون في عيسى بن مريم قولاً

(١) رواه ابن إسحاق

(٢) رواه جيلرزاق .

لا ياتي به لوبله . ورفض النجاشي أن يصدق حرمًا واحدًا ، وطلب أن يسمع من هؤلاء المهاجرين . فتقدم جعفر بن أبي طالب وقل :

« أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسب الجوار ، ونأكل القوي ما الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسب وصدقه وأمانته وعهده ، فدعانا إلى الله لموحده ونعبده ونحلم ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وصدقة أموالنا وأما به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده لا شريك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم الله وأحلّنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قوماً فعدبونا وقتلوا من ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا عليه من الخبائث ، فلما فهدونا وصبقوا علينا وحالوا بينا وبين ديننا خرجوا إلى بلادك ، وأثربك على من سواك ، ورجونا ألا تنظم صندك » .

وثبت للنجاشي أن المسيح بشهادة القرآن يبي نبي طاهر العرض وهكذا لم يستمع إلى وشاية وفد قريش . وامتلا قلب النجاشي بالإيمان ولم يسكر مع أنه ملك ووقف أمام محاولات قريش لليل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندما سمع ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة مريم قال إن هذا والذي جاء به حبي ليخرج من مشكاة واحدة

وعرف رسول الله أن الإيمان قد حاصر قلب النجاشي ، بدليل أن أم حبيبة بنت أبي سفيان عندما هاجرت مع زوجها إلى الحبشة وتصر الروح لكها بقيت على دينها على الرغم من أنها كانت تحب محاسن الحب ، وهنا انفصلت أم حبيبة عن زوجها وذلك حتى يثبت الحق أن - هجرتها - كانت لله

وأراد الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرمها وأن يكرم النجاشي على موقفه من عدم تسليم المؤمنين إلى وفد قريش وموقفه من أنه شهد للإسلام بأنه يخرج

من نفس المشكاة التي خرج منها إنجيل عيسى عليه السلام ، لذلك يجعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولي نكاحه لأم حبيبة ، لأنه مأمون على ما قرأ من الإنجيل ، ومأمون على ما سمع من القرآن في مريم ، ومأمون على أنه لم يسلم المهاجرين ، لذلك اختاره وكيلًا عنه في رواجه من أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها . وتلك حادثة واحدة أخصامت أكثر من موقف . موقف أم حبيبة التي أثبتت أنها لم تذهب إلى الهجرة تبعاً لزوجها ، فلو تبعت زوجها لتنصرت كما تنصر . وأخصامت أن رسول الله كان لا يظن أن غيره حين قال مسبقاً عن السجاني : إنه لا يظلم عنده أحد . وعندما يبلغ الرسول نبأ وفاة السجاني فهو - صلى الله عليه وسلم - يصلي عليه صلاة الغائب .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ
مُودَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ إِنَّ مِنْهُمْ قَسِيْرِينَ وَرَهْبَانًا وَاهِمًا
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾

(سورة التائبات)

وهذا امتتان من الله بأن جعل منهم القسيسين الذين يحملون وهذا تكريم للعلم والرهبان الذين يتعلمون مطبوعات العلم . إذن فلنعلم أننا يجب أن نفرق بين العلم الذي قد يكفي لانتط العلم عنه إن لم يكن يعمل به ، وإن نحترم الذين يعدون الله تطبيقاً للعلم بالله ونترك هؤلاء الذين لا يعملون بعلمهم لوناأوا جزاءهم ، ولكن علينا أن نأخذ بعلمهم ونعقل به .

فبعد بعلمى ولا تركز إلى عمل
واجب الشكر وضل العود للناس

ونجد أن قوله الحق : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً » حنية تجعلهم أقرب مودة للمسلمين . فهل الرهبانية ممدوحة عند الله ؟ وإذا كانت ممدوحة عند الله فلماذا قال سبحانه :

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا

فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأًىةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ
رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَفَعَلْنَا بِالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَهْرَهمْ وَكَثِيرٍ مِّنْهُمْ
فَقَسَّيْنَا ۝٧٧

(سورة الحديد)

هو سبحانه يحدثنا عن موكب الرسل إلى أن وصل إلى عيسى عليه السلام وما جاء
به من الإنجيل وكيف أودع في قلوب الدين اتبعوه شفقة شديدة ورقة وعطفاً وابتدعوا
الرهابية زيادة منهم في العبادة ولم يفرصها الله عليهم ، لكنهم التزموها ابتغاء رضوان
الله ؛ لكن منهم من حافظ عليها والكثير منهم فسق عنها . وسبحانه حين يفرض أمراً
تعبدياً فعمل المؤمن أن يؤديه . ويريد ثواب المؤمن إن ترقى في التعبدات . لكن إن
ترقى الإنسان في التعبد فعليه أن يعطى هذا الترقى حقه لأنه ألزم به نفسه أمام الله .
إذن فالمأخوذ عليهم ليس ابتداء الرهبانية ، ولكن عدم رعاية بعضهم لها حق
الرعاية .

ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ؛ إِنْ فَمِنْهُمْ مَنْ يَرُصِدْ حَيَاتِهِ
لِلْعَلَمِ ، وَمِنْهُمْ الْمَرْجُوحُ التَّطَبُّقِ الْعَمَلِ وَهَمُّ الرِّهَابِ ، وَلَيْسَ فِيهِمُ الْاِسْتِكْبَارُ أَوْ
الْعُلُو ، وَمَادَامَ فِيهِمْ ذَلِكَ هَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يَطْلُبُونَ السُّلْطَةَ الرَّسْمِيَّةَ . وَسَيُظَلُّونَ
أَقْرَبَ إِلَيَّا مَوْدَةً مَادَامَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْحَيَاةُ . فَإِنْ تَحَلَّوْا مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَأَصَابُوا سُلْطَةً
رَسْمِيَّةً هَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ تَحَلَّوْا مِنَ الصِّفَةِ الَّتِي حَكَمَ اللَّهُ لَهَا بِبَيِّهَا بِأَنَّهُمْ أَقْرَبَ مَوْدَةً .
وَأِنْ تَمَسَّكُوا بِهَا عَلَى الْعَيْنِ وَالرَّاسِ .

ويقول الحق من بعد ذلك

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ قَرَأْنَهُمْ
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَسَاعِرُ وَأَمِنْ أَكْثَرِ قَوْلُونَ رِسَالًا



عَامَّةً فَكُتِبَ مَعَ الشَّهِيدِ ٨٢

هذه دقة الأداء القرآني الذي جاء من قبل أن يجهد المفكرون أنفسهم في دراسة ظواهر وأحوال النفس البشرية في مجال علم النفس بالبحث والاستقصاء والتجارب ، وأثر ذلك في وظائف الأعضاء . لقد قال العلم : إن لكل آلة وظيفة ، فالحسين يرى ، والاذن تسمع ، واللسان يتفوق ويتكلم ، والأنف يشم ، واليد تلمس ، وقال العلماء في البداية : إن هذه هي الحواس الخمس الظاهرة ، وكلمة « الظاهرة » هذه إنما جاءت للاحتياط ، لأن هناك أموراً يشعر بها الإنسان ولكن لا يدرك كيفية ولا مصدر شعوره بها مثل الجوع أو العطش ، أو في كثرة المقارنة بين شئين أيها أكثر نفلاً .

لقد حاول العلماء إدراك كيفية تمييز الإنسان بين ثقل ونقل آخر ، فقالوا : إن هناك حاسة اسمها حاسة العضل ، فعندما يحمل الإنسان شيئاً ما فإنه يجهد العضلات لدرجة تمكنه من التعبير بين درجات الجهد . وعرفوا أيضاً أن هناك حاسة اسمها حاسة اللمس ، وهي الحاسة التي يهر بها الإنسان درجة نعومة أو سمك أى نوع من الفانيات حتى ولو كان السمك يبلغ الواحد من أمثلة من المللمن .

إذن فهناك حواس كثيرة يمكن للإنسان الإدراك بها ، وهناك حواس تترك بعضاً من الأثر في النفس البشرية كآثار الحب والميل أو المصـ والنعرة ، ومقرها الوجدان كإدراك حلاوة طعام شيء أو كراهة شيء آخر ، فإذا استطاب الإنسان شيئاً أخذت مرة ثانية ، وهذا العمل هو نزوع يتبع الوجدان الذي يتبع الإدراك

إذن فهناك إدراك يدرك . وهناك وجدان يجهد ، وهناك نزوع يتزع . مثلاً ذلك إدراك وردة جميلة المنظر واللون في بيتان . هذا الإدراك قد يهيب من القلب عشقاً وحباً ، أى وجداناً ، وأنت حري أن تدرك ما شئت ، وأن تهجد ما شئت ، لكن ليس لك أن تهجد يدك لتقطف الوردة ، لأن الشرع يحرم ذلك . وحاولس البستان أيضاً يمسك من ذلك . هذا هل الرغم من أن أحداً لا يمسك من أن تنظر إلى الوردة وتستمتع بجهاها . فالإدراك - إذن - مهاج ، والوجدان أمر مهاج .

أما النزوع فهذا هو الأمر الذي تتدخل فيه الشريعة . ولما أن نكرر أن الإدراك مباح والوجدان مباح إلا في إدراك جمال الأروثة ، فالشرع يتدخل من البداية . فأنت قد تدرك جمال المرأة فتجد في نفسك حباً وميلاً ، فإذا برعت فكيف يمكنك أن تضبط نفسك ؟ فأنت بعد الإدراك والوجدان إما أن تفرح وإما أن تكبت . وإن برعت انتهكت أعراض الناس . وإن كبت ، أصابك القهر والالم ؛ لذلك يتدخل الشرع في هذه المسألة من بدايتها فيمنعك تحريماً من أن تدرك ، وذلك بأمور واضحة هو غرض البصر ، لأن المسألة الجنسية من الصعب أن تفصلها عن بعضها ، فالإدراك يمكن فصله عن الوجدان ، والنزوع يمكن فصله عن الوجدان والإدراك في أمر الوردية . أما في المسألة الجنسية فهي معار . إما أن يقبله الإنسان بأن يفت ويأ أن يلغ . فإن عف الإنسان فهو يكبت وينوتر ، وإن ولغ الإنسان في أعراض الناس بهذا الأمر يسبب هناك أعراض الناس . ولذلك يمنع الشرع من البداية مسألة الإدراك .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة قبل أن يأتي علماء النفس ليفسروا أمور الإدراك والوجدان والنزوع ، فهاموذا الحق يقول : « إذا سمعوا » وهذا إدراك بحاسة الأذن . وما المسموع ؟ يجيب القرآن : « أنزل إلى الرسول » . وهذا هو سبب الوجدان الذي يأتي في قوله : « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . فكيف يكون نزوعهم بعد هذا الوجدان ؟ إنهم : « يقولون ربنا آت فاكفنا مع الشاهدين » ، هذه هي العملية النزوعية . والقرآن الذي يزل من أربعة عشر قرناً ، جاء بترتيب الإدراك والوجدان والنزوع قبل أن يأتي به العلم . فساعة سمعوا بالأدب ، حدث شيء في الوجدان ، والغير الذي في الوجدان له علامات ظهرت في عيونهم التي فاضت بالدمع

وهنا نميز بين أمرين : الأول هو اغروراق العين بالدمع ، أي أن تحتل العين بالدمع لكن لم تصل درجة التأثير إلى أن تسقط الدموع من العين ، ويقال : « اغرورقت عين فلان » أي امتلأت عينه بالدموع ولكنها لم تسقط . والثاني وهو فوض الدموع من العين ، والعين لا يكون إلا نتيجة امتلاء الطرف بالمطروب ، فكان الدمع قد ملأها امتلاء ، فملأ مثلها لملأ إناء أو كواباً إلى النهاية فيزيد ويفيض

إِذْ كَانَ سَبَبُ كُلِّ ذَلِكَ أَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ الْحَقِّ . وَلَنَلْحِظُ أَنَّ « مِنْ »
تَتَكَرَّرُ فِي الْإِدَاءِ هُنَا . « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ » . « مِنْ » تَسْبِقُ الدَّمْعَ . وَ« مِنْ » مَدْعُومَةٌ فِي « مَا »
فَصَلَا مَعَا « وَمِنَّا » وَ« مِنْ » نَسْبِقُ الْحَقَّ .

« وَتَعْضُ مِنْ لَدَمْعٍ » فَ« مِنْ » هُنَا هِيَ « مِنْ » الْإِيْتِدَائِيَّةِ . وَ« مَا عَرَفُوا » هُنَا
« مِنْ » السَّبَبِيَّةِ أَيْ سَبَبُ أَهَمِّ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مُنْزَلٌ مِنَ الْحَقِّ سَبَبَانِهِ . وَ« مِنْ
الْحَقِّ » لِلتَّعْضِ ، أَيْ عَرَفُوا بِعَصَا مِنَ الْحَقِّ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كُلَّ الْقُرْآنِ

إِذْ جَاءَتْ « مِنْ » ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَكُلُّ مَرَّةٍ هَا هُنَا لَتُؤَدِّي إِلَى الْمَجْمُوعِ الْبَيَانِ
الَّذِي يَضَعُ الْمَظَاهِيرَ الثَّلَاثَةَ لِلْإِدْرَاكِ وَالْوُجُودِ وَالْبُرُوعِ . وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ هِيَ مَظَاهِيرُ
الشُّعُورِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا الْعِلْمُ التَّجَرُّبِيُّ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَى وَطَائِفِ الْأَعْضَاءِ
وَمَدَى تَعْمَلُهَا إِدْرَاكِ وَوُجُوداً وَتَبَرُّعاً .

وَالْبُرُوعُ هُوَ الَّذِي يَسْنَا هُنَا ، لَقَدْ قَالُوا : « مَا كُنَّا مَعَ الشَّاهِدِينَ » وَالْإِيمَانُ أَمْرٌ
يَعُودُ إِلَيْهِمْ . أَمَّا الْكُتَابَةُ مَعَ الشَّاهِدِينَ فَهِيَ أَمْرٌ يَعُودُ عَلَى الْآخَرِينَ . فَكَأَنَّ لِلزُّمَنِ بِهَذَا
حَقّاً عَالِياً ، إِنَّهُ يُؤْمِنُ لَذَاتِهِ . ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يَكُونُ رِعَاءً وَلِسَاناً يُلَاحِظُ مَنَهِجَ الْإِيمَانِ
إِلَى غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ شَاهِداً إِلَّا إِذَا كَانَتْ شَهَادَتُهُ امْتِدَاداً لِشَهَادَةِ الرَّسُولِ وَهَذَا
مُصَدِّقٌ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَوْ قَامَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا مِنْهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١)

(سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ)

أَيْ إِنَّكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَنْصَلُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ لَا حَسِباً وَلَا نِسْأً وَلَكِنْ اتِّبَاعاً
لِمَنَهِجٍ ، وَمَنْ يَتَّبِعِ الْمَنَهِجَ بِ« الْعَمَلِ » وَ« لَا تَعْمَلُ » هُوَ الَّذِي يَهْدِي عَمَلِيَّةَ الْإِيمَانِ
بِاللَّهِ . وَمَنْ أَمَلَ الْكُتْلَابَ مِنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَيَصِيرُ مُسْلِماً ، وَلَكِنْ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَخْرُجُ عَنْ
جُدُودِ الْإِيمَانِ . وَهَذَا آيَةٌ أُخْرَى يَقُولُ فِيهَا الْحَقُّ .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا
وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى حَقْبِهِ
وَلَا كَانَ لَكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ بِضَافِعٍ لِلْمُتَكَبِّرِينَ إِنَّا اللَّهُ بِالنَّاسِ
كَافٍ ﴿١١﴾﴾

(سورة التوبة)

إذن فالأمة التي تتبع منهج الإسلام - وهو منهج الاعتدال - هي الأمة المتهتدية التي
تسير إلى العمل الصالح الصحيح وتعمل به وتطبقه ، لأنه المنهج الذي يسمح ما قبله
ويصححه ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو المهيم على كل من سبقه من
الرسل ، وحياته وما جاء فيها من سننك هو سنة إيمانية تهدي المؤمنين إلى الطريق
المستقيم . وجاءت في هذه الآية مسألة تحريك القبلة لتعلم المسلمين أن الأمر الأول
بالانتهاء إلى بيت المقدس كان اختياراً ينتج فيه من يذهب لصاحب كل أمر وهو الله ،
وكان ذلك من الأمور الشاقة إلا على من هداه الله إلى الهداية ، ثم جاء من بعد ذلك
الأمر بتحريك القبلة إلى الكعبة وهي أول بيت وضعه الله للناس .

إذن فهاهنا شهداء ، وما دام الرسول شهيداً علينا ، فالرسول إنما يشهد أننا بلغنا
ونال منزلتين : منزلة تلقى البلاغ عن الرسول ، ومنزلة الإبلاغ من بعد ذلك إلى
غيرها من الناس . والمؤمن لا يكون شهيداً إلا إذا كانت شهادته امتداداً لشهادة
الرسول صلى الله عليه وسلم . هذه الشهادة التي جاء بها الحق في وصف أمة
المؤمنين :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَوْ أَنَّمَنْ أَقْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهْمُ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمْ أَفْسِقُونَ ﴿١٢﴾﴾

(سورة آل عمران)

فأنتم يا أمة محمد أفضل أمة أخرجها الله للناس بشرط أن تنبهوا للنهج بـ « أفعل »
و « لا تفعل » . تأمرون بالطاعات وتنهون عن كل ما نهى عنه الدين ، وبذلك
تكونون قد طبقتم المنهج الدال على صلق إيمانكم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً . ولو

صدق أهل الكتاب مثلكم في إيمانكم ، لكان خيراً لهم مما هم عليه . لكن بعضاً منهم يدير أمر الإيمان في قلبه ، والكثير منهم يخرج وينسحق عن مقتضى الإيمان .

إذن فهم عندما قالوا : « آمنا فاكبتنا مع الشاكرين » ، فذلك إقرار بأن الإيمان كان إيمان ذات وإيمان بلاغ إلى الغير . وهم بذلك قد دخلوا الإسلام وصاروا من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وهاموذا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (١) .

وهاموذا الحق محمد لنا قيمة الكلمة الطيبة للبلعة عن الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢١) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢) ﴾

(سورة إبراهيم)

إن الكلمة الطيبة هي شجرة لها من الثمار ما يتبع الناس وتنتحل بظلمها الخنون سامعها ، ولها أصل ضارب الجذور في الأرض ، ولها فروع تعلو إلى اتجاه السماء . وتعطى الثمار في كل زمن بإرادة خالقها . وهذا المعنى المحسوس مادياً يضربه الله كمثال للناس حتى يعرفوا قيمة المعاني السامية . إذن سيظل صاحب قولة الحق في بلاغ منهج الإيمان إلى الناس يقطف ثمار هذه الكلمة ما بقي إنسان مؤمن إلى أن تلقى الله .

« فاكبتنا مع الشاكرين » والشاكر هو المبلغ . وعندما يطلب مؤمن من الله أن يكتبه مع الشاكرين فهو يطلب لنفسه المكانة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فالشهيد ليس هو من قتل فقط ، إنما الشهيد هو من يعطى شهادته والشهيد في معركة إيمانية تفقد حياته هو إنسان أعطى شهادة على أن ما ذهب إليه أنس من حياته كلها . وهو في ذلك يعطى شهادة عملية . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ ٥٤

عندما يأتى التعجب هنا فهذا معناه أن الإنسان يجب أن يعلم أن إيمانه بالله مسألة تعطيا الخبر لأنفسنا . فحين نؤمن بالله يقاتلنا الحق ببعض الكرم من اطمئنان وغير وعطاء . فإياكم أيها الناس أن تعتقدوا أن الإيمان جاء ليحجب حرياتكم أو أنه يمنع صكم اشتهاؤ الأشياء ، ولكن الإيمان جاء ليحل الحرية ، ويعنى الشهوة فلا يأخذها الإنسان عابرة تنتهى بانتهاؤ الدنيا ولكن ليأخذها الإنسان خالدة ما بقيت السموات والأرض .

إذن فالذين إنما جاء بالنعمة العاقلة ؛ لأن العاقل إنما يأخذ على مقدار صوره من نفع يسير لا يضر أحداً ، وإن كان يضر النفس أو الغير فالدين يأمر بترك هذا النفع ، ذلك أن النفع إما أن يضر الإنسان أو يفوته الإنسان . والدكى هو من يؤثر نفع غيره على نفع نفسه .

مثال ذلك أن يأتيك سائل يسألك الطعام لأنه لم يأكل منذ يومين ، ولا يكون في جيбок إلا جنته واحد فتعطيه له ، إنك بذلك تؤثر على نفسك ، فتكون ضرس من نال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدِّينَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ ٥٥

(سورة المشر)

ومثل هذا السلوك يكون الإنسان قد التدى بالانصرال الذين استضافوا المهاجرين وأخلصوا الإيمان فأحبو أهله ، ولا يجدون حقدًا أو حسدًا فيها تحصى به المهاجرون

من مال المير وغيره ، وكان حل مهم أن يسعد المهاجرون وقد سبق أن آثروهم
بأنبياء كانت لهم وارثوا لأنفسهم عدم البخل ، فوفاهم الله شر البخل فكافروا من
العائرين . والمتعلق بغيره إنما يأخذ من الله عشرة أمثاله ، وهذه نفقة كبرى
وهذا أمرنا الشرع بغير البصر من محارم العير ، والمعد لذلك بمعطه الله وبغض
الجميع عيونهم عن محارمه ، البتة هذه نفقة ؟ إذن عمن الحق أن يظل إنسان أن
الدين بقيد الحرية ، لأن الدين إنما يعل الحرية وينميتها ، وليس الاستماع عند المؤمنين
بأن يحول بينه وبين النعمة المحققة .

وإذا ما ضرب هذا المثل لنعرض أن رجلاً له ولدان ؛ الأول منها يسقط
صالحاً من النوم فيعمل مثلاً علمه أبوه . يتوضأ ويصل ويصلي إلى دواسته بعد أن
يتناول إفطاره ، أما الابن الثاني فلا يستيقظ إلا بصحوة ويطي يتناول إلى أن يأتي
الصبح ثم يخرج من المنزل إلى المقهى . إن كلاً من الولدين أراد الصبح لنفسه ،
الأول أراد الصبح الأجل ، والثاني أراد الصبح العاجل ، وبعد أن تمر عشر سنوات
يتخرج الابن الأول ليكون معلماً وتاجراً في الحياة ، ولكن الابن الثاني يظل
صعلوكاً هاملاً ، إذن فكلاهما نظر إلى النعمة ولكن النظائر مختلف .

ولهاكم أن تفهموا أن هناك إنساناً لا يحب نفسه ، لا كذا نحب أنفسنا . ولكن
هناك من يحب نفسه حباً يعطى لها طول البقاء ، فيجد ويجاهد ، وقد يكون شهيداً ،
وأخر أحب نفسه بضمق أفق فيحافظ على حياته بالجهد وهو قد مات ألف مرة في أثناء
هذا الجهد ، وفقد كرامته حرصاً على حياة لم يزيد في مقدارها يوماً واحداً . والمتنبئ
يقول :

أرى كذا يفر الحياة لنفسه حرصاً عليها مستهاناً بها حباً
لحب الجبان النفس لورده الثرى^(١) وحب الشجاع النفس لورده الحرما

ولذلك فالمثل بسبق في أمر الدين بقول لخصه : « ومالنا لا يؤمن بالله وما جاءنا
من الحق » ، والمؤمن يرى أنه من العجيب ألا يؤمن لأنه يطمع إلى مكانة للمؤمن
« وطمع أن يدعنا ربما مع القوم الصالحين » إذن فالمؤمن يطلب مكانة الإنسان
الصالح .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا أَجَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ حَتِّهَا
أَلَّا نَهْرُ خَلِيدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٥)

إنها كلمة الحق التي تنال في كل مكان وزمان فالها نجاشي الحبشة وله سلطان لأهل الجاه من قريش الذين استبد بهم باطلهم ، لذلك كان لهذه الكلمة ورعها ، فعندما سمع ما نزل من القرآن من سورة مريم قال : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . إذن فهي كلمة حق لها وزن ، والله سبحانه وتعالى يهزل المعطاء لكل من ساند الحق ولو بكلمة فهو سبحانه (الشكور) الذي يعطي علم القليل الكثير ، (المحسن) الذي يضاعف الجزاء للمحسنين

ولنا أن نعرف أن للقول أهمية كبرى لأنه يرتبط من بعد ذلك بالسلوك . وكان قول الجاشي عظيماً ، لكن العمر قد قصر به عن استمرار العمل به قال . فقد قال كلمته وجاءه التوكيل من رسول الله ليحدد الرسول على أم حبيبة بنت أبي سفيان بمقد عليها وكيلا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمهرها من ماله ثم مات ، ولم تكن أحكام الإسلام قد وصلت إليه ليطلقها ، لذلك كان يكفيه أنه قال هذا القول ، ولذلك صلى عليه النبي صلاة التائب

وهناك قصة « مخبريق » اليهودي . لقد تشرب قلبه الإسلام وامتلأ به وكان في خاية الثراء فقال لليهود : كل مالي لمحمد وسأخرج لأحارب معه . وخرج إلى القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل هناك شهيداً ، وهو لم يكن قد صلى في حياته كلها ركعة واحدة . إذن مجرد القول هو فتح لمجال الفعل .

« فأتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار ، والحق يريد أن يؤكد لنا أن كل حركة إيمانية حتى ولو كانت قولاً إنما تأخذ كمالها من صبرها . ونعلم أن الإيمان في مكة كان هو الإيمان بالقول . ذلك أن الناس آمنت ولم تكن الأحكام قد نزلت ، فضلية الأحكام نزلت في المدينة . ومن ذلك أتى الله المؤمنين لمجرد أنهم قالوا كلمة الإيمان ، حدث ذلك ولم يكن قد جاء من الحق الأمر بالبلاغ الشامل وهو قوله الحق :

﴿ وَأَنْبِئْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝١١١ ﴾

(من الآية ٢١٤ سورة الشعراء)

فهؤلاء قد جزاهم الله حسن الثواب وسيّاهم « محسنين » وكذلك فعل النجاشي ، فقد ذهب إلى الإيمان دون أن توجه له دعوة وكان ذلك قبل أن يكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة لمملوك ليؤمنوا ، وعلى هذا فالنجاشي محسن ، لأنه قفز إلى الإيمان قبل أن يطلب منه . وساعة يتكلم الحق عن منزلة من منازل الإيمان فهو أيضاً يتعرض للمقابل ، وذلك لتبلغ العظة مراسيها الكاملة . فإذا تحدث عن أهل الجنة فهو يعقبها بحديث عن أهل النار ، وإذا تحدث عن أهل النار فهو يعقبها بحديث عن أهل الجنة ، لأن النفس الإنسانية تكون مستعدة للشيء ومقابله .

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١١٢﴾

ونعرف أن كلمة « صاحب » ، وكلمة « صحبة » ، وكلمة « أصحاب » ، هذه الكلمات تدل على الملازمة ، والملازمة في الحياة تكون اختيارية لا قهرية ، فلا أحد يصاحب أحداً بالقهر .

ونفهم من قوله . « أصحاب الجحيم » أن هذا يعني العشق المتبادل بين النار وأهلها ، وليس هذا مرادنا ، فهو إما أن يكون على سبيل السخرية والاستهزاء بهم ، وإما أن يكون المراد هو الملازمة التامة والمصاحبة الدائمة التي لا تنك ولا تقتس . وبعد أن تكلم الحق عن المشركين وتكلم عن اليهود وتكلم عن النصارى ، فهو يتكلم عن المؤمنين ، به يعرض أدهاننا أولاً ليزيل عنها ما علق بها من أمر المخالفين وسامعهم ، ويأتى لنا من بعد ذلك بالأحكام ، وقد فعل ذلك في هذه السورة التي تبدأ بآية العقود .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة التائيه)

وعقد الإيمان هو ما يرتفع ويسمو على ما يقوله المشركون ويخرج عما يقوله اليهود والنصارى . ومن بعد ذلك نلاحظ أن الحق بعد أن تكلم عن ضرورة الوفاء بالعقود ، فهو يلزم المؤمنين بالنهج الذي يحس حركة الحياة وحركة الحياة يتم استبقاؤها أولاً بالطعام والشراب لذلك قل .

﴿ أَسَلَتْ لَكُمْ رِيحَهُ الْأَتَمِّ ﴾

(من الآية ١ سورة التائيه)

ومن بعد استبقاء حركة الحياة بالطعام والشراب ، ها هوذا يقول : « حرمت » . وهنا لنا وقفة ، فعندما يحلل الله شيئاً من أجناس الوجود ، وحسبها يحرم شيئاً آخر من أجناس الوجود فلسائيل أن يسأل بعقلانية ويقول . مادام الحق قد حرم هذه الأشياء فلماذا أوجدها ؟ ومعهم في حيز العندية أن كل صانع إنما يحدد خصائصه لصنعه . ومثال ذلك صانع الطائرة يصمم طائرته ويحدد الوقود اللازم لها ، ولا يمكن أن تسير بوقود سيارة ، فإذا كانت الآلات التي من صنع البشر تفقد إن استخدمنا لها ما لا يناسبها . فكيف إذن نقول لصانعنا : لماذا خلقت الأشياء التي لا تناسبنا ؟ لا بد أن لها مهمة في لكون واستخدامها آخر يجعلها تتج الأشياء المقيمة لنا . مثال ذلك سم الحية ، إنه يقتل الإنسان ، ولكن الله ألهم الإنسان القدرة على استخراج السم من الحية لقتل بعض الحشرات .

إذن فالعالم قد خلقه الله بتركيب معين . ومثال ذلك نجد التمساح وهو راقع هل الشاطئ والطيور تلتصق من فمه بعضاً من غذائها ولا يؤذيها ؟ لأن هذه الطيور هي

التي تنبه النمل إذا جاء صياد ليقبضه ، فالطيور تحرس على مصدر قوتها وتحافظ على حياة النمل . والكهرياء تستعملها في جهازها ، أما في عكس جهازها فهي تصنع وتدمر

إذن فليس للإنسان أن يسأل لماذا حرم الله أشياء على الإنسان ؟ لأن تلك الأشياء دورة في الحياة . ولا يصح أن نقل الوسيلة لتكون غاية . والحق أراد بالحلل والحرام أن يصحح الإنسان بالصحيح . مثال ذلك أن حرم الله أكل لحم الخنزير . والخنزير إنما وجد ليأكل ميكروبات . إذن فليس للإنسان أن نحول الوسيلة إلى غاية . ويعطى الحق كل يوم للإسلام قوة تأييد تأتيه من خصوم الإسلام .

ومثال ذلك : إنا نجد أن الأمراض تنتشر بنسب عالية في الأمم التي تسهل لحم الخنزير ، وتشرب الخمر ، وهناك مرض اسمه « شمع الكبد » ينتشر في تلك البلدان ، فهل كما يزعم تنهيد أمر الله إلى أن ننشأ المعامل ونقول لنا نتائج أكل الخنزير ؟ أو كان يكفى أن يحرم على أنسا ما حرم الله ؟ إن علينا أن نقتد بأوامر الله حيابة لنا :

﴿ سَرَّيْهِمْ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَمُتُّمْ حَتَّىٰ نَبَيِّئَهُم أَنَّهُمْ أَخْلَقُوا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة فصلت)

وكل يوم تظهر لنا آية تؤكد صحتي إيماننا بالله ، لذلك فلا يقول أحد : لماذا خلق الله تلك الأشياء المحرمة ؟ لقد خلقها الله وسيلة لا غاية . ومثال ذلك أن خلق الله لنا البترول لاستخرج منه الوقود ، فهل أحد منا يفكر على شرب البترول ؟ إذن بالتحليل والتحريم لصالح الإنسان . فإن خرج الإنسان عن ذلك فلا يلومن إلا نفسه . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَرْثِلُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُمْ حَرَامًا وَحَلَلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يوسف)

كان الحق يشكر أن تصنع من حلال ما خلق أشياء محرمة . وأن نحرم أشياء خلقها الله . كترك البحيرة والثنية والوصية ، وكلها أرباح من الله . هو سبحانه خلق كل الأشياء وهو الذي يحدد نفعها وعدم نفعها للإنسان . والبحيرة هي الافة

التي كانوا يشقون أذنبا حتى لا يتعرض لها أحد بعد أن تكون قد نتجت حمنة أبطن
أحرها ذكر ، وكانوا يطلقونها في المراعى لا تركب ولا تجلب ولا يمنع عنها مرضى أو
ماء . وكانوا يقولون إنها للآفة . وعندما نستكشف آفاق من يستفيد منها ، كنا نجد
الكهنة هم الذين يستفيدون منها . وكذلك السائبة وكانوا يتركونها تطوعاً لا يركبها
أحد ولا يجلبها أحد وكان المستفيد منها الكهنة أنفسهم . وكذلك الوصيلة وهي الأنثى
التي جاءت في بطن واحد مع ذكر ومثلوا وصليت أعضاها فسم يذبحوا الذكر لأهلهم .
وكذلك كانوا يطلقون الفحل الذي نتج من صبه عشرة أبطن وقلوا قد حرم ظهره
فلا يركب ، ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرضى ، والحق سبحانه وتعالى
يوضح لنا . أنا لم أحرم هذه الأشياء فليذا تحرمونها ؟

هو سبحانه قد حرم الميتة والدم لأنه هو الذي حدد وبين ما هو حلال وما هو
حرام . وسبحانه الذي يرزق الرزق فيكون مرة رزقاً مباشراً ومرة يكون رزقاً غير
مباشر . ولذلك جاء الحق بالقول الكريم :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ
اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾

إذن فالمر التحريم موكول إلى خالق الآلة الإنسانية ، وأمر التحليل موكول إلى
خالق الآلة الإنسانية . وانت أيها الإنسان لا تدخل في فلك أبدأ . لأن تدخل
الإنسان يكون أحياناً بتحريم ما أحل الله ، وأحياناً يكون تدخل الإنسان بتحلل
ما حرم الله .

إليك أيها الإنسان أن تحرم ما أحل الله لك ، وإليك أن تحلل ما حرم الله عليك .
ونحن هنا أمام مراحل عدة ، لا نعتقد أن هناك أمراً حلله الله هو حرام ، ولا نقول إن
هناك أمراً حلله الله هو حرام ، ولا نمتنع عن أمر حلله الله قلنا أنه حرام ، ولا نقول
بأمر حلله الله حل أنه حرام ، ولا نجعل أمراً حلله الله فتحرمة حل نفسك ، فلا ننظر

أحد ألا يأكل لحم الفصان أو البرغقال - على سبيل المثال - لأن النذر في ذلك ليس حلالاً ، لأن تحريم الأشياء المحملة بالنذر هو أمر محرم . ولذلك علمنا الحق قاتلاً لرسوله :

﴿ لَا تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة التحريم)

لا بد لنا أن نعي ذلك الأمر وأن نعرف مراحله : لا تعتقد ، لا تقل ، لا تمتنع ، لا تأتق ، لا تلو ، لماذا ؟ لأن في ذلك اعتداء .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٨٧)

(من الآية ٨٧ سورة المائدة)

وما الاعتداء ؟ إنه تجاوز الحد مما حرم الله أو فيما أحل الله . أي أن الله يحب من يفت عبث الحدود . وهو سيحاطه يقول مرة :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ومرة يقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ففي المنهيات : لا تقرب ، وفي ما أحله الله : لا تعتد ؛ لذلك جاء القول على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشتبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في المشتبهات وقع في الحرام كراخ يرمى حول الحمى يوشك أن يواقعها ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » (١) .

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أنس بن مالك بن شير

إذن فكل كائن له مميزات وله مهمة في الوجود . وأنت أيها الإنسان لا تقلب الوسيلة إلى غاية ، فهناك كثير من المخلوقات هي وسائل ولا تصلح أن تكون غايات ، ولذلك أمرنا الحق بأن نأخذ ما ننتفع به مباشرة وأن نترك الأشياء التي حرمها علينا؛ فلا تقرب - على سبيل المثال - لحم الخنزير؛ لأن تحرير مخلوق ليحدثك من الميكروبات ، فإن أكلته تكون قد قلبت الوسيلة إلى غاية . وعليك أيها الإنسان أن تحتفظ بالوسيلة كوسيلة وأن تحتفظ بالعاية كغاية . والذي يحدد لك ذلك هو من صنعك .. إنه الله .

ودليل ذلك أن نعصوم الإسلام يكتشفون كل يوم المميزات التي جاء بها الإسلام فمتجهون إليها . إن الله يتحريمه ويأمرنا بهذا التحريم منعنا من متاعب التجربة إلى أن تثبت ، والكفار الذين لم يؤمنوا اضطربهم الظروف إلى تناوله ، وعلى ذلك فكل شيء محلل أو محرم بأوامر الله يظهر لنا فائدته أو ضرره طبقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَتَرْنَاهُمُ ۖ إِنَّا تَنَافَىٰ فِي ٱلْآمَاقِ ۖ وَفِي ٱنۢصِبِمْ حَتَّىٰ يَبۡيِّنَ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ ۖ أَوَلَمْ يَكُنۢ بِرَبِّكَ ٱنۢهٗ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٢٥﴾

(سورة فصلت)

إذن فلا اعتقاد في شيء حلال أنه حرام ولا قول بمثل ذلك ولا امتناع عنه ولا يفتي إنسان بمثل ذلك . وبأن الأمر : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . ويعرف أن الاعتداء إنما هو أن تتجاوز الحد فيما حرم أو فيها حلال ، والحق سبحانه يحجب من يقف عند حدود الله . فلا يفرجها الإنسان حتى لا تحدثه نفسه بمعصية . وعندما يتعد المسلم عنها فهو يفتي الشبهات .

والحق بيني لنا لقد أحللت لكم كذا وحرمت عليكم كذا وهو الخالق . فيجب أن نأخذ من الخالق مواصفات ما يبقى لنا الحياة ، هذا الإبقاء هو ما نصنعه نحن حينما نخترع آلة توفر علينا الحركة ونعطينا الثمرة بأقل مجهود ، فعين يصنع الصانع آلة من الآلات يصنع لها ما يوجد لها الطاقة لتقوم بعملها ، ولا يستطيع المستعمل هذه الآلة أن يغير مقدار هذه الطاقة ، فإن غير نوع الطاقة ، فالآلة لا تزيد مهمتها . فما بالنا بالذي خلق ؟

إنه حين يوضح أن هذه الآلة لا تصلح إلا بما أحلت ، ولا يصح أن تدخل عليها ما حرمت عليك هنا يجب أن تطيع الخالق ، لأنه هو الذي يعلم ما يصلح لنا وما لا يصلح . ولم يدع أحد في الكون أنه خلق نفسه ، فلنرد اقتناتنا وسخط حياتنا إلى خالقنا ، ولأخذ ما أحله ونبعد عما حرمه ، فالآلة - الإنسان - تصبح بأن تفعل الحلال وأن تترك فعل الحرام . إذن هناك أشياء تفعل ، وهناك أشياء لا تفعل . وهناك أشياء مباحة فيها الحل أو المحرمة ، فإن أقبل عليها الإنسان فهي تصلح ، وإن لم يقبل عليها الإنسان فهي تصلح أيضاً . والحق سبحانه وتعالى يوضح : أنكم لم تخلقوا هذه الآلة الإنسان وأنا الذي خلقتها ، فأنا أعلم بما يعطيها مدد الطاعة ومدد النقاء ، فإن صنعتكم غير ذلك كنتم معتلين

ولذلك يخاطب الحق الذين آمنوا بأنه خلقهم من علم وأمدهم من عدم ووزقهم لاستيقاء حياتهم ونوعهم ، وعيهم أن يأخذوا من الله هذه الأحكام : ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم . وسبحانه يوضح : إن الذي يؤمن بأن إله فليأخذ من مواضع استيقاء حياته . وعندما يقول سبحانه ذلك فلا بد أن يكون هناك سبب داع لهذا القول ولما قول الله - سبحانه - :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشْدَّ أَنْاسٍ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَحْنُ قِسْيِينَ وَرِهْبَانًا وَإِنَّمَا لَيْسَ بِذَلِكَ ﴾

(سورة المائدة)

الحق جاء في هذه القول الكريم بحديث مدحهم وحديثاتهم من مودتنا ، فمنهم القيسيون والرهبان الذين زهدوا في الحياة . ولما سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بكوا واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي ، وفيهم أبو بكر الصديق وعمر وعمر بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبوذر الغفاري وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان المارسي ومعتل بن مقرن ، واففقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يتناولوا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك أي الدسم . ويحبوا المداكير ويسبحوا في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيحهم

فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصل وأنام وأصوم وأطعم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » (١) .

وانزل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة المائدة)

وكلمات الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته وللناس منطقية ، فإذا كانوا يريدون أن يتمتعوا من طيبات ما أحل الله حتى يعملوا الزهد مثل السابقين عليهم ، ومن يريد الرحمة ألا يصل ؟ إنه يقيم الصلاة ، والصلاة لا بد لها من حركة ، والحركة لا بد لها من قوة ، والصلاة لا بد لها من ستر العورة ، وستر العورة يفتحي اللباس ، وهذا اللباس يحتاج إلى تكثير من أين يأتي هذا ، القماش يأتي من تاجر القمشة ، وتاجر القمشة لا بد أنه يأتي به من المصانع التي تنسجه ، والمصانع التي تنسجه لا بد أن تأتي به من المصانع التي غزلت ، والمصانع التي غزلت لا بد أن تأتي به من المحالج التي حلبت ، ثم لا بد من الحيوانات التي أحلب منها إن كان صوفاً ، وأن ترى وتربيتها تحتاج إلى زراعة ، إذن فكل هذه الأشياء تتطلب حركة واسعة ، أنت لا تشعر بها إلا حين تحتاج إلى الثوب . فإن كنت تريد أن تقطع للعبادة فإياك أن تتنزع بحركة من يقوم أركان الإسلام ، ويتحرك في الحياة في ضوء منهج الله ساعياً إلى الرزق ، وهذا أمر لا يتأتى .

وأيضاً ، ألا يأكل الذي يريد الانقطاع إلى العبادة ؟ إنه يأكل ليقيم إلى الصلاة وكلنا يعرف كيف يحضر رخيص الحبز . صحيح أن الإنسان يذهب إلى المخبر ليشتري رخيص الحبز ، والمخبر جاء بالدقيق من المطحن . والمطحن جاءته العلال من المخازن ، والعلال جاءت من الذي زرع . والذي زرع احتاج إلى آلات تحث والآلات تفرس وإلى آلات تحنى ، وبعد ذلك احتاج إلى أشياء أخرى كالسيارة وغيرها ، إن هذا يحتاج إلى طاقة هائلة

(١) رواه مسلم ورواه البخاري بلفظ : « ذلك أحلهم » أما تأمل الليل أبداً وقال آخر : أنا أسهر الدهر ولا أطعم ولا أتزوج أبداً .

أن تتجاوزوا الحد ، وهذا هو معنى قوله الحق :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الاحزاب)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَنْتُمْ قُلُوبُكُمْ لِلَّهِ تَسْلُطُونَ ﴾

الَّذِي أَنْشُرَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

لولا نسال : ما هو الرزق ؟ الرزق هو ما انتفع به . فالذي نأكله رزق ، والذي تشربه رزق ، والذي تلبسه رزق ، والذي تتعلمه رزق ، والسمات الخلقية من حلم وشجاعة وغيرها هي رزق ، وكل شيء ينتفع به يسمى رزقاً .

ولكن حين يقول الحق « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً » فهو ينصرف إلى ما يطعمه الإنسان . وحين يقول سبحانه ذلك فالمقصود به أن يأكل الإنسان من الرزق الحلال الطيب . إذن فهناك رزق حرام ، مثال ذلك النقص الذي يسرق شيئاً ينتفع به ، هذا رزق جاء عن طريق حرام ، ولو صير لجائته اللقمة تسمى إلى فمه لأنها رزقه . أو الرزق هو ما أحله الله ، وهنا يختلف العلماء وتساءل البعض : هل الرزق هو الحلال فقط والباقي ليس رزقاً ؟ وتساءل البعض الآخر : هل الرزق هو ما ينتفع به ومنه ما يكون حلالاً ومنه ما يكون حراماً ؟ الحق يقول :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة الاحزاب)

كلوا مما رزقكم هذا أسلوب ، « وما رزقكم الله » هذا أسلوب آخر . فما رزقكم الله أي نأكله كله ، وهذه لا تصلح ، لأننا لا نأكله كله طيباً بل إننا سنأكل بعضه ، لأن الذي يؤكل ويطعم إما أن يكون صالحاً لإيجاد مثله ، وإما أن

يكون غير صالح لإيجاد مثله، فعندما يحتفظ الإنسان بالدقيق مثلاً فهو لا يتج سيلة قمح، إذن يجب علينا أن نأكل بعضاً ونستقي بعضاً صالحاً لأن يتج مثله، فعندما يحتفظ بالقمح فهو يصلح أن يأتي بسائل القمح ؛ لذلك جاء الأمر بأن نأكل بعض ما رزقنا الله حتى نحتفظ ببعض الرزق لا نأكله، وهذا يعني أن نحتفظ باعتدال الرزق، فلو أكل الإنسان كل القمح الذي عنده فكيف يحدث إن أراد أن يزرع ؟ إذن فاستيقنا الرزق يقتضي أن نحتفظ ببعض الرزق لنصنع به اعتدالاً رزقياً في الحياة .

والرزق الخلال هنا نوعان . ما يصلح لامتداده فيجب احتجازه بعض منه من أجل أن نستخدمه الإنسان في استجلاب رزق آخر وما لا يصلح لامتداده كالدقيق مثلاً . نأكل بعضه ونحتفظ ببعضه لم لا يقدر على الحركة . ولذلك نجد الحق في سورة يوسف يقول عن رؤيا الملك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُخَّيَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرٍ يَأْسُتُ بِسَائِيهَا الْمَلَأُ أَثَرِي فِي رُءُوسِهَا إِنْ كُنْتُمْ لِرُءُوسِهَا تَعْبُرُونَ ﴾ (١٧)

(سورة يوسف)

هنا قال أهل تفسير الرؤيا :

﴿ قَالُوا أَصْفَتْ أَحْلَامَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (١٨) (سورة يوسف)

إنه اضطراب في الجواب ؛ لأن كونهما أضغاث أحلام أنها لا معنى لها، وقولهم بعد ذلك . « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » فمعنى ذلك أن لها تأويلاً وقد كان لها تأويل، ثم من الذي رأى الرؤيا ؟ إنه الملك . ويأتى الحق بيوسف مفسراً للرؤيا . إذن فلا ضرورة أن يكون الرائي مؤمناً ولا صالحاً . وقد يقول قائل : كيف يطلع الله على مثل هذه المسائل ؟ ونقول : قد تكون الرؤيا إكراماً للرأي، وقد تكون الرؤيا إكراماً للمعبر الذي يعرف التأويل، وهى هنا إكرام للمعبر وهو سيدنا يوسف . وعرف سيدنا يوسف كيف يمت « شجرة » الرؤيا . والعجيب في الرؤيا أن البقر الهزيل يأكل البقر السمين . وهنا قال يوسف :

﴿ تَزَعُونَ سَعًى سَيْنَ دَآءٍ قَدْ حَصَدْتُمْ فَتَرَوْهُ بِسَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧)

(من الآية ٤٧ سورة يوسف)

أى كنوا البعض وليكن قليلا قليلا ، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد وهن منون الجذب لتأكلوا بها ما جمعتموه في سنين الخصب ، اتركوا البعض الآخر .
لاستمرار النوع . وتبين أن أفضل وسيلة لحفظ حبوب القمح في عصرنا هي أن تتركه في منابله وكذلك الدرة تتركها في غلافها . وكان تعبير الرؤيا دقيقاً لأنه يريد أن يستبقى للناس حياتهم في زمن الجذب ، ويستبقى هم كذلك الصرع الحيوان ، فتأكل الناس الحب ، وبأكل الماشية التبن المتبقى ، وكذلك صمر الحق منومات الحيلة لكل ما يلزم للحيلة . ونلاحظ أن المأكول في هذه الآية هو القليل ، أما الباقي فهو الكثير في منابله ، هذا في أيام الرخاء ، فإذا عن أيام الجذب ؟

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ تَعْدِ ذَلِكَ سَعٌ شَدَادٍ يَا أَكْلَرُ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ﴾ (٤٨)

(سورة يوسف)

أى أن الناس ستأكل في أحوال الجذب الكثير من الحبوب التي في المخازن ويجب أن يحتفظوا بقليل مما يجمعون في هذه المخازن ، وذلك لاستبقاء حره من القمح للزراعة .

إذن (من) في قول الحق سبحانه وتعالى : (وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً)
للمنعطف أى كلوا بعض ما رزقكم الله ، فإن كانت الأشياء مما يكون بقاؤها سبباً
لاستداد نوعها فالنوع يكون متصلاً . مثال ذلك رحل عده بسور البطيخ وزرعها ،
وبعد أن جاءت اشهر أكلها هي والدور فمن أين يزرع في العام القادم ؟ كان يجب
أن يحتفظ ببعض منها لتكون بذوراً . وكان يجب أن يحتفظ بحره من البطيخ ليعطى
منه الحار أو لمحتاج .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « مما رزقكم الله » تصلح لاستبقاء النوع وتصلح
لصرف الزائد إلى غير القادر . « واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » أى أنك حين تنقذ
من تؤمن به إنما تخلص في ذلك غصاصة ، لأنت آمنت أنه إله وقوى ، والخصاصة في
أن تأتمر بأمر مفسد لك ، أما الانقياد والانتهاز لأمر الأعلى منك ، فهذا لا يكون سبباً
في العضاصة إنما هو تشريف لك وتكريم

ونحمد الحق بشرح لنا ذلك في قصة سيدنا موسى مع السحرة ، فالتقى موسى عليه السلام عصاه ، ورأى السحرة حية . والساحر ينظر إلى الشيء الذي تم سحره فيراه على حقيقته وصورته لاصليه، أما المسحورون بالرؤية فهم الذين يرون الشئ المراد لهم رؤيته . ورأى السحرة حبالهم مجرد حبال، وعصا موسى هي التي صدرت حية

هنا عرفوا أنها مسألة أخرى فمادا قالوا ؟

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) ﴾

[سورة الشعراء]

لقد عرفوا أن هذا أمر خارج عن نطاق البشرية . إذن فما كان من أمر السحرة فجاء قوم مدعون هو تخيل للنظر :

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْفَى (٤٩) ﴾

[من الآية ٤٩ سورة الشعراء]

وقال الحق :

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ (٥٠) ﴾

[من الآية ٥٠ سورة الشعراء]

أما موسى عليه السلام فعين ألقى العصا لأول مرة ووجدتها حية خاف لأنه رأى في ذلك قلباً للحقيقة . أما عند السحرة فلبست حبالهم حبات حقيقة ولكنها سحر لأعين الناس أي تمجبل للناظر . ومثال آخر هو سيدنا سليمان عندما أرسل لبلقيس ملكة سبأ وجاء رسوله يقول لها :

﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَاتُّونِي مُسْلِمِينَ (٥١) ﴾

[سورة النمل]

فماذا قال لحاشيتها من رجال القتال ؟

﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٥٢) ﴾

[من الآية ٥٢ سورة النمل]

وهنا عرفت احاشية أن المسألة تتطلب رأياً سياسياً ، فقالوا :

﴿ قَالُوا فَنَحْنُ أَوْلَىٰ قُوَّةً وَأَرْثَوْا بِأَمْرِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (٢٣)

[سورة النمل]

الرأى إذن هو من حق السياسى الذى يزن الامور بموازين العقل وموازين الاحتمال الواقعة ، ومرازين رد الفعل ، وأدلت بلقيس المعركة سياسياً ، فأرسلت هدية من مقام ملكة ، فإن راقته الهدية فهو طالب دنيا ويريد خيرها ، وعندما وصل رسنها بالهدية ، ماذا قال سليمان ؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمَدُّونَ بِمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (٢٤) ارجع إليهم فلنأتيتهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاهرون ﴾ (٢٥)

[سورة النمل]

وهنا عرفت بلقيس أن الإسلام أمر ضرورى ، وما هي ذى الدقة لتعرف أن الأمر من المساوى هو الذى يعطى حرة فى الأمر وذلة فى المأمور ، أما إذا كان الأمر من غير المساوى ومن الأعلى - سبحانه - فلا دقة فيه لأحد . وكان إيمان بلقيس إيماناً ملوكياً . فقال :

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٦)

[سورة النمل]

إنها لم تغل أسلمت لسليمان وإنما قالت . فأسلمت مع سليمان لله . إذن فلا غشاضة فى إيمانها ، وذلك حتى لا يظن شعبها أنها دعيت به إلى حضيض الذلة من أن يحكمهم إنسان آخر . لكن هي وسليمان محكومان لله رب العالمين ، ولا غشاضة فى ذلك . ونعود إلى قوله جل شان :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٨)

[من الآية ٨٨ سورة لقاح]

أى اجعلوا للإيمان حيثية ، وما دمت قد آمنت وناقرو بأمر من تؤمن به . فانت لا تؤمن إلا بمن تق فى أنه يستحق الإيمان . وقرله أولاً فى الآية السابقة .

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلْالًا طَيِّبًا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِء مُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة النساء)

وقوله في تدليل هذه الآية :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِء مُؤْمِنُونَ ﴾ .

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

هو تسخير وإحاطة لطاعة بإيمانين ؛ إيمان خوطبوا به ، وإيمان أقروا به . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ
يَأْخُذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَرْتُمْهُ بِإِطْعَامِ
عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ
أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ
وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

عندما ننظر في قول الحق : « لَا يَأْخُذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ » نعرف أن « يَأْخُذُ » من « أَخَذَ » ويأخذ من أخذ ، فإن قلت : « أخذت فلانا بكنا » فذلك دليل على أنك أنزلت به نكالا لأنه لم يدخل في تعاقب خبري معك ، ولكن أن تقول : « أخذته » . كان المتاعلة حدثت بأن دخل معك في عقد الإيمان ولذلك يأخذ الحق

الكافرين أحد عزيز مقتدر . ولكنه يؤخذ المؤمنين ، لماذا ؟ لأن المؤمنين طرف في التعاقد ، أما الكافرون فليسوا طرفاً في التعاقد ؛ لذلك يأخذهم أحد عزيز مقتدر .

إذن فالموازنة غير لأحد ، المؤاخذه هي إنزال عقوبة من له معك عهد فحالها بعمل جريمة نص عليها ؛ فلا يؤاخذه أبداً بجريمة لم ينص عليها ، ولا يتم توقيع عقاب عن أحد دون تحذير مسبق . وبذلك نص العاينون المنى يقولون لا عقوبة إلا بجريمة ولا جريمة إلا بنص

إذن لا بد من النص أولاً على العقاب على الجريمة ؛ لأن النص على فعل ما بآته جريمة يجعل الإنسان يراجع نفسه قبل الإقدام على مثل هذا الفعل أما عدم وجود نص على أن ذلك الفعل جريمة يجعل الإنسان حراً في أن يفعله أو لا يفعله لأنه فعل مباح

وعليها أن ملحظ التعاقد في قوله الحق : « لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم » وعندما ينظر إن معنى : « اللغو » بعبارة النبي ، الذي يجري على اللسان بدون قصد قلبي ؛ مثل قول الإنسان في الدعة العامة : لا والله أو والله أن تأتي لفقداء مما . هذا هو اللغو . أي هو الكلام من غير أن يكون للقلب فيه تصميم . وسبحانه وتعالى قد خلقنا وهو الأعلم بنا علم - سبحانه - أن هلك كلمات تجري على ألسنتنا لا نعيها . ودليل ذلك أن الأم التي تحب وحيدها قد تدعو عليه ، لكن ذلك بلسانها ، أما قلبها فيرفض ذلك . ولهذا يقول المثل الشعبي : ادعى على ابني وأكره من يقول آمين

إذن الحق سبحانه وتعالى علم بشرياً ، وعلم أن الإنسان قد يأتي بالمعاط لم تمر على قلبه فيقول سبحانه : « لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم » واتع الحق ذلك : « ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان » وساعة ترى كلمة . « ولكن » معروفة أن هلك استدراكاً ، والاستدراك هو إثبات ما يتوهم بعبه أو معنى ما يتوهم ثبوته وساعة ترى كلمة « عقدتم » فهي دليل على أنها عملية جرم قلبية ، وأن الإنسان قل أن ينطق بالقسم قد أدار المسألة في ذهنه وخواطره وانتهى إلى هذا الرأي .

إذ فاللعو هو مرور كلمة على اللسان دون أن تمر على القلب ، وضربنا مثلاً على ذلك وهو دعاء الأم على وحيدها ، ونحن نرى أن هناك انفاذاً كثيرة تمر على ألسنة قد تؤدي إلى الكفر ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله يضع لنا صديق النية فيقول (أحفظاً من شدة الفرح) قالها رسول الله تعليفاً على رجل قال :
« اللهم أنت عبيدي وأنا ربك » .^(١)

هذا هو اللغو ومن رحمة الله بنا أنه يفرق بمسبق وواسع رحمت فيقول لنا : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » . وكلمة «عقدتم» دليل على أن اللسان لم يعتقد شيئاً فحسب ولكن عقده يلحكام قوي . فساعة ببالغ في الحديث فأنت تأتى له باللفظ الذى يدل على المعنى تماماً وتمكين وتثبيت وعلى ذلك فكلمة «عقد» غير «عقفاً» إذن بكلمة «عقد» أى أن الإنسان قد صنع عقدة محكمة . ومثال على التأكيد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَعَلَقْتَ الْأَبْوَابَ﴾ (٢٢)

[سورة التوبة ٢٢ سورة يوسف]

قد يقول قائل . ألم يكن يكفى أن يقول الحق سبحانه . «وعلقنا الأبواب»؟ ويقول : لا إن الخلق قد أتى بالفعل الذى يؤكد إحكام الإغلاق . فإغلاق الأبواب يختلف من درجة إلى أخرى ، فهناك علقنا الباب بلسان «طيلة» الباب ، وهناك خلقنا بالمزلاج ، وقوله الحق : «وعلقنا الأبواب» أى أن امرأة العزيز بالغت فى خلق الأبواب . وكذلك قوله الحق : «عقدتم الأيمان» أى جالت فى قلوبكم جولة تثبت صدق نيتكم فى الحلف . وهناك صورة أدائية أخرى تلتقى مع هذه الصورة فى المعنى ، حين قال الحق سبحانه .

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَئِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ

غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٤)

[سورة البقرة]

ولنلاحظ هنا أن القلوب قد كسبت ، فما الذى تكسبه القلوب فى مثل هذه الحالة؟ يعرف أن الكسب هو وجود حصيلة فرق رأس المال . والكسب الرائد فى القسم ،

(١) من حديث رواه الإمام مسلم .

هو أن يؤكد الإنسان بقلبه هذا القسم ، أى أن القسم اتعقد باللسان والقلب معاً .
وسبب نزول آية سورة المائدة (لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، أن الصحابة
الذين حرموا على أنفسهم طيبات الطاهم والملابس والمناجح وحلفوا على ذلك فلما
نزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا رَأَيْتُمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْتُمْ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ۝٨٨ ﴾

(سورة المائدة)

قالوا : كيف نصنع يا أيها الناس ؟ فترت هذه الآية أى أن تحريم الحلال لغو لا كفارة
فيه ، ونعلم أن الإنسان لا يصح له أن يحلف على شئ ليس له دخل فيه ، كقول
إنسان ما : والله لى أصل . إن مثل هذه اليمين لا تعقد ، ولذلك لا كفارة لها
لكى إن قال : والله لأشربن الخمر . هنا نقول له : امثل إلى ما جاء فى حديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت
الذى هو خير وليكفر عن يمينه (١) .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان » إذن فهناك
استدراك يتعلق باليمين المؤكدة وهى تستدعى المزاخنة . فكيف تكون المزاخنة وهى
عقوبة ، على الرغم من أنه لا عقوبة إلا بصر ؟ إن الحق سبحانه وتعالى ستر العقوبة
ومعها بالكفارة : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو
كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » والكفارة هى ستر للعقوبة
فهل معنى ذلك أن الإنسان تلزمه الكفارة مادام قد عقد الأيمان ؟ لا ، تكون الكفارة
فقط حين تحدث فى القسم علم تبر فيه . فتكون الكفارة فى هذا المجال كالأق . إطعام
عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صوم
ثلاثة أيام لى لم يجد .

والمناسب في الكفارة يختلف في مفهوم الفتين باختلاف الحادث ، ومثال ذلك أن
تحليفة في الأندلس حلف ميمياً وأراد أن يؤدي عن اليمين كفارة ، فجهاد إلى القاضي
منذر بن سعيد وسأله عن كفارة هذه اليمين ، فقال : لا بد أن تصوم ثلاثة أيام
وكان يجلس شخص آخر فأنشأ للقاضي إشارة فلم يعبأ القاضي منذر بن سعيد بتلك
الإشارة . وخرج القاضي ومعه ذلك الشخص ، فسأل القاضي : يا أبا سعيد ، إن
في نفسي شيئاً من فتواك ، لماذا لم تقل للتحليفة إن كفارة اليمين عتق رقبة أو إطعام
عشرة مساكين ؟ فقال القاضي منذر بن سعيد . أمثل أمير المؤمنين يزجر بعنق رقبة أو
إطعام عشرة مساكين ؟

وهذا يدلنا على أن القاضي منذر بن سعيد قد أجهد نفسه ليختار الكفارة التي
تزجر . وهذا يدلنا أن الكفارة في جانب من رجر للتمس وفي جانب آخر جبر
للذنب . وقد رجع القاضي منذر بن سعيد جانب الزجر على حساب جبر الذنب ؛
لأن التحليفة لن يرمقه إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم لو عتق أكثر من رقبة^(٢) .

وفي الإطعام لعشرة مساكين من أوسط ما يطعم به الأهل ، قد يقول قائل . هل
الأوسطية هنا للكمية أو الكيفية ؟ ونقول : يراعى فيها الكمية والكيفية . فإن كانت
وجبة الإنسان مكونة من رغيف واحد فليعرف أن بين أهله من يأكل في الوجبة
الواحدة ثلاثة أرغفة فيكون الأوسط في مثل هذه الحالة رغيفين مع ما يكون من أدم
كلهم ودم . وكذلك الكسوة ، أن يكتسب الإنسان الذي يكفر عن عيب عشرة
مساكين بما يستر العورة وتنصح به الصلاة ، كإزار ورداء أو قميص وعمامة ، أو أي
ملابس تسترهم . وهما من أولاء نجد أن كفارة تحرير رقبة نأز في المرتبة قبل الأخيرة
ويأتى بعدها قول الحق : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » إذن الحق لم يرتب
الكفارة وإنما علينا أن نعتار منها الكفارة الملائمة .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالقول : « واحفظوا أيمانكم » والخط هو عدم
التضييع . أم كيف نحفظ أيماننا ؟ فنقول : إن على الإنسان ألا يجرى اليمين على
لسانه ، هذه واحدة . والثانية : أن يحاول الإنسان ألا يبحث في اليمين . وهذا

(٢) الجمهور من أنه لا يكفر بالصيام إلا إذا عدم هذه الثلاثة الأشياء وهي : الإطعام والكسوة ، وعتق الرقبة .

يقضى ألا يحلف الإنسان على شيء يقوله بلسانه ويخضعه لقلبه إلا إذا كان على ثقة من أنه سيحصد كل جوارحه للقيام بهذا العمل الذي أقسم أن يقوم به ، وهذا هو معنى قوله الحق : « واحفظوا أيمانكم » .

ويليل الحق الآية الكريمة : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . والشكر هو الثناء من المتعم عليه على النعم بالنعمة ، فكان هذه التشريمات تستحق منا الشكر ، لأنها جعلت اللغو غير مؤاخذ عليه ، ولأنها جعلت اليمين التي عقدته له كفارة ، وفي كل من الأمرين نسير بسنن الشكر لله .

ويتابع الحق القول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ
وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

ساعة نسمع كلمة : « إنما » فاعلم أنهم يسمونها في اللغة « أداة قصر » كقولنا : إنما زيد مجتهد ، وهذا يعني أننا قصرنا زيدا على الاجتهاد . لكن إن قلنا : إنما المجتهد زيد ، فنحن في هذه الحالة قصرنا الاجتهاد على زيد . وساعة تقصر إنساناً على وصف فذلك يسموه : « قصر موصوف على صفة » ، وعندما نقول : إنما زيد شاعر . فهذا يعني أن زيدا شاعر فقط وهو ليس بكاتب أو خطيب . أما إن قلت : إنما الشاعر زيد ، فهذا يعني أنه لا يوجد شاعر إلا زيد ، فكأنك نفيت عن الآخرين أنهم شعراء ، وأنه زيدا فقط هو الشاعر ويحتمل أن يكون كاتباً وعظيماً وعلماً مع كونه شاعراً . إذن ساعة نرى « إنما » فأعرف أنها أداة من أدوات القصر .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿بَنَاتِيَا الْفِرِينَ أَتُسَوَّانَا مَعَ الْحَمِيرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
فَاخْتَبِرُوهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ٥﴾

(سورة النمل)

أي إن الحمير والميسر والأنصاب والأزلام كلها رجس من عمل الشيطان .
والرجس هو الشيء الرديء المذموم القذر . والقذارة والمذموم هما من الأمور التي قد
تكون حسية مثل الحمير ، وقد تكون معنوية كالأنصاب والأزلام ، وجمع الحق
سبحانه في هذه الآية الأمرين معاً . ولم يقل إن الحمير هي عصير العنب أو عصير
الطفاح ، إنما جاء بالحمير التي تشمل كل ما يشار به العقل ويستره . وتصيب بعض
العلماء من أن هذه الآية نزلت في البلاد التي ليس فيها شيء من عصير العنب ، ذلك
أنهم ظنوا أن عصير العنب فقط هو الذي يستر العقل ، لكن الحق جاء بالصرح
الشامل لكل ما يستر العقل . لماذا إذن تكون الحمير والميسر والأنصاب والأزلام رجساً
من عمل الشيطان ؟

إن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض وسخر له كل
شئ في الوجود وطلب منه أن يعبد وحده وأن يحمر هذه الأرض . وأراد الحق أن
يضمن للإنسان سلامة أشياء متعددة ، سلامة نفسه فلا يعتدى عليها بالقتل أو غير
ذلك ، وسلامة عمله فلا ينجس عليه بما يستر آية الاختيار بين البهائم ، وسلامة
عرسه فلا يبلغ فيه أحد وحتى تلك الأنسال التي تعمرك الكون وهي أنسال طاهرة ،
وسلامة ماله حتى يحفظ على الإنسان أثر حركته في الحياة وحتى لا يأخذ غيره أثر
حركته ، وذلك حتى لا يزهو العامل في العمل ولا يعود الطغاة أن تأخذ من غير
عملها لتكسل وتتواكل ، فالإنسان إذا ما اعتاد أن يأخذ من غير عمل صار العمل
صعباً عليه ، وهكذا كانت حياة المال لا تبذل طاقة ولا تهدر حفا ، ولا تعطى غير
ذي حق حفا لغيره ، وهكذا حتى لا يشيع العجز الاصطناعي في الكون . ولذلك
قال الحق وهو مانع كل مال :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

أى أنه .. وهو المالح سبحانه وتعالى . قد احترم حركة الإنسان فلا يستمرىء أحد البطالة . وعندما تنتشر البطالة فإن الإسلام يعالج الأمر بحكمة بالغة ؛ فهو يطلب من الوالى أن يسبب لهم الأسباب ليعملوا . وذلك حتى لا يتمردوا على الأخذ بغير عمل لئلا تكون مصيبة على المجتمع . وأراد سبحانه بالشرعية السماح أن يحمى الإنسان من كل ما يهدده ، فحسباً حرم الخمر ، أى منع عن الإنسان ستر العقل ، ذلك أن ميزة الإنسان على الحيوان هي العقل

إن الإنسان يختلف عن الحيوان بأنه يحفظ حياته بالعقل ، أما الحيوان فيحفظ حياته بالمريزة . ولذلك فالحيوان لا يملك إلا ردأ واحداً إذا ما تم الاعتداء عليه ؛ الكلب يعض المعتدى والقطعة تحسش المعتدى ، أما الإنسان فعندما يعتدى عليه أحد فهو يختار بين بدائل للرد على العدوان ، إما أن يضرب وإما أن يقتل وإما أن يسامح .

ومثال لذلك نراه في الزيف ، عندما يحاول راكب الجهار أن يجبر الجهار على القفز على قبة صغيرة فيها مياه يرفض الجهار ذلك تماماً ومهما ضربه راكمه فهو يرفض القفز ؛ لأن خريته تحميه من ذلك . أما الإنسان فقد يتأبه القروور ويظن أنه قادر على القفز فوق القاة فيقفز لكنه قد يقع في المياه . وتوجد المجازفة عند الإنسان ، لكنها لا توجد عند الحيوان بمقتضى المريزة .

ومثال آخر من عالم الحيوان نجد ذكر الجاموس يقترب من الأتى ليشمها فإن وجدها حاملاً لا يقربها ، هكذا الحيوان أما الإنسان فلا . والجهار يتناول طعامه من البرسيم مثلاً مما يشبعه ولا يزيد أبداً في الطعام مهما ضربه صاحبه ؛ لأنه محكوم بالعريزة ، أما الإنسان فقد يأكل فوق طاقته .

وهكذا نجد الخريزة هي التى نعصم الحيوان ، والعقل هو الذى يعصم الإنسان . ولذلك لا يملك الحيوان القدرة على الاختيار ، ولكن ميزان غرائزه لا يختل أبداً . أما ميزان الغرائز عند الإنسان فقد يختل

لقد مير الله الإنسان من الحيوان بالاختيار بين البدائل بالعقل ، ولذلك لا يبيع ولا يستقيم من الإنسان أن يطمس هذه القدرة بالحمر . فإن طمس قدرة الاختيار ، فإن غرائزه في هذه الحالة لا تنفعه لأنها غير مؤهلة لحمايته ، ولذلك نجد الذي يطمس عقله يبيع نفسه في مرتبة أقل من الحيوان ؛ لأن الحيوان تحميه القرينة ، والإنسان يحفظه عقله ، وهو في هذه الحالة قد طمس وعظماء ، وقد حرم الله الحمر لأنها تضر العقل . وكل ما يستر العقل حمر حتى ولو كان أصله حلالاً ، وذلك لأن العقل هو مناط التكليف . وكذلك حرم الله الميسر .

ولتر دقة الاسم الذي اختاره الله للمعسر ، إنه « الميسر » ولم يسمه « المعسر » ذلك أن أحداً لا يقبل على الميسر وهو يظن أنه سرف يحسر ، وكل من يلعبون القمار إنما يفعلون ذلك على أمل الكسب ؛ لذلك جاء بالاسم الذي يجبر عن حالة اللاعب للقفار إنه يلعب على وهم الكسب ، وإن كب فالكسب يُقر به بانزيد من اللعب .

والخسران يعمرى باللعب أكثر لعل كسباً يعرض الخسرة التي منى بها . وقد يبيع اللاعب للميسر كل ما يملك كي يعرض خسارته ومع ذلك فالكسب من الميسر حين على النفس تبليده وتنطقه سيما لا يتفزع بل قد يتفقه فيما يفسر ، فالكسب ليس له والخسارة محسوبة عليه . فكلين يعميون الميسر مع بعضهم لا تربطهم صداقة أو محبة . فكل منهم حريص على أن يأخذ ما في جيب الآخر . وهذا اللون من اللعب يعطل القدرة على الكسب الحلال ؛ لأن الكسب الحلال يحتاج إلى حركة في الكون . والميسر يشل حركة الكاسب لأنه يزهدي في العمل . والخسران يشل حركة الخاسر لأنه مهتماً سعى في الأرض فقد لا يستطيع أن يسند دينه .

إذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للناس ألا يتفزع أحد بشيء إلا نتيجة كده وعمله . والحق يريد أن يكون جسد كل إنسان من نتاج عرقه في عمل مشروع وكذلك أجساد من يعول . وأبلفت أيضاً أن الانصباب رجس من عمل الشيطان . والأنصاب ثلاثة قداح كانت توجد عند الكاهن ؛ قدح مكتوب عليه أمري ربي ، والقدح الثاني مكتوب عليه نهاني ربي ، والقدح الثالث غفل من الكتابة أي خال منها فلا علامة فيه . فإن كان في تبة إنسان السقر أو الرواج أو الجارة فهو يذهب إلى الكاهن ليضرب له هذه القداح . فإن خرج القدح المكتوب عليه أمري ربي فعل

وإن خرج نهائى ربي لم يفعل . أما إن خرج القذح العمل فهو بعيد صرب القذاح حتى يخرج أحد القذحين إما الذى يحمل الأمر ، وإما الذى يحمل الهوى ولم يتسأل أحد لماذا عندما يخرج القذح العمل لا يعتبر أن هذا أمر خارج عن نطاق التحريم . ويؤخذ على أنه إباحة واختيار يعمل أو لا يعمل . لقد أساهم الحق ذلك حتى يدركنا على أن ذلك أمر كاذب جاء به الكهنة من عندهم . فإن سألهم سائل . من الإله الذى أمر ونهى ؟ ها يقول القائل منهم . الله هو الذى أمر وهو الذى سى (والله يعلم إنهم لكاذبون)

والحق سبحانه وتعالى حين يهتأ عن تلك الأمور فهو يريد للإنسان أن يسعى ملكة الاختيار بين البدائل . وعلى الإنسان أن يستشط وأن يحلل وأن يعرف المقدمات فيدرسها ويحلل الخطوات ليصل إلى النتائج لا أن يعطل القدرة المدركة التى تختار بين البديلات ، فالخمر تضر العقل ، وكذلك المسر يضع الإنسان بين فكر الوهم ، وكذلك الأسباب تعطل القدرة على السر والرصوخ للكهنة . وعندما تسأل شارب الخمر : لماذا نشرها ؟ يجيب : إنى أريد أن أستر همومى وستر الهموم لا يعنى إنهاءها ولكن مواجعة الهموم هى التى تنهى الهموم بالأسباب المتاحة للإنسان . فإن لم نقو أسبابك فاحأ إلى المسب فى إطار قول الحق .

﴿ أَمْ يَجِبُ أَنْ يُضْطَرَّ دَا دَعَا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة المل)

وعندما تستفد أسبابك وتلجأ إلى الله فهو بعينك على الأمر الشاق المسبب للهموم . وك فى الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة فقد كان إذا حربه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى « حربه » أى خروج عن نطاق أسبابه . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى رب الأسباب وقد نجد من يقول . إنى أدعو الله كثيراً ولكنه لا يستجيب لى

ويقول له إما لأنك قد دعوت فى غير اضطرار ، وإما لأنك لم تلصت إلى الأسباب ، وأنت حين تتجيب الأسباب فأنت ترفض يد الله الممدودة لك بالأسباب . وأنا أقصد أن يوجد مضطر أمى الأسباب ، ولا يأتى له العرج . وأنت حين تدعو بحاجة وتتأخر عبيك ، نقول لك : إنك دعوت بغير اضطرار .

وكثيراً ما أخرب هذا النمل - وله النمل الأعلى المتزه دانياً - وأقول: هب أن تاجراً من تجار الجملة الكبار يجلس أمام المحزون التي يملكها وجاءت السيارات الشاحنة بصناديق بضائعه ، والعمال يحملون البضائع ليضعوها في المحزون ، وفجأة رأى عاملاً من عماله يكاد يقع بالصندوق الذي يحمله ، هنا نجد التاجر يجب بلا شعور لنجدة العامل فما بالنا بالحق الذي خلق لنا الأسباب ؟ إنك إن استغفرت الأسباب فإن الله يعريك مصداقاً لقوله :

﴿ اٰمِنْ يٰجِبُّ اَلْمُضْطَّرُّ اِذَا دَعَا وَيَكْتَفِ اَلْسُوءُ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

إذن فالخمر والميسر والأنصاب والأرلام رجس من عمل الشيطان والأرلام هي نوع من الميسر ، فقد كانوا يحضرون الناقة أو الخزور ويذبحونها ويقسمونها إلى ثمانية وعشرين فماً ويخصمون لإنسان نصيباً ولثلاثي نصيين ولثالث ثلاثة أنصبة ، وللرابع أربعة أنصبة وللخامس خمسة أنصبة ، وللسادس ستة أنصبة ، والسابع له سبعة أنصبة . وكانوا يأتون بالقدح السبعة . فدح اسمه « القدح » ويأخذ المأثر به نصيباً ، والقدح الثاني : « التوام » ويأخذ نصيبين ، والقدح الثالث اسمه « الرقيب » يأخذ ثلاثة . والقدح الرابع اسمه « المجلس » يأخذ أربعة . والخامس هو « النافر » ويأخذ خمسة . والسادس اسمه « المسبل » ويأخذ ستة . والسابع اسمه « النمل » ويأخذ سبعة أنصبة . وهناك ثلاثة قداح هي الميح والسفيح وأوعد ، وهؤلاء الثلاثة لا يأخذون شيئاً بل يدفعون ثمن الذبيحة . وذلك رجس من عمل الشيطان

إن النفس العاقلة لا تقبل على مثل هذه الأعمال ، بل لا بد أن يحرك أحد تلك الأطماع ، ذلك أن المحالقات إنما تنشأ من أمرين : إما أن تكون من النفس ، وإما أن تكون من الشيطان . والمخالقة التي تكون من النفس هي التي تحرق شهوة من نوع خاص بحيث إذا زحزحت النفس عنها فهي تريد لها والمخالقة التي من نوع الشيطان تخلف ، فقد يوعر الشيطان الإنسان بالسرقة ، فيرفض ، فيعرف الشيطان أن هذا الإنسان مناعة ضد هذه المعصية ، فيوعر بمعصية أخرى ، فإذا وجد مناعة انتقل إلى معصية ثالثة ، لأن وسوسة الشيطان تطلب الإنسان عاصياً على أي لون من الألوان .

فإن وقعت عند معصية بذاتها فاعلم أن ذلك من عمل نفسك ، وإن انتقلت بالوسوسة من معصية موزت على الشيطان إلى معصية أخرى فاعلم أنها من عمل الشيطان ولا دخل للنفس بها . والعاقل الذي يتمعن في كل تلك المسائل المحرمة يرى أن الخمر والميسر والانصب والأزلام هي أمور لا تستطيعها النفس غير المنزوعة من الشيطان ، فكان قوله الحق : « رجس من عمل الشيطان » يدلنا على أن العاقل لا يمكن أن يصنع هذه الأشياء .

ويذيل الحق الآية . « لاجتنبوا لعلكم تفلحون » ويأمرنا سبحانه باجتناب الرجس الذي جمع الخمر والميسر والانصب والأزلام ، والاجتناب هو أن يعطى الإنسان الشيء المجتنب جانباً ، أى المنع للدرائع والأسباب والسد لها ؛ لأنك إن لم تهتنبها فمن الجائز أن تربك منها يربك بارتكابها . وبعض الناس يظنون أن الخمر لم يأت لها تحريم وإنما جاء الأمر فيها بالاجتناب .

ونقول لهم : إن التحريم هو النص بعدم إحسانها ، وأما الاجتناب فهو أقوى من التحريم لأنه أمر بعدم الوجود في مكانها . فإذا كان الحق قد قال في قمة العقائد

﴿ لاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾

[من الآية ٢٠ سورة الصبح]

فقد قال هنا اجتنبوا الرجس الذي يجمع الخمر والميسر والانصب والأزلام . والحق سبحانه وتعالى واجه العادات التي شاعت قبل الإسلام ليخلق العاصد منها ولم يحاربها دفعة واحدة وذلك لتعليق النفس بها والإلف لها . وإنما كان التحريم لها بالتدريج لقد حزم الإسلام الأمر أولاً في مسائل العقائد ، أم الأمور التي تترتب على إلف العادة فكان تحريمها على مراحل

وحسب يقول الحق سبحانه وتعالى عن شيء إنه : « رجس » ، فذلك حكم الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ونحن نقبل هذا الحكم حتى ولو لم نهم نحن معنى الرجس ، أو لم نتأكد مادياً من أن الشيء المحرم هو من الرجس ، ذلك أنه يكفي في ذلك حكم الله الذي يرضخ له العبد المؤمن الذي قبل التكليف من

ربه ، لأن ربه مؤمن على كل مصالحه . وما دام الحق قد قال عن شيء إنه رجس ، فهو رجس ولا جدال في ذلك

أقول ذلك لأن بعضاً يظل متصبداً لأي ثغرة متعلة متسائلة . كيف يكون ذلك العمل أو ذلك الشيء من الرجس ؟ ونقول : إننا نرصد لحكم الله تعالى وبعد ما أمر به ، فهو إله ملهم على كل الخلق ، وتثبت لنا الأيام دائماً صدق قول الحق في أن الأشياء التي قال عنها سبحانه إنها رجس ، هي من الرجس فعلاً ، فحين يقول سبحانه لحقه : افعلوا كذا ، لا نسأله : وما علة ذلك التكليف ، ولكننا ننفذ لأمر الحق ، ونكتشف في أعماقنا فائدة ذلك التكليف .

أما عندما يكلفنا عبد مسؤول بشيء فلا بد أن نسأل : لماذا ؟ والحمد لله رب العالمين أن يقدم لنا علة لأي فعل يطلب منا القيام به ، ولكننا لا نسأل الله عن علة التكليف لنا ، لأننا نؤمن بأنه إله حكيم ، والأيام تثبت لنا أن قول الله حق . ومثال على ذلك نجد أن الذي لا يشرب الخمر امثالاً لنبي الله عن ذلك المنع ، هو إنسان مستقيم السلوك ، طاهر القصد ، ولا يتأتى منه شر في الكون . أما الذي يشرب الخمر فهو معوج السلوك ، غير طاهر القصد ، ويتأتى منه شر في الكون . وقد أثبت التجربة أن شارب الخمر إنما يصاب بأمراض في انكبد ويعاني من ارتباك في إدارة حياته وكنياته . نحن نقرأ قول الله سبحانه

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والتيقوى - كما علمنا - أن يجعل بيننا وبين غضب الله وقاية ، لذلك نفعل ما أمرنا به . وحين نفعل أوامر الإله الحق إنما نتعلم حكم الله في الفعل . ومثال ذلك قوله الحق .

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة المائدة)

ونحن نعرف كيف تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، لأنها سلم وجوها وقبونها لله فنسند ما أمر به . وكذلك نجد في الركاة خماء . وبعد الحج يصمى النفس من أي

كبير ويغسل اللعوب . وكل فعل أمر به الحق نجد له الأثر في نفوسنا بعد أن نقوم به .
أما إن فعلت الحكم للملة فذلك يبعد بك عن مرتبة الإيمان .

ونجد أن الطبيب يأتي لشارب الخمر بصورة متقطعة للكبد بواسطة الموجات الصوتية أو الأشعة فيجد شارب الخمر صورة كده وقد امتلأت بالتهرؤ وصارت عرضة لأمراض كثيرة ثقيله وربما تعطلت وظائف الكبد في بعض الأحيان ، وما يأمر الطبيب شارب الخمر أن يستع عن شرب الخمر . فهل امتناع شارب الخمر في مثل هذه الحالة هو امتناع بسبب الإيمان أو بسبب الأمر الطبي ؟ إنه امتناع بسبب الأمر الطبي ، ويستوى في ذلك المسلم العاصي والكافر . ولكن المؤمن الذي يستع عن شرب الخمر ابتداءً ، فهو قد امتنع لا لعلّة الأمر ولكن لأن الأمر من الله ، وهو يسمع أوامر الحق دون سؤال عن العلة . والمؤمن يأخذ بالحكم من الله دون طلب تعليل منه ليشرح به أسباب النفع في سلوكه .

والحق سبحانه قال . (إنما الخمر والميسر والاتصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) والعدوة المسبقة بين الشيطان وأبنا آدم عليه السلام بينها - سبحانه - بقوله للملائكة

﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾

[من الآية ٣٤ سورة البقرة]

وكان الشيطان موجوداً مع الملائكة، وكان الأولى أن يسجد هو ، لأن الأمر إذا كان للجنس الأعلى وهو الملائكة، فيجب أن ينسحب على الأدنى . لكنه عصى وقال

﴿ أَنَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (١) ﴾

[من الآية ٦١ سورة الإسراء]

إذن فالعدوة مسبقة بين آدم والشيطان ، فكيف إذن تقبل نحن أبناء آدم وسرمته ؟ وكيف تقبل مرغه ؟ وكيف تقبل إغراءه ؟ لا بد إذن أن نتجنب ذلك لأنه رجس ومن عمل الشيطان ، حتى نسجد من كل سوء ، ويأتي لنا كل فلاح ويقول الحق :

والشيطان يريد ، لكن أيعذر على إضاد ما يريد ؟ إنه يقدر في حالة إطاعة الإنسان له . وهكذا يكون إرادة الشيطان ، وهو يجب أن تحدث المعصية من الإنسان ،

ويعتني الشيطان ذلك ، ويحطط لذلك . لكن الفعل لا يأتي إلى الوجود إلا إذا وافق الإنسان على طاعة الشيطان .

إذن فالإرادة إن كانت ممنوعة على الإرغام والإرارة فهي تظهر العمل فوراً ، والقادر المطلق هو الله ، وهو يحكم ما يريد ، ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥٧)

(سورة يس)

لكن خلقه حين يريدون فالأشياء لا تتفعل لهم انفعالاً لخالقها ، لأن إرادة المخلوقات تقتضي أن ينفذ الإنسان على قدر طاقته ، وهي معها زادت محدودة . وإرادة الشيطان تحتال على الإنسان حتى يفعل ما يشاء ، ولا يستطيع الشيطان أن يكره الإنسان قهراً على فعل ما ، ولكنه يزين له الفعل . فليس للشيطان سلطة الإكراه ليدهر الإنسان على فعل ، وليس للشيطان قدرة على الإقناع أو الإتيان بأدلة تجعل الإنسان يفعل مراد الشيطان وهو راضٍ عن عمله . ولذلك يقول الشيطان في الآخرة للمذنبين : إن الذنب ذنبهم .

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

هكذا يعلن الشيطان أنه غير قادر على الشر ، لا بالقهر ولا بالحجة ، إنه فقط زين لهم الأمر ، فمن كانت له شهوة فالشيطان يزينها له فيرتكب الذنب . ويعلن الشيطان :

﴿ مَا أَنَا بِمُضِرِّخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُضِرِّهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ويعترف الشيطان أنه معها صرح مستعياً - يوم القيامة - فلن يجد من يغيثه ، وكذلك أصحاب الذنوب الذين اتبعوه سبيلهم ولن يجدوا من الشيطان عوناً يجيهم من العذاب . وهه أصرخ فلان فلانا ، أي ذهب ليبرل صراخه ويحده . إذن نقول الحق : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » يشرح لنا أن إرادة الشيطان هي إرادة تزيين ، لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع . وإذا



سمعت كلمة « يوقع » ، فافهم أن هناك شيئين الأصل فيها الالتحام ، وهناك من يريد أن يجعل بينهما شيئاً يفصل هذا الالتحام . ولذلك يقال : « فلان مشى بالوقفة » أى أنه لو اد أن يصح صجرة وشرعاً بين اثنين الأصل فيها الالتحام

وكلمة « بكم » تفيد الاتصال . وهذا الاتصال هو الذى توصح فيه الرفيعة . ماذا ؟ لأن المؤمنين إخوة ، ولأن المؤمن لمؤمن كالبياض المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والشيطان يسمى بالخمر والمير لأن يمشى بالوقفة بين المؤمنين . وبعد عهائس الخمر فيها هذا ، فالشاربون معاً كثيراً ما تقوم بينهم ابعارك ويدور بينهم السلب . ولاهو المير يأخذ بعضهم مال بعض ، وهكذا يتحولون من وحدة كالبياض إلى فرقة وتحدث بينها العداوة والبغضاء .

وما الفرق بين العداوة والبغضاء ؟ العداوة هي اتصال متلاحمين حدثت بينهما عداوة وبغضاء . والبغضاء هي أعمال القلب بئىء مكروه .

كان البغضاء توجد في الصدور بعد حصول العدوان ، فكان العداوة تكون هي المنطقة الوسطى التى ناعدت بين هذين الشخصين بعد أن استسلما لرغ الشيطان وهذا الإنسان كان يجمعها من قبل البغضاء والمودة والحب والأخوة الإيمانية

والعداوة في هذه الحالة تأخذ من مشاعر كل طرف ، لأن العداوة إن كانت من طرف واحد فممرها قصير ، ولكنها تطول إن كانت بين طرفين . ولذلك تكون المعركة حامية بين عدوين يستشمر كل منهما العداوة للآخر . وهي تكون عداوة مؤحجة وملتهبة إن لم يتدخل طرف ثالث ليحسم بالحق بين الاثنين ، فيخزي الذى على الباطل ويأخذ الحق منه ويعطيه لصاحبه ، وهنا يحس صاحب الحق أن هناك من يصره . وهذا تحسم العداوة وتنقصى . لكن إن لم يجد الطرفان راداً ولا رادعاً ، تطل العداوة متوهجة . ولذلك حينما عرض الحق أمر موسى عليه السلام وأمر برعون ، قال عن موسى

﴿ قَالَتَنَّهُ ؕ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾

والتقطوا موسى لماذا ؟

﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَرَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

فهل عرفوا هم من البداية أنه عدو ؟ لا ، لقد التقطوه ليكون قوه عين لهم ، ولكن الله أفسد مراحهم . فاللام في قوله : « ليكون » هي لام العاية والعاقبة وليست لام العلة انفاعلة ، وقد أثبت سبحانه بذلك أن فرعون ليس إلهاً ، وأن أتباعه كانوا قوماً مغفلين لا مطة لهم . فلو كان فرعون إلهاً لمرب أن هذا الوليد الذي سيريه سيكون عدواً له

والعداوة هنا هل هي من ناحية موسى فقط تجاه فرعون ؟ لا ، إنها عداوة بين الله وموسى كطرف ، وفرعون كطرف . لذلك قال :

﴿ مَا قَدِّعِيهِ فِي أَنْيَمٍ فَلْيَلْفِهِ أَنْيَمٌ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

ولم تنته هذه العداوة إلا بهرق فرعون . والحق يسهتا : (أي يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر) وه في « ها هي للسييه كقول الرسول صلى الله عليه وسلم . « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت » (١) .

ويقول في حياتنا اليومية : أخذ فلان إلى الحبس لمدة أعوام في قطعة مخدرات أي أنه أوقع نفسه في المكروه بسبب شيء ما . وقوله الحق : « في الخمر والميسر » دلت على أن العداوة والبغضاء مطروقة في الخمر والميسر . ويقول بعد ذلك : « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون »

إن ذكر أي أمر يعنى أن يكون هذا الأمر في بؤرة الشعور دائماً ، فكل معلومة يذكرها الإنسان تكون في بؤرة شعوره ، ومن بعد ذلك تتحرك لتحل محلها معلومة أخرى . وعندما يكون بال الإنسان مشغولاً بشيء فهذا الشيء لا يتزحزح من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلا بعد أن يأتي أمر آخر يشغل البال .

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة

ولذلك نقول . إياكم أن تعتقدوا أن الدهر يفهم أى أمر من مرة واحدة أو من مرتين أو من ثلاث مرات . لا ، بل يفهم الذهن من مرة واحدة كآلة التصوير ، والمهم أن يكون ساعة التقاط المعلومة خالياً من غيرها ، ولذلك كنا نعرف أن إخواننا المكفوفين الدارسين معنا أقدر على الاستيعاب الحظي منا نحن البصرين ؛ لأن البصر عندما يكون يصدد مسألة قد تشغل عينه بشيء ، فتكون بؤرة شعوره مشتتة . أما الأعمى بؤرة شعوره تذكر فقط ما يسمعه .

وهكذا نعرف ما هو « الذكر » . والخمر تطمس العقل وتسره فكيف يذكر الله إذن ؟ وكذلك الصلاة ، وهى حبر الذكر ، تسرها الخمر عما . وكذلك الميسر الذى يلوح فيه اوهام بالكسب كالسراب ، فيلهث اللاعب خلف اللعب لعله يكسب ، ويفقد القدرة على ذكر الله والصلاة

ولأن العداوة سبقة بين الإنسان والشیطان ، سجد الشيطان قد قال من يحكيه الحق عنه .

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥١)

(من الآية ٥٢ سورة ص)

قد عرف الشيطان كيف يقسم ؟ أقسم بعزة الله أن يغوى خلقه ، فلو أن الله أراد عباده لما أحدهم الشيطان . ويدبل الحق أمر الخمر والميسر بقوله : « فهل أنتم متبهون » . هذا استهمام ، وهو طلب فهم الشيء ، هذا ما نعرفه عندما يكون الاستهمام من البشر ، ولكن عندما يصدر هذا الاستهمام من الله لنا ، فهذا أمر الأمر سبحانه وتعالى . كيف ؟ إن هناك أمراً من الأمر هو حكم لارم . وهناك أمر يريده الله من الأمور ليأمر به نفسه .

وهى ثقة من الأمر الأعز في الإنسان المؤمن الذى يتلقى مثل هذا الأمر . ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - يقول الأب لأحد أبنائه : إن إهمالك لدروسك سيجعلك تنال غضبي واحتقار زملائك لك وتتأخر عن غيرك ، فهل ستتنبهى من اللعب واللهو أولاً ؟ ولم يقل : انتبه عن اللعب ، لأن الأب أراد أن يأتى بالحديث حتى يحكم الابن بنفسه ، وحتى يدير المسألة بمقابلها ، ولا يجد إلا أن يقول : لقد انتهيت عن اللعب .

وهنا جاءت المسألة أيضا على هذا الشكل ، فبدلاً من أن تكون حكماً من الله أصبحت حكماً من العبد المأمور . وهذا أبلغ أنواع الحكم ؛ لأن التكلم يلقى بالأمر في صيغة سؤال ، ليدير المستول كل جواب فلا يجد إلا الجواب الذي يريد السائل . ومثال ذلك عندما فتر الوحي عن حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وقال أهل قريش : إن رب محمد قد فلاه وأبغضه وكمره ، ثم نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝١ ﴾

(سورة الضحى)

ويتابع الوحي .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الضحى)

وعندما يستقرى النبي صلى الله عليه هذه المسألة يجيب نعم يا رب أنت وجبتى شيئاً فلويتنى وهذا يسمونه مشاركة المأمور في علة الأمر . وهذه أبلغ أنواع الأمر .

وعندما يقول الحق : « فهل أنتم متبهون » يعلم المخاطبون ماذا يريد الله ، فيقولون : نعم انتهينا يا ربنا . وبالعوا كثيراً في هذا الانتهاء ، فالإمام علي - كرم الله وجهه - يقول : لو وقعت قطرة منها في بحر ثم جف البحر ، وبست فيه الكلا واندلع لسان من الجوع ما قربته . ولم يكن هذا أمراً معروضاً ، ولكنها المبالغة في الانتهاء على أقصى صورة .

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : لو وقعت قطرة منها على يدي لحرمتها على نفسي . وهكذا كان رد فعل قول الحق : « فهل أنتم متبهون » . وبذلك تم حسم مسألة الخمر . ونعرف أن التكليف في تحريم الخمر جله متدرجاً ، والتكاليف الإيمانية إنما تأتي على لسان رسول ، والرسول لا يلقى إلا إذ عم الفساد في المجتمع ، وفي ذوات البشر في آن واحد . فلا نجد من يلوم نفسه ، أو يتدخل ليرد آخر عن فساده ، هنا تتدخل السماء بإرسال رسول ، ولا تصب السماء كل أحكامها في أول الأمر ، ولكنها تدعو من خلال الرسول بالإيمان بالله الواحد حتى

يتلقوا منه الحكم . فالإيمان بوحداية الله هو قمة العقيدة التي لا هودة فيها .

لكن في الأمور التي تتعلق بالأحكام ، فالأحكام تُعبر أوصافاً عرقية وأوصافاً اجتماعية متداولة بين الناس . فإذا أراد الله أن يعبر عبدة بحكم فهو يأتي بهذه المسألة تدريجاً ، لأنه سبحانه وتعالى يتطلب مع حلفه برحمته .

ومثال ذلك . كان الرجل يملك المال فلا يعطى أباه ولا أمه ، إنما يعطى المال لأولاده ، لأنه يعرف أن والده منه وسيموت قريباً ، وأن الابن هو الذي يستقبل الحياة ، ولذلك فالابن يأخذ كل المال هنا مال الحق . لا ، إنك أنت يا صاحب المال قد تموت قبل أن يموت أبوك فأنك له شيئاً .

﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلرَّحِمَةِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة البقرة)

لقد أراد أن يخرجهم من عدم العطاء إلى الوصية التي تكون منهم . وبعد أن استقرت الأحكام ، قرر الحق للموالدين نصيباً من الميراث . إذن جاء الأمر أولاً بملطف في الخروج من حكم الإلزام والعادة والعرف ، حتى لا يخرجهم إخراجاً قسرياً . والحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يجعل المال دولة بين الأعياء فحسب أي يتداولوه دون خبرهم ، بل يريد أن يجعل المال دولة بين الناس . لذلك جاء الميراث

إنما عندما نصيب ميراث ألف فدان مثلاً نجده قد ذاب ونقلص ونشأ خلال ثلاثة أجيال إلى فداين وخمسة أفدنة . وهذا تدرج أجيال لا قسري حتى يرتب الإنسان حياته وحياة أبنائه . فيترك المالك لأولاده ميراثاً وخيراً ليدبروا العمل فيه . أما الذي لا يملك فهو يعطى لأبنائه حرفة أو حبة . لذلك يذبح الذين أسأله المالبة والمقاربة أو الإنطاع كما يقولون ، لا بالقسر حتى لا تحدث للمجتمع حرة فقد أو حرة بوتر ، لأن الذي جمع ماله من عرقه ومن اجتهاده ساعة يرى المال قد حرق منه إلى من لم يعرق ومن لم يجهد ، فهو بخيل ، والحق يقول :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْاْ يَنْفِقُواْ بِتَفَرُّكٍ أَجُودَ مِنْكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ ۖ إِنَّ يَسْأَلُكُمْوَهَا ۖ

فَيُخْرِجُكُمْ تَبَعًا وَأُخْرِجَ أَصْفَانُكُمْ ۖ ﴾

(من الآية ٣٦ والآية ٣٧ سورة محمد)

وساعة يحدث الصفر في المجتمع فإن كل استقرار وزد يتهى . وهذا هو منتهى التلطف في رعاية العادات . وكانت الخمر وبجالتها عادة موجودة عند العرب ، وكان من الصعب أن يخرجهم منها مرة واحدة . لذلك جاء تحريمها بتدرج وتلطف والذكرى والفضل عندما يسمع الآية التالية يعرف أن الله قد بيت للخمر تبيناً حكماً للفناء عليها وذلك بتحريمها ، يقول الله تعالى .

﴿ وَمَنْ تَمَسَّ أَنْ يَحْمِلِ وَالْأَعْيَبُ تَحْدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَدِرْقًا حَتَّىٰ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة البقر)

فسحانه يقول : « ووزناً حساً » ، ولم يصف السكر بأنه حسن . ومعنى هذا أن أخذ الرزق وتخميره واتخاذ سكر هو إقلال للحسن وجاء الحق بـ (السكر) أولاً ليعبرنا أنهم كانوا يأخذون من الرزق أولاً الصيب الذي يجعلونه خمرًا . ومن بعد ذلك يطرح الحق الأمر كمظة من الواعظ للموحرظ ، والمظة ليست إلزاماً ، إنما هي إبداء رأى حكيم لغيره ، وهذا أول التيب للدخول إلى تحريمها ، ثم يقول الحق :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وهكذا رجع الحق جانب الإثم على جانب المنفعة . ومن بعد ذلك يأتي للصلاة ، ولم يكن هناك حكم جازم بعدم شرب الخمر قبل الصلاة إلى أن قام واحد للصلاة وهو سكران ، ونعوذ بالله عما قال ، قال : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون . لقد اضطرت الخمر أن يعطى في القمة العنصرية ، لذلك جاء الأمر .

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

وبعدم أن المسلم يصل خمسة فروض في اليوم ، وحتى لا يقرب الإنسان الصلاة وهو سكران فهذا يقتضى أن يمر النهار كله تقريباً دون خمر إلى ما بعد العشاء . وبذلك أطال الحق المسافة الزمنية التي يمتنع فيها عن تعاطي الخمر . وفي ذلك حبس للنفس عن المعتاد عليه حتى يأتى الشخص المعتاد ترك ما اعتاده . ومن بعد ذلك يطلبون

من الرسول وأياً شافياً في الخمر فيأتى قوله الحق .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ النَّبِيُّ أَنْ يُرْفَعَ بِسُكْرِ الْعَذَّةِ وَالْبَعْصَاءِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُذَكَّرَ
عَرِذَكَرَ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ قَهْلَ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾ (سورة المائدة)

لقد كان هذا هو التدرج الذي يخرجهم من الإلف والعادة في أفعالهم ، فيأتى الأمر
بالتمتع به وكأنه صادر منهم . ويردف الحق سبحانه وبغالب ذلك الحكم الحزنى في
الخمر والميسر فكأنه يقول . مادامت المسألة كما علمتم حتى بأن هذا رحس ومن عمل
الشیطان فلا تعيوا الشيطان على نفوسكم وأخلصوا في عبادة الحق وحده ، ويقول
سبحانه . بعد ذلك

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّمَا رَسُولُنَا بَلْعُ الْمِثِينِ ﴾

لقد نقل الله الحكم بعدما انتهى من هذه الحزنية إلى حكم عام هو طاعة الله
وطاعة الرسول . وأنت ساعة تستقريء أمر الله بالطاعة فأتى تجديها في صور
متعددة . فمرة يقول .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

فقد كرر الأمر بالطاعة لله وللرسول ، فالإطاعة لله في الحكم العام ، وإطاعة
الرسول في تفصيله ، ومرة يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

إنه هنا لا يكرر أمر الطاعة ، فهناك أمر للطاعة ، وهناك مطاع ، وهناك مطيع
والمطيع ، هم المحاطيون ، فهو هنا يوحد أمر الطاعة ، والمطاع هنا هو الله ،

والرسول يأتي معطوفا على لفظة الجلالة .

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة البور)

نحن إذن أمام حالات للطاعة : الأولى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ،
والثانية : أطيعوا الله والرسول ، والثالثة : أطيعوا الرسول ، ومرة واحدة فقط
يحذف عن ذلك « أولي الأمر » فيقول جل وعلا :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وحين قال الحق :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

فهو يكرر الأمر بالطاعة عند الله وعند الرسول ، لكن عند أولي الأمر لم يأت
سبحانه بأمر : « أطيعوا » ، ذلك أن طاعة أولي الأمر تكون من باطن الطاعتين :
طاعة الله ، وطاعة الرسول ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وإذا قال الحق :
« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » تكون طاعة الله في الحكم العام ، وطاعة الرسول في
تفصيل الحكم . والمثال لوله الحق :

﴿ وَفِي مَلِّ النَّاسِ حِجٌّ آلَبَيْتِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

هنا نطبع الله في الحكم العام ، ونطبع الرسول في تفصيل الحج . لأن التفصيل لم
يأت في القرآن ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عني مناسككم » .
وعندما يتوحد الأمران : « أطيعوا الله والرسول » فهذا يعني أن هناك أمراً واحداً قد
صدر من الله ، وصدر وحصول الفعل من الرسول يكون للقدوة والأسوة وتوكيداً
للحكم .

وإذا كان الله أمر بالإجمال وللرسول أمر بالتفصيل سبحانه يقول : « وأطيعوا الله
وأطيعوا الرسول » . وإذا كان الأمر للرسول فقط ولم يرد فيه شيء من الله فهو أمر

صدر بتفويض من الله بناء على قوله الحق :

﴿ وَمَا أَمَرَ الرُّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهكذا نجد أنه لا تلبس طاعة بطاعة ولا تتنافض طاعة مع طاعة . والحق هنا يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » . لماذا هذا التحذير ؟ يأتي هذا التحذير ليعلمنا الله أن الشيطان لن يدهنا ندخل في مجال طاعة الله وطاعة الرسول ، وسيحاول جاهداً أن يُلْبِسَ علينا الأمر . فعندما يعرف الشيطان ميلاً في نفس إنسان إلى لون من الشهوات ، يدخل إليه من باب المعاصي . وإن كان الإنسان قد أوصد بعض السبل أمام الشيطان فلا يستطيع مثلاً إصراره بالسرقة أو شرب الخمر ، لا يتركه بل يدخل إليه من باب الطاعة ، فيأق الشيطان إلى الإنسان لحظة الوضوء ونسيه هل غسل هذه اليد أو تلك ، وهل أسيغ الوضوء أم لا ؟ أو يأق الشيطان إلى المؤمن لحظة الصلاة فينسيه عدد الركعات أو عدد السجعات ، وهكذا يدخل الشيطان للمؤمن من ناحية الطاعة

ومعنى قوله سبحانه « واحذروا » أي احذروا أن يحتال الشيطان عليكم ؛ لأنه سيحاول أن يدخل لكم من كل مدخل ، يدخل على المسرف على نفسه بالمعصية ، وأشد أعمال الشيطان على المؤمنين هي أن يدخل عليهم من باب الطاعة . ولذلك قال الحق : « واحذروا » كثيراً ما نجد الإنسان منا ينسى موضوعاً ما ، رحب يأتي إلى الصلاة فهو يتذكر هذا الموضوع . والشيطان لا يترك الإنسان في مثل هذه الحالة ، فقد أقسم الشيطان فقال :

﴿ فَيَعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨١ ﴾

(من الآية ٨١ سورة ص)

وقال الحق سبحانه :

﴿ لَأَنْتُمْ لَكُمْ صِرَاطُكُمُ الْمُسْتَقِيمُ ١٥٧ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إنه أقسم أن يقف على الطريق المستقيم لا على الطريق المموج . ومثل ذلك عندما يتصدق إنسان بصدقة قد يمنها ويقول : لقد تصدقت أكثر من فلان وهكذا يضيع

منه الأجر . الشيطان يحاول - إذن - أن يدخل علينا من باب لا نطقن إليه وهو باب الطاعة . وأروى لكم هذه النصة حتى تعرفوا مدى تدخل الشيطان ، وقد حدثت مع الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه . فقد جاء إليه من يسأله الفتوى في أمر غريب ، قال اسائل : ضاعت مني معدى ، فقد ذهبت في مكان من الأرض ، ونزل السيل فطمس مكان النقود وأزال الحجر الذي وضعته علامة على مكانها . فقال الإمام أبو حنيفة . اذهب الليلة بعد صلاة العشاء وقف أمام ربك إلى أن يطبع المعبر ، وقل لي ماذا سوف يحدث . وعندما جاءت صلاة المعبر جاء الرجل منهلاً إلى أبي حنيفة وقال : وجدت مالي .

سأله أبو حنيفة : كيف ؟ قال الرجل : بيني أنا أقف للصلاة تصورت مكان وضع النقود ، ومضى نزل السيل ، وكيف سار ، وهكذا نست المسافة وقدرتها إلى أن عرفت موقع النقود . ضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تتم ليلتك مع ربك هكذا ترى كيف يدخل الشيطان من باب الطاعة ولذلك قال الحق :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَوْنَا أُنْمَا عَلَى رَسُولِ الْبَلْعِ

الْمَبِينِ ﴿٩٦﴾

(سورة المائدة)

أي فإن أعرضتم عما كلفتمكم به فاعلموا أنكم بتوليكم وإعراضكم لن تصروا الرسول ؛ لأن الرسول ما كلف إلا أن يقوم بالإبلاغ المبين ، ونحن صررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم به . إن الحق يعلم أولاً أن بعضاً من عباده قد يقول إن هذا الحكم لم يرد في القرآن ؛ لذلك جاء بالأمر بطاعة الرسول . وهكذا صارت للرسول طاعة مستقلة ، وأرادها الله حتى يؤدّ مفعلاً عن الدين يسألون عن نص فيه كل تفصيل . يسأنا نجد هذه التفاصيل في السنة النبوية الشريفة . ومثال ذلك عدد ركعات كل صلاة ، إنها لم ترد في القرآن ، ولكننا عرفناها تفصيلاً من الرسول . ومومن الحق رسوله في التشريع .

﴿ وَمَا أَتَاكَ الرَّسُولُ مَعْدُوهُ وَمَا نَهَاكَ عَنْهُ فَأَتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فسبحانه قد علم أولاً أن هناك من سيدعى أنه لن يطيع إلا القرآن . ولذلك قال لرسول صلى الله عليه وسلم : (يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثي فيقول . بيني وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه . وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله)^(١) .

أي أن الرسول هو المبلغ عن ربه ، وأن علينا أن نعملر الشيطان إذا أراد أن يدخل علينا من باب الطاعة . ولكن لماذا قال الحق : « إن توليتم » ؟ وعن أي شيء يكون التولي ؟

قال الحق ذلك ليوضح لنا أن الإنسان له الاختيار في أن يذهب إلى الطاعة ، وله الاختيار في أن يذهب إلى المعصية ، وإن تولى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية ، وعن الإيمان إلى الكفر ، جاء به الرسول الذي يبلغ عن الله إلى البقاء في الكفر . فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أوفى مهمته وأداها . فالمطلوب من الرسول أن يبلغ المنهج ، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم بلاغاً مبيناً ، محيطاً ، واضحاً ومستوعباً لكل أغصان الحياة

لقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم مطلوب الله منا أن نؤمن بآله واحد ، قادر ، حكيم ، له كل صفات الكمال ، ذلك هو الأمر الأول في العقيدة . وأبلغنا صلى الله عليه وسلم أن نبتعد عما كان عليه العرب من الانحياز ، ومن الأوثان ، ومن الأصنام وبلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منا إيماناً ، وعملًا ، والعمل ينقسم إلى قسمين : عمل إيجابي ، وعمل سلبي . ويتركز العمل الإيجابي في « افعل كذا » ، إذا لم تكن تفعله ، أما العمل السلبي فهو أن تكف عما نهاك عنه الله ، ونهاك عنه الرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن أول مطلوب الإيمان هو الاعتقاد في الإله الواحد ، وأن تكف عن عبادة الأوثان والأصنام ، والطلب - كما نعرف - هو أن تنشئ كلاماً تطلب به من مخاطبك أن يفعل شيئاً لم يكن مفعولاً وقت طلبه . فإذا أوضح الحق : لا تعبد الأوثان ، فهذا

(١) روى أحمد والترمذي وأبو داود والقرطبي وابن ماجه .

طلب لعمل ، وهو أن يكف عن عادة الأوثان . وحين يأمرنا الحق بالصلاة والصوم والركاة وحج البيت ، فهذا طلب لأفعال . وطلب العمل يقال له . « أمر » . وطلب الكف عن فعل يقال له . « نهي » .

وأنت إذا نظرت إلى كل التكليف في الإسلام . تجدها لم تأت مرة واحدة ، وإنما جاءت على مدار ثلاثة وعشرين عاماً . فعندما جاء الإسلام آمن به أناس ، ولم يكن قد صدر إليهم تنبيه أي من الأحكام التي وردت على مدار سنوات الرسالة ، وإنما كان المطلوب منهم بعضاً يسيراً منها ، وكانوا يؤدونها ، منهم من بلغه فقط ضرورة الإيمان بالآله الواحد ، وأمر بذلك ثم وافاه الأجل وكانت به الجنة . ومنهم من اعتدت حياته ، فوادت عليه أحكام جديدة فعدها ، وكان إسلامه بذلك إسلاماً تاماً .

إذن ، فالتزام في الإسلام هو تعبد كل عمل جاء في الأحكام التي أدركها المسلم . فإن لم يكن المسلم قد أدرك إلا حكماً واحداً وعنده فله كل ما وعد الحق به . ومثال ذلك . « تخييريق اليهودي » الذي أسلم وأوصى بماله للنبي صلى الله عليه وسلم . فلما كان يوم أحد ، وقف في قومه قائلاً يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق . فم يجسرو ، فأخذ سيوفهم وعدته وقال : إن أصبت فهالي محمد يصنع به ما يشاء . ثم خرج إلى القتال فقاتل حتى استشهد . ولم يكن قد بعد أي حكم من أحكام الإسلام ، لكنه فاتل حال شرف الشهادة ، وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . (تخييريق خير يهود)^(١)

ولا بد لنا أن نغرق دائماً بين « أركان الإسلام » والمطلوب من المسلم . ونعلم جميعاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (بنى الإسلام على خمس - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان)^(٢)

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى . وأبو نعيم في دلائل النبوة . وابن كثير في البداية والنهاية . وابن عساکر في تهذيب تاريخ دمشق .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والحاكم عن ابن عمر .

هذه هي أركان الإسلام . أما المسلم فقد يختلف المطلوب منه ، فالمطلوب من المسلم أن يشهد مرة واحدة في حياته أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ومطلوب منه دائماً أن يقيم الصلاة معها تكن حياته . لكن فرض الزكاة قد يسقط عنه إن كان لا يملك مالاً . وقد يسقط عنه الصوم إن كان مريضاً مرضاً لا يرجى شفاؤه أو كان كبير السن لا يقدر على الصوم وعليه عدية طعام مسكين ، أما المريض الذي يرجى شفاؤه وكذلك المسافر فيفضان الصوم بعد زوال العذر ومثلها الخائض والمساء . وقد يسقط عنه الحج لأنه لا يملك المال الكافي . وهكذا تختلف أركان الإسلام من مسلم لآخر ، وهكذا خُبر أن من عاش في بدايات الإسلام ونفذ الغليل من الأحكام التي نزلت حتى مات أو استشهد ، فقد أدى المطلوب الإسلام منه

وعندما نزلت آية عن الخمر ، وأيسر ، ذهب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن مصير زملائهم وأحوتهم في الإيمان الذين ماتوا أو استشهدوا قبل أن ينزل تحريم الخمر والميسر . ومجرد السؤال هو دليل اليقظة الإيمانية ، فالإنسان لا يكون مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وهذا أنزل الحق سبحانه وتعالى القول الكريم :

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

لقد أنزل الحق هذه الآية ليُطمئن المؤمنين السائلين عن الحكم في إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا وكانوا يشربون الخمر قبل نزول الحكم بتحريمها . وليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، واطعموا ، لا محصر للطعام فقط ولكن تشمل ونظم الشراب أيضاً فالحق يقول .

﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ قُلْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ بِنَهَرٍ وَلَئِنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وعلى ذلك فالماء طعام ، بمعنى أن طعمه يكون في الفم . وهكذا عرف المسلمون السائلون عن إخوانهم الذين ماتوا لو استشهدوا أن إسلامهم كان مقصوداً على الأحكام التي نزلت في أثناء حياتهم ، فقد نقلوا المطلوب منهم بعدم عبادة الأصنام . وقد يكون منهم من مات قبل أن تفرص الصلاة ، لو مات قبل أن ينزل أحكام الزكاة أو الصوم ، ولذلك لم يفعلوها . وعلى ذلك يكون عملهم الصالح هو تنفيذ التعاليم التي نزلت إليهم . لقد اتفقا الله فعملوا المطلوب الإيمان على قدر ما طلب منهم الحق ، أموا بالله المكلف وجعلوا بينهم وبين الله وقاية بأن نقلوا مطلوبه سبحانه أمراً وتبياً .

والإيمان له قيمة هي أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبعد ذلك بالأحكام التي تنزل من السماء . واحتلف العلماء فيها بينهم في مسألة ريادة الإيمان ونقصانه ، فمن العلماء من قال إن الإيمان لا يريد ولا ينقص . ومن العلماء من قال : إن الإيمان يريد وينقص . والذين قالوا بأن الإيمان لا يريد ولا ينقص ، إنما نظروا إلى الإيمان بالقيمة المعقدة وهي الإيمان بالله والذين قالوا بأن الإيمان يريد وينقص إنما نظروا إلى الإيمان بالأحكام التي برها الله ، وأحدوا ذلك من قوله الحق

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ وَآتَتْهُ هَذِهِ آيَةٌ مِّنْ آلِ اللَّهِ ؕ أَمِنُوا

قَرَأْتُمْ ؕ إِنَّمَا ؕوَهُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴿١١٨﴾﴾

(سورة التوبة)

فكل آية تنزل بأحكام جديدة هي تزيد الإيمان . فعندما نزل الحكم بالزكاة آمن به المسلمون وطعموه . ومنهم من لم يكن يملك المال فلم يطع الحكم على الرغم من أنه آمن به .

فالمسلم يؤمن بالحكم ، وإن كان مستطيعاً فهو بعمله ، وإن كان غير مستطيع فهو لا بعمله . ولهذا كانوا يستشرون بالأحكام التي تنزل بها الآيات . وعلى ذلك يكون خلاف العلماء خلاف على جهة سمكة ، وليسطح أن الحق يقول :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَرُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَبُوا وَاللَّهُ يَعْزُبُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(سورة التائيه)

إذن ، فهنا ثلاث مراحل هناك من أدرك حكمها فأتقى الله وآمن وعمل صالحاً ، وبعد ذلك انتقل وأمضى إلى ربه فلا جناح عليه ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً أخرى فلمس بها وعمل بها ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً قد رادت فعمل بها أيضاً . والإيمان الأول لربط بالعمل الصالح ، وكذلك الإيمان الثاني الذي جاء في الآية . ثم يأتي الإيمان الثالث مرتبطاً بالإحسان

والإحسان كما نعلم له وجهان الأول أن يعبد المؤمن الله كأنه يراه ، وكلها سماء تكليف ، يحسن المؤمن في أدائه ، كأنه يرى الله ، وإن لم يكن يراه فإنه يحسن أنه سبحانه يراه وإذا ما استوعب المسلم كل أحكام الله التي امتوعت بدورها كل أقصى الحياة ، فهو يحسن أداء هذه الأحكام . والثاني للإحسان أن يزيد المؤمن في أداء هذه التكليف فوق ما فرض الله ، وهي الوافل . وبذلك لا يكتفى المؤمن بتصدق الأحكام التي فُرضت ، بل يزيد من جسدتها . والحق يقول

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ فِي جَنَّتٍ وَعَيْنُ رَبِّهِ عَلَى الَّذِينَ لَهُمْ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَثُورُهُمْ وَلَئِنَّمَا كَانُوا أَقْبَلُ
دَلِيلَ تَحِيَّةٍ ﴾

(سورة الذاريات)

وجاء الحق بالتعليل وهو

﴿ إِنَّمَا كَانُوا أَقْبَلُ دَلِيلَ تَحِيَّةٍ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الذاريات)

روحه إحسانهم أن الواحد منهم لا يقف عند ما كلفه الله به ، بل يريد على ما كلفه الله من جسد ما كلفه سبحانه ، فالحق قد فرض على المسلم حمة فروع ، والمحس هو من يزيد ويتقرب إلى الله بالوافل . وفرض سبحانه على المسلم صوم رمضان ، والمحس هو من يؤدي صيام رمضان بتمامه ويزيد بصوم أيام أخرى من العام . وفرض سبحانه

على المسلم زكاة مال بقدر اثنين ونصف في المائة وهو ربع العشر ، والمحسن قد يزيد الزكاة إلى أكثر من ذلك . وفرض سبحانه على المسلم حج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، والمحسن هو الذي يزيد مرات الحج

إذن ، فالمحسن هو من عشق التكليف من الله ، وعرف منزلة القرب من الله ، فوجد أن الله قد كلفه دون ما يستحق - سبحانه - منا فزاد من العمل الذي يزيده قرباً من الله . ويصنف الحق في وصف المحسنين :

﴿ كَانُوا قَبِيلاً مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْتَغُونَ ﴾

(سورة الفاريات)

ولم يكلفنا سبحانه مالا نهجم إلا قبلاً من آل إيل . كلفنا فقط بأن نصلي العشاء ، وبعد ذلك قد بام لنصحو لنصل الصبح ، أما المحسن الذي عرف حلالة الخلوة مع الله فهو لا يهجم إلا قبلاً من آل إيل . ويصنف الحق سبحانه في وصف المحسنين .

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْهُمْ يَنْتَفِرُونَ ﴾

(سورة الداريات)

ولم يكلف الله المسم بالاستغفار في السحر ، لكن المحسن يفعل ذلك ويضيف الحق سبحانه :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

(سورة الداريات)

ولم يقل سبحانه إنه حق معلوم ؛ لأن الحق المعلوم هو الزكاة وهذه المراحل الثلاث هي التي تدخل المؤمن في مرتبة الإحسان . ولذلك نجد الحق في آخر مرحلة في الآية التي نحن بصددتها يتحدث عن الإحسان : « ثم اتقوا وأحسنوا » أي أن يريد الإنسان المؤمن من جس ما فرض الله . ووقت أن كان التكليف في دور الاستكمال مكل حكم يأتي كان يستقبله المؤمن بإيمان وعمل . أما الذين أدركوا كل لتكاليف خلال الثلاثة والعشرين عاماً - المدة التي مكثها وعاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى - فقد استوثق عيدهم التكليف ، وإذا ما أرادوا الإحسان فلا بد لهم من الزيادة من جنس التكليف .

ويقول الحق من بعد ذلك :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمُ اللَّهُ يَشَىءُ مِّنَ الصَّيْدِ
تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخْفَءُ بِالْغَيْبِ
فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

وهذا انشغال لحكم جديد ، فبعد أن تكلم الحق فيما أحله لنا وقال سبحانه :

﴿ أَهْلَتْ لَكُمْ رِيْمَةٌ الْأَنْعَامِ ﴾

(من الآية ١ سورة ٢٢٩٣)

وبعد أن تكلم الحق سبحانه فيما حرم علينا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل
لغير الله والمسخنة والموقونة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكى وذبح وحرم
ما دبح للأصنام وما استقسم بالأزلام وكذلك الخمر والميسر ، أراد أن يعطينا محرمات
من نوع خاص ، وحتى نعرف هذه المحرمات لا بد لنا أن نعرف أن هناك أشياء محرمة
في كل زمان وكل مكان ، كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من التواهي الثابتة ، سواء
أكانت عبادة أصنام أم لزلام أم غير ذلك من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهناك
محرمات في لزمنة خاصة ، أو في أمكنة خاصة . والفعل ، أي فعل ، لا بد له من
زمن ولا بد له من مكان .

نحن مأمورون بالصلاة في زمانها في أي مكان طاهر وصالح للصلاة فيه ، وكذلك
الصوم يتحكم فيه الزمان ، أما الحج فالذي يتحكم فيه هو الزمان والمكان . وأما
العمرة فالذي يتحكم فيها هو المكان ، لأن الإنسان يستطيع أن يعتزم في أي زمان
- غالباً - ويتكلم سبحانه هنا عن شيء في مكان خاص وفي زمان خاص ، فالصيد
ليس محرماً إلا في حالة أن يكون الإنسان حُرماً

ونعلم أن كلمة « حُرْم » هي جمع « حَرَام » ، والحرام إما أن يكون الإنسان في المكان الذي يبدأ فيه بالتحريم . ومثال ذلك منطقة رابع التي يبدأ عندها الإحرام بالنسبة لسكان مصر ، فإن وصلت إلى هذا المكان وبدأت في عمل من أعمال الحج أو العمرة فقول عمل هو الإحرام . ومن لحظة الإحرام حتى ولو أحرمت من بلدك أو بيتك لا يحمل لك الصيد . و« الحَرَم » أيضاً هو وصف للمكان حتى وإن لم يكن الإنسان حاجاً ، فالصيد محرم في الحَرَم ، والحَرَم له حدود بينها الشرع ، فالصيد فيه حرام على المُحَرَّم وغير المُحَرَّم . ونعلم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الحق لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً .

وعلى ذلك فأي مكان يصلح للصلاة ، ويصلح أن نقرأ فيه العلم ، ويصلح أن نقيم عليه مصنفاً ويصلح أن نزرعه . إذن فأي أرض تصلح أن تكون مسجداً لأنها مكان للسجود . ولكن المسجد بالمعنى الاصطلاحي هو المكان المخصص للصلاة . أما المسجد الحرام فمركزه الكعبة وحولها الطواف وحول ذلك جدران الحَرَم . ويقع المسجد الحرام في دائرة الحَرَم ، والتي تبدأ من التنجيم والجرانة والحديبية والحجفة وغيرها ، هذه حدود الحَرَم . فالإنسان إذا ما جاء إلى ميقات الحج عند رابغ مثلاً فهو لا يصطاد ؛ لأنه أصبح في دائرة الحَرَم ، فالصيد محرم عليه حتى ولو لم يكن حاجاً أو معتمراً .

والحج - كما نعلم - هو رحلة فرضها الله مرة واحدة في العمر يخرج إليها المسلم الذي يحج في كل مكان مع نعمة المحرم . وعندما يخرج للمسلم إلى الحج فهو يتحلل من كل النعم التي تصنع له التمييز ليستوى مع كل خلق الله . وأول سنة عمرة للإنسان هي الملابس ، لذلك يحمل المسلمون ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً يتسارون فيه . وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى التَّجَم .

ومن بعد ذلك يريد الحق أن يزدبها تأديباً إيمانياً مع الرجود كله ويصمى الله في الحج هذه المسألة كلها ، فلكل سواء في ملابس تكاد تكون واحدة ، وكلهم شُعْتُ غُبر ، وكلهم يقولون « لبيك اللهم لبيك » . هكذا تتم نصفية التعاوت في الإنسان بالإحرام

ومن بعد ذلك نظر إلى الجنس الأدنى وهو الحيوان ، وعلّمنا الحقّ الأدب مع هذا الجنس فيأتى بتحريم صيده . وعلّمنا الأدب مع الزرع الذى تحت الحيوان فيمنع المسلم من قطع شجر الحرم . وهكذا تصفى كل هذه المسألة ، ونصبح العبودية مستطرفة في الجميع .

وتزول في الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفير الوزير وهو يركى ، ويشعر الجميع أن الكل سواء ، والحق يقول :

﴿ وَمَنْ فَخَّرْ كَانَ آمِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالحيوان بأمن وكذلك النبات ، هذا ما أمر به الحق في دائرة الحرم ؛ لأن ذلك تدرى للإنسان على أن يخرج من النعمة إلى النعم . ومن بعد ذلك يدخل إلى المسجد ويطوف حول الكعبة . ويجد الإنسان - سيد الوجود - يقف من كل ما يجده في الوجود موقفاً مختلفاً ، فالحيوان يأخذ كرامته وكذلك النبات ، وكذلك الجهاد يأخذ أيضاً كرامته ، فمن هذا الحجر الأسود يبدأ الطواف سبعة أشواط .

في الحج ينقص الإنسان أى طغيان عن نفسه ويتساوى مع كل الناس ، ينقص طغيانه أمام الجنس الأدنى وهو الحيوان محرم عليه صيده - ونعلم أن الحيوان يغذى الإنسان - وينقص أيضاً طغيانه مع النبات - والنبات يغذى الإنسان - فحرم قطعهم وينقص الحق كبرياء الإنسان أمام الجهاد - وهو أحط الأجناس - فأمر الحق الإنسان أن يستلم الحجر الأسود أو أن يقبله ، وإن لم يستطع من الزحام فعليه الإشارة للحجر . ومن لم يستطع اسلام الحجر أو تقبله فقد يمشي إليه أن حجه لم يقل وذلك ريادة منه في التعلق بالمسك والاحتياط في أداها .

كل ذلك حتى يحقق الله سبحانه وتعالى استطرقت العبودية ، ودائماً نجد من يتساءل : وكيف تقبل الحجر على الرغم من أن الله قد نهانا عن الوثنية وعبادة الأصنام ؟ ونقول : إن الحجريّة ليست لها قيمة في هذا المجال ، ولكن رب الإنسان والحيوان والنبات والحجر هو الذى أمرنا بذلك ، بدليل أننا نرحم حجراً آخر هو رمز

إبليس ، والعبد في أثناء أداء الشاغر - إنما ينتقل من مراد نفسه إلى مراد ربه ، فيقبل ويعظم حجراً ويرجم حجراً آخر ، وهكذا صفت اليهودية بالنسبة للناس فلمستظرفوا ، وصفت اليهودية بالنسبة للحيوان والنبات والجماد .

ولقدنا سيدنا عمر رضى الله عنه فيقول للحجر الأسود : « أنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلت ما قبلتك » .

كان سيدنا عمر رضى الله عنه يعلمنا حتى لا يقول أحد : إنها وثنية ، فالوثنية أن تعد حجراً بمزادك ، أما الحجر الأسود فنحن نعظمه بمزاد الله .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْلُغْكُمْ إِلَهُ يُنْشِئُ مِنَ الصِّيدِ مَا تَهَوَّوْا بِهِ وَيُرِيكُمْ وَرِمَاحَكُمْ لِيَعْلَمَ إِلَهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ مَنَ آخِذٌ بِعَدَّتِكَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ما الفرق بين ما ناله الأيدي وما ناله الرماح ؟ . ما ناله الأيدي هو صغار الأقراخ ولأشباه السهلة اليسيرة ، أما ما ناله الرماح فهو ما تصطاده بجهد وبالرمح وحسن تصويبه . وقال الحق : « ولسلوكم » لأن هلك فرق بين أن يلح الإنسان على المعصية فيعملها ، وبين أن يصل إلى مكة لا يلح فيها على معصية ، بل قد تقع عليه المعصية ، وإن وقعت عليه المعصية لهر لا يرتكها .

كان الحق ينيلنا مادما لا يلح على المعصية ، ويريد أن يرى ماذا سيكون التصرف منا إن جاءت المعصية إلينا فهل نعملها أو لا ؟ . فإن كان الإيمان قوياً فلا أحد يقرب المعصية ولذلك ينيلكم الله شيء من الصيد المحرم عليكم بأن يجعله في مناول أيديكم

حدث ذلك في الحديثية لقد كاد الصيد يضع نفسه بين أيدي المؤمنين ولم يقربوه وكان هذا اختباراً ونعلم أن الابتلاء غير مذموم في ذاته ، إنما المذموم فيه العابة منه ؛ لأن الابتلاء احتلار ، وقد ينجح إنسان ، وقد يفشل إنسان آخر . وكان الحق قد ابتلى المؤمنين بأن جعل الصيد بكثرة أمامهم حتى يقرى عود الإيمان في قلب المؤمن فلا يتهاون عن المعصية وتتكون لديه المناعة وذلك . « ليعلم الله من يخافه بالغيب »

وسبحانه وتعالى العالم بكل شيء قبل أن يحدث . لكن هناك فرق بين علم وعلم ، إن علم الله أزلي لا يتخلف ، ولكن هذا العلم ليس حجة على الناس ، لأن الحجة على الناس هو ما يقع منهم فعلا ، ولذلك كان الابتلاء .

وأسرق هذا المثل - والله المثل الأعلى - إن الوالد قد ينظر إلى أحد أبنائه ويقول : إنه يلعب طول السنة ومن الأصيل إلا ندخله الامتحان ، لأنه سوف يرسل . ولا يدخل الابن الامتحان ، ولكن الوقاحة تصل به إلى الحد الذي يقول فيه : لو كنت دخلت الامتحان كنت من الناجحين ولو كان والده أدخله الامتحان ورسب ، لكان هذا الرسوب حجة عليه .

إذن فعلم الحق لا يلزمنا الحجة ، إنما العلم الواقعي هو الذي يلزمنا بها .

وقد حدثت هذه الابتلاءات في النبوات كثيراً . ومثال ذلك ابتلاء الحق لليهود بتحريم الصيد يوم السبت ، فكانت الخيتان تأتى في هذا اليوم مشرعة وكأنها تلح عليهم أن يصطادوها . وفي الأيام الأخرى لا تأتى الخيتان ، فيحتالون لعصيان الأمر باحتراع نوع من الشباك السلكية تدخل فيها الخيتان ، وتغل حية ومحبوسة فيها إلى يوم الأحد فيأخذونها . وتكون حيلتهم هي دليل العبد صميم ، لأن الصيد قد تم بالنية والعمل والاستعداد المسبق . وكان الابتلاء في الإسلام بشيء من الصيد . « ليعلم الله من يخافه بالعباد فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . وقد علمنا من قبل قوله الحق :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

فإن كانت المسائل مأمورات فعلينا أن نعلمها . وإن كانت نواهي فيجب ألا نقربها حتى لا نقع فيها فتكون حجة علينا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراعي يرمى حول الحمى يوشك أن يواقعها . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله في أرضه محرمة) (١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ
قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ
ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ
مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا
اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
دُونِ أَنْفِقَامٍ ﴿٥٥﴾

أى لا تقتلوا الصيد إن كنتم قد أحرمتم بالحج أو بالعمرة أو بهما معا ، وإن لم
تحرموا فالصيد محرم أيضاً في حدود منطقة الحرم . وسبحانه قد جعل الحرم زمناً
والحرم مكاناً . وهو فيء يلجأ إليه الناس من حرور عزة قوم على حساب دنة قوم
آخرين . وقدماً كان يجارب بعضهم بعضاً ، ولذلك جعل الحق أربعة أشهر حرماً في
الزمان ، أى لا قتال فيها ، وذلك حتى يستريح التعب من الحرب ، ويستريح من
بخل على عرته . أو يذوق فيها الجميع لذة السلام والأمن ، وقد يستمرون في ذلك
الاستمتاع بالسلام والأمان . وكذلك جعل الحق الحرم أيضاً مكاناً آمناً ، لا يتعرض
فيه أحد لأحد . وكان الإنسان يقابل في الحرم قاتل أبيه فلا يتعرض له ، كل ذلك
ليحصى عزة الناس أن تنكسر أمام غيرهم .

ومثل ذلك صرفان كلاماً على خلاف مع الآخر ، وكل منهما يرغب في الصلح مع
الطرف الآخر . وهنا يتدخل أى إنسان من الخارج فيجج : لأن الطرفين مهالان
للصلح . وكل منهما يريد إساء الحرب ولكن تأخذ العرة بالإثم وتستولى عليه الحمية
ويأنف أن يبدأ خصمه بطلب الصلح .

وقد أراد الحق أن تكون هناك في الأشهر الحرم فرصة للاعتلاف والصالح وذلك بأن يلجأ الناس إلى البيت الحرام حتى تنفص البشرية عن نفسها البغضاء وحتى يرتاح البشر من القتال ، فصدر الأحكام في روية واتزان وعدوه أعصاب .

ويقول الحق جل وعلا :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا بِمِرَّةٍ أَوْ مِثْلٍ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عِلٍّ مِمَّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعْمُ سَكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِبَاً لِيَذُوقَ وَعَلَى أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ وَمَنْ عَادَ قَبْلَ تَقِيَمِ اللَّهِ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣٣﴾﴾

(سورة المائدة)

ولا يعتبر الشيء صيداً إلا إذا كان مما يؤكل أما إذا كان الشيء المصايد لا يؤكل كالسبع وغيره فقد قال بعض العلماء : لا يمنع ولا يحرم ولكننا نقول : إن الصيد هو كل ما يصاد سواء ليؤكل أو حتى غير مأكول ، وذلك لعلم أنفسنا وجوارحنا وأعضائنا الأدب ونحن حرم . ومعنى « حُرْمٌ » هو أن نكون محرمين أو في الحرم ، والحرم له حدود مبرومة وداحل الحرم ممنوع على الإنسان أن يصطاد أى شيء من لحظة بلوغه ميقات الحج و العمرة

إذن فحيز الصيد محدود بالنسبة لكل من دخل الحرم المكى الشريف سواء أكان محرماً أم لا . وحيز الصيد بالنسبة لمن أراد الحج أو العمرة هو أكثر رقعة واتساعاً ، ذلك أن التحريم يبدأ من حين الاحرام بالحج أو بالعمرة أو بهما . ولكن ماذا يكون الحكم إن اعتدى إنسان على الحكم واصطاد ؟

« ومن قتل منكم متعمداً » . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق قتل الخطأ بالعمد ، وذلك حتى يتبه كل مسلم إلى كل فعل وهو محرم ، أو وهو في البيت الحرام .

هب أنك أردت أن تحت جلد رأسك بأظفارك وأنت محرم ، هنا قد يتساقط بعض

شمره ، فإن ثبت ذلك فعليك هدى للكعبة أو صوم أو إطعام مساكين ، لأن الحق يريد لك حين تحرم أن تنبه بكل جوارحك إلى أن كل حركة من حركاتك معسوبة ومعسوبة عليك ، ولكن في منتهى البقعة الإيجابية ، وأي خطأ منها يمكن يسيراً بوجوب الغدبة . لذلك من قتل وجب عليه الجزاء لتعليه على شيء حرمه الله . والجزاء محدد بنص يقول الحق . « جزاء مثل ما قتل من العم » وعند المثلية وهو العلواء أيضاً : تكون المثلية بالقيمة ، أو المثلية في الشكل ٤ .

والمثلية في القيمة تعني أن تقوم الشيء المقول بشيء ، ونشترى بالثمن شيئاً من الأنعام وتذبحها . والمثلية في الشكل تعني أن تشبه الشيء المقول بمثل له مما يدع ويكون أقرب إلى شكله . ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما قتل مسلم صبيحاً أمر المسلم أن يفسى بكسر . والصحابة رضون الله عليهم على ، عمر ، وعثمان وعبدالله بن عمر أمروا رجلاً قتل بعامة أن يعديه سبعة مائة أو يعبر لأهلها تشابه البعامة في العلو . وحينما قتل إنسان طيباً فداء شاة ، والظبي أو النزال هو الذكر ، والعزالي هي الأنثى ، وعنفما قتل غزالاً صدر الحكم بالفداء بعرة . ومن قتل « يربوعاً » - وهو من الرواحف وأكبر من الغار قليلاً - صدر الحكم أن تكون القيمة « الحفرة » وهي ولد الماعز بعد أن يسقى عن بئر أمه ويستطع الأكل .

إذن ، فالمثلية هاهنا مثلية الشكل . وقال بوحيفة بإباحة أن تكون المثلية بالقيمة إن لم يوجد الشيء . وعلى ذلك فالذي يصعد من أجل أن يطعم نفسه يدفع ثمن الخطأ لغيره من المحتاجين . وإن كانت المثلية بالقيمة فالذي يحدد هذه القيمة أناس لهم بصيرة وهما أشد من قوى العدل . « يحكم به نوا عدل منكم هدباً بالغ الكعبة » وهم الذين لا يميلون عن الحق ، ويفهمون الميراث .

ويأمرنا الحق أن نحكم بالإصاف ليكون من قوى العدل ، أي أن الإنسان حين يواجه خصمين فهو يعطي نصف الخصم ونصفه الآخر للخصم الثاني . فلا يميل بالهوى ناحية أحدهما ولا يدير الإنسان وجهه إلى خصم أكثر مما يديره للآخر .

وإن سأل أحد : كيف نأتي بدوى العدل ؟ ونقول : انظر إلى عدالتهما في نفسيهما ولم تصرفات الإنسان من هي مستقيمة أو لا ؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء في

الطعام أو الذهب أو في أي لون من ألوان السلوك؟ ومن كان مأموراً من نفسه فهو مأمون على غيره ، ويجب كذلك أن يكون من ذوي الخبرة في هذا الأمر ، ولذلك يجب أن يتجه الناس إلى هذه المسائل لأنها نرى أن موجة من التعلق للشباب تسود بعض المجتمعات ، فنسمع أصواتاً تقول : إن الشباب يجب أن يتولى القيادة .

ويقول لأصعب هذه الأصوات : تمهلوا ودققوا النظر في مثل هذا القول ، لأن الشباب عليه أن يزاوِل عمله الخاص في فترة الشباب ، وعلينا ملاحظته وهو يؤدي عمله فإن نجح ورأينا فيه أمانة على حركة نفسه ، وعدلاً مع نفسه وعدم إسراف على نفسه فإننا نرشحه من بعد ذلك لخدمته بعد أن يثبت أنه مأمون في عدالة نفسه ولا يصح أن نجرب في الأمة من لا يستند إلى رصيد من الخبرة السابقة .

إنه لا يصح أن نولي الأمر في أي قطاع لمن أطلقوا عليهم : الأطفال المعجزة . ومن يريد أن يجرب فليجرب في نفسه ، وفيما يملك ، لا في الأمم والشعوب . وعلى الشاب أن يبدأ حياته بنشاط جدي لذاته ، ليستخلص النعمة القريبة منه وألا يمش نفسه ، فإن نجح في ذلك ، فأنخذ منه بعض الوقت أو كل الوقت لخدمة أمته بعد أن يثبت لنا أنه قد وصل إلى النضج العقلي الكافي ، وقد زادت تجاربه وفقد شهية الطموح الشخصي واتسع الصغرة ، ووصل إلى القدرة على التجرد ليحكم بين الناس .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نختار ذوي العدل للحكم في رعية شاة ، فما بالنا برفاق الناس وبمصلح الناس ؟

نحن - إذن - مطالبون بأن نميز ذوي العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعمل نفسه وعلى أهله ، وعندما نكتشف أنه صار مأموراً على نفسه ، هنا نستطيع أن نولي أمور غيره بالخدمة العامة ، وذلك حتى لا نحيب الأمة ، فالأمر إنما نحيب بالاختيار خير منروس لقيادات المواقع المختلفة فيها .

ولنا أن نلاحظ في حملنا دقة المعاني التي جاءت في القرآن الكريم ، فنحن هنا في أمر شاة لو حيوان نستصدر الحكم من ذوي العدل (فجراء مثل ما قتل من النعم

يحكم به ذرا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، وما يحكم به ذوا العدل إنما يذهب كله
للكعبة ، لئلا ياكله الوجوديون في البيت الحرام لعبادة الرحمن . وقد أراد الله أن يضمن
قوت الذين يسكنون وادياً غير ذي زرع حتى من أطلال الذين يعتدون على ما حرم
الله صيده من الحيوان .

ولكن ما الحل إذا ما كان المخطيء لا يملك القدرة على أن يقدم هدياً بالغ
الكعبة ؟

والحق سبحانه لا يترك مثل هذه الأمور دون بيان أو تفصيل ، فهاهنا يضع
الكفارة بإطعم مساكين ، يحدد عددهم الاثنان من ذوى العدل . ومن لا يستطيع
إطعم مساكين فليصم أياماً بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه .
أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً لثبوت وبال أمره ، والوبال هو الثقل
والعاقبة .

ولماذا الوبال ؟ لأن الإنسان حين يدفع من ماله ثمن شراء المثل لما قتل سبعز عليه
ماله ، وأيضاً إن أطعم مساكين فهو يشتري الطعام بمال يعز عليه ، وكذلك بسبب
له الصيام الإرهاق . إن هذا اللون من الكفارة يذيق الإنسان وبال ما فعل ، وأراد
الحق بذلك ألا يحمل الإحساس مجرد أمر شكلي ، أو أن تظل الإساءة أمراً شكلياً .
وشاء سبحانه أن يرتب النفع للإحسان والضرر للإساءة ، حتى تستقيم الأمور في
الكون . ولنا في قصة ذى القرنين المثل الواضح على ذلك

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ ﴿٨٦﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ
وَعَزَّزْنَاهُ مِنْ كُلِّ نَفْيٍ وَصَدَّاهُ ۚ ﴿٨٧﴾ ۝ ﴾

(سورة الكهف)

لقد مكر الحق لدى القرنين في الأرض ، وأعطاه من كل شيء سبب . ومع ذلك لم
يركز ذو القرنين إلى ما أعطى فلم يتقاعس ولم يكسل ، بل يخبرنا الحق .

﴿ فَأَتَتْهُ حَسْبُ ۖ ﴿٨٨﴾ ۝ ﴾

(سورة الكهف)

لقد أخذ ذو القرنين من تمكين الله له في الأرض، وأخذ من عطائه الله له بشيء من كل سبب ، إنه أخذ طاقة وإحساساً بالاستولية ليواصل مهمته :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُبُ فِي صَخْرِ حِمَّتٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَرْمًا قَلْبًا يَنْزِلُ الْقَرْيَتَيْنِ ۖ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ (سورة الكهف)

لقد بلغ مغرب الشمس في نظر عييه، لأن الإنسان عندما يقف وقت المغرب في خلواء فالشمس تغرب أمامه وكأنها تسقط في آخر الأمن . والحقيقة أن ذلك هو نهاية قنوة البصر . وجاء التحويض لدى القرنين : إما أن يعذب هؤلاء القوم، وإما أن يعاملهم بالحسنى . ويقتض عمل كل إنسان منهم، وليجاءل كل إنسان منهم حسب عمله . وهو لا يفعل ذلك من هوى، لأنه ممكن في الأرض من الحق سبحانه وتعالى . لذلك قال الحق

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا ﴾ (سورة الكهف)

وكل إنسان - حتى التمسى - حين يرى أن ارتكاب العمل السيء يأتي له بالخاص وبالخسارة، يرجع عنه ولو لم يكن مؤمناً باليوم الآخر . أما من يؤمن باليوم الآخر ويعمل عملاً صالحاً فماذا تكون نوعية معاملته ؟ ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَاسْتَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (سورة الكهف)

إنه ينال التكريم والتشجيع، فالتكريم والتشجيع يجب أن ياتيهما صاحب الحق فيهما لا الخلف أو التسرع بالأبواب . هكذا يكون دستور كل متمكن في الأرض . وهكذا تكون رعاية أوامر الله ونواهيه . وحين أمرنا الحق بتحريم العبد في البيت الحرام أو على الحرم ووضع عقوبة لمن أخطأ، فهو سبحانه وتعالى عادل معذ، فلا عقوبة إلا بعد ولا تحریم إلا بعد النص، ولذلك قال سبحانه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ . فسبحانه يعفو عما سلف، أما من عاد ليرتكب نواهى الله في هذا المجال فيعاقبه الحق . فلا يقبل منه هدى

ولا إطعام مساكين ولا صوم ؛ لأن في تكرار المحالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله ، وهو العزيز الذي لا يُغلب .

ويعد أن تكلم الحق عن صيد البر وحكمه ، أراد أن يوضح لنا أن ذلك الحكم لا ينسحب على كل صيد . فسيحانه حرم صيد البر إن كنا حرماً ، أو في دائرة الحرم . وبهذا قول الحق .

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ
وَالسِّيَارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ تَحْشُرُونَ ﴾ (١٦)

وهذا قول دقيق يبين تحليل صيد البحر وطعامه ، وتحريم صيد البر على المحرم كما حرم الصيد في دائرة الحرم على المحرم وغير المحرم ؛ لأن المسألة ليست رتبة جل ، ولا رتبة حرمة ، إنما هي خروج عن مراد النفس إلى مراد الله . وصيد البحر هو ما نأخذه بالخيل وتأكله طرياً ، وطعام البحر هو ما يمد ليكون طعاماً بأن غلجه ولذلك قال : « متاعاً لكم والسَّيَارَةِ » . ولهذا جاء الحق بطعام البحر معطوفاً على صيد البحر . والشئ لا يطف على نفسه ، فإذا ما جاء العطف فهو عطف شيء على شيء آخر ، فالعطف ينتهي المخايمة .

إذن فالمقيم يأكل السمك الطري والذي في سيرة ورجلة فليأخذ السمك ويجمعه ويعلمه طعاماً له ، مثلاً فعل سيدنا موسى مع الخوت . ولكن هناك ألوان من الصيد ليست للأكل ، كاللؤلؤ والمرجان والحيوانات التي نستخرجها من البحر لعظامها وأسنانها وخلاف ذلك ، فهذا يكون الموقف ؟ لقد أباح لنا سبحانه الاستمتاع بكل صيد البحر وجاء هذا التحليل هنا بأسلوب اللف والنشر ، مثلاً قال الحق .

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٧٣)

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

وكنا نعرف أن الليل للراحة والنهار للعب . والليل يسلم للنهار ، والنهار يسلم لليل . إذن فالمسكن يعود إلى الليل ، ويبتغي الفضل بالكسب يعود إلى النهار . إذن فقد جاء الحكم على طريق الثبوت والنشر المرتب ، وأوضحت من قبل كيف أن الشاعر العربي قد فعل ذلك فقال :

قلبي وجعني واللسان وخالفني واهي وبالك شاكرو وخفوري

فالقلب واهي ، والجفني بالك ، واللسان شاكرو ، وخالفني هموري ، ولكن الشاعر جاء بالأحكام منشورة بعد أن لف الكلمات الأربع الأولى . أي أنه طوى المحكوم عليه مع بعضه ثم نشر الأحكام من بعد ذلك . وهي حياتنا - في أثناء السفر - مشترى الهدايا للأبناء وترتيبها حسب ورود الأبناء إلى حياتنا ، أي أننا نلف الهدايا ثم ننشرها من بعد ذلك . وبعد أن حلل الحق صيد البحر جاء بتحريم صيد البر إن كنا حرماً ، وذلك تأكيد جديد على تحريم صيد البر في أثناء الإحرام أو الوجود في الحرم .

ولذلك الحق الآية بقوله « واتقوا الله الذي إليه تحشرون » أي اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ؛ لأنكم لستم بتأخرين على تحمل عذاب النار ، فالحق - كما قلنا من قبل - له صفات جمالية وهي التي تأتي بما يسر ويتع كالبسط ، والمنفرة والرحمة ، وله سبحانه وتعالى صفات القهر مثل : أخبار وشديد العقاب وغيرها . وكل صفة من صفات الحق لها مظهر . فعندما يندب الإنسان فالتجلى في صفات الله يكون لصفات الجلال ، ومن جنود صفات الجلال النار .

إذن فرباكم أن نظنوا أنكم أنتم من الله ، فمساحة الحرية لمنوحة لكل إنسان تقع في الساقة بين قوسين : قوس الميلاد ، وقوس الموت ، فلا أحد يمسحكم في مولده أو وفاته . إياك - إذن - أيها الإنسان أن تقع أسير الغرور ؛ لأنك مختار فيهم بين القوسين . ومحكوم بقهرين ، قهر أنه قد خدعك بدهاء ، وقهر أنك متعود إليه - سبحانه وتعالى - نهاية .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ
وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧٨ ﴾

« جعل » تعني بين ووضح ، فقال: إن الكعبة محرمة وها كرامة تستحق من المؤمنين أن يأمس فيها . أو « جعل » تعني إيجاد صفات للأشياء بعد أن تكون ذات المادة موجودة ، مثل حوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

أي أنه سبحانه خصص جزءاً من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءاً آخر ليكون لُحياً ، وجزءاً ثالثاً ليكون لساناً . والحق هنا يقول : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قِيَمًا لِلنَّاسِ » ويعرف أن كل الأسماء للمعنويات مأخوذة من المحسّات .

والكعب هو شيء الناقص الخارج عن حد التساوي . ومثال ذلك الكعب في القدم يكون مرتفعاً . وكذلك الصفاة تطلق عليها . « طعلة » وهي دون البلوغ ، وعند البلوغ وظهور الثديين نقول إنها : « كعاب وكاعب » ، أي أن ثدييها قد صارا مرتفعين ، والكعبة نتوء ، والنتوء ارتفاع ، وهذا الارتفاع هو علامة البيت ، فالبيت هو مساحة من الأرض ، أما الارتفاع فهو يحدد الحجم .

ومثال ذلك عندما يريد حساب مساحة الأرض ، نقيس الطول والعرض . ونضرب الطول في العرض حتى نحسب المساحة . أما إذا كان هناك ارتفاع فهذا يعني الانتقال من المساحة إلى الحجم . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة البقرة)

أى أن سيدنا إبراهيم بعمله إنما أراد أن يصنع للبيت ارتفاعاً وحمياً ، وهذا البناء يدل على صناعة حجم مساحة من الأرض . إذن فالمكعبة هي البيت بعد أن صار له ارتفاع . وكلمة « بيت » تعنى المكان الذى أحد لليتونة ، فالإنسان يضرب في الأرض طيلة نهاره وعندما يجب أن يستريح يذهب إلى البيت .

فإن جعل المكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كدحهم لأن بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ولكن باختيار خلق الله ، أما المكعبة فهي بيت الله باختيار الله ، وهي قبلة لبيوت الله التي قسمت باختيار خلق الله .

« جعل الله المكعبة البيت الحرام قيماً للناس » وكلمة « البيت الحرام » تدل على أن له حرمان كثيرة . وجعل الله المكعبة بيتاً حراماً لكل المسلمين قياماً . والقيام هو الوقوف ، والوقوف هو القيام على الأمر . والقائم على أمر ما يحفظ له قوام حياته ووجوده .

وهكذا نفهم أنه سبحانه أراد أن تكون المكعبة هي البيت الحرام ليحفظ على الناس قوام حياتهم ، بالطعام والشراب واستبقاء النسل ودفع الأذى ، وموق ذلك له سيطرة وسيادة وجهه وتمكين ، ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر ، وتبدأ بوجود الروح في المادة فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المصالح ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته في الآخرة ، فلا تنتهي منه الحياة أبداً .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى المكعبة البيت الحرام قيماً للناس . . أى قواماً لحياتهم سواء الحياة الدنيا أو حياة الآخرة ، الحياة المادية التي تنتهي بملوث ، والحياة التي تبدأ بالآخرة . والحق سبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

هكذا يكون الإيمان بالله وصلاً لحياتين : الحياة الدنية في الدنيا ، وحياة الآخرة .
ولإراد الحق بذلك دفع الأذى وجلب النفع والجاه والسيطرة للمؤمنين ، ويعرف أن
البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١١)

(سورة آل عمران)

كذلك نعرف أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أقام القواعد من البيت ، أما
البيت نفسه فقد أنعم من قبل ذلك وملأه الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَضَعَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة آل عمران)

فسمى ذلك أن الله لم يحرم الناس من قبل إبراهيم أن يكون هم بيت فالناس
معها البشر من آدم إلى أن تقوم الساعة ، وأقام إبراهيم خليل الرحمن البعد الثالث
وهو رفع القواعد للبيت الحرام . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

أي أن الحق سبحانه وتعالى أظهر مكان البيت لإبراهيم عليه السلام ، ونعرف أن
إبراهيم أشرك ابنه إسماعيل في إقامة القواعد من البيت ، ويعلم أن إسماعيل قد جاء
إلى هذا المكان رضيعاً مع أمه ، وقال إبراهيم بعد أن رفع القواعد متوجهاً إلى ربه
بالدعاء

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد عرف إبراهيم مكان البيت وأنه بوادٍ غير ذي زرع ، لا ماء فيه ولا نبات .
وجاء الحق بهذه الكناية لنعرف أنه لا حياة بدون زرع ، والماء لازم للزرع . وبذلك
يكون إبراهيم عليه السلام قد لى نداء الله بأن يأكل إلى مكان ليس به أى نعمة تقم
الحياة ، ولا يوجد فيه إلا للنعم ، ولذلك نرى سيدتنا هاجر عليها السلام عندما تنقضى
الأمر من إبراهيم بالسكن مع ابنها في ذلك المكان تناديه : يا إبراهيم إلى من تركتنا ؟ فيقول

لها . إلى الله تقول : وصيت بالله . هنا تركته ميدينا هاجر ليمشي كما أراد ، فإله
 لن يضيعها لا هي ولا ابنها ، لأنها قالت : وصيت بالله .

وقص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علينا قصتها ، والسعي الذي قامت به
 بين الصفا والمروة ، وكيف كانت تقفها في إن الخالق الأكرم لن يضيعها لا هي ولا
 ابنها ، بل سيرزقهما ، فتسعى بين الصفا والمروة لعلها تجد طيراً يدلها على مرقع لماء ،
 وتعود إلى المروة لعلها تجد قافلة تسير . إنها تأخذ بالأسباب مع علمها أنها في محبة
 المسبب الأعظم . وسعت سبعة أشواط . وهي الآن في رغي تلك السوء وذئب من
 لهفتها على توفير شربة ماء لطمها .

السعي - كما نعرفه - عملية شاقة ولو أن الله أعطاه الماء على الصفا أو على
 المروة لما أثبت كليتها ، « إن الله لا يضيعنا » ولكن الحق يعطيها الماء عند قدمي
 طفلها الرضيع . وبذلك لها يكون سبحانه قد بهنا وأرسلنا إلى قضيتي : أما الأولى
 فإن الإنسان يلزمه أن يسعى على قدر جهده ، وأما الثانية فهي أن السعي لا يعطي
 بمفرده الثمرة ، ولكن الثمرة يعطيها الله . وجعل الله من السعي بين الصفا والمروة
 تعديماً لنا بدرس عملي تطبيقي أن سأل بالأسباب ولا ننسى المسبب ؛ لأن فئة الناس
 تأتي من الغرور بالأسباب .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى (٧) ﴾ (سورة التوبة)

إنه لا يصح أبداً أن تعربك الأسباب عن المسبب ، ولا تقل سألني مع المسبب إلى
 أن تأتي الأسباب ؛ لا ، كُن دائماً مع الأسباب ، وتذكر دائماً المسبب . ولذلك
 نقول . إن الخوارج تعمل ، ولكن القنوب تتوكل . وهنا هو المعزى من خطأ الحق
 سبحانه بلأه لهاجر عند قدمي ابنها ، وبذلك تستجاب دعوة إبراهيم التي دعا بها الله :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِدَّكَ الْمُحْرِمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
 الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْزِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

لقد دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق من الثمرات ، لأن الوادى غير ذى ررع .
ولذلك جعل الحق أئمة الناس نهوى إلى الكعبة وإلى البيت الحرام . يقول
- سبحانه - .

﴿ أَوَلَمْ تَكُنْ لَّهُمْ حَرَمًا غَائِبٌ يُجْهَى إِلَيْهِ تَكُنُ كُلُّ شَيْءٍ رَّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٥٧ سورة القصص)

وكلمة « يُجْهَى » تدلنا على أن الناس لا تاتى هذه الثمرات احتياداً إلى البيت الحرام
الذى جعله الله قديماً لحياة من يوجد فيه ، بل يأتون بالثمرات قهراً .

وهناك أماس هم مزارع كبيرة وحدائق وفيرة الثمار إلى الطائف وإلى غيرها من
البلاد ، وعندما يريد إنسان شراء من نتائج مزارعهم يقولون له : إنه مخصص لمكة
فإن أردت شراءه فإذهب إلى مكة

لقد استجاب الحق لدعاء إبراهيم . (فاجعل أئمة من الناس نهوى إليهم)
وه نهوى - بكسر الواو - تدل على السقوط من حائق . . أى من مكان مرتفع
شاهق . وكان الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقلوباً إليها . ولذلك نجد التكليف
بالحج - المحب له والمتعلق به - تشتاق روحه إلى الحج .

وعلمنا أن تفرق بين « نهوى » . . أى يحب الذهاب ، وه نهوى - بكسر الواو - أى
ينذهب بالادماع ، فالإنسان إن سقط من مكان عالٍ لا يستطيع أن يقول : سأترقب
عند نقطة ما فى منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذى يقع من مكان لا يقدر على أن
يمسك نفسه . ولذلك قال الحق

﴿ فَاصْبِرْ أَفْعَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة إبراهيم)

وهذا دليل على أن الهوى ليس من صنعه الجسم ، ولكنه من صنعه الأئمة
والأئمة بيد الله - سبحانه - هو الذى جعلها نهوى ، والكعبة هى البيت الحرام ،
وهى قوام لحياة الناس ، وسبحانه القائل :

﴿وَمَنْ دَخَلَ كَانَ آمِنًا﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالدخول إلى الكعبة آمن حتى ولو كان قاتلاً . وكان الرجل يلتقي مقاتل أبيه في الكعبة فلا يتعرض له ، إذن هذا أعطى الحق لهم من مقومات الحياة الشيء النافع وحجب عن الموجود منهم الضرر

وأما البيعة والجلاء بعد عرفنا أن قريشاً سادت العرب وكان رجالها حذرة وخدماً لبيت الله ، والكل يأتي إليهم فلا أحد يتعرض لقوافلهم الداهية إلى الشام أو اليمن . ولا فمن يتعرض لقوافل قريش فإن قريشاً تستطيع الانتقام منه عندما يأتي إليها . وكان ذلك قمة استيادته . إذن فمقوم الحياة إما أن يأتي سابع كالورق ، وإما أن يمنع الضرر ؛ وذلك بالأمر الذي يصيب كل داخل إليها ، وكذلك بالسيادة التي أخذتها قريش على العرب جميعاً . وأعطى الله المثل لقريش على حمايته للكعبة . عندما جاء أبرهة ليهدم الكعبة .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْعِيلِ ۝١﴾

(سورة العيل)

ورد سبحانه كيد أصحاب العيل ، لأنهم لو هدموا لكعبة لضاعت السيادة من قريش ، ولذلك قال الحق وصفاً لذلك

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْوَبٍ ۝٢﴾ ﴿لَا يَلْبِثُ قَرْيَةً ۝٣﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا رِجَالٌ

﴿الْبِشَاءُ وَالْعَبَثُ ۝٤﴾

(الآية ٥ سورة العيل والآية ١ ، ٢ سورة قريش)

جعل الحق أصحاب العيل كعصف مأكول أي كتيس أو نحوها أكلته الدواب وألفت روثاً ، فعل - سبحانه - ذلك حتى تألف قريش وتطمئن إلى أن الكعبة لن يمسها سوء ، وإلى أن رحلات الشتاء والصيف مضمونة بحكم حاجة كل القبائل إلى الخبز وقال سبحانه :

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝١﴾ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَكَفَّ عَنْهُمْ مِنَ الْهَرَقِ ۝٢﴾

(سورة قريش)

أى أَسَقَ عليهم النعمة بالطعام وصلبهم المصرة بالخوف ، وأَنقَى لهم السيادة
والجاء بحمد الكعبة التى جعلها الله للناس جميعاً قياماً وأماً ؛ لأن الذين يذهبون إلى
حج البيت يكفرون عنهم سبحانه سيئاتهم ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ،
وهذا قيام لحياتهم الأخروية أيضاً

إذن جعل الله البيت الحرام قياماً لكل الزمان الحية ، والبيت الحرام مكان كما
نعلم . وجعل الحق الشهر الحرام أيضاً قياماً للحياة ، والشهر الحرام هو زمان كما
نعلم . والشهر الحرام هو أحد الأشهر الحرم الأربعة ، شهرها فرد أى غير متصل
بعيره من الأشهر الحرم وهو رجب . ولذلك يسمى رجب الفرد . وثلاثة سرد أى
متابعه إلى بعضها بعضاً وهى . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم والمراد بالشهر الحرام
هو الخمس لكل شهر من الأشهر الحرم .

ونعلم أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى فاعل والماعل يحتاج إلى ذم
ليُفعل فيه الفعل ، وإلى مكان يفعل فيه ، وإلى سبب يدعو إلى الفعل ، وإلى قدرة
تبرز هذا الفعل . ولذلك يذكر جميعاً قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولُ لِّشَأْنِهِ أَفَعَلَ ذَلِكَ هَذَا ۖ ﴾ (٦٦) ﴿ لَا أَلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

(سورة الكهف)

إياك أن تقول : إى فاعل ذلك هذا إلا بعد أن تتبعه بقولك « إن شاء الله »
ولا يصح هذا أن يحفظ مستقبلنا . فهاهنا قد استعنت بالمشيئة ، فلما أن يحفظ
لحياتنا . ويقول : « إن شاء الله » لأن عناصر الفعل : فاعل ، ومفعول يصح عليه
الفعل ، وزمان ، ومكان ، وسبب ، وقدرة تبرز الفعل . ولا أحد منا يملك واحداً
من هذه العناصر ، فأنبأ أيها الإنسان لا تملك وجود ذاتك هذا ، ولا تملك وجود
المفعول هذا ، ولا تملك الزمان ، ولا تملك المكان ، ولا تملك السبب ؛ لأن من
الجانز أن يتغير ، ولا تملك القدرة على الفعل ، فقد تسلب منك القدرة قبل أن تفعل
الفعل .

إذن ، فأنت لا تملك من عناصر الفعل شيئاً . فلا تجهر وتقول : أنا أفعل ذلك
هذا . بل أستعذ إلى من يملك كل العناصر ، وقل : « إن شاء الله » . وبذلك
لا تكون كاذباً .

وهنا في هذه الآية يوجد عنصران : المكان ، الرمان ، المكان هو بيت الحرام ، والرمان هو الشهر الحرام ، والذي يحدث الفعل فيه نسيبه : المفعول فيه ، وهو إما ظرف مكان وإما ظرف زمان . وأراد الحق سبحانه بذلك أن يؤكد ما فيه قيام الناس زمانا ومكانا ، فلو أنه سبحانه لم يفعل ذلك بالنسبة للرمان وهو الأشهر الحرم ، والمكان وهو الحرم ، لاستمرت الحرب بين قبائل العرب إلى ما لا نهاية . ولذلك أراد بالأشهر الحرم أن يعطى للمعتل فرصة للتأمل في أسباب الحرب ، ويعطى كل إنسان من العرب الراحة من القتال . وكان كل عربي في ذلك الزمن يتم بالاستعداد للقتال اهتمامه بالطعام والشراب ، فكل منهم قرى على الفروسة والقتال والضرب بالرمح والمبارزة بالسيف .

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لينساح بالدعوة في أرض الله سبحانه معه الكثير من الرجال الذين لم يكونوا في حاجة إلى التدريب على أعمال الحرب ، فقد كان كل الناس تقريباً جاهزين للقتال . وكان الله سبحانه أراد للإسلام أن ينهي الثار بين القبائل ، وأن يستفيد الإسلام من استعداد كل عربي للقتال . واستفاد الإسلام أيضاً من أن أمة العرب كانت - غالباً - متبدية ؛ بيت كل إنسان منهم على ظهر البعير ، يشد رحله ، وينصب خيمته وينام ؛ لأن الناس إنما ارتبطوا بالأوطان عندما بنوا المنازل ، فمن بنى لنفسه بيتاً في مكان ما فهو يشتاق إلى ما بناه .

وكان الحق قد أعدهم للنساح بكلمة الله في الأرض فلا يحزن لترك مكان إن كان آخر ، بل إن الشخص منهم كان يذهب إلى البلاد ويتوطن فيها ليؤصل الوجود الإسلامي . فكان كل واحد منهم نواة الخير للأمم التي انصاحوا إليها ؛ فمن ذهب منهم إلى الشام توطن فيها ولم يصحب فيه فراق الحزيرة . وكذلك من ذهب إلى مصر وغيرها من البلدان .

إذن فقد أراد الحق بحرمة الأشهر الحرم والبيت الحرام أن يرتاح العرب من القتال بدلاً من أن تهلك الحرب والحرب والنسل ، وأراد الحق ذلك قياماً للناس ، واستبقاءً للنوع

وكذلك حرم الله : « الهدى والفلاحة » والهدى هو الذي ينتهي للحرم فيأكله

الناس هناك ، ذلك لأن الحرم موجود بواحد غير نبي زرع . والهدى هو الهيمة التي يطروح بها أي إنسان ويصنع حول حنظلها قلادة من لحاء وقشر الشجر أو غير ذلك . وعندما يرى الناس القلادة يعرفون أن تلك الهيمة مهددة للحرم فلا يقربها أحد حتى صاحبها وإن قرصه وعصه الجوع ، وفي ذلك قيام للناس

وتابع الآية : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم » ، وهـ ذلك « تشير إلى الأمور التي تقدمت كلها ، ولـ لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض » أي أنه مدير لهم ما يحفظ حياتهم في كل حال من أضرار الحياة ، فقد رتب سبحانه هم حفظ الأرواح ، وحفظهم من الجوع ، وأمنهم ، وحفظ لهم السيادة ، كل ذلك بتدبيره وهو الحكيم . لقد خبر كل شيء . أنزلنا ، وأنت الأمور على وفق ما دبر من خير ومصلحة ، وإذا كان كل ذلك قد فعله سبحانه وتعالى فلأنه الأعلم والأحكم

وقد حدث كل ذلك بعلمه وحكمته ، وبؤمن أن ما لا نعرفه قد فعله وصنعه - أيضاً - هذه الحكمة المطلقة وذلك العلم المطلق « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم » لقد رتب حياة الناس في الحرية وحول البيت الحرام على الرغم من أنهم قبل الرسالة كانوا يعبدون الأصنام ، ولكنه هداهم بالرسالة المحمدية . ولذلك قال « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » سبحانه جعل البيت أمناً وأماناً ، وهذا إخبار شرعي لا إخبار كوني

والفرق بين الإخبار الكوني والإخبار الشرعي أن الإخبار الكوني لا بد أن يحدث لأن لا دخل للناس به ، أما الإخبار الشرعي فهو أمر يجب أن يقوم الناس بتنفيذه ، فإن أطاع الناس الخبر القادم من الله جعلوا البيت آمناً ، وإن أساءوا جعلوه غير آمن

وفي زماننا القريب عندما اعتدى شاب يدعى جهيمان عن الحرم ، تساءل الناس : كيف يعتدى إنسان على الحرم وقد أراه الله حرماً آمناً ؟ وقلنا : إن أمر الله بجعل البيت حرماً آمناً هو أمر شرعي بهذه المزمون إن أطاعوا ، وإن لم ينفذوه بهم غير مؤمنين . والمثال على الأمر الشرعي والكون قوله الحق :

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

إننا نجد في الحياة خبيثاً يتزوج امرأة طيبة ، ونجد طيباً يتزوج خبيثاً . وهذا يشبه لنا أن نقوله الحق : « والطيبات للطيبين » هو أمر شرعى بأن تزوج الطيب طيبة مثله ، وهو واجب التنفيذ إن كما مؤمنين بالمنهج ، أما إن خالفنا المنهج فإننا نزوج الطيب خبيثة والطيبة خبيثاً ، وبذلك يحتل التكامل في الأسرة ، وتصير حياة المجتمع جحيماً ، ومن أجل أن نحفظ للمجتمع توازنه علينا أن نزوج الطيب للطيبة وأن نترك الخبيثة للخبيث ، حتى لا تكون حياتنا في فتنه . وينها سبحانه إلى ضرورة مراعاة أوامره الشرعية فيقول لنا سبحانه :-

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ

عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

أى تيقظوا لأحكام الله ، وكونوا طوع ما يريد ، فمن يخالف الله فعليه أن يعرف أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب . ومن كان يطيع الله فليعلم أنه سبحانه غفور رحيم . وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال لتتقابل مع صفات من صفات الجلال ، فصفة : « شديد العقاب » تتقابل مع صفتي : « غفور رحيم » ؛ لأن كل الناس ليسوا أسياراً ، وكل الناس ليسوا أشيروا ؛ لذلك جاء للأخيار بما يناسبهم من المعفرة والرحمة ، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب ، وغلبت رحمته ومغفرته غضبه وعقابه ، ونلاحظ ذلك من مجيء صفة واحدة من صفات الجلال : (شديد العقاب) ويقابلها صفتان من صفات الجلال وهما : (غفور رحيم) . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ

وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الرسول هو المبعوث من الربيل الحق سبحانه إلينا نحن العباد . والحق سبحانه هو المعامل الأول ، المطلق الذي لا فاعل يزاحه ، والمفعول الأول بالرسالة هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمفعول الثاني هو نحن . وهناك في النحو المفعول معه ، وهناك أيضا المفعول له ، والمفعول فيه ، والمفعول به ، وأيضا يوحد المفعول إليه والمثال على المفعول إليه قوله تعالى :

﴿ تَاٰلِهٖ لَقَدْ اَرْسَلْنَا اِلَآءَ اَمِيْرٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَرِيْضَةً لِّمَنِ الشَّيْطٰنُ اَعْمَلُهُمْ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجر)

وبه أيضا المفعول منه . والمثال على المفعول منه هو قوله الحق :

﴿ وَاَخْلَدُوْا مَرْسِيْ قَوْمٍ سَمِيْعٍ رَّجُلًا لِّيُبَيِّنَآ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الاعراف)

وه قومه ، هي مفعول منه . لأنه اختار من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا المعجل ليعتدروا عن عبد المعجل ويسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء .

إن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ (ما على الرسول إلا البلاغ) ، أما تنفيذ البلاغ فهو حود المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أدوها فلهم الجنة ، وإن لم يؤدوها فعليهم العقاب . ولزاد الحق أن يكون البلاغ من رسوله مصحوبا بالأسوة السلوكية منه صلى الله عليه وسلم : فالرسول يبلغ وينهى أهما ما يبلغ به حتى تنبهه ، ولذلك قال الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَّسُوْلِ اللّٰهِ اُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢ سورة الاحزاب)

وهذا ما يعص ادعاء لالوهية لبشر . فهو كان هناك إله رسول لقول الناس . كيف يتبع هذا الرسول وله من الصفات والخصائص ما يختلف عن نحن البشر ؟ إن الرسول لا يستقيم ولا يصح أن يكون إلها لأنه هو الأسوة والقيد والمرسل إليهم . إنه يصلي ويصوم ويحج ويعمل غير ذلك من الأعمال ، ويأمر من أرسل إليهم أن يسموه نبيا يفعل ، فلو كان إلها فلا المرسل إليهم - وهم لبشر - لا يقدر أن يفعلوا مثل ما يفعل ، لأنه إله وطبيعته تختلف عن طبيعتهم ولذلك لا يستطيعون

الناس والافتداه به، فالأسوة لا تنافي إلا إذا كان الرسول من جنس المرسل إليهم ..
أى يكون بشراً بكل أحوال البشر .
والحق سبحانه قال :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(سورة الإسراء)

﴿ ٩١ ﴾

أى أن البشر تسامروا - جهلاً - عما يمسح الله - سبحانه - أن يرسل لهم رسولاً من غير جنس البشر، ولماذا أرسل لهم رسولاً من جنسهم البشرى ؟ وهنا يأتى الأمر من الله سبحانه .

﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَشَرُّنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا ﴾

(سورة الإسراء)

﴿ ٩٥ ﴾

وهنا يبلغ الحق رساله ضرورة إبلاغ الناس أن الرسول لهم لا بد من أن يكون من جنس البشر ، لأن الملائكة لا يمشون مطمئنين في الأرض ، ولر جاء الرسل من الملائكة لقال البشر : لن نستطيع اتباع ما جاء به الملائكة لأنهم لا يصلحون أسوة لنا ؛ لأنهم من جنس آخر غير جنس البشر، ثم إن الملائكة من مخلق الغيب، فكيف يبعث الله للبشر هذا النبي ليكون رسولاً ؟ ولو حدث ذلك فلا بد أن يجعله الحق في صورة بشرية .

ففي آية أخرى يقول الحق

﴿ وَتَوَّجَّعْنَاهُ مَلَكًَا لِّجَعْلِنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (سورة الأنعام)

لهم طلبوا أن ينزل الله عليهم ملكاً، ولو استجاب الله لهم وأرسل رسوله ملكاً لتجسد الملك في صورة بشرية، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون، عندئذ يحق عليهم عذاب الله ويهلكهم . إذن فمسهمة الرسول هي البلاغ ولنا فيه الأسوة .

وتتابع الآية : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » كأنه سبحانه وتعالى يحذرننا من أن نأخذ شكل الإيمان دون أن نؤمن حقيقة ، لأن الأمر الشكلى قد يجرر على أجناس البشر أن ينخدعوا فيه ، ولكن الله ينظر إلينا بقرومته ، فسبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم .
ومى هذا القول تحذراً للمعتاقين من أنه سبحانه مبيحهم ، فإن كتم الإنسان الكفر فى قلبه وأظهر الإيمان الشكلى ، فسوف ينال عقاب الله ، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومنه جماعة المؤمنين أن يحكموا على ظاهر الأمر وأن يتركوا السرائر لله .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبهنا عن أن نحكم بكفر إنسان أعلن الإيمان ولو نقائاً . وقد أبلنا صلى الله عليه وسلم أنه بشر ، وعرف أن البشرية محدودة القدرة . ولذلك قال : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فاعل بعضكم أن يكون الحق بحجته من بعض فأقضى له على نحر ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار لها خلعها أو ليتها »^(١)

هكذا يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نطى فيه قدرة فوق قدرة البشر .
وعندما قتل صحابى رجلاً أعلن الإيمان قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هلا شقت من بطنه فعمت ما فى قلبه »^(٢) إذن فمن لنا الظاهر ، أما السرائر فامرها موكل إلى الله . ولذلك يقول الله : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . ونعلم أن ظاهرة التقاطع تعطى للمنافق حقوق المسم الظاهرة للوغوة بحياته وزمه ، ولكن الباقى فى الحياة الأخرى طويل ينال فيه جزاء ما أبطن من كمر . والكتمان غير الإخفاء فكتم الشيء يعنى أن الشيء ظاهر الرضوح ولكن صاحبه يكتمه ، أما الإخفاء فهو ما يدور بالخواطر ، ويمكن أن يخفيه الإنسان ، ولكنه مع مرور الوقت لا يستطيع ذلك ، فالظاهر الحرى يقول :

ومهما تكُنْ عندَ امرئٍ من خليقة

وإن غمالها ، تُفسى على الناس نُفَلَم

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه

(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد

ويقال : بكاء المريب أن يقول : عيوني .

ومادام الحق يعلم كُلَّ ما يبدى البحر وكل ما يكتنون ، وهو شديد العقاب ، وغفور ورحيم ، ويجازي على الحسة بعشر أمثالها ، ويجازي على السبقة بمثلها ، فماذا علينا أن نفعل ؟ يأتينا القول الفصل في أمر الله لرسوله أن يخبرنا .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّوَلَّى الْأَلْبَسُ
لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾

إذن فالخبث لا يستوى أبداً مع الطيب ، بدليل أن الإنسان ما إذا ما ذهب لشراء سلعة فهو يفرز البضاعة ليجتار الطيب ويتعدى عن الخبيث . وهذه قضية كونية مثلها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور . ويأتى الحق إلى انحصات ليأخذ منها ما يوضح لنا الأمر المعنوى . ولذلك يجلونا أن نغتر بكيميات الأشياء ومقارنها . فإن الطيب القليل هو أرى وأعظم وأفضل من الكثير الخبيث . والأمر الطيب قد يرى الإنسان حيرة في الدنيا ، ومن المؤكد أن حيرة في الآخرة أكثر بكثير مما يتصور أحد ، لأن عمر الآخرة لا نهاية له ، أما عمر الدنيا فهو محدود

وكثير من الناس عندما يحضرون قصة ما ، فكل واحد يوجب في أن يأخذ لنفسه النصيب الأكبر ، لأن الإنسان تغريه الكثرة . وهذا الطمع يشيع الخبيث في جميع ما يأخذه الطامع ، فالذى يطمع في حقنة من قمع - حل سبيل المثال - تريد على حقه ، فهو يفسد حياته بهذا الشيء الخبيث . وذلك كخلط الماء الطاهر بماء نجس فتتلب النجاسة على الماء . إذن فلا يصح أن نحكم على الأشياء بكيميتها وقدرها ، ولكن يجب أن نحكم على الأشياء بكيميتها وصفتها وسمرها في الخير .

والمثال الذي لا أمل من تكراره هو التلميح الذي يكبد لثمة عشرين عاماً فهو يتحرج إنساناً له مكانة لا تفتقر ، أما التلميح الذي يقضى عشرين عاماً في اللطم والنهو فهو يفتقر ويحال مستقبلاً غاشلاً مؤلماً . إذن ، هل كل منا أن يقدر العتبة بدعومتها ، ولا يفتقر بكثرة الخبيث .

والمثال يتكرر في حياتنا ولا بد أن نضمه أمام أعيننا لئلا نرى الله ولا ينساق كما ينساق كثير من الناس إلى هلاكهم ، بعض الناس لا يرتضون قصة الله في مواريتهم ، فيعطى بعضهم بالذكر ولا يعطى للإثبات . أو يقتل من نصيب الإثبات ويقول لمن يفعل ذلك : أنت لا تعلم ماذا تفعل . ولو أن ابنك الذكر يعلم أن يد الله في الأشياء فقال لك : «رحمني ولا تزدي » لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿أَبِئْزَكْرَ وَأَبِئْزَكْرَ لَا تَكُونُ أَهْلَهُمْ أَقْرَبُ بِكْرَ نَعْمًا﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

ولذلك يجب أن يتبه الناس إلى أن قصة الله هي أحسن قصة ، وإياك أن تظلم ابنك لك أو قريباً بزيادة فوق ما قدره الله له ؛ لأن هذا عين الظلم . فإن عانت هل المورث وهو حتى تقول لي أخذ : احذر ولا تفعل ما هو فوق شرع الله وأجد ما هو فوق حقتك . امس ذلك برجولة الإيمان . وإياك أن تظن أن الذي سيديهم السر لأولادك هو هذه الزيادة التي ليس لك حق فيها ؛ لأنك بهذه الزيادة ستفجع الأرحام وتغرس بذور الكراهية والبغض .

ولو نظرت إلى هذه المسألة وأقيمتها على ما شرعه الله فستجد أن الرزق سيعطى عليك من كل جانب ما دمت قد راعيت حق الله في إرادته التي حكم بها لبناً الاستطراق الأسرى وتظهر العدالة الربانية ؛ لذلك يجب ألا يجترأ أحد على قصة الله ؛ لذلك أقول لكل من يقرأ هذه الكلمات ويعكر في الاجترأ على قصة الله : تب إلى الله ولا يصح أن تضوه مستغفرتك الإيمانية . وإياك أن يظن إنسان أنه كاتب يمكنه أن يحاط لأبنائه . فكثيراً ما رأينا أناساً تركهم أهلهم أغنياء ومبروا في عز ورفاهة وفقر ، ورأينا أناساً تركهم أهلهم فقراء ، وأغاض الله عليهم من رزقه ، فسبحانه العائل :

﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةَ ضِعْفٍ خَلَوْا عَلَيْهِمْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَلِيَقُولُوا فَوَلا سَيِّدًا ۝﴾

(سورة النساء)

إذ فعل المؤمن أن يحل الكثرة إن كان بها شيء بحيث ولنا العبرة في الحكاية التي حدثت مع أبي جعفر المنصور حينما بويع للخلافة ، وذهب الناس بهتونه بإمرة المؤمنين ، ودخل عليه سيدنا مقاتل بن سليمان وكان أسط الواعظين .

هنا قال أبو جعفر لنفسه : جاء ليعكر علينا صفو يومنا ، ساءلناه قبل أن يذاني وقال له : حظنا بما مقابل . قال مقاتل : أعطك بما رأيت أم بما سمعت ؟

ذلك أن السمع أكثر من الرؤية ، فالرؤية محدودة ومقصورة على ما قدره العين ، لكن السمع متعدد ؛ لأن الإنسان قد يسمع أيضاً نجارب غيره من البشر .

قال أبو جعفر : نكلم بما رأيت قال : يا أمير المؤمنين ، مات عمر بن عبد العزيز وقد ترك أحد عشر ولداً ، وحلف ثمانية عشر ديناراً كفى منها بخمسة ، واشتروا له قبراً بأربعة ، ثم وزع الباقي على ورثته . ومات هشام بن عبد الملك ، فكان نصيب إحدى روجاته الأربع ثمانين ألف دينار ، غير الصباغ والغصور كان نصيب الروجات الأربع هو ثلاثمائة وعشرون ألف دينار ، وهذا هو ثمن الزكاة فقط والله يا أمير المؤمنين قد رأيت بعين هاتين في يوم واحد ولداً من أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة قرص في سبيل الله ، ولداً من أولاد هشام بن عبد الملك يسأل الناس في الطريق .

إذن فعل كل منا أن يعرف أنه لم يدخل الدنيا بثروة ، وعليه أن يتأدب مع الله ويرعى حق الله ، ولا يتدخل في حصة الله .

﴿قُلْ لَا يَسْعَىٰ الْغَيْبُ وَالْغَيْبُ وَلَوْ أَعْلَمْتُ كَثْرَ الْغَيْبِ مَا تَبَارَىٰ الْأَلْبَابُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ۝﴾

(سورة الحديد)

على المسلم - إذن - أن يستحضر كل ملكاته العقلية حتى يميز الخبيث من الطيب ويرفض الشيء الخبيث ؛ لأننا لو تدبرنا الحكم بقولنا لوصلنا إلى أن حكم الله هو الحكم الحق العادل .

(لعلكم تفلمحون) والفلاح - كما نعلم - مأخوذ من أمر محس وهو قلع الأرض ، فالإنسان يأخذ حبة قمح ويزرعها فتعطيه سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة . ونحن سبحانه نسمى كل عمل الآخرة بالفلاح ؛ لأن الكلمة لها وقعها الجميل ، فإذا كانت الأرض ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله بما تحتويها من كل العناصر اللازمة للزرع واللازمة لكل حياة ، هذه الأرض تعطينا لقاء حبة قمح سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟ فأتق الله أيها المسلم ولا تتدخل في قسمة الله ، وصع أمامك هذا التوجيه الحكيم الذي ورد في الأمر : شرکم من ترک عیاله بخیر وأقبل علی الله بشرًا .

وعلى الأبناء الذين ابتلوا بهذا أن يراجعوا الأمر بسخوة إيمانية ؛ لأن الأب حبيب أحب أبناء له وولد له في الميراث كان أحق الحب ، وعلى الابن أن يحترم عاطفة الحب ، وأن يجازي الأب عنها ويرحمه ، فيعيد الأمر إلى نصابه ويعطى كل ذي حق حقه حتى لا يتعرض أبوه لعذاب النار الذي سيناله نتيجة تدخله لصالحه في قسمة الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنۡ أُمۡشِيَّآءٍ
إِن تَبَدَّلَ لَكُم مِّنۡهُنَّ نِسۡوَكُمۡ وَإِن تَسَّأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنۡزَلُ
ٱلۡقُرۡءَانُ تَبَدَّلَ لَكُم مِّنۡهُنَّ عَفۡءٌ ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌۭ

وهذا هي عن السؤال ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « فزول ما تركتم فإثما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدهروه » (١) .

ونعرف أن بني إسرائيل شددوا على أنفسهم عندما أخذوا يماطلون في أمر ذبح البقرة ، وتساءلوا عن لونها ، وشددوا فشدد الله عليهم ولو أنهم ذبحوا أى بقرة لكانت مقبولة منهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى جاءت البقرة الموصوفة ملكاً ليهم ، كان هذا اليهم ابناً لرجل صالح وكانت له هجلة فأتى بها موضعاً كثير الشجر والمرعى وقال : اللهم إني استودعتكها لأبني حتى يكبر وعندما سلّموا اليهم على ثمن باعها لهم بملء جلدتها ذهباً .

وقد شدد بعض الناس في سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنا ؟

فأجاب رسول الله : أبوك حذافة . ولو فرضنا أن هذا السائل كان يمسب لغير أبيه ألا يكون في ذلك فضيحة لأمه وقد قالت له أمه : ما رأيت أحق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قاربت ما قارب أهل الجاهلية فتضحها على رموس الناس .

لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس في الأمور التي تؤدي بهم إلى المشقة والتمتع وتسيء إليهم وتقبل الحق من وصوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشرعية مثل سؤالهم عن الحمر والأهلة والحرض والشهوات الحرام وغيرها . أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق في شأنها : « عفا الله عنها والله غفور حلیم » .

ذلك أن البعض استمر السؤال وكأنه يجتمع النبي صلى الله عليه وسلم . ولذلك جاء الأمر بالألّا يعتمد المؤمنون السؤال عما سنره الله عنهم كي لا ينقص عرضهم . « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ، فإن نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها . وإن لم تأت الإجابة فلا تقولن أحد : إن النبي ليس عنده جواب . أو من سؤال عن الأشياء التي اقترحوها لادعاء منهم أنها تثبت صلق النبوة فقد حكى الله عنهم :

﴿ وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ شَيْءٌ نَفَجُرُّكَ نَائِمًا مِنْ الْأَرْضِ بِسُوءِ ۝ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَسَدٌ مِنْ نُحِيلٍ
وَعِيبٍ فَتَعْبِرَ الْأَنْهَارَ خَلْفَهَا تَعْبِيرًا ۝ أَوْ تُنْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعَّتْ عَلَيْنَا كَشَا
أَوْ تَأْتِي بَاقِلَةٌ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا ۝ أَوْ تَكُونُ لَكَ يَمِينٌ مِنْ زُنُوفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ
وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُقِيَّتِكَ شَيْءٌ فَنُزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا
بَشَرًا رَسُولًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد ظهر من هذا القول سوء البنية المبيتة منهم ، فالرسول لن يأتي بالآيات ، بل
تأتيه الآيات بالأمر المكلف به ، لأن الرسول لا يختار ما يؤمن به من آيات ، ولكن
الحق هو الذي يرسل الآيات المناسبة .

ولذلك يفنون الحق

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا
كَافِرِينَ ۝ ﴾

والحق لم يرسل هذه الآيات رحمة بمن سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنها فقد
سأل قوم عن ناقة وعقروها فأبادهم الله . وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة
ونزلت عليهم وتوعدتهم الحق بعدها إن لم يؤمنوا . وكانت سنة الله مع خلقه إن
اقترحوا هم آية ولم يصدقوها إن الحق يهلكهم أو يعذبهم . ويعطى سبحانه أمة محمد
صلى الله عليه وسلم ضيائاً .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)



إذن فلا شبهة التي سألوا عنها لم يجيبهم عنها لأنه سبحانه قد هما عنها . والعفو - كما
نعلم - مأخوذ من عفى الأثر أى ذهب الأثر . وعفو الله من معرفته ورحمته

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا
حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ١٢

وهذه الآية جاءت في السورة التي أسجل الله فيها سيمته لأنعام ، وحرّم منها
ما حرّم . فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يستغنى حياته من قوت ،
وما يستغنى بوعه بالتزواج . وإذا كان الحق هو الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض
فقد أعدّ له كل هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعدّ سبحانه لجنه
الأرض واسماء والماء والهواء ، وما ذكره ونحياً وأوجد في الأرض من أفوات لا تنتهي
إلى يوم القيامة .

ولما أن نلتفت إلى فارق مهم بين « الخلق » ، وبين « الجعل » . فخلق شيء ،
والجعل شيء آخر . والخلق هو إيجاد من عدم . والجعل هو توجيه مخلوق لله إلى
مهمته في الحياة . فخلق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخلق والإيجاد له سبحانه . ونحن
نحن المخلوق - أن يخص كل شيء لمهمته في حياته التي أودعها الله ، أى أن تترك
« الجعل » لله ولا تتدخل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير - على
سبيل المثال - ليأكل من القاذورات وليحصى الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ،
وعلى الإنسان - إذن - أن يخص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوله إلى غير مهمته كأن
يأكله مثلاً ، لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضر بالإنسان الذي
أراد الله سيّداً مستخلفاً في الكون

وابلغ سبحانه الناس أنه قد أحل أشياء وحرم أشياء ، وعلى الإنسان أن يوضح لما أحله الله فيقبل عليه ، وأن يرضخ بالابتعاد عما حرم الله ، وإحلال ما سبحانه وتعالى هو الذي « حلن » وهو الذي « جعل » وهو القائل :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَمْبَةَ الْغُبَّةَ الْحَرَامَ قَبْلَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة النور)

وهو القائل :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى يهتأ به أن يجعل له أنداداً .

﴿ يَنبَأُهَا النَّاسُ أَعْبَدُوا ذِكْرُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذْ بِهِ مِن ثَمَرَاتٍ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) ﴾

(سورة البقرة)

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد ، فلا يصح أن نجعل له أنداداً ، لأن ذلك عبث . وثبت لنا سبحانه أن قصة الفساد في الأرض نشأ من تعدى الناس إلى العمل المخلوق لله فيحويوه إلى غير ما خلقه الله له .

والخلق في حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيما هي مخصصة له . ومثال ذلك أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن . وتستقبل من صانع الصابون قالباً من الصابون ، ثم تهيء بالجلين والصابون إلى المرل ، فتعبر أهل البيت بأن الحسن للأكل والصابون للسليل ، ويطبخ الجميع هذه التوجيهات لكن إن استخدم أحد الصابون للأكل والجلين لنفسه يحدث إفساد في صحة أفراد الأسرة . وكذلك جعل الله سبحانه وتعالى لنا آياته من أصلابها ، فكيف نأخذ آياته من غير أصلابها لجعلهم أبناء لنا ؟ إن هذا يحل في العمل .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا جَعَلَ أُدْعِيَاءَ كُرْ أَبْنَاءَ كُرْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الاحزاب)

إن الدعوى هو في حقيقة امره من غير صلبك ، وزوجتك ليست أمّاً له ، فكيف تجعله ابناً لك ، وتمكنه من أن يجلس في حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محارمه على أن ذلك حلال ومباح له ، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام ، لذلك فالتبني إفساد في الجمل .

إن كل فساد ينشأ في الكون حينما نجعل مخلوقاً لله في مهمة غير تلك التي جعلها الله له . والحق سبحانه وتعالى يعلمنا أنه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقينه ، وما يحفظ نوعه ، فعلينا أن نطيع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام . وإن كان قائل : ولماذا حرم الله بعض الأشياء التي خلقها ؟ ويقول : إن الذي خلقها جعلها لمهمة غير التي يريد الإنسان أن يوجهها له ، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير .

ولإنسان منا إذا ما رأى صورة من معيشة الحيوانات في العاية . يتعجب ، تفضيلات حيوان في غذاء لحيوان آخر . وسم الثعبان هو حماية وعلاج . ويعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض وتعمل بعض الجراثيم .

ولذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمَّ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

(سورة يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشرعين بحلل الحرام وبحرم الحلال ؟ إن الله الذي خلق كل شيء لم يمنحنا إلا ذلك . وعلمنا أن نسلم بأن كل شيء مخلوق لمهمة

فلا يصح أن توجه شيئاً إلى غير مهمته . وتوجيه أشياء إلى غير ما جعلت له أنفع آثاراً ضارة ، ومثال ذلك استخداماً لمبيدات الحشرات في الحقول ، تملك المبيدات أبادت الصبار في نظري ، وأبادت النافع أيضاً . وعلى الإنسان - إذن - أن يتبه جيداً فلا يسوى بين الحرام والحلال ، وأن يتبه تماماً فلا يتعدى الجمل المخلوق لله . يقول سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة السائدة)

والبحيرة هي الساقية التي تنشق أذنها كعلامة على أنها محرمة فلا يتعرض لها أحد . لا تُرد عن مرعى ، ولا تُرد من ماء ، ولا يُشرب لبنها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُجر صوفها ، لأنهم قالوا : نتجت حصة أبطن آخرها ذكر . ود السائبة : وهي الساقية التي يقدمها الرجل إن برىء من مرضه أو قدم من سفره كذا سائب ، فلا يربطها ، وتاكل كما تريد ، وتشرب ما تريد ، وتنام في أي مكان ، ولا أحد يتعرض لها أبداً ، وقد سميت « سائبة » بمعنى مأخوذة من الماء السائب . ومعروف أن صفة الماء وطبيعته الأساسية هي الاستطراق ، فإن سقط الماء على قسم الجبال فهو يملاً الوديان أولاً ، ثم يصعد إلى الأعالى ، هكذا يكون استطراق الماء ما لم يتحكم فيه الإنسان بإقامة السدود والمصحات وشبكات توزيع المياه .

والوصيلة هي الساقية التي تعمل أساحا ، فالساقية عندما تحمل وتضع المولود ، هنا ينظر أصحاب الساقية إلى جنس المولود ، فإن كان ذكراً أكلوه ، أما إن كان المولود أنثى فهي لهم يستبقونها لأنها وهمة إنجاب لنتاج جديد ويكنى فعل واحد لإخصاب عشرات الإناث . فإن نتجت الساقية في بطن واحد ذكراً وأنثى فليس لهم لا يدهحونها ويغال : « وصلت الأنثى أخاه » حرمتها عليها .

وفي ريفنا المصري نجد الأطفال يتبنون أن يأتي وليد الجماموسة أو البقرة ذكراً حتى يأكلوا من لحمه وسقي يشربوا من لبن الجماموسة أو البقرة كما يهرون . فذلك أن الطفل

ينظر إلى مصلحته المباشرة ، كما الكفار بهم يمتنون دائماً أن يكون وليد البهيمة
أنى ، لأن الأئمة وعده لتناج جديد .

والد « حام » هو المحل الذى يُسمى ظهره من أن يُركب ، ويتركب ليطلق كما
يريد . وهو الذى لفتح عشرة أجيال من الإناث ، أو هو الذى تنبت من صلبه عشرة
أبطان . وكان من الصواب هذه العملية أن يعرفوا أن حفيد هذا المحل - ابن ابنه -
يمكنه أن يفتح

وكل هذه اسائل . ابهية ، والسائلة ، والوصيلة ، والحام ، هي من
اختراعات أهل الكفر الذين يفترون على الله ، فالحق سبحانه وتعالى خلق هذه
الأنعام ليستمتع الإنسان بأكلها وشرب لبنها وتسخيرها إلى ما يريده

ومعنى « يفتري الكذب » أى أنه يخلق كذباً ويدهبه ليطرأ به على صدق ليحفيه
فالكذب متر لحقيقة كانت قائمة . والحقيقة القائمة منذ أن خلق الله لخلق أن هذه
الأنعام جميعها مسخرة لخدمة الإنسان ، وأُتبع سبحانه آدم بمنهجه ، وكان من
المفروض أن يبلغ كل جيل الجيل الذى يليه ، لكن طول الزمن والعصاة هما السببان
وراء تسيان الناس لمضي الأحكام ، لذلك بعث الله الرسل ليذكروا الناس بالمنهج ،
وليريدوا الكفر عن معنى الناس ، فالكافرون أناس متروا منهج الله ، وستروا البلاغ
عن الله ، وهم بذلك يفترون الكذب على الله

ومثال ذلك قصة دخول الأصنام إلى الكعبة ، فقد سافر رجل اسمه عمرو بن لُحَيٍّ
إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنماً يقال له : « هبل » إلى مكة ،
وكان هو أول من أدخل الأصنام إلى مكة . وكما فعل عمرو بن لُحَيٍّ فعل غيره بوصح
قوانين وقواعد لم يأت بها الله . كالوصيلة والبهية والسائلة والحام . وكان ذلك الهرة
على منهج الله وتغيثاً لمنهج الحق . وعلى فرض أنه لا منهج قد وهبهم من الله ، ألم
يكن من ضرورة التمتع أن ينظروا إلى أمر هذه البدع والضلالات ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع العقل من أن يصل إلى حقيقة كونية سليمة .
ولكن قد يجهل العقل ويتعب بالتجربة الطويلة حتى يصل إلى حقيقة ما . لذلك أراد

سبحانه هلمة الناس من شقاء التجارب الفاسية فانزل منهجه ليحدد الحرام من الحلال . قال سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

(سورة التوبة)

ويقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

(سورة الفتح)

ولفائل أن يقول . ماذا إذن وجد في العالم أحيان أخرى كاليهودية والنصرانية ، ولماذا إذن هناك ملاحظة مادام الله قد قرر ألا يوجد مع الإسلام دين آخر ؟

ويقول : أنت لم تفهم مراد الابين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقرر مرة أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، ومعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين ، وأهل ديانات أخرى وسيظهر الإسلام عليهم ، ويجعله الله هو السائد بالحجة والبرهان وشهادة الكافرين والملحدين والفونيين أنفسهم ، لأن أمور الحياة ستتغير في كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المتاعب إلا بأن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هي التي ستخلصهم من مشكلاتهم ، ويخوؤهم إلى القضية تنفق مع الإسلام - مع كفرهم بالإسلام - هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دين المطرة ، ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه نهراً حياً . ومن لم يأخذه ديناً فسيسطر إلى أن يأخذه نظاماً .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذبل الآفة الكريمة التي نحن بصدد عواظنا الإيمانية عنها بقوله عز وجل . « وأكثرهم لا يعقلون » ، فلأنه سبحانه يهبنا إلى أنهم لو تعقلوا الأمر لما جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من المحرمات عليهم

ولنا أن نتساءل : أ جعلتم هذه الأشياء حراماً تكرهاً لها أم زهداً فيها ؟ فإن كان هو الزهد ، فمعنى ذلك أنهم أخرجهوها عما خلق الله ، لأن الله خلقها لتأكل لحمتها

ونضع بها . وإن كان هو الكريم ، فهل من التكريم أن يترك الإنسان الحيوان الذي خدمه دون حماية من ذئب ، ودون طعام يمد له ويتركه يلج في أرض الغير ؟ . إن هذا أسلوب يدل على عدم الولاء للحيوان الذي خدم الإنسان ، ومثل هذا السلوك لا يستبقى حياة هذا الحيوان ، بل يعرضها للخطر ، لهذا يأبى العقل السوي هذا الزهد وذلك التكريم . فإن كان عمرو بن لُحَيٍّ أو غيره قد جمعوا بأشياء وتقاليد لم يجعلها الله ، فعلينا أن نشكر الحق سبحانه لأنه جاء بالإسلام ليعدل من هذه المسائل .

والمدقق للنظر في آيات القرآن يجد ما يمثل برنامجاً مطمئناً لحياة الإنسان على الأرض ، وكأنها حسب إلى ضبط إيقاع حركة الإنسان في الأرض بدقة تطرق بكل المقاييس على دقة أي حسب إلى من صنع البشر ، ذلك المسمى «كمبيوتر» . إن هناك «كمبيوتر» إلهياً يهدي الإنسان من أن يضل أو يضل ، فالسبب تعدل للإنسان سلوكه إن ذهب بعيداً عن الصراط المستقيم . ولا يقولن إنسان : إنما أنا أتبع ما كان عليه آبائي . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى
الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ
كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

بل حل الإنسان إن يلتفت إلى أن أول تغير لمنهج الله كان من أحد الآباء الذين أصابهم الغفلة وقول الإنسان : إنما أتبع ما كان عليه آبائي ، هو قضية متفوضة ، لأن الذي غير أول تغير لم يقل : (حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا) لأنه لم يقلد أباً له ، وأيضاً فمن المحتمل أن الآباء لم يعلموا ما غيروا من منهج الله ولم يهتدوا إلى الحق

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَرْسَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا الْفِيسَاعِيُّ عَلَيْهِ آيَاتُهَا أَوَلَوْ كَانَ
 آيَاتُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧٠)

(سورة البقرة)

إن الآية التي نحن بصدد حواطرها الإيمانية عنها : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا) لم يقل
 الله فيها اتبعوا ولكن قال : (تعالوا) أي ارتفعوا كأنهم انحطوا وتسفحوا بفولهم
 (حسبتنا ما وجدنا عليه آياتنا) إنهم بذلك يرفضون ويكفرون كل ما يأتي إليهم من
 غير طريق تقليد الآباء ، فقد قصروا الطريق وسدوه على أنفسهم

أما آية سورة البقرة : (بل نتبع ما آتينا عليه آباءنا) فيحصل أن يقولوا : ونتبع
 كذلك ما جاء به الدين ، والكبير أشد على من قال : (حسبتنا ما وجدنا عليه
 آياتنا) .

وعلى هذا فالاستدراك من الله في كل آية من الآيتين جاء مناسباً لحالهم كيف
 ذلك ؟ لأن الذي لا يعقل يمكن أن يعلم عن طريق شخص آخر استخرج واستط
 واكتشف ، فإنه إن فاته التعقل لم يفقه أن يأخذ العلم من غيره ، أما الذي لا يعلم
 فقد باء ورجع بالجهل ، لأنه لم يصل إلى العلم بنفسه ، وكذلك لم يتعلم من غيره .
 وجاء - سبحانه وتعالى - بهيمة الإنكار لمسألة اتباع الآباء دون منهج الله ، وتلحظ
 أن الحق جاء بعملية الهداية تكلم مشرك في الآيتين ، ذلك أن الهداية من السماء ، أما
 التعقل والعلم فهما عملتان إنسانيتان

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ
 مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

فَيَسِّرْ لَكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

ولحق سبحانه قد قال من قبل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَرْسَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قُلُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

﴿ يَهَادِنَا ﴾

(من الآية ١٠١ سورة المائدة)

والقولان يدلان على أن هناك فريقين فريقاً يسير على الضلال ، وفريقاً يسير على الهداية . وهناك معركة بين الفريقين . فهل تقوم هذه المعركة طويلاً ؟ نعم ستظل هذه المعركة طويلاً ، لأن أهل الضلال لا يحبون أن يحب المؤمن لأخيه ما يجب لنفسه ، وكذلك فهم يسيرون من فساد الكون .

والمؤمن يجب الطاعة ومحاوّل أن يجعل أخاه المؤمن محباً للطاعة ، فإن رآه على مُكر فإنه يشاء عنه ويدفعه إلى المعروف ، فالخير حين يكون من الإنسان ينفع سواء ، وقد يتأجل نفعه هو لنفسه إلى الآخرة . وخير المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال وصديق المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال . وزراعة المؤمن يستفيد منها المجتمع ، وتضر أهل الضلال . أما إن كان المجتمع فاسداً فالمؤمن يشقى بفساد هذا المجتمع .

إذن فمن مصلحة المؤمن أن يمدى الخير منه إلى سواء ، حتى ينتشر الخير ويعود الخير إلى المؤمن من حركة الخير في المجتمع ولذلك قال الحق سبحانه « عليكم أنفسكم » أي الزموا أنفسكم ، وكان نفوس المؤمنين وحدة واحدة . وهو تمبير عن ضرورة شيوع الرتبة الإيمانية المسداة . ومثل هذا الأمر جاء في التعامل مع أموال السفهاء ، لقد قال الحق .

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ

(من الآية ٥ سورة النساء)

لأن السفهاء لا حق لهم في إدارة ماله حتى يرشد ، لأن المال في أواقع هو مال كل المسلمين ، وعليهم إدارته لينتفع به كل المسلمين وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح ،

فإن لم يرتدع السفيه فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حجير ، ذلك لأن أى شر يتبع من سلوك أسفيه بماله إنما يعود على المجتمع ، وهل هذا طائلاً يقتل مال الناس يقومون على إدارته إلى أن يعود لسفيه إلى رشده فيعود له حق التصرف فى ماله

﴿ فَأَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة التوبة)

لم يقل الحق إذن : « فادفعوا إليهم أموالكم » ذلك أن الرشيد أصبح مأموناً على ماله ، لذلك يعود المال إلى السفيه من فور عودته إلى الرشد . وكذلك قول الحق : « عليكم أنفسكم » أى أنكم يا جماعة المؤمنين كل منكم مسئول عن نفسه وعن بقية النفوس المؤمنة ، ومن هداية أن تقوم الذى على فساد . ولا يقولن مؤمن : « وأنا مالى » . وتتابع الآية : « لا يضركم من خسر إذا هتديتم » فهاهنا قد حاولتم تقويم الفساد لأنتم قد أدبتم ما عليكم فى صوة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيعان » (١) .

ولكن كيف يكون التعبير بالقلب ؟ أى أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على مبعج الله ، فإن قاطع كل المزمين أى خارج على مبعج الله فلا بد أن يرتدع ، وعلى المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو منحرفاً بترحيب أو تعظيم ، فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكى الظاهرى مطبقاً لما فى القلب ، فبحس فاعل المنكر أنه مستهجن من غيره . وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم من يوافقهم بمجاهلات فى غير عملها ، لكن لو استشعر فاعل المنكر أنه مقاطع من جماعة المسلمين وإن لم تضره على يده ، فلا بد أن يرتدع ، واستحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُصُّونَ مِنْ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

أى أيت ساعة تعرض عن الذين يخالفون مبعج الله ، وساعة تعرض عن غيرك عنه ، فإن ذلك يؤذيه ، ولا يجعل الناس يستشرون فى الشر ويتعالم ويظم صرهم إلا

احترام المجتمع لهم . والمثال في القرى نجد أن الذي يمتلك بندقية ينال احتراماً ومجاملات تجعله يتجبر بسلاحه ، ولو أن الناس أهرقت عنه لصاغت هيئته ولعاد مرة أخرى بسلك السلوك الملتزم . وما المقاييس في أمر التخيير بالقلب ومعاملة فاحل الفكر بعلم مودة ورحمة ؟

نقول : علينا أن نستمع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل مرة عن هذه الآية : « عليكم أنفسكم » ، فقال : « بل اتعزوا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك - بخاصة نفسك - ودع عنك العولم فإن من ورائكم أبناء الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم » (١) .

وأنت حين لا تؤلى معرفاً عن منبع الله مودة ، ورحمة ، ومعروفاً تكون قد الرمت نفسك بالإيجابية

وإذا سأل المؤمن : وكيف يقوم الإنسان ؟ أجاب العلماء : من فر من اثنين ، فقد فر . ومن فر من ثلاثة لم يفر . أي أن الإنسان في القتال إن واجهه شخصان فقراره حرب من المواجهة . وأما إن فر الإنسان وهو يواجه ثلاثة من الأعداء ، فهذه هاية للنفس وليست قراراً . واستبط العلماء هذا الحكم من وعد الله بنصر المؤمنين إن كان أعداؤهم مثلهم أي كعددهم مرتين وذلك من قول الحق تعالى :

﴿ اَلَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَمِيَ أَنَّ فَيْكُمْ مَحْعُومًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْ نَجَافٍ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال)

هي إذن نسبة الرجل إلى الرجلين ، فإن فر مؤمن من أمام اثنين في أثناء القتال فقد خرج عن موهود الله بالنصر له ويسمى قراراً ويوم ويرجع بغضب الله ويكون ماله جهنم ؛ لأن الله قد قال . (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) فقد وعد الله المقاتل المؤمن الصابر بالنصر إذا كان يقابل اثنين من الكفار . لكن إن حرب

من مواجهة ثلاثة فقد فعل ما يحسن حياته ، لأن الدين لا يدعو إلى الانحجار ، لذلك نقول لمن يعمون تعيير المكبرات في الدنيا : لا ترموا بأنفسكم إلى التهكة ولا تقتلوا عذراً يعلكم بكثرته . واتبعوا قول النبي الصادق الأمين على استمرار أمته مادامت تمسك بمنهج الله .

وتعير المنكر بالعلب ينمثل - كما قلنا - في مقاطعة المنحرف مصداقاً لقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم » وبلاحظ أن « على » حرف جر ، والكاف للمحط ، والميم للجمع ، و « أنفسكم » منصوبة بـ « عليكم » هي « اسم فعل » أي هي بـ « نسيب » اسماً على حقيقته وليست « نسيب » هي حقيقته ، بل هي حرف دخل على ضمير قلدي يؤدي اسم الفعل ، أو هو اسم فعل مفعول من الجار والمجرور .

« عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم » أي الزموم ، وحامو عليها ، ومن الهداية أن معرف كيف يواجه القضايا بالعقيدة للإيمانية ، فيطرؤ المؤس إلى الكمية العددية للمعتدين ، والكمية العددية للضالين ، وإن كانت الكمية العددية مساوية فلتفضل على المواجهة . وإن كانت الكمية الضالة ضعف الكمية المؤمنة فلتقبل الكمية المؤمنة على المواجهة أيضاً . وإن كانت الكمية الضالة أكثر من الضعف فليؤمن معتدي إن هي نفسه بعدم ابوجهة ، وبكى عليه أن يقاطع كل منكر أو فاحل المنكر .

كلنا نعرف تماماً أن كل مرد يجب أن تكون له مكانة في المجتمع فإن رأى الإنسان أن الصبوت والمكانة والذكر الحسن للصادق المستقيم فالإسناد يتجه إلى أن يكون صادقاً مستقيماً وإن رأى العرود أن المكانة في المجتمع تكون للكاذب المنحرف فهو يتجه إلى أن يكون كاذباً منحرفاً ، لذلك فعن المؤس ألا يكرهوا إلا من يسير على المنهج الصالح . فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم) وإنكم تضعونها على من موصيها ، وإن سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروا به يوشك الله - عز وجل - أن يعذبهم بعقابه) .

« لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً » وطمئن الحق للمؤمنين إلى أنهم إن قابلوا الضرر في حياتهم فليعلموا أن هذه الحياة ليست عن كل شيء ، بل هلاك حياة أخرى ترجع فيها إلى الله ، فمن كان في جانب الله أعطاه الله مخلوداً أبدياً في النعيم ، ومن كان ضد منحه الله أعطاه الله عذاب الجحيم . وقال الحق ذلك لأن المؤمن لا يضمن نفسه في كثير من المواقف ، فقد يدخل معركة وفي نيته الإخلاص لكنه قد يتحرف ، فيصيب الضرر هل قدر ما نتعرف .

وعلى الذين يسرون في ضوء منحه الله دائماً أن يحفظوا بتلك القضية في بؤرة شعورهم . ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة حينما كان في غزوة أحد ، وأمر الرماة ألا يبرحوا أماكنهم وإن رأوا المؤمنين في انتصار ورأوا الأعداء في هزيمة . واتجه الرماة إلى الخائبات من نور أن رأوا انتصار المؤمنين ، علم ينتصرهم الله وهم عن مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك تعلم المؤمنون الفرس : أن يطيعوا الله والرسول في كل خطوة .

ولما أن الله سبحانه لم يقل : « إلى الله مرجعكم جميعاً فيستحكم بما كنتم تعملون » . لماذا يكون موقف الذين لم يشهدوا بصرًا لحمد الله ، وهم قد دخلوا المعارك الأولى واستشهدوا ؟ لقد علموا من البداية أن المرجع إلى الله وأنه سيُعطيهم حياة أخرى ، وسينصهم الله بما فعلوا . والإيمان هنا بمعنى الجراء والتكريم .

وكما ساس الحق حياة المؤمن وهو يتحرك في الحياة الدنيا ، فإنه سبحانه يسوس حياة المؤمن بما يضمن له الحياة الآخرة في معيم الخلد والجنة ، لذلك يقول الحق سبحانه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشْنَانٍ دَوًّا عَدَلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ

فَأَصْبَحَتْكُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْيِسُونَ هُمَا مِنْ بَعْدِ
الْفَلَاحِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آرْتِقَهُمَا لَاشْتَرَى بِهِمَا
ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا تَنْكُرُهُمْ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ إِذَا
لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٦﴾

الحق - سبحانه - كما سلس ودبر حياة المؤمن الدنيوية ، دبر ونوى - جعل شأنه -
حياته الآخروية ليلفت إلى أنه يجب عليه ألا ينظر إلى حياته العاجلة فقط ولكن عليه
أن يدبر أمر نفسه في مستقبله من أمر الحياة الآخرة ، ففي لحظة مواجهة الموت عليه
ألا ينسى الوصية إن كان مديناً لأحد أو كان له دين عند أحد - وكذلك إن سافر
الإنسان ضرباً في الأرض فعليه أن يوصي حق لا يصح على ورثته حقاً لهم ، أو يسدد
ما عليه من دين ليرى دمه ، وأن يشهد على وصيته اثنين من المسلمين ، أما إذا
كان الإنسان بصاحب في لصر أماساً غير مسلمين فعليه أيضاً أن يشهدهم على
الوصية ، ولم يترك الحق لنا في هذا الأمر أي عذر ، بل لا بد من شهادة اثنين .
والشهادة هي الأمر بالشهود في الخاصر ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ قَسْ شَهِدَ مِمْكَرُ الشَّهْرِ فَلْيَصْنَعْهُ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة البقرة)

أي أن الإنسان إذا حصر الشهر وأدركه فليصم . والشهادة ثلث بمعنى الرؤية مثال
ذلك قوله تعالى ،

﴿ أَرْبَابُهُ وَالرَّزْقُ فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ حَلَّةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

(سورة البور)

أي أن يحصر مشهد الجلد جماعة من المؤمنين . وثالث الشهادة أيضاً بمعنى الحكم :

﴿ قَالَ هِيَ رَوْدَتِي مَنْ نَصَبِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ لَبِصُهُمْ نَدَمٌ مِنْ قُبُلٍ نَصَبَتْ

وَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ كَانَ لِقَبِيعُهُ قَدْ مِنْ دُورٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧١﴾

(سورة يوسف)

إذن فالشهادة تأتي بمكانٍ متعددة . والأصل فيها المشهد ، أى الشيء الذى تشاهده . والوصية - كما تعلم - هى إعطاء بأمر هم الموصى بالنسبة للموصى إليه والمؤمن يوصى بالخير . ويسمعه من لا يرث ، أى الذى ليس له شرعاً نصيب فى التركة ، لكن قد يكون لخير الوارث سبب من أسباب المنفعة مع المورث . وعلى الرغم من ذلك فالسابع للوصية يرى فتمه فيلج ما سمع إلى الورثة ، لأن الوصية هى مسألة فى نفس الموصى ، وقد لا يكون لها حيثة عند من يسمعها أو يتلقاها ولكنها دلت حيثة فى نفس الذى يقولها ، لذلك يجعل الله الوصية قبل الدين فى قوله الحق .

﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يَوْسَىٰ رَجَا تَوَدَّعَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة المائدة)

إن ذلك يحدث على الرغم من أن الدين مقدم على الوصية ، لأن الدين حق والوصية تبرع . ويريد الحق ذلك ، لأن الدين له مطالب سيطلب به ، ولكن الموصى إليه قد لا يكون صاحب حق ولكنه يتلقى ثبراً بالوصية ، أو يكون حقه لدى الموصى غير موثق بصك أو شهادة ، لذلك يقدمه الحق سبحانه وتعالى ليجعلنا مهتم بأمر الوصية . أو يكون الذى وصى بشيء قد عاش فى الحياة ويعلم من من الناس أثر فى حياته علمياً أو أدبياً أو حلقياً أو اجتماعياً ، لذلك يريد الله سبحانه وتعالى ألا يبارح الإنسان الحياة إلا بعد أن يؤدى المؤمن هذا الحق الأسمى لمن كان له عليه يد فى دياه . وهذه مسألة قد لا تشغل الورثة ، بل قد يكرهونها . لكن صاحب الوصية هو الذى يعلم حيثياتها .

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد أمر الوصية حتى فى الوقت الذى يعز فيه التأكيد ، فأمر الإنسان أن يوصى بها إن كان بين أهله وهومه ، ويؤكد الحق أهمية الوصية أيضاً إن كان الإنسان مسافراً ، فإن أحس باقتراب الموت فله أن ينادى اثنين من أهل دينه ويوصيهما . وإن لم يجد أحداً من أهل دينه فليتبع وصيته اثنين من غير أهل دينه ، ولذلك مناسبة :

فقد حدث أن رجلاً مسلماً اسمه بدليل بن أبي مريم مولى العاص من رائل السهمي ، كان على سفر مع غير مسلمين وحضرت له مقدمات الموت فكتب ورقة ووضعها مع كل ما معه من متاع - احتياطياً - ونادى عن اثنين من غير المسلمين وهما تميم الداري وعدي بن بذاء ، وأوصاهما أن يسلبا متاعه لأهله ، ومات الرجل . لكنّ الاثنين فتحا المتاع ووجدوا فيه إناء مفضضاً ومذهباً وله قيمة ، فأخذاه وباعاه بألف درهم واقتسما مبلغ ، وسلبا المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل العاصيل بما فيها خبر الإباء الشيب . وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلبا المتاع عن الإباء فأكرا أي معرفة به ، وأكرا أيضاً رأيا صاحب الإباء ببيعة وبعد فترة عثر أهل الميت على الإباء معروصاً للبيع وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإباء . فذهب أهل الميت إلى رسول الله يعرضون عليه مسألة خيانة الأمانة في أمر الوصية ، فنزل قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِنَّا نَحْضَرُ أَعْدَكُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْوَصِيَّةَ إِنَّمَا إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَلَى الْوَصِيَّةِ أَوْ إِذَا حَرَّانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ حَضَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصْبُةً أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْوَصِيَّةَ قِيْلَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَأَيْتُمْ لَا تَشْفَى بِهِ تَحْصَا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكُفُّ عَنْهُ إِنَّ إِذَا نَسِيَ الْآيَاتِ ﴾

(سورة المائدة)

إله أمر من الله لرسوله أن يحضر هذان الاثنان من بعد أن يؤدبا صلوات دينهم وأن يقسما بالله ، وأن يأتى أهل الميت ومعهم الورقة وليكشف الرسوم الحق من الساحل وقد أسلم تميم الداري من بعد ذلك وقص القصص وأحضر الخمسة درهم التي كانت في ذمته وإلى أحدها ثلثا لصف الإباء وأحضر الخمسة درهم الأخرى التي عند عدي ليردا ثلث الإباء كله إلى أهل الميت .

ولماذا قال الله . « محسوبة من بعد الصلاة » ؟ إنه أمر بأن يحتجهم من بعد الصلاة ؛ لأن الإنسان عادة بعد أن يؤدى الصلاة سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم تصمو نفسه بالاستعداد للمصالح بعد أن وقف بين يدي الله ، ويكون في هذه الحالة أقل اجترأ على الكذب ؛ لذلك يقول الحق سبحانه « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

شهادة بيبكم ، أي لشهادة التي يختلف فيها الناس ويختلف فيها الأعرال بين طرفين ، ذلك أن كلمة « بين » تعني انفصال كائنين فيصير كل منهما طرفاً

إن هذه الشهادة تحتاج إلى المصل بين وجهتي النظر والذي يقوم بهذا لفصل هو من مستجرب الاثنين النديين من ذوي العدل من المسلمين أو من غير المسلمين ، ويتم الاستجواب من بعد أداء الصلاة . وقد صار الأمر لدى شهداء فيه واضحاً ، كان بها وإن لم يكن قولها واضح الصدق وبه شك وريبة ، فعلى الشاهدين أن يقسما بالله أنها لا يشتريان بآيات الله ثمناً حتى لا يكونا من الآثمين

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ عُرِضَ عَنْهُمَا اسْحَقَ إِتْمَاعًا فَلَخَرَانِ يَقُومَانِ
مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايَيْنِ
فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا
أَعْتَدِيْنَا إِنَّا إِذَا لَعِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٧)

إن ظهر أن الشاهدين قد حرفا وصية الميت أو أحميا بالكذب بعضاً من تفاصيلها ، هنا أن نستدعي اثنين من أقرب الناس للميت فيقسمان بالله أن شاهدين السابقين قد كذبا في الشهادة ، وأن هذا الاعتراف بالكذب ليس اغترافاً ولكنه قائم على الحقيقة ، ولو ظهر أن شاهديهما فيها كذب فهما المستحقان لعقاب من يظلم غيره

وبذلك يفسح الحق لنا المجال أمام إقامة العدل بأن يستقصي الصدق ، فإن ظهر لنا بدليل ما كذب الشاهدين اللذين حرفوا موت صاحب الوصية ، فغنايت شاهدين

من أولياء الميت بدلا منها . وكلمة « عثر » تعني الوقوع على شيء على غير قصد .
 فإن عرفنا أن الإثم ظاهر من شهادة عديمي الشهادة ، فلما أن نستقصي الصدق في
 شهادة اثنين غيرهما من أهل الميت .

في الواقعة التي نزلت فيها الآية ، قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة
 السهمي فاقسما بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا وأن الشهادة التي يقدمانها هي
 شهادة الحق لا اعتداء ولا جور فيها على أصحاب الشهادة الأولى . ولماذا كل ذلك ؟
 لأن الهدف هو أن تأتي الشهادة على الوجه الصحيح لها ، فيقول الحق .

﴿ ذَٰلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا
 أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ ۖ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۚ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٨﴾ ۝﴾

إن الشهود الأول الذين قدموا الشهادة لأهم حصروا لحظة الوصية عندما قاما
 لميت يقدمون شهادتهم بعد أن يؤدوا الصلاة وبعد أن يقسموا أن ما يقولونه هو
 الحق . ولا بد لهم أن يحرصوا على صدق الفؤاد بدلا من أن يقتصر أمر كذبهم .
 والشهادة كما نعرف تطلق على أي أمر محصور . والشهادة - كما نعلم - تطلق عن
 متلازمات متعددة يجمعها كلها كلمة « انحصور » كقولنا الحق .

﴿ وَادِّ فِي السَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوبَةَ يَا عَلَا وَعَلَىٰ كُلِّ صَاحِرٍ بِأَيِّ مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٦٩﴾ لِّيَشْهَدُوا
 مَنَعَهُمْ ۝﴾

(الآية ٢٧ وجاء من الآية ٢٨ سورة الحج)

أي أن يداه الحج يسمعه الساس فيأبون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل وقد
 تكون صعبه حتى يشهدوا منافع لهم وسببانه ومعالي يقول .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

وشهادة الله هي حكم من الله . والملائكة أيضاً تشهد ، وشهادتهم هي شهادة الإقرار . وكل ذلك بشيء من أمر حاصر يستقرنه الشاهد . ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة ، فتسأله النيابة فيقول ما رأى ، ويسأله محامي الخصم فيقول ما رأى ، ويسأله محامي المدعى فيقول ما رأى . ومادام الشاهد صادقا قلن يتحقق عبادة أي طرف يسأله . والأطراف التي تسأل الشاهد تطالب منه أن يأتي بالواقعة على أساليب مختلفة . ومادام الواقعة صادقة تظل كما هي عليها توعدت الأسئلة وتغربت الأساليب ، لأن الشاهد الصادق يستوحى واقعاً لا يتمير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلف ويدور ويغير من أقواله . ولهذا نرى وكيل النيابة السبق الحاذق يبحث في ذاكرة الشاهد من أدق الخفايا .

وهكذا نعرف أن الشهادة تطلق على الحضور . أما إذا كان الشاهد هو لدى يملك الحكم فشهادته حكم . ومثال ذلك قول الحق سبحانه : « شهد الله » إن الله يشهد أي يحكم .

وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام نرى كيف أوقع الحق بإخوة يوسف عندما أدخلوا أخا يوسف الصغير معهم في الرحلة إلى مصر . وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أحدهم معه . وكيف كان لصراع بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجر الأخ الصغير . فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ قُولُوا يٰأَبَاءَنَا إِنَّا بَنُوكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَاهُ وَمَا كُنَّا بِغَائِبٍ

حَاضِرِينَ ۖ وَالْقُرَىٰ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَلَعَبْرَ اثْنِي أَقْبَسْنَا بِهَا وَإِن لَّصَادِقُونَ ﴿٨١﴾

(سورة يوسف)

ونعرف أن إخوة يوسف كذبوا في المرة الأولى عندما فعلوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف لكنهم صدقوا في المرة الثانية التي احتجروا فيها شقيق يوسف . ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم إما أهل القرية التي كانوا بها وإما رفاقهم في القافلة .

لقد أُخبروا أن أحاسهم قد استخرج من وعائه بعض من أدوية الملث وهو الصواع
الذي كان يكال به ولهذا جاءت شهادتهم هذه المرة مطابقة للواقع ، وهو ما أُخبروا
به .

إذن فالشهادة هي الميصل في النزاع . ولذلك يوصي النبي صلى الله عليه وسلم
الأي شاهد الرجل على أمرٍ إلا بعد أن يكون قد رآه رأى العين ، كما يرى الشمس
د على مثلها فاشهد أو يدع^(١) .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود . وهذا تأن الشهادة
في لوازم متعددة ، فهي مرة تعني الحضور ، وهي مرة تأتي بمعنى الحكم ، وثالثة بمعنى
الإقرار . وكلها معاني ملتزمة .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ،
والثاني هو أمانة النقل ، ولذلك جعل الله في بعض الأحكام شهادة اثنين من النساء
تعادل شهادة رجل واحد وقد يقول قائل كيف يساوي الإسلام بين شهادة رجل
جاهل أو أمي وشهادة امرأتين قد تكون كل منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم ؟

ونقول : إن المسألة في الشهادة ليس عمل عقل ، ولكن أمانة نقل ، وأمانة
النقل لا شأن لها بالثقافة ، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة ، ثم إن المرأة يكون
دائماً أمراً مسياً على السر وعدم التهاجم على الرجال فقد تقع حادثة وتوجد امرأة
بجانب هذه الحادثة ، وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسال لمعرفة كل
التفاصيل ، على العكس من الرجل الذي يرى الحادثة ، فيحاول أن يعرف كل

(١) رواه البخاري والترمذي عن ابن عمر ، قال النجم أبو ذر الرضائي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن
الشهادة فقال لئلا تفرى الشمس ؟ قال نعم . قال : على مثلها فاشهد أو يدع . وقال البخاري والبيهقي عن
ابن عباس - مرفوعاً - : إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا يدع .

ما جرى . ونحن نريد الحق الشهادة من امرأتين ، لم يطلب ذلك لصعف الثقة في المرأة أو زيادة الثقة في الرجل ، ولكن لأن الشهادة ليست ابتكار عقل ولكنها حضور مشهود وأمانة نقل .

إن البعض يحاول أن يروج لكل هذه الفصايا وكأنها وسيلة للتصالح على بعض من الداعين لله ، ولذلك أقول لهم : يجب أن يفهم الإنسان منكم البارق بين عداوته مع بعض الداعين إلى الله وأن يتمدي حدوده إلى أن يجلد الله ، لأن الإنسان منهم لا يرد الحكم على لداعية ، وإنما يرد الحكم على الله .

وأمر الحق سبحانه في شهادة اثنين من الرجال أن يؤدي الصلاة ، ثم يتم حبسها لفترة ، وبعد ذلك يتم استدعاؤهما للشهادة ، فإن رد أهل الميت شهادتهما في أمر الرعية هتم استدعاه اثنين من أولياء الميت لأداء الشهادة في شأن الوصية ، كل ذلك لماذا ؟ من أجل أن تلقى الشهادة على وجهها الصحيح الذي يظهر كل الحقيقة .

ويديل الحق القول الكريم : « واتقوا الله واسمعوا لله ولا يهدي القوم العاصين » وذلك بلاغ للمؤمنين كافة وإلى الناس عامة ، لأن الله لا يهدي إلا من خطئ إلى صريح الله ، أما من يستحق فلن يعينه الله ، ذلك أن الله لا يهدي كذراً ولا ظالماً ولا فاسقاً . أما من آمن بالله ، فالحق سبحانه وتعالى بعينه على هذا المنهج ويهديه إلى الصراط المستقيم .

ولماذا أنزل الله هذه الآيات بعد أن أجرى الأحداث التي تتطلبها ؟ نعرف أن الحكم إن نزل في ظرف يتطلبه ، تكون النفس إليه أشوق وبه أعلق ، مثال ذلك : كوب الماء الذي يتناوله العطشان ، إنه يتناوله بشوق ولهفة . عكس الإنسان الذي يتناول كوب الماء وهو غير عطشان ، فقد بصمه في مكان قريب منه دون أن يشربه ، وكذلك الثواء الذي يؤذي به للمريض لحظة معاناته القصوى من المرض ، إنه يقبل عليه بلهفة مهما كان مر الطعم ، وهكذا جاءت بعض أحكام القرآن مناسبة لأحداث وقعت لتكون اللمعة على التطبيق موجودة في النفوس المؤمنة

. ويقول الحق تعالى من بعد ذلك :

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِمَا أَنْتَ عَلَّمْنَا الْغُيُوبَ﴾ (١٠٩)

وسبغنا الحق سبحانه هنا إلى ضرورة أن سندد لليوم الذي يجمع الله فيه الرسل يوم الحساب ، أي أننا علينا أن نواعي الالتزام في تكاليف المكلف الأعلى في كل عمل من أعمال الحياة ، لأنه سبحانه سوف يسأل الرسل في ذلك اليوم . « ماذا أجبتكم ؟ » أي كيف استجاب الناس إلى المنهج الذي دعوتهم إليه ؟ وفي هذا تفريع لمن خالف الرسل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَكَفَى إِذَا جَاءَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (سورة الساء)

ونعلم - كذلك - أن يوم الشهيد الأعظم سيأتى رسولا - صلى الله عليه وسلم - شهيدا على أمة وعمل كل الرسل السابقين عليه ، ومثال ذلك في حياتنا - والله المثل الأعلى - تجد الأهل ينتظرون الابن على باب لجنة الامتحان ويسألونه : كيف أجبت ؟ .

إن الأهل يطلبون من الابن أن يعطيهم تقدير الموقف إجمالياً . أما إن سألوه لماذا أجبت ؟ فمعنى هذا أنهم يطلبون منه أن يحكى لهم ماذا أجاب تفصيلياً عن كل سؤال . وسؤال الحق لرسوله : « ماذا أجبتكم » في الظاهر هذا سؤال للرسل ، وفي الحق إنه للمحالين ، وكان هذا تفريع لمن لم يؤصوا برسالات الرسل ، ذلك أن مهمة الرسل هي البلاغ عن الله .

وعندنا يجب الرسل يومئذ عن الله ؟ هم يجيبون الإجابة الدقيقة المتضمنة لكل أدب الإيمان : « لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » ونجد من يتامل . كيف - إذن - يقولون : « لا علم لنا » على الرغم من أن هناك من استجاب لدعوتهم ومن لم يستجب لها ؟ ونقول : لأن الآخرة فيها حساب على موايا القلوب والسرائر ، لقد علم الرسل بالأمور العلية من أقوال وسلوك ، ولكن الحق يحاسب على حسب النية

والسلوك ، وهو سبحانه الأعلّم بالسرائر وما تخفى الضمائر ، وأيضاً فالأبدي قد علموا الذين آمنوا بالنتيج وكانوا معاصرين لهم ، ولكن ليس لهم علم من كفر أو آمن بعد أزمته ، وإجابة الرسل هي قمة الأدب مع الله ، ذلك لأن كلا منهم قد علم أن معرفة الله شاملة وعلمه قد وسمِع كل شيء ، ولذلك جاء قولهم : « إنك أنت علام الغيوب » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتُ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

لماذا إذن يجمع الله كل الرسل ويسألهم سؤالاً على الإجمال ، ثم لماذا يأتي بعيسى ابن مريم لسأله سؤالاً خاصاً عن حادثة مضمومة ؟

أراد الحق بذلك أن يعلمنا أنه سيأل الرسل سؤالاً يوضح لنا ألب الرسل مع الحق ، وبين لنا تقريخ الحق لمن كفروا بالمشيخ ، أما سؤاله سبحانه وتعالى لبعضى ابن مريم ، فذلك السؤال الخاص عن الحادثة المختصة ، فسرده ذلك إلى أن بعض الذين آمنوا به قد وصعوه فى موضع الألوهية أو بنوة الألوهية ، وفى ذلك تحد على التثنية لمطلق الحق سبحانه وتعالى . ونعلم أن قصارى ما صنعت الأمم بالسابقة أن بعضهم كمر بالرسول ، وبعضهم كذب الرسل ، لكن لم يدع أحد من هذه الأمم أن الرسل الذى جاء هو إله ، لم يقل ذلك أحد وإن كان بعض مرقى اليهود قد قالوا : إن عزيراً هو ابن الله وهذه العرفة قد انقرضت ولم يبق يورثى يقول ذلك ، وسبحانه قد جعل الشرك به ثمة الكفر الذى لا غفران له .

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

فكان عيسى عليه السلام سيرة السؤال لخص الرسل ، ثم يسأله الحق سؤالاً خاصاً به . ويقدم الحق السؤال لبعضى ابن مريم بعد أن ذكره بعدد من الأمم التى أنعم بها سبحانه وتعالى عليه وعلى أمه مريم عليها السلام .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّورَ وَإِذْ أَبْعَدُكَ وَالْأَحْمَقَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ أَخْرَجُكَ مِنَ الْمَوْتِ بِإِذْنِي وَإِذْ كَتَبْتُ نَحْيَ إِسْرَافِلَ عَنْكَ إِذْ رَفَعَهُمْ بِالسَّيِّئَةِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِذْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُ سَائِرِ الْبَشَرِ ﴾

(سورة المائدة)

ويجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى يعيد بعضاً من نعمه على سيدنا عيسى وهو التأيد بروح القدس وهو سيدنا حبيب عليه السلام ، والكلام فى المهدي يبرىء أم عيسى السيدة مريم عليها السلام مما اتصفوا بها من اتهامات ، ونعيم الحق له

الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من طين كصورة الطير يادن منه سبحانه وأن يتعج فيه قبضير طيراً يادن سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أن يرى الأعمى من العمى . وأن يعيد إلى الأرض لون جنده العظيم وشعبه ، وأجري على يديه لجرية إعادة الموتى إلى الحياة يادن منه سبحانه ، وكذلك مع الحق عن عيسى ابن مريم كيد اليهود وكف أيدي الذين أرادوا صلبه وقتله عن الرغم من أن جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فأمن بعض منهم وكفر الذي قال : عن تلك المعجزات : إنها مجرد سحر .

وعندما نتأمل بالخواطر أمراً واحداً من تلك الأمور نجد أن قدرة الحق سبحانه وتعالى لها تمام الوضوح الطاهر ، فمجرد كلام عيسى في المهد هو معجزة ، والمهد - كما نعلم - هو الفراش المريح للطفل يعمه له الأهل ساعة أن يولد : لأن الطفل لا قدرة له على أن يتخرج من مكانه إن كان هناك شيء يارر في مهده يضيقه : لأن الطفل يملك الحس ولكن لا قدرة له على مدافعة ما يتطلبه الحس .

إن الطفل لولود لا يستطيع مثلاً أن يد يده ليريل الحصوة المائنة من الأرض تحت المهد لذا يهدون فراشه ويوطنونه له . إنه مجرد روح في جسد صغير لا حول ولا قوة له إلا استبقاء الحياة بالعلق بشدي الأم ، فإن تكلم طفل في المهد ، فمعنى ذلك أنه امتلك إرادة يسيطر بها على كل جسمه إلى الدرجة التي يمكنه أن يطق بها الكلام ، وهذا لا يحدث أبداً . ونجد الأهل يهدون الفراش للطفل ، لأنهم يعلمون أن أقصى تعبير عن الانفعال هو أن يبكي . وإذا ما تمكنت حشرة صغيرة من لدغ الطفل كالبرصوت أو البعوضة فانطلق لا يملك إلا البكاء .

وقد تكلم عيسى في المهد بعد أن أقدره الحق على ذلك . ثم جاء الحق بحقيقة هي المقابيل للمهد وهي الكلام في الكهولة . فإن كان قد تكلم في المهد إصباحاً ليرى أمه البنول فإنه سوف يتكلم كهلاً مبدئاً عن الله . ولم يتكلم عيسى ابن مريم وهو في المهد إلا بما قاله الحق في القرآن الكريم

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ إِنِّي أَلْهِمْتُ نَبِيًّا ۖ وَجَعَلْنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلْنِي مَبَارَكًا ۖ إِنَّ مَآكُتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِرَبِّكَ ۖ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ ﴾

﴿ وَاللَّيْلُ عَلَى يَوْمٍ وَلَيْتٌ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٣٦)

(سورة مريم)

قال عيسى عليه السلام في المهد هذه الكلمات ليرى أمه الصديقة ، ذلك أنهم اهتموها في أمر شيء لديها ، ولذلك لم يكن ليجدى أى كلام منها . وإتقاداً ما أبلمها الحق من طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول .

﴿ إِنِّي تَذَرْتُ لِرُحْمَٰنٍ صَوِّمًا مَّا نَأْكُلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وبجانبه وتعالى يعلم أن ميلاد عيسى من أم لم يمسه رجل هو خرق للناموس الكون في الحمل ، وكذلك أراد الحق أن يكون هناك خرق للناموس في الكلام فيتكلم عيسى في المهد بكلام معجز له معنى . وعلمه الحق الكتاب : « وإذ علمت الكتاب » أى علمه الله الكتابة ، وعلمه التوراة ، وأنزل عليه الإنجيل ، وألممه الحكمة وهى الكلام المحكم الصواب بإلهامات الله ومقابلها في الإسلام أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وجاءت دقة الأداء القرآن لمنع أى تصور لتدخل من ذات عيسى فيها أجراء الله على يديه وذلك منعاً لبعثه فقال الحق : « وإذ تخلق من الطين كهية الطير » إذن فعيسى لا يخلق الطير ولكن يصنع من الطين مثل هية الطير ، فالحن وحده هو الذى يخلق الطير ، فلأنه الإله فهو الذى يخلق خلقاً عاماً ، أما البشر فبإمكانهم أن يخلقوا أشياء ويشكوها كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات .

إنما نرى ذلك في التماثيل التى ينحتها النمل من الصخر أو يشكلها من الطين كهية الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أن يمنح به الروح ، وقد يخترع الإنسان أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المقى ، لكنه لم يسمع عن خلق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الإثنين نسل من الأكواب !

إنما نرى دائماً أن خلق الإنسان شيء إنما يظل معقوداً على حاله فلا يسئل ولا يحمو ولا يحس ، والخالق الأعظم يخلق من عدم ، أما أنت أيها الإنسان فتصنع أشياء مما

وعمدك الله من أشياء موجودة مطمورة في الأرض أو ظاهرة ولم يقض سبحانه عليك بل أطلق عليك بأنك خلقت ، ولكن لتنبه إلى أنه سبحانه وتعالى أحسن الخالقين .

إذن فعمسى جميع من الطير مثل هيئة الطير ، وكان ذلك بلاد من الله ، وفتح فيه فكان طيرا بلاد الله. والمراق بين قدرة الخادث وهو العبد ، وقدرة الباقي القدير وهو الرب أمران . لأول : أن الحق سبحانه وتعالى حينها يقدر أمرا فهو يستطيعه بطلاقة قدرته أن يُعبد بعض من خلقه. على أن يفعل الشيء ، لكن العبد لا يستطيع أن يقدر عبداً آخر أن يصنع شيئا مثل الذي يصنع

والملكه على ذلك . مجد الطفل إن أراد أن يحمل كرسيًا فهو لا يقدر ، ويقا شاي
قوى ليحمل الكرسي للطفل ، هذا الشك إنما يعنى أثر قوته إلى الطفل ولم يُعَدِّ له
قوته ولم يثق بها ، ويبقى الطفل ضعيفًا كما هو ، أما الحق سبحانه وتعالى فهو يُقَدِّرُ
من يريد على ما يريد . فيعظمه سبحانه بعدى من قدرته إلى من لا يقدر ليُقدر
والعظمة إداد فيها فعل المسيح هي أن اخلق سبحانه أراد له أن يحيى قصح في الطفل
فصار طيرًا بإذن الله . وقد سبق سيدنا إبراهيم سيدنا عيسى في ذلك عندما سأل
الله .

﴿ رَبِّ ارْزُقْنِي كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾

(سورة البقرة ٢٦٠ سورة البقرة)

• قسالة الله

﴿ اَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فقال إبراهيم « بلى » لى انه آمن ، وأضاف :

﴿بَلَىٰ وَلَنَرَنَّكَ لِبَاسًا قَلْبِي﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

والكلام هنا جهته منفية ، فيبراهيم قد آمن ، والإيمان اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، وما جرى راد إبراهيم تيقنا ، ولم يسأل إبراهيم ربه ، أحمى المرق ولكن إبراهيم أقر أولاً بقدرة الحق على الإحياء وتساءل عن الكيفية . وطلب الكيفية لا شأن له

بالإيمان ؛ لأن الكيفية تتطلب تجربة . فأمره الحق أن يلقى ناربعة من الطير وخمسها إليه ليتعرف عليها جيداً . وأن يقطعها إبراهيم بيديه ويصنع كل قطعة على جبل ويتأديها ، فتأتى القطع ببناء إبراهيم وقد صارت هي الطير نفسها التي كانت من قبل .

وهكذا أراد الله لعيسى عليه السلام أن يصنع من الطين مثل هيئة الطير يودن الله وأن يفتح فيها بإذن الله لمصير الطين طيراً . وأراد الله لعيسى أن يبريء الأكمة أى الذى ولد أعمى . وقد يقول قائل . إن فى عصرنا يتم ترقيع القرية ويمكن أن يرى ويصير بعض من الذين ولدوا بلاء قدرة على الإبصار ويقول . إن ما يحدث فى عصرنا هو سبق وتقدم علم بناء على تجارب ، أما ما حدث مع عيسى فكان حرق للناموس وأراد الله معجزة . وكذلك أراد الله أن يجرى على عيسى شفاء الأبرص أى الذى أصابه بياض كالرقيق فى بشرته . وكذلك كف بنى إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذائه وقتله . وعندما رأوا كل ذلك آمن بعضهم ، وكفر البعض واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر . وكان ذلك منهم كذب واقتراء عليه ؛ لأنه نبي مرسل بمجهزات واضحة .

وفى هذه الآية التى نحن بصددها نرى أنها تجد الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على سيدنا عيسى عليه السلام وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيداً لأنها جرت عليه ، ولكنه تفريع لمن رأى هذه الأحداث وانعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، وقد أجرى سبحانه كل هذه النعم على عيسى عليه السلام وأبدى الله بما يقوى ويؤكد رسالتك إلى قومه . فكانت نعمه أولاً عليه ، لأنه مصطفى ، مختار ، مؤيد . ونلاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين . قسم يقع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواعيد النسيب وقسم يقع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله فى عوالمهم . والقسم الأول الذى يقع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة وانتورا والإنجيل .

والقسم الثنى الذى يقع الماديين هو الأمور المادية الحسية التى يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ، كان يخلق من الطين كهية الطير ثم ينمخ فيه

فيكون طيراً ، وإسماه المرق ، وإبراء الأكمه والأبرص . وهذه الآيات خرق للناموس المادي ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة : « يأنق » أي أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأنق بها الله . ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى لأنها أمر ظاهر ومعروف ، حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان عن محبوب عيسى ويرتفعون به إلى مقام أعلى من مقام النبوة المزيّنة عن أوسله . وحتى لا يندفع قوم عيسى في هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق الرسالة عن الله .

إن عيسى عليه السلام حينما أخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيراً ويضع فيها فتكون طيراً لم يفعل ذلك بقدرته وإرادته ، وإنما حدث ذلك يأنق من الله ، ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك كان إبراء الأكمه والأبرص وإسماه المرق يأنق الله ، وكل ذلك خرق للناموس المادي ، لذلك كرر الحق القول بأن هذا الحرق كان يأنق منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له بل انحصر الأمر في هذه المسائل التي أدن الله فيها فقط .

إننا نجد أن كل خرق للناموس الغيب عند الأنبياء أو الأولياء ، أو من يعطيهم الله هذه الإشرافية ، هذا الحرق إنما هو لتكريم النبي أو الولي أو الذي تشرق عليه فيوضات الله ، وعلينا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً واحداً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً ، إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه هبة من تهيئاته على شيء جزئي . فالحق سبحانه وتعالى هو مالك الغيب :

﴿ وَعِنْدَ مَنَاقِبِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الانعام)

ولم نر إنساناً علماً للغيب ولكن يُعَلِّمُهُ الله بغيب من بعض هبته ، حتى نعلم أنها أحداث وقتية يتجلى الله فيها بفضله ، ليثبت حالة من الحالات ، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام في كون الله . والناموس الكون هو الأمور والقوانين التي أطلقها الله في الكون لتعمل لخدمة المزمّن والكافر والطائع والمعاصي . ومثال ذلك شروق الشمس وغروبها ، وحركة السحاب حاملاً المطر ، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة . وخرق الناموس يكون يأنق من الله للرسول والأنبياء والأولياء ، إننا نجد

كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول في البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى في هذا المجال الذي تحدث فيه تلك المعجزة ، والمثال على ذلك : خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهي فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يبقيا فإذا هي حية تسمى وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرا ولكنه نقلها من جنس إلى جنس في عصر نبع فيه الناس في السحر ، ويعلم أن موسى أسى إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال .

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا فَاَهِشَّ بِهَا عَلَى عَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وعرف موسى من بعد مقام الأسى والانجذاب مقام الخشية فأوجر قائلا

﴿ وَلِيَّ فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَى ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاة فاطان الأسى ، به وعرف أيضا مرعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأسى إلى مقام الرهبة فقال : (ولي فيها مقارب أخرى)

وحاء الأمر بإنهاء العصا .

﴿ أَلَيْهَا يَلْمُوسْنَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة طه)

وهذا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ وأهش على لعم ، ولكنها تتنقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ذَا هِيَ حِيَّةٌ مُّسَمًّى ۝١٩ ﴾

(سورة طه)

ولذلك كان لا بد أن ندهش المسألة موسى عليه السلام ، لذلك لوجس خيفة . ولكن موسى عندما عرف سر عصاه لم يوجس خيفة بل تحدث السحرة الذين جاءهم فرعون في يوم الزينة ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أنه معجزة

شهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أن عملهم تحيل وليس تغييراً للأشياء ، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها . لقد جاء السحرة ليدعوا على أمر فرعون إلى يوم الرينة ، ويعلمنا القرآن طمسحات جانبية أن نظام السحرة كان موحوداً ، ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى

﴿ قَالُوا إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الاعراف)

وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء اسحرة ورقى كل منهم في فرع من فروع السحر ، إلا أنهم جميعاً سجدوا للحقيقة عندما التقى موسى عصاه وقولوا :

﴿ قَالُوا يَا رَبِّ الْعَلِيِّ ١٧ رَبِّ مُومِنٍ وَهَارُونَ ١٨ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ولكنه قدرة فوق قدرة البشر . إنها المعجزة التي يحريها الله على يد الرسل لإنسان صدقهم في إدعائهم أنهم رسل من الله . وكذلك مع قوم عيسى عليه السلام في الطب . ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفي بكنهه واحدة الأكمة والأبرص لو أن يجرح الميت من موته إلى الحياة . وعلى الرغم من تقدمهم في الطب لم يستطع أحدهم أن يعمل ديت . والحق سبحانه يسهل المعجرات على رسله ، ولذلك في الإسلام هو الإسراء برسولنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، وحدث الإسراء في لمح البصر ، ونحن في زماننا نرى التقدم الآلى والنفى قد اخترع الصواريخ التي يمكن أن تخمس الوقت مثل الرحلة من مكة إلى القدس ولكنها تفت بوساطة آلة تعمل وبأجهزة أعدت بنظام دقيق بعد تجارب مضية ، ولكن الحق عندما أراد أن يكون لأمر سوى حلقة مه نصير معجزة في الثور واللحطة . ولحمض ذلك جيداً . إن المعجزة حرق اقتدر لا سقى ابتكار أى أنها حرق لوميس الكون حدث من اقتدار المتندر . سبحانه . ولم يحدث ذلك من ابتكار واختراع واكتشاف مكشوف .

وَسَيُ سَبِّحَانَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذِكْرِ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ ، لَكُنْ الْكَافِرِينَ مِنْ قَوْمِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا إِنَّهَا سِحْرٌ . وقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين . ويعلم أن الحق خلق وحمل الإيمان وأمرأ مطرباً منهم ، ثم تأن العلة فتت جريئة من جريئات الإيمان ، وتتلوها عملة أخرى فتت جريئة أخرى ، وتأن عملة ثلاثة فتصير إلى الزان وهو ما يعطى القلب فلا تعد إليه الهداية ، وذلك بسبب

ما كسبوا وفعلوا من الذنوب : • كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ،

ولستم إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي رواه حذيفة

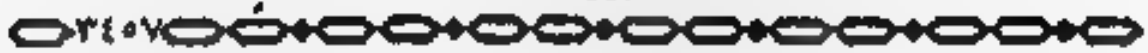
• حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتصر الآخر حدثنا أن الأمانة برلت في جذر قلوب الرجال ، ثم برل القرآن ففعلوا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : يام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت (أى الأثر اليسير من الشيء) ثم يعم النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الخجل (أى أثر الخجل في الكف) ثم يعم كخمرٍ دسجته على رجله فيعط فراءه متبراً (أى متورماً) وليس به شيء ، ثم أحد حصاة فدهرجها على رجله ، فيصبح الناس يتهايمون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أحلله ، ما أطرفه ، ما أعفله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أنيكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنه عليّ دية ، ولئن كان نصرانياً لو يهودياً ليردنه عليّ ساعية ، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا علاناً وفلاناً (١)

وهاهنا الحديث الثاني الذي حدثنا به حذيفة عن رفع الأمانة والفتنة قال حذيفة :

• كما عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر العن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعنكم تمسوا فتنة الرجل في أهله وجماعه قالوا • أجل • قال • تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر العن التي تموج موج البحر ؟ قال حذيفة • فأسكت القوم ، فقلت • أنا • قال • أنت لله أبوك • قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

• تعرض العن على القلوب كالخصير عوداً عوداً فأبى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأبى قلب أبكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل

(١) رواه البخاري في الرقاق والفتن ، ومسلم في الإيمان ، والترمذي في الفتن وابن ماجه في الفتن ، وأحمد



الصفا فلا تضره تنه مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباباً ، كالكوز مجعياً
- أى مقلوباً - لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه (١) .

قال حذيفة : وحدثت أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر .

قال عمر : « أَكْثَرُ أَلَامٍ لَكَ ، فَلَوْ أَنَّهُ فَتَحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ (٢) » .

هكذا كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة وضياع المناعة
الإيمانية من النفس البشرية . وأراد سبحانه للمصاعة الإيمانية أن تبقى في عباده ،
لذلك تدخل بالرسول حتى تتكون المناعة ويكبح المجمع جماع كل فرد . تحدثه نفسه
بفتنة

وعندما كان يتم الفساد في الأرض . نجد الحق يرسل الرسول ليعيد البريق إلى
النفس اللوامة ، ويحيى في المجتمع المقفرة على أن يتناسق السلوك فيه على صورة منهج
الله . ولذلك نجد أن المقاومة التي تحدث للرسول إنما تحدث من الذين يستمعون
بالفساد وبآثار الفساد . وحين يأتي منهج الهداية فهو يأخذ بأيدي المظلومين ويغضب
منه الظالمون الأقوياء الجبابرة ، ولذلك يهاجمون الرسول والمنهج القادم من الله ؛ لأن
هذا المنهج سيقطع عليهم سبل الفساد الذي يدر عليهم عاثداً هو في نظرهم كبير .

لقد رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة ، فمحمد صلى الله عليه وسلم جاء
بالمساواة بين كل البشر . لقد كانوا يعرفون أن مجرد العلق به لا إله إلا الله محمد
رسول الله ، يعني فقدانهم لسلطان إرهاب انتلس والقبائل . ولو كانت المسألة مجرد
كلمة تقال ، ويبقى الأمر على ما كان عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر
سياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد ، فكل الناس سواسية
لذلك تصدى صناديد قريش للدعوة الإسلام . وهكذا نجد أن كل رسول يأتي يبرز له
من يعاديه من أصحاب الفساد والجبابرة في الأرض ، مصداقاً لقول الحق سبحانه
وتعالى .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ مِصْرٍ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (١١٤)

(من الآية ١١٤ سورة الاحقاف)

والمثال على ذلك هو إرادة الحق في أن يجعل صيحة الإيمان في الجاهلية تأتي أولاً إلى أذن سادة العرب جميعاً وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد على التعرض بهم، لكن النصر لا يأتي لمحمد وهو في مكة حيث كانت مقام السيادة؛ لأن النصر لو حدث في أول الدعوة ومحمد صلى الله عليه وسلم يحيا بين قومه في مكة يقال قسائل: لقد حدث النصر من قوم العوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها، وأن قريشاً قد ساندت محمداً لاستيقاظ هذه السيادة وسطها على غيرهم، ولكنه - سبحانه - جعل مقام النصر يسع من المدينة المنورة.

إن الصرخة أولاً جاءت في أذن السادة ثم انتب حولها المستضعفون في الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، ثم هاجروا وفواهم الله من بعد ذلك على الأموراء إننا نجد كل داع إلى الله يأتي إنما يريد استقاء خير النبوات حتى لا يأتي الزان على القلوب، وإن استقاء هذا الخير يغضب من الجابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم. والداعية إلى الله الذي لا تجد له عدواً يعيبه بالسوء حظه من ميراث النبوة ضعيف، والداعية الذي له أعداء له من ميراث النبوة الشيء الكثير.

والكافرون يعيب عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام. قالوا: «إن هذا إلا سحر مبين» وهذا يعني أن معجرات عيسى عليه السلام قد أحبطتهم وأغضتهم وأحنفتهم وملأت مشاهيرهم بالخيبة. إنه قول من قوم يكرهون منهج الحق، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة يدعم بها الحق الداعي إليه؛ لأن ذلك يحفز ويدفعه إلى الدفاع عن دين الله، فمقدمة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التي يؤمن بها.

وهول الحق سبحانه وبغالي من بعد ذلك

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ١١

وكلمة الحواريين مأخوذة من المحسات . فالحواري نطلق على الدقيق النقي الخالص . وأطبقت على كل شيء نقي بصفاء خالص ، وه الحواري : هنا تعني المحقق والمحب لنهج الخير . وسبحانه يقول : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ : والوحي بمعناه العام هو الإعلام بصفاء : أي أن الحق أحقهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلغ عن الله ، أي أعلمهم بخواطر القلب التي أعلم بها أم موسى أن تلقى منها في اليم لينقيه اليم إلى الساحل ، وهو غير الوحي للرسول ، فالوحي إلى الرسول هو الوحي الشرعي بواسطة رسول مبلغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحي الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين فهو استقرار خاطر يمان يلتصق بعلمه الموحي إليه لمجد الواقع يؤيد ذلك . وعندما لا يصادم إلهام القلب أمراً واقعاً ولا يجد الإلهام ما يصادمه في نفس الإنسان ، فهذا نوع من الوحي ، أي هو إعلام بحقاء . فأمر بتويع الرجل مقدم صديق من سفر ، أو لوباً من الطعام يشتهي فيجده على المائدة

إذن فالإلهام وارد من الله لخلق الله مادام لا يصادم شيئاً في نفس أو في الواقع ؛ لأن الإلهام الذي يقابل صداماً ليس من الله . فالشياطين يوحى بعضهم إلى بعض بحرف القول غروراً

إن الله أوحى للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام . ومجرد مجيء عيسى وسماهم أنه رسول من الله أعلموا الإيمان به وصاروا من خلائه وساعة يرى . « إذ » فلمهم أن معانيها تذكر وقت الحدث الذي قال فيه الحواريون . نحن أما بعيسى نبياً من عند الله وأشهدوه أنهم مسلمون

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَحْيَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١٣٧

كان عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ، لانكم ما علمتم
أعلمتم الإيمان فانتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم
ما أعطاه الله لي من آيات لصدق رسالي . وعليكم أن تلتزموا أنفسكم بالمنهج الذي
أعلمتم أنكم مؤمنون به .

وقد توقف العلماء عند قولهم : « هل يستطيع ربك » وتساءل العلماء : كيف كان
هذا القول ، وخصوصاً أن معناه الظاهري : « أيقدر ربك ؟ » وكيف للحواريين أن
يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون ؟ وقال العلماء
أيضاً : إن من يتكلم في اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الالفاظ واستعمالات
الالفاظ ومسايق الالفاظ ، وكلمة « يستطيع » بمعنى « يطيق » كما قالوا . استجاب بمعنى
أجاب ، وكأن معنى سؤالهم : « يستجيب الله وينزل علينا مائدة من السماء ؟
« استطاع » تقابل : « استجاب » وسبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء ، وهو
الذي يطيقه كل شيء ، وهو الذي يصرخ لحكمه كل شيء ، والحق لا يطلب ، إنما
يأمر مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ١٣٨

(سورة يس)

الله سبحانه وتعالى لا يقول لشيء كن إلا ويعلم أنه يطيق ، ولا يأمره الحق أن
يطيق إلا ويكون استعداده الانفعالي أنه حين يسمع قول الله : « كن » فلازم أن
يكون ، والمثال على هذا هو قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأُدْخِلَ رَبُّهَا وَحُفَّتْ ② ﴾

(سورة الانفطار)

إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط . وساعة تسمع الأمر فهي تفعل ، ومعنى
تفعل أى تطيع . وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى . أو يكون معنى هل
يستطيع . هل يفعل . وذلك من باب التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ الاستطاعة
من أسباب إيجاد العمل . وقيل المراد : هل تستطيع سؤال ربك من غير صارف
ولا مانع يمنعك من سؤاله ؟ لقد قرأ الكسائي وغيره هل تستطيع ربك نصب كلمة
(ربك) وأصلها هل تستطيع سؤال ربك ، فحذف الفصاف (سؤال) وأقيم المضاف
إليه وهو كلمة رب مقامه فنصب . وقال الزمخشري ما وصفهم الله بالإيمان
والإحلاس ، وإنا حكى ادعاءهم . وقولهم : (هل يستطيع) كلام لا يتأتى مثله من
مؤمنين معظمين لربهم

وقال الحواريون ما جاء به القرآن الكريم .

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَمُنَ بِمَا نَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَذَلِكُمُ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي يَدَيْهِمْ سِتْرٌ ﴾

الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

وكأنهم أرادوا أن يشهدوا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن عندما سأل الله عن كيفية
إسماء الموتى ليؤمنن قبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عين
اليقين ، لذلك سألوا عن المائدة التي صارت بعد ذلك حقيقة واضحة .

وهكذا نعرف أن هناك فارقا بين أن يؤمن الإنسان بذاة ، وأن يشهد بالإيمان عند
غيره . فالذي يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق

وعبرنا الحق بما ناله عيسى عليه السلام . وهو يختلف عن قولهم في هذه المائدة -
قال سبحانه

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً
مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً
مِّنكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

وقوله الحق : « مائدة من السماء » إنما يعني أن هناك لله موائد منصوبة في الأرض . والكون كله مائدة فيها من الخير الكثير إن استطاع الإنسان أن يكده ويكدهج .

والإنسان ما عندما يكده ويكدهج ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى الحيوانات فإنه يأتي إلى روجه بمخزون قد يكفيهم كل سنة لمدة عام من دقيق ولور وعسل وسكر وزيت ، فتأخذ الزوجة طيراً فتدبجه وتطهره معه الخير والخضرروات .

إذن فالكون كله مائدة الله المنصوبة والتي يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله . وكلمة « مائدة » لا تطلق إلا على الحيوان وعليه طعام . أما إن كانت بغير طعام فتطلق عليها « خروناً » ، لأن « المائدة » مأخوذة من مائة « الميم والألف والذال » والمائدة تمود أي تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء . أو هي تعطى بما عليها من أشياء . فإما تد هو المُنْطَى .

وقول عيسى عليه السلام يمثل بكل المعاني القيمة ، فهو يطلب أن تكون المائدة مناسبة لميد يفرح به الأولون والآخرون وآية من الحق سبحانه وتعالى ، ويطلب من فضل ربوبية الرازقي أن يرددهم ، ويعترف بامتنان أن الحق هو خير الرازقين

والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عن عيسى . إيمان عيسى هو الإيمان القوي الناشج أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص ، لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فلهم ذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ

الأهل - عندما يسأل الأطفال عن شيء من الذي أحضره ؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن يعطى كل شيء هو الله ، فإن سأل الطفل أمه - ماذا سأكل ؟ ونحبب الأم - هل سبيل المثال - سأكل بامية مثلاً . ويسأل الطفل : من أين ؟ لحبيب الأم : اشتراها والدك من بائع الحضر . ويسأل الطفل : ومن أين جاء بها بائع الحضر ؟ تقول : الأم : من ناهرق في السوق . يسأل الطفل : ومن أين جاء بها التاجر ؟ لحبيب الأم : من العلاح الذي حرث الأرض وبلر فيها بقدر البامية . يقول الطفل : من الذي خلق الأرض وأنبت النبات ؟ تقول الأم : إنه الله ربنا خالق كل شيء .

لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذي يستوى فيه المؤمن والكافر ، والمؤمن هو الذي يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضاً ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطى المؤمن عطاء الربوبية مضاعفاً إليه العطاء الذي لا يتبدل ، إنه يعطى المؤمن زماناً لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه ، ويأخذ المؤمن بالمسحوق الإشراف والإقبال على العمل في ضوء منهج الله .

لقد قال عيسى ابن مريم داعياً الله : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ، ولزم عيسى نفسه بتداء الألوهية أولاً ممتزجاً بالسودية ثم ملتزماً بالتكليف القادم منه ثم جاء بتداء الربوبية . فإما من أنزلت علينا التكليف وما من تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء . وأخذ نداء زاوية القيم ثم زاوية للمادية وهي الرزق ، لكن الحوارين قدعوا شريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا : (غريباً أن نأكل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ويكون عليها من الشاهدين) ، أما عيسى ابن مريم بصعائية اختياره رسولاً فقد أصر الطعام من القيم فقال : (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيلاً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) .

صحيح أن الرزق يمر بالأكل ، ولكن الرزق ليس كله أكلاً فالرزق هو كل شيء محتاج إليه ويتضح به ، فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، وكل شيء تتضح به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى

· بالكلمة العامة التي يدخل فيها الأكل ويتسع لغيره . ويجب الحق على دهاء عيسى
ابن مريم :

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ
الْعَالَمِينَ ﴾

وساعة يقول الحق : « إن » فهو يستخلم نون الأفراد . وعدم أن هناك أسلوبيين
لحديث الحق سبحانه عن نفسه . إنه ساعة يتحدث عن وحدانيته يأتي بنون الأفراد
فيقول سبحانه :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وساعة يتحدث سبحانه وتعالى عن سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات
الكامل التي تتطلب إيجاد الشيء يأتي بنون لتعظيم فيقول .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(سورة الحجر)

وهو سبحانه أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد بقول . (قال إني مررها عليكم)
ذلك أن المائدة مستزل من السماء . ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده سبحانه وتعالى

وينبع الحق ذلك بقوله : « فمن يكفر بعد منكم فإن أعداه عذابا لا أعذبه أحداً
من العالمين » . سبحانه يرسل رسوله بعد أن يجتبيهم ، ولياك أيها العبد أن تقول
إن فلاناً بداته من الرسل أفضل من فلان ، لأن الحق هو الأعلم برسله : « الله أعلم
حيث يجعل رسالته » . وعلياً أن تتبع الرسل ، وعندما حاول بعض من أهل

الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما يحبر القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ۚ أَأَمَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِينَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ تَرَاخَتْ لَيْسَ بَعْضُهُمْ بِغَضًا خَيْرٌ مَّا يَجْمَعُونَ ۚ ﴾ (سورة الرحمن)

وقال أهل الجاهلية . لماذا لم يرسل القرآن على رجل عظيم من مكة أو من الطائف ؟ قالوا ذلك استعجاب . بشأن محمد صلى الله عليه وسلم . وقال الحق سبحانه وتعالى في ذلك القول المصل ، فليس لأحد أن يختار الرسول ، لأن الرسول مُصطفى من الله ، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولا من أصحاب السلطان أو الجاه

وسبحانه وتعالى بعد كل رسول الإلهاد اللاتق لمهنته ، ومقام الرسالة والسوة هو الأخرى في الدنيا والآخرة . والحق سبحانه . وهو المنظم لأمر خلقه . قسم المواهب . رحمة منه . فيها بين العباد لئلا يبادوا ويتارروا ويحتج كل منهم إلى عمل الآخر . وحين يرسل سبحانه رسولا فهو يختار الآية المناسبة له وللعصر الذي جاء فيه ، وما اقترح قوم آية وجاء بها الله ، ثم لم يؤمن الذين اقترحوا الآية بعد مجيئها إلا أنزل الحق سبحانه بهم العذاب الأليم . وحين يطلب اتباع الرسول آيات معية ، إنما يحمل هذا الطلب في طياته التمتع والتحليل من الألتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرود على الكفر بالرسول على الرغم من طمأنينة الآية ، ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا مَعَهَا أَنْ تُرْسَلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كُذِّبَتْ بِهَا الْأُولُونَ وَاتَّخَذُوا نَاقَةَ مُصِرَّةً فَظَنُّوا بِهَا وَمَا تُرْسَلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ۚ ﴾

(سورة الإسراء)

وكذلك اقترح قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآيات غير آيات القرآن ، عن الرغم من أن آيات القرآن ترفع كل من له عقل بفكر وقلب بحس ،

وستة الله مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهي العذاب الشديد ،
ومثال ذلك قوم نوح الذين طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ،
وعندما حدثت المعجزة كمروا بها فعاقرهم الله شر العقاب .

وبعض من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم غالوا في طلب آيات غريبة :

﴿ وَتَقُولُ أَرْسُلَكَ حَقٌّ فَتَجْعَلُنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوتًا ۝ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْمٍ لِّدَعْوَىٰ فَنُصَبِّحَ الْأَنْهَارَ ۝ جَعَلْنَاهَا نَفِيرًا ۝ أَوْ تُسْفِكُ السَّمَاءَ تَكْرَعَتْ عَلَيْنَا كَمَا
أَرْسَلْنَا فِي آبَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبْلًا ۝ أَوْ يَكُونُ لَكَ يَوْمَ تَرْفُفُ أَوْ تَرْفَعُ فِي السَّمَاءِ
وَلَنَ يُؤْمِنَ بِرُفْقِكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَقَرًّا مِّمَّنْ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا
بَشَرًا رَسُولًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

وكان محمد صلى الله عليه وسلم رحيمًا ماله وعشيرته ، لذلك لم يطلب من الحق
آيات غير التي أنزلها الله عليه . وعيسى عليه السلام دعا بأدب الرسل أن ينزل
المائدة . واختلف لعلماء أنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها ؟ .

إن هناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه : « قال الله إني منزلها » ، وهناك من
قالوا : إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم
يؤمنوا ، فتراجموا عن طلب إفرانها ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا في مواضعها ،
فمنهم من قال : إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس وفشور
ولا شوك فيها ذلك أنها مائدة من السماء رمعها خسة أرغمة ، وعلى كل دعيف شيء ،
كما يعرفون : رفيف عليه غسل ، وآخر عليه زيتون ، وثالث عليه سمن ، ورابع
عليه جبن ، وخامس عيه فديد من اللحم

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ
لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ
مُسَبِّحَنَّكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِنْ
كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا آخِزُهُ
مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

ونعرف أن هذا هو الحوار الذي سوف يدور بين الحق وبين عيسى ابن مريم عليه السلام يوم يجمع الحق سبحانه وتعالى الرسل :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَظِيمُ
الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وقد يقول قائل : ولماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار في صيغة الفعل الماضي ؟ :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ ۖ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة التوبة)

وكما نعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً . وزمان الحدث هو يوم القيامة . ومكان هذا الحدث في ساحة المشهد واحشر ، وسبحة هو خالق كل زمن وكل مكان ، وله أن يتحدث عن أي أمر بأي صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضي أم الحاضر أم المستقبل ، فقد أوجد كل شيء من ماضٍ وحاضر ومستقبل ، ويده أمر كل ما خلق ومن خلق وهو أزل قيوم ، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف ، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة : ماضٍ : أي أن يكون الحدث قد وقع قبل أن نتكلم ، مثل قول : قابلني زيد ، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار حقيقة .

راجع أصله وخرج حديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحاصر : أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعه ، أى يحصل الآن مثل قولى : « يقابلنى زيد » وأنت تقصد الحال أى أنه يقابلنى الآن .

إن معنى ذلك أن العين ترى زيدا وليس مع العين أين . ومستقبل . أى أن يكون الحادث سوف يقع كقولى : « سيقالنى زيد » . وهما لا يملك الإنسان معه أن يحدث منه الحادث ، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذى سوف يقابله أمرٌ قد يجمعه من إتمام الحادث ، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً إذ قد يمنع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشيء ، لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث والذى يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده . ولذلك يحملنا القرآن شرف الصديق فى الكلمة بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا كُنَّا عَمَلًا ۖ إِنَّا نَقُولُ لِمَا كُنَّا نَعْمَلُ ۖ إِنَّا لَا نَسَاءُ أَفْهَ ۖ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وأن يندكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه . وهذا لا يعنى أن الحق سبحانه يمننا من التسلط للمستقل ، لا ، بل يطلب منا أن نسلط وأن ندرس كل الاحتمالات ، ونعلمنا أن نقول : « إن شاء الله » ؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة من يملك كل أمر وهو الله - سبحانه وتعالى - .

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا سببهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأعمال على سبب حدوثها فى بعض من آيات القرآن ، فقال قائل منهم : كيف يقول الحق - سبحانه - :

﴿ إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾

(سورة الحديد)

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتي به الله على صيغة الماضي ، ثم يقول بعد ذلك : « فلا تستعجلوه » ؟ واستعجال الشيء لا يكون إلا إذا لم يكن قد حدث ، فكان فى الكلام تناقضاً ، ذلك لأنه يقول : أتى ، ويقول بعد ذلك : فلا تستعجلوه ؟

ونقول : إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزماته بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وحالها . وعندما يقول سبحانه : « أتى

أمر الله ، فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة ، لأنه لا قدرة لمخرج مراده على ألا يكون . وأي فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملاسبات المكان ، فإن كنا نفرأ على سبيل المثال قوله تعالى .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة النساء)

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها ولكن لنقل : كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أولى يكون غفوراً رحيماً بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . وسبحانه منزّه عن أن تعثره الأحداث فتعبر ، لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تقل متى أو أين ، لأنها به وحدها . واختر بأن الماضى لأنه متحقق الوقوع ، ليست حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذ قال عن شيء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

ويؤكد الحق سبحانه في أي كلام عن عيسى بن مريم على أنه « ابن مريم » وهنا يسأل الحق عيسى - عليه السلام - . « أئت قلت للناس الحمدوني وأمرى إلهي من دون الله » ومعرف أن السؤال إنما يأتي ذاتياً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القاتل : أهابلك فلان لمس ؟ وإما أن يأتي السؤال ليعلم السائل من المسئول ، ولكن ليقرر السائل المسئول .

ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وحر جديد . وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقهره بالحقيقة ويوطقه عليها لتستقر لدى التلميذ . وسؤال الله عيسى من النوع الأخير ؛ ليكون ذلك حجة على من قال بالوهمية عيسى أو سوته . وحاول بعض المشركين أن يشككوا في القرآن فقالوا : إن هاك ناقصاً في القرآن - والعياد بالله - واستدلوا على ذلك بقول الحق -

﴿ وَتَقْرَأُهُمْ إِنَّهُمْ مُسْمِعُونَ ٢١ ﴾

(سورة الصافات)

أي أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يعمل ويعتد ، ولكنه سبحانه يقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ فَبَرِّهٖ لَا يُنْقَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل معنى ذلك أنهم لن يسألوا ؟ لا ، بل سوف يسألون ليفرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا ، فهو سبحانه عليم بكل شيء . وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين ، وجه ليعلم السائل ، ووجه يقرر المستول ، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقروا ما فعلوا وما كان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال خلق سبحانه هو سؤال من يرغب في أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء ، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذي وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم . وكذلك يكون سؤال الله لعيسى ، إنه لتفريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يلهم إياه

إن عيسى عليه السلام لم يلهمهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه الهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم ، إما يلح ما أوحى إليه من ربه فقط ، ولهذا تأتي إجابة عيسى رداً على أى تزويد من الاتباع . « قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وساعة نسمع « سبحانه » فلنعرف أنها إجمال التبريه لله ، وهو تبريه أن يشابهه خلق من خلق الله ، قلله وجود ، وللإنسان وجود ، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول : إن وجودى كوجود الله ؛ لأن وجود الله ذاتى ، ووجودك غير ذاتى وكل ما فىك موهوب لك من الله ؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله ، بل غناه ذاتى وغناك موهوب منه سبحانه ، ولا أى صفة من صفاتك كصفات الله ، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة ، وعليك أن تأخذ كل شيء بتعالى بالله فى نطق « سبحانه » وليس كمثلته شيء .

وكذلك يكون تبريه عيسى لربه وخالفه . « سبحانه » ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله . ويرد عيسى على ذلك بقصية متفق عليها : « إن كنت قلته فقد علمته » لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدى من العباد من سلوك وأقوال وأعمال « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » والكل يعلم ارتفاع الحق وترهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل . والكل يعلم - كذلك - أن الله يعلم جميعاً الصدور ؛ لذلك يقول عيسى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ويقرر أن الحق

لعلهم بكل شيء يعلم أن ذلك لم يحط به على بال ، وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور في هذه الآية .

الصورة الأولى هي قوله سبحانه ونعني : « سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » وهذا تنزيه من عيسى لربه ، والصورة الثانية هي قول عيسى : « إن كنت قلت فقد علمته » ، والصورة الثالثة هي : « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » . إذن فلا شيء من عند عيسى ، وقد يسأل سائل : وماذا يكون في النفس ؟ الذي يكون في النفس هو ما أسير به ولم يظهر ، لأن النفس تطلق مرة ويراد بها الدات التي تضم الروح والجسد معا ، وعندما تطلق على دات الله فنحن نزهها عن أن تكون أبعاصاً ، ولكها داته المأخوذة في نطاق التنزيه . والمثال هو قول الحق :

﴿ كَتَبَ رَبُّكَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

ومعنى يكون فهما لمحي كلمة « نفس » مسوبة لله ، إنه المنزه أن يكون مثلباً ، بله وجه ولنا وجه ، ولكن وجه الله بهمهم في نطاق « ليس كمثل شيء » ، وكذلك يد الله وكذلك كل صفات الله . ويعلم أن الله أسماء أعظم بعضها ، ونحن بعضاً من خلقه بعضها ، واستأثر بعضها لداته . وهلاك بعض من الصفات لله تأن لمجرد المشاكلة ، كقول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة النساء)

ولا نقول أبداً إن الله مخادع ، ولكن الصفة هنا جاءت للمشاكلة لدكرها في مقابلة يجادعون الله . ولذلك لا تأخذ منها اسماً لله ، بل إنه جاء للرد على ما يدر من أعداء الله

ونحنم عيسى ابن مريم قوله : « إنك أنت علام الغيوب » ود علام : هي مبالغة في دات الحدث ، ومبالغة في تكرير الحدث ، فهو سبحانه يعلم عيب كل واحد من خلقه وعيب كل ما في كونه ، وهكذا جاء القرآن يرد عيسى عليه السلام وهو رد يسوع كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول

ويتابع القرآن على لسان عيسى عليه السلام ما ياقض ما قاله بعض من أتباعه

يقول :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي
وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي
كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ١٧٧ ﴾

لقد حرص سيدنا عيسى عليه السلام - من خلال قوله لربه تبارك وتعالى - المسيح
الذى جاء به على الناس جميعا ونفخه نمام البلاء ، فقد أبلغ أنه عبد لله وأنه رسول ،
وعندما الحق علام العيوب فهو أعلم بكل شيء حتى بما في النفس ، كماه يثبت أيضا
أن معه لم تحدثه بأي خاطر من تلك الخواطر ويعلم أنه لم يبيع إلا ما أمر به الله .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ
فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧٧ ﴾

(سورة المائدة)

والشاهد هو الرائي الذي لا عمل له و تحريك لشهود إلى غير ما شهده
ويقول عيسى ابن مريم عليه السلام : فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ،
وأمر توبة الحق لرسالة عيسى ورفعه إليه ، فد ذكراه من قبل في خواطرا ولكن
أصيف الآن بعضا من السمحات ، لأن أرى أن من حق كل قارئ أو متلقي لهذه
الخواطر أن يجد الخلاصة الملائمة التي تعبى عن الرجوع إلى ما سبق من قول في هذا
الامر ، وذلك حتى تتصل المعاني في ذهن القارئ .

لقد كان لميلاد عيسى عليه السلام صفة ، وكذلك كان لمسألة نوح الله له صفة
ولقد شبه الله لفتنة عيسى أنهم قتلوه ، ف عندما أراحوا أن يقتلوه دخل حوكة ،

والخوخة هي باب في باب ، وهذا نظام البيوت القديمة حيث يوجد باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد . وفي سقف هذا البيت فتحة . وعندما دخل رجل يدعى « نطيانوس » طالباً لعيسى عليه السلام نظر عيسى لأعلى ووجد شيئاً قد رفعه ، واستبطا القوم نطيانوس وخرج عليهم من بعد ذلك ، فساءلوا : إن كان هذا نطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين نطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بعد أن ألقى الله شبه عيسى على نطيانوس . أو أن عيسى حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال عيسى للحواريين : أيكم يلقى شبه عيسى وله الجنة ؟ . وكان كل حوارى يعلم أنه لا رسالة له مثل عيسى عليه السلام ، فإذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ وتقدم « سرخس » مائى عليه شبه المسيح عليه السلام وقتل اليهود سرخس . أو أن الدين ذهبوا بقتل عيسى وحرّفوا أنه رفع فصافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا به ، ولهذا جاء القطة بشخص وقتلوه . أو أن القتيبي هو واحد ممن يأمروا عيسى لليهود رتبطت في نفسه ملكة التربة فقدم نفسه بدلاً ودياءً لرسول .

ومسألة التزوي - كما نعلم - هي الأخذ كاملاً دون نقض للجنة بالقتل ، وسجن - المسلمين - يعرف أن الحق رفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمهراج إلى السموات وعد إلينا مرة أخرى ليكمل رسالته ؛ لذلك نصديق أمر رفع عيسى وأل الله توفاه ، أى استرده كاملاً دون نقض للجنة ، وأنه سيعود مرة أخرى ليصل خلف مؤمن بالله ومحمد رسول الله .

وإن أمر الرفع في الإسلام مقبول . فقد رفع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمهراج ، ودار بين وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار حوار بين وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وغيرهم من الأنبياء ، وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين في تلك الرحلة

نعم - إذن - نصديق تماماً مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء كالمورد وحاصل ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ .

أما مسألة ارتباط نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض بقيام الساعة، فالنصوص في هذه المسألة من القرآن الكريم محتملة وغير قطعية الدلالة، وقد وردت في السنة النبوية المطهرة، ولكنها غير معلومة من الدين بالضرورة فلا تكفر من يتأبى عليه فهمها، وقد أراد الحق سبحانه الرحمة بالخلق؛ لذلك فكل شيء يقع فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام يأتي به الله في أسلوب لا يسبب الفتنة. وإن صدقت أن عيسى رفع فلن يرهده ذلك علينا حكماً ولن ينقض حكماً، ولذلك جاء الحق سبحانه بمسألة الإسراء بنص قطعي، أما مسألة المعراج فلم تأت نصاً في القرآن بل جاءت التبراهاً لأن الحق سبحانه قال:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥﴾

(سورة النجم)

وهكذا فالإسراء آية أرضية، والمعراج آية سماوية. والآية الأرضية يمكن أن يقيم رسول الله الدليل عليها، وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ووصفه لهم بقوله سبحانه:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَمَرَنِي بِهَذَا لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي

بَارَكْنَا حَوْلَهُ ۖ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

لقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أوصاف القوافل التي رآها في طريق العودة، إذن كان الإسراء آية أرضية، أما الآية السماوية وهي المعراج فجاءت التزاماً وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام، فمن يرى أن ذلك جاء من طلاقة قدرة الله فهو يصدق ذلك. ومن ينفق عقله يقول له: إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين. وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة «توحيثني» نجد «توفاه» قد تعني أماته، فالحق سبحانه يقول:

﴿قُلْ يَتُوفَّاكُم مِّلْكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ۝١١﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

والحق سبحانه وتعالى يقول أيضاً:

﴿اللَّهُ يَتُوفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ كُتِبَ فِي مِثْقَلِهَا فُجُورٌ مِّنْ شَيْءٍ لَّهَا فِي مَوْجِدِهَا

الْمَوْتُ وَتَرْسُلُ الْأَنْفُسِ إِلَى أَجْلِ مُسَمًّى ﴿

(من الآية ٤٢ سورة الرعد)

إنه سبحانه يسمى النوم وفاة ، وسماه - أيضاً - موتاً وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض ومعنى الموت في بعض مظاهره غياب حس الحياة ، والذي ينم إنما يغيب عن حس الحياة ، إذن فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم ويقال أيضاً عن الذين نوبت قبضهم عند فلان أى أخذت ذيق كاملاً غير منقوص . وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق جل وعلا القول الفصل :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّوْهُ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة النساء)

وهرف أن الموت يقابله القتل أيضاً ، فالحق يقول -

﴿ أَفَلَمْ يَمِتْ أَوْ قُتِلْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالمتوفى هو خروج الروح مع بقاء الأبعاد سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف في البنية فتذهب الروح . وقد قال الحق على لسان المسيح : « فلما توفيتني » أى أخذتني كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة لا تنقص الرفع . ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالاً للمحاور بين عيسى ابن مريم والحق سبحانه يوم المشهد الأعظم جاء به القرآن لنا ليخبرنا بالذي يثبت صدق الإيمان .

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه في زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون له ، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقب دائماً ، ولكن عيسى يبشرته بقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير ويمنع . وتخبرنا الحق من بعد ذلك بما جاء على لسان عيسى ابن مريم في قوله الكريم :

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ ﴾

أَنْتَ الْمَرْبُّ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

ولفائل أن يقول : أليس في ذلك الأمر إشكالاً واضح ؟ لقد ادّعى بعض أتباع عيسى أنهم أهلكوا من عيسى أن يتخلوه هو وأمه إلهين من دون الله فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة في هذه الآية

ونقول : إن عيسى لم يقل : « يا رب اغفر لهم » ولكنه قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » أي أن عيسى قد ترك الأمر لطلاقة المشيئة الإلهية ، وهو كرسول من عند الله يعلم أن رحمة الله سبقت غضبه ، وأن له سبحانه طلاقة القدرة ، فلا قدرة تقيد فطلاقة المشيئة موجودة وهم عباد لله باختيارهم .

إننا نعرف أن كل خلق الله هم عبيد الله . ولكن المطيعين لله والمؤمنين به خاصة هم عبيد الله . إذن فالخلق موعان : عباد الله ذهاباً وإيماناً وعبدة وطاعة ، والنوع الثاني هم العبيد الذين يُقهرون لفاهرية سيدهم ، وحق الكافر لم يكفر رغماً عن الله . بل كفر بما آتاه الله من قدرة إختيار في أن يفعل أو لا يفعل ، وكان خلق قادراً على أن يخلق خلفاً لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يأمرهم به الله . وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة .

لكن قدرة القهر تثبت لله صفة القهار على المقيهور ولا تثبت صفة المحبة ، فالمحبة تأتي من أن يكون المخلوق مختاراً أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان . إنه بذلك آمن بالمحبة لا بالقهر . وهكذا يريد الله خلقه المؤمنين به . إن كل الوجود - ما عدا الإنسان - مقهور ، ولا يقدر على العصية : الشمس ، والقمر ، والمطر ، والهواء ، والسحاب وكل ما في الكون مقهور لله .

إذن لو أراد الله خلقاً مقهورين عن الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به ، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيها دون الإنسان ، أما في الإنسان فقد خلقه الله مختاراً بين الكفر والإيمان حتى يأتي بعض من العباد ليصنعوا ما يحبه الله ويرضاه ويتبعوا مبع الله ، وهم يعلمون أن الله لم يكفهم ما لا طاقة لهم به . فلا يكلف - سبحانه - أحداً بأن يموت أو يمرض ، ولا يكلف فاقدة آلة الاختيار وهي العقل ، ولا يكلف من لم يبلغ رشد لعقل ، لأن التكليف للإنسان لا يتم إلا بوجود

ثلاثة شروط : الأول . أن يوجد العقل ، والثاني : أن يكون العقل في تمام النصح وهو الرشيد ، والثالث : ألا تكون هناك قوة تهدد حياته وتقهروه على فعل ما .

ومكثنا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف . وهم : المجنون وغير ماضج العقل لأنه لم يبلغ الرشيد ، والمقهور بفعل فاعل . وقد أعطى الحق مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وبذلك ليس لأحد عند الله حجة ، ومن دخل التكليف طامعاً بهر من عباد الله . ومن عصي الله وخروج عن التكليف فهو من العبيد للمقهورين في كل شيء فيما عدا التكليف التي خبروا فيها .

إذن فالعباد هم الذين دخلوا العبادية بأن وازنوا بين الإيمان ونقيضه الكفر . . أي بين المراد لله وخبر المراد لله . فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم على الرضخ من علمه بكفرهم : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » ؟ . ونقول : إن معنى « العبد » هو العبيد الذي فرخته سابقاً هو وضع الإنسان في الدنيا وما يكون عليه فيها ، ولكن الحوار الذي نقرؤه في القرآن بين عيسى عليه السلام والحق سبحانه وتعالى يكون في الآخرة ، وكنتا في الآخرة عباد طائعون .

وعندما يستقريه كلمة « عباد » في القرآن نجد أن العباد هم الصبوة المختارة التي اختارت مراد الله فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تماماً . ومثال ذلك قول الحق سبحانه .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾

(س الآية ٦٢ سورة الفرقان)

إنه يأتي هنا بالخصال الجميلة لهذه الصبوة من العبد . والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إقواء العباد المخلصين كما يقرر القرآن الكريم :

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ﴾

(سورة ص)

أما في الآخرة فكلنا عباد ، وما هوذا الحق سبحانه يخاطب الذين أضلوا غيرهم بقوله تعالى :

﴿أَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

إن الكل عباد لله يوم القيامة ، ولكل ينقد مراد الله ، ولا ولاية لأحد على أي شيء من أبعاضه وجوارحه ، فالعين التي كانت مسخرة للعبد في الدنيا تأمر بأمر العبد فيختار أن يرى إخلال أو يرى الحرام ، هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها في اليوم الآخر ، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم ، وكل الأبعاض . وتكون النفس الإنسانية في الدنيا كقائد لكل الأبعاض والجوارح تنفذ أوامر الإنسان سواء لتحير أو للشعر ، وسواء للطاعة أو للمعصية . لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على كل ما فعل الإنسان ، فليس لأحد مراد غير مراد الله .

﴿لَمِنَ الْيَوْمِ إِلَهُ الْوَحِيدِ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

لقد انتهت مرادات لبشر وبقي مراد الله فصار الكل عبداً لله . وعلى هذا فليس هناك إشكال في قول عيسى : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » . ونعلم أيضاً أن كلمة « عبيد » تشملنا كلها فيها نحن غير مخيرين فيه مثل إرادة التنفس أو ميلاد الميلاد أو ميلاد الموت ، ولكن المؤمنون يرتقون من « العبيدية » إلى « العبادية » بتقيد صريح الله ، أما الكافرون والعصاة فهم يعصون الله بما لهم من اختيار ويسيروا في حرب العصيان معاندة لمشيىء الله . وحتى يثبت الحق لنا جميعاً أن الكافرين مجرد عبيد فهو يصيبهم بالمرض والمعاقاة والألام التنسية العميقة ولا يجرؤ واحد منهم أن يصادم مراد الله في هذه الأحداث التي يجرى عليها . ولذلك فاللؤمن بشكر الحق باختياره لأن الله حماه بأحداث الاختيار وجود ونضجاً وعدم إكراه .

ولنا أن نلاحظ أننا كنا في يوم القيامة - كما قلنا من قبل - نصير عبداً لله فلا مراد لأحد فيما على أي شيء ، وكل المراد يكون لله ، وقد أورد الحق سبحانه ما جاء على لسان عيسى عليه السلام فقال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » وهذا التذييل لكلمات عيسى ابن مريم لم يأت باعتذار أو طلب إحسان من الله على الذين كفروا بالله وأشركوا به ، فالعزيز الحكيم هو الذي لا يعلب على

أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تمنى هؤلاء الناس قوة من دون الله ، فهو القادر
المزير ، إن شاء غفر لهم فلا راد لمشيئته .

ويخس السطحيين الذين يتلمسون الأخطاء في القرآن قالوا . ألم يكن الأجدر أن
يقول هيى : إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ؟ . ونرد على هؤلاء السطحيين
فنقول : إن كل كلمة في القرآن جاذبة لمعناها ، وكل معنى في القرآن عاشق
لكلمته . ولذلك جاء التذليل في هذه الآية بما يخدم طلاقة المشيئة في تعذيبهم أو في
العمران هم ، فإن عذبهم فليس هناك قوة ثانية تستطيع أن تحميهم من عذابه : لأنه
- سبحانه - عزيز ، وإن غفر لهم فلا ترجد قوة أعلى تسأله : كيف غفرت لهم وقد
كانوا كافرين ؟

إذن فسبحانه لا يسأل عما يفعل لأنه عزيز حكيم . وأيضاً فقولهم : كان الأنسب
أن يقول : فإنك أنت الغفور الرحيم . بقول لهم : هي تناسب قوله (وإن تغفر
لهم) ولكنها لا تناسب « إن تعذبهم » فكان لابد أن يأتي تذييل الآية بما يناسب « إن
تعذبهم » وبما يناسب قوله تعالى : « وإن تغفر لهم » .

والحق بعد ذلك يقول :

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١٦)

نعرف أن هناك صدقاً ينفع يوم القيامة وهو الصدق الموصول بصدق الدنيا
وهذا صدق لا ينفع يوم القيامة ومثال ذلك قول إبليس الذميين كما يحكى القرآن
الكريم :

﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَوَعَدُ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَأَخْلَفَكُمْ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

مثل هذا الصديق لا ينفع أحدًا ؛ لأن الآخرة ليست دار التكليف . لكن الصديق الموصول بصديق الدنيا هو قول عيسى عليه السلام : « إن كنت قلت فقد علمته » . ولذلك يقول الله في الصديق الموصول : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) .

ذلك أن صديق الصادقين يوم القيامة هو صديق موصول بصدقهم في زمن التكليف وهو الدنيا ويتلقون رضاء الله : « لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه » وإن نساء إسحاق : كيف يرضى العبد عن ربه ؟ . نقول : إن العباد المؤمنين عندما يعينون الجراء المحدث هم في الآخرة يمتثلون بالحبور ويقولون :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ وَأَوْفَّقَنَا الْأَرْضَ نَقْبُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الزمر)

هذه الآية التي تتحدث عن يوم ينعم الصادقين صدقهم بقوله : « ذلك الفوز العظيم » كان هناك فوزاً سطحياً ، وفوزاً عظيماً . والفوز السطحي : هو ما يعطيه الإنسان لنفسه في دار التكليف من مثعة قصيرة العمر والأجل فيبدو ظاهرياً وكأنه قد فاز ، وفي الحقيقة ليس هو الفوز العظيم لأن الدم سيقبه ، رأى الله بعقبها النعم ليست فوزاً ؛ لأن الدنيا بكل ما فيها من نعم هو نعيم على قدر إمكانيات الإنسان وتصوره ، وهو نعيم مهلهل شبيه ؛ أن يروى النعيم عن الإنسان ، وكثيراً ما رأينا منعمين زال عنهم النعيم ، أو لم يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ، ويرى ذلك كثيراً . أما النعيم الذي هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذي لا يمنه أحد ، ولا يقطعه شيء . وينتم الحق سبحانه سورة المائدة بقوله :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

سورة النازعات

﴿ ٣٤٨٢ ﴾

والسما والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وضباب وماء وحيوان وإنسان . فالأرض هي الملك الأسفل الذي نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان . والسما وما تحوى وتضم من الملكوت الأعلى ، هما جميعا لله مملوكا ومملوكاً فهو - سبحانه - الذي يملك كل شيء ويملك كذلك الملك للشيء . وقول الحق : « الله ملك السموات والأرض » ينطبق مع قول المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِن تُعَلِّمُهُم فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَنْفِرْهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّرُ الْحَكِيمِ ﴾

(سورة المائدة)

أى أنه ليس لشيء من خلق الله أن يخرج من مرادات الله ، أما في الدنيا فقد جعل الله أسبابا في أيدي الناس ، رزق إنسان في يد إنسان آخر ، ومالك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب ، ولكن ليس كل مالك مملوكاً ، لأن المملك هو الذي يملك المالك ، وهذه سنن الكون . وفي الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين . فكان الحق أنهى هذه السورة بالحديث عن نهاية الحياة ، لأنه سبحانه قد بدأها بالحديث عن أحكام الله فقال :

﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

لقد تكلم سبحانه في الأحكام عن الصيد في البر والصيد في البحر وعن الحلال والحرام من الأنعام وعن الكباح ، وعن كل ما يتعلق بمسئوليات الحياة ، ومثلت بعضنا أمر بعض ، لكن في اليوم الآخر فالمسألة مختلفة . فبدأ السورة بأمر هو : (أوفوا بالعقود) .

إن كل أمر ورد من الأمر الأعلى ، فالأمر يعمل أو لا يفعل . فهناك من الناس من يؤمن ومن يعصى ، ومعنى ذلك أن للأمرين لهم حرية الاختيار ، فلو كان الأمر لا بد أن يفرض دون اختيار لكان الأمر قد خلق الخلق وهم معطوروّن على أن يفعلوا فيكون بذلك قد قهرهم ، لكن الأمر الأعلى ترك هذه الأوامر لاختيار البشر ، وهم صالحون للطاعة والوفاء بالعقود ، وهم صالحون للمعصية .

لقد بدأ سبحانه السورة بمطقة الاختيار في الإنسان التي خلقها الله ليبدأ بها التكليف . وأوضح بعد ذلك أن للاختيار أمداً محدوداً سبتهى ، ويجمع لله الناس يوم ينفع الصادقين صدقهم ويكون الأمر كله لله .

ويهتم الحق السورة بقوله سبحانه - « الله ملك السموات والأرض » أى أن سبحانه يملك الكون كله ، والكون - كما نعلم - مكون من أجناس متعددة وأول جنس في الكون هو الخادم الذى لا يُخدم هو الجهاد ، والجهاد قد يكون ماءً أو جبلاً أو حديداً ، أو شمساً ، أو قمرأ ، أو نحرماً ، كل هذه حمات ، أى ليس لها حس وهذه الجهادات تخدم أول ما تخدم النبات . والسات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجهاد خادماً لكل ما يحويه من نبات وحيوان وإنسان النبات يخدم الحيوان والإنسان والحيوان يخدم الإنسان . وكل هذه لأشياء التي تخدم الإنسان لا اختيار لها ولكنها مفهورة لخدمة الإنسان ؛ فالشمس لم تعصب يوماً على الشر فلم تدمهم بحرارتها ولا المطية تأت عن صاحبها .

والإنسان فيه قيمان : قسم مقهور للحق فلا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه أو يسيطر عليه مثل البرص أو الموت وهو في ذلك يشترك مع الحيوان والنبات والجهاد . وقسم يكون الإنسان فيه مختاراً وهو تطبيق المنهج

إننا إذا نظرنا إلى الحجاب الذى قهر فيه الحق الإنسان جعله لمصلحة الإنسان فالإنسان لا يختار أن يتشمس ولا أن يسرى الدم في عروقه ولا أن تعمل كليته ، إنه مقهور في كل ذلك . ومن رحمة الله بالخلق أن جعلهم مسيرين ومقهورين في هذه النواحي ، فلم يجعل تغرس أحد بيد صاحبه ولا جعل القلب يعمل بإرادة الإنسان والإنسان - إذن - يجبر في مسائل التكليف فقط . وكان الحق يذكر الإنسان أن مطقة الاختيار هي عقد بين المؤمن وربه ؛ لأن الاختيار سيطلب من العباد يوم القيامة ، ويكون كل العباد مقهورين ويصير الكائن البشرى مثل الجهاد والنبات والحيوان ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّلّٰهِ مَلَكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا فِيْہِمْۙ وَہُوَ عَلٰی كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌۙ ﴾ (سورة الاحقاف)

إنَّ الإنسانَ يومَ القيامةِ سميعٌ بلا اختيارٍ لأنَّ الحقَّ استعمل « ما » هنا وهي تدلُّ على الأشياءِ غيرِ العاقلةِ أي التي لا اختيارَ لها . كأنَّ العقلَ له عملٌ في الدنيا وهو التمييزُ بين البدائلِ ، أما في الآخرةِ فالكلُّ متساوٍ أمامَ خالقه . وعلمنا من قبلِ العارقِ بين « مُلْك » و« ملكوت » . وكلنا يقرأ قولَ الحقِّ :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

كأنَّ الحقَّ ينهبنا إلى أنَّ العالمَ فيه ما يقع تحت الإحساس والإدراك ، وفيه ما لا يقع تحت الإحساس والإدراك . فالذي يقع تحت الحس والإدراك هو عالمُ الملك . والذي لا يقع تحت الحس والإدراك هو عالمُ الملكوت . ولا نعرف من عالمِ الملكوت إلا ما أخبرنا به الله . وهناك في عالمِ الملك ما يحويه الله هنا ، وسبحانه وحده هو القادر على كل شيء . والحقُّ يطلب منا أن نعتبر بما في العالمِ المشهود من ظواهرٍ وله سبحانه مطلقُ العلمِ بعالمِ « الملكوت » أي ببواطنِ هذه الظواهر غيرِ المشهودة . و« الملك » و« الملكوت » موجودان في الدنيا والآخرة ، إلا أنَّ الملكَ ظاهرٌ والملكوتَ خفيٌّ

ويوزع الحقُّ سبحانه وتعالى أسبابَ الملك في الدنيا بين أهلى حلقه ، ويملك التصرف فيها بين أيدينا وبيننا حتى عما ، ويشاء الحقُّ أن يهيئ هذه المسألة من مبررات الخلافة للإنسان على الإنسان في الأرض فيقول : « الله ملك السموات والأرض وما فيها » فله الملكوت ، ولكم بعضُ الملك أيما العباد في ظواهر سبب الأشياء إلى أساسها وذلك في الدنيا ، أم يومَ القيامة فكل شيء ينتهي إلى الله .

ولكن لماذا قال الحقُّ : « وما فيها » على الرغم من أنَّ الحقَّ استعمل الإنسان في الأرض ، والإنسان عاقلٌ وكان من حقه أن يُملك عاقلُ القول . ومن فيها : لأنَّ (من) للعاقل ، لقد أراد الحقُّ بذلك أن يشيئ أنَّ الكل أصبح لا اختيارَ له ، وأصبح مفهوماً على الراد منه فقد تساوى الجميع عاقلهم وغير عاقلهم فيقول لنا : « وما فيها » وهو على كل شيء قدير .

وبهذه الآية ختمت سورة المائدة . وهي سورة مدنية ، وهي من آخر ما نزل من القرآن الكريم . وفيها التشريع وفيها التكاليف . وفيها الأحكام وفيها ما يتعلق بكل السور المدنية من بين أعوجاج أهل الكتاب

ومن بعد ذلك جاءت سورة الأنعام ، وهي مكة . وجاءت مكة بعد المدينة في الترتيب المصحفي حسب ما انتهى إليه آخر عرض للقرآن في آخر رمضان من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام . ومن المعلوم أن القرآن له « ترتيب نزولي » و « ترتيب مصحفي » . والترتيب النزولي حسب ما نزلت سور القرآن في مكة أو المدينة . و « رب قاتل يقول » إن الحق أنزل هذا القول الكريم فوق عرفت وهو قوله سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

فكيف يقال ذلك ؟ .

نقول . لنفهم معاً معنى الاصطلاح العائل : « مدني » و « مكّي » ، ههنا آيات من القرآن نزلت بالمدينة ، وآيات أخرى نزلت بمكة ، وآيات ثالثة نزلت فيما بينهما ، وآيات رابعة نزلت بين السماء والأرض . وجاء الاصطلاح « مكّي » على الآيات التي نزلت قبل الهجرة ، وجاء الاصطلاح « المدني » على الآيات التي نزلت من بعد الهجرة ، وإن نزلت بمكة .

وأراد الحق أن يكون للقرآن ترتيب نزولي وترتيب مصحفي ، وقد شاء سبحانه أن يعدل بالقرآن ميران الكون الإنساني المضطرب ، واضطراب الكون الإنساني إنما يكون بواسطة أناس لا يؤمنون بآله ، أو بأناس يؤمنون بآله ويشركون معه غيره فيعبدون أوثاناً ، ويقولون : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » أو بأناس يعبدون النار ، أو بأناس تابعين لمنهج سيئ ولكن حرقوا به قلباً أو كثيراً .

إنما نجد أن الأقرب إلى الإيمان بالله هم الأجناس الذين آمنوا بالرسالات السابقة حل رسول الله ، فقد جاءهم الرسل ومعهم المعجزات ، ومعهم كتب المنهج ، والمنطق يقتضي أن يكون هؤلاء هم الأقرب للإيمان من غيرهم ، ولذلك كان من المطلوب أن تواجه أولاً الوثنيين ونصفي المعركة مع أهل الكتاب من بعد ذلك ، لأن أهل الكتاب لهم ألف برون منهج السماء إلى الأرض بواسطة الرسل .

إذن ففى نزول القرآن كانت الأمور للمكة التى تتعلق بالعبادة الأساسية هى الظاهرة . وهى الاعتراف بالهوية واحداً لمحكم الكون . أما فى المدينة فقد ناقش الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب فى كل أمور الدين بعد أن استتب أمر التوحيد .

لقد كان هذا الترتيب منطقياً مع هذه الحقيقة . فقد كان فى العالم موجتان اثنتان : موجة إلحاد ، وموجة تغيير فى منهج الله السامى . ولذلك كانت قلوب المسلمين مع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب ، لأنهم على الأقل يؤمنون بإله ، وأن الإله يرسل الرسل ومعهم المنهج الإلهى والمعجزات الدالة على صدق رسالتهم ، وحتى الذين انحرفوا من أهل الكتاب كانوا يتمسحون فى هذا الكتاب المنزل إليهم بالرغم من أنهم حرفوه .

لقد وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يقف بجانب الروم عندما واجهوا فارس . وعندما هزمت الروم حزن المسلمون وفرح الكفار ، لأن الروم كانوا أهل كتاب ، إنهم كانوا نصارى ، وكانت هزيمتهم تعنى انهزام منطق السماء أمام منطق الإلحاد ، لذلك حزن المسلمون ، وفرح الكفار . وأراد الله أن يصور لنا الموقف ، وأن يوجه قلوبنا إلى الذين يؤمنون أيضاً بأن هناك إلهاً حق ولو كانوا قد أخطأوا فى تصور هذا الإله وفى البلاغ عنه ، أو انطلقوا فى تأويل ما جاءت به الرسل فقل سبحانه :

﴿ آتَمَّ ۝ طَبَّتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَوَلُّونَ ۝ فِي ضَرْحٍ مِّنْهُ إِلَهُ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَنْصُرُهُمُ اللَّهُ ۝ ﴾

(سورة الروم)

إن المسلمين يفرحون بنصر الروم على فارس ، لأن الروم لهم علاقة بالسماء ، والرسول ، والمهاج ، والوحى . وجعل الله الأمر واضحاً هكذا لكى يبين موقفاً . وليجعلها إعجازاً لكتابه ولرسوله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان موجوداً بمقر الدعوة وهو الجزيرة العربية ، وليس عنده سفارات ولا غابرات ولا مكتب حربى حتى يأتىه بالأخبار ويجه من استعدادات الروم التى تجرى لرد الهزيمة .

هذا الرسول يتنبأ بخبر معركة قادمة بين الفرس والروم ، ويتنصر فيها الروم ، معركة تحدث بعد سبع أو تسع سنوات . وعندما راهن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه المشركين على ذلك ، وجعل بينه وبينهم خمس سنين أجلاً لغلبة الروم وظهورهم على الفرس ، ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل ، نكأت مائة بعير إلى تسع سنين .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم كلام للواقفين ، لأنه ينقل الخبر عن الله ، وجعله الله نראناً يتلى ويصلى به ، ومحفوظاً أبد الدهر ، ولا يمكن أن يكذب هذا القتل إنه - سبحانه - هو الذي يملك ميزان الكون كله ، وأي إنسان من رجالات الحرب المعاصرين لا يمكنه أن يتنبأ بمصير معركة قادمة ، على الرغم مما قد يجمع لها ويحشد من معلومات عن القوة والعدة والعتاد . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ عن الله وهو واثق تمام الوثوق بما يبلغ .

وقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم الخصم الإلهي ، وكان قلبه مع أهل الكتاب ، ونرى أيضاً أن أهل الكتاب كانوا يشيرون بحجىء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم يقل بعض أهل الكتاب وهم اليهود في المدينة للأرس والمزرج : قد أطل زمان نبي يبعث ويستبعمه ونقتلكم قتل عاد وإرم . ولكنهم كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك ، لأنه سلب منهم السيادة ، والسلطة الزمنية .

إذن فنزل القرآن أولاً كاد في مكة ، ومن بعد ذلك نزل في المدينة لكن في الترتيب المصحف . كما قلنا - جاءت المصنفات أولاً ، وبعد ذلك جاءت المكيات . وذلك حسب ما أراد الله عندما راجع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن مع جبريل عليه السلام في رمضان الأخير من حياة الرسول الكريم .

إن أصل الإيمان واحد ، وهو الإيمان بآله ، ووحى ، ورسول ، ومنهج ، وكل ذلك له فائدة إقامة نظام بحكم الحياة . وهو نظام ضروري لتنصلح حال الحياة سواء أفس الناس بآله أو كفر بعضهم . وجاء هذا النظام الذي يحكم الحياة في السور المدنية أولاً ولم يخله الحق في بعض السور المكية . إن الحق شاء لرسوله أن يوحد القلوب

المؤمنة بالله واحد لولا ليواجهوا معسكر الإلحاد . ولكن هناك من احتلف وتحلف عن مؤازرة موكب الإيمان .

وهكذا تنتهي عواطفنا حول سورة المائدة ، ومع أن سورة المائدة مدنية وسورة الأنعام مكية إلا أن السياق بين تفصيل المائدة وافتتاح الأنعام فيه انساق واضح . فالحق يقول في آخر سورة المائدة :

﴿ فَهُوَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١١٥ ﴾

ويقول سبحانه في أول سورة الأنعام :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

فسبحانه وتعالى قدير وبهت كل الكون ، ولم يأخذ ذلك الملك افتتاحاً أو ادعاء ، ولكنه جل شأنه هو الذي خلق السموات والأرض وهو الذي جعل الظلمات والنور .





وَيُنَادِ صِبْيَانَهُ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

فمن الله التَّخَوُّمُ الرَّجْمُ

وَجَعَلَ الظَّالِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ كُفَرًا مُبِينًا
يَقْدِرُونَ

وساعة نسمع كلمة الحمد ، فعليك أن تفهم أنها كلمة المدح والثناء والشكر
فالحمد أمر لطري موجود ونوجهه لله ، فقد أخذ - سبحانه - بأيدينا ووضح وبين لنا
أن الحمد لله حتى لا نختلف في مجال توجيهه ، لأنه سبحانه هو الذي أمد كل إنسان
بشيء من أسبابه .

وحيث نال أحداً عن شيء فإن مسلسلات ما أعلتك به منسوبة لك إذن فكل حمد
يجب أن يتوجه إلى الله .

وأضرب هذا المثل : هب أن إنساناً وقعت به طائفة في مكان ما موحش ، لا يوجد به أى شيء من أسباب الحياة ، وأراد أن يأكل ويشرب ويستريح حتى ينام ، لكنه لم يجد شيئاً من هذا . وأخذت سنة من النوم ثم استيقظ فجأة فوجد مائدة عليها كل أطيب الطعام والشراب ، وبجانب ذلك وجد خيمة فيها فراش وغطاء وصبور للفصيل . وصاحبة يرى كل ذلك فهو لا يبدأ في استخدام أى شيء قبل أن يتسأل عن مصدره ، لأنه يريد أن يشكر الذى أنعم عليه كل هذه النعم السابقة . فكأنك أيها الإنسان حين واجهت الكون ووجدت أشياء تخدمك ولا حمل لك فيها ، ولا للسابقين عليك حمل فيها ، لأن أحداً لم يدعها لنفسه ، فوجدت شمساً تشرق ، وهواة هب ، وماء يروى ، وأرضاً تزرع ، وغير ذلك من كل ما يخدمك ، وأخبرك

الحق أنه هو الذى مسح كل هذا ألا تشكره إذن ؟

إن البشرية عندما استفادت من المصباح الكهربى قامت الضجة لتكريم اديسون الذى اخترعه ، فما بالنا بحالق الشمس التى تنير الكون كله ؟ إن الاختراعات البشرية تغلد أصحابها وتقوم الضجة لتكريمهم . فما بالنا بحالق الكون كله ؟ ما بالنا نكرم صانع المصباح الذى ينير مساحات ضيقة منها اتسعت بالقياس إلى الأرض ويغفل بعضنا عن تزيه بحالق الشمس التى تنير الأرض فى النهار وتخفى نصف اليوم حتى يستريح الإنسان ؟ ولكنها تسير سيرا ذاتها ، فإن ظاهت منك فقد أشرقت على غيرك فهى فى فللكها تسبح .

إذن فالحمد لله حيا استقبل الإنسان حلما الوجود ، ووجد كل مفومات الحياة التى لا يمكن أن تخضع لقوة بشر ، ولا لادعاء بشر . إن الحمد أمر واجب الوجود وإن اختلف الناس حول من يوجه له الحمد . إتنا نوجهه إلى الله تعالى لأنه هو واجب النعم .

وسور القرآن التى بدأها الخالق بالحمد لله خمس سور هى : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبا ، وفاطر ، وتركز حول شيئين : تربية مادية بإقامة البيان بالقوت أو بقاء الشرع بالتزواج أو بتربيتهم تربية روحية قيمة ، فحمدهم بجميع السبب . فمرة يقول الحق « الحمد لله رب العالمين » . وكلمة « رب » تعنى أنه تولى تربية الخلق إلى غاية ومهمة ، والتربية تحتاج إلى مفومات مادية ومقررات معنوية ، روحية ومهجية ؛ لذلك بآن بها الحق شاملة للكون كله كما فى فاتحة الكتاب :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الفاتحة)

فهو سيد كل العالمين ومالكهم ومربيهم ، وهو الذى ينشئهم انتشئته التى تجعلهم صالحين لأداء مهمتهم فى الحياة بقوة البيان وبقاء النوع بالتزواج وبقوة القيم . ومرة ثانية بآن الحق بالمهج وحده ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَرْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾

(من الآية ١ . سورة الكهف)

ومرة أخرى يأتي الخلق بالاشياء المنظورة فقط فيقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ﴾

(من الآية ١ سورة الانعام)

إنه سبحانه يأتي هنا بأشياء تختص بالمادة المنظورة، كالسماوات والأرض، والظلمات والنور، وهي أشياء يمكنك أن تراها بوضوح، ومرة يأتي الحق بأشياء غير منظورة مع الاشياء المنظورة كقوله الحق :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْهِحَةٍ مِثْنَى وَثَلَاثَ رِجَالٍ ۚ ﴾

(من الآية ١ سورة فاطر)

ويأتي بالجمع كنه في فاتحة الكتاب، ويأتي بالمتنج فقط كما في سورة الكهف، ويأتي بالكون المادي كما في سورة الانعام، ويأتي بالكون المادي ولعنوى كما في سورة فاطر .

إذن فالحمد مستحقٌ مستحق، ويوجهه الله حتى ولو كانت أسبابه الظاهرة من غير الله، لأن كل أسباب الدنيا والكون تنصرف انصباً إلى الله . وهنا - في سورة الانعام - يخص الحق الحمد لله خالق السموات والأرض بما فيهما من كائنات، وأنه من بعد ذلك بالظلمات والنور . والخلق كما يعلم إيجاد من عدم . والجعل يأتي لشيء مخلوق ويوجه إلى الغاية منه . ولذلك قال الحق « وجعل الظلمات والنور » والظلمة أمر عدمي، والنور أمر إيجابي، والنور يبدد الظلمة .

إذن فالأصل هو وجود الظلمة التي تختلف في ألوانها، مثال ذلك : ظلمة الكهف، وظلمة البحر، وظلمة البر، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۚ ﴾ (من الآية ٤ سورة النور)

إنها يد يعرف اتجاهها ولكنه لا يكاد يراها . إذن فالخلق يخصص الحمد هنا لخلق السموات والأرض لأنها ظرف كل الكائنات . وقال العلماء : لا تأخذ الظلمة على

أنها الظلمة المادية التي لا ترى فيها الأشياء لا غير ، ولا تأخذ النور على أنه النور الحسى الذى ترى به الأشياء فقط ، ولكن لتأخذ الظلمات والنور على الأمر البصوى والأمر الحسى كذلك - سبحانه - جعل الظلمات فى هذه الآية جعلا وجعل النور مفردا ، لأن الظلمات تعدد أسبابها لكن النور ليس له إلا سبب واحد .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

والسبل هي جمع ، وسبيل الله معرد لأنه واحد . كان سبل الشيطان متعددة ، وسبل الناس كذلك متعددة حسب أهوائهم ، لكن سبيل الله واحد ، لذلك يجعل الهداية نوراً والضللال ظلمات

« وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ويقول : « والله المثل الأعلى - إنك أيها الإنسان عندما يبيض الله عينك ويجعل من بين يديك ما يعليه من جميل إلى غيرك فأنت تقول : أنا صنعت لفلان كذا وكذا ثم يكره من بعد ذلك . كأن « ثم » تأتى هنا للاستبعاد إن « ثم » تأتى ليعطف مثل حرف « الفاء » . ولكن الفاء تكون للجمع بين شيئين ليست بينهما مسافة زمنية ، مثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ثُمَّ أَمَّا قَوْمُ فَاعْتَبِرْهُمْ﴾

(سورة هجر)

ومن يجب إنساناً ومات هذا الإنسان فهو يحصى بدفته ، وذلك حتى لا يرم ويتعسف أمامه . ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد الإنذار

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْزَلْنَاهُ﴾

(سورة هجر)

كان فترة زمنية قد تطول حتى تقوم القيامة فينشر الحق حلقه . وقد يكون البعد بُعد رتبة أو منزلة ، ولذلك يأتي الحق بـ « ثم » هنا كفاصلة بين خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وبين الذين كفروا بربهم ، « ثم الذين كفروا

يرحمهم يفعلون ، إنهم الذين يسوون الله بغيره . ونستطيع أن نجعل « يفعلون » من متعلقات كفرهم . . أى أنه بسبب كفرهم يسوون الله بغيره . أو يكون المراد أنهم يفعلون أى يميلون من الإله الحق إلى غير الإله ، أو يجعلون الله شركاء . وهو قول ينطبق على الملحدين أو المشركين بالله . لقد أوجد سبحانه السموات والأرض من عدم وليس لأحد أن يجترأه ليقول لله : كيف خلقت السموات والأرض ؟ لأنه سبحانه يقول في آية أخرى :

﴿ مَا أَتَيْنَهُم بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعِدِّ الْمُتَعِدِّينَ ﴾

(سورة الكهف)

وأوجد سبحانه السموات والأرض من عدم ، فالسما والأرض ظرف للكون وتم خلقهما قبل الإنسان وقبل سائر الخلق ، ولم يشهد خلقهم أحد من الخلق ، فلا يصح أن يسأل أحد عن كمية الخلق ، من عليه أن يأخذ خبر الخلق من خلقهما وهو الله . وقد أتى بعض الناس وقالوا : إن الأرض انفصلت عن الشمس ثم بردت ، وهذا مجرد ظنون لا تثبت ؛ لأن أحداً منهم لم ير خلق السموات والأرض . وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون في قوله تعالى :

﴿وَمَا كُنْتُمْ مُنْعَذَ الْمُصَلِّينَ عَمَلًا﴾

(من الآية ٥١ سورة الكهف)

لقد قال القرآن ذلك من قبل أن يأتى هؤلاء . وكأنه سبحانه يعطينا التنبؤ بمجيء هؤلاء المصلين قبل أن يوجدوا ، فهم لم يشهدوا أمر الخلق ، بل طرأوا - مثلنا جميعا - على السموات والأرض ، وكان من الواجب ألا يخوضوا في أمر لم يعرفوه ولم يشاهدوه . وكذلك قولهم عن خلق الإنسان كفردهم لم يكونوا مع الله لحظة خلق الكون والإنسان ، ولا كانوا شركاء له ، ولذلك يعلمنا الحق الأدب معه فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عِنْدَهُ

مستورلا ﴿٥٦﴾

(سورة الإسراء)

وعليتنا ان نأخذ خبر الخلق عن الله القائل :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْشَرَكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ ۝﴾

هو سبحانه يأتي بنا بأمر الخلق فأوضح أنه خلقنا من طين ، بعد أن تكلم عن أمر خلق السموات والأرض ، وهو - سبحانه - قد أخبرنا من قبل ذلك أنه خلقت من تراب وجا مسنون ومن صلصال كالفخار ، وهي متكاملات لا مقابلات ، وكذلك أوضح الحق أنه يخلق كل شيء من ماء ، فاختلط الماء بالتراب فصار طيناً ثم حاشا مسنوناً ثم صلصالاً كالفخار وكلها حلقات متكاملة ونحن لم نشهد الخلق ولكننا نتلقى أمر الخلق عنه - سبحانه - ونعلم أن الطين مائة للورع والخصوبة .

وعندما قام العلماء بتحليل الطين وجدوه يحتوي على العديد من العناصر ، وأكبر كمية من هذه العناصر هي الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم الفلور ، ثم الكلور ، ثم الصوديوم ، ثم المنسيوم ، ثم البوتاسيوم ، ثم الحديد ، ثم السيلور ، ثم المنجنيز وغيرها .

والعناصر في هذا الكون أكثر من مائة ، ولكنها لا تدخل كلها في تركيب الإنسان ، إنما تدخل في تركيب ما ينفع الإنسان من بناء وريئة وعير ذك مصداقاً لقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَمْثَالِ وَلَقَدْ أَنشَبْنَا لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ لَئِي يَذْكُرُوا ۝﴾

(سورة الأنا ٥٣ سورة صافات)

لقد قام أهل الكفر من العلماء بهذا التحليل وذكروا تلك النتائج التي أخبرنا بها الرسول الكريم في الكتاب المعجز الباقي المحفوظ بأمر الله كحجة مؤكدة . وصان الحق لنا هذه الحجة حتى يأتي عالم غير مؤمن ويتوصل إلى بعض من الحقائق الموجودة

في القرآن .

ولم يحضر أحداث لحظة الخلق، ولكننا نشهد الموت وهو نقص للحياة، ونفرض الشيء يكون على عكس بقاءه ويرى من يهللون بقاء يبدأون بهدم آخر ما تم بناؤه وتركيبه، فيخلعون الزجاج أولاً وهو آخر ما تم تركيبه، ثم الأخشاب، ثم الأحجار، كذلك نقص الحياة بالموت . تخرج روح الإنسان أولاً ثم بعد ذلك يفسس ويجف ليصير صلصالاً كالخضار ثم حمأ متروكاً أي يصيبه النتن والعفن ثم يتجحر منه الماء فيصير تراباً . ولذلك نحن نصدق الذي خلقنا من أمر خلقنا ونصدق في أمر السموات والأرض، وعندما يقول قائل بغير ذلك، نقول له كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُتَضِلِّينَ عِبَادًا ﴾ (٥١)

(سورة الكهف)

ويخبرنا الحق هنا بقضية الرجل : « ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تسرون » ولا أحد فيما يعلم أجله مهما عرض نفسه على الأطباء، والأجل الأول هو الأجل للمحدد لكل منا، والأجل المسمى عنده هو زمن البرزخ ومن بعده نبعث من قبورنا، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (١٨٧)

(من الآية ١٨٧ سور الأعراف)

وقد يعرف الإنسان معجزة مقدمات نهايته واقتراب موته بواسطة ما كشف الله عنه من أسرارته بواسطة تقدم العلماء . فليس هذا من العيب وفي بعض الحالات يصح هذا المريض ويشفى ويبرأ، ويقولون : قد حدثت معجزة . أما الأجل المسمى فلا نستطيع أن نعرفه، وحده الحق سبحانه ذلك في خمس مسائل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرَكَّبُ النَّفْسَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (٢١)

(من الآية ٢٤ سورة لقمان)

وقد تكلم الحق عن المكان ولم يتكلم عن الزمان : « ثم قضى أجلاً » أى قضى
أجلاً لكل واحد ، ثم جعل أجلاً لكل شئ مسمى والأجال فى الأحاد تتوارد إلى
أن يأتى أجل الكل وهو يوم القيامة ، « ثم أنتم تمرون » والدلائل التى أوردها الحق
كعبلة نالاً تجعل أحداً يشك ، ولكن هناك من يجارى فى ذلك بعد كل هذه
المقدمات

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَحَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

والله هو علم على واجب الوجود ، وهو الاسم الذى اختاره الله لنفسه شاملاً
لكل صفات الكمالات ، والصفات الأخرى نحن نسميها الأسماء الحسنى ، مثل
القادر ، والسميع ، والصير ، والحي ، والقيوم ، والمهار ، كلها صفات صارت
أسماء لأنهم مطمئنة بالله وهذه الصفات حين تصرف على إطلاقها فهى لله ،
ومن الجائز أن تصاف فى بسنها لحادثة إلى غير الله أما اسم « الله » فلا يطلق
إلا عن الحق سبحانه وتعالى

ويتحدى الله الكافرين به أن يسمي أحدهم أى شئ غيره « الله » .

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وسمع الكافرون ذلك ولم يجرؤ أحدهم أن يسمي أى شئ باسم « الله » وهو
لأن من التحدى باقى إلى قيام الساعة ولا يجرؤ أحد أن يقول عكسه أو أن يقبله
فيسمى شيئاً أو كائناً غير الله « الله » .

ولا نعرف شيئاً وحده بداته أزلاً وقبل أن يوجد الكون إلا الله ، أما أنه الأشياء في حياتنا والتي نعتبرها من غير الأساسيات فهي لا توجد بذاتها بل لا بد من صانع لها . فكوب الماء مثلاً لا يزدى ضرورة قصوى في الحياة ، لأن الإنسان يستطيع أن يشرب الماء بكفه أو يغمه مباشرة ، هذا الكوب احتاج من الإنسان إلى علم وإمكانات وقذرة وحكمة . وجاء العلم للإنسان بما وهبه الله للإنسان من قدرة بحث عن المادة التي في الكون ، فخطر الإنسان إلى الرمل واكتشف وسيلة لصهر الرمال ، واكتشف وسيلة لتنمية الزجاج بمواد كيميائية ، واكتشف أسلوباً آلياً لإنتاج هذه الأكواب .

لقد أخذت رحلة صناعة الكوب من الإنسان رحلات علمية وصناعية كبيرة ، وهو غير ضروري كضرورة قصوى في الحياة ، إنما هو من الترف ، فما بالنا بالضروريات من شمس ، وقمر وهواء وماء ؟ هذه الأشياء - إذن - لا بد لها من صانع . وإذا كان صانع الله شيء ، في حياة الإنسانية يذهب إلى إدارة لتسهيل اختراعه ، ليستفيد منها ، فما بالنا بالذي صنع كل شيء ، ولم يصنعها ليستفيد منها ولكن ليستفيد خلفه منها .

إن البشرية تعرف من صبح المصباح وتاريخه ، وأين ولد ، وأين عاش ، وأين تعلم ، فما بالنا بالذي صنع الشمس والنجوم والأرض والإنسان ؟ ورحمنا الحق فدل على نفسه وأخبرنا أنه سبحانه الذي خلق . ولم يأت أحد ليخارجه سبحانه ويدعي صناعة الكون ، ومادام لا يوجد شيء له أثر إلا مؤثر ، فلا بد لنا أن نعرف أنه سبحانه مادام قد قال : إنه هو الذي خلق وأبدع ولم تنشأ معصده فإنه قوله هو الصديق . وإن كان هناك صانع للكون ولم يعلم أن الله قد أخبرنا أنه سبحانه الذي خلق الكون فذلك الصانع اسأله الله عما صنع لا يصنع أن يكون إلهاً . وإن كان قد علم أن الله أخبرنا أنه سبحانه خلق لنا الكون ولم يجرؤ هذا الصانع على أن يلفتنا بالحقيقة فهذا - الصانع المدعي - ليس له حق في الألوهية .

أما الحق سبحانه ، فقد أعلمنا بالدليل القاطع أنه الذي خلق الكون ، ومادام الأمر كذلك فيجب أن نستمع له ، والترجمة العقلية لسماح الحق هي عبادته وطاعته فيما أمر وفيما نهي ، بل إن عالم الملائكة الذي لا ترويه عينه سبحانه . وكل شيء في الوجود مؤثر بأمره ويسبح بحمده .

﴿ نَسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّعَى وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ قَدَرًا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيقًا عَمُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقد دل السموات السبع والأرض وكل من ميهن من مخلوقات عن دقة الصنعة وعلى ملكية الله لها وتنزهه سبحانه وتقدس بأنه لا شريك له ، وكل شيء له وسيلة للتسبيح والتتزيه ، ولكننا لا نرى ذلك ولا نفهمه ولا نفقهه . ويخلص الحق هنا أنه المعبود الموجود في كل الوجود . وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرهم وجهركم ، ومادام معبودا فيبقى أن يكون معذرا في الأوامر والنواهي . ولكن بعضنا يطيع ، وبعضنا يعصى . ولذلك رتب الحق على الطاعة جزاء . إما نعتا وإما عقابا . وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك الشيء ، وإياك أن تحسب بين إدراك الوجود ، والوجود ، فالذي لا تدرك وجوده إياك أن تقول إنه غير موجود .

ومثال ذلك ما نراه على مر تاريخ البشرية . لقد ترك الخالق مخلقه في الوجود أسراراً يستبطنونها فتبرز لهم بالمنافع وكانت قبل أن يعرفها الشر وينفروا عنها تؤدى مهمتها في الوجود . ومثال ذلك الجاذبية الأرضية ، لقد كانت موجودة قبل اكتشاف الإنسان لها وتؤدى عملها قبل أن يعرفها الإنسان ، وجاء ذكرها في القرآن بشكل لا يشير بلبلة ساعة نزل القرآن .

﴿ إِنْ أَقَمَّ يُنَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَبَيْنَ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتُهُمَا مِنْ أَنْحِدَيْنِ
بَعْدَهُ إِنَّهُ كَانَ خَلِيقًا عَمُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة طه)

أوجد الحق قوانين الجاذبية لتتأثر من السموات والأرض أعمالها ويحفظها بقدرته من الروال . وجعل من الجاذبية نظاماً بديماً يحفظ الكون من الاحتلال . إذن فالجاذبية كانت موجودة ، ولم يعرفها الإنسان إلا مؤخراً . وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين وجود الشيء وبين إدراك الشيء .

هذا قبل لك

﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

(سورة الأنعام)

فأتى أيها المؤمن نصيبك ذلك ؛ فدأت الحس لا تبصرها العيون وهو يعلم كل ما هو خفى عليك ولا تدركه عيوبك . وفي الكون أشياء قد لا يدركها علم الرعم من أنه سبحانه وعالي خلقها وعملت لى خلقتك ، وبعد أن أدركتها ظنت تعمل لى خدمتك ، فإن حدثت الخلق شئ لا تدركه فلا نقل . مادام هذا الشئ غير مدرك فهو غير موجود . وعلى سبيل المثال أنت لا تدرك الكهرباء ، ولا الحافضة ، ولا قوة أسرار الحياة وهى الروح التى تعطيك سر الحياة ، وتعمل بها كل جوارحك ، وإن خرجت لروح صرت جنة هامة ، إن أحدا لا يعرف مكان الروح ولا يدركها ، ولا سمعها أحد أو شمها أو دافها أو لمسها . إن الروح موجودة فى ذاتك ولا تدركها ، هائدا - إدن - لا نستطيع أن تدرك مخلوق لله فكيف تدرك خالقك وهو الله ؟ إنك لو أدركته لما صار إلهاً ، لأنك إن أدركت شيئاً فقد قدرت عبه جوارحك ، وبصير مقدوراً عليه لمعبك أو ليدك ، والقادر المطلق لا يقبى مقدوراً أبداً ، ومن عظمت أنه لا يدرك

مثال آخر : الرقبا التى تراها وتتحرك فيها . هل الرقبا موجودة فى جسمك ؟ أو ماذا ؟ والجنىم وهو الصبر على غيرك بأن تحمله وتعطف عبه وصحك به ، هذا الحلم بجسمك تفعل . فهل تدرك أنت عبها احلم ؟ إنه معنى من بعض المعانى فى نفسك التى تحرك جوارحك ولا تدركها ، مثله مثل الشجاعة التى مصول بها وتحول ولا تراها بحيره ، ولا تعرف شكلها أو لونها أو طعمها ، فالأعل الذى يدبر هذا الكون غير مدرك بالأبصار . والذى يحب الناس أنهم يحاولون الجمع بين الإدراك والوجود ، وتذلك بقول . يبحث أيها الإنسان فى كونك وليسوف عهد فارفا بين الإدراك والوجود .

وسلم أن اسم الله نفسه وهو لفظ صفة لمهم يستدل به على أنه الخالق الأعز وهو متعدي به . وأنت أيها الإنسان قد اخترعت - على سبيل المثال - التليفزيون وكان من قبل أن يوجد معلوماً لا اسم له ، وصار له اسم منذ أن أوجده الإنسان ، صالحاً لمهمة معينة ، أما اسم الله فهو موجود وعديم من قطنك وأحرك به الرسل ، وهو سبحانه وتعالى له اسم فى كل لغة من اللغات ، ووجود هذا الاسم فى كل

اللغات ينطق مختلف هو دليل على أسقية وجود الذات وهو الله . وبعد ذلك جاء الكفر ، وعرفنا أن الكفر كان محاولة لستر الوجود الأول ، وبذلك دلت كلمة الكفر على الإيمان . والذي يرهق الإنسان هو محاولته لخصر الوجود الأعلى في شكل طفق لإمكانات وحدود الشر . ولا أحد يستطيع أن يحصي وجوده سبحانه في شكل معين ؛ لأن من عظمت أنه لا يقدر على تصوره ، والإيمان به سبحانه يدل عليه وهو يقول عن نفسه ما شاء . وأحب أن تحفظوا هذا المثل وتضربوه لصغاركم .

لنصرن أن إسناً يجلس مع أسرته في حجرة ، ثم طُرق الباب ، وكل من يجلس في الحجرة يتيقن أن طارفاً بالباب ولا يختلف أحد منهم في هذه المسألة . فيقول أحد الأبناء : « الطارق محمد » ويقول الثاني : « إنه محمود » ويقول ثالث : « لا ، إنه إبراهيم » تقول الزوجة : « إن الطارق امرأة » ، لكن أحد النساء يقول : « لا ، إنه رجل » فيقول الأب : « لعله شرطى جاء يسألني عن أمر » ترد الزوجة : « توقع حيرا ، إنك تصنع كل غير ولا بد أن يأتي لك كل طارق بحير » . فاختلعت الأسرة لا في تفعل المطارق ، ولكن في تصور الطارق . يقول الأب : « بدلا من الحيرة لسأله من أنت ؟ » ، فيجيب الطارق : « أنا فلان »

وهكذا الكون ، هرا الإنسان عليه وتساؤل من الذي خلقه . ذلك أن الإنسان جاءته العقلة بعد أن عرف آدم ربه وبعد أن أشهد الحق دريه آدم أنه ربه . ثم أوصل الحق الرسل ليبلغوا الخلق منهجه واسمه وصفاته . وأراد سبحانه بذلك ألا يرهق خلقه ، وأبلغ الناس من خلال الرسل أنه الخالق الأكرم

وآلة العلاسفة أنهم لم يكتفوا بتفعل الإله ، بل أرادوا أن يتصوروه ، وهذا أمر غير ممكن . لذلك نقول : علينا أن نستمع إلى الحق يقول ما شاء من نفسه ولا داعي للحلاف . وسبحانه وتعالى يقول : « وهو الله في السموات وفي الأرض » وإياك أيها المسلم أن تفهم أن السماء والأرض ها ظرية ، لأن الظرفية رعاء وحير ، وإذا كنت لم تعلم مكان روحك في جسدك ، فكيف تعلم مكان الله ؟ لقد قصد الله بذلك القول أنه معبود في السموات ومعبود في الأرض

ولنلاحظ أن بعض آيات القرآن توقف الذهن حينما هي تظل الأذهان دائما مشغولة بكلمات الله ، ولو جاء القرآن بكلمات يسهل على الفهم العادي إدراك

معانيها لما تجددت معاني الكتاب العظيم في كل زمان ، وكان الحق قد قصد ذلك حتى بثبت الناس في كل العصور من إيمانهم بها هم أولاء بعض من الذين يحاولون الخوض في القرآن تساءلوا عن معنى قوله الحق :

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥٥)

(سورة الفرقان)

تساءلوا عن معنى التكرار أنه إله في السموات وإله في الأرض . وظن بعض السطحيين أنه قصد القول بأن هناك إلهاً في السموات وإلهاً آخر في الأرض ، ولم يفتشوا إلى أن المعنى المقصود هو : أنه إله يحد في السماء ويحد في الأرض ، وهو صاحب الحكمة المطلقة في كل أفعاله وهو المحيط بكل كونه . وأن الحق إنما يريد بهذا القول أن يشمل الأذهان به

ونقول أيضاً هؤلاء الذين لم يفهموا المعنى : هناك قاعدة في اللغة تحدد النكرة وتحدد المعرفة ؛ فعندما نقول : « جاءني الرجل » فهذا الرجل يكون معروفاً للقاتل والسامع ولكن عندما نقول : « جاءني رجل » فهذا غير معروف للسامع وقد يكون معروفاً للقاتل . وإذا قلنا : « جاءني رجل وأكرمت رجلاً » فمعنى ذلك أن القاتل يتحدث عن رجلين ؛ أحدهما جاء ، والآخر كان موضع التكريم . أما إن قال القاتل : « جاءني رجل فأكرمت الرجل » فالحديث هنا عن رجل واحد إذن فالنكرة إن أعيدت نكرة تكون محنقة ، والنكرة إن أعيدت معرفة تكون هي بعينها . وعندما قال الحق سبحانه

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾

(من الآية ٨٤ سورة الفرقان)

نصور البعض أن « إله » نكرة ، عندما أعيدت صارت عريضة ، ولو كان الأمر كذلك لفقدت الدنيا ولكن القاعدة العامة من العلماء عرفوا روح الأمر وقال أهل العلم بالوحدانية لا بد أن يلتفت إلى أنه سبحانه قال : « وهو الذي » ، وكلمة « الذي » اسم موصول واحد يدلنا على أن الحق صلتته بالسماء والأرض واحدة . ولهذا نقول من وقفوا عند هذه الآية لا سحوا عن النكرة المكررة بمنزلة من الاسم الموصول ، لأن الاسم الموصول معرفة

« وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم » ، إنه إله واحد يعلم السر والنجوى ، ويترتب على هذا أساس الثواب والعقاب فلا تظن أيها الإنسان أنك نجت من حساب ربك ، وإن كان سبحانه يعلم السر فمن باب أولى أن يعلم الجهر . ولو قل إنه يعلم السر فقط لظل بعض الناس أنه سبحانه لا يعلم إلا ما شرر لكونه - سبحانه - خيا ، ونقول : لا هو - جل شأنه - وإن كان غيبا إلا أنه يعلم الغيب ويعلم المشهد ، أو أنه - سبحانه - لم يتظر عنه إلى أن يبرز الشيء جهر بل هو بكمال علمه وطلاقة إحاطته بعلمه من أول ما كان سرا ويعلمه ويحيط به بعد أن برز وظهر ووجد وكأنه - سبحانه - يؤرخ لتعلم في ذات الإنسان الواحد ، يعلم سركم وجهركم .

وهو سبحانه يعلمنا أنه لا يقف عند السر فقط :

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى ۖ ﴾

(سورة طه)

إبه - سبحانه وتعالى - يعلم السر من قبل أن يكون سرا وكل امرئ قبل أن يصبح جهرأ يكون سرا ، وقيل أن يكون سرا هو أحصى من السر ويذيل الحق تلك الآية بقوله . « ويعلم ما تكسبون » والكسب إنما يشأ من عملية تجره في رأس مال ما والرائد عليه يكون هو الكسب ، وقد يكون الكسب خيرا أو شرا ، فالذي يكسب شرا هو الذي يأخذ فوق ما أحسن الله له .

والكسب كذلك يكون خيرا ، فإن قدم الإنسان حسنة يكسب عشر حسنات . والمتكلم هو الله الذي له الحمد لأنه خالق السموات والأرض والعلويات والصور . ولكن الكافرين يترصدون لكلمة التوحيد ، ويأنهم الخبر بأن الحق خلقا من طين ، ويعلم السر وما هو أحصى من السر ، ويعلم ما تكسب من خير أو شر ، ولا يؤثر ذلك كله في المنصرين عن دعوة الحق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يبلهم ويعظمهم إلى الصراط المستقيم ، لذلك يقول سبحانه

﴿ وَمَا أَنَا بِهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَافِرٌ ۖ ﴾

عَنَّا مُعْرِضِينَ ﴿١٠٠﴾

كأن الآيات الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدق البلاغ عن ربه لا تقنعهم ، بل يعرضون عنها مع أن الواجب كان يقتضى أن يرفعوا الأذان لما يحمل لهم لغير الحياة . ومارال الإعراض مستمر حتى زماننا هذا بالرغم من أننا نوصينا إلى معرفه العمر الافتراضى لبعض الأشياء اتى من صنعنا مثل مصباح الكهرباء الذى يتغير بعد كل فترة ، وغيره من الأجهزة ، ولكننا لا نعرف العمر الافتراضى للشمس ولم نحتاج إلى صيانة ذات مرة ، ولم نجد من يسأل وكيف يحدث كل هذا الإعجاز ؟

وقد أتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين لنا أن الذى حقق الخلق كله بجهننا يحطلونه ويصر لنا الكون ، ولكن الإنسان يعرض عن ذلك .

إن أول «مطب» يقع فيه الإنسان ، أنه تأتبه الآيات اتى نذر عن لعر هذا الرجود من خالق الوجود ، وكيفية تدبير الكون قبل وجود الإنسان ، وكيفية جعل ما فى الكون من قوت يقيم به حياته ويستغنى بوعده ، وبرحم ذلك يصرف عن سماع كل ذلك إن الكفار لم يعرضوا فقط ، بل انتقلوا إلى المرحلة الثانية وهى التكذيب . فلم يكتفوا بترك خبر الإيمان والإعراض عنه ولكنهم يريدون فى ذلك ما يوصحه الحق بقوله

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ
أَنْزُورٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

فهذا خروج من الإعراض إلى التكذيب ، فالإعراض أمر مبدئى ، والتكذيب هو الوقوف إيجابى فى موقف لصد والصد عن سبيل الله ، ثم ينتقلون إلى المرحلة الثالثة وهى الاستهزاء . إننا إذن أمام ثلاث مراحل . إعراض ، تكذيب ، استهزاء . وكل ذلك لعنهم يصرفون لمتع عن الاتع . ومثال ذلك ما صر به الحق لنا فى أمر نوح

﴿وَأَمْسِجْ أَلْفَاكَ وَاعْمِدْتَ وَوَحَيْتَ وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الدِّينِ طَلَسُوا بِأَسْمِمْ تُعْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَصْنَعُ الْعُلُكُ وَصُكُلًا مَرَّ طَبِيٍّ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ يَخْرُؤُا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْعَرُوا مِنْ
فَأَنَا تَسْعَرُ مَسْكُرًا كَمَا تَسْعَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة هود)

فقد أوحى سبحانه إلى نوح البلاغ الحق وأمره أن يصنع العلك تحت عبايته
سبحانه وألا يخاطبه في شأن الكافرين الظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله . وشرع
نوح في إنشاء العلك ، ولكن الكافرين يستهزئون به لجهلهم ولعدم الوثوق من
العرض والمهدف . ويسخر نوح من كل من يسخر منه

ومثال آخر وهو انتصار الإسلام بعد أن كان أهل الكفر قوة ، ولكن التكبر
الطاغي منهم يأتي بعد صلعه وكبرائه صاعراً ، ومنهم من قتل وأسر وذاق مرارة الدل
الغبي . وقد كانوا من قبل يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومثال على
ذلك الوليد بن المغيرة ، وهو السيد في قومه ، يأتي فيه قول الحق :

﴿إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَيَسْأَلُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾﴾

(سورة النمل)

وكان الوليد صاحب ثراء من المال وسعة وقوه من البنى ، وأعرض عن القرآن
وسخر منه . فجعل الحق منه أمثلة للناس ، وطبع على أفعه علامة لآرمه انتضح
بها ، وكاب سؤ له وعاراً لا يفترقه كلما ذكر

وقد برل هذا القول في القرآن وقت ضعف المسلمين . ثم يأتي خبر صر به على
أسه الذي هو على الأنفة والكبرياء والصحية ، ثم تأتي بدر ليرى المسلمون تحقيق
ذلك ، إنه كلام إلهي متحدث به ومتعبد بتلاوته . وهكذا تصدق كل قصية يأتي بها
الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرُونٍ مَكَتَّهِمْ فِي
الْأَرْضِ مَا لَهُ تُمْكِنٌ لَكُمْ وَأَنْ سَلْنَا السَّعَةَ عَلَيْهِمْ
مَدَرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ۞

هذ ما شاهدته قريش في رحلات الشتاء والصيف راوا آثار عاد قوم هود وقبيل
ثمود قوم صالح . وكانت إمكانات عاد وثمود أكبر من إمكانات قريش . إن هريفاً
لا سيادة لها إلا بب وجود الكعبة ، ولو كان الحق ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكن
لهم في الأرض . ها هي دى حصارات عد سبقت وأبادهما الحق سبحانه وتعالى ،
ويوضح القرآن ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِيَّامَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِنْهَا فِي الْبَلَدِ
﴿٨﴾ وَثُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرِيَّ الْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ دِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَمَعُوا
فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَاسْكَنُوا فِيهَا الْقَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ۞

(سورة النجر)

إن حضارات كبيرة لها حيت وحبر في آذان الدنيا مثل حضارة الفراعنة . وكل
ذلك الصولحان لا يحويه أحد من أمراة . وراثت الحضارات وأصبحت أنرا بعد
عين ، وصدق عليها قول الحق :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۚ فَنُفِثْنَا مِنْ أَرْضِنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنِ اتَّخَذَ الصَّيْحَةَ مَثَلًا مِمَّنْ
خَفَّتْ بِهِ الْأَرْضُ وَمِنْهُمْ مَنِ أَهْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يُظْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ۞

(سورة المكيوت)

والحق يجازي كل كافر الجراء الوافي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر قومه بما حدث لغيرهم من اقوام آخرين ، أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرون ، والقرن عادة هو الحبل الذي يحكمه زمن محدود أو حبل محدود ، فإن نظرنا إلى الزمن فالقرن مائة سنة كأقصى ما يمكن ، والحبل الذي يعيش هذا القدر يرى حصيلته وقد صلب رجلاً . وبعلم أن نوحاً عليه السلام عاش تسعمائة وخمسين سنة ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَوْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(مر الآية ١١ سورة العنكبوت)

وحياة نوح على طولها تسمى قرناً . إذن فالقرن هو جيل يجمعه صابط إما رمي وإما معصى ، والقرن الرمي مدته مائة سنة ، أما القرن للمعصى فقد يكون عمر رسالة أو ملك .

ويخبر الحق أهل الكفر بأنه قد قدر على غيرهم وأنادهم بعد أن مكن لهم في الأرض وذلك باللون مختلفة من أنواع التمكين : « وأرسلنا السبا عليهم مفارداً وجعلنا الأنهار تجري من تحته فاهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » ، وهذا الخبر يأتي من السبا بما حدث لقوم سابقين مثل قوم سبا ، فقد قال عنهم الحق في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ رِيسًا فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ خُوفًا مِن رِّزْقِ رَبِّكَ

وَأَشْكُوا لِلَّهِ بَلَدَهُ حَبِيبَةً وَرَبُّهُمْ غَمُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبا)

ومسكن سبا باليمن آية دالة على قدرة الله : حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ، ليأكل أهل سبا من رزق الله ويشكروا بعمه الله . وكان هم سد مأرب ، ووهبهم الله القدرة لئلا يقطعوا من الجبال التي ليس لهم عمل فيها ليحجزوا ماء المطر الساقط من السماء ، كل شيء إذن فعلوه وإنما فعلوه لأن الله قد أراهم وهم أعرضوا عن أمرين عن الرزق الوفير الذي منحهم الله بهاء وأرادوا أن يتمددوا على أنصصهم كما فعل قارون حيث قال : « إنما أوتيته عن علم عندي » ظنوا أنهم قادرون على رزق أنصصهم وكذلك لم يشكروا الله ، ولذلك أرسل الله عليهم سيل العرم ، أي أنه عقاب من حسن العمل ، وهكذا تكون عاقبة الإعراض والكفر بنعم الله فقد

سبط الله عليهم حيوانا من أصعب الحيوانات وأحمرها وهو الغار فنقب السد فانحرق
أمواهم ودفن بيوتهم .

ويخبر الحق رسوله بكل هذه الأخبار يلعب بها ويسه إليها موماً رأوا آثار حصاره
عاد وثمود ، وانزوية سيده الأدلة ، وهالهم الرسول بها حتى يرفوا عاقبة الإعراض
والتكذيب والاستهراء ، ولم يطلب الحق من رسوله إلا البلاغ فقط ، أما إيمان القوم
فليس مكلفاً به صلى الله عليه وسلم ، إن هؤلاء قد خافوا من سيطرة « لا إله
إلا الله » فهم الدين صموا من أنفسهم آله وتسلط بعضهم على بعض فتحيل
القوى أنه إله على الصريح وتحيل لعنى أنه إله على الفقير ، وتحيل العالم أنه إله
على الجاهل ، أما « لا إله إلا الله » فهي تلوى بين الناس جميعاً ، وهم يرفضون
ذلك لأنهم يريدون السيادة . . ومثال ذلك هؤلاء :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى وَجْهِ مِنَ الْقُرَيْشِينَ عَطِشَ ٢١ ﴾

(سورة البرحر)

فهم لم يجرؤوا على الطعن في القرآن ، إنما طلبوا أن تكون السيادة لعنى من أغبياء
القريتين مكة أو الطائف وناقض هذا القرئ مع عملهم وسلوكهم مع الرسول ،
فقط حفظوا كن نفيس حرصوا عليه عند محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو كان
الواحد منهم يرى شيئاً أو مضمراً في أمانة رسول الله لما فعلوا ذلك . ولكن الواحد
منهم بالرغم من التكذيب بمحمد لم يكن يأمن إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فالإسان حيناً نعم مصلحته أمام تكذيبه فهو يعتد مصلحته على تكذيبه

ويبين الحق سبحانه أن إعراض هؤلاء ، وتكذيب هؤلاء واستهراء هؤلاء ،
لا يمت إلى حقيقة أمرك يا رسول الله ، ولا إلى حقيقة القرآن في شيء ، وإنما هو
المناد ، مثلهم مثل آل فرعون الذين جحدوا آيات الله على الرغم من أن أعماقهم
رأت هذه الآيات يقين لا تكذيب فيه .

﴿ وَجحدُوا بِهَا وَأَسْتَفْسَفَتْهَا أَعْيُنُهُمْ فَلَئِمَّا وَلَغُوا فَمَا نَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ ٢٢ ﴾

(سورة النحل)

فقد أنكر قوم فرعون رسالة موسى عليه السلام مع أنهم تأكلوا من صدقها ،
وبكتمهم أنكروها بالأسكبار والعلو والظلم ، فكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب ،
وهذا هو حال المكبرين دائماً لايات الله

رعاهم أولاء مكرون جدد لرسالة رسول الله . يفون الحق سبحانه وتعالى فيهم :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا مِسْحَرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

هذا الكتاب - القرآن - لو نزل إلى هؤلاء المكذبين مكتوباً في ورق من المحسن
المشاهد فلمسوه بأيديهم لقالوا ما قلناه كل مكذب ، إنه سحر ظاهر . وقد طالب
المكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط
من ضمن شروط أخرى قال عب الحق مصوراً جحودهم .

﴿ وَقَالُوا إِنْ نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوطًا ﴿٨﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ حِصَّةٌ مِّنْ نَّجْمٍ
وَرِيعٍ فَنُعْتَبِرَ أَفَئِنَّهُمْ جَنَّتْهَا تَفْجِيرًا ﴿٩﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَآرِجَةً عَلَيْنَا كَيْفَا
أَوْ نَأْتِيَ بِآلِهَةٍ وَّآلِهَتِكَ قَبِيلًا ﴿١٠﴾ وَيَكُونَ لَكَ بَقْتٌ مِّنْ دُخُرٍ أَوْ نَرْقِيَ فِي السَّمَاءِ
وَلَسَ نَوْمٌ لَّيْفِيَّتْ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا نَقْرَةً ﴿١١﴾ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ قُلْ كُنْتُ إِلَّا
بَشَرًا مَّرْسُولًا ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

بعد أن وضع لهم إصعاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ،
كان يفجر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ينجحاً في أرض مكة لا ينقطع ماؤه ، أو
يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بسان من نجيل وعنب . تتحمله
الأنهار ، أو أن يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنزل السماء عليهم قطعاً
كعذاب شديد ، أو أن يتحسد لهم الله والملائكة ليرؤهم رأى العين ، أو أن يكون

لرسول الله بيت من ذهب مرحرف ، أو أن يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله
بقر صديق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع رحمته يزه ذاته أن يتحكم فيه أحد أو
أن يشاركه في قدرته فيمن لهم عن لسان رسوله صلى الله عليه وسلم قوله - سبحانه
وعلى - :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(من الآية ٩٢ سورة الأنعام)

لأن الذي يبحث الآيات هو رب العالمين ، ولا أحد يجرؤ أن يعرض على الله
آياته . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو مستقيل لآيات الله لا مقترح للآيات ،
ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن من يقترح على الله آية ثم تأتي بالكذب بها
بصيه ويناله الهلاك ، هذه سنة الله ، ورسول الله يعلم أنه النسي الخاتم ؛ لذلك لمن
يطلب أي آية من الله حتى لا يزل عقاب الله من بعدها إن كذبوا بها . ويبلغ الحق
رسوله عنو التجبرين المنكرين واستكبارهم

﴿ وَلَوْ زَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَاسْتَوَوْهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

مبين ﴾

(سورة الأنعام)

الحق يعلم أن قلوب بعض المنكرين قد صارت ضللاً لا يدخها الإيمان ولا يخرج
منها الباطل - كما أراد هو لهم - فلونزل إليهم كتاباً في قيرطاس ليكون في مجال رؤية
لعين ولمسوا بأيديهم قلن يؤمنوا . وبأن أمر من الكتاب بالأبدى ؛ لأن الدمش هو
الحاسبة التي يشترك فيها الجميع حتى الأعمى منهم ، ورغم ذلك فسيكفون قائلين :
« إن هذا إلا سحر مبين » ومثل هذا الرد لا يبيع عن عقل أو تدبر أو حكمة .
ولا يتناسب مع القوم الذين عرفوا بالبلاغة والمصاحبة ، وبحسن الفهم وصياغته ؛
لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع ، ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم
متهاً بالسحر منهم فلماذا لم يسحرهم هم ، ولماذا استمعوا هم بالذات على السحر ؟
والسحور ليس له عمل ولا إرادة مع الساحر ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم
ساحراً لصنع من السحر ما يجعلهم يؤمنون .

إن من العجيب وهم أبصر الناس بفسن القول ، وهم أهل النبوغ في الأداء ،

ويعرفون القول الفصل والرأي الصحيح ويميزون بين الحق والباطل : خطبه ، وكتبة ، وشرا ، وشعرا ، وأقوال المسجون ، وأقوال المرسل ، من العجيب أنهم يقسمون أمام معجزة القرآن صهيونيين لا يعرفون من أمرهم رشد ، مرة يقولون : إنه سحر ، مرة يقولون : إنه كلام كهنة ، وثالثة يقولون إنه كلام مجنون .

والقرآن ليس سحر ، لأنه يحدث من البيان ما يمتكون وفوق ما يملكون ويمسكون ، ولا يعمل رسول الله معهم ما يجعلهم يؤمنون على الرغم منهم ، وليس المرأ كذلك بكلام كهنة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذي لم يتلق عبثاً من أحد ، فصلاً عن أن كلام الكهان له سميت خاص ومجمع معروف . والقرآن ليس كذلك . ويعلمون أنه كلام رجل عاقل ، فكلام المجنون لا يسجهم مع بعضه ، وهامودا الحق يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ مَا أَنْتَ بِمُحْصِرٍ ۚ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَحْصُونٍ ۚ وَإِنَّكَ لَعَنَ

حَلْقٌ عَظِيمٌ ۚ ﴾

(سورة القم)

وقد أعد الله رسوله لاستقبال النبوة بقوة العقل ، لا بسفه الرأي ، وله في إبلاغ رسالة ربه نوات لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على خلق العظيم والخلق العظيم - كما تعلم - هو استقبال الأحداث بمكاتب متساوية وليست متعارضة ولا يملك ذلك إلا عاقل . وقد شهدوا هم بخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يأتي هذا الخلق العظيم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المنصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟ كانت - إذن - كل اتهاماتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم سح من إصرارهم على الكفر ، لا من واقع المسوء ، فكل ما قالوه في رسول الله هم أول الناس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

وساموا - إصراراً على الكفر - يطلبون آية أخرى .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَدَدٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَكَّاءَ لَقِصَى

الْأَمْثَرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۚ ﴾

ما الملك ؟ الملك جنس جعله الله من الغيب ، ونحن لا نؤمن به إلا لأن الله الذي آمننا به قال : إن له ملائكة مثلنا قال : إن هناك جنات ، والملائكة من جنس الغيب ، ونحن مستور عما . وهؤلاء المكرون الحاحدون يطلبون نزول منبت حتى يؤمنوا . إذن فهم قد عرفوا أن هناك غيباً وأن طورتهم الأولى تحبس أثراً من منطق السماء لكنهم يتكروا ، وقولهم بالملك دليل على أن في أعماقهم رواسب من دين إبراهيم ودين إسماعيل ، وبقيت تلك الآثار في النفوس لأنها مسألة لا تمس السيادة ، ولو أنزل الحق لهم ملكاً لما آمنوا أبصاً ، فهم مكذبون . ولا يريد الحق أن يظن عليهم سنته برسول الآية التي يعلنونها حتى لا يزل بهم عقابه إن كفروا بها . فلما أنزل الحق عليهم ملكاً كما يطلبون ثم كفروا لقصى الأمر وأهلكوا بدون إيمان . إذ لو تجلى الملك لهم وظهر على طبيعته ما تحملته كياناتهم الشرية .

ولقد نزل الملك بأثارة الدائمة وهو هيب أنزله . سبحانه وتعالى . بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل في رسول الله ما فعل ، ولم يظهر من عمله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أثره فحسب . وهاهنا رسول الله يشرح لنا ذلك لحظة بحيرة الملك أول مرة في عار حراء .

قال الملك : اقرأ

(فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذني فغطى حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطى الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطى الثالثة حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته يرجف فزاده ودخل على روجه السيدة خديجة بنت خويلد ، فقال : (زملون زملون) فزملوه حتى ذهب عنه الروع . وأخبرها الخبر وقال : ولقد خشيت من نصي ، فقالت خديجة : نصي الله عبداً . وهي تعدد صفات وحلق رسول الله العظيم . وكلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر (١) .

هكذا كان الإيمان الأول من خديجة من فور أن عرفت خبر الوحي ويطعن الحق رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا يَدَكَ ۖ وَذَرَكْنَا ۙ الْبَلْعَ أَفْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ ﴾

(سورة الشرح)

وشرح الله صدر رسوله فصار هذا الصدر مهبط الأمرار والعلم وحط من ظهر الرسول الكريم الأعباء الثقيل ، وارتبط اسم الرسول صلى الله عليه وسلم بأصل الإيمان والعقيدة حتى صار اسم رسول الله مقروناً باسمه - جل شأنه - في الشهادة الأولى للإسلام « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .

إذن كان هذا حال رسول الله حين تجلّى له الملك لا بالحقيقة الملكية ، ذلك أن ملك طارفاً بين البيان البشرى والبيان الملكى . فالبيان البشرى يستقبل الأشياء المادية التى تناسب تكوينه ، فإن جاءت له طاقة أعلى منه فلا يمكنه أن يستقبلها إلا إذا أهد الله الملك وصوره بصورة تجعله قابلاً للإرسال ، وأهد الله الرسول ليكون قابلاً للاستقبال . ونعلم جميعاً قصة موسى لما جاء لملاقات ربه ، وقال الله فى وصف ذلك اللقاء :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أُنظِرْ لِيَكَ قَالِ لَنْ تَرَنِى وَلَكِنِ أَنْظِرْ لِي الْجَبَلَ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَوَقَفْتُ رَبِّى فَلَئِمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَتَرَى مُوسَى صَعْقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

والماتع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله ، فعندما تجلّى الله للجبل لتهاكك الصنب صار الجبل دكاً ، أى مفتتاً وخر موسى عليه السلام مصعوقاً من هول ما رأى ، ولما أفاق تب إلى الله وأعلن أنه أول المؤمنين به سبحانه فإذا كان الإنسان قد صعق من تجلّى الحق للجبل ، فكيف يقدر على أن يتجلى الحق

إننا نعلم أن كل تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء، وضررنا بذلك مثلاً من دنيانا العلمية - والله المثل الأعلى دائماً وهو متزه عن كل مثال - نحمد الإنسان منا عندما يدخل الكهرباء إلى بيته لرغبته في الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبموائد الكهرباء المتعددة، ولكنه عندما يريد أن ينام فهو يطلب الانتفاع بقانون الظلمة، فيطفىء المصابيح، ويضع مصباحاً صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوي ؛ لذلك يأتي الإنسان بمحول للطاقة فيستقبل المحول طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويخفضها بصورة تناسب المصباح الصغير . وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف في الليل لنستفيد من قانون الظلمة للنوم .

وقد اعتق الحق علينا أنه خلق النور وخلق الظلام، وكل منهما له مهمة . فإذا كان خلق النور والضوء والكهرباء قد أتاح للإنسان بناء حضارة، فالظلام أتاح للإنسان أن يرتاح وتسكن نفسه فيقوم ممثلاً بالنشاط والحياة . وإذا كنا نحتفظ في الليل ببعض نور لا يزعج، فنحن نفعل ذلك حتى لا نعطى الأشياء أو نعطلهم بها إذا ما قمنا في الليل لقضاء حاجة

وكذلك الإنسان . إنه لا يستطيع بضعفه أن يأخذ عن الله مباشرة . . . ومن رحمة الحق بالخلق أن جعل بينه وبين الخلق وسائط، يتلقى الملك عن الله ، والملك وسيط، والملك ينقل إلى الرسول المصطفى، والرسول المصطفى وسيط، ومن تعفيل أهل الكفر أنهم طالبوا بإنزال ملك رسول . ويرد الله عليهم في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا ابْتِغَاءَ مَوَازٍ رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَحْمِلُونَ مِثْقَالَ نَجْمَةٍ لَفُتِلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٦﴾ ﴾

[سورة الاسراء]

لقد طالبوا - جهلاً - أن يزل إليهم ملك رسول بالهدى، ويأمر الحق رسوله أن يرد عليهم بأنه لو كان بين البشر ملائكة . أى لو كان هناك ملائكة يمشون في الأرض لنزل إليهم الملك كرسول . ولا كان هذا غير حاصل، فقد أرسل الحق

رسولاً من البشر ؛ لأن المفروض أن يُبلغ الرسول وأن يكون كذلك أسوة سلوكية للمنبح ، بأن يطلق المنبح على نفسه ، فلو نزل ملك كرسول وطلق المنبح عن نفسه لقال له البشر : إنك ملك تقدر على ما لا تقدر عليه وأنت لا تصنع أسوة لنا ، لذلك كان لا بد أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم أنفسهم حتى يكون أسوة لهم وقدوة

إن هذا هو ما يعطى الادعاء بالوحي عيسى عليه السلام أو بنوته لله ؛ لأن عيسى عليه السلام طالبهم أن يفعلوا مثله ، وأراد الحق ببشرية الرسل أن يؤكد القسوة والأسوة في الرسل ، ولذلك قال : « ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر » ؛ لأن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشرافات الملك لأهم غير معدّين لاستقبال تلك الإشعاعات والإشرافات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ ٥١ ﴾

إذن فلو أراد الله أن يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معينة الملك على صوره الأصلية ، وقد يهلكون عند رؤيته (وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى ونخططنا عليهم بتمثيله رجلاً ما يخلطون هم على أنفسهم فلمهم يقولون - حيث - إنما أنت بشر ولست بملك ، وقد أمر الله الملك على صوره الشر كما حدث مع خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول تعالى

﴿ وَتَبَيَّنَ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥٢ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٣ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ طَيِّبٍ ٥٤ ﴾

(سورة الحجر)

لقد أنزل الله الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فجاء منهم بعد أن قرب العجل وراهم لا يأكلون إلى أن قالوا له ما يطمئنه من خبر بشارة من الله ، بأن

يولد له الخلام إسحاق من وجهه « سارة » بعد أن رزقه الله من قبل إسماعيل من « هاجر » .

وكذلك أنزل الحق إلى مرهم البتول ملكاً وقتل لها بشراً سوياً لينبئها بمحمدنا بهيى عليه السلام . إذن فالملك يتجسد في صورة بشرية عندما يرسله الله في مهمة إلى البشر ، لأن الملك لا يأتي إلى البشر على حقيقته . ومن إيمان الله هي رسوله أنه أعطى له الفرصة ليرى جبريل على حقيقته مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة حين تجسد له على هيئة دحية الكلبي ومرة في صفة رجل مسافر جاء يسأل الرسول عن الإسلام والإيمان ، وحديثنا عنه عبد الله بن عمر قائل :

(حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبته إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . قال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فاصببت له يسأله ويصدق . قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطارئون في البنيان . قال : ثم انطلق فلبيت ملياً ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)^(١)

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، وهذا الحديث من الأحاديث التي تقرر بها مسلم عن البخاري ورواه ابن حبان في صحيحه وخرج في صحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يلزم للناس ، فأتته رجل فقال : يا إيمان ؟ فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر الخ . رواه أحمد في مسنده ، ورواه الترمذي وغيره أنه بدأ بالسؤال عن الإيمان .

إذن ، فبجانب بيشريتنا لا يستطيع رؤية المثلث إلا بعد أن يجسده الله بشراً ، ولذلك قال الحق « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ونلبسنا عليهم ما يلبسون » إذن فاللبس موجود مدليل أن الله أرسل الملائكة في صورة بشر لإبراهيم عليه السلام ومريم ابنة عمران وعحمد صلى الله عليه وسلم وهو جالس بين قومه

ويصل الحق سبحانه وتعالى رسوله من بعد ذلك قائلاً .

وَلَقَدْ أَمْسَهَرِيْ بِرُسُلِيْ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ
سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِمْ يُسْتَهْزَءُونَ ﴿١﴾

هنا يخبر الله رسوله أن أهل الكفر كثيراً ما سحروا من قبل بالرسل السابقين وأحزاهم الله بالعذاب الذي أنذر به أهل التكذيب لرسول ، فالذين يسحرون بخير الساء يحيطهم سبحانه بالعذاب جزاء لما كانوا يستهزئون .

ويقول الحق سبحانه وتعالى

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ
عَلَقِبَةُ الْكَذَّابِينَ ﴿١١﴾

نعلم أن الحق لم يقل أبداً سيروا على الأرض ، لأن الأرض ظرف يسير فيه الإنسان ، والإنسان مطروح في الأرض وقد حدث هذا البلاغ من الله قبل أن يصل بالعلم إلى معرفة أن لأرض كروية ومعلقة في الهواء ، وأعواء يحيط بها ، وأن الهواء هو أقوات الإنسان بما فيه من أوكسجين وبما يعدي النبات من ناي أوكسيد الكربون ، ونعلم أن الإنسان مصير من الطعام لأسابيع ويصير على الماء لأيام

ولا يصبر على انقطاع الهواء عنه للحطاط . ولذلك لا يملك الله الهواء لأحد أبداً ، وهكذا عرفنا أن الهواء من جنس الأرض . وعندنا يسير الإنسان فلهواء يحيطه ، وعلى ذلك فهو يسير في الأرض . وهذا من الإعجاز الأداني في القرآن ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

وما في سورة الأنعام يقول الحق سبحانه .

﴿ قُلْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ١١ ﴾

(سورة الأنعام)

ما الفرق بين الاثنتين ؟ خصوصاً ونحن نعلم أن الفاء من حروف المعطف وكذلك « ثم » هي أيضاً من حروف المعطف وكلاهما حرف يفيد الترتيب ، ولكن العارق أن الفاء تعني الترتيب مع التعقيب أي من غير تراجع ومضي مدة مثل قولنا : جاء زيد فعمرو ، أي أن عمراً جاء من فور يحيى ، زيد من غير مهلة ولكن « ثم » تعني طول المسافة الزمنية الفاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فعندما يقول الحق :

﴿ فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

فكان النظر والتدبر هو المراد من السير وبذلك يكون سير الاعتبار

ويقول الحق : « قل يسيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » يعني أن الإنسان قد يسير في الأرض للتجارة أو الزراعة أو لأي عمل ، وعليه أن يتفكر في أثناء ذلك وأن يتأمل إذن فهناك سير للاعتبار وسير للمصلحة والسير للاعتبار يعني أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة ، أما السير للمصلحة فهو أن يأخذ الإنسان العبرة ضمن المصلحة وكان سير فريش يفوقها إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل نمود أو قوم عاد أو غيرهم . وكان عليهم أن يأخذوا العبرة في أثناء سعيهم لتجارهم .

ويقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ
عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيََكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴾

كأن الحق يعلم رسوله السؤال والجواب ؛ حتى يتعلم الناس من خلال ذلك أن
كُلُّ المَلَكِ لله ؛ لأنهم مهملوا بحثوا عن مالك للكون فلم يجدوا إلا الله ، حتى المكذبين
منهم قال الحق عنهم :

﴿ وَلَمَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَجَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قَالُوا
يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة العنكبوت)

وعلى الرغم من شركهم بالله لا يقدرّون إلا على الإقرار بأن الله هو خالق كل
شيء ؛ لأن الإنسان قد يغتر بما لذاته من اختيار ، لكن عندما ينظر لما يقع على داته
من اضطرار فهو يتعرف فوراً على الإيمان . وقد يختار الإنسان أشياء لكن هناك
أحداثاً تقع عليه لا اختيار له فيها وذلك ليبه الحق خلقه أنه محال لما يريد وأنه يحكم هذا الكون وأن
الاختيار ما كان إلا ليختبر الإنسان نفسه باتباع تكاليف الله .

والأحداث ثلاثة ، حدث يقع عليك ، وحدث يقع عليك ، وحدث يقع منك
وما يقع عليك ليس لك فيه اختيار ، وما يقع عليك لا اختيار لك فيه ، ولا يبقى لك
إلا ثلث الأحداث وهو ما يقع منك . وأنت محكوم في ذلك بقوسين لا اختيار لك
فيهما : قوس الميلاد وقوس الموت ، إذن فالأمر كله لله .

ويطمش الحق خلقه قائلاً : « كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » وهو قول لطيف يشبه الحق
عباده حتى لا يظن الناس أن الله يعاقبهم دون حساب ؛ لأنه الخليم ذو الفضل وهو
القاتل .

﴿ قُلْ فَضَّلِيَ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ عِندَكَ خَيْرٌ حَقًّا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

ويعفو سبحانه عن الكثير ، وبإب رحمة ومصله مفتوح ويضج التوبة لكل عاصي . ومن فضل الله أنه جعل معصاً من الكفر يقعون في بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد ذلك سيوفاً للإسلام ، وسبحانه الرحيم الذي يجمع لتسبب يوم القيامة الذي لا ريب فيه ولا شك ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم وبأق الكافر على دعم الله ، والمؤمن يتيقن رحمة الله وفضله ويفرح بلقاء ربه

والكافر - والعيذ بالله - قد خسر نفسه بعمه مصداقاً لقوله الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » وخسروا انفس مترتب على عدم الإيمان ؛ لأننا لو نظرنا إلى الغنيات وإلى الوسائل لوجدنا أن الوسيلة تأتي قبل العاية ، وبكر في التحضير العمل العاية تنضج قبل الوسيلة ، فالذي يستذكر إنه يستحضر في ذهنه العاية وهي النجاح ، فيمثل المجهود لينجح ؛ لأننا نعلم أن كل شرط هو وقع بين أمرين ، بين جواب دافع ، وجواب واقع ؛ فالنجاح دافع لتساقط ، والمداكرة تجعل النجاح واقعاً ، ويقول ابن الرومي

الأمس يُرى عايضاً فَنَلْ مذهباً
ومرّ أيسر ولعيات بعد المذهب ؟

وهذا القول من غير بعيد ؛ لأن الإنسان عليه أن يتجه إلى العاية وأن يتعرف على الوسيلة التي توصله إلى العاية ، فإذا كانت العاية أن يذهب الإنسان إلى الله ، والوسيلة هي المنهج ، فلماذا الخيرة إذن ؟ وهكذا نعلم أن الذين لم يؤمنوا قد خسروا أنفسهم لأنهم لم يميزوا الغاية الدافعة وهي الذهاب إلى الله والتزول على حكمه ، عن العاية الواقعة وهي الوسيلة ، وسبحانه قد يسرها لعباده إذ قد أن لهم بالمنهج الذي يسرون عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٥٢﴾

إن من عظمة الموجود الأعلى الواجب الوجود أنه يتكلم عن نفسه بضمير الغيب وهو سبحانه القائل في أول بعض الآيات : « قل هو الله » .

ولا قل « هي أمر ، فكان الحق حين يقول : « هو » فلا يمكن أن تطلق « هو » إلا على الله ولا تصرف إلا الله « وله ما سكن في الليل والنهار » وكلمة « سكن » هي من مادة السين والكاف ولترو ، وتأتي لمعان متعددة ، فتكون من السكنى أى الاستيطان ، وتكون من السكون الذى هو ضد الحركة . والمثال على الاستيطان هو قول الله لآدم :

﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إن الحق سبحانه يقول هنا « وله ما سكن في الليل والنهار » فكان الليل والنهار ظرف ، وكل الرجوع مطرووف فيه . وظرفية الليل والنهار تأتي على ظرفية المكان وهو الأرض . وكل مكان في الأرض يأبى عليه الليل والنهار . فإن أردنا الاستيطان في السكن فهي موجودة ، وإن أردناها من السكون - وهو ضد الحركة - فهي موجودة ؛ ذلك بأن كل متحرك يؤول إلى ساكن ، والإنسان سيد الحركة ثم يموت أو يسكن في الأرض وهكذا نرى أن الجنس الأعم الذى يشملها معاً هو « ما سكن » ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٧ ﴾

(سورة الأنعام)

وحينما يقول : « وله ما سكن في الليل والنهار » فهو يتكلم عن الزمان ، واحتوائية الزمان للزمانيات ، أى للأشياء التى تحدث في هذا الزمان . والإنسان كما نعلم حدث . وكل ما يطرأ عنه حدث ، وكل ما في الكون حدث ، وقد أحدثه الحق الواجب الوجود

ومادام الحدث قد وجد فلا بد له من زمان ولا بد له من مكان . أما مكان الحدث فهو السماء والأرض ، وما بينهما . وأما زمان الحدث فهو الليل والنهار

اذن فالحق قد تكلم عن خلق الزمان من بعد أن أعلن أن الله خالق المكان

(من الآية ٩١ سورة الأنعام)

وهكذا نفعل أن الزمان والمكان قد وُجدا عندما شاء الله أن يحدث هذا الكون .
ولا تقل أبداً أيها الإنسان : أين كان الله قبل أن يخلق الكون ؟ لأن « أين » هي
بحث هي مكان ، و« متى » هي بحث عن زمان . و« أين » و« متى » إنما وجدتا بعد
وجود الخلق في الكون . والكون هو ظرف قدر أى شيء ثابت . والزمان هو ظرف
غير قار ، لأنه يكون مرة ماضياً ، ومرة يكون حاضراً أو مستقبلاً .

والحق سبحانه عندما قال : « وله ما سكن في الليل والنهار » أي أن له الظرفين
القار وغير القار . أي له سبحانه الساكن وكذلك له ما يتحرك في الكون ، لأن
كل متحرك يؤول أمره إلى سكون أو أن قوله الحق « وله ما سكن في الليل
والنهار » أي ما حل في الليل والنهار ، أي له سبحانه ما حل في الليل والنهار متحركاً
كان أو ساكناً .

والحق يدل على هذه الآية بقوله : « وهو السميع العليم » فالسمع متعلق بالمسموع أى الذى له حركة ، والعلم متعلق بالمسموع والمختص بالسموع وكل شئ من آلات الإدراك ، لذا جاء قوله - سبحانه - : « (وهو السميع العليم) يشمل المحرك والسكنى ، فسبحانه لا يعزب ولا يغيب عنه شئ » .

ومعلوم أنه إذا أُخبر الحق عن نفسه بصفة من صفات يوجد مثلها في البشر فنحن نأخذها في إطار « ليس كمثله شيء » . فأنت أيها الإنسان لك سمع فيقال عنك : سميع . ولك علم فيقال : عليم . ولك بصر فيقال : مبصر . ولك قدرة فيقال : قادر . وقد تكون ذا مال وفيقال : غني . ولك وجود فيقال : موجود . وأنت حي فيقال : حي .

لكن هذه الصفات التي فُك هي عين الصفات التي في الله ؟ لا ، لأن صفات الله إنما تأخذها في إطار وليس كمثله شيء . ونحن نشاهد ذلك في أنفسنا ؛ فالإنسان منا له حال حياة ، وحال موت ، وفي حال الحياة له حالتان : حالة يقظة ، وحالة نوم . وفي حالة اليقظة نحن نرى بقانون البصر ، ولهذا البصر حدود ؛ فهو محكوم بقانون الضوء ، وكذلك السمع محكوم بقانون الصوت والموجة والذبذبة

ومع ذلك فالإنسان بنام ويغضض عينه ويرى رؤيا فيها ألوان حمراء وخضراء وغيرها ، فبأي شيء أدركت الألوان وهبئك مغمضة ؟ إذن فإدراك في البشر رؤيا بدون عين فلا نقل من رؤيا الله لنا إن به عيوناً مثل عيوننا ، بل هو يرى في إطاره ليس كمثله شيء . إنه سبحانه وتعالى يقوم بحكم عباده في الزمان والمكان في حالة يقظتهم وفي حالة نومهم .

ومثال من حياتنا اليومية ، نحن نجد الرجل وزوجه يتاملان في فراش واحد ، وقد يرى الرجل في المنام أنه يواجه أعداءه ، وترى الزوجة نفسها محاطة بسعادة الأبناء والأحفاد ، ويستيقظ كل منهما ليحكى ما رأى في أكثر من ساعة ، على الرغم من أن مع الإنسان لا يعمل في أثناء النوم إلا السمع ثوب .

إذن ، ففي النوم تلغى الحسية وكذلك الزمن ، والمكان . فإذا كانت تلك هي القوانين التي تحكم الإنسان ، فعلينا أن نعرف أن خالق كل القوانين وهو الحق لا يمكن إدراك صفاته ، وعلينا أن نأخذها في إطار : ليس كمثله شيء .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ آخِذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ يُطِيعُكُمْ وَلَا يَطَعُهُمْ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

والهمزة هنا في « أغير » بسموها همزة الإنكار كقول قائل . أليس أباك ؟ إنها ليست استفهاماً بقدر ما هي توبيخ ولوم . وكذلك : « أغير الله آخذ ولياً » أي أن الحق يأمر رسوله أن يستنكر اتخاذ ولي غير الله

إن اتخاذ الله كولي هو أمر ضروري ، لأن الإنسان نظراً عليه أحداث تؤكد به أنه ضعيف وله أغيار ، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوي إلى من هو أشد منه قوة

ولا يتغير إن الولي - وهو الله - قوته لا يمكن أن تنصير ضعفاً ، وغناه لا يمكن أن يتقلب فقرًا ، وعلمه لا يمكن أن يتحول إلى جهل إنه مُغَيَّرٌ ولا يتغير ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه ولياً لهم ، فهو صاحب الأخبار .

والحق سبحانه وتعالى يعلم خلقه أن يكونوا أهل حكمة ؛ يضعون الأمور في نصابها ويتوكلون عليه ، فهو الحي الذي لا يموت . ونلاحظ أن الحق هنا يأمر رسوله بالبلاغ عنه . وتتجلى هنا دقة الأداء القرآني فيأتي البلاغ كما تزل من الحق حرفياً

مثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

رسلنا الرسول ﷺ بالنص القرآني كما تزل عليه ، مبتدئاً بكلمة « قل » وبقائه الرسول لنا بأمانة البلاغ عن ربه . وهو هنا يقول : « قل أخبر الله أئخذ ولياً » . وهو الإله الذي جعلت كماله في الآيات السابقة ؛ الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور وله ما سكن في الليل والنهار ، هذا الإله الحق هو الجدير بالعبادة .

ويريد الحق لرسوله أن يستخرج من الناس الإجابة ، لا أن يقول هو : لا أئخذ ولياً غير الله ، وسبحانه يأمر رسوله أن يسألهم : « قل أخبر الله أئخذ ولياً » . وليكن السؤال مطروحاً منك يا رسول الله تبليماً عن الله ، وتمطى لهم الحرية في الإجابة ، وسيكون الجواب كما تريد .

وعندما يسمع الإنسان مثل هذا السؤال لا بد أن يسأل نفسه ويدير عقله كي يجد جواباً ولن يجد الإنسان جواباً سوى أن يقول : ليس لي ركنٌ غير الله ، فالولي هو القريب الذي ينصر الإنسان في ضعفه ، وإن استصرخه جاء لينقذه

ولا يستصرخ الإنسان أحداً إلا إذا انتابه حادث جلل ، فإذا ما جاء القوى لبعث صاحب الصرخة فهو يطعن إلى أن من جاءه يمينه ويخلصه . واتخذ الولي أمر فطري في الكون ، والأمر المنكر أن يجعل الإنسان لنفسه ولياً غير الله . ونحن المؤمنين - يتجسد بعضنا بعضاً أولياء في إطار الولاية لله مصداقاً لقوله الحي .

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

(سورة النوبة)

ويتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبة والصبرة طبعاً للتعاهد الإيماني بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى ، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج ، وينهى بعضهم بعضاً عن المحظورات التي حرمها الله ويتواصلون مع الحق بإقامة الصلاة ، ويؤدّون حق الله في مالهم بالزكاة ، ويطيعون الله ويمتثلون لأوامر رسوله ، وهم بذلك ينالون وعد الله الحق بالرحمة ، وهو سبحانه القادر على رعايتهم ، وهو حكيم في صيانتهم ، عزيز لا يغلبه أحد

إذن فأنت تطلب الولي لحظة الضعف ، ولحظة الشدة ، ولا يوجد إنسان استوثق له كل زوايا الحياة فيصير قوياً لا يضعف أبداً ، أو يصير ضعيفاً لا يفتر أبداً . ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، فلم ير قوياً ثبتت له قوته ، ولا ضعيفاً ثبت له ضعفه ، فالإنسان مابن الأعيار ، وتأتي له حالات هرق قدرته ، لذلك فهو يسأل عن يمينه ويسأله . والمؤمن يجب أيضاً أن يكون قوياً لمساعد غيره ، لأن الحق سبحانه وتعالى قد وزع المواهب على خلقه في الكون ليضمن بقاء الولاية واستمراريتها ، فأتت في احتياج إلى عمل إنسان آخر ؛ لأنك ضعيف في ناحية وعيرك قوى فيها ، الطبيب يحتاج إلى المهندس ، والمهندس يحتاج إلى الطبيب ، والطبيب والمهندس يحتاجان إلى العلاج ، والعلاج يحتاج إلى عمل المهندس والطبيب ، والطبيب والمهندس والعلاج يحتاجون إلى عمل المحامي .

هكذا وزع الله المواهب في الكون ، ولم يجعل من إنسان مجعاً لكل المواهب . وذلك حتى يتبدد المجتمع لا بالتفضل والتكرم بل بتسائد الحاجة . فكل إنسان هو سيد في زاوية مامن روايا الحياة ، وبقيّة الزوايا يسودها غيره من الشر ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَمَّا خَسَفْنَا بِهَنُومٍ مَّعِيشتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

هذا هو الإعلان من الله سبحانه وتعالى بأنه وزع المواهب بين البشر ليتسلطوا ويُسخر بعضهم بعضاً في قضاء حوائج بعضهم بعضاً لتنظيم أمور الحياة . وفي هذا التقسيم رحمة من الحق بالخلق فلو تسوى الناس في الذكاء ، وصلوا كلهم من العباقرة ، فمن هو الذى سيتولى أمور تنظيم الشوارع ؟ ومن الذى سيقوم بأعمال وصيانة المباني ورعاية وإطعام الحيوان والقيام على أمره ونحو ذلك من الأمور التى لا تنظم الحياة إلا بها ؟

وكذلك يرى الرجل الذى ينزح آبار المجارى ويخرج فى الصباح قائلاً : يا فتاح يا عليهم ، يا رزاق يا كريم ويطلب بئراً جديداً من المجارى لينزحه حتى يكسب قوت نفسه وعياله وكل منا مضطر ومحتاج إلى غيره ، وهذا هو معنى

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

إذن فالخداة الولي هو أمر عطري . والإيمان بالله يعطي ذكاء الاختيار الولي . فالإنسان المؤمن عليه أن يختار الولي الذى يجده عندما يحتاج إليه ، لذلك فعليه أن يختار ولاية الله ، ولا يختار ولاية الآخرين . فيسخر الله للمؤمن حتى عبده ليخدمه . لذلك يلفت الحق على لسان رسوله : « قل أغير الله أتخذ ولياً » والذين يتكبرون علينا أن نتخذ الله ولياً ويريدون أن نتخذ غيرهم يرون في أنفسهم المثل . فقد يخيب رجالهم ، فالإنسان منهم قد يتخذ إنساناً مثله ولياً ، وساعة يحتاج إليه يجده مريضاً ، أو غائباً أو تعير قلبه عليه ، لكن المؤمن يختار الله وليه لأنه الذى لا يخيب ولا يخير ، ولا يضعف . ولا ينكر القرآن أن يتخذ الإنسان له ولياً من البشر ، ولكن الحق يدلنا على أنه الولي الحق ، وأن المؤمن عليه أن يتخذ إخوته المؤمنين أولياء له ، لأنها ولاية من الله وفي الله .

وأنت أيها المسلم حين تختار الحق سبحانه وتعالى ولياً لك فهو الذى يُحضرك لك كل ذوايا المواهب ويمدحها ويهيئها لتكون في خدمتك ، لأنه سبحانه وتعالى قفاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم وقد خلق الحق السموات والأرض على غير

مثال . وسبحته قد أبدع هذا الكون دون نموذج مسبق . وحين أراد سيدنا عيسى عليه السلام أن يثبت لقومه معجزته جاء بالطين وجعله كهية الطير ، إذن فهناك مثال سبقه ووجده واتبعه . وعيسى إنسان من الخلق ، أما خالق كل الخلق فقد خلق السموات والأرض على غير مثال . وأثبت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خلق السموات والأرض لأنك تراهم كل لحظة بصورة رتيبة ، وقد نظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿ تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَسَكُنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة فاطر)

وهو سبحانه يقسم أب خلق السموات والأرض مسألة أكبر وأدق من خلق الناس لكن أكثر الناس لا تعلم ذلك .
فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَأْتِيهِ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (سورة الفارحات)

وفي قوله (وإنا لموسعون) إشارة إلى خلق هذا الكون المرئي وغير المرئي ، لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، وما وراء ذلك من اتساع ذلك الكون ما لا يفكره العقل ولا يمكنه تخيلده ، وهذه السعة الملهمة هي من قدرة الله سبحانه وتعالى (وإنا لموسعون)

ونجد الحق يستخدم كلمة : « فاطر » مرة في شيء مُصلح ، وأخرى في شيء مُفسد . والمثال للشيء المصلح هو ما يقوله الحق هنا : « فاطر السموات والأرض » أي أنه خالق السموات والأرض هي غير مثال سابق وباعتبار محكم .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ (سورة الانشقاق)

أي أن الحق ينيه هنا إلى يوم الهول الأعظم الذي تنشق فيه السماء وتتساقط فيه

الكواكب فلا يؤدي أي شيء منها مهمته ، لأن الله - سبحانه - سلبها ما كانت به
صالحة

ويقول أيضاً .

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُتٍ فَإِذْ يَجْعَلُ
الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ﴾ (سورة الملك)

فالخلق لا يعجز عن شيء ، وهو الخالق لسبع سموات يتفان بعضها فوق بعض ،
فلا يرى الناظر أي خلل في هذا الخلق ، ويُبعد الإنسان النظر إلى السماء قل يجد
أي خلل من شقوق أو فروق

والفطور هنا معناها شقوق . إذن فالخلق - بشمام قدرته - يعطي الشيء من
الصمات ما يجعله صالحاً لأداء ما تحق له فلا يظن ظان أنه خرج عن قدرة خالقه -
سبحانه - وخلق السموات والأرض بشمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أن
يفطرهما ويجعلهما غير صالحتين في أي وقت شاء ، ومنلهما الشمس تُكْوَرُ ،
والجورم تُطْمَسُ ، والجبال تنسف .

وقال عالم من العلماء . ما فهمت كلمة « فاطر » إلا حين جاء إسرائيلي ، وقال :
فلان ينازعني في بثر أن علقوته . أي أن الإسرائي هو الذي بدأ حفر البثر . إذن فاطر
السموات والأرض . أي الذي خلقهما على غير مثال وسبحانه وتعالى القائل
﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ
كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۚ﴾ (سورة الانبياء)

وهذا القول الحكيم لم يصل إلى فهمه العميق من سبقونا ، لكن إنسان هذا
العصر الذي نعيشه فهمها بعد أن توصل العلماء إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة
واحدة وفصلتهما الحق بإرادته . وجعل من الماء حياة لكل كائن حي .

إذن هو سبحانه قادر على كل شيء ، ولا يخرج شيء عن نطاق قدرته . وهو

سبحانه قبل أن يمن علينا بخلق الحياة فهو يحثنا أن نأخذنا الغرور بهذه الحياة ،
ولذلك قال :

﴿ تَسْبِرَكُ الَّذِي يَهْدِي إِلَيْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥١ ﴾ الَّذِي خَلَقَ الصَّوْتِ
وَالْحَيَاةَ لِيُبْلِغَكُمْ إِلَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ٥٢ ﴾

(سورة الملك)

وكانه يه الإنسان إلى أن يستقبل الحياة ، ليحرف أنه سبحانه أوجد ناقص الحياة
وهو الموت ، فليأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة
برتبة وأبدية ، لأن هناك ناقص الحياة وهو الموت

وها هو ذا سبحانه يقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ٥٣ ﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ٥٤ ﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ
الصَّوْتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٥٥ ﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَتُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا
تَعْلَمُونَ ٥٦ ﴾

(سورة الواقعة)

والإنسان لا يرى الحيوانات الموية المفلوكة منه في رحم زوجته ، ولا أحد يقدر
على ذلك ويراه حتى يصير جنيناً ثم بشراً ، ولكن الحق هو المقدر والخالق ، إنه
القادر الذي أعطانا الحياة وفنر علينا الموت ولا غالب له ، إنه يبدل صورتنا حين
يريد ويخلق خيرنا ونشئنا في صور لا نعرفها ، وهو الوهاب للحياة ، وهو الذي
يتزعمها بالموت

ويقول لنا :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ١٣ ﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّادُّونَ ١٤ ﴾

(سورة الواقعة)

هنا يسها جل وعلا إلى أن المروج الذي مأكله ، والثمار التي لجسها من الأرض
ليس لنا فيها إلا إلقاء البذور ، وهو سبحانه الذي أودع في البذرة عجائب مختزنة ،
في البذرة ما يقبها إلى أن يوجد لها جذير ينص غذاءها من الأرض ، فتتم لها

ساق ، ثم تقوى الجنود ، وتشتد الساق . ولا عمل للإنسان إلا إلقاء البذرة وحرث الأرض . ومع ذلك احترم الحق عمل الإنسان فقال :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كَحَرْتُونَ ﴾ ٣٣

(سورة الواقعة)

وعن الماء يقول الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ ٣٤ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ ٣٥

لَوْ كُنَّا جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا لَكُرُونُ ﴾ ٣٦

(سورة الواقعة)

هذا الماء العذب الذى شربه إنما أنزله الله من انسحاب المطر وعملية الإمطار هذه غاية فى التعقيد . والماء السارى فى الأنهار إنما جاء من المطر الذى تم إزالته من لسياء . فقد أرسل الحق أشعة الشمس لتبخّر الماء من البحار ، وتتجمع فى سحب ثم يجرى الله عليها أمره من مرور تيارات هواء باردة فتسقط مطرا

ونحن عندما نفكر كوب ماء فى معمل ، نأخذ بموقد وإناء ووقود ، ونضع الماء المراد تقطيره فيه ، ثم نكتب قطرات البخار بواسطة تيار من الهواء البارد . ومثل هذه العملية تكلفنا الكثير من العمل الدهني والمادي لبناء مثل هذا الجهاز حتى نفطر كوباً من الماء ، فما بالنا بالمطر الذى ينزل مدراراً وسهولاً

إننا نجد ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من ماء ، إنه - سبحانه - سطره على رقعة واسعة ، حتى يسهل البحر وإذا ما نثرنا كوب ماء على سطح منسج فى أبرد مكان فليسوف يتبخّر . وهذا الانتشار المسطح للمياه هو الذى يسهل عملية البحر .

ويصعد البحار من مياه المحيطات والبحر إلى أعالي الجو ثم يتكثف فى صورة قطرات صغيرة من المياه تتساقط كمطر تعلوت من منطقة إلى أخرى . وسبحانه قد أعدّ لكل أمر عدته . وهو أيضاً القادر على أن يذهب صلاح هذا الماء .

ويقول لنا الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) الَّتِي أَنتُمْ أَشْجَاتُمْ فُجِّرْتُمْهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِقُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَجَاةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٣) ﴾

(سورة الواقعة)

وسكرنا هنا سبحانه بأنه الذي خلق النار التي نشعلها ، وقد جاء بالمصدر لأول للوقود ، وهي الأخشاب التي كانت أشجاراً خضراء وبعد ذلك جفت وصارت أخشاباً يوقدها ونشعل فيها النار . وفي كل ذلك تتجلى لنا قدرة الحق سبحانه وتعالى ، فتسبح باسمه العظيم :

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾

(سورة الواقعة)

ونتزّه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك في أمور الخلق والكون إذن فعندما يقول الحق سبحانه مبلغاً رسوله :

﴿ قُلْ أَشْهَرُ اللَّهُ أَنْتَهُدْ وَلَيْتَا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ (١٤) ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأنعام)

هذا السؤال يجبرنا على أن ندير أمر اختيار الولي في رؤوسنا وأن نُعَمِّلَ أفكارنا ، وأن نعرف أن اتخاذ الولي أمر وارد على النفس البشرية ، ولكن من الذي يستحق أن نتخذ ولياً؟ ولماذا في تربية الحق لنا ما يعيننا على استبطاء الفكرة السليمة والرأي الرشيد حين يقول لنا :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

ونعلم أن الإنسان لو اتخذ ولياً من البشر فهذا البشر عرضة للموت ، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد في هذا الكون ، ولكنك عندما تتوكل على الله فهو حسبي لا يموت أبداً ، وهو سبحانه : « فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » وهو الذي خلق السموات والأرض عسى فير مثال ، وهو الذي يطعمنا من مطمر كثور الأرض التي لرادع قوتاً لنا . ولماذا جاء الحق ها بمسألة الطعام ؟ إن الطعام لون من الرزق ،

والرزق - كما نعلم - رزق يستمع به مباشرة ، ورزق يأتي لنا بما ننتفع به مباشرة . فلو أن إنساناً في صحراء وسط جبل من الذهب الخالص ولم يجد كروب ماء ولا رخيص خبز ، فجبل الذهب لا يفاوى شيئاً .

إن جبل الذهب رزق ولكن لا يتنفع به مباشرة . والرزق الذي ننتفع به مباشرة هو الطعام والشراب والكسوة . ونحن نحتاج إلى الطعام والشراب كل يوم ، ونحتاج إلى ملابس جديدة مرة كل سنة أشهر في المتوسط . إذن فالرزق المباشر هو الخوف الأساسي للحياة .

والولي الذي ينصر لا بد أن تتوافر فيه القدرة على الإطعام الذي يمدنا بالقدرة التي هي أساس الحياة إنها طاقة استمرار الإنسان على الأرض . فالإمام تطعم شعبها وهي تطعم أيضاً بما يأتيها زوجها من طعام . ونحن سبحانه وتعالى وحده هو الذي يطعم كل الخلق ولا يطعمه أحد . ونحنما سلسل كل خطأ في الدنيا نجته يتول إلى الله تعالى

إذن فلا تجعل وليك في الوسائط ، بل اجعله في الغايات ، لأن الوسائط كلها راجعة في الحقيقة إلى الله ، ويأتي الأمر من الحق لرسوله : « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

وهذا الأمر يجرى من الأمر الأعلى وهو الله . فالرسول لم يقل : إن هذا الأمر منه ، لأنه بشر مشن ، وسبحانه أبلغ رسولنا أن يكون هو أول من أسلم ، وأن ينال شرف الالتزام بمبادئ الإسلام ، والمثال على ذلك أن كل قائم مسلم هو القدرة لغيره ، فهذا هو ذا طارق بن زياد الذي فتح الأسلس وهي ملك عريض ، ونزل من السفن وقال لجنوده : أنا لم أسركم أمراً أنا عنه بنجوة - أي أنا بعيد عنه - بل أنا معكم ، واحملوا إلي عندما يلتقي الجثمان حامل بنفسه على طاعة القوم (لربيق) فكانت له إن شاء الله . إنه لم يأمر بأمر لم يطبقه على نفسه ، بل طبقه على نفسه أولاً ، وآفة الأوامر أن كل إنسان يلزم أمراً ولا يطبقه على نفسه .

ومن قبل ذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد حكم نفسه أولاً فحكم الدين ، لقد جمع لغاريه أولاً وقال لهم : إني سأشرع للمسلمين ، والذي

نفسى بيده من خالفنى معكم إلى شيء فيه لأجعلته نكالا للمسلمين .

لقد أريد عمر - رضوان الله عليه - أن يحكم أقاربه أولاً صلباً مثل لولى أى أمر ليحكم أقاربه أولاً ، وأن يحلهم أن يستعملوا اسمه ، ليستقيم الأمر بين المسلمين ؛ لأن الأفة أنا نجد الكثير من الناس تتكلم في الإسلام ، ويريد كل إنسان من غيره أن يكونوا مسلمين بينما هو لا يطبق على نفسه مبادئ الإسلام . والحق سبحانه وتعالى أنزل لرسوله الأمر : « قل إني أُمريت أن أكون لول من أسلم ولا تكوس من المشركين » .

ومعنى « أسلم » أى ألقى زمام حياته إلى من يثق في حكمته وعدله وهو الحق سبحانه وتعالى . وعندما كنا صغارا كنا ملقى زمام أمورنا لمن يتولى تربيته ، ونرى الآباء والأمهات وهم يتعبون ويشقون . نطيع أوامرهم إلى أن نصل إلى المراهقة فنتمردنا الداتية ، ونجد المراهق وهو يرفض مثلاً ارتداء البنطلون القصير ويرتدى البنطلون الطويل ويختار ألوان ملابس في ضوء الأرياء الحديثة السائدة . وبعد ذلك يبدأ الشباب في إدارة أموره بنفسه .

وآفة حياتنا أننا نهمل تربية الأبناء وهم صغار ، ثم نألى لنقول : هيا لنربي الشباب متناسين أن الشباب مرحلة تمثل بطاقة يمكن أن يستعملها المجتمع ، والتربية السليمة زمانها الطمولة . « قل إني أُمريت أن أكون لول من أسلم ولا تكوس من المشركين » . وما هوذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل عن رب العزة ، ويعبرنا أنه صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، وأنه تلقى الأمر بعدم الشرك بالله

فإياكم أيها المسلمون أن تتعاضموا على مثل هذا الأمر ؛ لأن المصطفى المختبر هو أول من أمره الحق بذلك ، وإياك أيها المسلم أن تجحد غضاضة في أن تتلقى أمراً من مخالفك ، لأن الغضاضة قد تأتيك عندما يصدر إليك أمر من صلبك ، لكن التوجيه الصادر من الحق لا يد أن يذمك وترضيه فحسب ويطمئن به قلبك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه عندما يقابل حافنة ليس فيها حكم الله ، ويأين الرسول صلى الله عليه وسلم بحكم من عنده ، فإن كان الحكم صحيحاً فإن الحق ينزل من القرآن ما يؤكد ، وإن احتاج الحكم إلى تعديل ، فإن الحق سبحانه ينزل التعديل اللازم للحكم ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديل الحق

سبحانه وتعالى له ولا يجد غصاصة في ذلك ، بل يبلغنا ببشاشة وصدق وأمانة أنه
البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى قد من على رسوله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعدل في
الحكم احتراماً لاجتهاده صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ عَمَّا أَتَتْكَ لِإِذْنِ مَنْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الْإِيمَنَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾ (٣٣)

(سورة التوبة)

لقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض المناقذين بالتخلف عن القتال قبل
أن يتبين أمرهم ليعلم الصادق منهم - في عذرهم - من الكاذب . وجاء العموم من الله
لأن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد بشربته وأبغضا الرسول بما أنزل الله

ونحن في حياتنا اليومية - وفي المثل الأعلى - نمتح كراسة الابن فجدد أن فيها شطباً
بالقلم الأحمر ، فنسأل الابن : من الذي فعل ذلك ؟ فيقول الابن : صوب لي
للمدرس الأول هذا الموضوع . هو لم يتحدث عن تصويب المدرس ، ولكن عن
تصويب من هو أعلى من المدرس وهذا شرف للتلميذ فما بالنا بالمصوب الأعلى
سبحانه وتعالى وهاهودا الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى عن الله :

﴿ قَدْ إِيْنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ ﴾ (١٥)

إنه الرسول المصطفى والمجتبي والمعصوم يعلم أنه يخاف الله ، لأن قدر الله
لا يملكه أحد ، ولا يعير قدر الله إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد علق الخوف على شرط
هو عصيان الله . لكن مادام لم يعص ربّه فهو لا يخاف - ووجوده إن - يلبس على
تعليقه على شرط ولا يتأتى ذلك من الرسول المعصوم لأنه لا يعصى الله .

وقد أراد الحق أن يبين لنا أن المعصوم لا يتأتى منه عصيان الله . نكن هذا القول

يأتى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لنعلم أن هناك عذاباً عظيماً نوعده به الله من يعصيه . وهو عذاب يلح على العاصي حتى يأتى إليه . ولهذا العذاب خاصية أن تكون بينه وبين العاصي جدلية كجدلية المغاطيس لبعضه من المواد . ونحاة الإنسان من العذاب تحتاج إلى من يصرف عنه هذا اللون القاسى من العذاب ، بقول الحق سبحانه عنه :

﴿ مَن يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَمْضِ فَعَدَّ رَحِمَهُ وَذَلِكَ
الْعَوَزُ الْمُبِينُ ١٦ ﴾

فكان من لا يصرف عنه هذا العذاب هو من ينحذب إلى قوة العذاب ، لأن لار جهنم شهيقاً يجذب ويسحب إليه الدين فتنز عليهم العذاب ويقول سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ١٦ إِذَا الْقَوَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهيقاً وَهِيَ تَفُورُ ١٧ ﴾

(سورة الملك)

والذين يكفرون بالله لهم العذاب انذى يبدأ بسامع شهيق جهنم في أثناء هوارها . والشهيق كما تعلم هو قوة تجذب وتسحب اهواء إلى الأنف والصدر ، مما ياتنا بقوة شهيق جهنم وهي تسحب وتجذب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها ترد على سؤال الحق لها عندما نسمع قوله -

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ١٨ ﴾

(سورة ق)

إذن عقوبة العذاب التى جعلها الله مهمة لجهنم هي التى تلح وتندفع لطيب المزيد من عذاب الكافرين . وسبحانه خلق كل شىء ليؤدى مهمة ، والنار مهمتها أن تمتثل لأمر الحق تبارك وتعالى عندما يأمرها بمباشرة مهمتها ؛ لذلك هي تلح في طلب الذين سيتلقون العذاب ، ولا تخرج النار أبداً عن أمر الله وقدره ، فإن صرف الحق

العذاب من عبد من العباد فالنار تمثل لذلك الأمر . « من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه » وسبحانه فعال لما يريد ، وهو إن حاسبنا بالعنبد فكل ما سببه شيء من عذاب جهنم ، ولكن رحمة الله هي التي تجعل النار لا تحس المؤمنين ، لأنه سبحانه وتعالى يحفو عن كثير ، ولأن النار شهيقة ، فهي تستشطن المكثوب عليهم العذاب ، ونعلم أن الشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير . والشهيق في الحياة يكون للهواء .

والسبب ازدياد سرعة الشهيق عن الزفير أن في الشهيق مهمة استدامة الحياة الأولى وهي إمداد الجسم بالهواء ، والإنسان - كما نعلم - لا يصبر على الهواء إلا لأقل مدة ممكنة . ومن رحمة الله أنه لم يملك الهواء لأحد . وهذا الشهيق الذي يعطى الحياة في الأرض يوجد - أيضاً - في الآخرة وهو منسوب إلى النار ، إنما تشهيق لتنتج العصاة ، وهي بذلك تؤدي مهمتها الموكولة لها . ونعرف أيضاً أن النار تؤدي مهمتها بعبط طبقاً لما قاله الحق سبحانه :

﴿ تَنَكَّدُ تَمِيرٌ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

(من الآية ٨ سورة النك)

فهل تؤدي النار مهمتها وهي غير راضية عنها ؟ وهل تختلف النار عن كل كائنات الحق التي تؤدي مهمتها بسعادة ونسجام ؟ إن النار تَمِيرُ مِنَ الْغَيْظِ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان ، وللنار مشاهير مثل بقية المخلوقات . وللكون كنه مشاعر ، حالكون - على سبيل المثال - قد فرح بجلاد عبيد صلى الله عليه وسلم ، فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرحت بمقدم الرسول الكريم ، لأن كل هذه الكائنات مسخرة للإنسان وهي مسخرة لله وطائفة بطبيعتها ، مثلاً يأتي البشر ليهدى الإنسان إلى الصراط المستقيم يجعله طائعاً ، فهي تفرح بمقدم هذا البشر

ونعرف أن المكان الذي يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إن كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إن كان الإنسان عاصياً ، ويصبح المكان - أي مكان - بوجود أي عاصٍ فيه . وبرى ذلك واضحاً في قول الحق سبحانه وتعالى عن قوم فرعون

﴿ كَرَّ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ۚ وَدَّرُوعٍ وَمَنَازِرَ حَكْرِيَةٍ ۖ وَتَعَمَّرُوا بِهَا ۖ

فَنَكِيهِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١٨﴾ قَابَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ وَمَا كَانُوا عَاطِلِينَ ﴿١٩﴾

(سورة الانعام)

والأرض التي كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر ، والحسات والأنهار والعيون وكل
السم التي ينعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس ، وهي تعضب وتسخط وتصح
بوجود الكافرين بسعة الله فيها ، ولذلك لا تبكي السماء والأرض على الخسف
والسكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين ، بينما تبكي السماء والأرض إن فارقها
مؤمن ، ولما في قول الإمام علي - كرم الله وجهه - إيضاح لهذا ، فقد قال : إذا مات
للمؤمن بكى عليه موضعان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض أما موضعه في
السماء فهو مصعد عمله الطيب ، وأما موضعه في الأرض فهو موضع مُصَلَّاه .

وإن أحدثت ، إذا مات أحدكم عُرض عليه معدن بالعداة والعشي ، إن كان من
أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا
مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة (٢٠) .

إدب فموضع صعود عمل الإنسان في السماء يحرق ، لأن هناك فقداناً لعمل صالح
بمرهه ، وموضع صلاة الإنسان به قد سجود إسان خشوعاً لله ، ولكل الكائنات
المخلوقة لله مشاعر ، وكل شيء في الكون يؤدي مهمته بعبادون التسيير والتحرير
لا قانون التحجير ، الإنسان - فقط - هو الذي يحيا بعبادون التحرير في بعض أحواله ،
لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية . ولذلك فعندما يرى السجود لله في
القرآن فلنسا نسمع قول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ
يُنِ اللَّهُ قُلُوبُهُ مِمَّنْ مَّحْضُومٌ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُ بَاصٍ ﴾ ﴿٢١﴾

(سورة الحج)

إذن فكل الكائنات تسجد له ماعدا كل أفراد الإنسان ؛ فكثير منه يسجد لله وكثير منه يحق عليه العذاب لأنه لا يطيع الحق . ومن بعض منبج الله غير مؤمن به بطرده الله من رحمته ، ومن بينه الله بذلك فليس له تكريم أبدا . وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنه من بغضب منه الكون لأنه يحصى الله .

إن اللغة العربية توصح لنا ذلك ؛ فالعرب يقولون : فلان تبت به الأرض من البرة وهي الجفوة والبعد والإعراض . . أى أن الأرض تكره شخصاً بعينه ؛ لأنه لا انسجام للأرض مع كائن عاصٍ .

ويقول الحق من الذين يصرف عنهم العذاب من فرط رحمة بعباده لأهم أطاعوه وكانت معاصيهم تغلبهم في بعض الأحيان فتهربون عنها .

﴿ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ قَدْ رَجَعَهُ وَذَلِكَ الْعَوْرُ الْمُبِيُّ ﴾ (١٦)

(سورة الأنعام)

وعلم أن هذا العور هو أرقى درجات المور ؛ ذلك أن العور درجات ؛ فالعور في الدنيا كالسجاح أو المال أو غير ذلك هو فوز معرض لأن يصيب . وهو عُرصة لأن يترك الإنسان أو يتركه الإنسان ، لكن مور الآخرة هو المور الدائم الذي لا ينتهى .

وهذا هو الفارق بين نعم الدنيا ونعم الآخرة ، والإنسان يتنعم في الدنيا هل قدر تصوره للنعم ، سجد الرضى - مثلاً - يتصور النعم أن تكون له مصطبة أمام داره يجلس عليها ، وعدد من القتل التي تحتل باله النقى ، فإذا ما انتقل هذا الرضى إلى المدينة فهو يتصور النعم في منزل متسع فيه أثاث فاخر وأدوات كهربائية من ثلاثة وغير ذلك ، إذن فإمكانات النعم مختلفة على حسب تصور الإنسان ، أما نعم الآخرة فهو نعم لا يقوته الإنسان ولا يقوته الإنسان ؛ لأنه نعم من صم الخالق الواسع العطاء . إن الحنة فيها ما لا عين رأت ولا أدن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولذلك فالعور بنعم الآخرة هو المور المين .

والحق سبحانه وتعالى هو المحيط بكل شيء . جئنا راقداً .

﴿ وَإِنْ يَتَسَوَّى اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُنَاصِكَ بَعْضُ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٧)

والضر هو ما يصيب الكائن الحي مما يخرجُه عن استقامة حياته وحاله . فعندما يعيش الإنسان بغير شكوى أو مرض ويشعر بنهم العافية فهو يعرف أنه سليم الصحة ، لأنه لا يشعر بألم في عيونه أو ضيق في نفسه أو غير ذلك . لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضائه حسمه فهو يصع بده عليه ويشكو ويعكر في الذهاب إلى الطبيب . إذن فاستقامة لصحة بالنسبة للإنسان هي وثابة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلت إلى شيء .

وبلغت الحق أصحاب النعم عندما يرون إنساناً من حولهم وقد فقد نعمة ما ، مساعاة تسير في الشروع وتري إنساناً فقد حاقه قاتم تقول . « الحمد لله » لأنك سليم السابقين . كأنك لا تدرك نعمة الله في بعض منك إلا إن رأيتها مفقودة في سواك وهكذا يعلم أن من الآلام والأفات مبهات للنعم . وأيضاً قد نصيب معصيات الحياة الإنسان يعلم أنه لم يأخذ نعم الله كلها فيقول العبد لخصها : يا مخرج للكروب يارب ، ولذلك تحمد الإنسان يقول : « يارب ، حينما تأتيه آفة في نفسه ويغزع إلى الله وقد قالها الله عن الإنسان .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا خَلْقَهُ أَزْوَاجًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَفَتْ عَنْهُ صُرَّتْ مِرَّةً كَأَن لَّهُ يَدْعَا إِلَىٰ خَيْرٍ مِّنْهُ كَذَلِكَ يُرِي لِلْعَشْرَفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٨)

(سورة يوسف)

فالإنسان عندما يحس صعبه إذا ما أصابه مكروه لا يحل دعاء الله ، سواء أكان الإنسان مصطحب أم فاعداً أم قائماً ، وعندما يكشف الحق عنه الضر قد يصرف عن جانب الله ، ويستأنف عصبان الله وكأنه لم يدع الله إلى كشف الضر ، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم بمعصيات الله . والنفس أو الشيطان قرين للمعاصي بعد اكتشاف الضر أن يفرح أكثر وأكثر في آبار المعاصي وحلة الرذيلة .

وقد ينسب الإنسان كشف الضر لغير الله ، فهيب اكتشاف الضر إلى مهارة

الطيب الذي لجأ إليه ، ناسياً أن مهارة الطيب هي من نعم الله ، أو يتسبب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه الله من علم أو مال ، ناسياً أن الله هو واهب كل شيء ، كما فعل فاروق الذي ظن أن ماله قد جاءه من تعب وكده وعلمه ومهارته ، ناسياً أن الحق هو مسبب كل الأسباب ، فزراً أو نقماً ، فبجائه هو الذي يسبب الضرر كما يسبب النعم .

وبلغت الضر الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى في هذه الدنيا . وإذا ما رعى الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضر ، لأن الضر لا يستمر على الإنسان إلا إذا قاطه بالسخط وحدم الرضا بقدر الله . ولا يرفع الحق قضاء في الخلق إلا أن يرضى خلق الله بما أنزل الله ، والذي لا يقل المصاب هو من تستمر معه المصائب ، أما الذي يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء .

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر ؛ هاهودا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر ببيع ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمنين بقضاء الله شديد القوة ؛ فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء في الابتلاء . ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عنواً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم يقل ؛ إنها مجرد رؤيا وليست وحياً ولكنك حق ، وقد جاءه الأمر بأهون تكليف وهو الرؤيا ، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن ، وبرى عصمة النبوة في استقبال أودع الحق . وبنهمه الله أن يشرك ابنه إسماعيل في استقبال الثواب بالرضا بالعصاء

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنِيْٓ اِنَّ اَرَىٰ فِي الْمَنَامِ اَنْۢ اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ

قَالَ يَبْنَٓىۡۤ اَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۚ سَتَجِدُنِيْٓ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِيْنَ ۝٦٠﴾

(سورة الصافات)

لقد بلغ إسماعيل عمر السعي في مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر في المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ولم يشغل باله بغيره على أبيه . ولم يقاوم ، ولم يدخل في معركة ، بل قال .

﴿ يَبْنَٓىۡۤ اَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۚ

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ردهما ؛ لذلك يقول الحق عنها معاً :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّى لِلْجَبِينِ ﴿١٣٠﴾ وَتَلَّيْنَهُ أَنْ يَأْكُلَ زَيْمُهُ ﴿١٣١﴾ فَدَّ حَقَّ الرُّيَا إِنَّا كَذَّاكَ ﴿١٣٢﴾ تَجْرَى السَّيْنِ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ هَذَا لَمُرَّ الْبَلَاءِ الْمُسِينِ ﴿١٣٤﴾ وَتَلَّيْنَهُ يَذِجُ حَقِيرِ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء الله ، وأسلم كل منهما للأمر ؛ أسلم إبراهيم كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنعمل ، وعلم الله صدقهما في استقبال أمر الله ، وهنا يلحق الحق إبراهيم عليه السلام : لقد استجبت أنت وإسماعيل إلى القضاء ، وحسبكما هذا الامثال ، ولذلك يحىء إليك وإلى ابنك اللطف ، وذلك برفع البلاء . وجاء العناء يذبح عظيم القدر ، لأنه يذبح جاء بأمر الله . ولم يكتف الحق سلك ولكن بشر إبراهيم بميلاد ابن آخر

﴿ وَيُؤْتِيكَ بِمُتَحَنِّ نَبِيٍّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد رفع الله عن إبراهيم القدر وأعطاه الخير وهو ولد آخر . إذن مسح البشر نطق على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له . لكن لو سقط عن الإنسان أمر يكون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مجريه وهو ربه بمقام الرضا ، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء . فإذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا .

ولنلاحظ أن الحق هنا يقول : « وإن أمسك الله مصر فلا كاشف له إلا هو وإن أمسك بخير فهو على كل شيء قدير » الله سبحانه وتعالى يعلم أن أى عبد لا يتحمل أن يضره الحق ؛ ففوة الحق لا متناهية ولذلك يكون المس بالضر ، وكذلك بالخير ؛ فالإنسان في الدنيا لا يبال كل الخير ، إنما يبال من الخير ؛ فكل الخير مذكر له في الآخرة . ونعلم أن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يروى الإنسان عنه ، أما كل الخير فهو في الآخرة .

ومهما ارتقى الإنسان في الابتكار والاختراع قلن يصل إلى كل الخير الذي يوجد في

الآخرة ، ذلك أن خير الدنيا يحتاج إلى تحضير وجهه من الشر ، أما الخير في الآخرة فهو على قدر المعطى الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى . إذن فكل خير الدنيا هو مجرد من خير ؛ لأن الخير الذي يناسب جمال كمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير ، وهو مدخر للآخرة . ولا كاشف للضر إلا الله ؛ فالمرضى لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب ، لكن الطبيب يعالج بالمهارة الوهوية له من الله ، والذي يشفى هو الله .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١٨)

(سورة الشعراء)

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الدواء ، وخلق الدواء ، وجعل الأطباء مجرد جسور من الدواء إلى الدواء ثم إلى الشفاء ، والله يوجد الأسباب ليُسّر ويُفْرِج بها عياده ، فيجعل المواهب كاسباب ، وإلا فالأمر في الحقيقة بيده . سبحانه وتعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَدَاؤُكُمْ عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ . » (١) .

ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلم دائماً أن الشفاء جاء معه ، لا به . ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل الشفاء يأتي على ميعاد من علاجه . إذن فالحق هو كاشف الضر ، وهو القادر على أن يمسحك ويمسك بالخير وقدرته لا حدود لها

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٨)

وفد رتب سبحانه وتعالى الكون وخلق بأسباب ومسببات . وكل شيء موجود هو واسطة بين شيء وشيء ، فالأرض واسطة لاستقبال البسات ، والإنسان واسطة بين أبيه وابنه ، ولنعلم جميعاً أن الحق ، فوق عياده ، إنه غالب بقدرته ، يدير الكون بحكمة وإحاطة علم ، وهو خبير بكل ما خفى وعليم بكل ما ظهر .

وهو القائل :

﴿قُلْ مَوْالِي الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَرْفَرٍ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَوْجِلِكُمْ أَوْ
يَلْسِكُمْ سُيُومًا وَيُؤْذِقَ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضِكُمْ يَأْتِي تَعْلِيلٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ فَصَرِّفْ أَلَا يَتْلُو لَعَلَّهُمْ
يَنْفَقَهُونَ ﴿٦٦﴾﴾

(سورة الانعام)

سبحانه وبعالي له مطلق القدرة على أن يرسل العذاب من اسماء أو من بطن
الأرض ، أو أن يجعل بين لعن العباد ليكونوا متناحرين ليدفع بعضهم بعضا حتى
لا تفسد الأرض (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)

هناك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين يملك بعض الخلق أسبابا أنهم مالكو
الأسباب فعلا ، لا ، إن الحق سبحانه أراد بذلك ترتيب الأعمال في الكون ، ولذلك
ساعة نرى واحدا يظلم في لكون فإننا نجد ظلمًا آخر هو الذي يؤدي بؤس الظالم الأول .
ولا يؤدي الحق الشرير على يد رجل طيب ، إنما يؤديه عن طريق شرير مثله .

﴿وَكَذَلِكَ يُرِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا مِّمَّا كَانُوا يَعْسِفُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(سورة الانعام)

لأنه سبحانه وبعالي يُجِل المظلوم من أهل التقوى أن يكون له دور في تأديب
الظالم ، ثم يتقم الله من الظالم بظالم مثله أو أقوى منه . وهذا ما نراه على مدار
التاريخ القريب والبعيد ، فحين يتمكن العبد الصالح من الذين أساءوا إليه يقول
ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة حيث قال : « يا معشر قريش
ما ترون أن فاعل بكم ؟ قالوا : عيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا
فأنتم الطلقاء » (١) .

أما إذا أراد الله الانتقام من شرير فهو يرسل عليه شريرا مثله يدق عنقه ، أو يجمع
أعداءه ، أو يذله حتى لا ينتشر ويستشري الفساد ، فسبحانه القاهر فوق عباده ، وهو

(١) رواه البيهقي في سنة ١١٨/١ وفي تاريخ الطبري ٦٦/٣

قهر بحكمة ويعلم وليس قهر استعلاء وقهر جبروت وسيطرة وحتى نوضح ذلك قد يجرى الله على احد عباده قنراً بأن ينكسر ذراع ولده فيسوق الرجل ولده إلى طبيب غير معرب ليفيم جبيرة للذراع الابن ، وتلتئم العظام على ضوء هذه الجبيرة في غير مكانها ، فيذهب الرجل بابنه إلى طبيب ماهر فيكسر يد الطفل مرة أخرى ليعيد وضع العظام في مكانها الصحيح .

إن هذا الكسر كان لحكمة وهي استواء العظام ووضعها الوضع السليم ، ولا يحيط عباد من العباد الخائق أبداً ، ولكن الحق يتصف للمسيئ . ويعلم أن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فإن كفر وعصى فليس له في الآخرة إلا العذاب ، إلا أن الله يجرى عليه قنر المرض فلا يستطيع أن يتنرد عليه ، لانه سبحانه قاهر فوق عباده بدليل أنه متحكم في أشياء لا خيار للعباد فيها . ومدام الإنسان منا محكوماً بقومين ولا رأى له في ميلاده أو موته فلماذا إذن التنرد بالعصيان على أوامر الله ؟ وننعم أن الحق هو القاهر فوق عباده بقهر الحكمة وسبحانه يرفع لكل أمر المجال الذي ياسبه وهو خبير بمواطن العباد ، ويعالج عباده منها على وفق ما يراه ويقول الحق من بعد ذلك :

قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذْكُرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ
إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِىٌّ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

لقد خلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع القوم الماوتين له والاختلاف يتطلب حكماً وبينه . والشهود هم إحدى البيئات ، مما بالننا والشاهد هو الله ! إنه الشاهد والحكم . والشهادة لله لا تحابل فيها ، وحكمه لا ظلم فيه ، وإرادته

لا تطلم عبداً مثقال ذرة ، ولا شهادة - إِنْ - أكبر من شهادة الحق لرسوله بأنه رسول من الله . ولو شاء الحق لجعلكم كلكم مؤمنين ، لكنه أراد للإنسان الاختيار وحنان الرسول صلى الله عليه وسلم على البشر هو الذي جعله ينمى إيمانهم ، لكن الحق يقول لرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِكَ لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا نُنَزِّلُ الْقُرْآنَ مِن آسَافٍ مُّجِيدَةٍ ﴿١٠﴾ فَطَلَّ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّصِينَ ۝﴾

(سورة الشعراء)

أى أن الحق يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشفق على نفسه وألا يقلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم . ولو أراد الحق لجعلهم جميعاً مؤمنين بآية منه ، فمهمة الرسول هي إبلّاع فقط . ولو شاء الحق لتقهر الخلق جميعاً على الإيمان به كما سخر الكون ليعتد الإنسان وليسبح الكون بحمد الله . لكنه سبحانه ترك للخلق الاختيار حتى يأى إيمانهم مشأ صفة المحبوبة لله ، لأن إيمان المحتار هو الذى يشبث تلك المحبوبة . والرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو نذير وبشير بهذا القرآن المرسل عليه بالوحى .

والنذارة تأتي هنا لأن المجال مجال شهادة ؛ لأن الشهادة إنما تكون على خلاف ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإيمان ، والمثابرون له يدعون إلى الكفر وإلى الشرك ، وشهادة الله أكبر من كل شهادة أخرى . لذلك يقول الحق هنا بأن الرسول نذير بالقرآن . وهذا الخطاب موجه لنبيغ المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأن وصله بعد ذلك أى شيء من القرآن ، فكانه قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ووصله البلاغ عنه . فقد قال - سبحانه - : (ومن يبلغ) أى لا ندركم به وأنذر كل من يبلغ القرآن من البشر جميعاً

ويوجه الحق على لسان رسوله سؤالاً استنكافياً للمناولين يقول : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى » . إنه سؤال من سائل يثق أن من يسمع سؤاله لا يد أن ينفي وجود آلهة أخرى غير الله . إنه سؤال يستتبع الإقرار من سامعه . والمثال على هذا ما عرضه الحق على رسوله من أمر قد حدث في عام ميلاده يقول

﴿الرَّكَيفَ قَعْلَ رَبِّكَ بِمُخْتَبِ الْعَيْلِ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ما حدث في عام العيل ؛ لأنه عام ميلاده ، ولكن حين يخبره الله بذلك فمضى هذا أنه بلاغ عن الله ، والبلاغ من الله يجعل الخبر القادم منه فوق الرؤية وأرتق وأكد منها . وهنا يأتي السؤال الاستكاري : « أتتكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى » . وعندما أجبرهم هذا السؤال في بعض مراحل الدعوة قال بعضهم

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلُمًا﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

وكانهم أخيراً يعترفون أن المتقرب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسول : « قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون » فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يشهد بأي آلهة غير الله ، وألقى إليهم السؤال الاستكاري لعلمهم يدبرون رعبهم يهملوا إلى صحيح الإجابة التي يوجزها الحق في قوله للرسول . « قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون » .

إن الكلام هنا موجه إلى فئة من المشركين لرسول الله من عبدة الأوثان ، وهم بعض من الكافرين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبعض الآخر هم بعض من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين تعافلوا عن الكتب المنزلة إليهم ، وغابت عنهم الخبائر الإيمانية التي كانت ترد العاصي عن معصيته ، فانتشر الفساد في الكون . لذلك أرسل الحق رسوله صلى الله عليه وسلم لأن العاصي لم يجد من يرده ، واختلعت من المجتمع في ذلك الوقت النفس اللزامة ، وسادت فيه النفس الأمارة بالسوء

إن الحق سبحانه لم يترك أمر الرسول غائباً عن البشر ، فقد كان الرسول في كل أمة ينير ، ويحبر عن الرسول الذي يليه حتى يستعد الناس لاستقبال الهدى والهدى ، ولذلك كانت كل الرسائل تنسأ بالرسول القادمين حتى لا يظنوا أن مدعياً افتتحهم عليهم فداسة دينهم ، ولأن الإسلام جاء ديناً عاماً ، فلم يأت الخبر فقط بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة ، ولكن جاءت توصافه وسهته أيضاً واضحة وبينة فيها .

إن الدين قراوا هذه الأوصاف لو أخرجوا أنفسهم عن سلطنتهم الزمنية لأنوا على الفور برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل « عبد الله بن سلام » ، رضى الله عنه حين قال : لقد عرفت حين رأيت وعرفت كتابي ، وعرفت لمحمد أشد ونبي هؤلاء أنهم هم الذين نصروا برسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يدروا ، فقد كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج ، وقالوا للأوس والخزرج : قرب نبي منكم مؤمن به وتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . وأسرع الأوس والخزرج للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين .

لعل هذا هو النبي الذي توعدتنا به يهود ، هيا نسبق إليه .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتحم العالم بهذا الدين ، بل عرّف بيا مقدّمه وبسته وصورته ونعت كل من له صلة بكتاب من كتب السماء . إهم يعلمون أنه الرسول الخاتم الذي نعتت به أنهار السماء إلى الأرض .

ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

إذن فرسول الله معلوم مقدّم من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، ولكن بعضاً منهم فصل السلطة الزمنية عن الإيمان برسول الله فخسروا أنفسهم ، لأن الخسارة - كما نعرف - هي ضياع لرأس المال أو نقصانه . وهم خسروا أنفسهم لأن تلك النفوس كان يجب أن تخرص على مصلحة الأرواح التي جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإصلاحها . إهم بذلك قد منعوا الخير عن أنفسهم بتفضيل سلطان الدنيا الزائل على الإيمان بالله ، وفي ذلك حية كبرى .

الله يعلم ان الإيمان إنما هو كسب للنفس ، فإياكم أيها المؤمن إن تظن أن قولك : لا إله إلا الله ، هو سد لعرش الله . لا ، إياها ستد لك أمت ؛ لأنه لا إله إلا هو خلق الكون والخلق بصفات الكمال والقدرة والعلم والحكمة ، واعترف الخلق بالربوبية الله وحده لا تزيد من كمال الله ولكنها تقيّد العباد الذين آمنوا فيحسنون استقبال الأمر بعبادة الكون ، لتسير حركة الحياة في ضوء صبح الله ليسجموا مع الكون كله المسيح لله .
وحيث يقول الحق :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَلْكَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ كِتَابًا يُعْزِمُونَ أَنَّهُمْ يُعْرِضُونَ آيَاتِهِمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٥﴾

﴿٢٥﴾

(سورة الانعام)

فهو يخبر أهل مكة أن الصبيحة الإيمانية التي صبح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في آداهم لم تكن صبيحة مفاجئة للكون ، ولكنها صبيحة بشر بها على لسان كل رسول ، وإذ كان أهل مكة قد بعدت صلتهم بالرسول والأنبياء وكانوا على فترة من الرسل ، فهم يحاورهم لأهل كتاب في المدينة يعلمون هذه الحقيقة التي جاء بها رسولهم مؤكدين للعهد الذي أحله الله عليهم ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق واستعمرهم في الأرض أرادهم موهوبين من قدرته سبحانه قُدرة ، ومن عناه سبحانه عني ، ومن علمه الكامل علما ، ومن حكمته المطلقة حكمة ، ومن رحمته الكاملة رحمة ، ومن قاهرية الله قهرا ؛ لأن الكون لا يمكن أن يستقيم إلا إن وجدت فيه هذه المتكاملات وإن كنت متناقضة ؛ لأن لكل صفة معاها البسي تعمل فيه

وأصرب هذا المثل - والله المثل لأعلى - نجد الإنسان بما حيي يرحم ولده دائما يفسد الولد وإن لم يقس عليه مرة فأبوتة ناقصة ، إذن ، فلا يمكن أن يكون المهبط على الخلق رحيماً فقط ، وإنما يجب أن يكون قاهراً أيضاً ؛ لأن الموقف قد يتطلب القهر . ولا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يطع خلقه على خلق واحد ، ولكنه سبحانه يريد أن يجعلهم يفعلون للمراقب المحتفة ؛ فالموقف الذي يتطلب رحمة ، يكونون فيه رحما ، والموقف الذي يتطلب قسوة وشدة يكونون فيه قساة ، ولذلك يقول الحق في المؤمنين :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ وَهَمَّاءُ بِبَنِيهِمْ قَرَّاهُمْ وَرُحَمَاءُ صُحُبًا يَقْتَضُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

إن الحق يحدثنا عن خلق المؤمنين . إنه سبحانه لم يطيعهم على الشدة ؛ لأن المواقف قد تتطلب رحمة ، ولكن الشدة مطلوبة لمواجهة أهل الباطل . ولم يطيعهم الحق على اللين ، لكن اللين مطلوب فيما بينهم ؛ لأن كلاً منهم يرجو رحمة الله وفضله ؛ ففى الموقف الذى يتطلب رحمة ؛ هم رحماء . وفى الموقف الذى يتطلب شدة هم أشداء ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن المؤمنين :

﴿ أَدْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَءٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ولم يجعل الحق المؤمن ذليلاً على إطلاقه ، ولا عزيزاً على إطلاقه ، ولكنه جعله ذليلاً على أخيه المؤمن ، لين الجانب رحب الأخلاق وجعله عزيزاً على الكافرين المتأين على الله .

إذن ، فسبحانه يريد من خلقه أن يكونوا على خلق الحق سبحانه وتعالى . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عمار بن ياسر رضي الله عنه « حَسَّ الْخَلْقُ خُلُقَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ »^١ ورؤى : (تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ) .

إن الله سبحانه وتعالى قدرة حكيمة ، فسبحوا أيها المؤمنون قدرته واستعملوها بحكمة ، ولله علم فحاولوا أن تكونوا عالمين ، ولله رحمة فحاولوا أن تكونوا رحماء ، والله جبار فهذا يتطلب الموقف منكم أن تكونوا جبارين فافعلوا ، لأن سياسة الأرض وسياسة المجتمع قد لا تصلح إلا بهذا .

وما دام الحق قد أراد من الخلق أن يعمرُوا هذا الكون فلا بد أن يضمن لهم منهجاً سليماً يرتكز على « اعمل » ولا « تفعل » ، فإن نحن أخذنا منهج الله فنحن بأخذ ما يمكن أن نسميه بالحرف المخاضر : « قانون الصيانة » فلنعمل ما قال الله المملوا ،

(١) روى الطبراني فى الكبير والوسط

ولنترك ما قال الله في شأنه لا تفعلوا حتى تزدى الآلة الإنسانية مهيتها كما يريد الله لها
أن تكون .

إن الفساد إنما ينشأ من أنك أيها الإنسان تنقل الأعمال من نطق « افعل » إلى
نطق « لا تفعل » ، والأعمال التي يجعلها الله في نطق « لا تفعل » تجعلها أنت في
نطق « افعل » . فإن طلب الله أن تقوم الصلاة بـ « افعل » فكيف نجعلها في نطق
« لا تفعل » بعدم الصلاة ؟ ، وإن طلب الله منا ألا نشرب الخمر فكيف نشرها
إذن ؟ .

إن الخلل الإيمان الذي يحدث في الكون إنما ينشأ من نقل متعلقات « افعل » إلى
« لا تفعل » ، ومن نقل متعلقات « لا تفعل » إلى « افعل » ، أما ما لم يرد فيه
« افعل » و « لا تفعل » فقد ترك الله لاختيارك إباحة أن تفعله أو لا تفعله ، لأن
الكون لا يفسد بشيء منها .

وإذا نظرت إلى منهج الله في « افعل » و « لا تفعل » فانت تجد أن الحق سبحانه لم
يقض على حريتك ولم يقض على اختيارك ، وإنما ضغط ضغطاً حكماً فيما ينشأ فيه
فساد الكون ، أما الذي لا ينشأ منه فساد فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه . وزود
الحق كل البشر بهذا المنهج من لندن آدم إلى أن تقوم الساعة . وأخذ سبحانه على
نفسه الوعد بعدم تعذيب أمة لم يبعث لها رسلاً ، ولذلك توالى الملوك الرسالي .
لماذا ؟ لأن العلة تتمكن من الإنسان ؛ فقد يتناسى الإنسان مرة الشيء الذي يحث
حركته ويتكرر التماسي إلى أن يصير نسياناً ، فيشأ الحق أن يرسل رسلاً لكل فترة
لينبه إلى قانون صيانة الإنسان ، إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمن
الله أمة محمد أن تكون هي المبلدة بمنهج الله إلى أن تقوم الساعة . ولذلك أخذ
سبحانه من النبيين ميثاقاً للبلاغ عن رسالة النبي الخاتم :

﴿ وَلَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ أَنتُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتَقُولُنَّ يَٰٓأَيُّهَا النَّصْرَةُ قُلْ أَقْرَبُكُمْ وَأَحَدُكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ
إِصْرِي فَلَاقْتُلُوا وَإِنَّمَا مَعَكُمْ مِنَ الشُّهَدَاءِ ۝۸۱﴾

إذن فقد أخذ الله العهد على كل نبي أن يبلغ قومه أن يؤمنوا برسالة الرسول الذي توافق دعوته دعوتهم ، وأخذ الحق الإقرار من كل نبي على ذلك ، وشهد الأنبياء على أنفسهم وشهد الله عليهم ، ويلقوا ذلك إلى أقوامهم . إذن فصورة النبي الخاتم موجهة في كل رسالة سابقة على الإسلام ، وكان على كل رسول أن يعطى لإصلاحها بذلك العهد لقومه ، وأن يأخذ عندهم العهد بصورة الرسول القادم إليهم ، ويبلغهم أن من تمام الإيمان أن يؤمنوا بذلك الرسول إن هم عاصروه .

ويخصص الحق هنا أهل الكتاب الذين نزلت إليهم التوراة والإنجيل وهما أصحاب الديانتين العظيمتين اللتين سبقتا الإسلام : « الذين آتياهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » أي أنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بالبشارة به ، وبالإخبار عنه ، وبالاعتقاد لشكله وصورته ، فإذا كان كهار قريش على فترة من الرسل فليستألفوا أهل الكتاب وقد جمع الأهل والمفرج من أهل الكتاب أن هناك نبياً قادم سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قتل عاد وادم . إذن فالصريحة الإيمانية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة للكون ، وإن كتبها الذين كفروا من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا سَبَقَهُمْ وَكَارِهُينَ قِيلَ يُسْخَرُونَ عَلَى

الَّذِينَ كَفَرُوا قُلْ مَا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد تثابت الافة التي تنكر هذا البلاغ عن الله بعضاً من أهل الكتاب ، فقد أحلوا ، وهم الملقون عن الله ، السلطة الرسمية ورأوا فيها الخط والحد والنعم ، فمنهم القصة وإليهم يلجأ الناس لمعرفة الحكم في الدعاء ، وكذلك يأخذون الصدقات . وأنفوا حياة السيادة والعيم . وها هي ذى دعوة جديدة جاءت لتسب مهم هذه السيادة ، ويأمرهم من أنهم كانوا المبشرين بها من قبل ، إلا أن الدعوة عندما جاءت تزلزلت بها سلطتهم الرسمية ، ولذلك بدأوا العداء

إذن فالافة هي أحد سلطة رسمية من باطن سلطة الله ثم يدعى أنها سلطة الله وعندما ننظر إلى التاريخ الديان في العالم نجد أن السلطة الرسمية في الأديان التي

سيفت الإسلام هي التي أرهقت الكون ؛ لأن الحق سبحانه حينما خلق الكون طمر فيه أسراراً تعمل في خدمة الإنسان وإن لم يدركها الإنسان . وطموحات الإنسان العلمية هي التي تجعله يبتدى إلى هذه الأسرار ويكتشف القوانين التي تعمل بها ؛ مثال ذلك قانون الجاذبية ، وقانون السالب والموجب ، كل هذه قوانين موجودة في الكون ، تماماً كما خلق الله الأرض كروية وكما جعل الشمس هي مصدر الحرارة والدفء والنور والإشراق .

ويأخذ العلماء من تلك المقدمات ليهضوا إلى اكتشاف قوانين هذه الأجرام وقوانين هذا الكون . وحين يصل العالم الذكي إلى اكتشاف قانون ما فإنه يقول : لقد اكتشفت كذا ، وهذا تعبير مطري دقيق ، ولا يقول أبداً : لقد ابتكرت كذا ؛ لأنه يعلم أن ما اكتشفه كان موجوداً في الكون ولكن لا يعرفه . وعدم معرفة الإنسان بقانون موجود في الكون لا يمنع الفائدة من الوصول إلى الإنسان ، وإن كانت المعرفة بالقانون تزيد من إمكان الإفادة منه .

فالإنسان يتمتع بوجود الشمس قبل معرفة ما بها من طاقة ، ولكن عندما تخصص العلماء في دراسة الشمس عرفوا أن الإنسان يمكن أن يستفيد بهذه الطاقة أكثر من فائدته التقليدية بها ، ولذلك صارت هناك بعض المدن تنير شوارعها بالطاقة الشمسية ، وصارت هناك بعض المباني تدفئ بجدرانها بالطاقة الشمسية وتسخن المياه أيضاً بهذه الطاقة . ولم يمنع هذا الاكتشاف أن يستفيد الأمي أو البدوي في الصحراء من نور الشمس وكذلك الكهرباء ، والأدوات الكهربائية والمنزلية التي يمكن للجاهل الاستفادة منها ، مثل استعادة الخبز بها ، صحيح أن الأمي لا يعرف كيف تدور المصانع التي تنتج أجهزة التليفزيون ولكنه يستطيع برؤية التليفزيون . والتليفزيون ليس إلا ترجمة مادية لمجموعة من القوانين العلمية اكتشفها الإنسان ووضعا موضع التطبيق لصناعة هذه الآلة التي يستفيد بها الإنسان .

ولكل سر ميلاد تماماً كميلاد الإنسان . وإذا جاء مبعاد ميلاد السر ولم يكن هناك من يبحث عنه ، فسحابه يكتشفه لأي بشر بالصادفة ، وكثيراً ما سمع أن علماً كان يبحث في مجال ما ولكنه اكتشف سرا غير الذي كان يبحث عنه . ولذلك يقول الحق في آية الكرسي :

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

فأنت أيها الإنسان لا تحيط علماً بأسرار الكون إلا إذا أذن الله ، وهناك عشرات الآلاف من الأمثلة على ذلك بداية من قاعدة أرشميدس التي تدير عليها البوابات والمواصلات ، إلى قانون الجاذبية الأرضية الذي اكتشفه نيوتن عندما وقعت تفاحة أمامه بالمصادفة ، إلى اكتشاف البسطين ، إلى غير ذلك من أسرار هذا الكون . وإذا كانت هناك علوم لها مقدمات ، فهناك أيضاً علوم ليس لها مقدمات ، إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) ﴿إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧) (سورة البقرة)

فسبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر غيبه لأحد إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ، ويحميه الله ويحصيه بالملائكة لتحول بيته وبين وسواس الشياطين وتخديعهم حتى يبلغ ما أوحى به إليه . ونحن نريد الحق أمراً محكماً لا اختيار لأحد فيه فإنه ينزل به رسولاً إلى الخلق ليهديهم به « افعل » و « لا تفعل » . وهذه مسألة غير متروكة للبحث فيها ، ولكنها تأتي بإذن من الله حتى لا تتعارض أهوائنا ، سبحانه علم أن الأهواء بين البشر قد تتعارض ولا تكساند فيرسل الرسل من عنده سبحانه بالمنهج ليستقيم أمر البشر

إن النشاطات الذهنية التي يصل بها البشر إلى أسرار فيها دواعية الحياة ، هي أسرار بنت التجربة والعمل ، والعمل لا يجامل ، فلا توجد كيمياء روسية وأخرى أمريكية ، إنما كل قوانين المادة تستنبط في العمل . . . ولذلك ترى السور تتسابق كل يحاول أن يسرق ما عند الآخر بواسطة الجواسيس . أما في مجال الحركة الاجتماعية فالدول تقيم مدوداً بينها وبين البادئ ، فالغرب لا يسمح بدخول نظريات اجتماعية من الشرق ، والشرق لا يسمح بذلك أيضاً . ويختلف هذا الأمر في البحث العلمي ، فقوانين البحث العلمي عن أسرار الكون يحاول كل طرف استلاكها . وإن لم يستطع حاول أن ينقلها عن غيره

ويعلمنا الحق أن نبحث في كل آيات الكون ولا نعرض عنها ، فيقول لك :

﴿ وَكَانَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمُرُونِ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١٥)

(سورة يوسف)

فسيحانه يفتتا إلى أن كل آية وكل ظاهرة من الظواهر تتطلب منا أن نلظر فيها بحكمة وإيمان ، لأننا قد نستنبط منها أشياء تريحنا . ومثال ذلك قوة البحار ، اكتشافها رجل وطورها آخر حتى صارت تلك القوة البخارية في خدمة البشرية كلها وكذلك الذي اخترع العجلة أفاد البشرية في نقل عشرات الأروان عليها واختصار زمن الرحلات ، كل ذلك إنما جاء من تأمل آيات الله في الكون بإيمان وتدبر . لقد جعل الحق البحث في آيات الكون متساعاً للمؤمنين والكفار ، وهو حق لمن يبحث في أسرار هذه هي قضية العلم أما قضية الدين فأمراً مختلفاً ؛ لأن الأخير في قضية الدين يأتي من الله بواسطة رسول . أما البحث في الكون وأسواره العلمية فالحق يقول فيه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٢٨)

(سورة طه)

إن الحق يعلمك أيها الإنسان إلى أنه أنزل من السماء ماء فأنبت وأخرج به من الأرض النباتات التي تحمل ثماراً مختلفة الألوان ومختلفة الطعم . وجعل الجبال مختلفة الأشكال والألوان ، وبعضها خصب وبعضها قوى . ومختلف لون الجبل عن الآخر بما فيه من مواد مطمورة . وهذه الجبال كلها من أصل واحد ولكن طوعها متبينة لخدمة الإنسان .

لقد خلق الحق سبحانه الأنعام مختلفة الألوان والأشكال والأحجام ، وكذلك الناس مختلفون في اللون والشكل . والعلماء هم الذين يتدبرون ذلك فيخشون الله

الصانع العليم . إذن فأمر الدين محسوم من الحق . والرسول ملبسود عن الله ، وكذبت أهل العلم بالدين ، وأهل العلم بالدين ملبعون عن الله لا متكلمون بلسان الله ، لأن بعض البشر قد يخطئون أهوامهم مع كلمات الله ويقولون: إن هذا هو كلام الله ، وهذا خطأ فاحش وذنب كبير

إن ما حدث في القرون الوسطى - على ميل المثال - كان خلطاً بين البحث العلمي وما يتزل الحق من منهج ، فعندما جاء عالم مثل إحياء ليوبيس بحث في طبيعة الكواكب أرادوا أن يحرقوه ، وعندما أراد عالم آخر أن يتكلم في طبيعة الأرض حبسوا حرته . وعندما حكمت الكنيسة للعالم الغربي بهذا الأسلوب تأخر العالم كله وعاش في عصور من الظلام ، وعندما اتصل هؤلاء القوم بالمسلمين تحرروا من خزعبلات تلك القرون الوسطى وتعلموا حرية البحث العلمي من العرب وارتقت أوروبا بذلك الأسلوب العلمي الذي طرحه الإسلام وأثبتته علماء المسلمين

إن السبب في تأخر أوروبا وجهلها هم أهل الكهوت والدين ، بل إن بقور الأوروبيين من الدين كان بسبب معرفتهم أن رجال الدين عندهم يفتنون الحياة والتقدم الحضاري - حماية لتمودهم وسلطتهم الزمنية والروحية - وأراد بعض من أهل أوروبا أن ياختفوا كل الأديان بجمهرة رجال الكهوت عندهم . ونسى الدين حملوا على الدين - كل الدين - أن رجال الكهوت يتأثروا وادعوا ذلك على النصرانية ، ونسبوه إليها ، فالسبح لم يقل لهم ذلك ، ولكنهم كرجال كهوت أفسدوا الحياة بالسلطة الزمنية التي كانت لهم وكانت النتيجة أن أخذ البعض من مآد سلطة الكنيسة حجة على فساد الدين .

ولهؤلاء نقول إن الدين لا يتدخل في أي أمر من أمور الحياة العلمية ولا يعسده أبداً ، بل نجد أن الحق قد أمرنا بالبحث في آياته وأن نزيد من البحث وما هر ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نبحث عن شئون الدين على ضوء التجربة . وأراد الله أن يفصل بين أمور العلم والتحريم وأمر الدين ، وأراد أن يحمي دينه من تدخل أي فئة تدعى أنها لذلك كلام الله فتدخل بين أهوالها والبلاغ عن الله سبحانه

مثال ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر تلقح النحل . ويعرف

أن تلتفح النخيل يتم حين يأخذ طلع الذكورة وتنفخ به الأنثى من النخيل فيخرج الثمر ناصجاً ، وإن لم يحدث ذلك فالنخيل تتج ثماراً غير ناصجة . والسري في إنتاج النخيل لثمار غير ناصجة أن التنفخ قد تم بواسطة الريح التي تنقل القليل من حبوب اللقاح ، ولكن التنفخ الهلوى للنخيل هو الذي يريد من جودة الثمار ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم مرة للصحابة ما يمكن أن يفهم منه إلا بقوموا بتنقيح النخيل وحدث نتيجة ذلك أن النخيل لم يثمر الثمار المرجوة بل أثمر شيئاً آخر ثماراً غير مكتملة النضج ، ولستند الرسول في ذلك إلى قول الحق .

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِجَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

وهذا قول صحيح صادق حكيم نحد آثاره في السحاب الذي يتحول إلى مطر نتيجة اتصال الموجب بالمالب ، ونحده في معظم الساعات من قمع وفاقهة وفرة وغير ذلك . طلع الذكر ينقل بواسطة الريح إلى عناصر الأنثى ل الساعات العربة فتضجها وتنقل الريح كذلك اللقاح الخفيف واللقاح عندما يكون ثقيل الوزن محتاج في بعض الأحيان إلى جهد من الإنسان لينقل خلايا الذكورة إلى خلايا الأنثى ، ومثال ذلك النخيل . ولذلك عندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلة إنتاج النخيل في اعمم الذي لم ينفخ به بعض الصحابة تحيلهم قال صلى الله عليه وسلم لهم : أنتم أعمم بأمر دنياكم (١) .

وهذا حسم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر ولم يجد لرجال الدين أن يتدخلوا في أي أمر لا تنقسم به الحياة إلا بناء على التجربة العملية . ولذلك يقال من الإسلام إنه دين العلم ، لأنه أتاح لرجال العلم أن ينطلقوا في تأمل إلهيات الله في هذا الكون ، بل دعاهم وأمرهم أن يستنظروا أسرار هذا الكون لما في أمور سلوك البشرى وحركة المجتمع فقد أرسل الحق من المبعج ما يكفى بعدم استعلاء أحد على أحد ، وأن يضبط السلوك الإنساني بتعاليم المبعج الإلهي

لقد جاء المبعج الإلهي في كل الرسالات ، وكانت الرسالة الخاتمة هي رسالة محمد ام عبدالله ، وكانت الشارة به موجوده في التوراة والإنجيل ويقول الحق .

(١) وهو نسيم من نسيم ومائدة رضى الله عنها

والدين اتيناهم اكتبهم يعرفونه كما يعرفون ابناءهم ، فهل عمل أهل الكتاب بمقتضى هذه المعرفة ؟ لا ، ذلك أن بعضاً منهم خالفوا أن تؤخذ منهم سلطتهم الزمنية ، وأكبر مثال على ذلك هو عبدالله بن أبي الذي كان رأس النفاق في الإسلام والذي كان يستعد لتولى ملك المدينة قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . وكان هناك من أهل الكتاب من عمل بهذه التبرعة ، مثال ذلك : عبدالله بن سلام رضى الله عنه ولم يظلم القرآن أحداً ، بل قال عن بعض أهل الكتاب :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الْمَنِيِّ ۖ يَعْرِفُونَ رَبَّنَا مَا كُنَّا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(سورة المائدة)

إذن لم يظلم الحق الذين آمنوا من أهل الكتاب عندما وجدوا أن منهج الإسلام مطابق لما جاء إليهم . لكن بعض أهل الكتاب كهر وهادي رسول الله صلى الله عليه وسلم حوفاً عن السلطة الزمنية التي كانت هم .

وعندما نظر إلى التاريخ نجد أن السلطة الزمنية كانت في وقت من الأوقات لرجال الدين مثلما حدث في أوروبا ، ولكن حدث استغلال من جانب رجال الدين للناس ، وأسد رجال الكهنوت في الأرض ، فصرده عليهم البشر وخرجوا عن طاعتهم ليقسوا لأنفسهم القوانين . ولأنهم كانوا يحكمون بالأهواء لا بالشرع فقد كان الحكم يتذبذب عند رجال الكهنوت في الأمر الواحد حسب شخصية من يرتكب هذا الأمر ، فمن يدفع لهم يتال العفو ، ومن لم يدفع يتال العقاب ! لقد أخذوا متاع الدنيا القليل ولم ينعذوا ما أمرهم به الله فخرج الناس على سلطانهم .

ومن هنا لم يعترف بعض من البشر برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاءت الشارة به وعرفوه بالإيضاح والعت ولكنهم أنكروه لأنه يسلبهم ما حصلوا عليه من الانتفاع بالمال والسلطة فحسروا أنفسهم وظلوا على الكفر ، لقد قال فيهم الحق : « الدين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » . لقد خسروا أنفسهم ، لأنهم اشتروا بآية الله ثمناً قليلاً . وخسارة النفس تفوق خسارة المال ، لأن خسارة المال مردودة ويمكن أن تتدارك فيكسب الإنسان بعد خسارة ، ولكن خسارة النفس أمرها كبير . ونعلم أن الصفة الإيمانية لا تعزل عمل الدنيا عن حساب الآخرة . والمؤمن

الحق هو من يربط الدنيا بالآخرة . لكن بعضاً من أهل الكتاب أحبوا الدنيا على الآخرة وفصلوا بين الاثنين فخذوا حظاً قليلاً من الحياة الدنيا وخسروا الآخرة .
ويقول الحق من بعد ذلك :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ إِذْ هُوَ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك . نسبوا حظاً عما ذكروا به ، وكتبوا بعضاً من الكتب المنزلة إليهم ، وحرفوا الآيات المنزلة إليهم ، وجامروا بأقوال من عندهم وسبوا إلى الله . ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عنهم :
﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُذِبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسُوا بِهِ
شَيْئاً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴾ (٧٩)

(سورة البقرة)

إن الحق يتوعدهم بالعذاب لأنهم باعوا الدين لقاء ثمن قليل في الدنيا ، وادعوا على الله الكذب فسبوا إليه ما لم يرله ، ولذلك فالويل كل الويل لهم ؛ لأنهم انحطوا إلى أخس درجات الظلم وكسبوا الكذب المتعمد في كلبة ملزمة وهي الإيمان بالله وبالكتب المنزلة والرسول .

والافتراء هو الكذب المتعمد بغرض نسبة شيء إلى الله لم يقله ، وهم قد فعلوا ذلك ، ولهذا لا يفلح الظالمون سواء ظلموا الناس بأخذ أموالهم أو الإساءة إليهم ، أو ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وهو اعظم الظلم (إن الشرك لظلم عظيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ
شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ٤٢ ﴿

الحق سبحانه يذكرنا يوم الحشر ، يوم يسأل الله الذين أشركوا وكذبوا وافتروا الكذب على الله . أين الذين عدتموهم وأشركتموهم معي ؟ إن الله لن يترك الناس سدى ، بل كل عمل يفعله الإنسان في الدنيا يحصى عليه ويسأل عنه يوم القيامة . يسأل الله المشركين عن الذين عسوهم من دون الله كذباً : أين هؤلاء الآلهة التي أشركها الكافرون في لعبادة مع الله ؟ ولماذا لا يتقدمون لإنقاذ عبيدهم من العذاب الذي يصلبه الله لهم ١٩ ويفزع سبحانه المشركين ، ويحشرهم مع ما هيدوهم من دون الله من الأصنام والأوثان وفي ذلك قمة الإهانة لهم ولتلك الآلهة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ ﴾ ٤٣ ﴿

ونعرف أن الفتنه هي الاختبار وللمتنه وسائل متعددة ؛ فأنت تختبر الشيء لتعرف الرديء من الجيد ، واحقبقى من المريف . ونحن نختبر الذهب وفتنه على النار وكذلك الفضة وهكذا ترى أن الفتنه في ذاتها خير مضمومة ؛ لكن المذموم والممدوح هو النتيجة التي نحصل عليها من الفتنه ؛ فلامتحانات التي نضعها لآبائنا هي فتنه ، ومن ينجح في هذا الامتحان يفرح ومن يرسب يحزن . إذن فالنتيجة هي التي يفرح بها الإنسان أو التي يحزن من أفعالها الإنسان ، وبذلك تكون الفتنه أمراً مطلوباً همس له اختيار . وأحياناً تطلق فتنه على الشيء الذي يستولى على الإنسان بباطل .

إن الحق يحشر المشركين مع آلهتهم التي أشركوا بها ويسألهم عن هذه الآلهة

فيقولون : (والله لو كنا مشركين) . وهم في ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم ، وفي باطن الأمر يصرخون للحقيقة الكاملة وهي أن الملك كله لله ، ففي اليوم الآخر لا شركاء لله ، ذلك أنه لا اختيار للإنسان في اليوم الآخر . ولكن عندما كان للإنسان اختيار في الدنيا فقد كان أمامه أن يؤمن أو يكفر . وإيمان الدنيا الناتج عن الاختيار هو الذي يقام عليه حساب اليوم الآخر ، أما إيمان الاضطراب في اليوم الآخر فلا جزاء عليه إلا جهنم لمن كفر أو أشرك بالله في الدنيا . ولو أراد الله لنا جميعاً إيمان الاضطراب في الدنيا لأرغمتنا على طاعته مثلما فعل مع الملائكة ومع سائر خلقه .

لقد قهر الجن سبحانه كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان ، وكان القهر للأجناس لإثبات القدرة ، ولكن التكريم للإنسان جاء بالاختيار ليهذب إلى الله بالهبة .

والمشركون بالله يفتخرون بحق يوم القيامة بأنه لا إله إلا هو ، ويحاولون الكذب لمحاولة الإفلات من العقوبة فيقولون : (ما كنا مشركين) . وهم قد كذبوا بالله في الحياة فعلاً ويريدون الكذب على الله في اليوم الآخر قولاً ، ولكن الله عليهم بحمايات الصدور وما كان من السلوك في الحياة الدنيا ، ويوضح لهم في الآخرة أعمالهم ويعاقبهم العقاب الأليم .

وخين بسألهم الحق : « أين شركاؤكم » ؟ ففي هذا القول استغفاهم من الله ، والاستغفاهم من العليم لا ينصد منه العلم ، وإنما يقصد به الإقرار من المسئول . وفي حياتنا اليومية يمكننا أن نرى السؤال من التلميذ لأستاذه ، ليعلم التلميذ ما يجيب ونرى السؤال يرد مرة بعد أخرى من الأستاذ لتلميذه لا ليعلم ما لم يعلم ، ولكن ليقرر التلميذ بما يعلمه وما تعلمه من أستاذه . فإذا سأل الحق خلقه سؤالاً ، أسألهم سبحانه ليعلم ؟ حاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإنما يسأل الحق عباده ليكون سؤال إقرار والإقرار هنا فيه تبيكت أيضاً ، لأنه سؤال لا جواب له ، فمعاذ الله أن يوجد له شركاء . وعندما يقول الحق لهم : (أين شركاؤكم) ؟ فمعنى ذلك هو الاستبعاد أن يوجد له سبحانه شركاء . وبذلك يوضحهم ويكتهم الحق على أنهم أشركوا بالله ما لا وجود له

لقد أشركوا بالله في الدنيا لمجرد التخلص من موجبات الإيمان . وما هم أولاء في

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم في الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فيطلقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولفائل أن يقول : ولكن هناك في موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول في حق مثل هؤلاء .

﴿ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ هَٰذَا يَوْمٌ لَا يَنطِقُونَ ۖ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَلِرُونَ ۖ ﴾

(سورة المراتل)

إنهم في يوم لمرور الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ، ولا يأنذ لهم الحق بأن يقدموا أهداراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا يطلقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً ينفعهم من العذاب الذى ينتظرهم ، وهم يفعلون فى الدهشة ابالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استمادت به الشرية أو تطورت به حياة الناس ، فظن أن ذلك العمل سوف ينحبه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالعص حطهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب فى اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق فى باهم حطة أن قدموا ما قدموا من احتراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَلُهُمْ كَسَرٌ يَفِيقُهُ يَحْسَبُ الْطُلُوعُ مَا؟ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ

شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ هَوَٰهٗ حِسَابُهُ ۖ وَاللَّهُ مَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ ﴾

(سورة النور)

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين بجاريهم الحق سبحانه عليها بعدله فى الدنيا بالمال أو لشهرة ، ولكن أعمال لا تقيد فى الآخرة . وأعمالهم كمثل الرقيق اللامع الذى يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجلبونها لا تساوى شيئاً يوم القيامة . والمشارك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » . إن المشارك من هؤلاء ينكر شركه ، وهذا الإنكار لون من الكذب

إنَّ الْمُشْرِكِينَ يَكْذِبُونَ ، وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهِ عَنْهُمْ :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا لِيَحْلِفُونَ لَهُمْ كُلًّا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ
أَلَا إِنَّهُمْ مُّكَذِّبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يقسمون في الدنيا ، لكن الله يصعبهم بالكذب ، لقد كان بإمكانهم أن يدلّسوا على البشر بالحلف الكاذب في الدنيا ، ولكن ماذا عن الله الذي لا يمكن أن يدلّس عليه أحد .

وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هي فتنة كبرى :

﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَلَآ إِلَهَ إِلَّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك :

﴿ أَنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ويلفت الحق نظر رسوله صلى الله عليه وسلم بدقة إلى عملية سوف تحدث يوم القيامة ، وساعة يخبر الله بأمر فلنصدق أنه صار واقعاً وكأننا نراه أمامنا حقيقة لا جدال فيها . وسبحانه يقرر أنهم كذبوا على أنفسهم ويعرف أن كل الأعمال تنجرد من زمانيتها حين تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ، فليس عند الله فعل ماضٍ أو حاضر أو مستقبل

والنزال على ذلك قوله الحق

﴿ أَتَىٰ أَنزَارُهُ فَلَا يَسْتَعْجِلُوهٗ ۚ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وليس لقاتل أن يقول : كيف يقول الحق إن أمره قد أتى وذلك فعل ماضٍ ، ثم ينهى العباد عن استعجاله ، والإنسان لا يتعجل إلا شيئاً لم يحدث ، ليس لقاتل أن يقول ذلك ، لأن المتكلم هو القوة الأعلى ولا شيء يعوق الحق أن يفعل ما يريد . أما نحن العباد فلا نجرؤ أن نقول على فعل سوف نفعله خدأً إثمنا فعلناه ، ذلك أن خدأً قد لا يأتي أبداً ، أو قد يأتي الغد ولا نستطيع أن نفعل شيئاً مما وعدت به ، أو قد تتغير بنا الأسباب . وعلى فرض أن كل الظروف قد صلت بميسرة فأى قوة للمعبود منا أن يفعل شيئاً دون أن يشاء الله ؟ . ونحن - المؤمنون - نعرف ذلك وحليها أن نقول كما علمنا الله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ خَدَأً ۖ إِلَّا إِن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٣ وجزء من الآية ٢٤ سورة الكهف)

ومكذا يضمن الإنسان ما أنه قد خرج من دائرة الكذب . وحينما يقول الله لرسوله : « انظر » ويكون ذلك على أمر لم يأت زمان النظر فيه ؛ فرسول الله يصدق ربه وكأنه قد رأى هذا الأمر . إن الحق يصف هؤلاء الناس بأنهم : « كذبوا على أنفسهم » أى أن كذبهم الذى سوف يحدث يوم القيامة هو أمر واقع بالفعل . وقد يكذب الإنسان لصالحه فى الدنيا . لكن الكذب أمام الله يكون ظل حساب الإنسان لاله .

ويتابع الحق : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » ومعنى هذا أنهم يبحثون فى اليوم الآخر عن الشركاء ولكنهم لا يفترون . على تحديد هؤلاء الشركاء لأنهم قالوا أمام الله : « والله ربنا ما كنا مشركين » وغيب الشركاء عنهم أمام الله هو ما يوضحه وبينه قول الله : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » « صل » هنا معناها « غاب » . ألم يقولوا من قبل :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي سَبِيلٍ مُّسْتَقِيمٍ ۚ تَلْهُم بِآيَاتِهِمْ كِبِيرُونَ ۝ ١٧ ﴾

(سورة السجدة)

أنهم كمنكرين للبعث يتسألون بالدهاش : « إذا غابوا فى الأرض واختلطوا بعاصرها يمكن أن يعثروهم ربهم من جديد ؟ » فهم لا يصدقون أن الذى أنشأهم أول مرة بقدر على أن يعيدهم مرة أخرى . ويعرف أن كلمة « ضل » لها معاني متعددة

لكن معناها « غاب » ، وحين يسألكم الله : أين شركاؤكم ؟ ، ينكرون كذباً لهم أشركوا ، لقد ضل عنهم - أي ضل عنهم - هؤلاء الشركاء . والإنسان يعبد الإله الذي ينفعه يوم الحشر ، وعندما يغيث الآلهة من يوم الحشر فهذا ما يبرز ضلال تلك الآلهة وخيائها وقت الحاجة إليها ، ولا يبقى إلا وجه الله الذي يحاسب من أشركوا به .

« وصل » يقابلها « اهتدى » ، « وصل » أي لم يذهب إلى السبيل الموصلة للغاية ، « اهتدى » أي ذهب إلى السبيل الموصلة إلى الغاية . ومن لا يعرف السبيل الموصلة إلى الغاية ، يكون قد ضل أيضاً ، ولكن هناك من يصل وهو يعلم السبيل الموصلة إلى الغاية وهذا هو الكفر . وعندما يتكلم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً ، لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلال الغمة . وقد يكون الإنسان مؤمناً لكن مقومات الإيمان ضعيفة في نفسه فيحصى ربه

ويقول الحق عن مثل هذا الإنسان :

﴿ وَمَنْ يَمِمْسِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الاحزاب)

إنه ضلال دون ضلال وكفر دون كفر القصة . لكن ماذا عن الذي يضل لأنه لا يعرف طريق الهدى ؟ إن ذلك هو ما يظهر لنا من قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فحين قال الحق لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾

(سورة الشعراء)

أصدر الحق الأمر إلى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ليرسل معهما بني إسرائيل ، فهذا عن موقف فرعون ؟ ماذا قال فرعون ؟

﴿ قَالَ أَلَمْ تُؤْيِكْ فِينَا وَلِيْدًا وَلَئِنِّي فَهِنَا مِنْ عَمْرِكَ مِنِيْنَ ﴿١٨﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكْ أَلْتِي فَعَلْتَ

وَأَنْتَ مِنْ لَأْسِكُمِرِينَ ﴿١٩﴾

(سورة الشعراء)

هنا يريد فرعون أن يمتن على موسى عليه السلام ، ويذكره بأنه رباه في قصره إلى أن كبر ومع ذلك لم يرج موسى ذلك وقتل رجلاً من قوم فرعون ، وكان ذلك في نظر فرعون لوئاً من اليهود بنعمته ، وما هوذا يعتدي مرة أخرى على الوهية فرعون بدهوته للإيمان بالإله الحق الذي لا يتخيله الفرعون ، ويلتقط موسى الخطأ الجوهري في سلوكه في ذلك الوقت . إن الخطأ لم يكن الكفر بفرعون ، ولكن خطأ كان هو القتل فيقول :

﴿ قَالَ فَعَلَنْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنْ أَصَابِلِينَ ۝٤٠﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا نعرف أن موسى لحظة قتله رجلاً من عدوه لم يكن عنده طريق الهدى ، بل كان ضلاله حاصلًا من عدم معرفته أن هناك طريقاً آخر إلى الهدى . وما هوذا الحق سبحانه وتعالى يحاطب رسوله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَرَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝٤١﴾

(سورة الطهي)

أى لم يكن عندك يا رسول الله طريق واضح إلى الهدى قبل الرسالة ، فليس معنى الضلال هنا الانحراف ، ولكن معناه أنه قبل نزول الوحي لم يكن يعرف أى طريق يسلك . وقد يكون الضلال نسياناً ، وما دام الإنسان قد نسي الحقيقة فهو ضال ، والمثلان قول الحق :

﴿ أَلَمْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ۝٤٢﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

هنا يقرر الحق أن شهادة امرأة تحتاج إلى ضمان وذلك بتأكيدا بشهادة امرأة أخرى ؛ لأن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تصح أنفها في كل تفاصيل ما تراه ، بل هي تسمع سمعاً سطحياً ، ولذلك لا تكتمل الصورة عندها ، وعندما تجتمع مع شهادة المرأة شهادة امرأة أخرى ، فكل منهما تذكر الأخرى تفاصيل قد تكون في منطقة النسيان ؛ لأن نسيان المرأة وطبيعة تكوينها مهيبة على النسيان والتحرر من أن توجد في مجتمع فيه شقاق .

وعندما يصف الحق هؤلاء المشركين في يوم القيامة فهو يقول . « وصل عنهم

ما كانوا يفترون ، أى غاب عنهم ما كانوا يكتنّبون ويدعون أنهم شركاء الله ،
والمشركون هم المؤيدون والمحابسون على اتحاد الشركاء ، فقد يكون بعضهم قد اتخذ
شريكاً لله لا ذنب له فى تلك المسألة ، كاتخاذ بعضهم عيسى عليه السلام شريكاً لله .
وعيسى عليه السلام متره عن أن يشرك بالله أو يشرك نفسه فى الألوهية والحق قد
قال :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ خُذْ لِيَالنَّاسِ الْخِطَابَ وَأَيُّ الْبَنِينَ مِنْ دُونِ أَهْلِ
قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ
مَا لَا تَفْقَهُ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧﴾ ﴾

(مسودة الخاتمة)

بل إن الأصنام نفسها التي اتخذها المشركون أرباباً تقول : عيبونا ونحن أعبد الله من الغائبي بالأسفار .

إذن فالخطأ يكون عن أشركوا بالله لا من الأحجار العابدة لله المسحوة له لأنها مسخرة وميسرة لما خلقت له . لقد تحمل أحد الشعراء حراراً دار بين غار ثور وغار حراء ، يقول غار ثور :

کیم حمیدبا حواء حیی ثوی الرو

ح آميناً يغفر لك بالأنوار

وعندما أدن الحق بالمهجرة احتيا النسي بفار نور، فقالت بقى الأحجار :

فحراء وثور صارا سوءا
عبدونا ونحن أغمد لله
نخذوا صحتنا عليهما ذليلا
قد تحبوا جهلا كما قد نجد
للغالي جزاءه والمغالي

إذن ، فهامى نى الحجارة تقول : إنها برية من الشرك بالله وهى أعبد لله من الغائمين بالأسفار ، وصمت الحجارة الطاهر المتحد الهمض دليلاً على أن الحجارة رضىت بأن يعبدوها ، لكن الحجارة تصير هى أحجار جهنم المعلقة لمن كفر بالله ، وكان النجنى من العباد على الأحجار مثل المنحنى على عيسى ابن مريم . والذين عالوا فى عبادة الأحجار لو البشر لهم عقاب ، أما الأحجار والبشر الذين لا ذنب لهم فى ذلك فهم طامعون فى مغفرة الله ورحته .

إذن فالضلال هنا يكون ضلال الدين اتحدوا شريكاً لله . ولكن الشريك المتحد لا يقال له - ضل إلا على معنى أنه غاب عنهم فى يوم كان أمثلهم أن يكون معهم ليحميهم من عذاب الله .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ مَّيِّتًا لَا
يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

إن من هؤلاء من يستمع إلى القرآن لا بهدف التفهم وإهداية ، ولكن بهدف تلمس أى سبيل للطعن لى القرآن ، فكان قلوبهم معلقة عن القدرة على الفهم وحسن الاستنباط وصولاً إلى الهداية ، وهم يجادلون بهدف تأكيد كفرهم لا بنية صافية لاستنباط آفاق آيات الحق والوصول إلى الطريق القويم .

ويعلم أن السورة كلها جاءت لتواجه قصية الأصنام الوثنية والشرك بالله ، ويعلم أن المعجزة التى جاءت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هى القرآن ، وهو معجزة كلامية ، تختلف عن المعجزات المادية التى شاهدها المعاصرون لموسى عليه السلام .

كشق البحر بالعصا أو رؤية العصب وهي تعبير حية تلف كل ما ألقاه السحرة ، أو معجزة عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص ، فهذه كلها معجزات مرئية وعددة بوقت ، أما معجزة رسول الله فهي معجزة مسموعة ودائمة .

إن السمع هو أول أدوات الإدراك للنفس البشرية . إنه أول آلة إدراك تتب الإنسان ، إنه آلة الإدراك الوحيدة التي تستصحب وقت النوم وتزدى مهمتها ، لأن تصميمها يضم إمكانات مواصلة مهمتها وقت النوم . ونعلم أن الحق سبحانه أود أن يقيم أهل الكهف مئة ثلاثمائة وتسع سنين ضرب على آذانهم حتى يكون يومهم سباتاً عميقاً ، فهم في كهف في جبل ، والجبل في صحارى مهب عليها الرياح والزواجر والأعاصير ، فلو أن آذانهم على طبيعتها لما استراحوا في النوم الذي أراه الله لهم ، ولذلك ضرب الله على آذانهم وقال سبحانه :

﴿ نَضْرِبُ عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا عَظِيمًا ﴾

(سورة الكهف)

ومعجزة رسول الله - إذن - جاءت سمعية وأيضاً يمكن قراءتها . وحين يتلقى الإنسان بلاءاً فهو يتعلمه بسمعه ، ويستطيع من بعد ذلك أن يقرأ هذا البلاغ ويتفهمه فيه ، ولا أحد يعرف القراءة إلا إذا سمع أصوات الحروف أولاً ثم رآها من بعد ذلك ، لقد غيرت معجزته صلى الله عليه وسلم سيد الأدلة في وسائل الإدراك الإنسانى ، وهو السمع ، ولحق يقول : «ومهم من يستمع إليك» .

إن هلك فارقاً بين « يسمع » و« يستمع » ، فالذى يسمع هو الذى يسمع عرساً ، أما الذى « يستمع » فهو الذى يسمع عمداً والسامع دون عمد ليس له حيز الأسمع ، إلا إذا ساء أدبه . أما الذى يستمع فهو الذى يقصد السمع . وهم كانوا يستمعون للقرآن لا بغرض اكتشاف افق الهداية ولكن بغرض الإصرار على الكفر وذلك بقصد تصيد المضاع على القرآن

ويقول الحق سبحانه . « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفهموه » و« الأكنة » جمع « كنان » وهي العطاء أو الغلاف ويتابع الحق : « وفي آذانهم وقراً » أى جعلنا في آذانهم صمماً ، كأنهم باعتبارهم الكفر قد سمعوا الله أن يهيم القرآن ، ونعلم أن

جميع المعاصرين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمعوا لرسول الله ومنهم من آمن ومنهم من ظلل على الكفر . ونعرف أن لكل فعل مستقبلاً . ويمكن للمستقبل أن يؤمن وبذلك يكون الفعل قد أتى ثمرته ، وقد يكون المستقبل مصراً على موقفه السابق فلا يؤمن ، وما يكون الفعل لم يؤت ثمرته ، والفاعل واحد ، لكن القابل مختلف . وكان بعض الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمان . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِمَّاكِ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مَاذَا قَالَ آنَا لَوْ تَشَاءُ الدِّينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٦) .

(سورة محمد)

بهم ككفار يستمعون للقرآن ، ثم يتصرفون ليقولوا في استهزاء للمؤمنين الذين علموا وآمنوا . أى كلام هذا الذى يقوله محمد ؟ هؤلاء المستهترون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر ، وانصرفوا عن الهداية إلى الضلال . والتكلم بكلام الله هو رسول الله مبلغاً عن الله ، والسمع مختلف ، فهناك سامع مؤمن يتأثر بما يسمع . وهناك سامع كافر لا يستطيع أن تنقل الرعى والإحراك بما يسمع . لكن القرآن للذين آمنوا مدى وشفاء ، أما الذين لا يؤمنون به لآذاتهم تصم عن الفهم وأعمالهم بلا بصيرة فلذلك لا يفهمون عن الله ، ونجد نفس المؤمن تستشرف لأن تعلم ماذا فى القرآن . أما الذى يريد أن يكون جباراً فى الأرض فهو لا يريد أن يلزم نفسه بالمهج .

وحتى نعرف الفارق بين هذين اللذين من البشر ، نجد المؤمن ينظر إلى الكون ويتأمله فيدرك أن له صانعاً حكيماً ، أما الكافر فبصيرته فى عماء عن رؤية ذلك . وحين يستمع المؤمن إلى بلاغ من خالق الكون فهو يرهف السمع ، أما الكافر فهو يتصرف عن ذلك .

وكان صناديد قرىش أمثال أبى جهل وأبى سفيان ، والنضر بن الحارث ، والوليد ابن المغيرة ، وهشبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وحرب بن أمية ، كل هؤلاء من صناديد قرىش يجتمعون ويسأل الواحد منهم النضر قائلاً : يا نضر ما حكاية الكلام الذى يقوله محمد ؟

وكان النظر راوية للقصاص التي يجمعها من أنحاء البلاد ، فهو قد سافر إلى بلاد فارس والروم وجاب الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، فقال : والله ما أدرى ما يقول محمد إلا أنه يقول أساطير الأولين .

ويتجادل النظر وأبوسفيان وأبرجهم مع رسول الله ، وهذا الجدال دليل عدم فهم لما جاء من آيات القرآن . ولم يجعل الله القرع على أذانهم لئلا يحسبوا أنهم أولاء ، فطع الله على قلوبهم بكفرهم ، واستقر مرص الكفر في قلوبهم وفضلوه على الإيمان فزادهم الله موعباً ، وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلْعَةً لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٌ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا هَٰذَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

والأساطير هي جمع أسطورة ، والأسطورة شيء يسطر ليحدث به من العجائب والاحداث الوهمية . وكان الحق سبحانه وتعالى يكتمهم أمام أنفسهم وهو يحاولون أن يجهلوا ثغرة في القرآن فلا يجهلون . وقال الله عنهم قرأاً فصلاً .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ فَيُطَمِّعُ ۖ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم فهم أمة بلاعة ، ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم . كما أنهم أرادوا أن يظلوا في لسيادة والخبروت والفهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوي بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد

لقد جاءت حوادث قسرية بإرادة الله لتكون سبباً للإيمان ، مثلما حدث مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عندما علم أن أخته قد أسلمت فذهب إليها وصر بها حتى أسال منها الدم . وإسالة الدم حركت فيه عاطفة الأخوة فازالت حلف المهاد ، فأراد أن يقرأ الصحيفة التي بها بعض من آيات القرآن ، وتلقى الأمر من أخته بأن يتطهر فتطهر وجلس يستمع ، وبزوال صفه وعنايه وتطهره صار ذهنه مستمداً لهم

ما جاء بالقرآن ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه بالله ربنا
ومحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته الخاتمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْكَؤْنَ إِلَّا
أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٦)

والكافر من هؤلاء إنما ينأى عن مطلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يريد
أن يعتدي ، ويحرم في طغيانه فينهى غيره عن الإيمان ، فكأنه ارتكب جرمتين : جريمة
كفره ، وجريمة نهى غيره عن الإيمان .

لقد كانت فريش على ثقة من أن الذي يسمع القرآن يعتدي به ، لذلك أوصى
بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يحرقوا فيه أو أن يصحروا
صحيحاً بحول بين لسامع للقرآن وتدبره .

﴿ رَقَّالَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَّاهُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٧)

(سررة فبكت)

إنهم وانقروا من أن القرآن يهزمهم بالحجة ويفضحهم بالبينات ، وأنهم
لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تسيل من قلوبهم الجحود والكران .
وكانهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً في الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب
الملكة في البلاغة العربية ومع ذلك ظل الكافرون على عنادهم بالرغم من
عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال
غيرهم ، فكانهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ، ولم يؤثر ذلك على
مجرى الدعوة ولا على البلاغ الإيماني من محمد عليه الصلاة والسلام ، ذلك أن الحق
ينصره على الرغم من كل هذا ، فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرَّسُولِ ﴿١٧٥﴾ لَئِنْهُمْ لَمْ يَأْمُرُوا بِالْعَصْرِ ﴿١٧٦﴾ لَوَ كَانَ جُنْدُنَا

هُمْ الْعَالِيُونَ ﴿١٦﴾

(سورة الصفات)

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْكَوْنَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَيَشْهَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

(سورة الأنعام)

نعرف أن المقصود بذلك القول هم المعارضون لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عارضوها لأنها ستسلبهم سلطتهم الرمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للصفاء . وذلك ما جعلهم يقعون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها .

وما داموا قد وقفوا من الدعوة هذا الموقف ، فلم يكن من حفظهم الإيمان ، ولأنهم نأوا وبعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حسروا ، أما غيرهم فلم ينأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل إنه أوى إلى الله فأواه الله .

إن هؤلاء الخاضعين المنكرين لدعوة رسول الله وقفوا أمام دعوتهم وحسدوا الناس عنها ونهوههم عن اتباعها ، لأن هذه الدعوة ستسلبهم سلطتهم الرمنية من علو وجبروت واستخدام الصفاء وتسحيرهم في خدمتهم وسط سلطتهم عليهم . هذا - أولاً - هو الذي دفعهم إلى مع غيرهم ونهيههم عن اتباع الإسلام ، ثم هم - ثانياً - يتأرون ويستعدون عن اتباع الرسول ، - إذن - فمن مصلحتهم - أولاً - أن يتها غيرهم قبل أن يتأوا هم ، لأنه لو آمن الناس برسول الله وقفوا هم وحدهم على انكسر استميدون من هذه العملية ؟ لا يستميدون - إذن - فحصرهم - أولاً - كان على الأيؤمن أحد برسول الله لتبقى لهم سلطتهم .

وجاء الأدلة القرآني معبراً عن أدق تفاصيل هذه الحالة فقال : « وهم ينهون عنه ويتأون عنه » فالبداية كانت من الآخرين عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك اعتمادهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار حفظهم أن يضلوا على كفرهم فكان الخسران من نصيبهم ، بينما آمن غيرهم من الناس .

وهكذا نرى أن الأداء القرآني جاء معبراً دائماً عن الحالة النفسية أصلي تعبير .

قول الحق : « وهم ينهون عنه » قول منطقي يعبر عن موقف المعارضين لرسول الله أما قوله الحق : « وينأون عنه » فهذا تصوير لما فعلوه في أنفسهم بعد أن منعوا غيرهم من اتباع الدعوة المحمدية والرسالة الحاتمة . فهم بذلك ارتكبوا ذنبيين : الأول : إضلال الغير ، والثاني : ضلال نفوسهم . وبذلك ينطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَحِمْلِ يَوْمِ الْفَيْسَمَةِ ۚ وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُحْمِلُونَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

ولا يقولن أحد : إن هذه الآية تناقض قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۚ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

ذلك لأن الوزنتين : ووزمهم ، ووزر إضلالهم لغيرهم من فعلهم

وفتايح الحق : « وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » ونرى أن الذي يفف أمام دعوة الحق والخير لينكرها ويضلها ويمارضها ويمارها إنما يقصد من ذلك غير نفسه وكسب الدنيا وأخذها لجانبه ، ولكنهم أيضاً لن يصلوا إلى ذلك ، لماذا ؟

لأن الله غالب على أمره :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمَرِئِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَكُفَّارٌ لِّمَا كُفَرُوا بِ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدُنَا مُّسَوِّغُونَ ﴿١٧٣﴾ لِّمَا عَمِلُوا ۚ وَلَئِنَّ جُحْدُنَا لَسَاسَةٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّهُمْ وَكُفَّارٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

والحق سبحانه وتعالى لا يزم جنده أبداً ، ولا بد أن يهلك أعداء دعوته بسبب كفرهم وصلحهم عن سبيل الله فهم في الحقيقة هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم . وسبب أمر الدعوة الإيمانية الإسلامية في صعود . وسبب أرض الكفر تتقصر من حولهم يوماً بعد يوم . ولذلك يقول الحق في آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا بَأَيْنَا الْأَرْضَ شَقَّعْنَاهَا مِنْ أَلْفِ أَمَاةٍ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

أي أن أومس الكفر تنقص وتنقص والله يحكم لا معصب لحكمه ، ولذلك يشرح القرآن في آخر ترتيبه النزولي هذه القضية شرحاً وافياً . وعلمنا أن نقطع كل علاقة لنا مع الكافرين ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ ﴾

(سورة الكافرون)

وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين : فريق يرى أنه على حق ، وفريق ثانٍ أنه على باطل ، وقد يكون قطع العلاقات أمراً موقوتاً . وقد تضغط الظروف والأحداث إلى أن بعيد العلاقات الدنيوية ثانية ، ولكن قطع العلاقات لا بد أن يكون مؤبداً في شأن العقيدة ولا مهادنة في هذا ، ولذلك قالها الحق مرتين :

﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ ﴾

(سورة الكافرون)

فالؤمن يرى الحاضر والمستقبل ، ويعلم استحالة أن يعبد ما يعبد الكافرون ، واستحالة أن يعبد الكافرون ما يعبد .

وقد يقول قائل : إن القرآن في ترتيبه النزولي لا بد ألا يتعارض مع واقعه ، ولكننا نرى في قوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) تكررها مرتين ، إنه بذلك يكون قد أخلق الباب أمام الكافرين لئلا يؤمنوا مع أن بعضهم قد دخل في دين الله . نقول نعم إنه لا يتعارض ، لأن الحق لم يخلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا ، بدليل أنه قال جل وعلا :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ٣ ﴾

(سورة النصر)

إذن طائفة لن تهمد عند ذلك ، فحسبكم الإيمان مسير مع ، وسيواجه
معسكر الكافرين وسيدخل الناس في دين الله أفواجاً . ولكن هناك من قصى الله
عليهم ألا يؤمنوا ليظفروا على كفرهم ويدخلوا النار ، فقال سبحانه من بعد
ذلك :

﴿ نَبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَبَّحَنَّا نَارًا ذَاتَ
لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾

(سورة المسد)

إذن فابو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل في دين الله أبداً .

ومجيء قول الحق :

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ ﴾

(سورة النصر)

هذا القول يفتح باب لامل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمر بن
العباس ، وعكرمة بن أبي جهل إلى الإسلام . ومجيء سورة المسد من بعد سورة
النصر في الترتيب المصحفي كما أراد الله ، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة
لأنهم مثل أبي لهب وروجه

ونأتي من بعدها سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

إنه لا إله مع الله ينتقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن
فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون ،

ومن بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا وَيَلْبِسُنَا نَارُهَا وَلَا تَكْذِبُ بِشَايئَتِ رَبِّنَا وَلَوْ كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧)

عندما ننظر إلى قول الحق : « ولو ترى إذ وقعوا على النار » ، هنا لا نجد جواباً ، مثل ما نجد في قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته إن في كل من هاتين الجملتين جواباً ، لكن في هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآني ، هناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع في المعنى مذهبه التي يراها

وفي حياتنا نجد مجرماً في بلد من البلاد يشتري قناده وإجرامه في سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واحتشاءات ، ولا أحد يقدر عليه أمداً ، ثم يمكن الله لرجال الأمن أن يقضوا عليه ، فرى هذا القاتل الفسدة يتحول من بعد اختبروت إلى جبان رهيب يكاد يقبل يد الشرطي حتى لا يصع القيود في يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصه للآخرين قائلاً : آه لو رأيت لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدي كل معاني الدلة التي يتخيلها السامع ، إذن فحذف الجواب دائماً تريح لفائدة الجواب ، لذهب كل سامع في تصور الدلة إلى ما يذهب . لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتصميل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الدلة والمهارة في إطار ما رأى هو ، ويحجب بذلك تجلٍ وبصيرة السامعين .

أما اكتماء المشاهد بقوله : آه لو رأيت لحظة قبض الشرطي على هذا المجرم فهذا القول يعمم ما يرى حتى يتصور كل سامع من صور الأدلال ما يناسب قدره خياله على التصور . وهكذا أراد القرآن أن يصور حول الوقوف على النار فاطلق الحق : لو « بلا جواب حين قال -

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا وَيَلْبِسُنَا نَارُهَا وَلَا تَكْذِبُ بِأَيَّاتِ رَبِّنَا وَلَوْ كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧)

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن ، ومنهم من قال : كيف تقولون إن القرآن على البيان ، فصيح الأسلوب ، معجزة الأداء ، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم ؟ . . .

إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة :

﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطُوا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٦٦) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٧) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٨) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٩) ﴾
(سورة الصافات)

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء ، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق ، فكيف تخرج هذه الشجرة من النار ، أليس في ذلك شذوذ ؟ ثم تتحدى الصورة .
صورة الشجرة ، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق :

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٩) فَرَأَيْتُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالَتْهُمْ مِنْهَا الْبُطُونُ (٦٧) ﴾
(سورة الصافات)

نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رأس الشيطان . وسخرَ البليين يتصيدون للقرآن في أقوالهم : بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان ، وكذلك شجرة الزقوم ، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول ؟ وتساءلوا بطلطنة : ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول ؟ ونقول رداً عليهم : إن غباء قلوبكم وفقدان طبيعتكم للملكة البينة العربية هو الذي يجعلكم لا تفهمون ما في هذا القول من بلاغة .

وحين نقرب المثل نقول : هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامي « الكاريكاتير » في العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان ، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من صورة للشيطان ، وستؤثر أكثر الصور بشاعة ، ذلك أن الغرور هنا ليس في الجمال ، ولكن الغرور هنا في مهارة تصوير القبح . وهكذا تعتمد أعلامنا صور الصبح ، فما دالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصوير شجرة الزقوم ، وكذلك تصور رأس الشيطان ؟ أراد الحق بهذا الأسلوب البليغ إشاعة الفاتنة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التي يأكل منها أهل الكفر .

وكذلك ما قوله الحق : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » والذي يحدث لهؤلاء

الوقوف على النار لا يأتي خبره هنا ، بل يكتفى الحق بأن يعبر لنا عن أننا نواهم في مثل هذا الموقف ؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء ؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار والجنة - كما تعلم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم - إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونعلم أن رؤية العين محدودة ، ورقعة السمع أكثر اتساعاً ، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك ، لكن عيبك لا تريان إلا ما رأيته أنت بمعدتك ، ولا يكتفى الحق بذلك بل يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أن في الجنة ما لا يحيط به على قلب بشر ، أي أن في الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها ؛ لأن اللغة تعبر عن مشهورات الناس في الأشياء والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه .

ومكث تعلم أن ما في الجنة من نعيم لا توجد العساظ تؤدي كل ما تحمله للمؤمن من معان ، وكذلك تعلم أيضاً أن في النار عذاباً لم توضع له العساظ لتعبر عنه ولو أن الحق سبحانه وتعالى قال : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » لرأينا أسراً مصرعاً مخيفاً مدلاً إلى آخر تلك الألفاظ الدالة على عمق العذاب لما أعطى ذلك الأثر نفسه الذي جاء به حذف الجواب

وعندما نقرا « وقفوا » نعرف أن فيه بناء وكياناً مرجوفاً ، وأن هناك من أوقفهم على النار ، وهم كانوا مكذبين في الدنيا بالنار ، ثم وجدوا أنفسهم يوم القيامة ضمن من وقفهم الله على النار ليسوا بالعذاب الذي ينتظرهم ، ويطلعوا على النار اطلاع الواقف على الشيء ، كذلك يوقفهم الحق على النار التي أنكروها في الدنيا ، فقد جاءهم الخبر في الدنيا ، فمن صدق وعلم أن من أخبره صادق ، فذلك علم يقين ، وإن تجاوز الإنسان مرحلة العلم ورأى صورة محبة للخير ، فهذا عين يقين . والمؤمن بإخبار ربه وحصل إلى الأشياء بعلم اليقين من الله ، لأنه يصدق ربه ، ولذلك فالإمام على - كرم الله وجهه - يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازدادت يقيناً » لأنه مصدق بلاغى به .

لكن ماذا عن المكذبين ؟ إن الإنسان يرى عدم اليقين في اليوم الآخر وهو عين يقين ، ويشترك في ذلك المؤمن والكافر ولكن الكافر يرى النار عين اليقين ويدخلها ليحترق بها فيحس بها وهذا هو « حق اليقين »

هكذا تعلم أن النار «عين اليقين» يراها المؤمن والكافر ، والنار كـ «حق اليقين» يعاينها ويعذب بها الكافر فقط ، أما المؤمن في الجنة فيحس «حق اليقين» لأنه يعيش ويسعد بثعيبها ويصور سبحانه ذلك في قوله

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿١﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّ مِنَ الْيَقِينِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النمل)

وجاء حق اليقين في قوله تعالى

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَكَذِّبِينَ ﴿٩٠﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَيْمَنِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الصَّالِينَ ﴿٩٢﴾ فَطَرٌّ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَضِلَّ إِلَى يُجَمِّ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ

الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وماذا يصنعون وهم المكذبون عندما يرون النار عين اليقين ؟ لا بل أنهم يحذقون أن يعاسوا منها عندما تصبح حق اليقين ، لذلك يقولون :

﴿ يَلْبِسْنَا ثُرَدًا وَلَا نَكْذِبُ بِدَابَّتِ رَبَّنَا وَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنعام)

إسهم يتعمنون العودة إلى الدنيا ليستأنسوا بالإيمان والنسي في بعض صوره هو طلب المستحيل غير الممكن للإشعار بأن طالبه يجب أن يكون ، كقول القائل

الالهت الشباب يعود يرمأً وأحرى بم فعل المشب

أو قول القائل

ليت الكواكب تدورن بأعظمها

عقود مدح فما لرضي لكم كلمسي

وهم قالوا : « يا ليت ترد » فإن كانوا قالوا هذا غنياً فهو طلب مستحيل ويتضمن
أيضاً وعداً بعدم التكذيب بآيات الله ، فهل هم قاصرون على ذلك ؟
لا ، لأن القرآن الكريم قد قال في الآية التالية :

بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوُردُوا الْعَادُوا
لِإِمْهَاعِنَهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾

يهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينعدوا الوعد في طلبهم المستحيل ، لأنهم
سيفعلون مثلما فعلوا من قبل ، كفراً ونكراً وجحوداً . إنهم لجأوا إلى هذا القول
من فرط الخوف مما أعده الله لهم . بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يعملونه في الدنيا
من كفر وجحود . ويقال عن يوم القيامة « يوم الفاضحة » : لأن كل إنسان سيجد
كتابه في عنقه ، ويقال له :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَذَابًا حَسِيبًا ﴾ ﴿١٤﴾

(سورة الاسراء)

فإذا كنت في الدنيا تسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق
نا ؟ ويرى الإنسان مكراً يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيرواه
بطريقة لا يمكن معها أن ينكره ، وكان الحق يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل
سأترك لك أن تحاسب نفسك . وبما أن الإنسان أن جوارحه تنطق لتشهد عليه :
الأيدي تنطق بما فعل ، واللسان ينطق بما قال ، والقدم تحكي إلى أين ذهب بها
صاحبها ، فهذه الجوارح التي كانت تعمل لمواد صاحبها في الدنيا ، يختلف موقعها
في الآخرة ولا تنفذ في اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسان المراد

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ﴿١٦﴾ (من الآية ١٦ سورة طه)

مثال ذلك - والله المثل الأعلى - نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم

الجرد ، فإن أعطاهم أوامر خاطئة فهم يتعدونها ، وبعد انتهاء المعركة يأثم القائد الأعلى ، يقولون سلسلة الأوامر الخاطئة التي أصدرها قاتلهم المباشر .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أبعاضك مؤمنة بقدرتك عليها دائماً ، إن سيطرتك عليها أمر منحك الله إياه ، ويسلبه منك متى شاء في الدنيا . ويأتي يوم القيامة لتنتهي سيطرتك على الأبعاض . وأنت ترى في الدنيا بعضاً من صور سلب السيطرة على الأبعاض لتذكر قدرة الوهاب الأعلى ، فأنت ترى من لا يرى ، وترى من فقد السيطرة عن جارية أو أكثر من جوارحه ، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على السوارح إنما هي أمر موهوب من الله . وقول الحق سبحانه عن الكافرين : « بل بدا لهم ما كانوا يمحون من قبل » يفصح تدليسهم في الحياة الدنيا ، ثم يحيب الله على نعيم السابق المملء بالدلة والمسكنة ، التمتع بالعودة إلى الدنيا ، فيقول سبحانه : « ولورثوا لعادوا لما نهوا عنه ولمهم لكاذبون » .

هم كاذبون في الوعد بأن يؤمروا لو عادوا إلى الدنيا ، يوضح ذلك قول الحق سبحانه .

﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٢٩)

إنهم لم يأخذوا في أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلالات يكون مطم مرتب محكم الكون ، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا العدم والإحكام والترتيب موجود في علاقات البشر بعضهم بعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة ، ويعلم أن هناك صفات يشترك في كراهتها كل الناس مؤمنهم وملحدتهم ، فالملاحدة إن مرق من رميله ، ألا يعاقب ؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه . وفي كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب ، بل هناك جراء بإحسان ولإيمان لا يمنع أن يصطليح الناس على شيء من الإحسان ، والمحرومون من الإيمان تلحهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب

إننا نجد أن تجريم المحالف للخير والحمال وإصلاح الكون هو أمر فطري

وضروري للإنسان ؛ فهم يهزمون أفعال السوء بعد أن تعرضهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج الساوي جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحصى كرامة الإنسان .
ويوم القيامة يقفون في صُغار وفي اضطراب ليروا ما فعلوا :

﴿ بَلْ يَدَاهُمْ مَبْكُورَاتٌ كَأَنَّهُمْ يَحْمُونَ مِنْ قَبْلِ وَبَوَّادُوا لَعَادُوا لِمَا جُؤِا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار ضيِّعون مثلما فعلوا ، ولم يقولوا مثل هذا القول في اليوم الآخر إلا لأنهم مفهرون . وكانوا من قبل يقولون :

﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

نفس دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هي الدنيا . ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا في الدنيا على قدر قوته ، وويل للضعيف من القوى . والقوى إنما يخاف من قانون يعاقبه ، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب بها أفعاه ، ولذلك نجد القاصي المزمع يقول دائما : لئن عميت على نضاء الأرض ، فلا تعموا على قضاء السماء .

ومن خباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض « الحياة الدنيا » وهي في حقيقتها دنيا ، وماداموا قد حكموا وعرفوا أنها « دنيا » فلا بد أن يقابلها حياة عليا إن كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار ، والنار جنة من جنود الجبار ، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين ؟

ويقول الحق سبحانه

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ ذُقُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هم - إذن - قد خافوا وارتكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا ؛ لأن ما شاهدوه هول كبير ، فما بالك إذا وقعوا على الله ؟ إنه موقف مرعب . وإذا كان الحق قد حذف من قل الجواب عندما أوقعهم عن السار ؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب ، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى . . إنه ارتقاء في الهول .

وهكذا نرى التبكيت لهم في قول الحق لهم « أليس هذا بالحق ؟ » إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على السار . « أليس هذا بالحق ؟ » وسبحانه وتعالى لا يستمعهم منهم ولكنه يقرر ، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم ، فيقولون : « بل » لأن الأمر لا يحتاج - إذن - إلى مكابرة . و « بل » حرف يجعل السمع إثباتاً .

ويطرح الحق هذه المسألة بالنمى حتى لا يظن طائفة أن هناك تلقياً للجواب . ويصدر حكم الحق : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهكذا يذوقون انعدام الذي كانوا به يكذبون . و « ذوقوا العذاب » ليس من صفة القهر والجبروت ؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ
السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ
يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا
يَزِدُّونَ ۝٢٦﴾

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده ، لكن أن يكون العمل قد أصاع المال ، فهذا يعني الخسارة مرتين : مرة لأن رأس المال لم يبق عند حذنه بل إنه قد فنى وذهب وضاع ، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد صاع وأصاع معه رأس المال

إذن فقد خسر الذين كذبوا بقاء الله ؛ لأنهم باعوا الأجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر . وكل إنسان منا يريد أن يثمر عمله ويحاول أن يعطى قليلاً ليأخذ كثيراً .

وعلى سبيل المثال نجد الفلاح يقطع مقدراً كيلتين من أرانب الضمح التي في مخرته ليبلرهما في الأرض بعد أن تحرت . وهذا يعنى القمص القليل في مخزون هذا الفلاح ، ولكنه تقصير لزياة قادمة ؛ فعندما وصح البذور في الأرض المحروثة نجد الحن سبحانه ونعالى يبتها له أخيراً مضاعفة . والفلاح بذلك يبيع العاجل القليل من أجل ان يأخذ الأجل الكبير .

وهذه أصول حركة العقول الذى يرن خطواته ، فإن أراد أن يزيد الثمار من حركته ، فعليه أن يبذل اجهد . أما إن كانت الحركة لا تأتى له إلا بالقليل فلن يتحرك . ولأن العقول لا يحب الخسارة يحده يوازن دائماً ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذي سيأتى إليه . أما الذين كفروا بقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم ، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين : حياة مظلونة ، وحياة متيقنة ؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظلونة غير متيقنة .

إن لا يعرف كم متحيا فيها ، فتوسط عمر الإنسان على الأرض هر سبعون عاماً على سبيل المثال ، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره في الدنيا بالضبط ، وله أجل محدود . إنه قد وذهب وميت ، ولكن حياة الأخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة ، ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه ، أما نعيم الأخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودائمة ؛ لأنهم لم يهاجروا مع الله .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَفْءَ قَاتِلٍ أُنْحَرِفُوا ﴾
(من الآية ٣١ سورة الأنعام)

ونعلم أن « حتى » هى جسر بين أمرين ؛ فالامر الذى نريد أن نصل إليه هو غاية ، كقول إنسان يا . « سرت حتى وصلت المنزل » ، والمنزل هنا هو غاية السير .

والدين كفروا ، كان كفرهم وتكذيبهم موصلاً إلى الحشران ، فمجيء الساعة بنته ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصول إلى أول الحشران ، لأن خسراتهم لا ينتهي من فور مجيء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم . فبهم يهتاجون بوقوع ما كانوا يكذبون به . ويعلمون جيداً أن ما صنعوه في الدنيا لا يستوجب إلا العذاب وهنا تبدأ الحيرة التي لا يقدرون على كتمانها ، ولذلك يقولون : « يا حسرتنا على ما فرطت فيها » . أي على تفريطنا وإسرافنا في أمرنا وذلك في أثناء وجودنا في الدنيا . وبذلك يعرف أن عدم التفريط في الدنيا والاعتد بالأسباب فيها أمر غير مضموم ، ولكن التفريط في أثناء الحياة الدنيا هو الأمر المضموم ، لأنه مضاعفة للوقت وإفساد في الأرمس

إنني أقول ذلك حتى لا يفهم أحد أن الاستمتاع في الدنيا أمر مضموم في حد ذاته ، وحتى لا يفهم أحد أن الآخرة هي موضوع الدين ، لأن الدنيا هي موضوع الدين أيضاً ، وأجراء في الآخرة إنما يكون على ألوان السلوك المختلفة في الدنيا ، فمن يحسن السلوك في الدنيا ينال ثواب الآخرة ومن يسيء ينال عقاب الآخرة ولذلك لا يصح على الإطلاق أن يقول الدين بالدنيا .

إن علينا أن نعلم خطأ الذين يقولون : « دين ودنيا » فالدين ليس مقابلاً للدنيا بل الدنيا هي موضوع الدين . أقول ذلك رداً على من يقولون أن سبب ارتقاء بعض البلاد في زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وقتلوا بما في الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات .

نقول : إن الإقبال على الدين بروح من الفهم هو الذي يبنى الحضارات ويُنقذ المصلح في الدنيا يوم الجلاء ، ولما أن تعرف أن المقابل للدنيا هو الآخرة ، والدين يشملهما معاً ، يشمل الدنيا موضوعاً ، والآخرة جزءاً . والذين يمتنون بالدنيا ولا يؤمنون بالآخرة هم الذين يقولون يوم القيامة : « يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يعملون أژذارهم على ظهورهم » . والأژذار المنسوبة في الدنيا - وهي الذنوب - ستجسم بحسيات وذلك حتى تكون الفصيحة علنية ، فمن سرق عنة يُعذب يوم القيامة وهو يحملها على ظهره ، ومن سرق بكرة يُعذب يوم القيامة وهو يحملها على

كأنه وهى نخور ، وكذلك من سرق طناً من حديد عمارة سيبحث يوم القيامة وهو يحمله على ظهره ، وكذلك يفضحه الله يوم القيامة .

وهكذا يكون موقف أهل النار ؛ لنلك يقول الحق : « ألا ساء ما يزرون »
ونعلم أنهم لا يحصلون أوزاراً فقط بل يحصلون من أوزار الذين اتخذهم قدوة له ،
فهذا وزر الإضلال ويعرفون - جميعاً - أن حمل الوزر يتجسد فى الإحسان بعينه ؛
فقد قادتهم هذه الأوزار إلى الجحيم ، ونعلم أن نتيجة كل عمل هى الهدف منه ،
فمن عمل صالحاً سيجد صلاح عمله ، ومن أساء فسيجد عمله السيء .

إننا نرى الأمثلة العملية بذلك فى حياتنا اليومية ؛ فهذان شقيقتان يعملان
بالزراعة ، وكل منهما يملك فدانين من الأرض مثلاً . الأول منهما يقوم مع طلوع
الفجر ليعتنى بأرضه ويحراثها ويحمل إليها السباخ ويهتئ بمواقيت الري ويسقى إلى
يوم الحصاد بجد واهتمام . والآخر يسهر الليل أمام شاشة التليفزيون ، ولا يقوم من
اليوم إلا فى منتصف النهار ، ولا يخدم أرضه إلا بأقل القليل من الجهد ثم يأتى
يوم الحصاد فينال الأول ناتج ثمره من محصول وفير ، وينال الآخر محصولاً قليلاً
بالإضافة إلى الخسارة التى يتجرعها بسبب إهماله وكسله . إذن فالماتل هو من يدرس
ما تعطيه حركته فى الحياة . ويختار نوعية الحركة فى الحياة بما يضمن له سعادة الدنيا
والآخرة ، واطمئنان النفس فى الدنيا والآخرة .

إن من ينام ولا يذهب إلى عمله هو إنسان يحب نفسه ، ومن قام من بكرة
الفجر إلى عمله يحب نفسه أيضاً ، ولكن مناك فارقاً بين حب أحق عقابه الندم ،
وحب أعمق لمعى الحياة وعقابه الجراء الوافر
والحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَدَارُ

الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

هكذا تكون الحياة بالنسبة لمن يقف عند وصفها على أساس أنها « الحياة الدنيا »
إنها لا تزيد على كرهها لهواً ولعباً . واللعب - كما نعلم - هو مراوغة حدث ومقصده
في كُن واحد ، والثنا على ذلك الطفل على شاطئ البحر قد يقيم بيتاً من الرمال ثم
يهدمه ، إنه لم يقم ببناء بيت من الرمال إلا ليهدمه . واللعب عملية يُقصد بها قتل
وقت في عمل قد يُنقص ، فالبقاء والنقص في هذه الحالة لعب ولا يشغل اللعب
الإنسان عن الواجب . أما اللهو فهو قتل الوقت في عمل قد ينقص ويشغل الإنسان
عن الواجب أيضاً .

والطفل الصغير - على سبيل المثال - يطلق من والديه بعض اللعب لبعضى وقته
معها وقد يخربها ويهدمها وقد يعيد بنائها . ولعب الطفل هو لهو في الوقت نفسه ،
لأن الطفل غير مكلف بواجب . وما إن يدخل إلى المدرسة وتصبح لديه بعض من
المسئوليات نجد الأسرة تعلمه أن يفرق بين وقت أداء مسئولياته ووقت اللعب ، لأنه إن
لعب في وقت أداء المسئوليات صار لعبه لهواً ، لأنه شغله عن أداء مسئولية مطلوبة منه .
وكذلك الحياة الدنيا مجردة من منهج الذي خلفها وخلق الإنسان فيها هي لهو
ولعب ، أم إن أخذ الإنسان الحياة بموصفات من خلقها فهي حياة منتجة للخير في
الدين وهي الآخرة . والذي خلق الحياة الدنيا جعلها بالسبب لنا مرعة للأخرة
والآمن - إذن - به حباكتان . حياة صلاح في الدنيا ، وحياة نعيم في الآخرة ، لأنه
يعيش الحياة الدنيا على مراد من خلقه

ومن العجيب أن من خلقنا لم يكلمنا إلا بعد أن يصل الإنسان منا إلى البلوغ ،
أي أن يكون الإنسان صالحاً لإعجاب إنسان مثله إن تزوج . ويأتي التكليف متناسباً مع
الصبح وعند تمام العقل . وسمح الحق لنا أن نلعب في سنوات ما قبل النضج ،
ولكن لا بد أن يكون مثل هذا اللعب تحت إشراف من الكبار حتى يمكن للعب أن
يتحول إلى ذرية نفيدينا في مجالات الحياة ، ويجعلنا نعرف كيف وصل في العصر
الحديث إلى درجة من التقدم في صناعة اللعب التي يتعلم منها الطفل ، ويمكن أن
يقوم بتفكيكها وإعادة تركيبها ، وحتى الكبار نجدهم في زماننا يتعلمون قيادة السيارات
في حجرات مغلقة وأمامهم شاشة تليد مزبونة ، وكانهم في طريق حقيقي وفي
شارع مزدحم بالسيارات ، ومن يتقن هذا التدريب العملي يخرج إلى قيادة السيارة

ومعكنا نجد أن التدريب مفيد للإنسان ، يعلم الصغار اللعب الذي يفتحهم عندما يكبرون ، وكذلك يفيد التدريب الكبار أيضاً .

وعندما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعلم أبناءنا ركوب الخيل والسباحة والرمية ، كانت الخيل - في زمن الرسالة - هي إحدى الأسلحة المهمة لركبها الداعون إلى الله المجاهدون في سبيله . ونحن نطلب منا أن نعلم الأبناء السباحة فهذا بناء للجسم والقوة بقيد الشاب ويعلمه سواحية الصعاب ، ونحن نطلب منا أن نعلم الأبناء الرماية فذلك لأن تحديد الهدف مادياً أو معنوياً ومعرفة الوصول إليه أمر مطلوب من كل شاب . وكل هذه ألعاب ولكنها ليست لهواً ، إنها ألعاب ممتعة ويمكن أن تستمر مع الإنسان بعد أن يكف . قال عليه الصلاة والسلام : « علموا أبناءكم الساحة والرمية »^(١) . فهاذا عن ألعاب ههنا وزماننا ؟

إننا نجد أن لعبة كرة القدم قد أخذت اهتمام الرجال والنساء والكبار والصغار ، وهي لعبة لا تعلم أحدا شيئاً ، لأنها لعبة لذات اللعب ، وهي لعبة تعتدي على وقت معظم الناس ، وأخذت تلك اللعبة كل قوانين الأمور الجمدة . فهي تبدأ في زمان محدد ، وينتهي المشاهدون إليها قبل الموعد بساعتين ، وتجد لها الدولة من قوات الأمن أعداداً كافية للمحافظة على النظام مع أنها من اللهو ولا فائدة منها للمشاهد . وقد تمتع ونحو وتغفل البعض من عمله والبعض الآخر عن صلاته . يحدث كل ذلك بينما نجد أن بعضاً من مبادئ الحد بلا قانون .

وأقول ذلك حتى يُفنى الناس ويعرفوا أن هذه اللعبة لن تعيدهم في شيء ما وأقول هذا الرأي وأطلب من كل رب أسرة أن يُحكم السيطرة على أهله ، وينصحهم ببدء ووعي حتى ينته كل فرد في الأسرة إلى مسؤولياته وتعرف أنها لون من اللهو ، وتأخذ الكثير من وقت العمل وواجبات ومسئوليات الحياة ، حتى لا نشكو ونشعب من قلة الإنتاج

إن على الدولة أن تلتفت إلى مثل هذه المسائل ، ولتأخذ كل أمر يقهره ، فلا يصح أن منقل الجند إلى قوانين اللعب ، ولكن يمكن لجند قانونه ، ولتعب وقته رآلا منقل

اللعب إلى دائرة اللهو ، لأن معنى اللهو هو أن نتصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة من وإن نظرنا إلى الحياة مجردة من منهج الله فهي لعب ولهو .

وبلغت هنا إلى دقة الحق حين جاء باللعب أولاً ثم باللهو من بعد ذلك ، ثم يقول : وللدائر الآخرة ، وفي هذا لغت واضح إلى أن الإنسان حين يعزل عن منهج الحق في الحياة تعجزه الأحداث بالانتقال المفاجئ إلى جدد واضح ، لذلك فلما أخذ الحياة في ضوء منهج الله ، لأنه سبحانه حين أطلعنا أنه خلق الإنسان من طين ، وصوره ونمط فيه من روحه فقد أعطاه الحق بذلك حياة أولى ، يشترك فيها المؤمن والكافر ، والظالم والعاصي وكل إنسان له حس وحركة وفكر وإرادة . وأرسل الله الرسل بالمنهج من أجل أن نسير الحياة إلى الغاية منها وهي الحياة الثابتة وهي الدائر الآخرة فإنها الحياة الكاملة الباقية ، ونسمع قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ يَذِّبُ الَّذِينَ آمَنُوا آتِجِبُوا فَيَرَوْهُ مُدَوِّجًا كَرِهَ اللَّهُ مُبْحِكُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأعراف)

إن الحق سبحانه وتعالى يقدم لنا حياة عالية دائمة تحل محل الحياة التي تنتهي والذي يتوقف عن أحد منهج الله في حياته يكتمى بمثل ما يأخذ الحيوان من الحياة وهي النسخ في الروح ، لكن الذي يأخذ بمنهج الله يأخذ الحياة العالمية حياة الخير والخيال والإصلاح والإحسان . ونعلم أن الجمال في الحياة هو الجمال الذي لا يورث فناً والخير الحقيقي هو الذي يعمم خبر الله على العالم ، فلا يأخذ الإنسان الخير لنفسه ويترك ضروره للآخرين ، لذلك أقول . لا تأخذ أي المسلم الخير لنفسك على حساب الشر للآخرين ، لأنك لا تحب أن يحبس الآخرون الخير على حسابك ، والذي يحب أن يخلق بشروره في الناس فليستقل الشر من حيره . ومن يحب أن يأخذ الخير من الناس فليعطهم من حيره حتى ينفى الوجود جيلاً . إننا فاحية بدون منهج الله نكون قبيحة ، لأن أقوى يبعث فيها مبادئ بغيره ويمرر بالصعب إلى الإحسان بالذلة والضياع .

لكن الحق سبحانه أراد الحياة للمؤمنين في ضوء منهجه ، وعندما يطفون تكاليفهم به ، يعمل ، ولا يعمل ، فهم يصومون الحياة من الفساد حسب أوامر الخالق الأعلى للحياة ، فهو سبحانه الذي أوجدها ووضع لنا قوانين صيانة الحياة . ونحن مع مؤسنا واحداً من البشر ، فهو قد منح وحرم كل إنسان مؤمن من أن يصح شراً لأبيه .

وبذلك حمى الإنسان من الشر وإنما خص الله المؤمنين بالنداء والنداء : لأهم أهل الاستجابة والطاعة ، أما ما عداهم من أهل الكفر والشرك فقد تأبوا على الله وعصوه ولم يؤسوا به . وحين يأمر الله المؤمن بالخير ، فهو يأمر المؤمنين جميعاً بأن يصنعوا الخير لهم ولغيرهم . وبذلك يكسون حياة مطمئنة ، لذلك يقول سبحانه : « استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم »

فالمدين لا يستجيبون لله ولا لرسوله حين يدعوهم لما يحبيهم يطلبون في الحياة الدنيا غرقين في اللهو واللعب ، إنهم كالمرق وحتى نعرف أن الحق سبحانه أراد لنا - نحن المؤمنين - الحياة العلية ؛ إنه - سبحانه - قد سمى المنهج الذى يرسم لنا الأوامر والنواهي بالروح : « وكذلك أوحى إليك روحاً من أمرنا » . وسمى الحق سبحانه وتعالى بهذا الملك الذى نزل بالروح .

﴿ تَزَلُّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِيرُ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن فالحياة التى تعطى الإنسان الحس والحركة هى الحياة الأولى التى يلعب ويلهو من خلالها ، وليست هى الحياة المرادة لله ؛ لأن الحياة المرادة لله هى الحياة الإلهامية ولذلك سماها الحق سبحانه الحيوان أى الحياة الكاملة وسمى المنهج روحاً .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(سورة الأنعام)

إن مجرد لتعقل يعطى الإنسان الخير ، والتعقل هو محاولة فهم بوايس الكون من الأسباب والمسببات ، ونحن نرى نور الشمس يعمّ النهار ويشيع الضوء والدفء ، وغياب الشمس وظهور القمر يحقق صماء الكون ويبدى الناس فى ظلمات البر والبحر ، وحريان الماء يروى الإنسان والزرع ، وحركة الرياح تحرك السحب وتقود السفن وتساعد فى حركة الملاحة فى البحر وتلقح السات ، وكل ذلك أسباب أرادها الله حتى يتحقق التوازن فى الكون . والإنسان يأخذ حظه من الحياة بالأسباب لى يعمل فيها ولا يأخذ الإنسان من أسباب غيره

صحيح أن هناك أممات يعيشون بلا أسباب ويأخذون نعم غيرهم ، ولكن عليهم أن يعلموا الله ، فربناك أيها المسمم أن تنهى لحملك ولحم أولادك من استعلانك

لغيرك ، ذلك أن أختيار الحياة مشعر عليه وقد تصير قوتك إلى ضعف ، وتأمين الإنسان لصعته إنما يكون بإخراج الركة للضعيف ، ومساعدته ومعاونته في كل ما يحتاج إليه ، وبعد غير المؤمنين وقد أخذوا فكرة التأمين من الركة ، فأنت تدفع لفقير ركاتك لتؤمن نفسك كمؤمن ، وهم أخذوا هذه الفكرة ليحولوها إلى تأمين على الحياة ، ولذلك تدخلوا في قدر الله

لكن احس أراد بالركة أن يطمئن المجتمع كله لا أن يطمئن من يؤمن على نفسه فقط . ويعلم أن الذي يحيف الإنسان ويجعله يكدر المال ويجمعه ويكثره هو الخوف من الضعف ، لكن لو أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير لأشاع الاطمئنان في نفسه وموس الضعفاء .

والذي يجعل الناس تلهث في الحياة للأدجار لأبنائها هو عدم اقتناعهم بالتكافل الاجتماعي الذي شرعه الإسلام . وهم يرون اليتيم وهو يضيع في المجتمع ، لكن لو آمن الناس في المجتمع بالتكافل الاجتماعي لوجد كل يتيم أبوة للمجتمع كله له . والإنسان الذي يلهث وراء الكسب من أجل أن يؤمن مستقبل أولاده قد يحول أولاده إلى يتامي لأنه مشغول عن تربيتهم ، وبذلك يقول أمير الشعراء شوقي رحمة الله عليه

ليس ليتيم من انتهى أسواه من

هم الحبيبة وحلماء قلبلا

إن البتيم هو الذي تلقى له

أماً تخلت أو أباً مشفقرا

إن على المجتمع أن يأخذ قضية الخير من قول الحق سبحانه : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » فكما أحيا الحق الأجسام بالروح التي تفصح في القالب الطيني فصار لها حس وحركة ، فهو قد أنزل الله أيضاً روحاً من عبده لترتقي به روح الحس والحركة ، حتى لا يصير الإنسان كالانعام أو أصل سيلاً .

﴿ رَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا نَجَبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ لآخِرَةٍ حَيْثُ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَهْلًا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ٢١ ﴾

(سور الانعام)

والدار الآخرة خير ، لأن الدنيا مهبها طالت فهي متتهية ، لكن الحياة الآخرة مخلود أبداً ، ونعيمنا في الدنيا نأخذ بالأسباب ، ولكن نعيم الآخرة نأخذ على قدر سعة ورحابة قدرة الله . وآفة الدنيا حتى بالنسبة لأهل النعيم والهناء والثراء هي الخوف من الفقر أو الموت ، لكن في الآخرة لا يفوت أهل الجنة النعيم ولا يفوتون النعيم .

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿ قَدْ نَعِمْتَ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الطَّاغُوتَ بِعَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾

لقد شرح الحق حال الكفار وموقفهم في الآخرة حين يقفون على النار ، ويقفون أمام الله ، ومن بعد ذلك يوجه الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تقع عليه مشقة البلاغ من الله طولاء الكفار ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حزينا لأن قومه لا يهتدون حلاوة الإيمان ، وهو الرسول الذي قال عنه الحق سبحانه وتعالى

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكَ حَرِيصٌ عَلَيْهِ مَا مَنَّتُمْ بِهِ عَلَيْهِم مِّنْ رَّبِّكُمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٥٨﴾

(سورة التوبة)

وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يكون كل الناس مؤمنين ، ويتألم لمقاومة بعض الناس دعوة الإيمان ، إنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على الكافر ليؤمن على الرغم من أن مهمة الرسول هي البلاغ فقط ، ولو شاء الحق أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لأنزل عليهم أية يجعلهم جميعاً مؤمنين .

﴿ لَعَلَّكَ يَنفَعُ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝١٥٩ إِنْ تَأْسَأُ نَرَىٰ عَلَيْهِم مِّنَ السُّعَةِ ۚ إِنَّكَ فَتَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ فَاخْضِعِينَ ۝١٦٠﴾

(سورة النجم)

لكن اخق سبحانه وتعالى لا يريد حضوع أمياق ، ورنى يريد حضوع قلوب . إنه - سبحانه - يريد أن يأتى الناس هواهية واحترافاً بهشتوا لخب للخلق ؛ لذلك يقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم « قد تعلم إنه ليحريك الذى يقولون ، وساعة نسمع : » قد ، فليعرف أن ما يأتى بعدها هو أمر محقق ، ويأتى ذلك إذا دخلت على الفعل الماضى فهى فى هذه الحالة تأتى لتسبق أمراً محقق ، ومرة تأتى للتفليل أو لتكثير إذا دخلت على الفعل المضارع الذى يدل على الحال أو الاستقلال ، فمدا كان العامل والمعمول بينهما ارتباط سبب فهذا لتكثير ، وإذا كان ظاهر الأمر غير مرتبط ارتباطاً واضحاً .. فهذا للتفليل . والمثال على الارتباط الذى يدل على لتكثير هو قول العاتل : قد ينحج المجد ؛ لأن المجد والساح مرتبطان ارتباط سببية ، ولكن قد يكون هناك حادث مفاجئ لأحد المتحدثين فلا يستطيع السجاح ، كان يحرص يوم الامتحان ، ولكن احتمال الصلحة أكثر من احتمال المرض فكانت لتكثير

والمثال على مجيء « قد » للتفليل هو قول القائل : قد يسبح الكسول ، أى أن لكسول قد سبح بالمصادفة وبدون أسباب منطقية ، كأن يقرأ عدداً من الدروس ليلة الامتحان فبأتى فيها الامتحان يسبح ، إذن « قد » إذا دخلت عن الماضى تكون للتحقيق ، وإذا دخلت عن المضارع فهى لتكثير إذ كانت منطقية الأسباب ، وهى لتفليل إذ كانت غير منطقية الأسباب . ولكن كلما يعلم أن علم الله هو علم لرب ، ولا قوة ولا أمر يخرجان عن معلوم الله . إذن « قد » هنا للتحقيق وهى داخلة على الفعل المضارع ، فالحق أراد أن يعلمنا أنه علم أولاً بى حدث وجاء « قد » لتسحضر صورة الفعل

« قد نعلم إنه ليحريك الذى يقولون » واخرن هو خروج العن من سباق انبساطها ؛ فالإنسان يكون غايه فى الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يؤدى مهمته ، فإن حدث شيء يخل بعمل أحد الأجهزة فذلك يورث الحزن أو يكون الحزن امفعالا لمجيء وحصول أمر غير مطلوب للعن

لقد كان مطلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمن كل الدين استتمو إلى البلاع منه ، لكن العن قنوم الإيمان ، والنعم انهم الرسول بالسجى أو الجنون أو قول الشعر ، وما هودا الحق يسلى رسونه فيقول « قد نعلم إنه ليحريك الذى

يقولون : « أي إنك يا محمد لا بد لك أن تعلم أن أقوامهم هذه ليست متعلقة بك ، لأنك - بإجماع الآراء عندهم - أنت الصادق الأمين - وهم إنما يكذبون بآيات التي أرسلتها معك إليهم ، لأن ماضيكم معهم هو الصدق والأمانة ، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحداً على شيء من أمواله ونفائسه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإنسان لا يرضى نفسه فيما يخصه - فكان الله يريد أن يتحمل عن رسوله ، لأن من يوجه إهانة للرسول إنما يوجهها للمرسِل له وهو الله جلّت قدرته .

ولذلك يقول الحق : « قد علم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » وسبحانه يبين لنا أن رسوله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً أشد ما يكون الحرص على أن تستحيب أمته لداهي الحق ، حتى يتأكد لدى المؤمنين قول الحق سبحانه وتعالى في رسوله :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكَ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾

(سورة التوبة)

ولا معنى للحرص إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب ألا يفت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل أمر الدين اختيارياً حتى يعلم من يجيء له طواعية ويقدر ألا يجيء ، ومن لا يجيء وهو قادر أنه يجيء .

إن الحق سبحانه وتعالى به سنن كونية في الكون يجريها على كل المخلوق . وقد يتساءل قائل : وما لدى يجعل الحق سبحانه وتعالى يترك للكفر به محالاً في دنياه ؟ ولماذا يجعل الحق سبحانه وتعالى للشر محالاً في دنياه ألا يحكمها بهندسة حكيمة ؟ ويعول لو لم يوجد للشر مضار تُقرع الناس لما جرفوا للحق حلاوة - إذن فوجود الشر ، ووجود الكفر ، وآثار الكفر في الناس جبروت وقهراً واستدلالاً ينادي في الناس أنه لا بد من الإيمان ، وأنه لا بد من رجوع الخير . فلو لم يكن للشر مكان في الكون هم الذي يلفت الناس إلى الخير ؟ وبذلك نجد أن هات الإيمان عند المؤمنين لا تأخذ فتوحها ، لا حين نجد قوماً من حصوم الإيمان يبيعون المؤمنين ويؤذونهم ويستفرونهم أما إذا صارت الدين إلى رتبة فرمى فتر أمر الإسلام في نفوس المسلمين - ولذلك نجد المؤمنين بالله في غيرة دائمة ، لأن هناك من يكفر بالله - يقول لرسوله : « قد علم

إنه يحرثك الذي يقولون • وكأنه سبحانه يعلم انه أراد كونه ليكون فيه المؤمن والكافر .

لذلك إن تساءلت - أيها المسلم - كيف يكون في الأرض كافرين ؟ فلك أن تعلم أنهم من خلق الله أرادهم الحق أن يجناروا انكفروا فلم يجناروا الكفر قهرا عنه - سبحانه - وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجزن لأن هناك أناسا لم يؤمنوا ، فبسلية الحق سبحانه وتعالى ، بأنه يعلم انه يجرنه الذي يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله . ألم يقولوا إنه ساحر ؟ ألم يقولوا إنه مجنون ؟ ألم يقولوا إنه كذاب ؟ ألم يقولوا إنه كاهن ؟ ألم يقولوا إنه شاعر ؟ وسبحانه وتعالى يعلم ما قالوا ويعلم أن هذه الأقوال تحرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويريد الحق سبحانه أن يرفع ويدفع هذا الحرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبلغه أنهم لا يكذبونك يا رسول الله ، فأتت تعرف مرثك عندهم وهي منزلة الصدق الأمين ، ولا يجرؤ أحد على تكديبك ولكم يحجلون بآيات الله وهي هاك تلية أكثر من ذلك ؟ لا يمكن أن توجد تسلية أكثر من ذلك

ويعلم أن ما قاله أهل لشرك عن رسول الله هو نون مردود ، فهم أمة اللعنة والمعصاة واليهان ، فكيف يقولون إن القرآن شعر وهم أصحاب الدراية بالأساليب مرسلها ، ومسجوعها ، وبظمها ، وبثرها ؟

أمر المعمول أن يلتبس عليهم أسلوب القرآن بالشعر ؟ من المؤكد أن هذا غير ممكن ولقد قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه ساحر ، فكيف سحر الدين أموا به ولم يسحر الناس ؟ ولو كان ساحرا لسجرهم أيضا ، ويدفعهم على الكفر بنفس هذا . وقالوا كذاب ، فهم يعرفون هذا يكذبون أنفسهم لأنهم يعرفون عنه أنه الصادق الأمين ، وهامودا الحوار بين الأحسن من شريف وأب جهل

قال الأخس : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال أبو جهل . ماذا سمعت ! وهنا سمع قول العبرة والحسد والبعض ، نسمع عن تلك الأمور البعيدة عن موصوع الرسالة الوردية المحمدية فيقول أبو جهل . نارعنا نحن ورسول الله الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا نحافنا على أركب ركنا كعمرى رهن قالوا منا سبي يأتيه الوحى من السماء حتى

تدرك مثل هذا والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق به . فقام عنه الأحنس وتركه . إذن هي مسألة غيرة غامضة على مناصب وسلطة ومثية ، ولذلك يرد الله عليهم قائلاً :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَئِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣٢)

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

وما هو ذا الحق يلى رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له
﴿ قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ يَهْدِيكَ إِلَى الْحَقِّ يُفَوِّضُكَ إِلَى مَنْ يَشَاءُ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَئِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْعَدُونَ ﴾ (٣٣)

(سورة الأنعام)

إنهم ظالمون ، لأن الظلم نقل حق إلى غير مستحقه وأبشع أنواع الظلم هو الشرك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو المستحق وحده للعبادة ، والظلم الأخف وطأً هو أن ينقل الإنسان حقاً مكتسباً أو موهوباً إلى غير صاحبه وهذا ظلم موجود بين الناس . وقد نقل المشركون حق الذات الإلهية إلى غير مستحقها من أوثان وأصنام ، أما المؤمنون فهم الذين احترقوا بحق الذات الإلهية في العبادة

وهناك نوع آخر من الظلم أريد أن أتحدث عنه ، وهو أن يظلم الإنسان اسمه ، كأن يكون والده قد سماه « مهدياً » ولكنه يحمل الدنيا فساداً بإهداء نفسه وإياداه الآخرين . يقول لخل هذا الإنسان إن الواجب يقتضي منك أن تحترم أمل والدك فيك ، فلا تظلم اسمك « مهدياً » ولتكن هناك هنالة بين الاسم والمسمى وذلك بأن يكون سلوكك متوافقاً مع الاسم الذي سماك به أبوك .

أما إن كان أبوه قد سماه « مهدياً » ولم يلقه أى شيء من تعاليم الهدى والدين ، ثم خرج الشاب إلى الدنيا ليملاها بالشقاء لنفسه ولغيره ثم اهتدى من بعد ذلك فهذا شاب استطاع أن يتعلم الهداية فصدر اسمه على مسماه .

وقد كنا في الثلاثينيات من هذا القرن نسمع التحذيرات ونحن نزور القاهرة .

« إياكم أن تطأوا بأقدامكم شارع عماد الدين لأن كل الموبقات فى هذا الشارع »
وتعجبت أن يكون اسم الشارع « عماد الدين » ويكون مكاناً للموبقات فقلت فى ذلك .

والصبح الظلم بعد الشرك مثلة
أن يظلم اسماً مستقياً ضده جُبلاً
بشارع عماد الدين تسمية
لكنه لعماد الدين قد جُملاً

وفى الحياة كثير من حالات الاسماء يظلمها أصحابها . ولكن أكبر وأتبع درجات الظلم هو الشرك بالله « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » والجحد هو إيهام اللسان وترفعه وعدم رضاه بأن ينطق بكلمة الحق ، فلو أن المشركين تحولوا إلى أنفسهم واستعرضوا مسائل محمد ومساائل الرسالة لوجدوا أن قلوبهم مفتحة بأنه صادق وأنه رسول وأن المهج إنما جاء للهداية لكن ألسنتهم غير فاعرة على الاعتراف بذلك

ولذلك يأمر المهج الإيمانى أن على الواحد منا أن أراد أن يناقش قضية أمى حق أم باطل فلا يصح أن تناقشها فى حشد من الناس ، ولكن هل تناقشها أولاً فى نفوسنا لتبين الحق فيها من الضلال ، وللملك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقْرَمُوا لِلَّهِ مَتًى وَفَرَادًى ثُمَّ تَتَكَبَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة سبا)

كان الحق يهذب إلى كمية التمييز ، وإما أن يناقش أنفسنا ، وإما أن يتناقش اثنان حتى يمكن أن يفتح أحدهما برأى الآخر دون أن يشهد ثالث هزيمة فيكابر ويجادل . وقد يصح الحق بذلك هؤلاء الذين اتهموا رسول الله أن به - والعباد بالله - مساً من الحيون ، فالحيون هو أن تحدث الأفعال بلا مقدمات وبدون تدبير أو مظهر فى آثارها وتكون خالية من حكمة فاعلها . أم العاقل فهو الذى يرتب الأفعال بحكمة ويوازن ويدرس وينهى به عقله وحكمه إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسوية خفية عالية ، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى

سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

ولذلك يقول الحق :

﴿ تَنْقَلِبُ وَأَنْتَ لَمْ يَنْقَلِبْ ﴾ ﴿ مَا آتَتْ بِرِيحَةٍ رِيحٌ يَمْجُتُونَ ﴾ ﴿ وَإِنْ لَكَ لَأَجْرٌ
غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿

(سورة القلم)

إن الخلق العظيم يتنافى مع الجنون . وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنهم رموه بالسفه والجنون . فكلمها جاء رسول لقومه بمنهج حق ليطمس معالم الباطل قابله قومه بمش تلك المقابلة . ومعرف أن السماء لا تندخل بالنيرات والمعجزات إلا حين يطم الفساد وتنطمس النفس المؤمنة . فالؤمن فيه خيرة الخير فيندفع إلى فعل الخير . وإن حدثت نفسه بفعل معصية وفعلها ، فإن نفسه اللوام تؤنه على ذلك ، لكن إن انطمست نفسه ولم تعد تقوم ، صارت نفسه الأمانة بالسوء هي المسيطرة وإن لم يجد من يقول له في المجتمع : لا تفعل ذلك . فالمجتمع كله يكون قد فسد . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

إذن السماء لا تندخل برسالة أو معجزة أو منهج إلا حين يطم الفساد . ومدام قد طم الفساد فهناك من يستفيد من هذا الفساد . وحين يأتي الرسول من أجل أن يجمع الفساد فهذا الرسول يمنع من المفسدين استغلال الناس ويحول بينهم وبين الاستفادة من الفساد . ولذلك كان لكل رسول مقاومة من المفسدين وكانوا يقولون :

﴿ وَمَا تَرْفَعُ أَرْحُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلًا يَلِئُ الْوَرْدِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وأتباع كل رسول هم المظلومون الذين يحتاجون إلى منقذ . أما الجبابرة فهم يخاصمون الرسول ويقتلونه . ويستعبد هؤلاء الجبابرة بإيذاء يتسبب مع مهمته . فإن كانت مهمته لقبيلة فالإيذاء يأتيه من هذه القبيلة . وإن كانت مهمته أوسع من ذلك فإنه يلقى من صنوف العذاب ألواناً

ومدام محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الناس كافة فعليه أن يجد المتاعب

الكثيرة وتحملها وقد أعد الله وهباً لذلك ، وقد أخذ الرسل السابقون من الإيذاء على قدر دعوتهم أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو للناس كافة ، ولا رسالة من بعده ، لذلك يتجمع ضد هذا الرسول وهذه الرسالة أنوم كثيرون . ولذلك يقول له الحق سبحانه .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا الْحَيَّ اللَّهُمَّ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذِّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسال لقومهم أو لامة خاصة ، ولزمان خاص ، فحاذر عنك يا حاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة ؟ إن عليك أن تتحمل هذا ، لأن الحق سبحانه وتعالى قد استأرك لهذه المهمة وهو العليم أنك أهل لها . والحق كفضيل بنصر رسله فلا يتأتى أن يترك الشر أو الباطل ليغلب الرسل ، وما دام سبحانه وتعالى قد بعث الرسول فلا بد أن ينصره .

مهر القائل .

﴿ وَلَقَدْ مَبْلَتْ كَلِمَاتُ إِبْرَاهِيمَ الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْمُضِلُونَ (١٧٣) ﴾

(سورة الصافات)

وما دامت قد سفت كلمة الله للرسول فلا مبدل لكلمات الله ، ولا أحد يقاوم على أن يمدك في المبادئ التي رصمها الله بقوله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ (٣١) ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الانعام)

وقد قص الحق سبحانه على رسوله قصص المرسلين ، ولم يكتف بالتقول لرسوله أن الرسل السابقين عليه قد كذبتهم أنومهم ، ولكن أورد الحق لرسوله ما حدث لكل

رسول ممن جاء ذكرهم بالقرآن الكريم وماذا حدث للرسول - أي رسول - من ثبات أمام الأعداء ، ثم بين أن كلمة الحق قد انتصرت دائماً . ولقد روى الحق بمضاً من قصص الرسل فقال

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (من الآية ٧٨ سورة طه)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى .

وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اِسْتَطَعْتَ
أَنْ تَبْنِي نَقْعًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْعًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ
بَيِّنَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

إنك يا محمد رسول من عند الله ، ومعك منهج هو معجزتك الدالة على صدق ما جئت به ، فإن كبر عليك إعراضهم وعظم عليك أن يتولوا ويعرضوا عنك فإن استطعت أن تصنع لنفسك نقعاً في الأرض فتأتيهم بآية أو أن تبني سلعاً لتصعد به إلى السماء طلباً لهذه الآية فافعل ، ولكنك لن تستطيع ذلك لأن ذلك فوق حدود قدرتك وسيلقى المشركون والمنافقون العذاب لأنك حثت يا رسول الله تبذل من صولجان سلطنتهم الزمنية وتقيم العدل الإيماني . ولذلك حاولوا السحرية منك وبإذامك

وقد طلب الكافرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل إلى الأرض ليفجر لهم منها ينبوعاً ، وطلبوا إليه أن يصعد إلى السماء وأن يجعلها تسقط عليهم كسفاً وقطعاً لتهلكهم . ردها أشياء لم تكن في مكنة واستطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقول به الحق سبحانه وتعالى ما يقفل عليه أبواب الحزن ويقطعي على أسباب الأمل والأسف عنده بسبب إعراضهم ، وأن يعرف أن السحرية والمقاومة هي مسألة طبيعية بالنسبة لكل رسول من الرسل ، وأنت يا رسول الله أولى

هذا لأن مهمتك أضخم من كل الرسل . ولعلك أن الحق سبحانه يحذف هنا جواب
« إن » فهو يقول :

﴿ مَنِ اسْتَفْعَلَ أَلَيْتِي فَقَدْ فِي الْأَرْضِ أَوْسًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِقَافِرٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

ولم يقل الحق : فافعل ذلك ، كان المسألة هي تهذبة للرسول ؛ لأن الجواب في
مثل هذه الحالة معلوم ؛ فالرسول لا يجبر أحداً على الإيمان . وأعراض هؤلاء القوم
أمر مفصود لواجب الوجود حتى يحتبرهم ولو أراد فخرهم ففهم نعم ، فلا أحد يتأخر على
الله ، فالكون كله مطيع لله ، الشمس ، والقمر ، والحيوم ، والهواء ، والماء ،
والخيل ، والأرض ، وكل ما في الكون مطيع لله بما في ذلك الحيوان المسخر لخدمة
الإنسان . ولكنه - سبحانه - أعطى الاختيار للإنسان ليأتى إلى الله عبداً .

ونعلم أن الحق قد ترك بعضاً من المخلوقات غير مدبرة للإنسان إنه لم يدل
الأشياء بحيلته ، ولكنه - حل شأنه - هو الذي خلقها ودللها له ؛ لذلك ترى الجمال
الصخم يجره طفل صغير ، و ترى أى رجل معها تكفى قوته يأخذ الخدر والاحتياط من
تعبان صغير .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مَا عَمِلُوا أَيْدِيًا تَعْمَلُ لَهُمْ مَا يَمْلِكُونَ ۖ وَدَلَّلْنَاهَا
لَهُمْ لِنُبَاهِرَ كُوفِهِمْ وَمِهَا يَأْكُفُونَ ۖ ﴾

(سورة يس)

ولو لم يدلها الله فليس يستطيع أحد أن يقترب منها . وأصرت هذا مثل دائماً ،
عندما قال قائل : ماذا خلق الله الدباب ؟ فقال رجل من أهل الإشراف : ليدل به
الحسيرة ؛ فسلطهم لا يند إلى هذه الحشرات . لقد أعطى الحق الإنسان حرة
السيادة ، وعلمه أيضاً أن يتواضع للمخلوق .

ويبلغ الحق سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ أُمَّدَىٰ ۖ فَلَا تُكُونُ مِنَ الْخَاطِلِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

أى أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم مؤمنين . وقد يقول قائل : كيف يخاطب الله رسوله فيقول له : « فلا تكونن من الجاهلين » ؟ ويقول : إن الحق حين يقول لرسوله ذلك فهو يقوفاً لا من مظنة أن يفعلها الرسول ، فالرسول معصوم من الجهل ، ولكن هو قول فيه تنزيه للرسول عن أن يكون في مثل هذا الصنف من الجاهلين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ ﴾

و « يستجيب » معناها أنهم يطيعون أمر الأمر ونهى الناهى . وهناك فارق بين « الاستجابة » و « الإجابة » : ف « الاستجابة » هى : أن يجيبك من طبت منه إلى ما طلبت ويحقق لك ، و « الإجابة » هى : أن يجيبك من سألت ولو بالرخص لما تقول ، وقد يكون الجواب ضد مطلوب ما سألت . ويقول الحق : « إنما يستجيب الذين يسمعون » أى أن الذين يستجيبون لنداء الحق هم الذين يسمعون بأذانهم وقلوبهم صدقة ، لأن هناك فرقاً بين سماع ظاهره سماع وباطنه انصراف ، وبين سماع ظاهره طاعة وباطنه عمة لهذه الطاعة . ونعلم أن استقبال المسموع شيء ، وانفعال الإنسان بالمسموع شيء آخر .

وعندما يتحد حس الاستماع مع انفعال الحب لتنفيذ ما سمعه الإنسان فهذا ما يطلبه الإيمان . والمؤمنون هم الذين يستمعون لكلمات الله بانفعال الحب ، وهم يختلفون عن هؤلاء الذين يسمعون الكلام من أذن ويخرجونه من الأذن الأخرى ، ويتركون الكلمات بلا تطبيق ، ولا يبقى في النفس الراعية من آثار الكلام شيء .

وهكذا يرى أن الله قد صنع ونحى في الإنسان من الحواس ما تهديه وترشده إلى الإيمان أو إلى الكفر ، فالأذن عند المؤمن تسمع ، والقلب يصدق ، والعمل يمحصر ويؤمن . أما الكافر فأذنه تسمع وقلبه يعارض ، وعقله يبحث في أسباب الكفر رغبة

فيه وصعياً إليه ، ولذلك لا تؤدى حواسه مهامها بانسجام ، وكان الذين يسمعون ولا يستجيبون هم من الموق . فالأمر - إذن - ليس مقصوراً على السمع بل المطلوب أن يكون هناك سماع انفعال بالسموع وانصياع له ، ولا تظن أن الله يعجز عن أن يجعل الذى لا يسمع سماع طاعة يتلذذ ويستقيم ، فلا شيء ولا كائن يتأهى على الله ، لأنه سبحانه يحى الموتى

ومادام هو سبحانه يحى الموتى فهو لا يطلب إيماناً جبرياً إنما يطلب إيمان الاختيار والاقتناع ، وهو سبحانه لو شاء لأنزل عليهم من السماء آية فطلت أعناقهم لها خاضعين ، وسبحانه يطلب قلوباً لا قوالب . إذن فالذين يستجيبون لداعى الإيمان هم الأحياء حق ، أما الذين لا يستجيبون فهم فى حكم الأموات ، وهم من بعد موتهم وانتهاء حياتهم سيبعثهم الله ليسألهم عن أفعالهم فى الحياة الدنيا . وعندما يرجعون إلى الله سوف يحسبون الحساب . ويعلم أن المرجع أحراراً ودائماً إلى الله . ومن يرجع إلى الله وعمله طيب يتعجل اخراجه الطيب وتشرق وتنشرف إليه ، أما من يرجعه الله قهراً فهو يحشى الجراء الأليم

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزَلِّكَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧)

إن الله سبحانه يوضح لنا مواصلتهم للحدل ، وطلبهم لآية ما والآية هى الأمر العجيب الذى يبعثه الله على يد من يشئ صدقه فى تبليغه عن الله . وكانهم لا يريدون أن يعرفوا أن القرآن آيات نبات على اروع من اعترافهم بعظمة القرآن ، فقد قالوا .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى وَجْهِ مِنَ الْقُرَيْشِينَ عِظَم ﴾ (٢٨)

(سورة الرحمن)

ولكنهم لم يعترفوا بالقرآن كآية معجزة ، لأنهم عرفوا أن الرسل السابقين قد نزل كل منهم بآية معجزة منفصلة عن المنهج الذي جاء به ، فموسى عليه السلام بمعجزة احمصا ، ويده التي أخرجها من جيبه فكانت بيضاء من غير سوء ، وثشق البحر ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام كانت معجزته التكلم في المهد بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموت بإذن الله ، وجاء بالإنجيل مكتملاً بالروحانيات تلك الماديات التي ملأت نفس اليهود . وبعد أن قالوا عن رسول الله إنه يفتري الكذب تحداهم الحق أن يأتوا بمثل القرآن ثم ترك بهم إلى أن يأتوا بمشروع من مثله ثم إلى أن يأتوا بمثل سورة ولحمة من أنضر سورة . إذن ، فالافتراء وارد عليكم أيضا ، فكما أن محمداً فترى فيمكن أن تفتروا أنتم كذلك فيما سنعتم وتوقتم فيه من أساليب البلاغة . إن القرآن قد تحداهم وملأهم فداهم فإنه معجزة ؛ لأن الأصل في المعجزة التحدي ، ويحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن فلا يستطيعون ، إنه يتحداهم في أمر البعة ، وهم سادة البعة وهم الذين فيها .

جاء القرآن ليحداهم في مجال نبوغهم ، ولكن حصاً من العرب طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية كونه يرونها وأعيانهم الحق عن معرفة أن المعرفة الحسية موقوتة التأثير ، من يراها يقول إنها معجزة ، ومن لم يرها قد يصدق وقد يكذب ونحن - المسلمين - لا نصدق المعجزات الحسية إلا لأن القرآن لوردها ، ولأن القرآن قد جاء للباس كافة ؛ لذلك لم يكن من المعقول أن يكون المنهج الخاتم منفصلاً عن معجزة النبي الذي جاء به .

جاء القرآن - إذن - بمعجزة لرسول الله وهو آية معنوية دائمة أبداً بما فيه من أحكام ونظم ، وآيات كوييه ومصايا علمية ، وإذا كان الخلق يفتخرون في اللغات فما تضمنه القرآن من معجزات لم تنقص عجائبه إلى يوم القيامة . وكل يوم نستبسط من آيات الله معجزات جديدة نحرس كل مكذب ، لأنها معجزات كونية ، ومن العميب أن بعض الذين يستبسطونها ليسوا من المسلمين ، ولا هم من المؤمنين بالقرآن .

ولكن بعضاً من المشركين لم يكف بالقرآن على أنه آية ومعجزة دالة على صدق الرسول ، وطالبوا بمعجزة حسية . فهل كان ذلك الطلب لآية حقيقياً يرجون من وراءه معرفة الحق والإيمان به لو كان مجرد سبب يفتخرون وراءه حتى لا يؤمنوا ؟ إن كان

طلب الآية هو أمراً حقيقياً نابهاً من قلوبهم فلئلا نأخذ بأيديهم ونرشددهم ونهديهم ويقول هم : إن الرسل التي جاءت بمعجزات غير كتاب المنهج كنوا رسلاً إلى أمم معصومة وفي زمان محدود ، فجاءت معهم آيات كونية تُرى مرة واحدة وتنتهي ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لعموم الزمان ، ولعموم المكان ، ولذلك لا تصلح أن تكون آيته ومعجزته حية ، حتى لا تنحصر في الزمان والمكان المحددين ، وشاء الحق أن تكون معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المنهج الدائم . وكنتز القرآن أظهر وكشف من الآيات الكونية ما تحقق من علم وراه البشر ، وما سيقبل بكتشفه البشر إلى أن تقوم الساعة . ولذلك قال الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة فصلت)

أي أن البشر سيرىهم الله وسيكشف لهم من آياته حتى يظهر ويستبين لهم وجه الحق ، وإن كنتم تفترون آية لمجرد التمثيل والتكليف في إعلان الإيمان ، فلتعلموا أن أقواماً غيركم اقترحت الآيات وأنزل الحق هذه الآيات ومع ذلك كفروا :

﴿ وَيَا مَعْشَرَ الَّذِينَ هَادُوا كَذَّبُوا بِالآيَاتِ الَّتِي لَا أَنْكَبُ عَلَيْهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

مثلاً طلب قوم صالح الساقة ، فجاءهم بالنقة ، فكذبوا بتلك الآية وعفروا الساقة . « قدمتم عليهم ربهم بلديهم فسواها » إذن مسألة طلب الآيات قد سبقت في أمم سابقة ، وسبحانه قادر على إنزال الآيات ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون . وسيمولون مثلاً قال الذين تكلم فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُرْسِلَ بِآيَاتٍ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

وبعد أنزل الحق سبحانه القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وبه آيات كثيرة عظمت وجلت عن أن تحصى وتحصر ، ولو أنهم اقترحوا آية وحققها الله لهم ولم يؤمنوا لكان حقاً على الله أن يبيدهم جميعاً . ولقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعداً بالآيات التي يهلكهم وهو صلى الله عليه وسلم فيهم . « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »

إذن فعدم استجابة الله لإزالة آية لهم هو نوع من الحرص عليهم ، ذلك أن منهم من سيؤمن ، ومنهم من سيكون من نسله مؤسسون يحملون المهج ويقولون به إلى أن تقوم الساعة لأنهم أتباع وحمة الرسالة الخاتمة .

وبعد ذلك يأتي الحق بالبيان الارتقائي :

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ بِطَيْرٍ يُحْنَاهُ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَمَّاكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾

إله سبحانه يوضح لنا : أنا أعطى الآيات التي أعلم أن الفطرة السليمة تستقلها كآية وتؤمن بها . وأرسل لكم القرآن لتؤمنوا بالرسول الذي يعمل به مهجاً يصلح حياتكم وقد جعلتكم سادة للكون ؛ تخدعكم كل الكائنات ، لأنكم بهو آدم وكان الأجدر بكم أن تنتهوا إلى أن الحيوان في خدمتكم ، والنبات في خدمة الحيوان وخدمة الإنسان ، وكل كائنات الوجود تصب جهدها المسخر لخدمتكم . فإذا كنت قد جئت للأجاس كلها وجعلتها دوابكم وأعطيها ما يصلحها وقيمتها ووضعت لها نظاماً ، وأعطيها من القرائن ما يكفي لصالح أمرها حتى تزدى مهنتها معكم على صورة تريحكم فإذا كان هذا هو شأننا وعملنا مع من يخدمكم فكيف يكون الحال معكم ؟ إنني أرسلت المهج الذي يصلح حياة من استخلعته سيداً في الأرض

﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَّا فَرَّقَا فِي
الْكِتَابِ مِنْ قَبْلُ ثُمَّ إِنَّكَ دَرَبَهُمْ يُخْشَرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾

(سورة الأنعام)

وكل اللواتي دون الإنسان أعطاهما الإله الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة . ومير الإنسان فرق كل الكائنات بالعقل ، ولكن الإنسان يستخدم عقله مرة امستخداما سلبيا صحيحها فيصل إلى الإيمان ، ويستخدمه مرة امستخداما سينا

فبطل عن الإيمان وكان على الإنسان أن يعلم أنه تعلم محاكاة ما دونه من الكائنات ، فقابيل تعلم من الخراب كيف يوارى سولة أخيه ومصمم الطائرات تعلم صناعة الطيران من دراسة الطيور . إذن كان يجب أن يتعلم الإنسان أن له خالقاً جعل له من الأجناس ما تخدمه ليطور من حياته ومن رعاية كرامته بعد الموت والمثل ما قالته غملة لبقية النمل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ غَمَلَةٌ يَنْتَهِبُ النَّمْلُ آدِمُلُوا سَكِسَكُمْ لَا يَخْطَمُكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

إن النمل أمة لها حرم ، قالت حارسة مهم هذا القول تحديراً لبقية النمل

والله سبحانه يقول .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا نُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَعْقِلُونَنَسِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الاسراء)

إذن فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التي خلقها الله في الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم وأعلمنا الله أنه علم سيدنا سليمان لغات كل الأنعام وكل الأمم المخلوقة لله ، ولذلك عندما سمع سيدنا سليمان ما قالته السمكة تبسم « فلاحكاً من قولها » .

وهكذا عندما أن الله أعطى أدن سليمان عليه السلام ما جعلها تحتلك حاسبه النشاط الذئبة الصادرة من صوت السمكة ونهم ما يعطيه ويؤديه ملك الدوسة ، لذلك تبسم سليمان عليه السلام من قولها : لأن الله علمه مطلق تلك الكائنات ولو علمنا الله مطلق هذه الكائنات لعقها نسيحهم الله ، ونحن لا نعه نسيحهم لأننا لم نتعلم لغتهم . ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - قد يسافر إنسان عربي إلى بلاد تتحدث الإنجليزية وهو يجهل تلك اللغة ، فلا يفهم مما يقال شيئاً . إذن لو علمك الله مطلق الطير ، ومنطق الجبال ، ومنطق السات : لعلمت لغاتهم

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَحَضَرْنَا مَعَ دَاوُدَ آلِجَبَالِ يُسَيِّمَنَّ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنبياء)

إن الجهاد - الجبال - تسبح مع داود . وكذلك الطير ؛ فهاهو ذا المهدد قد عرف قضية التوحيد ، وحز في نفسه أنه رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله :

﴿وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَذَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

إذن فالهدد قد عرف قضية التوحيد ، وعرف أن للشيطان مداخل عن الكائن الحي ، وعرف أن السجود إنما يكون لله سبحانه وتعالى :

﴿الَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن كل الكائنات هي أمم أمثالا . وقد يقول قائل : ولكن هناك كائنات ليست في السماء ولا في الأرض ، مثل الأسماك التي في البحار ؟ ونقول : إن الماء ثلاثة أرباع الأرض والماء يسبح في جزء من الماء الذي هو جزء من الأرض فهو يسبح في جزء من الأرض ، فسيحان الذي خلق الدواب في الأرض ، وخلق الطيور وخلق الأدنى من هذه الأمم وهداها إلى مصلحتها ومصدر حياتها * الذي خلق فسوى والذي قدر مهدي ،

وبرى العلماء يحاولون الآن اكتشاف لغة الأسماك ، واكتشاف كل أسرار مملكة النحل ونظامها ، وكيف تصير أعشاش اسمل بحار في الصيف لقوت الشتاء . ودرسوا سلوك النمل مع حبة القمح ، وكيف تخلع السملة حلايا الإبيات من بذرة القمح ، لأن حلايا الإبيات إن دخلت مع حبة القمح إلى غمر غداء النمل قد تست وتدمر جحر النمل . وهكذا نرى صدق الحق الأعلى .

﴿الَّذِي خَلَقَ مَسَوًى ① وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدًى ②﴾

(سورة الأعلى)

وفرون الاستشعار في السملة تأثير العلماء ، لأن السملة الواحدة ترى على تسيل المثال

قطعة السكر ، فلا تقرّبها ولكنها تذهب لاستدعاء جيش من النمل قادر على تحريك قطعة السكر . ووجد العلماء أن وزن الشيء الذي يتغلّى به النمل إن زاد على قدرة جملة ، فهي تستدعي أعداداً من النمل ليؤدوا المهمة .

ونسأل العلماء : من أين للنمل إذن هذه القدرة على تحديد الكتلة والحجم والوزن ؟ إن تحديد العدد الذي يحمل حجماً محدداً يثير العجوبة والعجب ، فكيف يمكن أن نتصور أن النمل يفرق بين شيئين يتحد حجمهما ويختلف وزنهما ككتلة من حديد وأخرى تماثلها في الحجم من الأسفنج ؟ إن النمل يستدعي لكتلة الحديد أصعاف ما يستدعيه لحمل كتلة الأسفنج مع اتحادهما في الحجم ، إنها من قدرة الحق الذي خلق سرى والذي قدر مهدي

ثم إنك تلتفت إلى الحيوان فتجد الذكر والأنثى ، وتجد أن الجمال كله في ذكور الحيوان ، بينما لا يكون الأمر كذلك في إنثى الحيوان ، والكثرة العالية هي من الإناث والقلّة من الذكور ، ولا يقرب الذكر أنثاه إلا في موسم معين ، وإلى أن يأتي موسم التلقيح ينصرف الأنثى إلى إعداد العش وتهيته لما عساه أن يوجد من نتاج ، وهذه العملية لحكمة عالية ربما تكون لبقاء نوع الحيوان حتى يعين الإنسان في إعمار الأرض

وفي عالم الطير نجد الطيور تبني العش بفن جميل لاستقبال الفرج الذي خرج من البيض وتفرش له العش بأنعم الأشياء ، إنها تفعل ذلك بإتقان جيد وبصورة ربما يعجز البشر أن يعمل مثلهما . ثم نجد في ديار الحيوان والطيور أن الكائن ما إن يبلغ القدرة على الاعتماد على نفسه فلا تعرف الأم ابنها من ابن غيرها . إذن فكل المخلوقات أمم أمثالها أرواقاً وأجلاً ، وأعمالاً ، يصدق الله إذ يقول : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

وقد يكون المراد من الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ، ولكنا نقول : إنه القرآن ، وكل شيء موجود ومذكور أو مضمور في القرآن الكريم . وذكر القرآن أن هذه الأمم تعرف التوحيد ، وأنهم يسبحون الله والعمل المعاصر يكشف في كل دقيقة حقائق هذا الكون المنظم . ولجهد العقل يهبط إلى أن يوجد أشياء لصالح حياتنا ، ولكن عندما تتبع الهوى فإنما يفسد هذا الكون . إن الله - سبحانه - جعل للحداد من دواب

الأدھر نطافاً للّعلمل والروق والأجل بحكم العریزة ، وكذلك جعل للطیر ، ولكل الكائنات :

ويقول الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته الكریمه .

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي أُنْكُتَيْبٍ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْنَا رَيْسُهُمْ يُخْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

إذن كل شيء يحشر يوم القيامة ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رواه أموهريرة رضى الله عنه : « لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء^(١) من الشاة القرناء^(٢) » .

أى أن الحق سبحانه يقتصر من الشاة ذات القرون التى طاحت الشاة التى بلا قرون ويحوصها عن الألم الذى أصابها . وبعد أن يأخذ كل كائن من غير الإس والحق حقه بصير إلى تراب . أما الذين يسمعون ولا يستجيبون لهم المكذبون بالآيات ، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ

مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾

والصمم آفة تصيب الأذن فلا تسمع . والكم آفة تصيب اللسان فلا ينطق . والبهكم مرتط بالصمم ؛ لأن الإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ فالإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع .

إن الشر يشأون في بينات مختلفة اللغة ولا يتكلمون إلا باللغة التى تشأوا في

(١) الجلحاء هى التى لا لون لها ، بعكس القرناء

(٢) روى مسلم والترمذى وأحمد بن حنبل .

ببشرها ، لأن اللغة ليست دعماً ولا جنساً بل اللغة سماع وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ولا يقرأ الإنسان إلا إذا سمع وعرف ارتباط ما يسمع بما يرى ، لذلك نعرف أن السمع هو المنفذ الأول للإدراك ، ولهذا كان الصمم قبل البكم .

ولكن هل الإدراك مرتبط بالصمم والبكم فقط ؟ لا ، إن الإنسان يسمع أولاً ، ثم يرى ، ثم يتلوه ، ثم يشم ، ثم يلمس ، ثم تأتي له المعلومات العقلية . والمثال على ذلك أن كل إنسان يعرف أن النار محرقة ، وهو لم يعرف هذا إلا لأنه وجدها قد لست كائناً وأحرقته . ومثال آخر - يتفق الناس على أن صوت العنديل جميل ، وهذا الاتفاق جاء من سماع الناس لصوت العنديل - إذن فالمعلومات العقلية تأتي نتيجة للمعلومات الحسية .

« صم وبكم في الظلمات » إسم بلا قدرة أيضاً على إبعاد الهداية من أي ناحية ، صم لا يسمعون لكلمة الحق ، وبكم لا ينطقون ، وفي ظلمات لا يهتدون إلى إدراكات الأنبياء ولا إلى الإيمان . وكل ذلك مردود إلى المشيئة : « من يشأ الله يصله ومن يشأ يمحله على صراط مستقيم » لكن هل اقتحمت المشيئة على الناس وقهرتهم ؟ لا ، لأن الحق قال :

﴿ إِنْ أَفَعَلَ آتِيهِ مَنْ هُوَ مُصِرٌّ كَذَابٌ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة طه)

وقال سبحانه أيضاً : « والله لا يهدي القوم الظالمين » إذن ، فتعديهم العلم ، والعق ، والكفر ، وقد فعلوا ذلك اختياراً فصار المرض واستقر في قلوبهم وزادهم الله مرضاً ، وهو سبحانه أعنى الأغنياء عن الشرك به ، فمن أشرك مع الله شيئاً فهو له . ويأتى من بعد ذلك أمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ

السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وه أرايكم ، مكونة من استعظام وفعل ، ومن ضمير وهو لفظ التاء المنوح

للمخاطب كفرتك : «أريت فلاناً» وكأنك تقول له : «إن كنت قد رأيت فاحبرني عنه» ، وعندما تقول للمخاطب ذلك فأنت تستغهم منه عن شيء رآه وأبصره وبعد ذلك تأتي بكاف الخطاب ، فكأنك تقول له : «أخبرني عنك» ، فيكون المعنى أخبروني عن أنفسكم ، وهكذا تكون : «أرايتكم» معناها : «أخبروني عن حالكم إخبار من يرى» . فالأمر إذن لرسول الله ليسأل المشركين أن يخبروه ماذا يفعلون عندما يصيبهم الضرر أو أي شيء فوق الأسباب ، هل هم يدعون اللات والعزى ؟

لا ، إنهم لا يستطيعون وقت الخطر الداهم أن يكذبوا على أنفسهم ، إنما يدعون الله الذي لا يعلنون الإيمان به . ولو كانوا صادقين مع كفرهم لما نادوا الله ، بل كان يجب أن ينادوا أنفسهم : لكنهم في لحظة الخطر يقولون : «يا رب» كأنهم يعرفون أنه لا منفذ لهم إلا هو سبحانه . وهكذا يكشف أمامهم كذب كفرهم وشركهم بالله . ولا أحد يغش نفسه ، حتى الدجال الذي يدعى بمارسته شفاء الناس ، إن أصابه مرض نجده يلجأ إلى طبيب متخصص متعلم . فلا أحد يغش نفسه ، وساعة يمس الخطر ذات الإنسان يجد الحقيقة تتبع من الإنسان نفسه .

ويسألهم النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يدعونه لحظة الخطر ؟ إنهم يدعون الله . وكانهم لا يفتنون في أنفسهم .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُتْمِهِ أَوْ قَاعِهِ أَوْ قَائِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لكن ماذا يحدث عندما يعود لقلب غلظته ؟

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْبٍ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا إذن يطلب من الله النجدة وقت الخطر ، ولا يتبع التكليف ؟ يأتي الأمر إلى الرسول ليسألهم من تدعون لحظة الخطر ؟ ويأتى الجواب أيضاً من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ
وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ١١ ﴾

إنكم - أيها المشركون - لا تدعون إلا الله أن يكشف عنكم الضر ، فإن رأى أن
من الحكمة أن يجيب دعاءكم أجابه وإن رأى أن من الحكمة ألا يجيب فهو
لا يجيب . وهم يدعون الله وينسون أنهم ومن أشركوهم بالعبادة مع الله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَنْصَرِعُونَ ١٢ ﴾

لقد أرسل الحق لأمم سابقة رسلاً بالآيات والمنهج ، فكذبتهم أقرامهم ، فأخذهم
الله بالشدائد والأحداث التي تضر إيمانهم ، وإما في المال ، بالمرض ، بالفقر ، لعلمهم
ينصرعون إلى الله سبحانه وتعالى .

إذن فالحق حين يمس الإنسان بالبأساء أي بالشدائد أو بالضراء ، أي بالشيء الذي
يضر ويؤذي ، إنما يريد من الإنسان أن يحترق نفسه ، فإن كان مؤمناً بغير الله فليذهب
إلى من آمن به ، ولئن يرفع عنه تلك البأساء أو ذلك الضر إلا عندما يعود إلى الله .
وعندما يتصرع إلى الله قد لا يقبل الله منه مثل هذا التصرع ويقول سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ١٣ ﴾

إنه - سبحانه - يمتحنهم ويحضرهم على أن يتضرعوا ويتذللوا إلى الله ليرفع عنهم ما نزل بهم ، ولكن قلوبهم القاسية تمنعهم حتى في لحظة المس بالضر أن يلجأوا إلى الله خوفاً من اتباع التكليف . إن قسوة القلب تكون بالصورة التي لا يتفقد إليها الهدى وكما قال الحق :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٤)

(سورة المطففين)

أي صارت قلوبهم مملقة ومغطاة بعد أن طبع الله وختم عليها فلا تقبل الخير ولا تميل إليه ، فلا يؤمنون .

ويتابع الحق القول الكريم :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (١٥)

إنهم عندما نسوا ما جاءهم من تذكير الحق لهم بالسج والتوحيد من خلال الرسل إنه - سبحانه - يصيبهم بالعذاب الذي يفاصلهم به فيقعون في حيرة تأخذ عليهم ألباسهم ونشئت قلوبهم وتقطع رجاءهم .

والرسل إنما تأتي لتذكر ؛ لأن الإيمان موحود بالقطرة ولكن العفلة هي التي تغمي الإيمان والإنسان يحيا في كرون ملء بالنعم ولا دخل لأحد به ، ولا يد لأحد فيها ، ولم يدعها أحد لنفسه ، كان يجب عن هذا الإنسان أن يمش دائماً في رحاب الحمد لله ، مولى هذه النعمة

والتذكير من الحق لعباده يكون بالنعم أو الرسل الذين يأتون بالرسالات المتوالية . وهب أن إنساناً قد فغل عن نعمة الله في الطعام ، ثم جاءت لحظة الجوع ، فجلس

يشتهي الطعام فمنحه الله ذلك الطعام فكيف يسي لحظة الشبع من وهب له هذا الطعام .

« قلما سوا ما ذكروا به » إما أن يكون هو الإخبار بواسطة الرسل الذين يذكرون الناس بأن المنعم هو الله ، وأن الله أنزل المنهج ليصلح الكون به ، وإما أن يكون بواسطة النعم التي تمر على الإنسان في كل لحظة من اللحظات ، لأنها به الإنسان إلى أن هناك من أعطاه . مثال ذلك ساعة يستر الإنسان عورته وجسده بلباس جميل ، ألا يتساءل عن الذي وهب الصانع تلك الموهبة التي صمم بها الرى . إذن كيف يأخذ الإنسان النعمة ولا يتذكر المنعم ؟ إن الله سبحانه لا يحرمهم من النعم ساعة أن تركوا شكرها ، بل يفتح عليهم أبواب كل شيء ، أى يعطيهم من النعم أكثر وأكثر ، فيترفون ويعيشون في ألوان من حياة العمر والصحة والسعة والجاه والسيطرة والمكانة . ثم ما الذى يحدث ؟ « أخذتهم بغتة فإذا هم مبسورون »

وقلنا من قل هذا المثل الرفي . لا يتق أحد من فوق الحصار . ولكن الحق يعلى الكافر المشرك في بعض الأحيان ثم يأخذه بغتة فيقع ليكون الأثم عظيماً . فإن رأيت إنساناً أصرف عن نفسه ووسع الحق عليه في نظام الحياة . إياك أن تمتن وتقول : أه إن الكافر الظالم يركب أفقر السيارات ويعيش في أبهى القصور ، لا تقل ذلك لأنك سترى نهاية هذا الظالم البشعة

وننظر إلى دقة التعبير في قول الحق تبارك وتعالى : « فتحنا عليهم أبواب كل شيء » لقد فتح عليهم أى سلط عليهم ، لا فتح لهم . ويقول الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن الكريم : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً »

ويمكن أن يعرف أن الفتح لك عبر المنع عليك ، لأن الفتح على أحد يعنى الاستدراج إلى إذلال قمرى سوف يحدث له . ولعلك تقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

إن القصر يأتى لحظة الفرح وكثيراً ما نرى مثل هذه الأحداث في الحياة ،

نلتفت إلى كارثة تحدث للعريس أو العروس في يوم الزفاف . ويصدق قول الشاعر :

مشت الحوادث في غرف الحمراء
منى النعى في دار عرس

وهذا يشرح القول الكريم :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وعندما يذوق في كلمة : « بما أوتوا » فإننا نجد أن ما حصلوا عليه من نعمة إنما جاءهم كتمهيد إلهي يسر هذه المسائل ، ثم يأخذهم الحق بغتة ، أي أن الحادث الضار يأتي بدون مقدمات ، لأن مجيء المقدمات قد يجعل الإنسان يتيقظ ويحسب أو يتوقع ذلك . ونعرف أن الحق يقول في موقع آخر من القرآن الكريم .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٧ سورة الأنعام)

أي أن العذاب قد يأتي مرة بغتة ، وقد يأتي مرة أخرى جهراً . والعذاب يأتي بغتة حقاً ، ويأتي جهرة حتى لا يقول أحد . لولا أن مجيء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلك الأمر . ويأتيهم العذاب وهم ملسون أي يائسون لا محجى ولا منقذ ولا خلاص لهم .

ويتابع الحق ما يحدث هؤلاء :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

ومادم هؤلاء القوم قد نسوا ماذكروا به ، وفتح الله عليهم أبواب كل شيء ثم مرحوا بما أوتوا وأخذهم الحق بغتة ، كل ذلك يلفتنا إلى أنه يجب علينا أن نحمد الله لأنه يربى الخلق بالنعمة ولنعمة ويظهر الكون من المفسدين ، وقطع دابر المفسدين

مصيبة هؤلاء المفسدين ، ونعمة من نعم الله على المؤمنين . وقد يتساءل البعض :
كيف يأتي القرآن بالنقم وكأنها نعم ؟
وبجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَنْعَشِرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِذَا اسْتَعْطَقْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَاتَعَدُّوا لَا تَنْفَعُوكُمْ إِلَّا بِمُلْكِنَ ۚ قَبَائِلُ ۚ الْآءِ رَبِّكَ تُكْذِبُونَ ۝ يَرْسُلُ
عَلَيْكَ شَوَاطِدَ مِنْ نَارٍ وَتُحْمَلُونَ فَلَا تَنْفِرُونَ ۚ قَبَائِلُ ۚ الْآءِ رَبِّكَ تُكْذِبُونَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

إنها نقم يتحدث عنها الحق كإرسال الشواط من نار وسحاس ، وهي نقم بالنسبة
للكافرين وعليهم ، وهي نعم للمؤمنين . ونعلم أن التهورل في أمر العذاب يجعل
الناس ترتدع ، وهذا الرعيد نعمة من الله . وحين يتجلى الحق بنعمه على خلقه
ويقطع دابر الظالمين ، يقول المؤمنون الحمد لله .

﴿ مَطْلَعُ دَائِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾

(سورة الأنعام)

ويعود الحق إلى استعطافهم بالإخبار عن الرئيات :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَفَّمَ
عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ۝ ﴾

هنا يأمر الحق نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعطفهم : ماذا يفعلون إن سلب الله
السمع وغطى قلوبهم بما يجعلها لا تدرك شيئاً ، وسلب منهم نعمة البصر ، هل
هناك إله آخر يستطيع أن يرد لهم ما سلبه الحق سبحانه منهم ؟ لقد أخذوا نعمة الله

وامتعملوها لحادثة الله وعداوته ، أهدوا السمع ولكنهم صموا عن سماع الهدى ، وأهدوا الأبصار ولكنهم عموا عن رؤية آيات الله . ومنحوا القلوب ولكنهم أغلقوها في وجه قصايا الخير . ههنا يعلمون إن أجل الله منهم هذه النعم ؟ هل هناك إله آخر يدعأون إليه ليستردوا ما أخذ الله منهم ؟

ونرى في الحياة أن الحق قد حرم بعضاً من خلقه من نعم أدامها على خلق آخرين . إن في ذلك وسيلة لإيضاح في الكون . وبإك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين سبب نساءً نعمة ، أنه يكره هذا الإنسان ، إنه سبحانه أراد أن يذكر الناس بأن هناك منماً أعلى يجب أن يؤمنوا به . فإن أخذ الحق هذه النعم من أي كافر ههنا سيفعل ؟ إنه لن يستطيع شيئاً مع فعل الله .

وهامودا النبي يوضح لهم بأنهم إناصحة ، ولكنهم مع ذلك يعرضون عن التدبر والتفكر والإيمان « ثم هم يصدفون » .

وللؤمن حين يرى إنساناً من أصحاب العاهات فهو يشكر الله على نعمه ، إن الحق - سبحانه - بواسع رحمته يعطي صاحب العاهة نفوقاً في مجال آخر . ولذكر قول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى
فجئت عجيب البظر للمعلم موئلا
وغياض ضياء العين للقلب رافداً
للمعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

إننا قد نرى أعشى يفود بصيرته المبصرين إلى الهداية . ونرى أصم كيهتهوفر على سبيل المثال - قد فتى الناس بموسيقاه وهو أصم . وهكذا نجد من أصيب بعاهة فإن الله يعوضه بجرود وفصل منه في نوح ومجالات أخرى من حياته . ولا يوجد إله آخر يمكن أن يعوض كلفراً ابتلاه الله ، لأن الله هو الواحد الأحد : « انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » ، أي انظر يا محمد وتعجب كيف نبيّن لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب ما بين حجاج عقلية وتوجيه إلى آيات

كونية وترغب وترهب وتنبيه وتذكير ومع ذلك فإن هؤلاء الكافرين لا يشكرون ولا يتدبرون ، بل إنهم معرضون ويتولون عن الحق بعد بيانه وظهوره .
ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا أَنَا عَذَابُ اللَّهِ بَعَثَ
أَوْجَهَرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٧)

ونلاحظ أن « تاء الضمير » في هذه الآية قد فتحت ، بينما الآية السابقة لها جاءت فيها « تاء الضمير » مضمومة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ لَيْلَةٍ غَيْرَ أُفٍّ بِأَيْتِكُمْ
يَهْ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ هُمْ يَهْدُونَ ﴾ (١٨)

(سورة الأنعام)

ونلاحظ أيضاً أن الآية التي نحن بصددها الآن تأتي فيها كاف الخطاب : « أَرَأَيْتُمْ » بينما الآية السابقة لها لا تحمل كاف الخطاب « أَرَأَيْتُمْ » ونعرف أن كل لفظة من هذه الألفاظ قد جاءت لتؤدى معنى لا يؤدى بغيرها ، وإن تشابهت الأساليب ، فقله : (أَرَأَيْتُمْ) يشمل وهم ضمير للخطاب وهو التاء المفتوحة ويشمل أيضاً كاف الخطاب والجمع بين علامى الخطاب (التاء) و (الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شيء ما عليه من مزيد . إنه تنبيه إلى أن هلاكهم سيكون هلاك استتصال وريادة ، ومرة يقول الحق : « أَرَأَيْتُمْ » أى أخبروني أنتم وأعلموني إعلاماً يؤكد لي صديق القضية ، ويأتى الاستهتام هنا من مادة « أرى » و « رأى » .

إن السبب في ذلك أنك حين تستفهم عن شيء إما أن يكون المستفهم منه قد حضر حدوث الشيء ، وإما أن يكون المستفهم منه لم يحضر حدوث الشيء . فإن كان قد حضر حدوث الشيء فإنك تقول له : أَرَأَيْتَ ما حدث لفلان وفلان ؟ فيقول لك : نعم رأيت كذا وكذا وكذا . وإن كان المستفهم منه لم يعلم بالأمر ولم يره فهو

يجب بالنسبة ، وهذا ما يحدث بين البشر ، لكن حين يكون الاستفهام من الله ، ويكون الحادث المستفهم عنه قد حدث من قبل وجود المستفهم منه ، فالإيمان يقتضي أن يجيب المستفهم منه عن هذا الحادث بـ « نعم » .

ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

(سورة الفيل)

وهذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عما حدث لأصحاب الفيل في عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الحدث موضع رؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولعلنا أن يقول : كيف يخاطب الله رسوله باستفهام عن حادث لم يره ؟ ونقول . إن الحق بهذا الاستفهام يوضح لرسوله : اسمع مني ، وصياعك مني فوق رؤية عبيد للحدث ، فإذا ما قلت لك : « ألم تر » فمعناها : اعلم علماً يقيناً ، وهذا العلم اليقيني يجب أن تثق في صدقه كأنك رأيته رؤية العين وفوق ذلك أيضاً فإن عينك قد تخدعك أو تكذب عليك ، ولكن حين يخبرك ربك لا يخدعك ولا يكذب عليك أبداً .

إذن فالحق يريد أن يخرج هذه الأساليب مخرج اليقين . وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - فحين يحاول إنسان قد أحسنت إليه كثيراً أن يبعد إحسانك ، فأنك لا تقول له : أن أحسنت إليك ، ولكنك تقول له : رأيت ما فعلته معك يوم كذا ، ويوم كذا ؟ وهنا يبدو كلامك كاستفهام منك ، لأنك واثق أنه حين يدبر رأسه في الجواب فلن يجد إلا ما يؤيد منطلقك من وقوفك إلى جانبه ، وإحسانك إليه ، ولن يجد إلا أن يقول لك : نعم رأيت أنك وقفت بجانبى في كل الموقف التي تذكرها . وفي مثل هذا القول إلزام لا من موقع التكلم ، ولكن من واقع المخاطب .

ويعد أن تكلم الحق عن تعنت الكافرين أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم اكتراثهم بالآيات التي أنزلها الله مؤيدة لصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم تخديعهم في اقتراح آيات من عندهم ، وقد اقترحوها في شيء من الصفاقة والسياسة ، فقالوا :

الْآخِرَةُ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

(سورة فصلت)

لقد تكبر قوم عاد عن سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه ، وظنوا أنهم أقوى الأقوياء ، وغفلوا عن قدرة الخالق الأعلى وهو القوى الأعظم وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟ فاجأهم الحق برسالة ريح ذات صوت شديد في أيام كلها شؤم لبذيقهم عذاب الهوان والخرى والدل في هذه الدنيا ، وبفسم الحق بأن عذاب الآخرة أشد خرياً ، لأنهم في هذا اليوم لا يجدون ناصراً لهم لأنهم كفروا بالذي ينصف وينصر وهو الحق جلّت قدرته .

وماذا عن قوم ثمود ؟ لقد بين لهم الحق طريق الهداية . لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذبوا نبي الله صالحاً عليه السلام وعفروا الناقة ، فنزلت عليهم الصاعقة لتحرّقهم بمهانة بسبب ما فعلوا من تكذيب لرسولهم .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَخَذَّيْنَاهُمْ سَيْحَةً مِنَ الْعَذَابِ

أَلَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة فصلت)

وماذا فعل الحق بأصحاب النمل ؟ لقد جاء قوم أرمه لهدم الكعبة ، فاستقبلتهم الطير الأبليل . أى لى جاءت في جماعات كثيرة متتابعة بعضها في إثر بعض بحجارة من طين منحبر محرق قد كتب وسجل عليهم أن يعذبوا به .

﴿الرَّيْبَ جَعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿١٨﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿١٩﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ

سِجِّيلٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٢١﴾﴾

(سورة النمل)

وكل حدث من تلك الأحداث أجراه الله بخته . ومعنى البغثة أن يفجىء الخطب القوم بدون مقدمات علم به . وهناك أيضاً من الأحداث الجسام أنزلها الله بالكافرين جهرة ، معاهم أولاً قوم فرعون يفرقهم الله علناً وكذلك قارون أهلكه الله جهرة :

﴿إِنْ قَرُّوْنَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَلِّغْهُمْ وَاتَّبِعْهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِذَا مَعَانِهِ
 لَنَسْرَبَ بِالْعَصَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَنْفِرْ إِنْ أَنَا لَهُ لَا يُجِبُ الْغَرِيبَ ﴿٦٦﴾
 وَاتَّبِعْ هِمًّا هَآتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَمْسُ بِصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَخْسِ كَمَا
 أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَسْجِ الْقَصْدِ الْأَرْضِ إِنْ أَنَا لَهُ لَا يُجِبُ الْمُقِيدِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ
 إِنَّمَا أُورِثُهُ عَنْ عِلْمٍ عِديٍّ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ
 مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْقِطُ عَنْ نُبُوهُمْ الْمُعْجِرُونَ ﴿٦٨﴾ فَصَرَخَ عَلَىٰ
 قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَبْلَيْتْ كَمَا بَلَىٰ مَا أُولَىٰ قَرُّوْنَ
 إِنَّهُ لَفُتْحٌ حَاطٌ حَاطٌ ﴿٦٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَنْكَرُ ثَوَابُ اللَّهِ حَبِيبَتَيْنِ عَالِمَيْنِ وَعَمِلَ
 صَالِحًا وَلَا يُفْقَهُنَّ إِلَّا الصُّبُورَ ﴿٧٠﴾ فَصَفَّاهُ وَيَدَارِهِ الْأَرْضُ قَا سَكَكَ لَقَوْمٍ
 يَتَّبِعُونَ قَوْمَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

(سورة الأنعام)

لقد أحط فاروق بنعة الله وسبها إلى نفسه ، وصار معتوق بما امتلك ، وغرق في
 المرور ، فإذا فعل الله به ؟ حلف الله به جبهة وأمام أميين الذين تمسوا مكانه إدد
 من الممكن أن يأتي عذاب الله بغتة للكافرين به أو بأنبيهم بالعذاب جبهة .
 وما السبب في التلوي بين « بعة » وه « جبهة » ؟ البعة تثبت لمن بعد غير الله أنه
 مخلوق في صلاته لغير الله ، لأنه لو كان بعد إلهاً حقاً لما قل هذا الإله أن يعذب
 أتباعه من حيث لا يشعر إدد فالبيعة تثبت عجز المصودين من أصنام وعبرها ، فقد
 عبرت تلك الأصنام أن تحتط للمعادين لها ، وقد يقول قائل منهم ، لقد جاءنا
 العذاب فجأة ، لكن لو جاء لنا مواجعة لكننا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه

فإن الله أيضاً بالعذاب جبهة فلا يستطيعون مواجهته فتقطع حججهم ، وعلى الرغم
 من ذلك تموت في قلوب هؤلاء المعادين لقدرة هل إيصار ضرورة الإيمان ويعامل
 سبحانه خصوم رسولنا - صل الله عليه وسلم - مثل هذه المعاملة ، فبعد ما هداه
 القوم جاءهم الله سبحانه بأمور معبرة لعندهم يتمكرون

فهاهم أولاء قد اتفقوا على قتله قبل الهجرة ، ويفقون على باب بيته ، ويخرجه الحق من بينهم وهم لا يبصرون ، ولا يفلحون في التأمر على رسول الله ، ولا ينصح لهم نبيت ضد رسول الله ، ويكون مكر الله لوقي كل مكر يريد به أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم إثمهم به . وهم قد ذهبوا إلى الجن ليسحروا له ، لكن لا هذا السحر قد تقع ، ولا داك التبييت لقي بتيجة . وكانت تكربة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فوق كل شيء . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧)

(سورة الأنعام)

ويكون تذييل الآية - أيضاً - على هيئة استفهام ، والاستفهام هنا - كما علمنا من قبل - إنما جاء ليؤكد المعنى ، وليكون الإقرار من أقواه من يتلقون هذا الاستفهام وعن يقين منهم ، وليكون الاعتراف منهم إجابة بالإقرار ، والإقرار - كما نعلم - هو سيد الأدلة .

وهب أن صاعقة نزلت أو خسفاً حدث فيه عذاب ، فكيف ينجي الله المؤمنين به من هذا العذاب أو ذلك الخسف ؟

إن الهلاك فقط يكون للقوم الظالمين ، لأن الهلاك هو إعدام الحياة للحى المتمتع بالحياة ، والذي لا يؤمن إلا بهذه الدنيا إذا جاءته مصيبة لتهلكه فهو يشعر بمرارة الخسران ، لأنه لا يعتقد ولا يؤمن بالحياة الأخرى ، لكن المؤمن الذي يتيقن أن له إلهاً وأنه سيمرود إليه ليحلبه ويحرره عن إيمانه خير الجزاء إن حدثت به محنة في طي محنة كبرى للكافرين فهو يذهب إلى الجنة ويكون ذلك منحة له لا محنة عليه تستمر حياته إلى خلود .

وهكذا نجد أن الهلاك إنما يحدث للقوم الظالمين فقط لأنه يُفقد هم كل ما كانوا يتمتعون به في دنياهم وليس هم في الآخرة إلا البوار والخسران والعذاب الدائم ، أما غير الظالمين فالحق سبحانه وتعالى يقبلهم إلى حياة خالدة هي خير من هذه الحياة ، إذن فالمؤمنون إنما يتفقون فيوصات الله عليهم في السماء وفي الدلاء أيضاً .

ونتكلم الحق سبحانه وتعالى في الآية التالية عن التصور الإيمان الذي يجب أن

يرسخ في أذهان المؤمنين برسول مبلغ عن الله ، وعندما يسمع العقل الطبيعي
القطري البلاغ عن الرسول فهو يصدفه فوراً ، لأن الفطرة عندما ترى فساد الكون ،
وترى أن هناك من جاء بمنهج لإصلاح الكون لا بد أن تتجه إلى الإيمان بالمبلغ عن الله
وهو الرسول . وعندما ترى الفطرة أن الكون كله قد تم إعداده لخدمة الإنسان ،
لا بد لها أن تتساءل عن الخالق لهذا الكون وعن المنهج الذي يجب أن تسير عليه
لصيانة هذه النعمة ، نعمة الوجود في الكون .

ويقتضي الإحساس السليم من الإنسان أن يتعرف إلى حقيقة واضحة ، وهي أن
الإنسان قد طرأ على الكون ، وأن هذا الكون مليء وغنى بالخيرات ، ولم يدع أحد
أبداً أنه خلق السموات أو الأرض أو الماء أو الهواء . ولا بد أن يدور في حلد صاحب
الفطرة السليمة تساؤل عن هذا الخالق الأكرم الذي وهب للإنسان حق الاستغلاف
في كل هذا الكون . فإذا ما جاء رسول ليقطع هذا القلق وذلك الصمت ويقول : أما
جئتكم لأخبركم بمن خلقكم ، ومن خلق السموات ، ومن خلق الأرض ، ومن
رزقكم هذا الرزق .

هنا تنصت الفطرة إلى سماع الخبر الذي كانت تستشرف له . وإذا ما جاء هذا
الرسول مؤيهاً بآية من الله ومعجزة لا يقدر عليها البشر ، فالعقل البشري يعترف
اعتراف الإقرار على الفور ، لأنه وجد حاجته عند ذلك الرسول .

ولكن على الذين يؤمنون بما جاء به الرسول ، وعلى الرسول نفسه ، وحتى على
الكافرين به ، عليهم جميعاً ألا يتعدوا الحدود ، وألا يضموا أي رسول في مكان أعلى
من منزلته ، لأنه رسول من الله ، إنه واحد من البشر تفضل الله عليه بالوحي
واصطفاه للمهمة التي جاء بها . ولا بد للجميع أن يفهم أن الرسول مبلغ عن الله
فقط ، وأنه لا يستطيع أن يأتي بالآيات التي يقترحها بعض من القوم ؛ لأن الرسول
لا يقترح الآيات ولا يصنعها ، الرسول مفطور على أداء الأمانة الموكلة إليه وهي
أمانة البلاغ عن الله . ولذلك يقول لنا الحق :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ط

فَمَنْ أَمِنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

أي أن الحق سبحانه لم يعط الرسل قدرته ليفعلوا ما شاءوا ، ولكنهم فقط يبلغون عن الله ، فلا يطلب منهم أحد آيات ، لأنهم لا يستطيعون أن يأتيوا بالآيات ، وكل رسول يعلم أنه من البشر ، وهو يستقبل عن الله فقط . ولذلك فنأخذ الرسل على أنهم مبشرون ومندوبون ، وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومندوبين ،

ونعرف أن البشارة هي الإخبار بما سرقبل أن يقع . والسبب في البشارة هو مهمة السامع لها ليأدر إلى ما يجعل البشارة واقعاً بأن يمثل إلى المنهج القادم من الإله الخالق . ونعرف أن الإنذار هو الإخبار بما يسوء قبل أن يقع ليحترز السامع أن يقع في المحاذير التي حرمها الله .

والبشارة - كما نعلم - تلهم في الراغب في العمل والمحب له أن يفعل العمل الطيب ، والإنذار يحذر ويخوف من يرغب في العمل السيئ ليردجر ويرتدع . إذن فمهمة الرسل هي البشارة والإنذار ، فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو مرحلة ليست لهم فتطلبوا منهم آيات أو أشياء ، لأن الآيات والأشياء كلها من نصريف الحق تبارك وتعالى ، ومن سوء الأدب أن نخطيء الله في الآيات التي أرسلها مع الرسل ونطلب آيات أخرى . إنكم بهذا تستدركون عن الله .

وبيّن الحق لنا حدود مهمة الرسل فيقول :

﴿ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

هذا هو عمل الرسل ، فهاذا عن عمل الدين يستمعون للرسل ؟ إن الحق يقول .

﴿ فَمَنْ أَمِنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

المطلوب - إذن - من الذين يستمعون إلى المرسل أن يقبلوا على اختبار الإيمان ، وأن يستمعوا إلى جهر المنع وأن يطقوه . فمن آمن منهم وأصلح فلا خوف عليه لأنه قد ضمن الفوز العظيم ، ولا يهيبه أو يناله حزن ، لأن ناتج عمله كله يلقاه في كتابه يوم القيامة . والإيمان هو اطمئنان القلب إلى قضية عقدية لا تطفو إلى ذهن لتناقض من جديد . ولذلك نسمي الإيمان عقيدة ، أي شيئاً انعقد عقداً لا ينحل أبداً

إن عمل المؤمن بربه أن يستحضر الأدلة والآيات لئى تجعل إيمانه بربه إيماناً قوياً معقوداً ؛ وهذا من عمل القلب . ويعرف المؤمن أن عمل القلب لا يكفى كتعبير عن الإيمان ؛ لأن الكائن الحى ليس قلباً فقط ، ولكنه قلب وجوارح وأجهزة متعددة ، وكل ما فى الكائن الحى المؤمن يجب أن يتقاد إلى متبع ربه ، فلا بد من التعبير عن الإيمان بأن يصلح الإنسان كل عمل يؤديه بجوارحه أداء صحيحاً سليماً

إننى أقول ذلك حق بسمع الذى يقول . إن قلبى مؤمن وسليم . لا ، فليست المسألة فى الإيمان هكذا ، صحيح أنك آمنت بقلبك ولكن لماذا عطلت كل جوارحك من أداء المطلوب الإيمان ؟ لماذا لا تعطى عقلك فرصة لتتدبر ويذكر ويعطط ويتذكر ، لماذا لا تعطى العين الفرصة لتعتبر وتستفيد من معطيات ما ترى ؟ وكذلك اليد ، واللسان ، والأذن ، والقدم ، وكل الجوارح .

والإصلاح هو عمل الجوارح ، فيفكر الإنسان بعقله فى الفكرة التى تنفع الناس ، ويسمع القول فيتبع أحسنه ، ويصلح يديه كل ما يقوم به من أعمال . ويعلم المؤمن أنه حين أقل على الكون وجده محكماً غاية الأحكام ، ويرى الإنسان الأشياء التى لا دخل له فيها فى هذا الكون وهى على أعلى درجات الصلاحية المراقبة ، فالطير يتزل فى مواسمه ، والرياح تهب فى مواسمها ومسارها ، وسرعة الشمس تنتظم مع حركة الأرض ، وكل عمل فى النواميس انعمها هو على الصلاح المطلق .

إن الفساد يأتي بما للإنسان دخل فيه ، فلهواء يفسد من بيته المازل المتقاربة ، وعدم وجود مساحات من الخضرة الكافية ، وفساد أهواء أيضاً بالآلات التي تعمل ولها من السموم ما تخرجه وتنفعه من أثر عملية احتراق الوقود . وعندما صنع الإنسان الآلات نظر إلى هواء في الراحة ، وعلمت عنه أشياء كان يجب أن يحتاط لها ، ومثال ذلك : « عادم » السيارات الذي يريد من تلوث البيئة ، ورغم اكتشاف بعض من الوسائل التي يمكن أن تمنع هذا التلوث إلا أن العاصم يترحم في الأخذ بها .

ونحن حين نأخذ بقيمة اختصاره وبركب السيارات فلماذا ننسى القاعدة التي تقوم عليها الاختصار وهي الدراسة العلمية الدقيقة لصنع الآلات وتأخذ من الآلات ما يهدد الناس ، فعمل على الأخذ بأسباب نظافة البيئة من التلوث ولتجنب الأذى عن حياة الناس فالعادم الذي من مصاعنا - مثل عادم السيارات والآلات - يفسد علينا الهواء فتتصد الرئة في الإنسان

إن علينا أن نعرف أن من مسئولية الإيمان أن ننظر إلى الشيء الذي نصنعه وكيفية انصر الناتجة عنه ، وكل إنسان يحيا في مدينة مزدهرة إنما يضر بأنار عادم السيارات على الرغم من أنه ليس في مقدور كل إنسان أن يشتري سيارة ليتركها ، فكيف يرتضى راكب السيارة لنفسه ألا يصح من تلك الآلة التي تسهل له حياته ويصيب بعادتها النصر لنفسه ولغيره من الناس ؟ لذلك فعل المسلم ألا يأخذ الاختصار من مظهرها وشكلها بل عمل المجتمع المسلم أن يعمل على الأخذ بأسباب الاختصار من قواعدها الأصلية ، وأن يدرس كيفية تجنب الأضرار حتى لا تقع في دائرة الأضرار أصيالا ، هؤلاء الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِالْحَبَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

ولنا أن نأخذ المثل الأعلى دائماً من الكون الذي خلقه الله لنصونه ، إن عادم وأثر ونتاج أي شيء مخلوق لله يهدد الإنسان ويهدد الكون حتى فضلات الحيوان يُتَمَع بها في تسميد الأرض وريادة خصوبتها . وهكذا نعرف معنى : « فمن أمس وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالإيمان عمل القلب ، والإصلاح عمل الجوارح ، ولذلك يجب أن نصلح في الكون بما يزيد من صلاحه . ولتعلم أن الكون لم يكن ناقصاً وأنا بعملنا نستكمل ما فيه من نقص ، ليس الأمر كذلك ، ولكننا أردنا أن نترف في الحياة ، وماذا يريد الترف فلنرد من عمل العقل المخلوق لله في المولد والعناصر التي أمامنا وهي الحلقة لله . وأن نتعامل معها بالصدق والجوارح المحفوظة لله ، ماذا نريد أن نتعم بهياً فوق ضروريات الحياة

ومثال ذلك أنفاً قديماً وفي أوائل عهد البشرية بالحياة ، كان الإنسان عندما يعاني من العطش ، يشرب من النهر ، وبعد ذلك وجد الإنسان أنه لا يسعد بالارتواء عندما يجد يده ليأخذ غرفة من ماء النهر ، فصنع إناءً من فخار ليشرب منه الماء ، ثم صنع إناءً من الصاج ، ثم صنع إناءً من البلور ، فهل هذه الأشياء أثرت في ضرورة الحياة أو هي ترف الحياة ؟

إما من ترف الحياة . فإن أردت أن تترف حياتك فتعمل عقلك المخلوق لله في العناصر المخلوقة لله ، بالطاقة والجوارح المخلوقة لله ، وبذلك يبيك الله من الخواطر ما تستكشف به آيات العلم في الكون . ومثال ذلك : أن أهل الريف قديماً كانوا يعتمدون على نسائهم ليملأن الحراش من الإبر أو الترع ثم تقوم سيدة البيت بترويق المياه . وعندما ارتقينا قليلاً ، كان هناك من الرجال من يعمل في مهنة السقاية ، ويمر بالمغرب المملوء بالماء عن البيوت . وعندما قام أهل العلم بالاستنباط والاعتبار اكتشفوا قانون الاستطراق ، فرفعوا المياه إلى خرابي عالٍ ، وامتدت من مخازن « مواسير » وأبابب مخنفة الأقطار والأحجام ، وصار الماء موجوداً في كل منزل ، هذا ما فعله الناس الذين استخدموا العقول المخلوقة لله

وكان الناس من قبل ذلك يكتفون بالضرورة من كميات المياه ، فالأسرة كانت تكتفي بمن ، قرية أو قريتين من الماء . ولكن بعد أن صارت المياه في كل منزل ، أساء الكثير من الناس استخدام المياه ، فأهدروا كميات تزيد عن حاجتهم ، وتمثل صغطاً على « مواسير » انصرف الصحن ، فتعجز ويشكر الناس من طمع المجاري

إن على المسلم أن يرمي حق الله في استخدامه لكل شيء ، فالأذى الذي يهدره الإنسان قد يحتاج إليه إنسان آخر ، وعندما يتوقف عن إهداره ، نجمع الضرر عن

أنفسنا ومن غيرنا من طمع «مواسير» الصرف الصحي . وليحسب كل منا - من سبيل المثال - كم يستهلك من مياه في أثناء الوضوء . إن الإنسان منا يفتح الصنبور ويفسل يديه ثلاثاً وينمضض ثلاثاً ، ويستشق ثلاثاً ، ويفسل وجهه ثلاثاً ، ويفسل ذراعيه ثلاثاً ، ويمسح برأسه ، ويفسل أقدامه . ويترك الإنسان الصنبور مفتوحاً طوال تلك المدة يهدر كميات من المياه ، ولو فكر في حسن استخدام المياه التي تنزل من الصنبور لما اشتكى غيره من قلة المياه . فليذا لا يفكر المسلم في أن يأخذ قلوّاً من المياه يكفى الوضوء ويحسن استخدام الماء ؟ وكان الإنسان يتوضأ قديماً من إناء به نصف لتر من الماء ، فليذا لا يحسن استخدام ما استخلفنا الله فيه ؟

عل الإنسان منا أن يعلم أن الإيمان كما يقتضى أو يوجب ويعرض الصلاة ليصلح الإنسان من نفسه ، يفتنى - أيضاً - إصلاح السلوك فلا نبذر ونهدر في تلك من إمكانات ، وأن ندرس كمية الارتقاء بالصلاح ، فلا نتخلص من متاعب شيء لنفعل في متاعب نائمة من سوء تصرفنا في الشيء السابق ، بل علينا أن ندرس كل أمر دراسة محكمة حتى لا يخل الإنسان منا في ساقطة قوله الحق :

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنَّا

مَسْئُولًا ۝﴾

(سورة الإسراء)

أى عليك أن تعرف أيها المسلم أنك مسئول عن السمع والبصر والقلب وتستألف من ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصح أن تتوانى عن الأحكام بأحسن العلم ليحسن قولك وفعلك . وبذلك لا يكون هناك خوف عليك في الدنيا أو الآخرة ؛ لأنك آمنت وأصلحت ، وأيضاً لا حزن بمسك في الدنيا ولا في الآخرة : (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

إنك بذلك تصون نفسك في الآخرة وفي الدنيا أيضاً ، لأنك تسير في الحياة بإيمان وتصلح في الدنيا متبعاً قوايين الله . وإن رأيت أيها المسلم متعباً في الكون فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عطل ، إن رأيت فقيراً جائعاً أو هرباً فاعلم أن حقاً من حقوقه قد أكله أو جعده غيره ؛ لأن الذى خلق الكون ، خلق ما يعطيه المعنى من فائض عنه للمعير ليسد حوزة ، لكن المعنى قبض يده عن حق الله ، وأيضاً جاء قوم

يتسولون بغير حاجة للتسول ، والفساد هنا إما يأتي من حاجتين : فاحية إسان استمراً أن يبنى جسمه من عرق غيره ، أو من إنسان آخر غير لا يؤدي حق الله في ماله ، بذلك يعنى المجتمع من المتاعب .

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِشَايِكُنَا يُمَسِّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ٤٩

والذين كذبوا بآيات الله هم إما من كذب لرسول في الآيات الدالة عن صدقه وهو المبلغ عن الله ، وهؤلاء دنعوا في دائرة الكفر . وإما هم الذين كذبوا بآيات المنهج ، فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الصراط المستقيم والطريق السرى وهؤلاء وهؤلاء قد فسقوا ، أى خرجوا عن الطاعة ، ومعلم أن كلمه « المسق » مأخوذة من خروج « الرطبة » عن قشرتها عندما يصير حجمها أصغر مما كانت عليه لاكتحال نضجها . والذي يفسق عن منهج الله هو الذى يقع فى الخسران ، لأن منهج الله هداه صيانة الإنسان المخلوق لله . « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » .

إن الإنسان يفسق عندما لا يفعل ما أمره الله أن يفعله ، أو يفعل ما نهاه الله عن أن يفعله . ويعد الإنسان منا يخاف على جهاز التسجيل أو جهاز التليفزيون من أن يفسد فتبيع القواعد البرعية لاستخدامه . فلا يجد - مثلاً - جهازاً من الأجهزة الكهربائية بوعية من الطاقة غير أبى بمحدها الصانع ، وإن قال لصانع : استخدم كهرباء مقدارها مائتان وعشرون فولتاً حتى لا تفسد الآلة فالإنسان ينصاع لما قاله الصانع ، فما بالنا بالإنسان ، إن الله - جلّت قدرته - خلق الإنسان ووضع له قوانين صيانتة إذن فمن يفسد فى قوانين صيانة نفسه يفسد نفسه العذاب ، وكلمة يمسه العذاب تعطى وتوحى بأن العقوبة تعشق أن تقع على المجرم ، كان العذاب سعى إليه ليناله وبمسه وهلمهكذا قول الحق عن النار .

﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلُّ الْإِنْسَانِ فِيهَا مُوجَّعٌ سَأَلْتُم بِالنَّارِ أَنْ تَبْذُرَ نَارَكُمْ تَنْذِيرٌ ﴾ ٥٠

وهو سبحانه القائل عن النار :

﴿ يَرْمِ نَقُولُ لِيَجْهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝١٧٠﴾

(سورة ف)

إذن والعقوبة فيها حريصة على أن تنفذ إلى من أساء . ولذلك يلحق العذاب في أن يمس الدين فسقوا . ويقال الحق ها بكلمة « المس » الحكمة ، ذلك أن عقوبة الله لا تتأخر بعقوبة لنشر

والإنسان يعاقب إنساناً بمقياس قدرته وموته ، وليس لأحد من الخلق أن يتمثل بقدرة الله في العذاب . ولذلك يكفى المس فقط ، لأن التعذيب يختلف باختلاف قدرة المعتد ، فلو سببنا التعذيب إلى قدرة الله لكان العذاب رهيباً لا طاقة لأحد عليه

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ
الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ
إِلَيَّ فُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا
تَتَفَكَّرُونَ ۝١٧١﴾

وه قل . كما نعلم - هي أمر من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يبلغ ما أمر به الله ، وكان يكفى أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أقول لكم عندي خزائن الله . لكنها دفعه البلاغ عن الله ، إن القرآن توقيفي بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من الله كما هي وبلغها لوصي الأمين لسيدنا رسول الله ، وبلغها لنا صلى الله عليه وسلم كما هي ، ويدل ذلك على أن أحداً لا يملك التصرف حتى في اللفظ ، بل لا بد من أمانة النقل المطلقة .

وأبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحق قد أرسله هادياً ومبشراً ونذيراً ناية دالة على صدق البلاغ عنه وهي القرآن . وكان يجب على من يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يستقبله بحق فلا يطلب منه إلا ما يتمشى مع الوصف الذي ادعاه صلى الله عليه وسلم لنفسه . فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات خبر التي أنزلها الله ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدع إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له في إطار هذا الادعاء .

وقد تجاوز الكافرون ذلك عندما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات أخرى ، كتجوير بعض الأرض بياض مياه ، أو أن يكون له بيت من زخرف ، ولذلك يوضح له الحق سبحانه أن يلهمهم أنه لا يملك مع الله خرائص السموات والأرض ، فكيف يطلبون بيوتاً وقصوراً ، وكيف يطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على الباطل وتجنبوا المضار ؟ . ألا يكذبكم المنهج الإلهي الذي يهديكم إلى صناعة كل نافع لكم ويحجبكم كل أمر ضار بكم ؟ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل لهم إنه يعلم الغيب وهو بشهادتهم هم يقولون عنه ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْسُكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ رُجُوعٌ مُّكَرَّرٌ وَلَا يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

لقد سخروا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلبوا أن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويمشي الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ، ولو كان رسولاً لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه ملكاً يساعده في البلاغ عن الله ، أو يلقي إليه الله من السماء كنز يخفى عنه ، أو تكون له حليقة شاء يأكل من ثمرها .

هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن الإيمان بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتهمونه بأنه مسحور ، ومرة بأنه مجنون ، وثالثة بأنه يهذي ، رابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن

من أعاجم ، ويدحض الحق كل هذه الأكاذيب وكل تلك الافتراءات التي ضلوا بها وأضلوا بها سواهم . إنه صل الله عليه وسلم رسول من الرسل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاءُ لَكُمْ لَأَطْعَمَ وَمَتَّعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۚ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إنا الرسل من قبلك يا رسول الله كانت تأكل الطعام ، وتكسب العيش من العمل ويرددون على الأسواق ، فهذا كان المشركون يغيون عليك ذلك ويحاولون إضلال الناس بكل لأساليب ، فأتى ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويخرجي كل ما عمل . ثم إن الآيات التي بطسها للمشركون من رسول الله كانت كلها نعتاً ، فهو لم يقل لهم : إنه ملك . لقد قال لهم : به رسول مبلغ عن الله ، وكل ما يؤديه هو صدق الأداء عن الله ، فكيف يطلبون منه أشياء لا تتعلق بالأملكية الله لخلائ الأرض ؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب ؟ وكيف يتفقدون أنه رسول وشر يأكل ويتروح . يعيش في الأسواق ؟

إن كل تلك الأقوال دليل التعتت : لأهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما ادعاه رسول الله لنفسه من أنه رسول مبلغ عن الله ، إنهم طلبوا الخبر النافع واليسابيع التي تجري ، والحلوات والفصوص ، وأشياء كلها ليست في مقدور رسول مبلغ عن الله . لأن الذي يهبها هو الله سبحانه وتعالى .

وكلمة " حرائش " هذه معردها : جرائنة ، وهي الشيء الذي يكثر فيه كل ميسر ليخرج منه وقت الحاجة . ولا نقل : جرائنة إلا لشيء جعله ظرف لشيء بنفس تحذف عليه من أن تخرجه في غير أوانه وزمان إحراجها . وحرائش الأرض كلها يملكها الله . فهو سبحانه وتعالى الفائز :

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا وَأَلْقَتْ فِيهَا رَوْسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونًا ﴿٢٧﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا وَمَنْ يَسْتَمِ لَكُمْ يَرْزِقِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِرُ وَمَا نَزَّلُهُ إِلَّا يَقْلِبُ مَقْلُوبًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالحق جاء بالقصة الكلية ، وهي أن أسرار الله وعانيه في الكون هي بيد الله في خرائطه ، وهو سبحانه يجلها ويظهرها ويكشفها لوفاها كيف ؟ إن الحق سبحانه وتعالى تكلم عن بدء الخلق ، وتكلم عن خلق السموات والأرض ، وتكلم عن هذا الموضوع كلاماً مجمالاً نعرضه الآيات الأخرى . فالحق سبحانه وتعالى يقول .

﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ عُرُونٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ وَأَعْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ

الْعَالَمِينَ ١٤١ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَامًا ١٤٢

أَرْبَعَةَ أَثْنَاءِ سَوَاءٍ لِّالْيَمِينِ ١٤٣ لَمْ أَتَوْنِ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا

وَالْأَرْضُ أَتَقِينَ أَرْضًا أَرْغَمًا قَالَتَا أَتَيْنَا لَهَا عَيْنَ ١٤٤ ﴾

(سورة فصلت)

يأمر الحق رسوله أن يبلغ هؤلاء المشركين كيف يكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين وكيف يجعلون له شركاء وهو الخالق للأرض التي هي ساطع الحركة لابس آدم . لقد خلق فيها سبحانه ما يقف أس آدم وتقوم به حياته إلى أن تقوم الساعة . والقوت - كما نعلم - هو الذي يبقى للإنسان حياته وإن أراد الترف فلا بد له من الطموح في الحياة . وهو سبحانه جعل في الأرض رواسي - أي جبالاً - وبارك في الأرض وفي الرواسي . ثم جاء بتقدير الأنواع بعد ذكر الرواسي وهي الجبال ، فكان الجبال في حقيقة أمرها هي مخارن القوت وقد يقول قائل - كيف ذلك ؟

ويقول : إن الواقع قد أثبت هذه الحقيقة ، فأتت إن نظرت إلى الأنهار التي تجري ، لو جدتها تتكون من الماء الذي تساقط من الأمطار على الجبال ، فإليه المكونة من دوات صغيرة دقيقة تنزل على هذه الجبال لتفتتها ، وكذا مياه هي المجرى الذي يزيل من سطح الجبال هذه الرمال المليئة بالعناصر الغذائية للأرض ، وهو ما نسميه بحس (الغرين) ، والغرين - كما نعلم - هو ما ينزل مع المياه من سطوح الجبال إلى مجرى النهر ، وياندفاع المياه في مجرى النهر ينقل المادة الخصبة إلى الأرض ، وتتكون تلك الطبقة الخصبة التي تنفخ منها النباتات . ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لجعل سطح الأرض كله مئوياً ، وفيه الخصوبة التي ثبتت البات

لكن حكمته سبحانه شاعت أن تصنع للنبات غذاءه بهذه الطريقة . فأتت إذا

ما نظرت إلى البساتين وجنته يختلف من نوع إلى نوع في أسلوب اختصاصه للعناصر الغذائية اللازمة له ، فهناك نوع من النيات يختص عذاه من حمق نصف متر ، ونوع ثلث يأخذ غذاءه من حمق المتر ، وهكذا . وإن لم تأت للأرض المروعة بسيد أو مخصبات أو حرث ، فإن الأرض تضعف ، لأن الحق يريد لعملية الزراعة أن تستمر وتقتد وتتوالى ، فجعل الجبال مكونة بشكل صلب ، وقمر على الحال عوامل التعرية من حرارة وبرودة ونشفت ثم يرسل عليها المطر فيذيب من سطوح لجبال بعضاً من تلك المواد المعدنية اللازمة للأرض ، تستغل هذه المواد المعدنية عبر المياه إلى الأرض ، وهنا يتوالى الإمداد بالخصب من الجبال إلى الأرض وهكذا يجد أن الجبال في حقيقتها هي مخازن الخيرات الله .

وهل مفومات الحياة زرع فقط ؟ لا ؛ لأنك إن نظرت إلى نموذج مصغر لكرة الأرضية ، متعلد يشبه الطليحة الكبيرة ، وإن حثت لتقطع مثلاً من محيط الفشرة إلى مركز الطليحة ، وجعلت هذا الخلت يشبه الحرم ، ثم أخذت منها مثلاً آخر من أى ناحية سواء أكان من ناحية الأرض الحصية ، أم من البحر أم من الجبال أم من الوديان ، أم من الصحارى ، ثم نظرت من بعد كل ذلك إلى الخبر انطوري في كل جزء من هذه الأجزاء لوجدته مسوياً للحرى الأسرى . ماذا ؟ لأن الحياة لا تعتمد على ألوان محصورة من القوت ، ولكنها تحتاج في عمارتها إلى أدوات ومواد المحصورة من حديد وبنول ومجيز وغير ذلك من كوز الأرض التي تقوم عليها الحضارة .

إننا نجد هذه الخيرات مكوّزة إما في الجبال وإما في الصحارى ولكن كل حبر من هذه الخيرات له ميعاد ، وله ميلاد . ولنت لوقت وورمت الخيرات الموجودة في أى مثلث هرمي من الأرض من مركزها إلى محيطها ، وفارقتها بورن قياس الخيرات الموجودة في مثلث هرمي آخر مائل له من الكرة الأرضية بعضها ، لوجدت الخيرات متساوية في كل من الثلثين . ولكن لكل لون من هذه الخيرات ميعاد وميعاد .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا جَعَلْنَا نَزْلَهُ رِيًّا وَنَزَّلَهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

فما يقال له شيء ، فإن له حرائه عند الله يرسل منها سبحانه بقدر . ويرى ذلك من قصة الوجود ، وهو العقل ، إلى العقل شيء ، وله حرائه عند الله ، فما كان موجوداً من أفكار من عشرة قرون لدى الشريعة جيماً لا يقاس ، كمية الأفكار التي يبتكها

العقل الجمعى للعالم الآن ، ذلك أن كل جيل قد استعاد مقدمات من أفكار الجيل السابق له ليصل إلى نتائج جديد . إذن فهناك خرائط للأفكار وللخواطر . وكذلك كل شيء في الوجود له عند الله خرائط لا ينزل منها إلا بقدر معلوم ، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم .

وساعة يريد الحق أن يظهر ميلاد سر ما ، فهو سبحانه يبيىء الأسباب لذلك . وعن سبيل المثال - وفي الليل الأعلى - كما قد يقطع الأخشاب من الأشجار لصنع منها وقوداً ، وكما بعد أن يقطع الأخشاب يشفى عليها من الفساد ، لذلك وضع الحق بعضاً من إلهاماته للعقل البشرى حتى يستطيع تحويل الخشب إلى فحم ليضمن الإنسان صيانة الخشب ، وليضمن وجود مصدر للطاقة هو الفحم النباتى . ومن بعد ذلك اكتشف الإنسان الفحم الحجري . ومن بعد ذلك اكتشفنا البترول ، كل ذلك من خيرات العنافة كان مكتوراً في الأرض ، ولم يكتشفه الإنسان إلا بعد أن أعطاهم الله الاستعداد لاستقبال هذا الخير ، وسيعطى عطاء الله قائماً إلى أن تقوم الساعة . فمع الفحم دخلنا عصر البترول ، ثم دخلنا عصر الكهرباء ، ثم دخلنا عصر الذرة .

وكل هذه الأشياء كان لكل منها ميلاد ، ولكل منها مكان في خرائط الله ، وعندما يرسل الله أى خاطر من الخواطر على عبد من عباده فإن العبد يأخذ بالأسباب ويكتشف ميلاد السر المكتوز . وكل لاحق يأخذ من غير السابق ويبنى عليه ، وهكذا ينمو الخير دائماً .

والأشياء في خرائط الله إما أن تكون مطمورة وإما أن تكون محكمة إحكاماً رقيقاً ، وعن سبيل المثال ، هذا هو الراديوم الذى اكتشفته السيدة كورى ، أظهره الله على يديها في وقت الحاجة إليه . وكان العلماء قبل اكتشاف الراديوم يعلمون أن هناك عنصراً لم يعرفوه له تركيب ذرى معين ، لأن عناصر الكون مصنوعة بحكمة جليلة كبيرة . وقد يزل الشيء شائعاً في غيره ، ومثال ذلك أن تقطع وردة وتستنمغ بأريجها وجمال منظرها إلى أن تثبل ، وقد يغيث عك أن الوردة مكونة من تركيب معين ، فالطريقة هى التى تعطى الوردة نضارة ، وكل شيء في الوردة هو من مادة الأرض ، وعندما تبدل الوردة فهي تعود إلى عناصر الأرض بعد أن تتبخر منها المياه وتذهب كبخار مع غيرها من التبخرات إلى السحاب الذى تحركه الرياح فيسقط مطراً .

وهكذا نجد أن قطرات المياه التي كانت في الوردية تبخرت وانضمت إلى السحاب ، قد عادت مرة أخرى إلى الأرض من خلال المطر ، ومادة الماء نفسها لم تزد ولم تنقص منذ أن خلق الله المخلوق في هذا الكون ، ونحن نتنفس بهذا الماء ، وعندما ينتهي انقضاء إنسان بحره من المياه عالمه يعود من خلال عمليات أرواحها الله إلى خزانة الماء في الكون . وليس الإنسان منا نفسه . كم طناً من الماء قد شربته في حياتك ؟ ومنجد أنك قد شربت وانضمت بمئات أو بآلاف من الأطنان ، وخرج منك الماء في شكل عرق أو بول أو مخاط ، أو غير ذلك . وكم يفي من الماء في جسمك ؟

إنها نسبة قد تزيد على تسعين المائة من وزن جسمك أيّاً كان الوزن ، ومن بعد أن يأتي أجلك كما قدره الله ، تتبخر كمية المياه التي في هذا الجسم لتتضم إلى السحاب ثم تنزل مع المطر . إذن ذكيت المياه لم تنقص في الكون ولم تزد ، وهذا ما نسميه الرق المخزون بالتحول ، فلما كما تبخرت كمية المياه التي في الوردية ، وتبخرت رائحتها في الجو وكذلك مادتها للوردية ذابت في الأرض . وساعة نزرع شجرة ورد نأخذ كل وردة لوناً من المواد الملونة المخزونة في الأرض . إذن فكل شيء إما مخزون بذاته في خزائن الله ، وإما مخزون بعنصره المحول إلى غيره . وكل الوجود على هذا الشكل . وحركة الحياة هي بين الاثنين .

إن الإنسان - على سبيل المثال - من لحم ومن دم ، والبقرة أيضاً من لحم ودم ، ويموت الإنسان ليعود إلى الأرض ، ويستعيد الإنسان من الحيوان ، وتعود كل مادة الحيوان إلى الأرض . وتدخل العناصر في دورة جديدة . إذن هي خزائن للحق ، إما محولة ، وإما مخزائن حافظة ، فالشيء الذي نستنبط بهالته هو في خزائن حافظة ، والشيء الذي يدور في غيره ويرجع إلى الأصل هو في خزائن محولة .

ومن رحمة الحق بالخلق أنه لم يملك خزائن الأرض أو السموات لأحد من البشر حتى لا يستعمل إنسان على آخر . ولم يعط الحق حتى للرسل أي حق للتصرف في هذه الخرائن ، لأن الرسل بشر ، وقد أحفظ الحق لنفسه بخزائن الأرض والسموات ليطلعنا على هذه الخرائن . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَحِبُّونَ حَرَّ آيِنَ دَهْمَةٍ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ حَنِيَّةَ الْإِنْعَامِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا ۝٣١﴾

(سورة الإسراء)

الحق سبحانه يعلم أن الإنسان مطبوع على الغرص الشديد أو البخل ، وهو سبحانه العفى الكريم ؛ لذلك ينزل ما يشاء من خزائنه لعباده حتى يتمتعوا ولم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم الخرائن لنفسه ، فكيف يطاله المشركون بما في خزائن الله ، وهو صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك ويوضح أيضاً أنه لا يعلم الغيب .

﴿ قُلْ لَا أَتَوَلَّى لَكُمْ غَنِيَةَ حَرِّ آيِنَ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ۝٣٢﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنعام)

وهو بذلك صلى الله عليه وسلم ينمى عن نفسه أى صفة من صفات الألوهية ؛ لأن الخرائن لكونية هي في يد الله ، وكذلك ينمى عن نفسه علم الغيب ولقائل أن يقول ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التي كان يحبرها بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أحداث مستقبلية ؟

ونقول : إن ذلك ليس علمياً بالغيب ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مُعْلَمٌ غيب ، أى أن رب سبحانه وتعالى قد علمه ، ومثال ذلك قول القرآن الكريم

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَتَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْمُلُ مَرِيحٌ وَمَا كُنْتَ لَتَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٣٣﴾

(سورة آل عمران)

إن الحق سبحانه هو الذي علم رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الأحبار التي كانت من أنباء الغيب ، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول -

﴿ عِلْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٣٤ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَنْفِخُ فِي رُوحِهِ رِيسًا ۝٣٥﴾

(سورة الجى)

سبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب ، ولا يُظْلَعُ أحداً من خلقه على الغيب

إلا الرسول الذي يرتضيه الله ليخبره ببعض من الغيب ، ويحفظ الحق رسوله في أثناء ذلك بملائكة تحفظه من تعرض الحق لما يريد إطلاعه عليه لنلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة يبل أن يبلغه الرسول وحتى يصل الوحي إلى الناس حالصا من تخليط الحن وعينهم .

إذن فالرسول مُعلّم غيب وليس عالم غيب - والعرب - كما نعلم - هو ما غيب من الحسن ، ولم توجد له مقدمات تدل عليه ، فهناك أشياء تعيب عنك ولكن لها مقدمات ، فإن الترتب بالمقدمات من بدايتها يمكنك أن تصل إلى النتيجة . مثال ذلك : إن أعطيت تلميذ مسألة حسابية ليقوم بحلها ، وعدم يحل التسميد هذه المسألة فهو لم يعلم الغيب ، ولكنه أخذ المقدمات والمعطيات ، وبحث عن المطلوب ، وأخذ يرتب المعلومات ليستنبط منها النتيجة

وكذلك حال الدين اكتشفوا أسراراً في الوجود ، أعلموا غيباً ؟ لا ، إنهم فقط استخدموا بعضاً من المقدمات التي كانت موجودة أمامهم في الكون ، وتوصلوا إلى نتائج جديدة ، صحيح أن هذه النتائج كانت غائبة عما ، ولكن مقدمات كانت موجودة ، وكذلك كل النظريات الهندسية - كمر نظرية سجدها تعتمد على سابقاتها ، وكل نظرية - حتى اعقدها وأصعبها - هي ملاحظة لأمر بدى في الكون - وكل علم من العلوم له مقدمات إن بحث فيها بحث قرنه يصل إلى النتائج الجديدة ، وهذا ما نسميه « غيباً إضافياً » ، أي كان غيباً في وقت ما لكنه غير غيب في وقت آخر ، ولذلك يُسبب هذا العلم إلى الشر دائماً ، ولنتقرا قول الحق سبحانه

﴿لَا يُعْطُونَ شَيْئاً مِنْ مِلَّةٍ إِلَّا بِمَنْشَأَةٍ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة الفرق)

والإحاطة بالعلم كلها لله ، وهو سبحانه الذي يادن لبعض من مخلقه بالإحاطة ببعض من هذا العلم ، وكل سر من أسرار هذا الكون لا يولد إلا يادن منه سبحانه وبعالى ، وهو سبحانه يوفق العلماء أن يبحثوا في المقدمات ليصلوا إلى النتائج ولكن ماذا عن العلم الذي لا توجد له مقدمات ؟ هذا من الغيب المطلق الذي لا يظهره الحق لأحد إلا لمن ارتقى من رسول .

أقول ذلك حتى لا يعطى أحد فبطن أن إخبار إنسان لإنسان بمصير شيء ضاع

منه هو معرفة للمعب ، فقد يكون هذا غيباً بالسبب لاصحاب الشيء الضائع ، ولكنه ليس غيباً بالسبب للص الذي سرقة ، ولا هو غيب بالسبب للشخص الذي أنفق المروقات ، ولا هو غيب بالسبب للجان المحيطين بالص ، إذن فهذا ليس غيباً مطلقاً ، ولكنه غيب معلوم للتغير . إذن فحزائني الحق سبحانه وتعالى ملأى بكل أنواع الخبر التي تؤدي للإنسان مهمة البقاء في الأرض سواء من جهة الضرورات أو الأشياء الزخية .

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَتَوَلَّى لَكُمْ إِيَّيْكُمْ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الانعام)

إذا فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفي عن نفسه يقول الحق ثلاثة أشياء : منها شيئان ينفيان الألوهية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي ملكية خرائص الكون ، وعلم الغيب ، وشيء ثالث وهو أنه ليس ملكاً ، فهل يعنى ذلك أن الملك أرفع من النبي ؟ لا ، ولكنهم قالوا له : إنه يعنى في الأسواق ويتكسب العيش بالعمل ، والملك لا يفعل ذلك . ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من الملك ، لأنه يقوم بمداية الإيس واجتناب ما يوحى إليه ملك الملوك ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، « إن أتبع إلا ما يوحى إلي » .

إنه من غرط ارتفاعه في الصلوة المبلغ عن الله يعلم حقيقة صلى الله عليه وسلم بأنه من البشر ، والبشر ابن أخيار ، ويعلم شيئاً ، ويجهل شيئاً ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعاً لا مبتدعاً ، ذلك أنه يغفل لهم تكاليف الخلق بلفاظها لا أفكار البشر التي قد تتغير لو تبدل . فلو ابتدع لابتدع في إطار بشرية ، وفي ذلك رسول لا ارتقاء ، لكنه في الاتباع يلى بالارتقاء لبشر ، لأنه ينسج ما أوحى به الإله الذي اصطفاه رسولاً . ولذلك كانت الأمية في رسول الله صلى الله عليه وسلم شراً له ولها . أما أمة الإنسان العادي فهي غيب ، إنما أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي الكمال .

وإنني - كما تعلم - تعنى أنه كما ولدته أمه ، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر ، لكن علمه وثقافته فريدة كلها . إن ذلك وحى من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم عندما يعلم أنه نبي أمي ، فهذا معناه أن كل ما دخل في ذهنه لم يأخذه عن أحد من خلق الله ، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أخذه رسول الله من الله .

وهكذا نكون أميته شرفاً لنا ، ولكن الآية فينا - نحن المسلمين - تحلف يجب أن
نعمل جميعاً على القضاء عليها : « إِنْ تَشَعْ إِلَّا مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ » . والرسول صلى الله
عليه وسلم لا ينطق عن الهوى بل يبلغ ما جاء به الوحي .
وهذيل الحق الآية بقوله .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥)

(من الآية ٥ - سورة الانعام)

وسأمة يأتي الحق قضية يستخدمها كمثل ، فلا بد أن يأتي بقضية متفق عليها
حتى من الخصوم المواجهين له ، فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوى مع البصير ، علماً
مثلاً لا يستوى للظل والحسرة أو الظلمات والنور . إن الفطرة لا تقبل الخلاف في
هذه الأمور . والعنى - كما نعرف - هو عدم الرؤية لمن شأنه وحاله أن يرى ،
فلا يقول إنسان عن حجر : إن الحجر أعمى ، لأن الأحجار لا تبصر .

إذن لا نقول العنى إلا كوصف لمن يفترض فيه أن يرى . وماذا تفعل عدم الرؤية
في الأمر المحس ؟ إن عدم الرؤية يؤذي الإنسان لأنه كائن متحرك . فقد يقع في
حفرة أو يصطدم بشيء يؤذي ، وبإقرار الجميع نعرف أن الأعمى تضطرب حركته
ويتعرض للمتعاب ، والذي يحس الإنسان من ذلك أن يكون مبصراً أو مستعيناً بمن
يبصر حتى يمكن أن يستقبل للرفات .

وكان العلماء قديماً يظنون أن الإبصار هو نتيجة خروج شعاع من العين ليذهب
إلى الشيء المرئي ونقض هذه القضية عالم إسلامي هو ابن الهيثم الذي علم العلماء
أن الشعاع إنما يخرج من المرئي إلى عين الرائي بدليل أن الشيء المرئي لا يراه الإنسان
في الظلام . والعنى يمنع العين من استقبال الشعاع ، ولا يختلف أحد في أن العنى
مهلك وضار ومتعب . والإبصار مريح . وكان الحق يقول للخلق - ليحكم أن تظنوا
أن حياتكم كلها تعتمد على المحيط المحس ، لا ، إن هناك قيساً إن لم يعرفها الإنسان
فهو يتعثر ويضطرب ويتخطب

إذن فمنهج السماء قد جاء ليهدي النفس البشرية إلى القيم ، كما يهدي النور
الحس الإنسان إلى المحس . فإذا كان البصر هو وقية للإنسان لصادي العقبات ،



فكذلك السبع هو الذي يبين للإنسان ألا يصطدم بالعقبات في الأمور المعسوة
والإنسان يحيا بقبمه ، بدليل أن الأعمى قد يجد من يقوده من المبصرين ، ولكنه قد
لا يجد هدايته في هداية مهتد . إذن للإنسان قد يستمعي عن البصر ، ولكنه لا عي
له عن الهدى ؛ لأن الصلال سيصيه ، والصلال في القيم أبغ وأشد قسوة من
الصلال في الأمور المحسنة

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أم لا تتفكرون » هناك تفكر ، وتذكر ، وتدبر
التفكر هو شعب العقل ابتداء بأمر ظاهر ، يريد أن يستبط منه شيئا . وعندما يقول
إنسان لآخر : فكر في هذا الأمر . أي أدر عقلك في كل ما يتعرض لهذا الأمر
والذي يطلب من آخر التفكير في هذا الأمر كأنه وثق من أن الذي يصكر في أمر لن
يصل إلا إلى الرأي الذي فانه من عرض عليه التفكير . وأما التذكر فهو أن يصل
الإنسان إلى حكم انتهى إليه بالتفكر ثم سبه ، ويأتي من بلغت الدهس إلى ذلك
الحكم الذي انتهى منه فكربا .

إذن فالتفكر يأتي بحكم أولي ناصح . والتذكر يأتي بحكم كان معلوما للإنسان
ولكنه غفل عنه . أما التدبر فهو ألا يكتفى الإنسان بالنظر إلى والجهة الأمور ولكن
إن ما وراء ذلك أيضا ، لأن كل شيء له وجهة ، وقد تخفى الواجهة ما خلفها ،
لذلك يطلب الحق من الإنسان أن ينظر إلى أعقاب الأشياء وأقعاها ، أي يدبر الأمر
على كل جهاته ولا يكتفى بالنظر إلى واجهاتها ، مثلما يشتري الإنسان شيئا من تاجر
أمين ، ويعرض التاجر على المشتري مواصفات الشيء بأمانة ويطلب منه أن يختبر
الشيء حسب مواصفاته ، لكن التاجر النقاش يحاول أن يجهي المواصفات لأنه يريد
خداع المشتري

وعندما يطلب الحق ما أن التفكير والتذكر والتدبر إنما يوفق بها القاييس الحقيقية
التي فصل بها إلى المطلوب الذي يريده الله . ولذلك يقول الحق

﴿ وَأَنْذِرِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ ﴾

رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ

يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

أى أنذر بالوحي - الذى تتبعه - هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله - والإنذار - كما نعلم - هو إعلام بشيء عظيم قبل وقوعه لتتفادى أن يقع - وما المراد بهؤلاء الذين يطلب الحق من رسول إندارهم بالوحي ؟ فى أول الإسلام كان إقبال بعض المؤمنين على العمل بالإيمان صعباً ، ومادام فى قلوبهم إيمان ، ويخشون لقاء الله فالوحي إندار لهم بضرورة العمل بالإيمان الخاد . كما يجوز أن يكون الإنذار بالوحي لأهل الكتاب ؛ لأنهم يعرفون أن هناك يوماً آخر سيلقون فيه الله . وقد يكون الإنذار للإنسان يؤمن بالبعث ولكنه يشك فى الأنبياء وشعاعتهم ، فهذا الصنف قد يجعله التحريم والإنذار إلى أنه يميل بالنظر فى قضية الإيمان ويتقبل البأ الصدق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما أن نأخذ الإنذار بالوحي على أى وجه من الوجوه السابقة . ولكن هل يخاف المؤمن أن يحشر إلى الله ؟ لا . إن المؤمن إنما يخاف أن يحشر مجرداً من الولي والناصر إدى الحقيقة ليس هناك أحد يحمي وينصر من الله ، ولا شافع يخلص من عذاب الله إلا بإذنه (من ذا الذى يشفع عنده ، لا بإذنه) وهذا ما يعتقد المؤمنون

وقد حدد الحق ذلك فى قوله

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنعام)

إسهم هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ، ورسوله ولكنهم قصرُوا فى بعض المطبوعات والتكليف التى يطوى عليها قوله الحق (فمن آمن وأصلح) .

هؤلاء المؤمنون عندما يجيئهم الإنذار فهم قد يصلحون من أمورهم خوفاً من الحشر بدون ولي ولا شافع . المزمس - إذن - له أمل أن يكون يوم الحشر فى ولاية الله ورحمته ، وهؤلاء هم من قال عنهم الحق .

﴿وَالْأَحْرُورَ أَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَوْا عَمَلًا صَالِحًا وَآثَرُ سَيِّئَاتِهِمْ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

(سورة التوبة)

وإن كتب الآية الكريمة تبارك وتشمل غيرهم من أهل الكتاب وشمل وتضم أيضا لدين يؤمنون بالبعث ولكنهم لم يتبعوا أنباء ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ مَا عَيْنُكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

نعرف أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستخبره في الأرض ، وجمعه طارئا عن هذا الوجود الذي ودع الله به منه كل ما يدبره من مكنونات خفية وسعدته

وأراد الحق من البشر أن يكون فيهم استطراف عودى بحيث لا يوجد متعال على مستصعب ، ولا يوجد طاع على مظلوم ، حتى يتقيم حركة الحياة استقامة يعطي فيها كل فرد على قدر ما هيء له من مواهب . فإذا ما احتس ميراث الاستطراف الشرى ردهم الحق سبحانه وتعالى إلى دليل لا يمكن أن يطرأ عليه شك . والدليل هو أنكم أيها البشر تساوون في أصل الوجود من رباب ، وتساويتم في العوده إلى الرباب ، وتساوون في موهبتكم يوم القيامة للحساب ، فلماذا تختلفون في بقية أموركم ؟ إن التساوى يجب أن يوجد . وهاهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على أن تهتدى الأمة وكان يكف نفسه فوق ما يكفه به ربه ، فبعائه ربه لأنه كان يشق على نفسه حرصا على إيمان قومه

وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير ، ونرد عن هؤلاء : ليهمم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقي ، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعائب ، وعتاب للموه وتوبيخه ؛ لأن المعائب خالف وعصى ، وصرح هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت في يومك العادي إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه ، فأنت تعاقبه وتؤيبه لأنه خالف المطلوب منه ، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويصرح ويعصى أوقات راحته في المذاكرة ، فأنت تطلب منه ألا يكلف نفسه كل هذا العناء ، وتحفظ منه الكتاب وتقول له اذهب لتستريح . أنت في هذه الحالة تلومه لمصلحته هو ، فكان اللوم واعتاب له لا عليه . إذن قد حُلَّ هذا الإشكال لدى يقولون فيه : إن الله كثيراً ما عاتب رسوله ، وتوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه ؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسائه يسيراً سهلاً بين الصعفاء ، وكفه شغل نفسه وأجهدها وجاءه من يتدبرون المتكبرون حلاوة الإيمان ، وجاء في ذلك قول الحق :

﴿ مَسَّ وَتَوَلَّى ۖ ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْنَى ۚ ۝ وَآيُودِيكَ لَعَلَّه يُزَكِّي ۚ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ۚ ۝ أَلَمْ تَكُنْ ۚ ۝ آمَانًا مَنِ اسْتَفْتَى ۚ ۝ هَآءُنَا نَصَدَّى ۚ ۝ وَمَا عَبَّتْ أَلَّا يَزَكِّي ۚ ۝ ۝ ﴾
(سورة عبس)

إذن فالعتاب هنا لمصالح من ؟ إنه عتاب لمصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحْبَبْتَ لَمْ يَحْزَنْكَ أَهْلُكَ تَتَّبِعُنِي مَرْضَاتٍ أَرْوِجُكَ وَأَلَّهُ عَمُورٌ رَحِيمٌ ۝ ﴾

(سورة التحريم)

إن الآية تشير إلى أمر أعظم النبي صلى الله عليه وسلم ، فامتنع عن بعض ما تورع فيه النفس البشرية من أمور حذرنا الله . والعتاب هنا أيضاً لمصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولشده حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أن يعامل الطغاة بشيء من اللين ليألف قلوبهم ولكن استطاع لا يريدون أن يتسلوا مع المستضعفين ، فقد مرّ الملا من فريش ووجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حجاب بين الأرض وصهيها وبلا لا وعهراً وسفها المارسي وهم

من المستصعب ، فقالوا : يا محمد رضىت هؤلاء من قومك ؟ هؤلاء الذين من الله عليهم من بيتنا ؟ أليس يصير تبعاً هؤلاء ؟ أهدرهم فلعلك إن طردتهم أن تنعك .

وكانهم يقولون له : إنك قد اكنمت هؤلاء الصعفاء وتركنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن نعد هؤلاء عنك لنجلس ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدئية الإيمان إلا أن قال : ما أنا بطارد المؤمنين . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن هناك من أمثالهم من قالو لعبه من الأسياء مثل قوهم فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ قَالِ اتَّبِعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكُوا إِلَّا بَشَرًا مِتَّ وَتَرَكُوا أَنْبِيَاءَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْنِي الرَّأْيِ وَمَا تَرَكُوا شَيْئًا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ يُفْضِلُ بِهِ نَبِيًّا مِنْكُمْ كَذِبِينَ ﴾ (٢٧)

(سورة هود)

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موهباً وسطاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : إذا نحن جئنا فاقمهم من عندك لحجلس معك فإذا قما من عندك فاحملهم يحسبون . ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا لرأى حلاً وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر ، واستشار صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال عمر : لو دعيت حتى سطر ما الذى يريدون وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك ، وحى بالدواة والأقلام ، وقبل الكتابة برل مول الله

﴿ وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَنَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ عَنكَ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حَسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَتَنْظُرُكُمْ فَتَكُونُ مِنْ أَهْلِيلِ ﴾ (٢٨)

(سورة الانعام)

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة الى جي . بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين حلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وحلرس الصعفاء أنناع رسول الله - والى - صلى الله عليه وسلم - إنما مال إلى ذلك من الكنية طمعاً في إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمة بهم وشعفة عليهم ، ورأى - صلى الله عليه وسلم - أن ذلك لا يعوت أصحابه شيئاً ولا يقص لهم ندرا هال إلى فآرل الله

الآية ونهه عما هم به من الطرد ، لا أنه - صلى الله عليه وسلم - قد أوقع ذلك وصردهم وبعدهم ، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يجلس مع المستضعفين ، وإن أحب - صلى الله عليه وسلم - أن يقوم من المجلس قام ، ولكن الله أراد به أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم ، وأن يكرمهم سبحانه بما أهيحوا فيه ، وجاء أمر إلهي آخر يأمر بالقيام يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فقال الحق سارك ومعالى

﴿ وَاصِرٌ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُبْغِ مَنَافِعَ النَّاسِ عَن ذِكْرِنَا وَتَتَّبِعْ مَرَّةً وَكَانَ آخِرُهُ قُرْطَانًا ﴾

(سورة الكهف)

وعندما برئت هذه الآية قل صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرى أن أصبر نفسي معهم »^(١)

وبهذا القبول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين ويقول سليمان العارضي وحيات بن الأرت فيد برلت ، فكان - رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقعد معا ويدنو ما حتى تمس ركبتيه ركنه ، وكان يقوم عما إذا أراد القيام فبرلت : (واصبر نفسك مع الذين يدعونهم) فترك القيام عنا إلى أن تقوم فكما يعرف ذلك وبحججه الميم أي أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ، يقول الحق : « ولا تطرد الذين يدعونهم بالعداء ولعشى يريدون وجهه » هذا هو قول الله سبحانه أمر به رسول الله وأمر به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله ، وفي هذا قمة التكريم للذالمين على ذكر الله من المستضعفين ، لأنهم أهل حجة الإيمان وهم الذين سيقوا إليه

(١) رواه أبيه في مجمع الزوائد برواه الطبراني ، قال الشيخ ورجاله رجال الصحيح

وهذه أذن أحد حلفاء المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا ، واستأذنوا في الدخول إليه ، فلم يأذن لهم حتى أذن للضعفاء المسلمين فورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد وقالوا

- أياذن هؤلاء ويتركنا نحن ؟ لقد صرنا مسلمين فقال قاتل منهم يعهم ويفقه أمر الدين . أكنكم ورم أنفه أن يؤذن هؤلاء قبلكم ، لقد دعوا فأجابوا ، ودعمتم فطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الحنة وباطل دحولكم

إن هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله ، وكنسهم وجه الله « نذل على أن الإيمان قد أشرب في قلوبهم ، وأهم جاءوا إلى الإيمان فراراً سيهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والصلال . بهم قد حلا لهم الإيمان ، وحلا لهم وجه الله ، وحلا لهم أن يؤحل لهم كل الثواب إلى الأخرة .

وحين نسمع قول الحق . « يريدون وجهه » فهذا وصف لله بأنه - جن شأنه - له وجه ، ونطق في هذه الحالة ما نطبقه إذا سمعنا وصفاً لله ، إننا تأخذ الوصف في إطار قوله الحق . (ليس كمثله شيء) .

ويطلق الوجه ويراد به الذات ، لأن لوجه هو السمة المميزة للذوات فانت إن قابلت أناساً قد عطوا وجوههم واستعشوا ثيابهم وسترها وءوسهم فن تستطيع التمييز بينهم .

ويعال . فلان قبل وجوه القوم . أي التقى بالكفار في القوم . وأخو سبحانه ومعالي يقول (كل شيء هالك إلا وجهه) ، ويقول الحق سبحانه « ما عليك من حسابهم من شيء » وفي هذا القول حرص على كرامة المستضعفين ؛ فقد يقول قاتل :

لقد استجار هؤلاء الضعفاء بالدين حتى يهروا من ظلم الظالمين وليس حياً في الدين ، فيوضح الحق : ليس هذا عملك ، وليس لك إلا أن تأخذ ظاهر أعمالهم وأن تكل سرائرهم إلى الله .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ
فَتَكُونَنَّ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الانعام)

وكان الحق يوضح برسوله لو كان عليك من حسابهم شيء لحاز لك أن
تطردهم ، ولكن أنت يا رسول الله تعلم أن كل واحد مجزى بعمله إن خيراً فخير
وإن شراً فشر ، وقد أنزل الله عليك القول الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .
إذن فلكل إنسان كتابه قد سطر وسجل فيه عمله ويجازى بمقتضى هذا ، ويقول
الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا
أَهَؤُلَاءِ مِمَّنْ آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِالشَّاكِرِينَ ﴾ ٥٣

نحن هنا أمام « بعضين » : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف
عند رسول لرسله الله . ويمتنع الله البعض بالفتنة ، والفتنة هي الاختبار . إن بعضاً
من الناس يظن أن الفتنة أمر مملوم ، لا ، إن الفتنة لا تدم للذات ، وإنما تدم لما
تؤول إليه . فالاختبار - إذن - لا يدم لذاته ، وإنما يدم لما يؤول إليه . وتأتي الفتنة
ليرى صدق اليقين الإيمانى ، وما هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ۖ وَقَدْ فُتِنَّا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ٥٤

(سورة العنكبوت)

إن الحق سبحانه يختبر على صدق الإنسان حين يعلن الإيمان ، إنه - سبحانه -
يختبرهم بالمحس والنعم ، وقد اخبر الحق الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والمحس ويظهر
ويبرز إلى الوجود ما سبق أن علمه سبحانه أولاً ، ويميز أهل الصدق فى الإيمان

من الكاديين في الإيمان . فمن صبر على الاختبار والمحنة فقد ثبت صدقه وبقينه ، ومن لم يصبر فقد دل بعمله هذا على أنه كان يعد الله على حرف فإن أصابه خير أطمأن به ورمى ، وإن أصابه شر وقتة انقلب على وجهه وتكسر على عقبيه فحسر الدنيا والآخرة .

إذن فالمحنة مجرد اختبار . والوجود لدى راء مبي كله على المفارقات . وعلى هذه المفارقات شلت حركة الحياة . ويجب الإيمان بقدر الله في حقه ، بهذا طوبى ، وذاك قصير ، هذا أبيض ، وذاك أسود ، هذا مبصر وذلك أعمى ، هذا عني ، وذلك فقير ، هذا صحيح ، وذلك سقيم ، وذلك يكون كل بفيض فتنة للأحرار

عالمريض - على سبيل المثال - فتنة للصحيح ، والصحيح فتنة للمريض ، ويستغل المريض قدر الله في نفسه ولا يطر سحقد أو غيظ للصحيح ، ولكن له أن ينظر هل يستعمل الصحيح عليه ويستدل ، أو يقدم له المساعدة ؟ والعقير فتنة للمعي ، وهو ينظر إلى المعنى ليمرر أينقره ، أيجرحه ، أيتفله ؟ وانفى فتنة للفقير ، يتساءل المعنى أينظر إليه الفقير نظرة الحاسد أم الراضي عن عطاء الله لغيره وهكذا تكرر لفتن

إن من البشر من هو موهوب هبة م ، وهناك من سلب الله منه هذه الهبة ، وهذا العطاء ودلت السلب كلاهما فتنة ؛ لو من بأن خالق الوجود يثر مواهب على الخلق ولم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ؛ حتى يحتاج كل إنسان إلى مواهب غيره ، وليقوم التعاون بين الناس ، وبشأ الارتباط الاجتماعي

وعندما يخلق الله الإنسان بعامة من العاهات فهو سبحانه يعوجه بموهبة ما . هكذا نرى أن العالم كله قد فتى الله ببعضه ببعض ، وكذلك كانت الجماعة المؤمنة فتنة للجماعة الكافرة ، وكانت الجماعة الكافرة فتنة لرسول الله ، ورسول الله فتنة لهم فاعة يرى رسول الله الكماز وهم يهتزون عليه ويقولون .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذِهِ الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٢٦)

(سورة الفرقان)

يعرف أن هؤلاء القوم يستكثرون عليه أن ينزل عليه هذا انقرآن العظيم ، وفي

هذا القول فتنة واختبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويصبر إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا طويلاً على قوا المعجزة الدالة على صدق رسالته .

والحجاجة التي استكبرت وظلمت طرد المستضعفين هم فتنة للمستضعفين ، والمستضعفون فتنة لهم ، فلو أن الإيمان قد اختمر في نفوس المستكبرين لما استكبروا أن يسبقهم الضعاف إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إدب فكلما يفتن بعضنا بعضاً ، وكل إنسان عندما يرى موهوباً بموهبة لا توجد لديه فليعلم أنها فتنة له وعليه أن يقبلها ويرضي بها في غيره وما عُدَّ الله بشيء خيراً من أن يحترم خلق الله قدر الله في بعضهم بعضاً ، ولذلك يختبرنا الحق جميعاً ، فإن كنت مؤمناً بالله فاحترم قدر الله في خلق الله حتى يجعل الله غيرك من الناس يحترموا قدر الله عليك

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَمْثَلُ لَّاهُ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ يَسِيَ الْبَاسُ اللَّهُ

يُاعْلَمُ يَا شَاكِرِينَ ﴿٥٢﴾

(سورة الأعمام)

ووجه لغته هنا أن قومنا طردوا طرد المستضعفين وقالوا كما حكى الله عنهم . « أهؤلاء من الله عليهم من بينا ؟ » كأنهم تساءلوا عن المركز الاحتياجي للمستضعفين من المؤمنين ، ويأنيبهم الرد من الله « أليس الله بأعلم بالشاكرين » . سبحانه هو العليم أولاً بالشر ، ولا يقترح عليه أحد ما يهرده . وقد سبق للمؤمن كتمروا أن قالوا « نولا نزل هذا لقراان على رجل من القرين عظيم » .

وحاءهم الرد من الحق سبحانه وتعالى فقال .

﴿ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتِيَّ وَبِكَ تَحْنُ قَسَمًا بِيَهُمْ مَعِيشَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ أَلْتُنِيَّ وَرَفَعْتَنِيَّ

بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا خَيْرِيَّ ﴿٥٣﴾

(من الآية ٥٢ سورة الرحمن)

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لم يضع معاتبج الرسالة في أيدي الشركين أو غيرهم ، ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتسيير الأمر . بل هو سبحانه وتعالى الذي يوزع المواهب في البشر رزقاً منه ليعتمد كل إنسان على الآخرين في مواهبهم التي يعجز عنها ، ويعتمد عليها الآخرون في موهبته التي يعجزون عنها . ومسالمة البوة من اصطفاء إلهي يكبر ويكرم على كل مقامات الدني . وهذا السياق إذن على أن بعضاً من كبار العرب طلبوا أن يطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً من المستضعفين ، فأراد الله أن يطمش للمستضعفين بشيء جعل لهم به في الدنيا وإن كان قد جعله لبقية المؤمنين في الآخرة . لذلك يقول الحق :

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءً أَوْ يَجْهَلْهُ شُرَكَاءُ مِن بَعْدِهِ
وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

لقد كان طيب الطرد لهؤلاء المستضعفين فيه إجابة لكرامتهم ولحرمتهم ولأنهم دون الاترياء ووجهاء القوم ، فبطمتهم الحق بالسلام منه في الدنيا فيأمر رسوله . « قل سلام عليكم » . ونمهم من السلام أنه الخلق من الآفات النفسية والآفات الحسدية ، فكان الحق سبحانه أراد أن يعوضهم بالسلام القادم من الله « قل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » ونرى كلمة « الرحمة » تتردد كثيراً في القرآن الكريم ، فلها هذا الحق يقول في موقع آخر .
﴿ وَتَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَحِزُّ الظَّالِمِينَ ١٠٦ ﴾
حَسْبَا (AT)

(سورة الاسراء)

ما الفارق إذن بين الشفاء والرحمة ؟ الرحمة . لا يشفى الله الإنسان بمرض ، إنما الوقاية ، أما الشفاء فهو أن يزيل الحق أى مرض أصاب الإنسان . وهذا هو البرء بعد العلاج .

إذن ضي القرآن شفاء ورحمة ، أي وقاية وعلاج . والذي ينقزم بجميع القرآن لا تصفيه الدلائل الاجتماعية والنسبية أبداً ، والذي تغفل نفسه وتشرده منه بصواب بالدلائل الاجتماعية والنفسية ، فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يشفى من أي داء . ونحن يأمر سبحانه رسوله أن يقول هؤلاء الذين أمهجوا بطب طردهم عن الرخيم من إيمانهم برسالة رسول الله . « سلام عليكم كتب ربكم عن نفسه الرحمة » فهذا يعنى أن ما حدث لهم في هذا الأمر هو آخر ابتلاءاتهم ، وقد أخذوا بهذه الإهاجة سلاماً دانياً ، ومادام الله قد كتب على نفسه الرحمة فكأنه وقاهم مما يصيب به غيرهم .

وإذا سمعت قول الله « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فالكثافة بدل على التسجيل ، ولا أحد يوجب على الله شيئاً لأنه حائق الكون ، وله في الكون طلاقة المشيئة ، فلا أحد يكتب عليه شيئاً ليلزمه به . ولكنه سبحانه هو الذي أوجب على نفسه الرحمة . وتأخذ كلمة « نفسه » في إطار « ليس كمثله شيء » . ذلك أن النفس عند لبشر هي الجسم والدم والحركة والحياة . ولكن ماذا عندما تأتي كلمة « النفس » منسوبة إلى الله ؟ المراد - إذن - هو الذات الإلهية . وإن لم تأخذ مراد الكلمة بهذا المعنى فأت تدحل إلى محالقات كثيرة وقاما الله وإياك شروها .

وأؤكد هذا المعنى ليستقر في ذهن كل مؤمن . أن النفس بالنسبة للكائن الحي غير بالنسبة لله ، ولا بد أن تأخذ أي شيء منسوب إلى الله في إطار « ليس كمثله شيء » . لأن النفس بالنسبة للكائن الحي عبارة عن امتزج الروح بالمادة ، والمادة مكتوبة من أفعال . وإن لم تأخذ المراد من نفس الله عن صفة « ليس كمثله شيء » ، فأنت - ولعياد بالله - تنفى عن الحق والحادية .

ويعرف أن لنحق سبحانه وتعالى « وصغير » بتعداد في ملأه وفي الحروف الأول هو « وحد » . والآخر هو « أحد » . والبسطحيون في الفهم يظنون أن « واحداً » معناها « أحد » . ويقول : لا ، إن « واحداً » ما مدلول ، و « أحد » لها مدلول آخر . فعندما نقول : « إن الله واحد » أي لا يوجد هود ثان من نوعه عيسى له مثيل ولا شبيه ولا نظير . وعندما نقول : « إن الله أحد » أي أنه لا يتكون من أفعال يحتاج بعضها إلى البعض الآخر لتكوين الكل ، لأن الشيء قد يكون واحداً وليس أحداً . وللتأكد المارق بين « واحد » و « أحد » ، وحتى يعرفه كل

مؤمن جيداً فهو - سبحانه - واحد لا يوجد فرد ثانٍ يشاركه في وحدانيته ، فهو واحد لا شريك له ، وهو أحد جل وعلا أى ليس له أبعاد يحتاج بعضها إلى بعض وسن أن أوصينا أن هناك شيئاً اسمه : « كل » وثيلاً آخر اسمه : « كل » والكل هو المكون من أجزاء ، كل جزء منها لا يؤدي الحقيقة ، وإي لا يؤدي الكل إلا بضميمة الأجزاء بعضها إلى بعض .

ومثال ذلك الكرسي . إنه مكون من خشب ومسامير وحراء ، فلا يقال للخشب كرسي ، ولا يقال للمسامير كرسي ، ولا يقال للحراء كرسي . ولكن يقال للشيء المصنوع من كل هذه الأشياء على هيئة محددة : إنه كرسي . إذن - الكل - له أجزاء تمنع لتكوينه . والكل يمكن أن تطلق على الإنسان ، ولكن في الجنس بشرى هناك أفراد كثيرون له .

وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى ليس « كلاً » أى لا أجزاء له لأنه أحد ، وليس « كلياً » لأنه لا شيء مثله ، سبحانه وتعالى واحد أحد . وهذا نفهم جميعاً أن كل شيء منسوب إلى الله يسمى أن يكون في إطار : (ليس كمثله شيء)

ونحن لا نفهم مراد كلمة « النفس » بالنسبة لله كما نفهمها بالنسبة للبشر ، لذلك نفس الله ليست كنعس البشر ؛ لأن الله غني لا يحتاج إلى غيره ، وهو - سبحانه - ليس مكوناً من أجزاء . فهو سبحانه له كل الكمال والجلال في وحدانيته وأحديته وفي سائر صفاته وأفعاله . ونحن يقول سبحانه : « كتب ربكم عن نفسه الرحمة » . قد يتساءل إنسان . وما مدلول الرحمة ؟

وتأتي الإجابة في قوله الحق : « أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه عفود رحيم » . والحق حينئذٍ أمرنا من السماء بالمنهج يفهم خصوصاً للتعزيم كنصوص عقاب الرأى أو اللعس ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن تأتي عقوبة إلا إذا جاءت بعد تعزيم ، مثال ذلك الرشوة والسعيمة وكل مخالفة للمنهج . فلا عقاب إلا بجريمة ، ولا جريمة إلا بنص . والحق الذي خلق المخلوق يعلم أن بعضاً من خلقه يكون من صفات الفرس ، وقد تعلب إنساناً معه فارتكب دساً أو معصية ، والمثال على ذلك قول الحق :

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ (٢٨)﴾

(سورة الاحزاب)

هذا هو عقاب السارق والسارقة

وكذلك يقول الحق عن الزاني والزانية :

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي
دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِيدٌ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٤)﴾

(سورة النور)

ما معنى إزال مثل هذه النصوص ؟ بمعنى إزال هذه النصوص أن الحق سبحانه
وتعالى يعلم أن الإنسان قد يضعف في بعض مطلوبات الدين فيقع في معصية ،
ولا بد أن يوجد عقاب عليها . واحترم الحق بذلك تكوين الإنسان عندما معه
الاحتيار ، فوضع الثواب والعقاب . وكما رضع الحق النضر على الجرائم وعقوباتها
فهو سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لحلقه ، حتى لا يكون الذي عصي الله مرة
واحدة فاسقاً للأمل ، حتى لا يشقى المجتمع بهؤلاء العصاة . وشرع الحق التوبة
للخلق ليرحمهم من شرور من ارتكبوا المعاصي ، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصي
ما داموا قد تابوا عنها . وقد يرحم الله بعض خلقه من المعاصي فيحفظهم منها
وهو الحق القائل :

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة التوبة)

سبحانه - إذن - يهدي إلى التوبة ويحرم ، وهو عظيم الرحمة بالمعباد التوابين

ومن ظواهر رحمة الله سبحانه

﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ سَوْداً يُجْهَنِلُهُ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ لَئِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٥٤)﴾

(من الآية ٥٤ سورة الانعام)

والسوء هو الأمر المنهى عنه من الله . هل هناك من يعمل السوء بجهالة ؟ .
بعضنا يفهم الجهالة فهماً سطحياً على أساس أنها « عدم العلم » لا . إن الذي
لا يعلم هو الأمل الخالي الذهن ، والجهالة غير الجهل ، فالجهل هو أن يعلم الإنسان
حكماً ضد الواقع ، كأن يكون مؤمناً بمقيدة تنال الواقع . ومعالجة الجهل تقتضى
أن نزع منه هذه العقيدة التى هى ضد الواقع ثم نضعه بالعقيدة المطابقة لواقع .

والذى يسبب المناصب للناس هم الجهالة ، لأن الجاهل يعتقد فى قضية ويؤمن بها
وهى تخالف الواقع . وعندما جاء العلماء عند هذا القول الحكيم (من عمل منكم
سوءاً بجهالة) . قالوا : إن الجهالة هى السوء والطيش ، والطيش يكون بعدم تدبر
نتائج العمل . والسوء ألا يقدر الإنسان قيمة ما يفوته من ثواب وما يلحقه من عقاب
ـ وقد يكون الإنسان مؤمناً ، لكنه يرتكب السوء لأنه لم يستحضر الثواب والعقاب
ويرتكب من السوء ما يحقق له شهرة عاجلة دون التمعن فى نتائج ذلك مستقبلاً ،
ولو استحضر الثواب والعقاب لما فعل ذلك السوء .

ويمكن أن نهم أيضاً الجهالة على أنها ارتكاب لأمر السيئ دون أن يبيت له
الإنسان أو يحطط ، وذلك كأن يحطط إنسان السمر إلى باريس لتحصيل العلم ،
وعندما وصل إلى هناك جاءت له امرأة فى عرفته فى الفندق وهى فى كامل فتتها
وربيتها ، وألحت عليه لارتكاب الفحشاء ، فلم يقدر على نفسه هذا فعل بسوء
بجهالة ؛ لأنه لم يحطط لذلك السوء ، وهو يندم من بعد ذلك ، ولا يحكى عن
ذلك العمل بفخر أبداً .

هناك هارق - إند - بين هذا الإنسان وإنسان آخر بحث فى هناوين بيوت اللذة
فى باريس قبل أن يسافر إليها ، إنه بذلك يحطط لفعل المنكر وارتكاب الفحشاء .
ويصر على السوء ، ويتعاضد به ولا يندم على ما فعل ؛ هذا الصنف من البشر
لا يحقر له الله إن استمر على هذا الحال حتى شارف الموت أو أمدرك الموت ، ولذلك
يقول الحق :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ
يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧)

لأن الحق سبحانه إنما يقبل توبة من ارتكب الذنب في حالة الحياقة والطيش ،
ويقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق توبتهم ، أما الذين لا يتدمون على فعل
السوء فيقول الحق عنهم .

﴿ وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ
أَتُوبَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الذين لا يقبلون على التوبة من فور ارتكاب الذنب ويستطير الإنسان منهم حتى
الموت ليترب قلبه أى وهو في حالة العرغرة - وهو تردد الروح في الحق عند الموت
هؤلاء لا تقبل هم توبه ، وكذلك الذين يموتون على الكفر - والعياذ بالله - وقد أعد
الله لكلهما عذاباً أليماً .

والحق سبحانه قد أوضح لنا قبل ذلك فقال

﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِثْقَالَ سُورَةٍ إِيحْيَاهُ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَصَحَّ فَإِنَّهُ غَمُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنعام)

إذن هل توبه يجب أن يتبعه إصلاح وصلاح ، ذلك أن الحسنة يذهب
السيئات ، والحق سبحانه غفور لا يعاقب من تاب بعد العبد ، ورحيم لأنه
يشب على الفعل الحسن ، بل إنه يشب الإنسان الذي يكرر بدمه على فعل سيء
ويكتب له من ذلك حسنة بل إنه - سعة رحمة - يبدل سيئاته حسنات

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَيَّاتِ وَلِتُنْذِرَ السَّيِّئِينَ سَبِيلُ

الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وبإشارة نسمع قوله الحق : « وكذلك نقص عليك الآيات » فاعلم أن هناك مضموناً

سبل ذلك يشابه تفصيلاً سبق . والآيات السابقة قد فصل الله فيها أموراً كثيرة ، فصل لنا حجة وصحة وحدانية الله سبحانه ، وفصل لنا صحة النبوة ، وفصل لنا صحة القضاء والقدر . ومن بعد ذلك كله يعطينا الحق المعاييس التي تقرر الحقائق التي ينكرها أهل الباطل ، فيفصل لنا في العقائد ، ويفصل لنا في حركة الحياة والحركة العبادية التي تؤدي بها تكاليف الإيمان . وكما فصل لنا سبحانه صحة الوحداية وصحة النبوة ، وصحة القضاء والقدر ، يفصل لنا الآيات التي تقرر الحقائق

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

(سورة الأنعام)

ونقرأ « سبل » في بعض القراءات مفرقة ، أي أن سبل المجرمين يظهر ويستبين ويتضح ، وتقرأ في بعض القراءات منصوبة ، أي أنك يا محمد تستبين أنت السبل الذي يسلكه المجرمون

وكلمة « سبل » وردت في القرآن مؤنثة مثل قوله الحق .

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْهَتُونَ بِهَا حُجُوجًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأعراف)

ووردت أيضاً في بعض الآيات مذكورة :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة الأعراف)

ويريد الحق بذلك أن يحلما أن القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين قد استقبلته قبائل من العرب ، بعضها لها السيادة كقبيلة قريش لأنها سكنت مكة ، والكعبة في مكة وكل القبائل تجمع إلى الكعبة

ويريد أن ينهي سبحانه هذه أسباطه ، ولذلك جاء القرآن ببعض الألفاظ التي تنطقها القبائل الأخرى ، ومثال ذلك كلمة « سبل » التي تؤث في لغة « الحجاز » ، وجاء به مرة كمذكر ، كما نطقها « نعيم » . ولم يأت الحق بكل ألفاظ القرآن مطابقة

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم في الدنيا ، فلا ملك لاحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : « والله ربما ما كنا مشركين » .

ولقاتل أن يقول : ولكن هناك في موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول الحق مثل هؤلاء :

﴿ رَمَلُوا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٧٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٧٥) وَلَا يُؤْدِنُ لَهُمْ فَيُتَنَبَّأُونَ (٧٦) ﴾

(سورة الرسلات)

إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول يفهمهم ، ولا يأتون لهم الحق بأن يقدموا أعتذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون ، إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يفهمهم من العذاب الذى ينتظرهم . وهم يقعون في اندمجة اليأس والخيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سبب يسجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالعمل حفظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب في اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق في بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من احتراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

(سورة النور)

وهكذا يعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعذابه في الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد في الآخرة . وأعمالهم كمثل السريق اللامع الذى يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء . وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجازيها لا تساوى شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : « والله ربما ما كنا مشركين » . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب



مشخص يميزه صن الجنس الآخر إما بارتفاع ترقو وإما بتزول نذن . وقمة اجناس الوجود هو الإنسان الذي كومه الحس بالحس والحركة والتفكير . ويلي الإنسان مرتبة جنس الحيوان الذي له الحس والحركة دون التفكير . ويلي جنس الحيوان مرتبة النبات ، وهو الذي له النمو دون الحركة والتفكير .

وعندما تُسلب من النبات خريزة النمو يصير جماداً إذن ترتيب الأجناس من الأعلى إلى الأدنى هو كالتالي : الإنسان ثم الحيوان ، ثم النبات ثم الجماد . وكل جنس من هذه الأجناس له خصائصه ، ويأخذ الجنس الأعلى خصائصه رتبة .

وأدنى الأجناس هو الجماد الذي يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان ، وهكذا نجد أن أعلى الأجناس هو الإنسان بينما أدناها هو الجماد . فكيف يأخذ أعلى الاجناس وهو الإنسان رتبة من أدنى الأجناس وهو الجماد ؟

إن تحكيم الفطرة في ذلك الأمر يتهى إلى حكم واضح هو مخفف هذا اللون من التفكير وفطرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة هدته إلى رفض ذلك ، وجاءت البعثة لتجعل من إلف عادة رسول الله وفطرته أمر عبادة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من أمته .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

إذن مسألة عبادة المشركين للأصنام لا تبع من هدى ولكنها خضوع إلى هوى ، لأن الهدى هو الطريق للوصول للعناية المستعبرة ، والهوى هو خواطر النفس التي تحقق شهوة . ولهذا نرى بعضاً من الذين يريدون إصلال الشر قد خرجوا بمناهب ليس من الدين في شيء ، مثل القاديانية والبهائية والبابية ، وغير ذلك من تلك المذاهب ، هؤلاء الناس يدعون التدين ، وعلى الرغم من ذلك يقلمون التناولات في أمور خمس الأخلاق ، ورأيا مثل ذلك في بعض من القضايا التي نظرتها المحاكم أخيراً ، كالذي يدعى التدين ويقبل كل امرأة ، ولا ينظم العلاقة بين الناس بقواعد الدين ، ولكن يطلق الفرائر حسب الهوى . وذهب إليه أناس لهم حظ كبير ومرنة من التعليم ،

وقد أوعى أوتهم بخديعة كبرى ، وظنوا أنهم اخلوا بالدين ، بينما هم ياخذون حظ الهوى المناقض للدين .

﴿ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْرَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الانعام)

أى أنك يا رسول الله عليك بإبلاغ هؤلاء المشركين أنك لا تتبع أهواءهم التى تنود بالضلالة ، لأن من يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ
مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾

هنا يبين الحق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تركه لعبادة الأصنام وإن كان أمراً قد اعتدى إليه صلى الله عليه وسلم بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة ، لأن اصطفاء الحق به جعله يشيرون هدى الله بالشريعة الرامحة فى « اصل » ولا « تفعل » ، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسرة احسنة للناس ، ويؤدى كل فعل حسب ما شرع الله ، ويشجع المؤمنون برسالة .

ومثال على ذلك من حياتنا المعاصرة : لقد نزل القرآن بتحريم الخمر ، والمؤمنون لا يشربون الخمر لأن الحق نهى عن ارتكاب هذا الفعل ، ونجد الأطباء الآن فى كل بلدان العالم يحرمون شرب الخمر لأنها تعتدى على كل أجهزة لسان : الكبد ، والمخ ، والجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى . ونجد « أفلاماً » تظهر أثر كأس الخمر على صحة لسان . وقد يرى إنسان غير مؤمن مثل هذا « الفيلم » فيمتنع عن الخمر

امتناع ابتغاء المصلحة لا امتناع التدبیر . ولكن علينا - نحن المسلمين - أن نقبل على
 من هذا الامتناع لأنه من الإيمان
 وبذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢٢)
 (سورة فصلت)

هكذا نعرف أنه لا أحد أحسن قولاً ممن يمثل إلى أوامر الحق لأنه مقرر بوحليته
 الحق سبحانه ، ويعمل كل عمل صالح ويقر بأن هذا العمل هو تطبيق لشريعة الله .
 « قل إني على بينة من ربي » القول يدلنا أننا دون بينة من الله لا نعرف المنهج ،
 ولكن بينة من الله نعلم أنه له واحد أنزل مهجاً « افعل » و « لا تفعل » . وجاء
 الحق هنا بكلمة « ربي » حتى نعرف أنه الحق الذي يتولى تربيته جميعاً . وما دام
 سبحانه وتعالى قد خلصنا ، وتولى تربيتنا فلا بد أن نمثل لمنهجه . وقد أنزل الإله
 تكليفاً لأنه معبود ، وهو في الوقت نفسه الرب الذي خلق ورزق ، ولذلك نمثل
 لمنهجه ، أما المكذبون فماذا عنهم ؟

﴿ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ
 الْفَاضِلِينَ ﴾ (٥٧)

(من الآية ٥٧ سورة الانعام)

سائلين قذبا بالله اتحدوا من دونه اتداداً ، ولم يمثلوا لمنهجه ، بل تحدى
 بعضهم في الكفر وقالوا ما رواء الحق عنهم :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ
 أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٦)

(سورة الانعام)

وعندما سألوا ما قالوه ، نجد أنهم قالوا : « اللهم » ، وهذا اعتراف منهم بأنه
 يتوجهون إليه . وما داموا قد اعترفوا بالإله فلماذا ينصرفون عن الامتثال لمنهجه
 وعبادته ؟ هم يفعلون ذلك لأنهم نموذج للمصنف والمكابرة المتمثل في قلوبهم : « إن

كأن هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم

ألم يكن من الأجدر بهم أن يعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه

ونحمد أيضاً أنهم م يردوا على رسول الله فلم يقولوا . اللهم إن كان هذا هو الحق من عند محمد بل قالوا . اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك . اللهم يرضون أمر الله ويطلبون العذاب ، وتلك قمة الكفاية ، ولتهدى في الكفر وذلك بطلبهم تحميل المذاب ، ولذلك يقول لهم رسول الله . (وكذبتم به ما عصى ما أتمجلون به)

والاستعجال هو طلب الإسراع في الأمر ، وهو مأخوذ من الصجلة وهي السرعة إلى العاية ، أي طلب الحدث قبل ريمته . وماداموا قد استعجلوا المذاب فلا بد أن يأتيهم هذا العذاب ، ولكن في الميعاد الذي يقرره الحق ؛ لأن لكل حدث من أحداث الكون ميلاذا حدده الحق سبحانه .

﴿ مَا عَصَى مَا أَمَرَ بِهٖ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَبِيرٌ فَتَسْمِعُ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

إن الحكم لله وحده . فإن شاء أن يرسل عذابا ويعجل به في لذيب كما أمر على بعض الأقوام من قبل فلا راد له . وإن شاء أن يؤخر العذاب إلى أجل أو إلى الآخرة فلا معقب عنه

ومن حكمة الحق أن يظل نقاء المحالين للمصحح الإيمان تأييد للمصحح الإيماني ويجب أن يفهم أن الشر الذي يحدث في الكون لا يقع بعيدا عن إرادة الله أو على الرغم من إرادة الله ، فقد خلق الحق الإنسان وأعصاه الاختيار ، وهو سبحانه الذي سمح للإنسان أن يصدر منه ما يحاره سواء أكان حيرا أم شرا . إذن علا شيء يحدث في الكون قهرا عنه ، لأنه سبحانه الذي أوجد الاختيار . ولو أراد الحق ألا يقدر أحد على شر لما فعل أحد شرا . ولكنك يها المؤمن إن نظرت إلى حقيقة اليقين في فلسفته لوجدت أن نقاء الشر ونقاء الكفر من أساس تأييد اليقين الإيمان

كيف ؟ لأننا لو عشت في عالم لا يوجد به شر لما كان هناك أصحابا ، ولو لم يوجد أصحابا لما كان هناك حث على الخير وحض ودفع إليه . ولذلك نجد روح الإيمان تقوى حين يباح الإسلام من أي عدو من أعدائه ، وتجد الإسلام قد استيقظ في نفوس الناس ، فلم لم يوجد في الكون آثار صارة للشر ، لما ألجأ الناس إلى الخير وكذلك الكفر من أسباب اليقين الإيمان ، فعندما يطفى أصحاب الكفر من الأرض فسداً واستداداً ، نجد الناس تنزع باليقين وتحصن بالإيمان لأنه يعصم الإنسان من شرور كثيرة . إذن فوجود الشر والكفر هو خدمة لليقين الإيمان

﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَنْقُصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

نعم إن الحكم لله لأنه سبحانه يعصل بين الموقف دون هوى لأنه لا يستغنى شيء عما يعمل ، فقد أوجد الحق هذا الكون وهو في غنى عنه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى كل صفات الكمال ولم يصف له خلق الكون صفة رائدة ، وقد حقق سبحانه الكون لمصلحة خلقه فقط وبلغا الرسول .

﴿قُلْ لَّوْ أَن عِندِي مَا تَسْتَغِيثُونَ بِهِ، لَفُضِيَ
الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾

هذا بلاغ من رسول الله لكل الخلق بأن أحداث الكون إنما يجرها الحق بإرادته ويموافيت لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وهو - جل وعلا - الذي يادن بها . أي قل هم أيها السي . لو كان في قدر وإمكان ما تستعجلون به من العذاب لانتهى الأمر بيني وبينكم ولأهلككم بعذاب عاجل عصا لربى وسحطا عليكم من تكذيبكم به - سبحانه - ولتخلصت منكم سريعاً ، لكن الأمر ليس لي ، إنه إلى الله الحكيم الذي يعلم ما يستحقه الظالمون . ويقول - سبحانه - في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿وَلَمَّا أَتَيْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْنُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِبُهُمْ إِلَّا يَوْمَ بَأْسِهِمْ لَيْسَ

مَصْرُوعًا عَنْهُمْ وَحَقِّ يَوْمَ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

(سورة هود)

وحكمة الله - إدب - هي التي انصبت نأجيل لعذاب إلى وقت يحده الله ، وفي هذا ما يجعل بعضا من الكافرين يجترئون على الله ويوعدون في الكفر ويقولون ما الذي يمنع عا العذاب ؟

اسم يقولون ذلك استهزاء وسخرية ، ولا يعلمون ان العذاب اب حيا ولا خلاص لهم منه ؛ لأن الله صادق في وعده ووحيه وسيأتيهم لعذاب لأنهم استهزأوا وسخروا فلا مخلص لهم عنه ولا مهرب لهم منه
وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّخَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَيُؤْتِيهِمْ بَعْثَهُمْ وَلَا يَشْعُرُونَ ٥٠ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥١ يَوْمَ يَقْنَنُ الْعَذَابُ مِنْ قُوفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٢﴾
(سورة مائدة)

وهكذا يرى الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم لينيتهم بالعذاب لكنه تحيد مردود عليه بأن الحق هو الذي يقرر ميلاد كل أمر وسوف يأتيهم العذاب صراحة ، وهو واقع لا محالة وإن جهنم ستحيط بهم ، وسيغمرهم العذاب من أعلاهم ومن أسفلهم ، ويسمعون صوت الله الموكل بعذابهم ذوقوا عذاباً أنكرتموه وهو جزاء أعمالكم

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ٥٩﴾

و «مفاتيح» هي إما جمع لمفتاح أو جمع لفتح ، و «المفتاح» هو آلة الفتح ، ومثلها مثل «ميرد» أي آلة البرد . و آلة الفتح هي المفتاح . و «مفتاح» هو الشيء الذي يفتح عليه الفتح مثل الخزانة ، وتعلم أن بعض الأسماء تأتي على وزن «ينفس» أو «مفعال» . فإذا أخذنا «مفتاح» على أساس أنها جمع لفتح ، فيمضي ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يملك المفاتيح التي تفتح على الغيب . وإن أخذنا «مفتاح» على أساس أنها جمع «مفتاح» أي خزانة فمعنى ذلك أن الحق عليه خزائن الغيب وكلا الأمرين لا زمان له . والخزائن لا يوصف فيها إلا كل غيب وهو مخزون لأوانه ولكل خزانة مفتاح يقول الحق عن قارون :

﴿إِنْ قَرْنُوا كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبُنِيَ عَلَيْهِمْ وَاُتِيَ بِهِمْ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ لَقَدْ جَاءَهُمْ نَصْرٌ بِأُولَى الْفِرَةِ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

هكذا تعلم أنه لا يوجد مخزون إلا وهو كنز . وعند الحق مفاتيح الغيب ، والغيب هو ما غاب عنك ، وهو نوعان . أمر غاب عنك ومعلوم لعريك ؛ وهو غيب غير مطبق ولكنه غيب إصافي .

ومثال ذلك ، عندما يقوم بشال بسرقة حافظة نقودك وأنت في الطريق ، أنت لا تعرف أين مفودك ، ولكن اللص يعرف تماماً مكان ما سرق منك . هكذا ترى أنه يوجد فارق بين غيب عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك

ولكن هناك ما يغيب عنك وعن غيرك ، وهذا الغيب مقدمات إن أحد الإنسان بها فهو يصل إلى معرفة هذا الغيب ، ومذا ما نراه في الاكتشافات العلمية التي تولد أسرارها بأخذ العلماء بالأسباب التي وضعها الله في الكون ، وهو لون من الغيب الإصافي . وهناك لون ثالث من الغيب هو الغيب المطلق ، وهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، مثل معاد اليوم الآخر ، وغير ذلك من الغيب الذي يحتفظ الله به لنفسه

ولذلك نقول . إنه لا يوجد أبد في هذه الدنيا علم غيب إلا الله . وعنده سبحانه مفاتيح الغيب ، هذا الغيب الذي لا يحس به حساً مشهوداً بالمدركات ، أو كان غيباً بالمقدمات أي أنه ليس له أسباب يمكن لأحد أن يأخذ بها

إلى هذه الدرجة بوضح لنا الحق علمه الأزلي ؛ فسبحانه يعلم كل ما يتعلق بورقة شجرة بعد أن تزدى مهمتها من التمثيل الكنوزي وتعدية الشجرة وانضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض . والسقوط كما نعرفه هو سقوط شيء ما إلى أسفل ، وفسره العلماء من بعد ذلك بالحادية الأرضية

وعندما سقطت الورقة من الشجرة تكون جميعه لورد ، والحق سبحانه وتعالى هو المتصرف في الأجواء التي تحيط بمجال هبوطها ، وحركة الريح التي تحركها ولماذا جاء الحق بسألة الورقة هذه ؟ جاء لنا الحق بمثل هذا المثل لتعلم أنه عندما دبل الحق سبحانه الآية السابقة بقوله

﴿وَلَقَدْ أَطَمَّ بِالنَّظِيلِينَ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الانعام)

إن هذا التذييل قد احتاج إلى أن يشرحه لنا الحق بأن يعلم أوقات تحركات كل ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم ، فضلا على أن هذه الأمور لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب ، فكيف بالأمور التي يترتب عليها الثواب والعقاب ؟ لا بد أنه سبحانه وتعالى يعلمها ويعمل بها

﴿وَمَا تَنقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا عَدَّهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُنُوبِ الْأَرْضِ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الانعام)

إنه سبحانه أيضاً يعلم بالحبة التي تخفى في باطن الأرض وأحوالها

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا رَظَبٌ وَلَا يَئِسْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الانعام)

أي أنه جلّت قدرته يعلم أمر كل كائن في هذا العالم ؛ لأن كل كائن في هذه الدنيا إما رطب وإما يابس ، وسبحانه لا يعلم ذلك فقط ولكن كل ذلك معلوم له ومكتوب أيضاً . ويشرف على حركة تلك الكائنات الملائكة المديرات أمرا ، وحين تجد الملائكة أن حركة الكون تسير بنظام محكم دقيق هل وفق ما في الكتاب ، فإنها لا تقترع عن تسجيح الله ليلاً أو نهاراً :

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴿٥٥﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة الانبياء)

وللحق ملك السموات والأرض ، ومن حقه وحده أن يُعبد ، ولا تتكبر الملائكة
عن عبادته والخصوع له ولا يشعرون بالمثل من العباد والتسوية له سبحانه وأنت
أيها العبد تكون في بعض الأمور مفهوماً وذلك في بعض الأمور اختيار ، وهو سبحانه
عالم بما ستختار

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿هُوَ الَّذِي يَنْفَخُ فِي نَفْسِكُمْ بِالْاَيِّلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم
بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ
يَرْجِعُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يعلم جميعاً أن النوم ليس عملية اختيارية ، وفي بعض الأحيان يرى من يسلط
الله عليه المموم فلا يعرف النوم طريقاً إلى جفونه . ويعلم أن النوم عملية قسرية
يخلفها الله في الإنسان لتردعه عن الحركة بعد أن يستنفذ كل قدرته على التحرك
والترحم لود من الردع الذاتي

ولماذا جعل الحق النوم كالوفاة ؟

يعرف البعض أن الوفاة في معناه هي فصل الروح عن الجسد . وكان الحق يقول
لنا إياكم أن تفلحوا أن وجود الروح في الجسد هو الذي يعطي للإنسان الحياة
والحركة والتصرف ، لا ، إنني سأحتفظ بالروح في الجسد ولا أقدره عن التصرف

الاختياري ، وذلك حتى لا تفتنوا في الروح ، لأن هناك أجهزة لا دخل لاختيارك فيها مثل بعض القلب والتنفس ، وغير ذلك من حركات أجهزة الجسم - وضرب لنا الحق المثل بأهل الكهف الذين أمامهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ٢٥٠ ﴾

(سورة الكهف)

اليوم - إذن - نعمة من الله جعلها في التكوين الدقيق ، ولذلك إذا أردت أن تنام وليس ذلك بمقدورك ولكنه بمقدور الحق . إنه يقال عن النوم - ضيم إن طيبته عسك - أي أتعبت - وإن طملك أراحك . ويأتى النوم للمتعب حتى ولو نام على حصي ، وقد لا يأتى النوم لمن يتعب له ولو كان على فراش من حرير .

والحق سبحانه يقول

﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآثَمَارُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٧٠ ﴾

(سورة الروم)

اليوم - إذن - آية كاملة بمفردها ، ولا يأتى النوم بالليل فقط ، ولكن يأتى بالنهار أيضاً ، لأن هناك أعمالاً تتطلبها حركة الوجود ويقوم بها أناس في أثناء الليل ، لذلك ينامون بالنهار

ويؤمننا سبحانه بالليل ويعلم ما نحرصه في أثناء النهار ، ثم يرسلنا إلى نحل بعده هو سبحانه ، ثم يعيش في يوم القيامة لينتنا بكل أعمالنا - وسعى الحق اليوم وفحة ، وسعى الاستيقاظ بعداً ، لأن الإنسان في مثل هذه الأحوال لا يحدث حركته الاختيارية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف ليعلن بعثته بعد ثلاث سنوات من الدعوة مرأً

(إن مديركم بين يدي عذاب شديد) إنكم لتموتون كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتنجرون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وبها لجنة أبداً أو نار أبداً) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : يا أصحابه ، فاحتجعت إليه قريش فالتوا : مالك ؟ قال رأيتم لو أنعبرتكم أن العدو يصحبكم أو يمتنعكم أما كنتم تصدقون ؟ قالوا : بلى ، قال : «إلى سدير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو حطب : تاليت أهد جمع ؟ فأمر الله سبحانه : ثبت بدا أي هب^(١)

والحق سبحانه إما أن يشل الخوارج ويعطلها ويمنعها عن الحركة ، أو يأخذ الروح من أحد ، فعندما يشل الخوارج ويمنعها يدم الإنسان ، وعندما يأخذ الروح ويمسكها يحدث الموت . وكذلك يجب أن يفهم أن للروح قانوناً ، وللنفس قانوناً ، وللنفس قانون ، ولكل قانون قواعده ، فلا قانون النسيئة كقانون النوم ، ولا قانون النوم كقانون الموت ، ولا قانون البعث كقانون الموت . فهناك نقطة ، وبوم ، وموت وبعث ، ومن أخطأ أن يأخذ قانون حالة ما ينطبقه عن الحالة الأخرى .

إن الحق يصرف لنا المثل لتوضح هذا . فالإنسان مثاله حالة من النسيئة تسير الروح فيها على حركته الاختيارية . وعندما يدم الإنسان قد يرى بعضاً من الرؤى والأحلام يعادل فلا يرى مرتدياً رياً معيناً بالألوان معينة . فأي شيء أدرك الألوان وعيونه مغمضة ؟ ، إذن فهناك وسائل إدراك غير العين . وكذلك الرمن يأخذ حظه في أثناء النسيئة . لكن في أثناء النوم يرى الإنسان حنى في سبع ثوانٍ ويحكمه في نصف ساعه . وقد ينام ثمان في فراش واحد ، حدهما يحلم بأنه التنقن بالأحباب والأصحاب ويأكل ويشرب ويسعد ويأس ، والآخر يحلم بأنه التنقن بأعدائه وعادى منهم ومن عركه معهم ، إذن فالرمن حلف وكذلك المعينة . وهكذا يحسب قانون النوم عن قانون النسيئة . وكذلك يحسب قانون الموت عن قانون الحياة

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾﴾

(سورة الأنعام)

(١) دولة البحاري والترمذي في تفسيره والبيهقي في الدلائل وأحمد بن حنبل

والجارية كما قلنا هي التي نعمل ليكسب الإنسان . إذن قد جاء لنا الحق بكل حالات اليقظة والنوم والموت والبعث . ولكل حالة قانونها ، ونحرم نعرب قانون اليقظة وقانون النوم لأنك نتعمر من لهما ، فإذا قيل لنا : إن هناك قانوناً للموت فنحن نقيس ذلك على ترقى القوانيين من اليقظة إلى النوم ، وعندما يقال لنا : إن هناك بعثاً فنحن نصدق أيضاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ٦٦ ﴾

والقاهر هو المسيطرون بقوة فائقة محبطة مستوعبة . ولتقابل أن يقول . مادام الحق هو القاهر فكيف يكفر الكافر وكيف يعصى العاصي ؟ . ونقول : إن الكافر يكفر بما خلق الله فيه من اختيار وكذلك تكون معصية العاصي . ولكن الحق أوجد في الإنسان اضطرابات وهرجات تدلنا على أنه سبحانه فعال لما يريد . ولا أحد من المتمردين على منهج الله يجرؤ أن يسحب هنا التمرد على ما يجريه الله عليه من مرض أو موت .

والمتمرد أو الكافر إنما يختار من باطن الاختيار الذي خلقه الله فيه ، والله هو الحاكم للميلاد والموت ولا شيء للإنسان فيهما ، وكذلك هو سبحانه له تصرف أمور الغنى والفقر ، ولا يجرؤ متمرد على أن يتمرد على المصائب التي تحدث له وإن تمرد على منهج الله ؛ لأن التمرد هو من باطن خلق الله للاختيار الذي أودعه في الإنسان .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ٦٦ ﴾

(سورة الأنعام)

وحين يتكلم الحق سبحانه عن ذاته وبهـ ، قد يتكلم بضمير المتكلم عيـ

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وقد يقول سبحانه :

﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّكَ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْمِطُرُونَ﴾

(سورة الحجر)

مرة يتكلم عن ذاته بـ اسمه محـ ضمير الغيبة مثل قوله هنا

﴿وَهُوَ الْقَائِمُ فَوْقَ حِدَابِهِ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إن المتكلم يقول : أنا ، ومحاطبك فيقول : أنت
لكن الذى يتكلم بضمير الغيبة لابد أن يعود الضمير على مرجع هذا الضمير وحـ
يتكلم الحق عن ذاته بما يسمى لدينا ضمير لغيبة هـ - سبحانه - يريد أن يبين لنا أنه
فى أجنـ مجال المشاهدة والخيـور ، فكأنه إذا قال « هو » لا ينصرف إلا إلى ذاته
العليا ، فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو ، ولذلك يقول

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

(سورة الإخلاص)

وسبحانه يقول : « هو » قبل أن يذكر المرجع ، وهو « الله » ؛ مع أن الأصل فى
المرجع أن يتقدم ، ولكنه يقول :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

(سورة الإخلاص)

فكانه إذا أطلق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته . وحـ يتكلم بضمير
التكلم نواه يتكلم عن ذاته بضمير الإمراد فيقول :

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

ويقول مرة أخرى :

﴿ إِنَّا نَعْنُ بَرَكَةِ الدِّكْرِ وَإِنَّا لَهُ لَحَمِظُونَ ﴾ (٩)

(سورة الحجر)

لماذا ؟ إنه سبحانه إن تكلم عن فعل من أفعاله يجد أن كل فعل من أفعاله يتطلب صفات الكمال كلها فيه ، لأنه يتطلب علماً بما يتكلم به ، ويتطلب قدرة لإبراره ، ويتطلب حكمة ، ويتطلب صفات كثيرة ، فإذا قال سبحانه

﴿ إِنَّا نَعْنُ تَزْنِي الدِّكْرِ وَإِنَّا لَهُ لَحَمِظُونَ ﴾ (١٠)

(سورة الحجر)

فالتبريل فعل ، والفعل يقتضي صفات متعددة فلا بد أن يأتي بضمير التعظيم وهو الجمع ، لأن كل صفات الكمال متجلية في التبريل ولكن إن تكلم عن الذات في التوحيد لا يأتي بضمير الجمع أبداً ، لأنه يريد أن تنمى عن ذاته أنه متعدد ، لأنه هو الواحد الذي لا شريك له ، فحين يتكلم عن الذات يقول

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ﴾ (١١)

(سورة طه)

وحين يتكلم عن الذكر يقول :

﴿ إِنَّا نَعْنُ تَزْنِي الدِّكْرِ ... ﴾ (١٢)

(سورة الحجر)

ففي مجال التعظيم والتبريل الذي يتطلب تجلي كثير من صفاته - جل شأنه - يأتي بضمير الجمع ، وفي التوحيد والتفرد ونفى الشريك يأتي بضمير الأفراد .

كما يقول سبحانه

﴿ وَهُوَ الْغَايُ فَوْقَ عِبَادِهِ .. ﴾ (١٣)

(سورة الأنعام)

وكلمة « غاي » إذا سمعتها تتطلب مقهوراً . وما دام هناك قاهر ومقهور ففي ذلك

ميزتان بين مجالين . ومادام هو قاهراً ففى أى مجال وبأية طريقة سيكون الطرف الثانى مقهوراً له ؟ إنما نعلم أن كل شىء فى الكون مقهور له ، فقد قهر العلم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم . وقهر المعنى فأضر ، وقهر الغنى فأعنى . وقهر الصحة فأمرض ، وقهر المرض فأصح .

إذن فكل شىء فى الوجود مقهور لله حتى الروح التى جعلها الله مصدر الحس والحركة للإنسان يقهرها سبحانه . وإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه عن المكان الذى لا توجد عند عدمه وفقدته حياة بأن أذهب صلاحته للبقاء تنسحب الروح . وهذا يوضح لنا أن الروح فى الجسم هى المسيطره ، لكن من يقض البية التى تسكنها الروح يذهب الروح ويخرجها من الجسم . ومرة يقهر الماده بالروح ، فيأخذ الروح من غير آفة ومن غير أية إصابة ويحول الجسم إلى رمة . إذن فسبحانه يقهر الروح ، ويقهر الماده ، ولا توجد متقابلات فى الوجود عالية ومتأبئة ومتمرنة عليه . سبحانه . :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)
والقاهر هو المتحكم بقدرته شاملة على المهور . ونظر أى تقابل فى الحياة نجده مدينا وخاضعا لصمة القهر . وهو القاهر فوق عباده وكلمة دهوره تقتضى مكانة . ولكن المكانيه تحديد ، ومادام انقهر يتطلب قدرة فهو يعنى ذلك أن القاهر لابد أن يكون فى مكان أعلى ؟ لأننا نجد - على سبيل المثال - الله المثل الأعلى - من يضع قبيلة تحت العميرة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقاهر لا يقتضى الفرقية المكانيه ، إذن فالعرفية المراتبة هى فوقية الاستعلاء ، ونحن عندما نكلمنا عن الحق سبحانه وتعالى أوصحننا أن نلزم بإطاره ليس كمثله شىء ، فهو ذات لا ككل الدرات وصفاته ليست ككل الصفات ، وكذلك بأن ونقول فى فعله ، وعلى سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلى زمن ويحتاجون إلى علاج ، وكل حزئية من العمل تحتاج إلى حزئية من الزمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أحتاج فعله إلى زمن ؟ لا ؛ لأنه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليشتر العملية ، إنما يفعل سبحانه بـ « كن » ، إذن القاهر فى قوله : « وهو القاهر فوق عباده » هو نهر الاستعلاء .

ولذلك يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى اسماء الدنيا كل ليلة لأجر رمضان » .

ففي أية ليلة ينزل فيها الله ؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك ؟ أم الليلة التي تشرق الشمس فيها في مكان ، وتغيب عن مكان آخر ؟ إذن ، فكل واحد من الملجون من الثانية يشأ ليل ريشأ نهار ، وهكذا نعلم أن الله معك ومع غيرك ، بأسطاك ولغيرك .
 هذه .

﴿ بَلَّ يَمَاءُ مَبْسُوطَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

لذلك لا تفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يسطط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويسطط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »^(١) . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معين ؛ لأن يده ميسوطة في كل زمان وفي كل مكان وليس كمثلته شيء .

وهو القاهر فوق عباده ، وحياده من عبادة العبيد والباء والذال . ومبردها « غيد » ، وجمعها يكون مرة « عيذا » وأخرى « عيادا » . وه العباد هم المفهورون لله فيها لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضا المتقادون لحكم الله فيها لهم فيه اختيار ، لأن الإنسان مفهور في بعض الأمور ولا تصرف له فيها ، لا تصرف له في نفسه ، ولا تصرف له في بفضات قلبه ، ولا تصرف له في حركة المعدة ، ولا تصرف له في حركة الأمعاء ، ولا تصرف له في حركة الحائلي ، ولا تصرف له في حركة الكلية ، وكلها مسائل تشمل المؤمن والكافر ، والكل مفهور فيها .

إن من رحة الله أننا مفهورون فيها ولا رأى لنا ، لأنه لو كان لنا رأى في مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف تنظم عملية تنفسنا في أثناء اليوم ؟ إذن فمن رحة الله أن منعنا الاختيار في بعض الأمور التي نعيش حياتنا . ومن رحة الله أن كلا منا مفهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اعطسني الطعام ؟ ومن يستطيع أن يأمر الكل بالعمل ؟!

إذن فكل أمر مفهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أما الأمر الذي لك فيه اختيار فهو صايط التكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : « افعل » إلا وأنت

(١) قوله أحمد وسلم عن أبي موسى في التوبة ، ورواه السائر في التفسير

صالح ألا تعمل ، ولا يقول لك « لا تعمل » إلا وأنت صالح أن تعمل .

إذن الأمور الاختيارية هي التي وردت فيها « افعل » و« لا تفعل » . وهي الأمور التي فيها التكليف . ومن يطع رسلي منهج التكليف يصح وكأنه منتهور للحكم ، ويكون ممن سميهم الله (عباداً) ، فكانهم تنازلوا عن اختيارهم في الأحكام التكليمية ، وقالوا - يارب لن نفعل إلا ما يريدك - وكل منهم يتعدحكم الله فيجعله فيه اختيار ألا يتقنه . أما العبيد فهم من يتمردون على التكليف ، فالعالمون بالله هم عبيده . وبذلك يقول الحق .

﴿ قُلْ يَسْعَادُ الَّذِينَ اسْتَرْفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا يَقْضُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً... ﴾ (٥٢)

(سورة الزمر)

ويوضح سبحانه سمات هؤلاء العباد فيقول :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٢١)

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم في العمل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطعبي لله فيما كلف به ، وهم في الأمور التي لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكل المخلوق والكوكب عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم به أما المؤمنون به فهم عبياد الله . ولكن آية واحد في القرآن وهي التي تشير بعض الجدل في مثل هذا الموضوع . ساعده يقول الحق سبحانه وتعالى عما يحدث في الآخرة :

﴿ وَأَنْتُمْ أَهْلُكُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ... ﴾ (١٧)

(سورة الفرقان)

وكان « عبادي » ما أظلمت على الصالحين ، ويقول . نعم ، لأن الكفر في الآخرة عباد ؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن في الدنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنهم ممردون في الاختيارات

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

ومع مجيء معنى القاهر يرسل الحق حفظة ، وإذا كان القاهر يعنى العلية والتملك والسيطرة والقُدرة ، فهو قهار على عباده وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول فى موقع آخر

﴿ لَهُ عَقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وهكذا يكون هو الله لذ ، لمصلحتنا نحن ، لأن الضميمة حين يقهره جبار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهار الأعلى ، وفى هذا تذكير للقوى تسيباً أن هناك قهاراً فوق كل الكائنات ، فالله قهار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القوى عن قهره ، فيمتنع عن الذنب ، وتمنع عنه العقوبة ، وفى ذلك رحمة له .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وجاء معنى « الحفظة » فى القرآن فى قوله الحق :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨ ﴾

(سورة ق)

فكل لفظ له رقيب عتيد ، حفظة أى ملائكة يحفظون ويحصىون أعمالكم ويسجلونها وهم الكرام الكاتبون ، وكلما تقدم العلم أعطانا عيماً للمعاني السمية ، وإن كانت المعاني القمية التى نطلبها من الله دليك فيها السماع ، فميه رقيب وعتيد يكتبين فقط ، هكذا قال ريد فأما بما قال وانتهت المسألة ، وهذا هو المطلوب . ولذلك قال الحق :

﴿ الَّذِينَ يُرْمَوْنَ بِالْقَوَاسِ ﴾

(من الآية ٣ سورة البقرة)

لأن الإيمان لو كان بالشهد فما الفرق - إذن - بين الناس ؟ إن الإيمان في كماله
وقته هو الإيمان بالنبي ، فإذا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَاهِدٌ ﴾ (١٨)

(سورة ق)

لهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ، ويكتبون السيئات . ونحن ننظر
إلى البشر ، نجد أنهم يفاوتون ويرتفع بعض منهم على بعض في صفات وقدرات ،
وكما تقدم الزمن عرف الإنسان سرّاً من أسرار الله يتولى به . وقديماً عندما صنعوا
جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً لم تقدم العلم حتى صغر حجم المسجل ، إذن كلما
تقدمت الصنعة صغرت الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً في حجم الساعة ، ثم
صنعوا آخر في حجم بعض الحبات ، وصنعوا مسجلاً يشبه الحبوب ، وبثرونها في
أى مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس ، إذن كلما قوت قدرة
الصانع دقت الصنعة فإذا نسبتها لله ، فإين دقة الذى صنعه أنت بجانب دقة صنعة
الله ؟

فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتى بمسجلات خبر مرئية مع أن قدرته
محدودة ، وحكمته فى الصنعة محدودة ، فإذا قال ربك : إن هناك ملائكة لن تراهم
ومنحصى عليك أعمالك وهم خيب قتل على العين والرأس ، وسبحانه الغافل .

(سورة الانعام)

﴿ كَرِهُوا قَاتِلِينَ ﴾ (١١)

وما يقول الحق

﴿ وَيُرْسِلْ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الانعام)

وعندما أراد العلماء أن يحرثوا الموت قالوا : الموت سهم أرسل ، وحسبك بقدر
سفره إليك ، هو إذن سهم قد انطلق ، لكن حرك يقدر بمقدار سفره إليك ، ونحن
يقول الحق : « حتى إذا جاء أحدكم الموت » فهو يسبب الموت لمن ؟ لقد أبهم الله
رسالته ، وأبهم مكانه ، وأبهم سببه ، وأبهم قدره ، وهذا الإبهام هو أشد أنواع

البيان؛ لأنه ما دام قد أبيهما في كل هذه الأمور يجب أن يستعد للقاءه في كل زمان، وفي كل مكان، وبأي سبب

وإليك أن تتعجب لأنه يحدث في أي سن، فإيهام الحق له هو أكبر بيان؛ لأنه سبحانه لو حددته زماناً أو مكاناً أو مساً أو مسياً؛ لكان على الإنسان أن ينتظر الموت، لكن الحق شاء هذا الإيهام وهو أقوى أنواع البيان، ليلعنك ويحتك على أن تنتظره في أي زمان وفي أي مكان وبأي سبب وفي أي سن، وبهذا يكون الموت واضحاً أماماً جميعاً، ولذلك تخشى ارتكاب أي ذنب حتى لا تقبض روحك وأنت على الذنب؛ لأنك لا تحب أن تلقى الله وأنت عاصٍ.

وعندما يؤذن لصلاة الظهر ولم تصله، قد تقول : إن وقته ممتد، وتجدد من يقول لك : اصبرن لي تلك ستعيش إلى أن ينتهي وقت الظهر ولذلك يقول النبي ﷺ : عندما سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قائلاً : أي الأعمال أفضل؟ قال : الصلاة على وقتها، قلت : ثم أي؟ قال : بر الوالدين، قلت : ثم أي؟ قال : «الجهاد في سبيل الله»^(١).

إنك لا تضمن من همرك أن تعيش إلى آخر الوقت، ولذلك عندنا يقول : إن الإيهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أن نصدق ذلك؛ لأن البعض يقول : ولماذا لم يبين الله لنا ذلك؟ دائماً أقول : لقد أوضح الله ما أبهم، فإن الإيهام هو أقوى بيان، ألم تر إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه في مسألة فكان الطبيب سبب موته؟ لقد رأينا ذلك لقد أخذ هذا الإنسان بالأسباب ولم يمنع ذلك أن يدر الله قد فعل فيه. ولذلك قال شوقي - رحمه الله عليه - :

أسد همرك من يموت بظفره عند

اللقاء كمن يموت بنابه

إن نام عنك فكل طب باقع

أو لم ينم فالطب من أذئاب

فقد يخطئ الطبيب - مثلاً - في إعطاء حقنة فتسبب الحياة ويقولون : خطأ الطبيب إصابة الأقدار .

مصدقاً لقوله تعالى

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَلَّيْتَهُ رَمَلْنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما تأتي كلمة « تولى » نجدناها في القرآن دائرة على ثلاثة ألوان : اللون الأول هو قول الحق .

﴿ اللَّهُ يَتَوَلَّى الْإِنْسَانَ حِينَ مَوْتِهِ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

وقوله سبحانه

﴿ قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومرة بقول الحق سبحانه :

﴿ تَوَلَّيْتَهُ رَمَلْنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

سبحانه - إذن - يشب الموت له ولملك الموت ، ولرسله

وهل الرسل يأخذون الأرواح ويقبضونها إلا بإذن من ملك الموت ؟ إنهم جنود ، فلا أحد يبيت دون إذن من الله ، فأخذ الأرواح وقبضها إلى الله أمراً ، وإلى ملك الموت وسيلة ووسطة ، وإلى الرسل تنفيذاً .

﴿ تَوَلَّيْتَهُ رَمَلْنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

من أين يأتي التفريط ؟ لقد تقدم في هذه الآية شيخان اثنان : حملة يحفظون

عليك تصرفاتك ومعالك ، وهم يأخذون الروح أيضاً ، وهؤلاء الملائكة لا يفرطون في هذه المهمة أو تلك . حين ننظر في مادة الـ « فاء » ، والـ « الراء » والـ « طاء » نجد هاء تأتي مرة « فرط » ، ومرة « أفرط » . ومن العجيب أنها تأتي لمنتقبين ، ففرط في الشيء أي أهمله ، وأفرط في الشيء أي جاوز الحد والقدر في الحدث

وهنا يقول الحق سبحانه « وهم لا يفرطون » أي لا يهملون ولا يقصرون . وفي إحدى قراءات القرآن نجد من يقرأ « لا يفرطون » بالتحفيف ، والمقصود أنهم لا يتجاوزون الحد . ولذلك نجد الحق يقول

﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٢٤)

(سورة الاحقاف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ
وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٢٥)

وكلمة « ردوا » مفيد أن كان لهم المصاء به أولاً ، وبعد ذلك سوف يرجعون ، كيف ؟ لقد كانوا منه إيجاداً ثم ردوا إليه حساباً ثواباً وعقاباً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو لقاتل

﴿ مِنْهَا خَلَقْتُمْ وَلِيهَا رُجْعُكُمْ ... ﴾ (٥٥)

(سورة طه)

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكلمة « مولى » تعنى أنه هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك . وهذا القريب قد يكون منجداً لك إن حدث لك ما يضرعك وهو الذي يُعينك ، وهكذا أحدث كلمة « مولى » معنى القريب ، والناصر والمعين الذي تفرح إليه في شدة نكدك ، وقد يوجد لك مولى في السب وهو من الأغيار . ومن العجائب أن يتمير قلبه عليك ، ومن العجائب أن تنالك الأحداث التي هي فوق قدرته

وطاقته ، ومن الحائز أن يكون لك مولى تشبهه وتطلبه لنصرتك فبرص ، لأن خصمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد فوقف بجانب خصمك وقد يوهبك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

لكن هناك في الآخرة مولى حق واحد « وردوا إلى الله مولاهم الحق » وتطلق كلمة « مولى » على السيد حين يعنى عبده . وحين يعنى ربنا من السر اليس في ذلك أعظم ولاية ؟ . إنه المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ، لأن الأغيار من طبيعة الخلق .

وحين يطلب منك الحق أن تعمل غفلك لأبك حين تعتمد على واحد ينفعك في أمورك فأنت تتوكل عليه ، وتطلب مساعدته ، وهذا يأمرك الحق بأن تتوكل على الحق الذى لا يموت ، ولا تتكل على واحد من الأعبار فقد يصبح الصباح فتجده قد حلا بك ونحن حنك أما إذا كان مولاك هو الحق طس بخذلك .

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم » . ولماذا جاء بكلمة « الحكم » هنا ؟ ، لأنها في الدنيا الأغيار قد يسند سبحانه بعض الأحكام إلى بعض خلقه ، فهذا يحكم ، وذلك يتصرف ، وآخر يصدر قراراً بالتحسينات ، وكلها أحكام ، أما في الآخرة فالحق يقول :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وأنت في الدنيا تملك ، ويكون ورق ابنك - على سبيل المثال - من يدك ، وتملك أن تصدر قراراً بترقية من هو أقل منك ، وتملك أن تحيط الثوب لعبرك إن كانت تلك مهنتك ، ففى الدنيا كل ما يملك بعضاً من أمسات الآخر لكن في الآخرة لا يوجد شئ من هذا :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وساعة نسمع « ألا له الحكم » فهـ « ألا » في اللغة أداة تسيه لما يأت بعدها ، ولماذا

تأني أداة التنبيه هنا؟ لأن الحكم القادم بعدها حكم مهم . والكلام - كما نعرف - واسعة بين متكلم ومستمع ؛ لأن المتكلم ينقل أفكاره وخواطره ومطلوباته إلى السامع . وهو قبل أن يتكلم يدير الأمر في رأسه : أيتكلم أم لا ؟ لكن السامع يفاجأ بكلام المتكلم ، والمتكلم قبل أن ينقل خواطره توجد في خياله سببة ذهنية ، أي أنه يعايش مشروع الكلام ويتدبره قبل أن يتكلم ، أما السامع فهو يفاجأ ، وعندما تريد أن تقول أمراً مهماً فأنت تحاول أن تضمن انتباه السامع حتى لا تملت منه أية حورية من كلامك ، فتقول . «آلا» لتشد انتباه السامع بحسب . والحق هنا يقول . «آلا» ليأخذ انتباه السامع ، ويأني بعدها قوله . «له الحكم» .

إذن : ساعة تسمع «آلا» فأعرف أن فيها تنبيهاً لأمر قادم «آلا له الحكم» .

والحكم - هو الفصل بين أمرين ، ويختلف الفصل بين أمرين باختلاف المحاكم ؛ فإن كان المحاكم له هوى فالحكم يميل . لكن الفصل بين الأمرين يجب أن يكون بلا هوى ، فالحكم بالميزان يقتضي أن تكون له كفة هنا وكفة تفبلها ، وساعة ما تضبط الميزان تحاول أن توازن الكفتين لفصل بين مسألتين متشبهتين ، وسادة نريد لتساوى فصحى يسمى ذلك الإنصاف ، أي أن نقف في النصف دون ميل أو حيف .

«آلا له الحكم وهو أسرع الحاسنين» وساعة يسمع إنسان «آلا له الحكم» فالواحد من يعلم أنه سبحانه يحكم بين الحق بداية من آدم إلى أن تنتهي الدنيا ، وكل واحد منا تشاك مسأله مع غيره ، وما دام الله الحكم فليس لغيره معه حكم ، ويحكم بين الخلق جميعاً وعمله لا يحتاج إلى زمن ، وتذكرت الإمام علياً - كرم الله وجهه - حين قالوا له : كيف يحاسب ربنا الناس جميعاً في وقت واحد ، ويمقدار حطب شاة كما قال بعضهم ؟ فقال الإمام علياً : «كما يردفهم في وقت واحد يحاسبهم في وقت واحد» وهذه مسألة سهلة ليس فيها أدنى صعوبة أبداً . وقدماً عندما كانوا يهرون الطرقات كانوا يشعلون المسارج هنا مسرجة ، وهناك مسرجة ، وعلى البعد مسرجة ثالثة ، وكان الوقود يمشى ليشعل المسارج . إلخ ، ولترقى العقل البشري المخلوق لله واستطاع أن يتبر الطرقات بالطاقة الكهربائية أو الطاقة الشمسية وفي وقت واحد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَنْ يُجِيبُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ يَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ١٢

المشعب للخلق أن تأتي الظلمة وتكون في مهمة النور ، وأد يأتي النور في مهمة
الظلمة ، فكل من الظلمات والنور دور ومهمة في الحياة . ولذلك قلنا في أول السورة
حين تكلم الحق سبحانه وتعالى قائلًا

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ﴾ (١)

(سورة الانعام)

نقد ظن البعض أن المعبر عن أن يقول سبحانه وجعل النور والظلمات ، ولكن
لنستعرض القول الحق ، وسنحرف أن مهمة الظلمة تتسوى مع مهمة النور ، وعلى الإنسان
أن يعي مهمة الظلمة ، وكنتنا يعرف مهمة النور الذي يعيسا على السعي على أمور حياتنا ،
ويغفل السعي طاقة ، ولا يمكن أن تأتي النعمة إلا بعد سكون وهبوط واحمدون وراحة ؛
لذلك فالراحة تحتاج إلى طعمة ليأمن الإنسان ويستريح ، إذ فالظلمة نعمه من نعم الله ،
والذي يتعب الإنسان أن يغير ويبدل فيجعل النور مكان الظلمة ، ويجعل الطعمة مكان
النور ، وهذا خروج من مهمة كل متقابلين . وحين ينشئ الحق المتقابل لا يشتها على
أنها تتضاد ، أو على أنها تتعاند ، ولكنه - سبحانه - يريد متكاملًا يعين متكاملًا ، فلا شيء
يهدم شيئًا مقابلًا له ، بل كل متكامل يساعد الآخر . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢) ﴾ (سورة الليل)

وقد جاء سبحانه بالليل أو لا ، والنهار ثانيًا ، ولكن مهمما مهمة ، ولا يمكن أن تؤدي
مهمة النهار على حقيقتها إلا إن جاءت مهمة الليل فأدبت على حقيقتها . وهات إنسانًا لم
يأخذ من الليل الراحة والسكون والهدوء ، وعانى من قسوة ولسع

الناموس أو الراميث ، أو من صجيج وخلافة ، وم ينم ، ثم لي الصبح تحمله نصف
بائس ، نصف مرهق . عبر قلدر على التركيز أو كما يقولون « مدهول »

إذن فمن أجل حركة الضوء لابد أن توجد الظلمة .

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾

(سورة الليل)

الليل والنهار - إذن - نعمتان ، وكل نعمة تساوي الأخرى ، وإليك أن تقول هذه
ضد تلك ، أو أنها جاءت لتعاندتها ، لا لقد جاءت كل منهما لتساند الأخرى .
وفي سورة الليل يتابع الحق :

﴿وَمَا خَلَقَ الذُّكْرَ وَالْأُنْثَى ۝﴾

(سورة الليل)

لقد جاء سبحانه أيضاً بمتقابلين ، وإليك أن تظن أنها متعاندان فقد جعلهما الله
متكاملين لتنجح الحياة . وإن تعاندا نقصد الحياة . ومادام الليل له مهمة والنهار له
مهمة ، إذن فالذكر له مهمة ، والأنثى لها مهمة . وإن غنطت المهمتين يتبع
الفساد .

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذُّكْرَ وَالْأُنْثَى ۝﴾

﴿إِنْ سَأَلْتُمْ مَنْ خَلَقَ ۝﴾

(سورة الليل)

ويقول الحق هنا :

﴿قُلْ مَنْ يَسْأَلُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ وَالْبَحْرِ مَدْعُوهُمْ فَصِرَافًا وَخَيْفًا لَيْسَ الْغَيْبُ مِنْ هَدْيِهِ

لَتَكُونَنَّ مِنَ الْشَّاكِرِينَ ۝﴾

(سورة الأنعام)

والظلمة - إذن - هي عدم النور . ولم يقل الحق إن طلب النجاة يكون من ظلمة
واحدة ، وإنما طلب النجاة من ظلمات متعددة ، وهي ظلمات متراكمة ، لأن الظلمة

إذا ما عُشبت بظلمة ثانية ، ثم بظلمة ثالثة ، حينئذ تصير ظلمات مركبة بعضها فوق بعض .

والحق سبحانه قال : « ظلمات البر والبحر » ، وحق يعرف أمرى ظلمات حسية أم ظلمات معنوية لابد لنا أن نعرف الظلمة في معناها الحسى ، إنها ما يؤدى إلى عدم الاهتداء إلى الحركة السحية ، إذن فكل أمر يؤدى إلى عدم الاهتداء - حسياً أو معنوياً - هو ظلمة ؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يسير في أموره بغير اهتداء ، والأحداث والكوارث التى يصحب على الناس أن يعرفوا طريق السجلة منها تعتبر ظلمة ، سواء أكانت ظلمة حسية أم معنوية .

والحق سبحانه وتعالى يعرف لنا المعنويات بالأمور الحسية ، والمراد بالظلمات ها هى الأحداث والكوارث والحوادث التى تصيب أساس الشر من النتيجة منها والإنسان حريص دائماً على منع نفسه ، وتظهر التناقضات فى أعمال إنسان من أعمال إنسان آخر لاختلاف كل منهما فى تقييم وتقدير العمى . والمثال على ذلك واضح وبصره دنى هو مثال التلميذ الذى يذهب صاحباً مبكراً إلى مدرسته ، ويتنه إلى أستاذه ، ويعود إلى منزله ليرى واجبه ، ويخرج من ليد الكسل ليجد لدة فى العمل ، إنه بذلك يحب نفسه ويريد النفع لها ، أما التلميذ الذى ينام ويرفضه أهله فلا يسقط ، وإذا أيقظوه فهو يخرج من البيت لينسكع فى الطريق ، مثل هذا التلميذ يحب نفسه حباً أحق لأنه يريد اللذة العاجلة التى تعقبها سلسلة من الآلام الآجلة . إنه يتظر مستغلاً لا كرامة له فيه عكس التلميذ المجد الذى يتوأ الحكاة اللاتمة به .

والمثال الواضح أيضاً فى الربيع هو العلاج الذى يقضى وقته على المنهى وبسهر الليل أمام التلغراف ويترك الأرض بلا حرث ولا رى ولا تسجيد ، ولا يمكن أن تنتج الأرض اننى يعلجها محصولاً مساوياً لأرض العلاج الذى يأخذ بأسباب الله فيحرث الأرض وينظم فى ربيها فى المواعيد السجدة . ويضع السجاد المضر لها ، لأن الذى أخذ بأسباب الله وتعبد وبدل جهداً لابد أن يعطيه الحق لورق الوفير أما الذى يكسل عن أداء عمله فقد أحب نفسه حباً أحق فصيّر الأجل ، وأما الذى أخذ بأسباب الله وأقبل على عمله بحب وتقدير فقد أحب نفسه حباً أعمق ، فيه نفع له ولغيره .

إن كل حركة يصنعها الإنسان في الحياة إنما يريد بها نفع نفسه ، ولكن هناك اختلاف في تقدير النفعة بين إنسان وآخر ، والماعل من يرى النفعة الآجلة الجنية ويعمل لها . وهو هذا الشيء الشعر العربي يقول :

لرى كلنا ببحى الحياة لنفسه
حريصا عليها متهايا بها صبا
حسب الخبان الفرس أورده التقى

وحسب الشجاع النمس لورده الحوربا
حسب الشجاع لنفسه - إذن - جعله طموحا إلى الحياة الخالدة كشهد في سبيل الله ، وحسب الخبان لنفسه جعله أسير الخوف من الحياة العاقبة . فإد ما صدم الإنسان بأحداث ونوازل وكوارث ترى نعمته وهي تحركه إلى البحث عن أسباب للنجاة ، ويعتمد عن أسبابه أو أسباب من هو قريب منه ، أما إذا عزت أسباب الشر . وكان عدلا عن الله ، فإن الأحداث والمصائب والكوارث بعيدة ونذكره بخالفه فيقول « يارب » ، ولذلك لا يبيع نفسه وحيها . لكن إن خدع مثل هذا الإنسان نفسه من لبداية وأعرض عن الله وتمرد على ربه ووجد نفسه أمام الكوارث فهو يسلم أمره لله في وقت الشدة ، فإن نجاة وانكشف عنه الضر عاد إلى كفره وتمرده . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ الشُّرُكُ فِي الْبَيْتِ مَنْ يَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلْيَا تَجَنَّبْهُمْ إِلَى التَّيْرِ أَتَقْرَضُونَ ﴾

وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾

(سورة الإسراء)

وسجد الذين يقابلون الأهوال ونسبهم أسبابهم لا يكذبون عن أنفسهم . بل يتجهون فطريا إلى الحق القادر على الأحاد بأيديهم . فلحظه أن تضطرب سعية وتحيطها عواصف المروج والرياح ، وتختل آلائها لا تحمد إلا كلمة . يارب . يارب . يارب . على السنة كل ركابها بدابة من « القطان » ولقائد إلى أصغر راكب بها ، وتجد من يتمم بآيات القرآن نوسلا إلى الله للنجاة . وكذلك لحظة أن تضطرب طائفة في البحر ، ولا يعرف قائدها طريقا للنجاة لا يقفز إلى أدهان الركاب وحدهم الطائرة إلا نداء التصرع إلى الله .

ولهذا يقول لنا الحق سبحانه : « صل من تدعون إلا إياه » ودعوه الإنسان ربه ومولاه هي الوسيلة الأولى من وسائل اليقين ، ونعلم أن أحداث الحياة تتراوح ما بين أمرين : أمر يسط ويسعد الإنسان ، وأمر يقضي ويضيق على الإنسان ويشقى به ، فلما الذي يسط ويسعد فهو إدراك الجمال ، والنعمة والراحة ، والسعادة ، والإحساس بالرحمة . وأما الذي يضيق على الإنسان ويشقى به فهو يريد أن يصلح منه ويسجو .

ولما العبرة الكاملة من انقطره التي فطر الله الإنسان عليها ، فالإنسان بقطره إن رأى ما يسعده ، لا يجد تعبير أقوى من أن يقول : « الله » وهي صيغة التقدير والتقدير لله الذي أعطاه موهبة إنقاذ العمل وتنجي العبرة الكاملة أبصاً عندما يدعهم الإنسان انقطره فيقول بقطرته . « يارب » إذن فلا ملجأ إلا إلى الله

« قل من يجيبكم من ظلمات البر والبحر » ؟ ويتضمن السؤال الحقيقة التي لا بد أن يقرها السامع هذا السؤال وهي : إن الله هو المسجي من ظلمات البر والبحر . وحين يأمر الحق رسوله أن يقول هذا لتساؤل للكافرين فهو سبحانه عليم بأن إجابة العطرة هي التي مستغلب على ألسنة الكافرين ويعتبرون به سبحانه وحده بأنه هو المسجي من ظلمات البر والبحر والكون كما نعم - بما روي عما سحر ولقاتل أن يقول . ولكن هناك كوارث جديدة في عصره هي كوارث الجو ؟

ويقول يجب أن نهم أن كل جو يأخذ حكم مكانه فهو لبر من البر ، وجو البحر من البحر ، ومثال ذلك ما نراه عند الصلاة في المسجد الحرام : فمن يرى المصلين يؤدون الصلاة حول الكعبة أو في الدور والطابق الأول أو الثاني أو الثالث من المبنى القائمة كمسجد حول الكعبة . ونلاحظ أن ارتفاع الكعبة لا يرد على ارتفاع دور واحد من أدوار المبنى التي حوها . والمصلون يتجهون في صفواتهم في تلك الأموار إلى جو الكعبة ، ذلك أن جو المكان المقدس هو مقدس بخاصة ، وجو الحرم من الحرم .

ومثال آخر هو السمي بين الصفا والمروة : فالسلم يسمى بين الصفا والمروة في الدور الأرضي ، وهناك الآن دور ثان أقيم للسمي . وهكذا نرى أن جو السمي

مسعى أيضاً . وقد بدأ كان محرماً على الطائرات أن تطير في جو مكة أو المدينة . حدث ذلك أيام أن كان الطيارون من غير المسلمين ، وذلك حتى لا يطير غير المسلم في الجو المقدس . أما الآن فقد صار مسموحاً للطيارين المسلمين أن يقرروا طائراتهم في أحواء مكة والمدينة المورة .

فالجو له حكم المكان سواء أكان المكان برّاً أم بحراً .

« قل من يعجبكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تصرعاً وحفية » إن الدعاء بالمطر ينسج إلى الله ، والدعاء هو طلب لشيء . والطلب يقتضى طلباً ، ومطلباً ، ومطلوباً منه . والمطالب هو من يدعو والمطلوب منه هو من تدعوه ويسأله والمطلوب هو الشيء الذي نتصرع بالدعاء رجاء أن يحدث . والطلب لون من لأمر ، لكن إذا ما جاء الطلب من الأدنى إلى الأعلى فلا تقل إنه أمر ، بل هو دعاء

وفي اللغة عندما سأل الطالب أن يقوم بإعراب « رب اغفر لي » ، نجد الذي استدكر دروسه دون تفقه يقول - « اغفر فعل أمر » ، أما الطالب المتفقه في فهم ديبه مع إجابة بدراسه فيقول بأدب الإيمان « اغفر هي فعل دعاء » لأن الطلب إن صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ، وإن صدر من المساوي للمساوي فهو التماس ، وإن صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر .

وحين ننظر إلى الحالة التسمية لمن تحييه الكوارث والأحداث والوزل ونهبط عليه الظروف ولا يجد من ينسج ، هل مثل هذا الإنسان بأمر أو يدعو به يدعو بطبيعة الحال ، ويدعو بتدل وامثال وتضوع ، وهذا معنى الدعاء . به السؤال بتضوع وتضوع والتضوع يقتضى قولاً ، ويقتضى فعلاً ويكون التضوع بالوجدانيات والسيكيات .

ويطس من يطس أن هناك تضوعاً بالقول دون أن يرتبط ذلك بفعل . فعندما نكون في موقع قوة أو نفوذ وسألك سائل أن تتمثل عليه بشيء ، فهذا منه تضوع بالقول لكن عندما نكون في موقع قوة أو نفوذ وسألك سائل أن يفعل لك أمراً ، فهذا تضوع بالقول والفعل وفي لحظة الحظر يدعو الإنسان ربه ولا يمكن أن يكون

في قلبه درة من نفاق ، لأن الحق يقول : « تدعونه تضرعاً وخفية » ، والتضرع خفية يكون بالقلب أيضاً . وليس في ذلك رياء ، لأن القلب لا اطلاع لأحد عليه إلا الخالق الباري ، والمثال على ذلك ما فعلته امرأة لوربية قرأت تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت في قراءتها إلى أسباب نزول قوله الحق :

﴿ وَأَنَّهُ يَبْصِرُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

ووجدت أن هذا القول الكريم قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نائماً بعد ليلة من السهر ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : ألا من رجل صالح يجرسنا الليلة ؟ وبينما هي تقول ذلك حتى سمعت صوت السلاح ، وكان ذلك إعلاناً عن مقدم سعد وحذيفة وقالوا :

حتنا بحرمك يا رسول الله . وبنم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت سيدتنا عائشة غطيته ، ثم برز عليه الوحي بهذا القول الكريم :

﴿ وَأَنَّهُ يَبْصِرُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوم وقال : اصبروا أيها الناس فقد عصي الله

وعندما قرأت المرأة الأوربية هذه الحكاية في تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وأحسنت الفهم لها أعلنت إسلامها على الفور قائلة : لو كان محمد ينجذع الناس جميعاً ما حذع نفسه في حياته . لقد أدركت هذه المرأة بالمعنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصرف عنه الحرس لو لم يثق تمام الثقة في أن الله يحميه ، وأنه سبحانه قادر على أن يحفظه . والإنسان لحظة الخطر إنما يدعو الله تضرعاً وخفية والدعاء كما علمنا - يحتاج إلى قول وفعل ووجدان . وهذه الأركان الثلاثة تتوافر في قوله الحق :

﴿ تَدْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنًا أَنجَلْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَ مِنَ الْمُشْكِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنعام)

فكلمة (تدعونه) . قول و (تضرعاً) : قُبل لأنه خشوع وخضوع . و (حية) : انكسار القلب وحشيتة و (أوجاباً) : تدل على التعدد ، لأن الفعل للتجدد والخلوت وأيضاً قوله : (قل الله يُنصِّركم) يدل على التكثير ، أي أنه لا ينجى مرة واحدة ولكنه ينجى لموت كثيرة . ويأتى لنا سبحانه بصور كثيرة لقدرته على أن ينجينا إما بتكرار النجاة أو بتعدى النجاة من موقف لموت . وتكرار النجاة هو أن يكون الحدث واحداً وينجى الحق فيه أفراداً كثيرين ، أو يكون الحدث واحداً والطلاب للنجاة منه فرداً واحداً ، ويكرر الله نجاته من هذا الحدث . إن الحق سبحانه ينجى الفرد أو الجماعة من الأحداث أو الكوارث المختلفة وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَ الضُّرُّ دَنَا بِخَبْرِهِ أَوْفَعَاءَ أَوْ قَانِئًا قَلْبًا كَشَفَا عَنْهُ صَرُّهُ ۖ كَانَ لَرَدْعًا إِلَّكَ ضَرْ مُنْهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يوسف)

إن الإنسان إذا ما أصابه الضر في نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس بضيقه ودعا ربه في أي حالة من حالاته . سواء أكلن مصطحماً أم قائداً أم قائماً . حتى يكشف الله عنه هذا البلاء . وعندما يستجيب الله لدعاء هذا الإنسان يسي هذا الإنسان فضل الله عليه كأنه لم يدع الله أن يزيل عه الضر

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الضُّرُّ الْبَحْرَ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا تَجَنَّبَكُمُ إِلَى الْبَرِّ لَعَنَ مَنْكُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنْسُ كُفُورًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

وسبحانه . ها . يُذكر المشركين ومن كان على شاكلتهم أنهم عندما يهيبهم الضر في البحر يغيب عنهم كل من كانوا يدعونه سواء من الأصنام أو غيرها ولا يلجأون إلا لله حتى ينجيهم من العرق ويخرجهم إلى البر ، ومن بعد ذلك يعودون إلى الشرك بالله والمحمود سمعته سبحانه

وكذلك ها في هذه الآية التي نحن بصدد خوطرنا عنها

﴿ قُلْ مَنْ يُجِيبُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ دَعُوهُمْ تَصْرَعُوا وَحُمِيَّةً لَيْنَ أَجْسَانٍ مِنْ هَذِهِ
لَسْكَوْنٍ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ١٦

(سورة الأنعام)

لعد دعوا لله بالتصرع والتدليل أن ينجيهم من ظلمات البر والبحر ، ووعدوا أن
يكونوا من اشاكرين ، ولكن ماذا كان موقفهم بعد أن أنجاهم الله ؟
يقول الحق سبحانه .

﴿ قُلْ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ
تُشْكِرُونَ ﴾ ١٦

إن الحق ينجيهم من الظلمات المادية في البر والبحر ، وسبحانه يعلمه الأرنى يعلم
أهم بعد النجاة سيخوضون إلى ما نهاهم عنه من شرك به ؛ لأن الإنسان بطبيعته عندما
يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يضع فيها قاله الحق تبارك وتعالى

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ ١٧
أَنْ رَأَاهُ أَشْفَقَ ۚ ١٨ ﴾

(سورة العلق)

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويكبر على من حوله ، من وعلى ربه إن رأى نفسه
صاحب ثراء ، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله ؛ لأن
الإنسان بدون منحه الله يسبح في بحر العزور والتكبر ، ولكن من يجيب في صوة منحه
الله فهو يعرف كيف يرعى الله في كل إمكانيات أو ثراء بمنحه له الله ، وينشر معونه
لبيستغل بها المحتاج غير لواحد . ولذلك نجد أن كلمة « الإنسان » إذا اختلفت
تفتقر بالخسارة

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ ١٩
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ ٢٠ ﴾

(سورة العصر)

أى أن الإنسان على إطلاقه في خسر ولكن الحق يشق من ؟

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَسُوا وَغَمَلُوا الصَّالِحِينَ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذى يجيا في خسران ، لكن من يعيش في رحاب المنهج هو الذى لا يخسر أبداً . والإنسان حين يعيش دون منهج يصدر ويحدث منه ما رواه الحق سبحانه :

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
بَلْ هِيَ زِينَةٌ وَلَٰكِن لَّا يَعْطُونَ ۝﴾

(سورة الزمر)

لأن الذى يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضرر ، وإذا ما أنجاه الله ادعى أن النجاة إنما كانت بأسب امتنعها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم رادى الادعاء وورع أن هذه النعمة مصدرها حكم من عنده هو ولا يسب ذلك إلى الموجد الحقيقى وهو الله ، إنه نسى أن كل نعمة هي مجرد اختبار من الله

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ
أَوْ مِّن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ
بَعْضٍ أَمْ تَطْرِكُ كَيْفَ نُنصِّرُكَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝﴾

وكلمة «قادر» تعنى تمام التمكن وأنه لا قدرة ولا حيلة لأحد حيال قدرة الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يمد لنقوم الطالين ويمد لهم الأمر ثم يأخذهم بفتنة بالعذاب ، وقد يأق العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهه الذين أرادوا هدم

الكعبة ، فسلط عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، جعلناهم كمصف
عائول ، وهلك من أحذهم الحق بالصيحة ، ومنك من أهلكهم مريح صرصر
عاتية ، وكل ذلك عذاب جاء من فوق تلك الأقوام .

أما فاروق فقد خسف الله به وبداره الأرض ، وكذلك قوم فرعون أغرقهم المياه ،
وهذه هي التحية . طالعذاب قد يأتى من فوق أو من تحت الأرجل حبساً ، وقد يأتى
أيضاً من فوقية أو تحتية معنوية ، ومثال ذلك العذاب الذى يسلطه الله على الطغاة
الكبار المستبدين ، وقد يأتى لعذاب من الفئات الفقيرة التى تمشى أسفل السلم
الاجتماعى .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الانعام)

والمقصود بلس الأمر أى خلطه بصورة لا يتبينها الرأى . و« شيعاً » هى جمع
« شيعه » . والشيعه هم . المتعلون على أمر ولو كان باطلاً ، وبمعهم عليه كلمة
واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة . والمقصود بقوله الحق : « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا » أى
أن كل جماعة منكم كعرق ويكون لكل منهم أمير ، وتختلط الأمور بين الاختلافات
المذهبية التى تحتوى وراء الأهواء ، وبذلك يذيق الله الناس بآس بعضهم بعضاً

ولهذا كل ذلك ؟ لأن الناس مادامت قد انخرطت عن منهج الله نجد الحق يترك
بعضهم لبعض ويتولى كل قوم إغواءة غيرهم العذاب . ولكن غير ذلك فى ملك الله
وبواميسه الثابتة من شيء ؟ أبداً ، فالسواء هى السماء ، والأرض بهما صرهما هى
الأرض ، والشمس هى الشمس ، والصبر هو الصبر ، والنجوم هى النجوم ، والمطر
هو المطر .

إن الذى يحدث فقط هو أن يذيق الله الناس بعضهم بآس بعض ، ويصير كل
بعض من الناس ظالماً للبعض الآخر . وعندما نرى الناس تشكو ، نعلم أن الناس
كلها مدنية ، ومادام الكل قد أذنب وخرج عن منهج الله فلا بد أن يسلط الحق بمعنا
على بعض حتى يعرف الجميع أنهم قد اخطأوا عن منهج الله لذلك يلقون المتاعب ،
ولن يرتاحوا إلا إذا عادوا إلى أحضان منهج الله ، لأن منهج الله يمنع أن يتكبر إنسان
مؤمن على أخيه المؤمن . والكل يسجد لإله واحد . ولهذا وضع الحق لنا المبادئ

الجماعية حتى يرى الضعيف في سلطان الدنيا القوي في السلطان وهو يشترك معه في اسجود للإله الواحد .

مثال ذلك ما رآه من طواف الناس حول الكعبة في ملابس الإحرام ، إن من بين الذين يطوفون قوما من وجهاء الناس وأصحاب الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، ومن بين هؤلاء أيضا نجد الذين لا يحتلون إلا المكانة الضئيلة ، ويرى الضعيف نفسه مساويا لمن في المركز الاحتضار القوي . الكل يقف أمام ربه وهو دليل وممسك بأستار الكعبة مأكبا . ويريد سبحانه بذلك استطراف العبودية ، ويدل الإنسان المؤمن أمام الله وأمام الناس حتى يمسح الخور بين المؤمنين ويكون الناس جميعا أمام الله وفي بيته على سواء .

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ قَوْفِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ لَّا تَنصُرُهُمُ الْآيَاتُ لَعَلَّهُمْ يَرْفَهُونَ ۝٥٠﴾

(سورة الأنعام)

وهنا نحن أولاء نرى كيف أن الحق يلبس الناس شيئا ، إننا نرى المنسرين إلى الإسلام يذبح بعضهم بعضا لسوات طويلة . وإذا كان هؤلاء وأولئك طائعتين مؤمنتين تتفانلان طاب الطائفة الثالثة التي انفصل بين الطائعتين مصداقا لقوله الحق

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا ۚ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ۖ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَاسِطِينَ ۝٥١﴾

(سورة الحجرات)

هاهنا الدم المسروب إلى الإسلام يسيل ، ويرداد عدد الضحايا ، ومن العجيب أن الآخرين يقومون موقف المتخرج ، أو يمدون كل طائفة بأدوات الدمار . وذلك يدل على أن المسألة طائفة وعامة

والقاعدة التي قلناها من قبل لا تتغير ، القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين ؛

لأنه لا يوجد في الأمر الواحد إلا حق واحد ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل ؛ لأن الباطل زهوق وذاتل . ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين ؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصروه الله .

ومثال آخر كنا نراه في بلد كلبان - إبان الحرب الأهلية - وكان الصراع الدائر هناك يكاد يوضح لنا أن كل فرد صار طائفة بمفرده ، وكل إنسان منهم له هواه ، وكل إنسان يذيق غيره العذاب ويذوق من غيره العذاب

﴿ انظُرْ كَيْفَ تُصْرَفُ الْآيَاتُ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

ويشوع سبحانه الخبيث والبراهين ويأني لهم بالاحداث والسوازل حتى ينسحب للجميع أنه لا راحة أبداً في الانتماءات عن منهج الله حتى يفقهوا ، والسفك هو شدة الفهم . والمقصود أن تأخذ ونفهم العظة من كل الآيات التي يجريها الحق أعمالنا عسانا نرجع إلى مراد الله .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِمُحْسِنٌ وَلَا نَكِيرٌ ﴾

يُوكِيل

ما الذي كذب به القوم ؟ المقصود هو القرآن هو المنهج عامة ؛ لأن المنهج الإيماني يشمل القرآن ويشتمل ما أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام فالقرآن معجزة مشتملة على الأصول . وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسس لبيان وشرح ولذلك نرد على هؤلاء الذين يطلبون كل حكم من الأحكام من القرآن ونقول :

إن القرآن جاء معجزة تتكلم عن أصول العنيدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالتشريعات التي تكمل المنهج ، ومثال ذلك عدد الصلوات في كل فرض من الفروض الخمسة وعدد ركعات كل فرض من فروض الصلوات الخمس . إن القرآن

لم يذكرها ، ولكن أوضحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو القائل في حديث شريف : « صلوا كما رأيتمون أصلا »^(١) .

والرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأشريع بنص القرآن الكريم

﴿ وَمَا أَمَرَ الرَّسُولُ فَعَدُوهُ وَمَا نَهَى عَنْهُمْ فَانْهَوْا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وسمى صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبركى بعصا الركعة الذي حذره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل سبحانه القرآن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من طلق القرآن والسنة .

﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آلِهَ كَرِهُتُمْ لَيْسَ بِشَيْءٍ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

أي أن هناك من الأمور العقائدية التي أمرها الحق بحملة في القرآن وفصلها للمؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكليف من الحق وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة بنص لقرآن وهي صمن طاعة الحق سبحانه وتعالى ، فالحق يقول مرة

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

وهنا طاعة الرسول عبر مكررة إنها صمن طاعة الله

ويقول سبحانه مرة أخرى .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النور)

أي أن هناك أمراً بإطاعة الله وأمرأ بإطاعة لرسول .

ومرة ثالثة يقول سبحانه : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

وكل ذلك حتى نستوعب الأحكام التي ألقت السنة فيها بكتاب الله .

وحين قال الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة البقرة)

فهو سبحانه لم يأت بطاعة مستقلة لأولي الأمر ولكنه جعلها طاعة من باطن طاعتين هما : طاعة الله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونعود إلى معنى الآية التي نحن بصددها .

﴿ وَكَذَّبَ بِرُؤُسِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ بِرَكِيْلٍ ﴾ (٥٥)

(سورة الأنعام)

إذن فالذي كذب بوجود الله وكذب بالقرآن هو مكذب للصحيح أيضا . فالمكذب به هنا هو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وفي سياقات اليومية تحدث واقعة ما وثائق أكثر من شاهد عيان لها فلا نجدهم يختلفون في رواية الواقعة لأنهم يستحسنون واقعا ، لكن إن كان بعض من الشهود لم يروا الواقعة التي يشهدون عليها فنجدهم مضطربين في الأقوال . ولذلك نجد وكيل النيابة يحاول استنباط كل الوقائع من أقوال الشهود ؛ لأن الحق قد يختفي قبلا وراء بعض من الصيغ لكن لا بدوم اعتناؤه طويلا بل يظهر جلليا ناصعا .

والحق يصرب لنا المثل فيقول سبحانه :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ

عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَنْعَاءَ خَشَرَةٍ أَوْ مَنَعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَخَرٍ دَكْدَكٍ يَضْرِبُ فِي السَّمَاءِ الْبَصِيرُ

فَمَا الزَّبَدُ يَلْعَبُ بَصَاءً وَأَمَّا الْمَاءُ فِي الْآرِضِ كَذَّبُكَ يَضْرِبُ

اللَّهُ الْأَشْجَالَ (١٧)

(سورة الرعد) .

الماء - إذن - ينزل بأمر الله من السماء فتستثر به حياة النبات والحيوان والإنسان ،
ويأخذ كل واحد على قدر حاجته . وعندما ينزل السيل نهر يصحب معه بعضاً من
الشوائب التي تطفو على المياه ، ومثل تلك الشوائب يطفو - أيضاً - عندما يُصهر
الذهب أو أى معدن ويسمى الحث . هكذا يطفو الباطل كالزبد ويذهب جُفاء
مطروحاً ومرمياً به بعيداً أو يبرل على جوانبه ، أما الحق الذي ينفع الناس فهو يبقى
في الأرض . ونكذيب القوم للحق من الله وللقرآن وللمسيح الإيماني هو البهتان ،
والرسول صلى الله عليه وسلم ليس بوكيل على المكذبين ولا يلزمهم أن يصدقوا ،
فالوكيل هو الله الحق الذي يعاقب كل مكذب له ، ومهمة الرسول صلى الله عليه
وسلم هي البلاغ

« وكذب به قومك » ، وكلمة « قومك » هذه هي تقريباً فطبع لهم ، لأن رسول
الله صلى الله عليه وسلم جاء منهم ، وعرفوه صادعاً أميناً مدة أربعين عاماً قبل
الرسالة ، وما جربوا عليه كذباً ، ومقتضى مكثه معهم هذه التاريخ الطويل
كان يفرض عليهم أن ينسأولوا من فور بلاغهم بالرسالة : أنه لم يكذب علينا قط
ونحن من الخلق ، أيكذب على الخلق ؟ . ولكن الهوى أعمى بصيرتهم ، ولذلك
يقول الحق عن هذا البلاغ :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ ۚ لَقَدْ كُنْتُمْ فِيهِمْ كُفْرًا مِّنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦٦﴾

(سورة يونس)

أي قل لهم يا محمد : لو أراد الله ألا يبرل قرآنا على من لدنه وألا أبشركم
وأعلمكم به ما أمره وما تلوته عليكم ، ولكنه أنوله وأرسلني به إليكم . وعندها يمن
الله على الذين أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٧﴾

(سورة التوبة)

وبرغم تكبر وعناد ونكذيب المشركين من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنه عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة تركه علياً بمكة ليسلم للناس أماناتهم . فهل هناك حق أكثر من حق هؤلاء الذين كذبوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . أليكون أمينا معهم ولا يكون أمينا مع ربه ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ١٧

والأ هو الخبر المهم ، فليس كل خبر با ، ذلك أن هناك الكثير من الأحبار التافهة التي يتساوى فيها العلم الذي لا ينفع بأجهل الذي لا يبصر . ومثال على الخبر المهم هو قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ۚ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۙ ﴾ ٢٠

(سورة الباء)

إذن فلكل نبأ مستقر ، والمستقر هو ما طُلب القرار فيه . والنبأ مظهر والمستقر مظهر فيه . والمظهرية تنقسم قسمين : مظهرية زمان ، ومظهرية مكان . أي أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل حدث زمانا ومكانا يقع فيها الخبر . وسوف يعلم الإنسان مستقر كل خبر عندما يأذن الحق ببلاد هذا المستقر الذي يعلن فيه الخبر .

النبأ - إذن - هو الخبر العظيم المدهش . ولا أعظم من تحمل انسياء على الأرض بجميع جديد ينقدها مما هي فيه من ضلال ، وهو منح عدم لكل زمان ولكل مكان . إذن هو نبأ عظيم ، لأنه يخص دنيا الناس من حيازة الأرض ، ويصنع كل الناس إلى منبع يخرجهم جميعاً من أمواتهم . فلا أصر بالمجتمع من أن يتنع كل إنسان هواه ؛ لأن هوي كل نفس يتقدم شهواتها ، ولشهوات متضاربة ، فإذا حكم كل إنسان هواه فلا تجد في الأرض قضية متعق عليها . ولذلك تكمل الحق سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة سطيم المنهج وهو الأمر الذي تختلف فيه الأهواء . وأما الأمر الذي يلتقي فيه الأهواء وهو استساق ما في الأرض من كور وستكشف ما في الكون من أسرار فقد تركه الحق للإنسان ليستنبطه بالعقل الذي خلقه الله ، من الكون

الذى خلقه الله ، وليسعد الإنسان تلك الأسرار التى يستكشفها فى الكون

ويؤكد لك واقع الحياة هذه الفصية ، ويحد طموح العمل البشرى عند فكر فى
مادة لكون امشيط منها الأسرار وأسر الكثير من الاكتشافات العلمية ولم تختلف
الدول والمعسكرات فى تلك المحالات ، بل التقى كل الأهواء عند هذه
الاكتشافات ، فلا يوجد - كى قدينا - كهروم روسية وأخرى أمريكية ، ولا نجد
« كيمياء انجليزية » وأخرى « فرنسية » ، ولذلك نجد الأنظمة السياسية والاجتماعية
على اختلافها ملتقى فى محالات العلم وتنعو ولا تختلف حتى إن بعضها قد يسرى من
المعض الأسرار ما توصل إليه . ولا نجد فى عالم المادة والمعمل والتحرية اختلافات بين
نظام سياسى ونظام آخر ، بل تلتقى الأهواء عند القوابس المكتشفة والمأخوذة من مادة
الكون ، وهو الأمر الذى تركه الله للناس ليكونوا أحراراً فيه ، يفكرون ،
ويطرون ، ويتأملون ، ويتكروون ، ويصلون إلى أسرار فى الكون بحسب علمهم
نعمات الحياة ، ونزوى هم غايات السعادة فى الوجود بأقل مجهود

ولكننا نجد الصراع العنيف على الخائب الآخر - حاسب المبدئى والمنهج - وهو
صراع لا يبدأ أبداً ؛ لأنه صراع الأهواء فيما لم تحكمه تجربة مادية ، وهم يصدون
حلافات عميقة ، الرأسمالية تحذف عن الاشتراكية ، وتتوخ الخلافات بين كاه
المذاهب التى أنتجتها الأهواء الشيوعية ، الوجودية ، الاشتراكية ، الرأسمالية ،
وكل هذه المسائل لم تحكمها تجربة أو معمل لذلك كان الخلاف ومن المؤسف أن
البشر قد استعملوا ما اتفقوا فيه من ابتكارات علمية فى فرض النظم التى اجتمعوا
عليها

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر إنه حل وعلا
قد ترك عقول البشرية حرة فى كل ما يفضح للتحرية ، ولكنه نظم حياة الإنسان على
الأرض فى صوره المنهج الإيماني ، لأن الإسلام جاء فى إثر ديانة حاول القذمون على
أمرها من الكهنة أن يفرضوا سيطرة الكهنة على لعقل البشرى فى أسرار الكون

والمثال على ذلك واضح تماماً فى التاريخ البشرى ، هو العصر الذى تأخرت فيه
أوروبا وتسمى « عصر الظلمات » كان المسجون فى الشرق باناعهم لميح الله يعيشون

في عصر النور ؛ لأن الإسلام عندهم حال استعمال العقل وقدراته على استنباط أسرار الله في الكون ، وجاء سبحانه بهذا الدين وهو النبا العظيم ليوضح لنا في مسيرة هذا الدين كل حبة ، وكأنه يقول لنا :

إن هذا الدين قد بدأ ضعيفاً والذين آمنوا به قلة مستضعفة لا يستطيعون حماية أنفسهم بل تلمسوا الحماية وطلبوها عند ملك غريب في الحيشة ، وعلل الرغم من ذلك أنصروا لأنهم أخذوا بهذا الدين .

وقال صلى الله عليه وسلم مقالة ربه :

﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَمَوْتٌ قَعَامُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومعنى « مستقر » أى ميلاد يستقر فيه . أى لا تتعجلوا الأحداث ، ولا تجهضوها ؛ فإن شاء الله سيكون هذا الدين انتشاراً ، وهذا الانتشار له ميلاد في زمان وميلاد في مكان ، أما زمانه فإلى أن تقوم الساعة ، وأما مكانه فالأرض كلها ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً للناس كافة ، وحائلاً للمبشرين والمرسلين

ويؤيد الحق سبحانه قضية « لكل نبي مستقر » بأن يشهد الواقع من الحقائق ما يؤكد ذلك . ومثل ما حدث في الزمن القريب المعاصر لميلاد الدعوة الإسلامية . حينما جاء الإسلام أمس به قلة مستضعفة ، ولما نزل قوله سبحانه

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القمر)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أى جمع هذا الذي سيهزم ويولون الدبر ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى مصارع القوم كما قامها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاغاً عن الله قال عمر بن الخطاب : صدق الله ، لقد هُزم الجمع وولوا الدبر . ونجد كل قصة قرآنية محمودة ومسجلة في السطور ، بمعطىها الله حتى لا يكون للناس على الله حجة ؛ لأنه سبحانه القاتل :

﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧) [سورة الأنعام]

فلو لم يكن الواقع يؤيد أن لكل نبياً مستقراً ، ولكن حدث ميلاداً زمانياً ومكاناً ، فعاشا يظن الناس الذين يستقبلون القرآن ؟ لذلك أتى الحق بكل قصية قرآنية ومعها دليلها ، وأعطى الحق بعضاً من الحقائق المؤتقة بالأحداث زمانياً ومكاناً ليتأكد قوله الحق :

﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٧) [سورة الأنعام]

وقد علمت الدنيا وانتصر الإسلام . لقد شاء الحق أن يري حامل الدعوة الأول - عليه الصلاة والسلام - ويعلم معه صحابته رضوان الله عليهم ، يعلمهم معظماً ليسايرو به أحداث الكون .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى كان ينزل الرسل بالأديان على فترات ، وعندما يعم الفساد في الأرض ينزل الحق منهجه على رسول ليهدى الناس إلى الصراط المستقيم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل في كل نفس بشرية تعادلاً ذاتياً ، فإذا اشتهى الإنسان شهوة يحرمها الدين ، وقضى الإنسان هذه الشهوة ، وهذات شريرة وحيدة المعصية في نفسه ، فالإنسان يؤنب نفسه ويوبخها ، ولكن النفس قد تستمرى الشهوات ، وينعدم الوارع الذي يودع الإنسان .

وإذا انعدم الوارع في فرد واحد فن ينعدم في المجتمع ، ويحد من الناس من يحمل المجتمع على المعروف ، ويوجه صاحب النفس التي استمرات اعصية إلى التوبة والخير . أما إذا عم الفساد في الفرد وفي المجتمع فماد يكون الموقف ؟

لابد أن تتدخل السماء برسول جديد ، ومنهج جديد . ويأتي الرسول الجديد ومنهجه المنهج اللازم لإصلاح الكون . ولا يتبع الرسول الجديد إلا المستضعفون الفلة ، وأهل البصيرة من أهل القصة حتى لا يظن ظان أن الصعفاء لأنوا بالدين ومالوا إليه بسب ضعفهم . ويحذر الحق المؤمنين وكأنه يقول ، إنكم تواجهون باطلاً

عنى الناس وأرغفهم وأعنهم ، وحين يفسد الباطل المصنعات فالذى يتنفع من ذلك هم أهل الباطل ، والذى يشقى بذلك هم أهل الحق ، فلكل فساد حبة متعة به . وحين توجد الطبقة المتفعة بالفساد ، وحين توجد كلمة الحق فإن المتصعين بالفساد ينظرون إلى بقودهم الذى سينحسر حتماً عندما تعود كلمة الحق

وحين يتنصر الحق لا بد أن يزول الفساد ومعه كل مفرد أهل للفساد . لذلك ينقب المتصعون من الفساد ضد الدين الجليل ليحافظوا على مكانتهم فى المجتمع . ويقول الحق تهدياً للمؤمنين ، وتاديباً لغير المؤمنين :

﴿ وَإِنَّا رَأَيْنَا الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آبِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

حَقَّ يَخُوضُونَ فِي حَبِيبٍ عَرِيفٍ وَمَا يُبْسِكُ الشَّيْطَانُ فَلَآ

فَقَعْدَ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٧٠﴾

وبهذا القول يوضح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم اعلم أن ما جئت به سبحانه فيه ، ويقال مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، وثالثة إنه كهانة ، ورابعة يتهمونك بالكذب ، ولا يقول ذلك إلا المتصعون بفساد الكون ، فإذا ما جاء مصلح فيجملونه عدواً لهم . لذلك لا بد أن تحافظ على أمرين . الأمر الأول : أن الذين تبسوك - وهم صحاب - قد لا يستطيعون مراجعة القوة العظيمة ، لذلك لا تحملهم ما لا طاقة لهم به ولكن ترثه ، فإن لكل نبأ مستظراً ، والأمر الثانى : أنك إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم وبين لهم الجفوة فلا تقبل عليهم ، ولا ترادهم ، ولا تستمع إليهم ، ولا يسمع إليهم أصحابك ، لماذا ؟ لأنهم يخوضون فى آيات الله ولكن أبستمر هذا لإعراض عنهم طوال الوقت ؟ لا ، فالإعراض عنهم إنما يكون فى أثناء غوصهم وتكذيبهم لآيات الله ، أما فى غير ذلك من الأوقات فاعلم أن آفاتهم فى حاجة إلى سماع صريحة من الحق ، لذلك انتهر فرصة عدم غوصهم فى دينك وفيك ، ولقهم ما تبشر به ، ولقهم كذلك ما تنذر به ، لأنك إن تركتهم على ضلالهم فإن قهية الإيمان نصير بعيدة عنهم ، وأنت مهمتك البلاغ ، والله يريد الخير لكل خلقه .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

غَيْرِهِ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

وكلمة « الخوض » هذه تشعرنا بمعنى في متهى الدقة ، لأن الخوض في أصله هو المخول في الماء الكثير . والماء الكثير سائر لما تحت قدمي الذي يخوض فيه ، وما دام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدرى إلى أى موقع تقع قدماء ، وربما وقعتا في هوة ، لكن الذي يسير في غير ماء فالطريق واضح أمامه ، يضع قدمه حيث يرى فيها ثباتاً واستقرار وعدم إبداء . وأحلوا من ذلك المعنى وصف الكلام بالباطل ، لأنه حوض بدون اعتناء . ولذلك يقول الحق

﴿ ثُمَّ قَرَّبَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَوْنَ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنعام)

ولماذا وصف فعلهم هذا بأن لعب ؟

ذلك لأن اللعب هو شغل النفس بشيء غير مطلوب وكان في قالب الخد . ولكن إذا كان هذا الشيء يؤدي إلى نوع في مجال من مجالات الحياة فتحس بدرب أساءها عليه في فترة ما قبل البلوغ . ومثال ذلك تدريب الأبناء على الساحة والرماية وركوب الخيل . وما إن يبلغ الإنسان فترة البلوغ حتى نصير له مهمة في الحياة ، ويصبح عليه أن يتحمل المسؤولية ، فلا يصح وقته في اللعب أو فيها يلجئه عن أداء لواجب

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

غَيْرِهِ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

والنفس البشرية لها أعباء وهذه الأعباء قد تسببها بعض التوجيهات لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم موعود من ربه بعدم السيان

﴿ سَفَرُكَ فَلَا تَلْسَنُ ① ﴾

(سورة الأعر)

فإذا كان هذا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف بهم قول الحق
ها .

﴿ وَإِنَّمَا يُجِيبُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الانعام)

إننا نهمم هـ القول على أساس أنه تعليم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .
وحسبنا ينزل أمر من السماء فرسول الله أول الناس بتطبيقه ، فإذا كان الرسول
يُخاطب : « وإما ينسبك الشيطان » فإذا ما نسي إنسان لعلة من العفلات ، فليأخذ
علاج الله للنسيان ، وهو ألا يقعد مع هؤلاء القوم الذين يخصوصون في آيات الله في
أثناء حوضهم ، ولكن عليه أن يتركهم ويعرض عنهم . إذن فالحق سبحانه وتعالى
احترم خلقه ؛ لأنه وهو العليم بهم ، حلل لكل إنسان ملكة حافظة ، وملكة
ذاكرة ، وملكة تخيلة ، وكل ملكة من هذه الملكات تؤدي مهمة . فملكة الحافظة
تجمع المعلومات ، والذاكرة تأتي بالمعلومات المحفوظة القديمة لتجعلها في بؤرة
الشعور . ولو لم يكن هناك نسيان لما استطاعت فكرة أن تدخل في دهر الإنسان ،
لأن العقل لا يشغل إلا بقضية واحدة في بؤرة الشعور . وحتى تدخل قصة أخرى في
بؤرة الشعور ، لا بد أن تترجح القضية الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور

لذلك لا بد من نسيان خاطر ما ليحل محله خاطر آخر . وبوخل الإنسان ذاكرة
لقضية من انفصالي في نفسه لصار من المحال أن تدخل قصة جديدة أخرى . وهذا
خلق الله النسيان ، أي انتقال قضية ما من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور
والإنسان منا يتذكر شيئاً حدث من عشرين عاماً ، ثم يمر هذا الحادث بالخاطر
فجأة ، ويتساءل الإنسان ، كيف ؟ ويعرف الإنسان أن هذا الحادث كان محفوظاً
ومصوباً في دوائر شعورية بعينه . ولذلك يجد الإنسان عندما يريد استعادته معنى من
المعاني فهو يترك لنفسه فرصة لاستعادة هذا الخاطر أو ذلك المعنى ، ولذلك يسمون
هذه المسألة « تذكر »

﴿ وَإِنَّمَا يُجِيبُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الانعام)

ولماذا ينبس الحق النسيان للشيطان ؟ ، لأن حقائق الحق في دينه هي الصدق ،

ولا يصح أن تعيب أبدأ عن بال المؤمن ، وهي لا تغيب عن بال المؤمن ، لا يعمل الشيطان ، فالشيطان يزين الأمر الذي يحبه الإنسان ويشغله عن أمر آخر ، فإذا ما نزع الشيطان لبني الإنسان ، ونذكر الإنسان أن هذا من مرغ الشيطان وليستعد بالله من الشيطان ولا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .

وأنت حين تفعل ذلك وتتفر من هؤلاء القوم الظالمين فأنت تلمتهم إلى أن ما عندك من يقين إيمان هو أعز عندك مما في مجالسهم من حديث وما يكون لديهم من شع وبذلك تتسمع أنت بهذه التذكرة وهم أيضاً يلتفتون إلى أهمية الإيمان وأصلبته عند المؤمن على ما عداه

وما كان الحق سبحانه وتعالى ليعرض على المؤمنين مقاطعة المشركين في أثناء فترة صعب المؤمنين في بداية الدعوة . وكان المؤمنون يلتقون في المسجد الحرام ، وكان المشركون يذهبون أيضاً إلى الكعبة قبل فتح مكة ، فهي مكان حبيبهم ، فهل يقطع المسلمون المسجد الحرام في بداية الدعوة الإسلامية ولا يلتقون ؟ قطعاً لا . ولكن كان المسلمون يذهبون للقاء في المسجد الحرام ، وإذا جاء الدين يحرمون في آيات الله مهم يعرضون عنهم . ووزر الخائضين على أنفسهم . ولذلك يقول الحق .

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
وَلَا يَكُنْ فُكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦١﴾

أي أنك إذا كنت معهم وحاضوا في الحديث فقت من مجلسهم أو بيت وقعدت ثم تذكرت فقت ، فأنت تلفتهم إلى أن ما أقامك من مجلسهم هو شيء أكثر أهمية من هذا المجلس ، إنه احترام تكليف الله فيما أمرك به وهناك عنه ، وليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزار هؤلاء الظالمين من شيء ، وليس عليكم من حيلهم من شيء ، وبجهد فيكم من مجلسهم هو تذكرة لهم بعلهم يتفكرون في منطق الحق ومحشون الله ويعدون أنفسهم عن الوقوع في باطل حتى يكونوا في وقاية من عذاب الله وسخطه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا
وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْنَاهُ أَنْ يُبْسَلَ
نَفْسُهُ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا
شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ
الَّذِينَ أُتْبِسُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قلنا - من قتل - إن اللعب هو الاشتغال بما لا يفيد لقتل الوقت . وعرفنا أن اللعب مجاله قتل التكليف أى قبل سن السلوغ . وإذا شغلك اللعب عن شيء معطوب منك فهو هوى لأنك هبت عن أمر واجب عليك ، قاله هو - إذن - هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة

ويقوله الحق : « وعرثهم الحياة الدنيا » هو تصوير لا يوجد أبرد منه ، لأنهم من أصحاب العقول التي تغتر بالحياة الدنيا فهي عقول تائهة ، فالعقل الناصح يهيم الدنيا على أهلها أقل شأناً من أن تكون غاية ، ولكنها وسيلة أو محال وطريق ومررعة إلى الآخرة .

وعلى العقل الناصح أن يعاملها دون نسيان مهمتها ، وأنة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انحرف عن ذلك فله عقابه يوم العاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

إننا نعلم أن عاية الإنسان من الحياة الدنيا ليست أن يعيش عمراً طويلاً ، ولا أن

يتال المتأصب ، ولا أن يحصل حل الثراء ، ولا أن ينال القوة ، فكل ذلك من الأعيار ، والأعيار تختلف من إنسان إلى آخر .

وما نختلف فيه نحن لبشر ليس غاية لوجودنا ، والغاية للوجود الإنساني لا بد أن تكون واحدة . وأن نتمق فيها جميعاً ، هذه الغاية هي ما نصير إليه بعد الموت . ونجاح كل عمل بمقدار ما يقرب العاية منه . ولذلك فالمؤمن الحق يرى مستقبل البشر لقضية الموت استقبلاً أحق ، فعندما يموت شاب في العشرين نجد من يقول : إنه لم يستمتع شبابه ، والمؤمن الحق يرد على مثل هذا القول متأسلاً : أين تريد أن يستمتع شبابه ؟ . ويحيب أصحاب العلم السطحي . لقد مات قبل أن يستمتع شبابه في هذه الدنيا

ويقول المؤمن الحق : وهل هذه الدنيا هي العاية ؟ . إنها ليست العاية . بل العاية هي الحياة الأخرى . ومن مات قبل استكليف فقد أنعم الله من الحساب وأوطئ الحمة ينضى بحبها الدائم فلماذا - إذن - هذه البالغة في الحزن على أي ميت ؟ . والذي يقترب من النهاية يحب هذه العاية . وهب أن إنساناً غابته أن يذهب إلى الإسكندرية ، والوسيلة إليها قد تكون حصاناً أو حربة أو طائرة ، فكل شيء يقرره من العاية يكون هو الأفضل .

فلذا كان الله يريد أن يأخذ بعضاً من خلقه وهم في بطون أمهاتهم ، فهدم إرادته . والفى ذهب من بطن الأم إلى القبر قرب من العاية ، وحلص من المراحل التي كانت تحمل في طياتها البتة ودخل الجنة

ومم أن الوليد عيش إلى عمر المائة وصار شيخاً زمر بكل احسنات البتة واستقام على السج ، فبلى أين مصيره ؟ إنه إلى الجنة

إذن فعلياً أن مستعين كل قدره بحب قدر الميلاد أو قدر الخروج من الدنيا ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَسْرِكُ الَّذِي يَمِيهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كَرْشِي وَ قَدِيرٌ ① الَّذِي حَلَقَ أَمْوَاتَ وَالْحَيَاةَ لَيْسَ لَكَ بِكَرَّ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(سورة الملك)

إله سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، لا ، بل قال : « خلق الموت والحياة »
وذلك حتى يستغل كل ما الحياة ، وسبقها في الدهن ما ينقص هذه الحياة وهو
الموت . إذن هذه هي المعية التي يتفق فيها كل الحس الشرى ، أما ما عداها فهي
أعيار تختلف وهي

لذلك لا تقل إن العايم من ايك أن يسبح في القبول للإعداديه ثم يحصل على
الشهادة الإعداديه ، ثم يحصل على الثانوية العامة ، ثم يحصل على ليسانس الكليه
أو بكالوريوس التخرج أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراه ، ثم يصير صاحب
شأن في الحياة ، لا يقل ذلك ، لأن كل ذلك ليس غاية في الحياة ، ولأن العايم هي
ما لا يوجد بعدها بعد ، ولكن عليها أن تقوم بإعمار الأرض كما أمرنا الله ولكن
لا تجعلها هي العايم

ولذلك قال الحق سبحانه

﴿ أَعْبُدُوا إِلَهًا خَلْقَ الدُّنْيَا رَبِّهُ وَهُوَ رِيبٌ وَتَعْلَمُ يَسْكُرُ وَتَكْذِبُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
تَكْتُمُونَ عَمَّا أَتَى الْكُفَّارَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ يَكْفُرُونَ فَتَرْكُهُ مَقْصُورٌ ثُمَّ يَكُونُ حُطْمًا وَفِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْخَيْرُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ
الْعُرُودِ ۝ ﴾

(سورة الحديد)

هذه هي الحياة الدنيا ، ولذلك يجب أن نحيا دائماً على صمد ما يحيا من لعباد
وهو ذكر الله ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَنَّهُ كَانَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَدٍّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

والذكر هنا مقصود به التذكير بالقرآن وهو المنهج الدار من السماء وطقه رسول
الله ، ومنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر أيضا ، أو الذكر هنا مقصود به
العذاب الذي ينتظر من مخالف المنهج ، وقوله الحق : « وذكر به » ، يدل على أن
منطق المطرقة يقتضي أننا نعرف أن الحق لا يمكن أن يعامل المتعبين في الدنيا كما يعامل

المنحرفين . ومثال ذلك الإنسان الذي يخوض في أعراض الناس ويظلمهم لا يتصور أبداً أن يلقى من الحق - سبحانه - المعاملة التي يعامل بها الإنسان الملتزم بمنهج الإيمان ، فالقطرة تقول لنا : إن الحق يجازى كل إنسان بعمله ، سواء أكان الجزاء في الدنيا أم في الآخرة . ومن المأثور عن بعض العرب أنه قال . لن يموت ظلوم حتى ينتقم منه الله . ومن بعد ذلك مات رجل ظلوم ولم ير فيه الناس انتقام السماء ، فقال الرجل العربي :

والله إن وراء هذه الدار داراً يُجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » والبَسَلُ معناه : المص ، والمنع له صورتان : الأولى منع حركة حياة حي . . أى أن تحبس في مكان محدد يتحرك فيه ، والثانية : منع من أصل الحياة . أى أن تهلكه وتزهق روحه ، « تبسل نفس بما كسبت » أى تُمنع نفس بما كسبت ، والمنع إما بالهلاك أو بالحبس حبساً يديم عليها العذاب والحبس - في أعراف البشر - هو وضع إنسان في مكان لكفه عن ظلم غيره ، أى أننا نمنع شهود إنسان عن المجتمع بوضعه في الحبس .

وعندما جاء الإسلام لم يحبس فرداً إنما حبس للمجتمع من فرد ، وهذا عقاب أكبر وأشد ؛ فقد ترك الإسلام المجرم حراً في المجتمع ولكنه حبس للمجتمع عنه ؛ فالمجرم يحس فلا يجد من يكلمه أو يضحك له أو يمزح معه أو يشاركه حزنه .

وحدث ذلك عندما حبس المؤمنون أنفسهم عن ثلاثة تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أن إساناً منهم جاء ليُفرب امرأته فرفضت . وحاول ثمان أن يسلم على ابن عمه لما رد عليه السلام مجلس يبكى . وقاطع كل الناس هؤلاء الثلاثة ، وهذه هي عظمة الإسلام ، لقد سجن المجتمع من المجرم فتعذب المجرم بقطعة المجتمع له .

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » أى ذكر بالقرآن أو بالمنهج أو بعاقبة معاملة الإنسان للمنهج . والعقاب إم حبس وإما هلاك ، وذلك بسبب ما تكسب النفس . والكسب في اللغة معناه زيادة على رأس المال . وللكلمة اشتقاق ثان وهو « اكتسب » . ومرة تأتي الكلمتان في معنى واحد ، فالكسب يحدث دون افتعال ودون

تعب أو مشقة ، أما الاكتساب فهو يحدث بافتعال وبمعاينة وعنت ؛ لأن الذي يصنع المحرم يأخذ أكثر من قلرة ذاته ، فيكون قد اكتسب . أما الذي يأخذ الأمر المشروع له فهو قد كسب . ولكن بعض الناس تأخذ ما اكتسبوه باحتيال ومكر ويظنون أنه كسب وهذا هو الشر ؛ لأنه يأخذ غير المشروع به ويحمله لنفسه ، ويعتبره كسباً لا كسباً .

ولذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ هَآءَا مَا كَسَبَتْ وَعِيبَهَا مَا أَكْتَسَبَتْ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة النمل)

إن هاء أي لصالح النفس ؛ لأنها أخذت ما هو حق لها وه عيبها أي عيب النفس ؛ لأنها افتعلت في أحد ما ليس حقاً لها ومثال ذلك نظرة الرجل إلى زوجته ، إنها نظرة طيبة إلى حلال طيب لكن نظرة الرجل إلى امرأة غيره قد تحتوي من الافتعال الكثير ؛ فهو ينغمس ليراه ، ولا يربع في أن يراه أحد وهو يحتسب النظر إليها ، وهذه كلها أفعال متعلقة .

ومثال آخر . سيدة البيت عندما تدخل إلى مطبخها فتناول شيئاً لتأكله ، إنها تأكل من حلال مال زوجها ، أما الخادمة فعندما تريد أن تأخذ قطعة من اللحم من المطبخ دون علم أهل البيت فهي تنغمس ، وتحاول معرفة عدد قطع اللحم ، وقد تتسائل بينها وبين نفسها : أم تقم ربة البيت بحصر عدد قطع اللحم ؟ ولذلك فهي تأخذ من كل قطعة لحم قطعة صغيرة . وهذا الافتعال يتعب الجوارح ؛ لأن مثل هذه الأمور تتعب ملكات الإنسان ، به يحاول أن يرضى ملكة واحدة فيتعب كل ملكاته الأخرى .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبَلِّغَ نَفْسُهَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾

وَأَن تَعْدِلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

إذن فهذه النفس التي تحبس وتسلم نفسها إلى الهلكة والعذاب بسوء كسبها ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، ولا تبطل منها عدل . وهذه مراحل متعددة تبدأ بقوله الحق : « ليس لها من دون الله ولي ، والولي هو الذي ينصرك إن كنت في مأرق »

ومازق الأحره كبير ، فماذا عن الإنسان الذي ليس له ولاية ؟ إنه العذاب الحق .

والمرحلة الثانية « ولا شفيع » أى ليس له من يشفع عند من يملك النصرة وهو الله ؛ فالذى يحببك إن لم يصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند من يستطيع أن يصرك . وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتذكر ويتعظ ولم يتبع المنهج الإيماني .

والمرحلة الثالثة « وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها » أى أنه لا تقبل منه فدية هذه المالفد الثلاثة قد مُدّت ولا سبيل لمنجاة لهؤلاء الذين قال فيهم الحق : « أولئك الذين أبسلوا بما كسروا » أى أنكروا أو حُسبوا من لجميع حيساً لا فكاك منه ، وليس هذا فقط ولكن الحق يقول أيضاً . « لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

إن كلمة « شراب » إذا سمعناها ميساً نفهم منها الرى . ولكن الحق هنا يتسع كلمة « شراب » لتحديد مصدر هذا الشراب ، إنه « من حميم » ليحدث ما يسمى « انبساط » و « انقباض » ؛ فالشئ الذى يسر الإنسان تنبسط له النفس والشئ الذى يحزن الإنسان تنقبض له النفس . ولو أن الأمر المحزن جاء بداية فى هذا القول الكريم لا تنقبضت النفس فى المسار الطبيعى ، لكن الحق شاء أن يأتى أولاً بكلمة من يسميها « شراب » وهى « شراب » ثم تبعها بما يقبض النفس « من حميم » لتكون الألم أليم . ألم زوال السرور ، وألم مجيء الحزن

ويصور القرآن فى موضع آخر هذه الصورة فيقول :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا يُعَاقَبُوا بِمِاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ (سورة الكهف)

وبسط النفس حين تسمع الجراء الأول وهو « وإن يستغيثوا يغاثوا » ولكيها تنقبض فور سماعها « بماء كالمهل يشوي الوجوه »

ومررة أخرى عندما يقول الحق

﴿ ... فَشَرُّهُمْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٤) ﴾

(سورة التوبة)

وتنيسط الشمس كما علمنا - حينما تسمع خبر البشارة ؛ لأن البشارة تأتي للأمر المفرح ، وتنقص عندما تعلم أن البشارة هي بالعذاب الأليم . إذن فقد جاء الحق بالانسياط ، وجاء بالانقباض . وهذه سنة من سنن الله في التأديب . ومثال على ذلك : عندما يرتكب إنسان مظالم كثيرة ، وتفاقم واسفحل شره ويريد الله أن يتقم منه ، إنه سبحانه لا يتقم منه وهو على حاله الطبيعي ، إنما يرفع الحق - سبحانه - هذا الظالم إلى درجات عالية ثم يخسف به الأرض

ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ۖ ﴾ (٤٤)

(سورة الأنعام)

وساعة تسمع « فتحنا عليهم » مانت تعاف ؛ لأن المتع هنا عليهم « وليس لهم » . لكك ساعة تسمع قوله الحق .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾ (٤٥)

(سورة الفتح)

فإليك تحس بالاشراح والسرور ؛ لأن الفتح هنا لصالح المتلقى وليس عليه هكذا يريد الحق أن يهتلي المتجبرون بالعذاب المضاعف :

﴿ .. لَهُمْ شُرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ ﴾ (٤٦)

(سورة الأنعام)

والعذاب هنا نتيجة لما فعلوه وليس فعل جبار متسلط . أما غيرهم من المشاوين معهم في الملكات ، واختاروا الخير فأمسوا بالمهيج وطبعوه على أنفسهم فقد نالوا الخير بما فعلوا ، والتكوين الإنساني في ذاته صالح لعمل الخير ولعمل الشر ، وسنة الحق واضحة جلية

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾ (٤٧)

(سورة الزلزلة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا
وَنُرِدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِدْهَانِنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ
الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى
الْهُدَى أَتَيْنَا قُلُوبَهُمْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا
لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

هذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها ، ما الذى صنعت تبت لأصنام
أو غيرها لمن عبدها ؟ وماذا صنعت لمن لم يعبدها ؟ وهذا أول مطلق من بطلان
الوهمية غير الله ، فمن عبد الشمس مثلا ماذا أعطته الشمس ؟ ومن كفر بها كيف عاقبه
الشمس ؟ إنها تشرق لمن عبدها ولمن لم يعبدها . والصلة الذى عبدوه . ماذا
صنع لهم ؟ لا شيء . وهذا القسم لم يترك عقدة على من لم يعبد . بل إن الذى
انصح هو من لم يعبد الأصنام ، لأنه يعمل فكره ليبحث عن حائق لهدى يكون
ومكده بعد الصبح والصر إنما يأتيان من الإله الحق . وورد على أعقاب بعد يد
هدانا الله . والإنسان دائما حين يسير فهو يقطع خطوة إلى أمامه فيفسر نفسه
أمامه ، أما من يرد على عقبه فهو من يرجع هذه الخطوة التى حصدها

وهذا حديث المؤمن الدبر يرهصون أن يعودوا إلى عبادة غير الله لأنهم صو
وساروا في طريق الهدى ، وليس من المطلق أن يرتدوا على أعقابهم وأن يفسدوا
خاسرين

كالذى استهوته الشياطين في الأرض ، كلمة « شيطان » مقصود بها عصى
الحق والجنح عصى مقابل للإنس ، وماداه في الإنس مدثعون وعصوب فكذلك في
الجن طائعون وعاصون

والحق قال

﴿ قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الْرُّشْدِ فَكُنَّا بِهٖ وَلَكِن لَّنَشْكُرُ ۝ يَرِيئُنَا أَحَدًا ۝ ﴾

سورة الجن :

إذن فمن الجن من هو مؤمن ومن الجن من هو عاصي والعاصي من الجن يسمى شيطناً . وإليك أن نكرأيها المسلم وجود الشيطان لأنت لا تراه ، لأن الشيطان من المخلوقات التي ذكرها الله من عالم الغيب ، وحجة وجودها هو تصديقك لمن قال عنها ، وهناك فرق منطقي وفلسفي بين وجود الشيء وبين إدراك وجود الشيء . والذي يتعب الناس أنهم يريدون أن يوجدوا ويربطوا بين وجود شيء وإدراكه . وهناك فرق بين أن يوجد أو يدرك ، ذلك أن هناك ما يكون موجوداً ولكنه لا يدرك .

﴿ قُلْ أَتَدْعُونِ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَصْرِفُ عَنَّا عَذَابَ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ ۝ ﴾

من الآية ٧١ سورة الأنعام :

جاء هذا التصور في صورة استهزام . إن الحق طلب من رسوله أن يقول ، فكان الصورة . أن قوماً هداهم الله إلى الحق فذُخِّعُوا إلى أن يعبدوا غير الله ويدعوا ما لا ينفع ولا يضر ، فبدعوا على أعقابهم ، أي بعد الهداية ، وهذه هي صورة العبرة والترداد ، لأنهم كانوا على هدى ، ثم ذُخِّعُوا إلى أن يعبدوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر . وأرد الحق سبحانه وتعالى أن يعطين صورة لهذه العبرة ، ولهذا الترداد ، فقال : « كالمى استهونه الشياطين »

و « استهونه » من مادة « استعمل » وتأتي دائماً لتطلب ، كقولنا « استعملهم » أي طلب منهم ، و « استخرج » أي طلب الإخراج لشيء . « فاستهونه » طلبت هُويته . أي جعلته يتقلد تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أي دليل أو حجة على صحة ما تدعوه إليه بأن صار عجيبة تشككه الشياطين كما تشاء ، وترد مادة « الهاء » والواو والياء « معاً » ، إن مُدَّتْ : فهي الهواء الذي تنفسه ، وما به أصل الحياة . وإن قُصِرَتْ : فإنها هي الهوى وهو ميل النفس إلى شيء ، أو تكون هُويّاً أي سقوطاً

إذن خلادة تأتي إما للنهار إن كانت ممدودة ، وإن كانت بالقصر فهي من الهوى
أو من الهوى ؛ كأن تقول : « هوى ، يهوى ، هوى » أى سقط من علو إلى اسفل ،
وهوى ، يهوى ، هوى . أى أحب ، وهكذا نعرف أن « استهونه » أى طلبت هوىه أو
هواه أى ميل نفسه إلى اتباع الهوى ، وحين تستهوى الشياطين الإنسان فهي تريد أن
تجذبته إلى ناحية هواه ، وتوقظ الهوى في النفس ، وبذلك تدعوه ليهوى . والحق
يقول :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي
مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٢١)

(سورة الحج)

وحين يحرّ عبد من السماء ، إما أن تتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان
سحيق ، وحين تأتي إلى الهوى واليهوى فاعلم أن الهوى يجلبك إلى ما يصرك ،
ولذلك لا نسلم منه إلا أن يكون هواك تبعاً لما جاء به الحق ، ولكن إن اتبع هواك
فلا بد أن يؤدي بك إلى الهوى :

﴿ كَذَلِكَ اسْتَهْوَتْ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

وما هي الحيرة ؟ هي التردد بين أمر ومقابلته وعرقنا من قبل أن الحيرة في هذه
الآية جاءت لمن اعتدى وسار خطوة للمنتهج ثم رُدَّ على أعقابهِ ورجع ، ولكن له
أصحاب يدعونه إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونه للمنتهج ؛
لذلك يكون حيران . بين هلوية ولجاجة ، والشئ الذي يهوى لا استقرار له ، وحين
نرى - على سبيل المثال - حجراً يهوى للأرض نجده يدور ، ولا اتجاه له . وهذه
صورة مميرة ، ويأتي له القول الفصل :

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَدًى ﴾

فمن يتبع إذن ؟ إنه يتبع الذين يدعونه إلى مهج الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الهدى

هو المنهج والطريق الموصل لل غاية ، والصنعة لا تضع غاية لنفسها ، بل الذي يضع الغاية هو من صنعها ، وسبق أن قلت : إنَّ التليفزيون لا يقول لنا غايته ، ولا يعرف كيف يصور نفسه ، بل يضع ذلك من صنعه ، وكذلك الإنسان عليه أن يأخذ عايته بمن خلفه ، والذي يفسد الدنيا أن الله خلق ، لكن الناس أرادوا أن يضعوا لأنفسهم قانون الصيانة ، لذلك نقول : إن علينا أن نأخذ قانون الصيانة ممن خلقنا ، وهدي الله هو هدي الحق .

وجاءت « الهدي » هي لتعطينا يقيناً إيمانياً في إله واحد ، وحين توجد عقيدتنا في إله واحد ، لا تحتلأ أهواؤنا أبداً ؛ لأنه هو الذي يضع لنا القانون ، وساعة يضع لنا القانون ويكون كلُّ منا خاصصاً لقانونه ، لا يدل أحد منا لأحد آخر ؛ فأنا وأنت عبيد لإله واحد ، ولا غصاصة عليك ولا غصاصة علي . وحين يريد الشر أن يسير الناس على أفكارهم فإن صاحب الفكر يريد أن يدل الآخرين له ويأخذهم عن منهجه وعلى مبدئه ، وهو في الحقيقة ليس أفضل منهم ، ولذلك تجد الهداية الحققة حين نخضع جميعاً لإله واحد ، وينساند المجتمع ويتعاضد ولا يتعاند ، ويتوجه المهوى إلى محبة منهج الله

﴿ وَلِرَأْيِنَا أَلْحَقَ أَهْرَاءَهُمْ نَقَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

من الآية ٧١ سورة المؤمنون ،

وهذا جاء الدين ؛ لأن الشرع لا يقرر شيئاً ضد الإنسان

ونذكر جميعاً قصة ملكة سبا ومبيدا سليمان عليه السلام حينما قالت : (وأسلمت مع سليمان) ولم تقل : أسلمت لسليمان بل أسلمت مع سليمان لله ، فلا غصاصة أن تكون قد أسلمت فهي ليست تابعة لسليمان ، بل تابعة لرب سليمان ، إذن حين يأتي التشريع من أعلى ، لا غصاصة لأحد في أن يؤمن ، ولا يظن واحد أنه تبع لأحد من كلنا عبيد لله . وحين نكون جميعاً عبيداً لواحد نكون جميعاً سادة

وتمثل الهدي في الإيمان بإله واحد ، وتأخذ هذا الإيمان يادلتنا العقلية إننا ندخل عليه من باب العقل ، وسلم أمرنا به ؛ لأنه هو أعلم بما يصلحنا .

﴿أَمْرًا يُسَمِّى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

وقوله تعالى :

﴿وَأَنۢ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ

تُحْشَرُونَ﴾

هنا نجد الأمر بثلاثة أشياء . نُسَلِّمُ لرب العالمين ، ونقيم الصلاة ، ونتقوا سبحانه ، لماذا ؟ ، لأن كل الأعمال الشرعية التي تصدر من الحوارح لابد أن تكون من ينباع عقيدة في القلب .

وكيف نسلم لرب العالمين ؟ أي نفس ما يريد ونستهي عما ينهى عنه ، ثم نقيم الصلاة وهو أمر إيجابي ، ونتقوا أي نتقنا الأشياء المحرمة وهو أمر سلبي ، وهكذا نجد أن الهدى يتضمن إيماناً عقدياً برب نسلم زمامنا له ، لتأتي حركتنا في الوجود طبقاً لما رسم ل في ضوء « افعل » و « لا تفعل » ، وحركتنا في الوجود إما فعل وإما ترك . والفعل أن نقوم بسيد الأفعال وهو الصلاة ، والترك أن نتقنا المحرم . وهذا كله إنما يصدر من السبوع العقدي الذي يمثله قوله : ﴿ نسلم لرب العالمين ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمر بفعل أو ينهى عن شيء فهو يعلم أنك صانع للفعل وللتترك ، فإذا قال لك : افعل كذا ، فأنت صانع ألا تفعل ، وإذا قال « لا تفعل كذا » ، فأنت صانع أن تفعل ، ولو كنت لا تفعل لأن تفعل لا يقول لك افعل ، لأنك مخلوق على هيئة تستطيع أن تفعل وتستطيع ألا تفعل ، وهذا هو الاختيار المخلوق في الإنسان ، أما بنية الكون كله فليس عنده هذا الاختيار

مثال ذلك : الشمس ، إنها ليست حرة أن تشرق أو لا تشرق ، الهواء ليس حراً أن

يهب أو لا يهب ، والأرض في عناصرها ليست حرة في أن تكسها أو لا تكسها ، لكن الإنسان يتميز بقدرته على أن يختار بين البدائل ، لذلك لا بد أن يكون صالحاً للأمور ، والخطأ إنما يأتي من أن تنقل مجال « افعل » في « لا تفعل » . أو مجال « لا تفعل » في « افعل » . والمؤمن يأخذ منطقياً « افعل » في مجال « الفعل » ، ومنطقياً « لا تفعل » في مجال « الترك » .

وحين تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهي يناسب التكوين البشري . وأنت تشترك مع اجساد من أشياء ، ومع النباتات من أشياء ، ومع الحيوان من أشياء ، وتضوق على الكل بقنرة الاختيار التي صممت الله إياها .

ونوضح هذا الأمر أقول : لنفترض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك في الجو عندئذ تسقط على الأرض ، وهكذا تجد أن لسانك الجسد يطبق عليك ، وليس لك إرادة أن تقول « لا أريد أن أبع » وهكذا يرى الحمادة فيك ، وانظر إلى « النمر » الذي لا تتحكم فيه ولا تقدر أن تقول « سأمر اليوم بزيادة في الطول فدها نصف اللبستر » بل أنت لا تعرف كيف تنمر ، وأنت لا تعرف كيف يبيض قلبك ، ولا سرّ الحركات السودية للأعضاء ، ولا حركة المعدة ، أو عمل الكبد ، أو حركة النفس التي بها تقوم الحياة ، وكل ذلك أمور قهرية ، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية ، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مفهوس في هذه المسائل ، ومسخرين فيها ، وبعد ذلك خلز لنا الاختيار في التكليف ، افعل ، ولا تفعل ، والتكليف من الله سبحانه وتعالى في الأفعال التي تقع من الإنسان لا في الاتصال التي تقع على الإنسان ، لأن الأفعال التي تقع من الإنسان هي التي فيها اختيار ويصحبها العقل أولاً ، ليفهم الإنسان بعد ذلك . ولذلك لا يكف ربنا إلا العاقل الناصح ، لأنه لا توجد قوة تقهره على غير ما يحتر . أما للجنون فليس عليه تكليف ، لأنه لم يُدر المسألة في رأسه قبل أن يفعل ، وكذلك من لم يهتج ، لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل ، وكذلك المتهور على فعل بقوة إنسان أو سلطان أقوى منه

وهكذا يعلم أن التكليف لا يلزم الإنسان في تلك الحالات حيث لا يوجد عقل أو يكون العقل غير ناضج ، أو أن يوجد فھر .

ويتابع الحق : ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ ولو أن امسألة - مسألة الإيمان - مجرد مظهر لا جوهر لما ترتب عليها نتيجة ، ولكن لستبه إلى أن هناك غاية . واضرب هذا لمثل - وطفه المثل الأعلى - مجد التلميذ مثلاً إن حصر الدرس أو لم يحضر ، استمع إلى المدرس أولاً ، ذاكر أو لم يذاكر ، ألا يظهر كل ذلك في شهادة نهاية العام ؟ .

إذن فالحساب قائم على كل فعل ، لأنك تتمتع أيها الإنسان بخاصية الاختيار . أي أنك صالح لتفعل أو لا تفعل ، ولذلك يرتبك الإيمان إلى العمل الصالح ، لأن هناك غاية ، إنك ستصير إلى من يحاسبك على أنك نقلت « افعل » في مجال « لا تفعل » ، أو « لا تفعل » في مجال « افعل » . فإن كنت لا تأخذ أمور الإيمان لصلاحية حياتك فتحملها خوفاً من الجراء والحساب ثم يقول الحق من بعد ذلك .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ
وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

والحق هو الشيء اثبات الذي لا يتغير ، وما دام الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير فلننظر إلى خلق السماء والأرض ، يقول سبحانه .

﴿ إِنْ أَفَّ يُنْكَ أَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا ﴾

وحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وهذه مسألة عجيبة ، ولذلك يقول سبحانه

﴿ يَغْيِرْ عَمَدَ ثَرَوَانَا ﴾

« من الآية ٢ من سورة المزمل »

وهنا يقول الحق : ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وذلك حتى نعرف أن خلق السموات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ، إنه خلقك أنت بخلق عجب ، وأعجب منه خلق السموات والأرض ، فهو العاقل .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة طه »

وحين ينظر الإنسان في تكوينه يجد أشياء عجيبة ، ويتحقق من قول الله .

﴿ وَإِنِ أَنْصَرْتُمْ أَفْئِدَةً لَا تَصِيرُونَ ١١ ﴾

« سورة الدارباب »

وحين نتأمل السماء والأرض نجد دقة الخلق ، فكان سبحانه قد جعل نفسك مقياساً ، بك ستعلم أحوالها تبعاً وأنت ستتهنى مع الأيام ، إلى سر جديد في هذه النفس ، هذا السر لم يعرفه الأولون ، لكنك حين تتقدم في البحث العلمي والآلات السبر والآلات الاحترار تتعرف وتكتشف هذا الجديد .

مثال ذلك ما يسمى بالاستطراق ، وكلنا رأينا الألوان المستطرفة التي نصح فيها سائلاً يمد في أنابيب متعرجة وأخرى مستقيمة ، فيرتفع السائل فيها بمستوى واحد وهو ما سمي بظاهرة الاستطراق ، وهناك استطراق مائي ، ويوجد أيضاً استطراق حراري ، ويمثل الاستطراق الحراري حين تأتي بالمدفأة في الشتاء ونجلس في الغرفة ، نشعر بالحرارة التي تشع من المدفأة ، وأنت تجد نفسك محتفظاً بدرجة حرارتك العادية وهي سبع وثلاثون درجة . ومن العجيب أنها تتساوى في البشر جميعاً حتى في القطب الشمالي والقطب الجنوبي ١١ علماً أن الاستطراق درجة حرارتك مع

الجو ؟ ولماذا لم يأنف الجو البارد من حرارتك لتساوى درجات الحرارة ؟

إن ذلك يثبت أن لك ذاتية تملك وحدة مستقلة عن الكون الذي تحيا فيه ، وتظل درجة حرارتك عند خط الاستواء ٣٧ درجة ، وفي القطبين ٣٧ درجة ، هذا عجب ، والأعجب من ذلك أن أجزاء جسمك المختلفة تختلف فيها درجة الحرارة ، فلو أن درجة حرارة العين ٣٧ درجة لانصهرت ، لذلك نجد أن درجة حرارة العين تسع درجات فقط ، وهناك الكبد الذي تبلغ درجة حرارته أربعين درجة ، وكل أعضاء جسمك وهي مجموعة في شكل واحد ومع ذلك لا تستغرق فيها درجة الحرارة . ولذلك قال الحق : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

ومثال آخر من عمية النفس ، حين تدخل درة من خباز في مجرى النهر نجد السعال قد حاجم الإنسان ليطرد هذه الدرة وتجد أنك قد سعلت فسرّاً إلى أن تطرد هذه الدرة ، فهل أنت قد سعلت بقرار منك ؟ لا ، بل هو عمل لا إرادي خاضع لنظام دقيق لا يمكن أن يصممه إلا خالق له مطلق الحكمة ، وعلى سبيل المثال نجد الكبد محروطة بتغليظات متتابعة ليحتفظ بحرارته التي تبلغ أربعين درجة ؛ لأنه لا يؤدي مهمته إلا عند هذه الدرجة . وكذلك نجد أن الأذن هي أول عضو يشعر بالبرودة ؛ لأن درجة حرارتها قليلة ، وهكذا أراد الصانع الأعلى . كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾

« من الآية ٢٢ سورة الأنعام »

لقد خلق الحق السموات والأرض بهاتين ثابته لا تتغير إلا بمشيئته ، فهو القائل :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهْرِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴿٥٠﴾

« سورة يس »

فيأن تروى النظام طيلاً على حكمة الخالق الموجد خفها في النظام الأعلى . وبما من تروى الشفوة طيلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية ، خفها في الأفراد ؛ لأنه

لو حصل شلوة في الكون الأعلى لفصلت السموات والأرض ، لكن عندما يوجد
أعشى واحد من ألف إنسان ، فلا يحدث خلل في الكون ، ولذلك نجد الشلوة إنما
يأتي فيها فيه عوص ، والنظام يأتي فيما في تركه فساد . كما يقول سبحانه :
﴿ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الانعام)

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحق ، وأيضاً حين يهزم سبحانه السماء والأرض
ويهي الدنيا ويريلها ، فتمور السماء ، والكواكب تتشر وتتساقط ، فإن ذلك يحدث
أيضاً بالحق ، فليس الخلق والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق بل إنهاء الخلق
وإفناؤه وإزالته أيضاً دليل عظمة ، لأنه سبحانه قال في البدء : « كن » فكان
الكون ، وفي النهاية يقول : « كن » فيكون إنهاء الخلق ليحطى للمحسن جزاء
إحسانه ، ويحاسب المسيء ، لأن المحسن قد يشقى بإحسانه طول عمره ، ولا بد له
من ثواب ، والمسيء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً . فمن الخير والعظمة أن تنتهي
الحياة ليأتي يوم الحساب لينال كل جزاءه .

إذن فخلق السموات والأرض حق ويوم يقول كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ ، فالخلق في
الإيجاد والحق في الإعدام ، إنه حاصل في بدء الخلق ، وفي نهايته .
﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ عَلِيمُ الْغُيُوبِ وَالشَّهِيدُ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الانعام)

وعمل كان الملك يوماً لمير الله ؟

في هذا المقام علينا أن ننتبه إلى أن فيه ملكاً ، ويقال لصاحبه مالك ، وفيه ملك
ويقال لصاحبه ملك ، والملك ما تملكه ، فقد تملك جديك الذي ترتديه . أما الملك
فهر أن تملك من يملك ، فهذا اسمه ملك ، ويريد سبحانه وتعالى في دنیا الأسباب
جعل لكل واحد ما ملكاً ، وجعل لبعض عليا ملكاً فبقوا ملوكاً ، لكن في الآخرة
لا يوجد شيء من هذا ، لذلك يقول الحق :

﴿ لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

١ من الآية ١٦ من سورة هود ،

وفي الدنيا قد تملك مثلاً أن توظفني عندك وتعطيني أجراً ، وقد تملك أنك تطع لي طعامي أو تعطيني طعاماً ، أو تملك أنك تخطط جليبي ، لكن في الآخرة لا يملك أحد لا أحد سواي ، لأننا نحن في الدنيا بالأسباب التي سبحانه الله إياها ، وفي الآخرة بالمصيب وحده دون أسباب

﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ ولو سلسلتها قبل أن ينفخ في الصور تجد الملك أيضاً لله ولكن بوسائط ، لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض أرض معاش ، وهناك الآخرة إنها أرض معاد ، لذلك قال

﴿ يَوْمَ تَمُوتُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾

من الآية ٥٨ من سورة يونس ،

والأرض التي نحيا عليها مخلوقة لاستعمارها ، وبحرث جرداً منها لنزرعه . وبما يترتب على جرد آخر ، وهكذا تكون المسألة كلها أسباباً يترافق بعضها مع بعض ، فأنا لا أستطيع أن أحرق إلا بمحراث ، وكذلك من يرغب في استخراج عنصر الحديد من الأرض يقيم منجماً ، ومن يرغب في استخراج التترول يأتي بالآلات التي تستكشف أماكنه ، ولا أحد يستطيع أن يملك كل أسباب حياته بل نوحده في يده راوية واحدة ، وبما في الزوايا في أيدي بقية الخلق .

وحين نسلسل الأسباب التي نحيا بها شرجع للحق سبحانه وتعالى ، نحين تنتهي يد المخلوق وأساسه تضيق به فإن يد الحائق جلت قدرته مبسوطة إليه دائماً ، وإياك أن تغرك الأسباب وتكن سلسل الأسباب إلى أن تنتهي إلى الله

ولو سلسلت كل ظاهرة من ظواهر الكون لوصلت إلى منطلق الحق ، فانطلق الصعير يرقب ظاهرة في البيت ، هي زر في الحائط ، عصف يضمطون عليه بأصبع واحدة يضيء المصباح ، فيقلدهم ، ونحن يراه أخوه الذي يدرس الإعدادية يقول له :

لا تصدق أن الضوء يأتي من هذا الزر بل هناك سلك قادم من خارج المنزل يربط بين صندوق الكهرباء والمنازل ، وحين يسمعهما من هو أعلى منهما علماً يشرح لهما أن الكهرباء الموجودة داخل هذا الصندوق قادمة من المولد الكبير الذي في موقع ما من المدينة ، وقد صمته المعامل والمقاول حتى ينتهي الشرح فيصل إلى فكرة التيار المكهرب المستخلص من شلالات الأنهار مثلاً .

إذن فكل ظاهرة تراها أمامك وراءها حلقات عجيبة لو سلكتها لوصلت إلى الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه قد أحترم ديننا وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلْكٌ ، ولكن نقول لكل مُلْكٌ : إن هذا المُلْك ليس بذاتك ؛ لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا المُلْك أبداً . وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ أَقْتَهُم مِّنْكَ الْمُلْكُ ﴾

ومن الآية ٧٦ من سورة آل عمران .

إذن فليس هناك من له المُلْك بذاته إلا الله

والحق يقول هنا :

﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

من الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

ينفخ في الصور تفيد الإيدان بمقدم أمرها ، فيعد النسخة الأولى يموت من كان حياً ، وبعد النسخة الثانية يصحو الموتي ويقومون

وكلمة ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فعن باب أولى أنه يعلم المشهود وهذا تعبير دقيق ، وأنه يعلم الغيب ويعلم الشهادة وعلمه يترتب عليه جراه لا عن تحكم ، ولكن عن حكمة

ويذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ والحكيم هو الذي يصع كل أمر في مكانه ، والخبير هو من يعلم كل شيء بإحاطة تامة ، وسبحانه ليس بحاجة إلى أن يظلم أحداً ؛ لأن من يظلم إنما يريد أن يتفجع بالشئ الموجود لدى المظلوم ،

وربنا لا يتنعم بحاجة من هذه ، بل يتنعمنا جميعاً ، ولذلك إذا نظرت إلى الإيمان نجد
كله عزة ، وأنت تجد الناس تكرر كلمة « عبودية » ، ويقوم حروب من أجل تحرير
البشر من عبودية البشر ، أما عبودية بشر للحق فأمرها مختلف ، لأن العبودية للبشر ،
نجد فيها أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن العبودية لله نجد فيها أن العبد يأخذ خير
سيده ، وهكذا تكون العبودية لله عزة ، أما العبودية للبشر فهي ذلة

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه بصفة العبودية فقال :

﴿سَخَّرَ اللَّهُ لِي أَمْرِي وَعَمَلِي نَحْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾

« من الآية ١ من سورة الاسراء »

فقد أحلص صلى الله عليه وسلم العبودية لله ، فأخذ من ميوضات الحق بما ياب
عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عدل ثم ملء حديث : فإن لا بأحدى سنة ولا يوم ،
وأما قيوم ، وإن احتجت منى إلى شيء ما فادعنى وسأمد لك يد العون بما يأسك ،
فهل فى هذه العبودية لله شيء غير العزة ؟ !

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَا زَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا
ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

والحق سبحانه وتعالى يعطى له صلى الله عليه وسلم ما يسليه ويصبره عنى مشرب
الدهوة ، لأن الدعوة للإسلام من أوله أوهمت رسول الله وأصحاب رسول الله ، فربد
سبحانه أن يعطيهم مثلاً حدثت للرسول ، وها يأتى الحق بحبر عن أبى الأسياء سيدنا
إبراهيم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنعام)

وساعة أن تسمع « إذ » فافهم أن « إذ » ظرف ، أي واذكر جيداً الوقت الذي قال فيه إبراهيم لأبيه آزر « اتخذ أصناماً للهة » ؟ وما دمت تذكر هذه ، ففي التذكرة تسلية لك عما يصيبك في أمر الدعوة : وما وقف العلماء وقفة طويلة ، ونساءل بعضهم هل آزر هو أبو إبراهيم ، أو أن والده هو تلوخ ؟

وقلت من قبل إن الآية تمثل ما هو أصل للمرد ، فالأب ، والجد ، وجد الجد أب ، وأطلقت الآية على المساوي للأب ، مثل العم . وجاء مثل هذا في القرآن حين قال الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ ﴾

(من الآية ١٢٣ من سورة البقرة)

وأباه عن جمع ، وإذا ما علدنا هؤلاء الآباء لجمع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والكلام من يعقوب ، وأبوه إسحاق ، وإسحاق بن إبراهيم ، ورغم ذلك جاء سيدنا إسماعيل وسط هؤلاء الآباء ، فكأنك إن وزعتها قلت « إبراهيم أب ، ويبقى اثنان : هما إسماعيل وإسحاق . وإسماعيل هو أح لإسحاق ، كان القرآن نطق بأن العم يطلق عليه أب » .

وأقول ذلك لأصفي مسألة وقع فيها اللغظ الكثير ، فالبعض من العلماء قال : هل كان آزر أباً لإبراهيم ، والحديث الشريف يقول .

« خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء »^(١) .

(١) رواه ابن عدي في الكامل . ورواه الطبراني في الأوسط عن علي رضي الله عنه

فكان النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه من سلسلة نسب مَوْحِد لا يمكن أن يكون
للمشرك فيه مجال ، وأزر كان مشركاً ، وما دام الحق يقول في آية أخرى : ﴿ إِنَّمَا
الْمُشْرِكُونَ نجس ﴾ . فلو أن آزر الوالد الحقيقي لإبراهيم لكان سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم من ذريته . وأرى أنه عَمَّه ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم
قال : « ما زلت أتقل من أصلاب العاهرين إلى أرحام الطاهرات » ، وهو قول يدل
على أن نسب الشريف مطهر من الشرك من جهة الأبناء ومن جهة الأمهات ، إذن
فلا يصح أن نعتقد أن أبا إبراهيم هو آزر ، لأنه كان على هذا الوضع مشرك ، لكن
كيف تفسر قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزر ﴾ ؟

يقول : إِنَّمَا نَأْخُذُ اللُّغَةَ ، ونأخذ استعمالات القرآن في معنى الأبوة . والقرآن
صريح في أن الأبوة كما يطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه تطلق
كذلك على أحي الوالد أوصه . والدليل على ذلك أن القرآن الذي قال « لأبيه
آزر » هو بعينه القرآن الذي قال .

﴿ اٰمَنَّا بِرَبِّنَا مَا كَانَ لِيَٰٓخُفَّٰهُنَّ اِذَا حَضَرَ يَعْقُوْبَ الْمَوْتَ اِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُوْنَ مِنْۢ بَعْدِي قَالُوْۤا
نَعْبُدُ اِلٰهَكَ وَاِلٰهَ اٰبَآئِكَ ﴾

« من الآية ١٣٢ من سورة البقرة »

إذن آباء هي جمع أب ، وأبى الجمع ثلاثة . إبراهيم إذن وكذلك العم إسماعيل
يطلق على كل منهما أب ، وأيضا إسحاق وهو والد يعقوب ، هؤلاء هم الآباء
المذكورون في هذه الآية .

وهو نفهم أن أبوة إسماعيل ليعقوب إنما هي أبوة عمومة ؛ لأن يعقوب بن
إسحاق ، وإسحاق أخو إسماعيل . إذن فقد أطلق الأب وأريد به العم ، وبدلتنا
الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك حينما أخذ عمه العباس أسيراً فقال : ودوا
على أبي ، وأراد عمه العباس

وبعد ذلك يأتي لنقول : إِنَّمَا حين تطلق كلمة الأب في أعراسنا نعلم أن اللمعة التي
تشكلها لغة منقولة بالسمع ، مركوزة هي آذاننا ، يطن بها لساننا ، والعامية وإن كانت

نحرف القصيح إلا أن أصولها منقولة عن أسلافنا وأبائنا ، وهم حين يربطون الأب الحقيقي يقولون له أب ولا يأتون باسمه الشخصي ، فإذا جاء لك إنسان وقال لك : أبوك موجود ؟ . ولم ينطق باسم الوالد فهو يقصد ولذلك فعلاً لكن افرض أن لك عمًا ، فيقول لك السائل : أبوك محمد موجود ؟

لقد جاء هنا بتحديد الاسم العلم حتى ينصرف الذهن إلى السؤال عن العم ؛ لأنه لو أراد الأب الحقيقي لما ذكر اسمه وانكفى بالسؤال عنه بالآية فقط ، إذن ظلو قال الحق سبحانه وتعالى - ﴿ إذ قال إبراهيم لأبيه ﴾ . ولم يحدد العلم لقنا إن أزد هو والد إبراهيم وليس عمه وبذلك يكون هو جد رسولنا ، ولكن القرآن حدد الاسم وقال : «لأبيه أزد» أي ميز اسم الشخص لمخرج الأب الحقيقي من كلمة أب، وبذلك تنهى الخلقة في هذه المسألة .

ولماذا يطلب الحق سبحانه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر ﴿إذ قال إبراهيم لأبيه ﴾ ؟ لأن رسول الله جاء على فترة من الرسل وجاء في الامة التي واجهت الدعوة أول مواجهة وهي أمة العرب وعلى رأسها قريش ، وهو صلى الله عليه وسلم إن كان قد جاء على فترة من الرسل ، إلا أن إبراهيم يعيش في عقائد هؤلاء القوم ، لأن كل أمور إبراهيم للتسكبة كانت في هذا المكان ، فمثلاً همه ببيع ابنه وقضاء السماء لأبيه كانت في هذا المكان ، ورفضه للكعبة كان في هذا المكان ، والكعبة هي مركز السيادة لقريش ، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل .

لقد أراد الحق أن يوضح لقريش أن السيادة التي أنطقوها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وحده الكعبة ، لكتن قبيلة من القبائل ، لا سيطرة لكم ولا سلطان ، ولا جاء ، ولكنكم تعلمون أن تجلبونكم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ، ولا يتعرض لها أحد بسوء أبداً ، لأن الذين يتعرضون لكم سواء منهم من كان في الشمال أو في الجنوب سيأتون في يوم ما إلى الكعبة هذه ليؤدوا مناسك الحج ومستمكنون منهم في أثناء وجودهم في البيت . ولذلك قلنا حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْبَيْتِ ۚ أَمْ يَجْعَلُ كَيْفَهُمْ فِي تَرْغِيلِهِ ۚ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ

طَعْمًا أَتَّيِلَ ﴿٢٠﴾ تَزْيِيمٍ بِحَبَابَةٍ مِنْ حَبِيلِ ﴿٢١﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٢٢﴾

• سورة النحل •

إن الحق أتبعها بالقول :

﴿لَا يَلْبَثُ قُورَيْشٌ ﴿١﴾ لِمَنْفِعِهِمْ رِحْلَةَ الْإِنْسَاءِ وَالصَّوْغِ ﴿٢﴾﴾

• سورة قريش •

إذن لو أن البيت تعرض للهدم من أبرهة الحبشي لسقطت مهابة قريش ، وقد نصرهم الله لتظل لقريش رحلة النساء والمصيف ، ولذلك قال :

﴿فَتَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿١﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ حُوجٍّ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ غَوَافٍ ﴿٢﴾﴾

• سورة قريش •

إن رب هذا البيت هو الذي أحزهم وحماهم بوجود هذا البيت الذي رفعه إبراهيم

إذن فالقوم وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أن لهم صلة عقدية بإبراهيم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يدخل إلى قلوبهم بالحنان الذي يعرفونه لإبراهيم الذي هو سبب هذا العز وسبب هذا الجاه والسيادة وأيضاً لأن المواجهة العقدية إنما جاءت أولاً لعبادة الأصنام ، والصلاة في سيدنا إبراهيم كانت كذلك في عبادة الأصنام ، فهناك - إذن - ارتباطات متعددة فأتى الحق هنا بقصة سيدنا إبراهيم ليرقق بها قلب هؤلاء .

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر اتخذ أصناماً آلهة﴾ والأصنام هي شيء من الحجارة يصنع على مثال حي ، أما الوثن فهو قطعة من حجر خام لم يشكل أو يعالج أو يصنع كانوا يقدسونه ، وهكذا نعرف الفرق بين الصنم والوثن ، وكيف دخلت فكرة الأصنام على عقول الناس ؟ ومن أين جاءت ؟ .

نعلم أن الناس لهم أسباب مباشرة في الحياة : فالإنسان حين يتطلب الضوء يرى الشمس قد أشرقت ، وفي الليل يرى القمر قد طلع ، ويرى الجبال تعطى له الصلابة والقوة ، ويقف فيها يونياً .

إذن ففيه أشياء يرى الإنسان فيها السببية الظاهرة ، فيعتقد أنها العاقبة - وحين يرى هذه الأشياء ويظن أنها الفاعلة بظن أن لها قداسة سواء أكانت اشمس أم القمر ، إذن قبل أن توجد أصنام وجدت كواكب وكانوا يعبدونها - بدليل أن الحق يقول :

﴿ أَتَعْبُدُ أَصْنَامًا مِثْلَهُ ... ﴾ (٧٦)

(سورة الأنعام)

وبعد ذلك يأتي في النفاث ولا يأتي سيرة الأصنام

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ... ﴾ (٧٧)

(سورة الأنعام)

إن مقد كانت هناك علاقة بين الأصنام وبين الكواكب ، والأصل فيها أن الإنسان حينما يرى شيئاً يصعب ، يمسب إليه كل مع يحصل عليه ويرى له قوة يحترمها فيه ، ولم يتبه الإنسان إلى أن حائل هذه الأسماء ظيب ، فعبّد الشيء اظاهر له ، وعلم وجد الإنسان أن الكواكب تأمل وتعيب قال بعض الناس : لقيم أصناماً تذكرونا به ، وصار هناك صمم يمثل الشمس ، وصمم يمثل القمر ، وأحرى يمثل النجم الفلاني ، أي أن الأصنام إنما جعلت لتذكر بالأصل من الكواكب ، ولذلك أقول دائماً يجب على اناس ألا تغفل عن المسبب لأنه سبحانه - هو وراء الأسباب ، وكلما ارتقى العقل يستل الأسباب ، إلى أن تنتهي إلى مسبب ليس وراءه مسبب ، وإن انتهت يد المخلوق وعجزت في الأسباب تبدأ يد الخالق ، هالدين يفتنون بالأسباب هم الذين ينظرون إليها على أنها الفاعلة بذاتها .

ولذلك حينما أفضلت وسنرت قضية الدين في أذهان الناس بدأوا ينظرون إلى ما حولهم وما بينهم ، فتوجهوا بالعبادة له ، وكانوا قبل ان مسألة يحججون إلى الكعبة ويحجون الكعبة ، وحين يغتربون في كثير من الرحلات يأخذون قطعة من حجر من نوعية أحجار الكعبة في الرحلة الطويلة ، وحين يراه أحد من هؤلاء يطمش ، ولكن بطول الزمن انهدت هذه الأشياء بتقديس خاص يعزلها عن لأسباب

وهكذا عرفنا أن سيدنا إبراهيم خليل الرحمن كانت له عند العرب هذه المكانة ،

وكذلك عبد أهل الكتاب حتى أنهم ادعوا انتسابه لهم فيعضهم قال : إن إبراهيم كان
يهودياً ، وقال الآخرون إنه كان نصرانياً ، وجاء القرآن وهو يراحمه كفار قريش ،
وكذلك أهل الكتاب فيأتى الله بقصة سيدنا إبراهيم ليُعطينا قضية لعقائد ويوضحها
توضيحاً يؤنسهم بس له في نفوسهم ذكر

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَحْبُدُ أَصَاْمَةً لِّهَآءِ إِنِّي أَرِيتُ وَقَوْمَكَ فِي صُنْدِلٍ

صِينٍ ﴿٧١﴾

• الآية ٧١ سورة الأنعام •

والصلال أن تريد غاية فتصل الطريق إليها ، وكان الناس عندهم عايه في ذلك
الزمان أن يقدسوا ، ويعتدروا من يعمم عليهم بالعم إلا أنهم أخذوا الطريق ، وصروا
عند السب ، ولم يذكروا ولم يذكروا ما وراء السب ، ومن هنا جاء الصلال المسمى
فكان من طبيعة الإنسان أنه يتقدم بالولاء وبالمصروع وبالشكر لمن يرى نعمة منه
عليه ، لكنهم صلوا الطريق ، لأنهم ساروا في النعمة في حلقات الأسباب ،
ولم يصلوا بالأسباب إلى المسبب وهذا صلال ميسر لأنه فتنة خلقي في خلق ،
فالإنسان الأول الذي جاء وأقبل على عالم مخلوق له ، وأقبل على أرض وأبل على
شمس ، وأقبل على قمر ، وأقبل على نجوم ، وأقبل على سحب يمطر له الماء ،
وأقبل على جبال تملأه بالآفوات كان من الوجوب عليه أن يلمت لهذه المسألة ، لأنه
لم يصنعها ولا لدمى أحد أنه صنعها ، أما كان من الواجب أن يعكر تفكيراً يسيراً فهم
خلق له هذه الأشياء ؟

إن أنفه الأشياء تحتاج إلى صانع ، مثال ذلك الكوب الذي مشرب فيه الماء لا يكون
كوباً أمام أى واحد فيها إلا بعد أن انتف وتقلب في مراحل متعددة ممن اكتشف المادة
ومن صهرها كيماوياً ومن أنفق عليها إلى أن وصل إلى الكوب ، وكذلك
المصباح ، إن نظرنا إلى الأجرة التي حلقه وأسهمت في إيجادها لوجدناها أجهزة كثيرة
من إمكانات مالية إلى قدرات علمية ، من ماديات موجودة في الأرض إلى أن وصل إلى
هذا المصباح الذي يتغير كل فترة ، فما بالنا بالشمس التي تنير نصف الكون في

وقت ، ونصف الكون الآخر في وقت آخر وليس لها نطم غير ، ولم تقصر يوماً في أداء مهنتها .

وكثيراً ما درسنا في المدارس قصة من اخترع المصباح « ادسون » وكانت قصة هذا الاختراع تفيض بإعجاب من يكتبون عنها ولم نجد من يدرس لنا - بإعجاب وإيمان - دقة الشمس التي تنير الكون ، فالأفة أننا نقف فقط عند حلقات الأسباب ، والوقوف عند حلقات الأسباب هو رقة عقلية سطحية ، ومن أجل أن نزيد من صق الفهم لا بد أن نسلل السبب وراء السبب وراء السبب إلى أن نصل إلى مسبب ليس وراءه سبب . وأن نرفع أفئتنا لمن يأتي ليعمل لنا هذا المعجز ويقول لنا : لقد خلق الله كل الكون من أجلكم وصفاته سبحانه أنه لا مثيل له في قدرته ومطلق حكمته ، ومطلوبه هو منهجه

إذن فالرسل قد جاءوا رحمة لينقلونا وبينوا لنا هذا اللغز . فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأوضح : أنا الذي خلقت السموات ، وأنا الذي خلقت الأرض ، وأما الذي سخرت لك كل ما في الكون ، فهذه دعوة ، والدعوة إما أن تكون حفيظة فتمنن الإيمان به سبحانه ، وإما غير حفيظة ، فنسأل : من خلق الكون - إذن - غير الله ؟ . ولماذا لم يقل لنا صفاته ، ولم يرسل لنا ملاحاً عنه ؟ . ولأن أحداً لم يعمل ذلك إذن فالأكوهمية تليق لمن أبلفنا عن ذاته وصفاته وصنعتة عبر الرسل ، فلم يوجد معارض له ، وحين قال سبحانه : أنا إله واحد ، وأنا خلقت الكون ، وسخرته لكم فمن نصدق هذا البلاغ

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا ألا نقف عند الأسباب فقط حتى لا تقع في ضلال مبین ، ومن الواجب أن نبحث عما وراء الأسباب إلى أن تنتهي إلى شيء لا شيء بعده تنتهي إلى مسبب الأسباب ومالك الملك - جلّت قدرته

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ فَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ ۚ

وَالْأَرْضَ وَلِيكُونَنَّ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

أي كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مهين فسوره الله ملكوت السموات والأرض ما دام قد اهتدى إلى أن هناك إلهاً واحداً ، فالإله الحق بين له أسرار الكون :

والملكوت صيغة المتكلمة في الملك ، مثلها مثل « رحموت » وهي صيغة مبالغة من الرحمة ، والملكوت تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة ، فالذي يمشي وراء الأسباب، المشهودة له يأخذ الملك ، لأن ما يشهده ويحسّه هو أمامه ، والملكوت هو ما يعجب به ، إذن فيه « ملك » ، وفيه « ملكوت » ، الملك هو ما تشاهده أمامك ، والملكوت هو ما وراء هذا الملك

والمثال هو ما قال سيدنا إبراهيم حينما تكلم على الشركاء قال سبحانه ﴿ قُلْ أَنتُمْ عَدُوِّيَ إِلَّا رَبِّيَ الْعَلِيِّ ﴾ ﴿٧٥﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهَرَّبْتَنِي ﴿٧٦﴾ وَالَّذِي هُوَ بِطَيْبِي وَبَنِي ﴿٧٧﴾ وَإِذَا مَرِستُ فَهَرَّبْتَنِي ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِي ﴿٧٩﴾

« سورة الشعراء »

ونلاحظ هنا أن الأساليب مختلفة ، فهو يقول ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ ولم يقل « الذي هو خلقي » ، ثم قال ﴿ فهو يهدين ﴾ لأن أحداً لم يدع أبداً حذر الإنسان ، وهي قضية مسلحة لا تحتاج إلى تأكيد ، أما هداية الناس فهناك من يدعي أنه يهدي الناس وما يدعي من البشر يؤكد به هو ، وما لا يدعي من البشر كالخلق وإيمانه والإحياء لا يؤتى فيه بكلمة هو

ويتابع سيدنا إبراهيم ﴿ وَالَّذِي هُوَ بِطَيْبِي وَبَنِي ﴾ وهذا أمر سيدنا إبراهيم من كل الأسباب والحلقات الظاهرية إلى الحقيقة ، وحرف العيب ﴿ وَإِذَا مَرِستُ فهو يشمن ﴾ وهو بذلك يميز بين الوسيلة للشفاء وهم الأطباء المعالجون وإشدهم الأعظم وهو الله - تبارك وتعالى - لأن الناس قد تغشوا بالأسباب ويقول إن الطبيب هو من

يشمى ، ولذلك يتقل سيدنا إبراهيم من ظواهر الأسباب إلى بواطن الأمور ، ويتقل من ظواهر الملك إلى باطن الملكوت حتى نعرف أن الطبيب يعالج ولكنه لا يشمى ، بليل لنا كثيراً ما رأينا من يذهب لطبيب ويعطيه الطبيب حقنة فيموت المريض ، وبذلك يهسر الطبيب في مثل هذا الموقف من وسائل الموت :

سبحان من يرث الطيب وطبه
ويرى المريض مصارع الأسير

إذن ، ﴿ فهو يشفين ﴾ أى أن الشفاء من الله والعلاج من الطبيب
وبذلك جاء سيدنا إبراهيم بالاشياء التى يمكن أن يفن الإنسان فى أسبابها وأكدها
بـ ٥ حو .

وحين نظر إلى إبراهيم عليه السلام فى قصة العقيدة نجده قد أخذ سلطاناً كبيراً
يعترف به جميع الانبياء ، لأن ربنا قال فيه : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾
وكذلك قال سبحانه .

﴿ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَہْمُ يَكْتُمِبُ مَا تَأْتِيهِمْ قَالَ إِيَّيَّ جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِنَّمَا ﴾

ومن الآية ١١٤ من سورة البقرة .

أى إنك يا إبراهيم عامون أى تكون إماماً للناس ، وببشرية إبراهيم وظواهر الملك .
سأله الله أن تكون الإمامة فى ذريته ، وقال : ﴿ ومن ذريتى ﴾ .

أى اجعل من ذريتى أئمة ، فيقول الحق :

﴿ لَا يَنْتَظِرُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

ومن الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

لأن مسألة الإمامة ليست وراثية دم ، ولا يأخذها إلا من يستحقها . ولما : إن سيدنا
إبراهيم جاء بهاجر واثته إسماعيل منها وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند البيت
المحرم ، ويقول القرآن على لسانه :

﴿رَبِّتْ لَنَا امْكُتْ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
السَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

سورة ابراهيم

أى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وعن مسألة تعليم الحق له لأسرار الملكوت ،
وظل فى ذهن سيدنا إبراهيم ، أن الحق سبحانه - لا يعطى الإمامة من ظنم ثم
أوضح له أنه يجب أن تفرق بين خلافة النبوة ، وعطاء الربوبية فى الطعام . ويشمل
ذلك فى دعاء سيدنا إبراهيم :

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

دس الآية ١٢٦ من سورة البقرة

فكان إبراهيم حين طلب الرزق من الثمرات لمن آمن بالله واليوم الآخر لم يفرق فى
دعائه بين عهد النبوة والإمامة ، ومطلوبات الحياة ، فيقول له الحق : ﴿ومن
كفر .﴾

أى أنه سبحانه سيرزق بالطعام من آمن ومن كفر ؛ لأن الطعام ومقومات الحياة من
عطاءات الربوبية . أما المناهج فهى من عطاءات الألوهية ، والله سبحانه وتعالى
رب لجميع الناس ؛ لأنه هو الذى استدعاهم جميعاً . المؤمنين والكافرين ، والطائعين
والعاصين ، ومادام هو الذى استدعاهم إلى الوجود فهو لا يستهم الرزق .

﴿وَكَذَلِكَ تَرَىٰ إِبرَاهِيمَ مَتَكُوتًا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾

سورة الاسراء

ونزل من يسير على قدم إبراهيم عليه السلام يربط ويسهل بدت الحق سبحانه
وتعالى ، وفيه فرق بين الارتباط والتعلق بالذات ، والارتباط والتعلق بالصفات ؛
والذى يعبد الله لأنه رزاق ، ولأنه مفعول هو من يرتبط بالصفات . أما من يرتبط بالله لأنه
إله فقط وإن أقفره فهو من يرتبط بالذات ، وحين صلى سيدنا إبراهيم نفسه من كل

المقالة السابقة أوضح به الحق . أنت مأمور على أسرار كوس ، وأعضاء الحق الكثير
كما يعطى لكل من يحصل في الارتباط بحالقه يعطيه ربنا عطاءات من أسرار كونه
ويضرب الحق سبحانه لنا كثيراً من المثل في القرآن فيقول :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾

١ من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

أي أنك ما دمت مأموناً على ما عرفت من أحكام الحق لحركة حياتك وتعمده فإن
الحق يحترك أمياً على أسرار ، ويعطيت المزيد من الريادة .

ومعنى « تتقوا » أي أن تلتزم بمنهج الحق ، وإذا التحت بالمنهج الحق كنت في
القيود الدائمة التي لا تنقضي من الحق ؛ لأن الذي في معية لا يد أن يصلح الحق
عليه من واردات وعطاءات صفاته ما يجعل صلته بربه ويعلمته عليه . ومثال ذلك
ما حدث في « قصة الهجرة » ، تجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبا بكر في
الغار ، ويقول أبو بكر لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا . وهذه قضية
كونية مؤكدة ، ويرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بما ينقله من القضية الكونية
الظاهرة الواضحة إلى عالم الملكوت الحاصل ، ويقول . (يا أبا بكر ، ما ظنك
بأثنين الله ثالثهما^(١)) .

أي أنه يقول له : طمئن ، لن يراى أحد ؛ لأننا في معية الله ، وسبحانه لا تتركه
الأنصار . وحين يكون الضعيف في معية القوى فتكون القوى هو الذي يتغلب ،
فلا يصبح الضعيف ضعيفاً ، فحين يكون هناك ولد بين الأحداث الذين في مثل سنه
ويضطهدونه ويؤلمونه ويؤذونه ، ثم يرونه في يد أبيه لا يجرؤ أحد منهم أن يأتى إلى
تأخذه ، والناس لا يقدر بعضهم على بعض إلا إذا اتفقتوا في معية الله ، ومن في
معية الله لا يجترأ عليه أحد أبداً . ولذلك يرسل لنا ربنا قضايا الملكوت وقضايا
الملكوت ، ويمثلها في رسول من أولى العزم من الرسل مع عبد صالح أتاه الله شيئاً
من حلمه وبيعه لأنه اتقاه .

(١) رواه البخاري ومسلم

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ وَأَعْلَنَهُ مِنْ لَدُنَّا عَلِيًّا ۝٥٦ ﴾

« سورة الكهف »

إن هذا العبد قد أخذ منهج الرسول الذي جاء به واتبعه ، فأداه حق الأداء فأنصل بالحق فأعطاه الحق من لده علماً . ونحن ننظر في هذه القضية نتعجب لأننا نجد سيدنا موسى - ينظر في عالم الملك بينما ينظر من آتاه الله من لده رحمة ومن عنده علماً ينظر من عالم الملكوت ، وموسى معذور ؛ لأنه ينظر في دائرة الأسباب ، والعبد الصالح معذور هو الآخر لأنه ينظر في دائرة ثابته ، ولذلك سوفون العبد الصالح . ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ .

أى أن المسألة ليست من ذاته ، بل هو مأمور بها . ونحن ننظر إلى تقدير موقف كل منهما للأخر نجد العبد الصالح يقول : ﴿ إنيك لن تستطيع معي صبرا ﴾ . أى أن العبد الصالح يعذر موسى ، ويضيف :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، خَبِيرًا ۝٥٧ ﴾

« سورة الكهف »

فيقول القرآن على لسان موسى :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٥٨ ﴾

« سورة الكهف »

فها هو ذا الرسول الذي جاء ليبلغ المنهج بطبع عبداً صالحاً طبق المنهج من رسول سابق ونفله كما يحب الله ، والتحم بالمنهج ، وجاء لنا ربنا بهذه الفصة مع رسول من أولى العزم ويتلقى موسى عليه السلام الأمر من العبد الصالح .

﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٥٩ ﴾

« سورة الكهف »

لماذا ؟ لأن العبد الصالح يعلم أن موسى سيتكلم عن عالم الملك ، وهو يتكلم من عالم الملكوت .

وحين ركبنا السفينة ، وخرقها العبد الصالح ، والخرق إفساد ظاهري في عالم الملك . يوضح سيدنا موسى للعبد الصالح أن هذا الفعل إنحلال بالقانون ، وكيف يمتدني على السفينة بالإفساد ؟ غيرد العبد الصالح : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ، وليست لك حاقة على مثل هذه المسائل ، فيذكر موسى ، ثم تأتي حكاية الغلام ، وحكاية الجدلي .

وحين ندقق النظر في هذه الأمور نجد عالم الملكوت يصحح الأمور الشاذة في عالم الملك ، فخرق السفينة إفساد ظاهري لكن إذا علم موسى أن هناك ملكاً يأخذ السفن السليمة الصالحة ويستولي عليها غصباً وهذه السفينة لمساكين يعملون في البحر ، ويريد للعبد الصالح أن يحافظ لهم على السفينة فيخرقها حتى لا يأخذها المختصب ، وحين يقارن الملك المختصب بين سفينة سليمة وسفينة مخروقة فلن يأخذ السفينة غير السليمة ، ويمكن لأصحابها إصلاحها .

إذن لو علم موسى بهذه المسألة ، ألا يجوز أن يكون موسى هو الذي كان يقوم بخرق السفينة ؟ إنه كان سيخرقها ، إذن لو علم صاحب نظرية الملك ما في نظرية الملكوت من أسرار ، لفعل هو الفعل نفسه . وحين تأتي لقتل الغلام ، لابد من التساؤل : وما ذنب الغلام ؟ فيفسر العبد الصالح الأمر :

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَحَشَبَ أُنْثَىٰ مِنْهُمَا طَعِيمًا وَكُفْرًا ۝٥٠﴾

سورة النجم ،

والأبوان قد يدلان هذا الابن ، وطعمانه من مال حرام ، ويكون فتنة لهما ، فقتل الغلام لخطأ على الإيمان ، وعجل ربنا بالولد إلى الجنة مباشرة .

وفي مسألة الحنابل نجد الخلاف بين رؤية عالم الملك ، ورؤية عالم الملكوت . ففي ظاهر الأمر أنهما حين أتيا أهل القرية طلباً للطعام ، وطلب الطعام شهادة صدق

على الضرورة ، لأنه ليس طلباً للنقود ، فقد يطلب أحد النقود لينخرها ، لكن من يقول : « أعطني رغيفاً لأكل » فهذه أية صدق الضرورة في طلب الطعام ولكن أهل القرية أبوا أن يضيفوها ، إذن هم لثام لا كرام . ويرى العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض ، وأيلاً للسقوط فتقامه ، وغضب سيدنا موسى ، سبب غضبه أنه والعبد الصالح استطاعا هؤلاء قلم بطموحهما ، فكيف تبنى جداراً لهم ؟ ! وكان يصح أن تأخذ عليه أجراً ، وغضب سيدنا موسى سببه ظاهراً ، لكن العبد الصالح يشرح المسألة .

لقد أقام الجدار لأن أهل القرية لثام ولم يعطونا طعاماً ، ولو وقع الجدار وظهر الكثر تحتهم أمام لثام بهذا الشكل لسرقوه من أصحابه ، وهم أطباع ، وقد بناء العبد الصالح بهنسة لهمانية ألهمه الله بها بحيث إذا بلغ الولدان الرشيد يقع الجدار . أي أنه بناء موقوت ، مثلما تضبط المنبه على وقت محدد ، كذلك الجدار بحيث إذا بلغ الولدان الرشيد يقع الجدار ويأخذان الكثر .

وهذا يوضح لنا الخلاف بين عالم المُنْكَ ، وبين عالم الملكوت ، فعالم الملكوت هو الذي يغيب عنا وراء الأسباب . وكثير من الناس يقف عند الأسباب ، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر ، إلى أن ينتهي إلى سبب ليس بعده سبب .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾

سورة الانعام

فهل تيقن لو لم تيقن ؟

وه « موقنين » جمع « موقن » والجمع أقله ثلاثة ، واليقين يتقسم إلى ثلاث مراحل : يقين يعلم من تلقى فيه لأنه لا يكذب ، ويقين يعين ما تخبر به ، ويقين بحقيقة المخبر به . وحين عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في سورة التكاثر قال :

﴿ أَلَمْ نَكُرِ الْتَكَاثُرَ ۚ ۱ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَنَازِلَ ۚ ۲ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ۳ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ

تَعْلَمُونَ ۚ ۴ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ ۵ ﴾

سورة التكاثر

إذا أخبرتمكم بهذا الخبر هو الصورة العلمية ، وكان يجب أن يكون ما أخبركم به علم اليقين .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿١﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٣﴾ ﴾

« سورة النكاح »

لأننا سوف نرى النار في الآخرة ، لكن لم تأت حقيقة اليقين ، وجاءت حقيقة اليقين في سورة الواقعة :

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَمْحَصِبِ الْيَمِينِ ﴿١﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَمْحَصِبِ الْيَمِينِ ﴿٢﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ الْبَاطِلِينَ ﴿٣﴾ فَزُلْ مِنْ جَحِيمٍ ﴿٤﴾ وَتَعْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٥﴾ إِنْ عَلَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٦﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقا من المؤمنين في كل أدوار حياته ، لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك ، ما وراء مظاهر الأشياء ، وعراقبها فمثلا عندما أخذ ليطرح في النار جاء له جبريل ليقول : ألك حاجة ؟ قال سيدنا إبراهيم : أمّا إليك فلا .

ويقول ذلك وهو يعرف أن النار تحرق ، ولكن هذا ظاهر الملك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا إبراهيم يعلم أن الذي خفيها جعلها محرقة ، ويستطيع ألا يجعلها محرقة ، وهو متيقن به ، ولذلك لم يطفئ الله النار بظواهر الأسباب ولكن جعلها الله نارا لعلاق حصومه ، فأصبح الحق : يأنار أنا خلقت فيك قوة الإحراق ، وأما أقول لك الآن : لا تحرق .

﴿ فَلَمَّا يَنَّا رُكُونِي بَرْدًا وَسَنَآ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١﴾ ﴾

« سورة البقرة »

إذن إبراهيم يعرف هذه الحقائق المستتمة وراء الملك الظاهر ، وهذا من الابتلاءات الأولى في حياته ، ويملك أن يرد على سيدنا جبريل لحظة أن سألته قل أن

يلغو به في النار . ألك حاجة ؟ يقول إبراهيم : أما ليك فلا .

ثم يأتي له الابتلاء في آخر حياته بذبح ولده . ونعلم أن الإنسان ثمر عليه أضرار تكوين دأبه ، وأحياناً تكون الذات هي المسيطرة ، وهي طور آخر تبقى دأبه لولاده فوق ذاتيه ، أي أنه يحب أولاده أكثر من نفسه . يحمي أن يحقق لأولاده كل ما فاته شخصياً . فلما كبر إبراهيم ووجه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح منه إنه ابتلاء شديد قاس ، وهو ابتلاء لا يأتي بواسطة وحى بل بواسطة رؤيا . وكلنا نعلم أن رؤيا الأنبياء حق ، لكن إبراهيم يعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا أن يستسلموا لقضائه ، ولذلك إذا رأيت إنساناً طأن عليه قضاء ربه في أي شيء ، في مرض ، في مصيبة ، في مال ، أو غير ذلك فأعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لانتهى القضاء . والقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولا يستطيع أحد أن يلجأ بدخايقه . إذن فالتسليم هم الذين يطلبون على أنفسهم أمد القضاء .

ولذلك عرف سيد إبراهيم هذه القضية . قضية فهمه لعالم المكنوت . ولما قيل له : اذبح ابنك ، لم يرد أن يمر به بغيره . يحط على تصرف أبيه ، لأنه إن أحده من يده وفي البلد الأخرى السكين فلا بد أن تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط ، فيحرم من الجزاء ، فيبس له المسألة . ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم :

﴿ يٰٓيَبْنَـٰى اِنِّىۤ اَرٰى فِىۤ السَّمَآءِ اَنِّىۤ اَذْبَحُكَ ﴾

من الآية ١١٢ من سورة الصافات .

وهذا القول يريد به إبراهيم أن يبال به ثواب الاستسلام وهو دليل محبة إبراهيم لولده ، فماذا قال إسماعيل .

﴿ بَنَاتِۦ اَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىۤ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِىۦنَ ﴾

من الآية ١١٣ من سورة الصافات .

قال إسماعيل ذلك بياحد عبودية الطاعة . ويؤكد القرآن رضاه إبراهيم وانه بالقضاء ليقول :

﴿ قُلْنَا إِنَّمَا أَنَا وَاللَّجَيْنِ ﴿١٥١﴾ ﴾

« سورة الصافات »

وهذا القول بالقضاء هو ما يرفعه . لذلك يقول القرآن بعدها :

﴿ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْ أَبَاهُ ﴿١٥٢﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّبِّيَّ إِنَّا كَاشِفُكَ الْعَمْسِ ﴿١٥٣﴾ ﴾

« سورة الصافات »

ويغنى الله إسماعيل بذبح عظيم ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يرزق الله إبراهيم بولد آخر ، لأنه فهم ملكوت السموات والأرض ، وعرف نهاية الأشياء . فلماذا ما أصيب الإنسان بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ويقول : مادامت هذه المصيبة لا تدخل لحركتي فيها ، وأجرها عني خالقي فهي اختيار منه - سبحانه - ولا يوجد خالق يفسد ما خلق . ولا صانع يفسد ما صنع ، ولا بد أن لذلك حكمة عند لا أنهما أنا ، لكني واثق في حكمته .

إن طريق الخلاص من أي نائبة من النوائب أن يرضى المؤمن بها ، فنتهي . ومن تحدث به مصيبة بأن يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن في البيت ، ونكي الأم كلما رأت من في مثل منته فسيظل باب الحزن مفتوحاً ، وإن أرادوا أن يزيل الله عهما هذا الابتلاء فليقتلا باب الحزن بالرضا . ولنعلم كل مؤمن أن ما أخذ منه هو معوض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذي قبضه الله إليه وترفاه معوض بجزاء خير مما يترك في الدنيا ، ولذلك يقال : المصاب ليس من وقعت عليه مصيبة وفارقه الأحبيب ، بل المصاب من حرم الثواب ، فكأنه باع نكته بثمن بحس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكِبَ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴿١٥٤﴾ ﴾

﴿ قُلْنَا أَفَلَمْ قَالَ لَا أَحِبُّ إِلَّا فِدَيْتَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

وه جن ، تفيد الستر والتغطية ، ومنها « الجنون » أى ستر العقل ، وه جن الليل ، أى الظلم وستر حشك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك . وه الجنة ، كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التى تستر من يمشى فيها ، إذن السادة كلها تفيد الستر .

وكلمة « كوكب » تفيد أنه يأخذ ضوءه من غيره ، ونفهم من الآية أن إبراهيم كان فى ظلمة ثم طلع الكوكب فرآه ، ثم غاب الكوكب أى انتقل من بزوغ وولوج إلى أهول ، وقديماً كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ، وجاء لهم إبراهيم من جس ما يعبدون . وقال : « لا أحب الأفلين »

ويتابع الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّارَهُ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ

قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ

الضَّالِّينَ ﴿ ٧٧ ﴾

وهنا قال إبراهيم عليه السلام : هذا ربي ، ووقف العلماء ها وتساءلوا . كيف يقول إبراهيم هذا ربي ، وهى جملة خبرية من إبراهيم ، وكيف يجرى إبراهيم على نفسه لفظ الشرك ، وأراد العلماء أن يخلصوا إبراهيم من هذه المسألة . ونقول لهؤلاء العلماء : جزاكم الله كل خير ، وكان يجب أن تؤخذ هذه المسألة من باب قصير جداً ، لأن الذى نكـ : إن إبراهيم قال : هذا ربي ، هو الذى قال فى إبراهيم :

﴿ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

« من الآية ١٢٤ سورة البقرة »

إذن فقوله ﴿ هذا ربي ﴾ لا تخش فى وفاته الإيمانى ، ولا بد أن لها وجهاً . وتعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ، فلما أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم : يا كذابين ، يا أهل الضلال ، وظل يوجه لهم

الباب لما اهتموا به ولا سمعوا له . لكن إبراهيم استغنى ما يسمى في الجدل
« مجازاة الخصم » ؛ ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل
عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

مثال ذلك في حياتنا ، نجد رجلاً له ابنة وجاء لها خطيب ، وهذا الخطيب قصير
جداً ، بينما ألينت - ما شاء الله - طويقة ، وحين جاء الخطيب ليرأها ونراه تقول
لامها : هذا خطيبي ١٩ وهذا القول يعني أنها تنكر أن يكون هذا الفصير عنها هو
خطيبها ، وحين قال إبراهيم : ﴿ هذا ربي ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكركب
أو ذلك الفسر أو تلك الشمس هي الرب .

ولم يحظ أنه يحدد لهم مصير من بعد تلك الكواكب ، فقال : ﴿ لئن لم يهدي ربي
لاكونن من القوم الضالين ﴾ ، وفي هذا معرفة بمن هدى أو على ضلال ، ويكون
قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ لو أن من التهمك ؛ لأنهم قالوا بما جاء به القرآن على لسانهم :
﴿ أهذا الذي يدكر ألهتكم ﴾ .

فكانه قال : سلمت جدلاً أنه ربكم ، لكنه يأمل ويهيب عنكم ، وقوله : ﴿ لا أحب
الأميين ﴾ يعني أنه غير متعصب ضدكم .

وكذلك حين يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا رَمَا الشَّمْسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا
أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
كُفِّرْتُمْ ۚ ﴾

وهكذا يثبت له أن كل كوكب - حتى الشمس - مصيره إلى افول ، فكانه قد وصل
بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح ، واستخدم المنطق الذي يحقق نية في

أن ينكر هذه الربوبية ، ويستأنس به أذان من يسمعه . وهناك أشياء يجعلها الحق سبباً
مبرراً لارتكاب أشياء كثيرة ، إلا أننا نعتقد مقارنة بين بعضهم البعض مثلما قلل الحق :

﴿ وَلَٰكِن مِّن شَرٍّ بِالكُفْرِ صَدْرًا ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة النحل »

ولقد جاءت بعد قوله سبحانه :

﴿ إِلَّا مَن أَسْرَىٰ وَقَلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة النحل »

فلذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المطمئن لنجى حياته
وهو فرد ، أفلا يصح لإبراهيم أن يقول لهم : ﴿ هذا ربي ﴾ بما نحتل من أساليب
حتى ينهى أمة بأسرها من أن تعبد الأصنام ؟ .

إذن فنقول لإبراهيم ﴿ هذا ربي ﴾ يؤخذ على محملين : ألم يقل الله سبحانه وتعالى
بنفسه عن نفسه :

﴿ وَيَوْمَ يُكْذِبُهُمْ رَبِّي شُرَكَائِي ﴾

« من الآية ٢٧ من سورة فصلت »

وسبحانه يعلم أنه لا شركاء له ، ولكن الشركاء هم من زعم المشركين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان ينادي في بعض القوم : « يا إله
الآلهة ، لأنه يعلم أن قوماً قد ألخوا ظواهر طبيعية في الكون لما يرون من الخير فيها ،
فلو اد أن يبههم إلى أن هناك إلهاً حقاً .

ويوضح القرآن عدم جدوى اشرك حين يقول :

﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مَّا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة المؤمنون »

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَشْفَعُونَ لَكَ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝١٢٧ ﴾

« سورة الإسراء »

والحق سبحانه وتعالى يقول للكافر الذي كان يهتر بجناحه في دنياه :

﴿ دَقُّ لِي أَتَى الْغَزِيرُ الْكَرِيمُ ۝١٢٨ ﴾

« سورة الدخان »

فهل هذا القول اعتراف بأن الكافر عزيز كريم أو هو قول تهكمى ؟ ، إنه تهكم ، لأن الكافر لو كان عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولما استقر في الجحيم .

وكان المتن في اللمعة أن يقول " فلما رأى الشمس بارعة قال هذه ربي ؛ لأن الشمس مؤنثة ، ولكنه قال : ﴿ هذا ربي ﴾ كما قال في القمر ربي غيره من الكواكب ، فجعل الأمر على سياق أرواحه واحدة ، أو هو بهذا القول يريد أن يتره كلمة الرب تنزيهاً مطلقاً عن أن تلحق بها علامة التأنيث ؛ لأن علامة التأنيث فرع التذكير ، وأيضاً لأن الشمس ليست مؤنثاً حقيقياً ، بل هي مؤنث مجازي ، ولذلك يعطى العلماء إلى هذه المسألة فيقولون : إنك إذا أعطيت واحداً صفة العلم ، وقلت : فلان عالم ، أما إذا صار علمه ملكة عنده فنقول : « فلان عليم » ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ رَفِيقٌ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ۝١٢٩ ﴾

« من الآية ١٢٩ من سورة يوسف »

وإذا كان العالم متسكناً من علمه بشكل غير مسبورق فنقول عنه " « عَلام » . والحق سبحانه يصف نفسه فيقول :

﴿ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ۝١٣٠ ﴾

« من الآية ١٣٠ من سورة المؤمن »

ولم يقل العلماء في وصف الله علامة ، وإن كان هذا الوصف أبلغ استقراء من أن تلحق علامة التائيت صفة من صفات الله - عز وجل - .

وحين تأفل الشمس يقول سيدنا إبراهيم :

﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنَتَوُونَ إِلَيَّ بِرِيَ مِمَّا تَشْكُرُونَ ﴾

من الآية ٧٨ سورة الأنعام ،

وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالتوقيات الجدلية التي قالها ، وحين يسمعها أي هاقل فلا بد أن يعلن اتفاقه في هذا الأمر ، ولذلك قال : « إني بريء مما تشركون » . ولأنه كل إنسان مؤمن لن يغش نفسه ، وبالتالي لن يغش قومه ، وهذا ما ينبه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخليق من المفسد ، والتحلية بمعنى أن تنفك أو تنقطع عن العمل المفسد ، وبعد ذلك تدخل في العمل المصلح .. العمل الإيجابي

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَمَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

والسموات والأرض هما المظهر الأول للكون الذي طرأ عليه الإنسان ، لأن الكون طرأ عليه الإنسان - الخليفة في الأرض - ووجد كل الخيرات والمسخرات ، ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى : إياكم أن تقولوا إني خلقكم فقط ، بل خلقت لكم الكون .

﴿ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْثَرُ مِنْ حَلَقٍ الْبَاسِ ﴾

من الآية ٥٧ من سورة طه .

ويقلم سيدنا إبراهيم برعائه لقومه ، إنه يعبد الله وحده الذي خلق السموات والأرض ، رافضاً كل فساد في الكون ، ويشتمل هذا في قوله ﴿ حَيْفًا ﴾ ، و« الحيف » في اللغة هو ميل في القدمين ، ونجد القدم مقوسة إلى الخارج . وهذا يعني أنه لا يسير على طريق الفساد الموجود في الكون ؛ لأن السماء تتدخل بالرسالات حين يظلم الفساد في الأرض ، وحين يأتي الرسول مانلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً ؛ لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمٌ قَالُوا أَتُحْكُمُورِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا آخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

وحاجُّه أي حاججه يادغام الجيمين في بعضهما . أي أن كل طرف يقول حجة والطرف الآخر يرد عليه بالحجة ، فإذا كنت في نقاش وكل واحد يدلي بحجة ، فهذا اسمه الحجاج ، أو الجدل المبطل ، أي أنك تبطل كلامه وهو يبطل كلامك

﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمٌ قَالُوا أَتُحْكُمُورِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

وإذا كان إبراهيم قد جادلهم بمجاعة أفكارهم وأثبت بطلانها ، فكيف يجادلونه إذن ؟ . كأن المرض من الحجاج صرف إبراهيم عن دينه الحنيف الذي ارتأه في قوله سبحانه :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

« سورة الأنعام »

ويرد عليهم :

﴿ اَلَمْ نَجْعَلْ لَّيْلٍ لِّىْ اَللّٰهِ وَقَدْ مَدَدْنِىْ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

أى أن صلاة الإيمان قد حُست فقد آمن إبراهيم بالله ويعلن لغفوم :
« ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وهذا القول يدل على أنهم قد
هدوه ، لأن كلمة « الخوف » جاءت ونفاها عن نفسه . ويعلمها إبراهيم قوية :
« ولا أخاف ما تشركون به » أى لا أخاف من الكواكب التى تأفل سواء أكانت نجماً
أم قمراً أم شمساً أم تلك الأصنام التى يعبدونها فليس لها نفع ولا ضرر ، والضرر والنفع
هما من صنع الله فقط

ولذلك تتجلى الدقة فى الأداء العقصى فيقول الحق على لسان إبراهيم عليه
السلام :

﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّىْ شَيْئًا وَسِعَ رَبِّىْ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا
أَمَلًا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

فإن شاء الحق أن ينزل على عبد كوكباً يصعله لويحرقه فهذا موضع آخر لا دخل
لن من يعبد الكواكب به ، ولا دخل للكواكب فيه أيضاً ، لأن النافع والضرر هو الله ،
فحين يشاء الله الضرر ، يأتى الضرر ، وحين يشاء النفع يأتى النفع .

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّىْ شَيْئًا ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

أى اذكروا جيداً ، وامرؤوا بين فعل يقع من فاعل ، وفعل يقع من آلة فاعلها غير
تلك الآلة ، فحين يشاء الله أن يوقع على إنسان كوكباً ، أو صخرة فيست الصخرة هى
التي صنعت ونوعها ، ولا الكوكب هو الذى سقط نفسه ، وإنما افعل هو الله :

﴿ وَسِعَ رَبِّىْ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَمَلًا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

وقول ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يدل على أن قضايا المفائد مأخوذة بالفطرة ، وإلّا النفس على الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة ، فليس المطلوب منك أيها الإنسان إنشاء فكرة عقيدة بل المطلوب منك أن تتذكر فقط ، والتذكر أمر فطري طبيعي ، لأن الإنسان الخليفة في الأرض هو الذي تناسل من آدم إلى أن وصل إلينا ، فقد جاء آدم إلى الأرض ومعه منهج سماوي ينظم به حركة الحياة ، ولقن آدم المنهج لأولاده ، وكذلك فعل أبناء آدم مع أولادهم ، ولكن المنهج تطمس ، لأن المنهج تتدخل في أهواء الناس وتنتهك عن شهواتهم وتصلحهم عن المفسد فيمرصون عنها أو ينجاهلون ، إذن فهي عرضة أن تُنسى ، والرسالات إنما تذكر بالمنهج الأصلي الذي أخذناه من الحق سبحانه وتعالى ، لذلك يعلمها إبراهيم :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴾ (٨١)

يقول لهم سيدنا إبراهيم : أنا لا أخاف إلا الله ، ولا أخاف ما أشركتم أنتم به مما لا يضر ولا ينفع . وكيف ، هنا تأتي للتعجب ، لأن المتعلق أن نخاف من الله وحده الذي يضر ويضع . حين تلور معادلة تستيقظ في كل طرف ذاتية المجادل ، وهناك من يستكفون من الحق ، ليس لأنه حق لكن لخوفهم أن ينهزموا أمام واحد مثل لهم ، ومن يريد أن يصل إلى الحقيقة بنون استعمال لا يعطى الحكم بما يحرك الذاتية في انخساع المجادل ، لذلك لم يقل سيدنا إبراهيم : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ بل قال : « فأى الفريقين أحق بالأمن » ، مثلما علم ربنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿وَأَنَا أَوْلَىٰ بِكَرَمَلِكٍ عَلَىٰ تَوْفِي صَلَاحٍ مُّبِينٍ﴾

من الآية ٢٤ من سورة صبا

وهذا منتهى الحيلة في الجدل ، فلم يصرح بأن منهجهم هو الضلال وأن منهجه هو الصواب المستقيم ثقة منه أنهم حين يستعرضون منهجه ويستعرضون منهجهم سيحكمون بأنه صلى الله عليه وسلم على هدى وأنهم على ضلال . وهذا هو الجدل الارتقائي ، مثلما يعلم الحق رسوله ليقول لخصومه :

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ أُيُوتِنَا وَلَا نَسْأَلُ عَنْمَا تَعْمَلُونَ﴾

سورة صبا

هل يفعل الرسول جرائم ؟ حاشا له أن يفعل ذلك فهو المعصوم .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم : اسألوا عني إن كنت أجرت ، ولم يقل لهم وصفا لأعمالهم : «ولا تسأل عما تجرمون» بل قال : «ولا تسأل عما تعملون» . فلم يأت بمسألة الإجماع بالنسبة لهم ، وجاء بها بالنسبة له ، لأنه واثق أنهم إن أحادوا دراسة القضية فكرياً وعقدياً وعاطفياً فيستهون إلى الإيمان بمتجه . وهذا منتهى اللطف في الجدل .

ويتجلى اللطف في قوله الحق :

﴿عَائِ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

من الآية ٨١ سورة الأنعام

والعلم هو أن تأخذ قضية متقدما ولها واقع ونسطة أن تطلب عليها ، وإن اختلف شرط فيها فهذا خروج عن العلم ، ومثل ذلك الفاظ اللغة ، كل لفظ وضع لمعنى ، وساحة تسمع اللفظ وأنت تعرف اللغة تفهم المعنى ؛ فحين أقول : الشمس تصور أنت الشمس في ذهنك ، وكذلك الأرض والسماء والجبل . فانت عرفت مدلول هذه الألفاظ بدون أن تكون هناك نسبة . ونعلم أن هناك فرقا بين معنى اللفظ مفرداً ، وما يعطيه ويضيقه اللفظ إذا جاء في نسبة .

فإذا جاء اللفظ في نسبة فلا بد أن توجد قضية ، فإذا قلنا الشمس محصورة بالغيم فهذه قضية ، أو قلنا : الشمس تغيب فهذه قضية أخرى وهنا نسبنا شيئاً لشيء ، ولكننا قبل أن نأتي بالقضايا النسبية لابد أن يكون للفظ معنى في ذاته ، وهذه اسمها معاني اللغة ، وتضم من خلالها لفظ إلى لفظ فتتأ نسبة أو قضية شرطية أن تعرف معنى مفرداتها ، وبعد ذلك يعرف النسب ، وهي ما نقول عنه : مبتدأ وخبر ، موضوع ومحمول ، مسند ومسند إليه ، فعل وفاعل أي أمر مسبب إلى أمر .

والعلم - كما قلنا - هو قضية واقعية ، تعتقدها وتستطيع أن تدلل عليها . وإن احتل أمر من هذا لا يكون علماً ، فإن كنت تعتقد في قضية إلا أنها غير واقعية ، فهذا كذب . وعندما أقول : إن هناك من يعتقدون أن الأرض كروية فهل الواقع كذلك أو لا ؟ وإن كنت تعتقد شيئاً وهو واقع ، ولم تستطع أن تدلل عليه فهذا تقليد ، وإن سم يكرر الشيء متيقناً وقد تساوى فيه الطرفان فهذا هو الشك . وإن كان هناك طرف راسخ عن طرف آخر فهو الظن . والطرف المربح هو ما يسمى بالوهم ، وكل قضايا نسبية لا تخرج عن هذه

وقول إبراهيم : « إن كنتم تعلمون ، أي يتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أن تدللوا عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ

هُمْ الْأَمَنُ وَهُمْ مُبْتَدُونَ ﴾ (٨٢)

حيثما سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية اشتغلوا على أنفسهم ، لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا من غير الداخلين في « أولئك لهم الأمن » . وشق عليهم ذلك ، فارتعوا أمرهم

إلى سيدها رسول الله ﷺ ، فأوضح لهم ﷻ مضمناً : إن ذلك الظلم هو الذي قال الله فيه :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣١ ﴾ (سورة لقمان)

والآية تدل بمعطياتها على أن ذلك الظلم هو المتعلق بالإيمان لا بالعمل ؛ لأننا نعلم أن انتفاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القصة ، وهي أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن تشهد أن محمداً رسول الله ؛ ومعناها : لا معبود بحق إلا الله ، أو لا أمر لأحد في خلق الله إلا الله ، ولا فعل لأحد من خلق الله إلا من الله ، ولا استمداد لأحد بقدرة وعلماء وحكمة ومهصاً وبسطاً إلا من الله ، تلك هي دائرة الإيمان العقديّة

ويقول الحق : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فكأن هذه المسألة هي منطقة الظلم ، أما العمل فسبحانه فصل لنا بين إيمان يتجر به العمل وعمل تنفجر عنه العاقبات فقال سبحانه :

﴿ وَالْمَعْرُ ١٣٢ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ١٣٣ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ١٣٤ ﴾ (سورة المعصر)

والعطف في قوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يقتضي المخاطبة ، فالإيمان شيء وعمل الصالحات شيء آخر ، إذن فالإيمان عمل يسوعى في القلب ، ولكن العمل نشء عن الالتزام الذي شرعه الإيمان فيه ، وعلى المؤمن أن يتنبه إلى أن الله واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله ، لا تدلّه ولا شريك معه ، فهن وجدت صفة في الله ووجدت صفة مثلها فيك فاعلم أن الصفة في الله في دائرة وليس كمثله شيء . فلا قدرة كقدرته ، ولا داب كذاته ، ولا فعل كمفعله . فإن اختلف شيء من ذلك في اليقين فهنا ظلم واقع في الإيمان .

فمثلاً . أنت تقبل على الأشياء بالصفات المخلوقة لك من الحق سبحانه وتعالى ، وقل أن تفعل أي فعل لا بد أن يمر على مالك بسبب ذهنة ، قل أن تكون نسبة قولك أو فعلية . هذا هو العمل المتروك بك والمطلوب منك ، أما العمل الذي لا يمر بمالك

فلست مسئولاً عنه ، مثلك ذلك : هب أنك سائر في الطريق ، ثم وجدت حفرة تكاد تنشط فيها ، فهناك أمر غريزي لحفظ الإنسان فيحذر رجله ، وهو لا يستطيع في هذه المسألة أن يمررها بياله . وتلك أعمال نسيها الأعمال الاضطرابية أو الغريزية أو القسرية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كل أمر ذي بال لا يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم أقطع)^(١)
« حديث شريف »

وقال صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع)^(٢)
« حديث شريف »

و « ذي بال » أي كل أمر تفعله بعد أن يمر ببالك أن تفعله يجب أن تذكر فيه اسم الله . ويغفل أناس كثيرون عن هذه المسألة فيقول لهم : منطقياً لا بد أن تفعلوا هذا الأمر في بالكم لأن الفعل الذي لا يمر ببالك هو فعل أعطى الله غريزتك - بدون أمر - أن تفعله . ومثلك ذلك إذا أكل الإنسان ثم نزل شيء في نصته الهوائية فهو الهواء ، نجده يحل بلا شعور حتى يخرج هذا الشيء ، لأنها عملية قسرية . أما الأمر ذو البال فهو الذي تمر ببالك نسبه الذهنية ثم يمر بالمعمل ، إن كان قولاً تقوله ، وإن كان فعلاً تفعله ، فمطلوب منك فيه ابتداء أن تسمى الله ، لأن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا ألا تشغلنا الأسباب عن المسبب لها .

فانت مثلاً حين تزرع الأرض تحرثها ، ثم تضع البذرة وتغطها ، ثم ترويها وبعد ذلك ينبت الزرع . لك في ذلك شيء ٩ . إنه ليس لك إلا تجميع فعل ، فالبذرة مخلوقة لله ، والتربة التي وضعت فيها البذرة مخلوقة لله ، والمناصر الموجودة في الأرض لتغذي النبات مخلوقة لله ، والخاصية الموجودة في البذرة لتتخص شيئاً ينشأ جنينها ثم تنفلق الحبة ، كل هذه أسباب ليس لك فيها شيء أبداً . ولكن الله احترم فعلك فقط فقال سبحانه :

(١) روى عبد القادر الرازي في الأرحمن عن أبي هريرة .

(٢) روى ابن ماجه والبيهقي في السنن عن أبي هريرة .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾

« سورة الواقعة »

ثم قال سبحانه :

﴿ أَأَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾

« سورة الواقعة »

ومن مخصصات الإيمان أنك حين تقبل على أى شيء ذى بال ألا تسمى من محر لك هذا ، فليس فى قدرتك أن تفعل لنفسك وبفسك أى شيء إلا بإرادة الله ، وإذا ما فعلت ذلك وتذكرت من محر لك هذا تكون قد نسبت الأمر كله له سبحانه .

ومحّن فى قلوبنا الوضعية ساعة يجلس القاضى ليحكم بين الناس حكماً وهناك سلطة تمنح هذا الحكم فهو يقول : « باسم الشعب » أو « باسم لقانون » ، إذن الشعب أو القانون هو الذى أعطاه الصلاحية لأن يحكم هذا الحكم ، فما هى القدرة التى جعلتك تحكم على الأشياء أن تعمل بك ؟ لا بد أن تقول إذن : باسم الله الذى سخر لى هذا ، فإذا أقبلت على عمل بغير ذلك ، تكون مفتاناً ومختفاً ومذنباً أمراً لا تستطيعه ، لأنه ليس فى سلطتك ولا فى قدرتك أن تسحر الكائنات لك .

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى سخر لك الكائنات ، فعليك أن تذكر اسم الحق لتعمل لك تلك الكائنات ، ومن يفعل هو ذلك فقد نُس وخُبط وإيمانه بظلم . وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عسى » من أوكر وقل : ﴿ ما شاء الله ﴾ ، لأنك إن قلت : « أوتيته على علم » فالحق قد قال فى شأن قارون :

﴿ فَحَسَفَ بِهِ وَبَدَّاهِ الْأَرْضَ ﴾

« من الآية ٨٦ من سورة القصص »

أبى ذهب علم قارون الذى جاء به ؟ .

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن نسبه لله ، فإن احتل شيء منك من هذه المسألة

فأعلم أنك لست وخلطت إيمانك بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يطلب منا ذلك حتى تكون النعمة مباركة إقبالاً عليها أو انقضاءً بها ، ولا ينشأ من العمل الذي نعمله شيئاً بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ إلا ما يمينك على طاعته ، ويمينك على بر ، ويمينك على خير ، ولا تصرفه إلا في عافية .

وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء في كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا ، إنك تأخذ لمن الآخرة بأن تدخل الجنة .

إنذرك لهم الأمن ، أي الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نحصل دائماً بمنهجه ، لأن إلهادات الله سبحانه وتعالى مستمرة ، ورحمته وتجليته لا تنقطع عن خلقه أبداً ، لأنه يقوم أي أنه بطلاقة قدرته وشمول قوميته يقوم سبحانه بالخلق وحكمته على كل أسباب مخلوقاته ، فكان دائماً في صفة الظنم ، ليتجلى عليك بصفات خلقه ، وصفات قدرته ، وصفات علمه ، وصفات حكمته . فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت ذلك^(١)) فقلت بين يدي في الجنة . قال : ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أظهور ظهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الظهور ما كتب لي أن أحصل^(٢) .

ويقول - صلى الله عليه وسلم - : (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليه بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها بين يديه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب^(٣)) .

(١) الحديث بإسناد : صوت التلويح وحركته على الألف .

(٢) مطلق عليه وظنظظ ظهري

(٣) رواه مسلم .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقاً ، ليعطينا ، لا يأخذ منا ؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الحقيقية لله أن البشر يأخذ خير عباده ، ولكن عبيدنا الله تعطيتنا خيره من خزائنه لا تنفد ، تأخذ منه كلما أردنا به عبودية ، إذن الحق دائماً يريد أن يصلنا به .

﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ الأمن في الدنيا ، والأمن بمجموع ما كان في الدنيا مع الأمن في الآخرة .

ولفائل أن يقول : هناك أناس لا يسمون باسم الله ، ولا يخطر الله على بالهم ، ويتحركون في طاقات الأرض ومادتها ، ويتممون بها ويسعدون ، وقد يستعدون بابتكارات سوامهم . ونقول : نعم هذا صحيح ؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل ، والبركة في عطاء الفعل . إذا زرع الكافر بالأرض تعطى له ، وإذا قام بأى عمل يأخذ نهيجه ، لكنه لا يأخذ البركة في العطاء .

وما هي البركة في العطاء ؟ البركة في العطاء أن يكون ما أعطته من هذا العطاء لا يمينك على معصية ، بل دائماً يمينك على طاعة . ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق عليهم قوله سبحانه : ﴿ أفعبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فليأكل أن تغالط وتقول : إنهم لا يقولون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ومع ذلك فهم قد أدخلوا طيات الحياة الدنيا ، إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيات حضارتهم ، وطموحات بحوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر ، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه في الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشياءهم بما يصب عليهم من المذاب والنكبات ولهم في الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم .

إذن ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ أي إن هؤلاء الذين لم يغلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمن في جزئيات أعمالهم والأمن المتجمع من جزئيات أعمالهم يعطى لهم الأس في الجنة . ﴿ وهم مهتدون ﴾ والهداية هي الطريق الذي يوصل إلى الغاية . ولا يقال لك إنك موفق في الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسومة في ذهنك من نجاح بعد المذاكرة والاجتهاد . ولا مطلق ولا مصنوع يحدد غايته ، فترك الله تحديد

مهمتك ، فسيحانه هو الذي خلقت ، وفي عرف البشر ، لا توجد صنعة تحدد مهمتها
أبداً ، بل إن الصانع هو الذي يحدد لها الغاية منها ، فإعناية توجد أولاً قبل الصنعة ،
ومما دلت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذي يشقى بالتجارب إذن ؟

في الابتكارات العلمية العملية المادية التي تنشأ من التعامل مع المادة نجد أن
الشيء يشقى بالتجربة أولاً هو العالم ، وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها
الطبية ، والمسائل النظرية التي تتعب العالم يأتي التعب منها لأنها ليست مربوطه أولاً
بالماديات المقتبة وبمعرفة الغاية ، ولا بمعرفة لوسيلة لهذه الغاية فمن المهتدي
إذن ؟

إن المهتدي هو من يعرف الغاية التي يسعى إليها ، والوسيلة التي تؤمله إلى هذه
الغاية . وإذا حدث له عطب في ملكات نفسه ، يستعين في إصلاح العطب ويلجأ إلى
من صيغ هذه الملكات ، وهو الله سبحانه ، كما يرد الإنسان لآلة التي تتدخل
لصانعها . وبعد كثيراً من الشعراء يسرحون في خيالهم فيقول الواحد منهم .

ألا من يريني عاين قبل مدعي
ومن أين للعايات بعد المدايح ؟

ويقول له : من حقتك أوضح لك العاية

ويقول الحق بعد ذلك .

وَقِيلَ لَكَ جُحُشْنًا مَا قَدَّمْتَهَا لِزُرَّهِيكَ عَلَى قَوْمٍ مَّرْقُوعٍ
دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾

والحجة في البرهان الدائم لأسماء القصية المطلوب إثباتها . وكان الحق سبحانه
وتعالى يريد من حين يحتاج أن تكون له آية في الحجاج ، وهو بعد أن لعابه في

الحجاج إن تعدت موضوع الحجاج نهياً لوانباتاً هي تهريج ، وينحصر الأمر في أنك تريد الانتصار على خصمك وأن بحلول خصمك الانتصار عليك ، لكن عليك إذا ما دخلت الحجاج أن تجعل الغاية الأمية هي الأساس ، وكما يقولون نحفد وبيان محل النزاع ؛ لأن الحق لا بد أن يكون أعز منك ومن خصمك هناك ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تشاغلوا في قضية تنظراً جماهيرياً ، لماذا ؟ لأن الصوب الجماهيري يلتبس فيه الحق مع اساطيل ، والله سبحانه وتعالى يريد من كل صوب أن يكون محضوباً على صاحبه ، ومثل ذلك عندما يقوم ظاهري كبير ويهتف فيه بسقوط أحد لا يتعرف أحد على من بدأ الهتاف

والذي جعل العرب يخسرون أنهم حين استقبلوا الدعوة كانوا يعقدون اجتماعات جماهيرية ، ينشئون فيها أقوال رسول الله فتأهت منهم القدرة على الحكم الموضوعي .

ونذكر بقول ربنا .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعِطْتُ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفَىٰ وَقَدْ دَىٰ ثُمَّ تَكْفُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

سورة الأنعام ٢٨ سورة مكية

أي أن نجتتمعوا وهي وجهتكم الله ، ومن عنده نوه فبما نشت بالهجة أقوال رسول الله موضوعاً ، وتاريخاً ، ومطلقاً ولا يمكن أن يعتمد إنسان ليبحث مسألة وهي بالهما الله فقط . إلا ويتهيك فيها إلى رأي موحد . ولذلك جاء التنازع السري في العصر الحديث مستعداً من تلك القاعدة الإيمانية

﴿ وَتِلْكَ هُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا إِبْرَاهِيمَ عَنْ قَوْمِهِ - تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ لَّدُنَّا إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

سورة الأنعام ٨٧

وأول قوم إبراهيم أبوه أزر ، إنه جاتهم في الكواكب والعمر والشمس والتمانييل ،

وبعد ذلك انتصر بالحجة على كبيرهم وهو الملك أو السلطان ، وهو التمريز حين أراد أن يناظره في قوة الإحياء والإماتة .

ويريد الحق أن نتعلم من حكمة سيدنا إبراهيم ، إنك إذا رأيت خصمك يدخل فيما لا يمكن أن ينتهي فيه الجدل فانقله إلى المستوى الذي لا يستطيع منه خلاصا ولا فككا ، فلا يفلبك ، فالمالك التمريز قال له :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّا لَمْ يَكُنْ ﴾

من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة :

وكان باستطاعة سيدنا إبراهيم أن يقول : أنت لا تميت بل تقتل ، والقتل غير الموت ، لأنك تنقض البنية ، لكنه لم يرد أن يطيل الجدل ، وأراد أن يكون الجدل مقتضيا ، ويستطه على الحجة ويلزمه بها من أقصر طرق ، فقال الله :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا لِقَاءَ رَبِّكَ مِنْ أَشْرَفِ الْمَوَاقِفِ ﴾

من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة :

لماذا كانت نتيجة الجدل ؟ يقول الله سبحانه :

﴿ نَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة :

وكل هذه حجج يوضحها قول الله سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا لِقَاءَ رَبِّكَ مِنْ أَشْرَفِ الْمَوَاقِفِ ﴾

﴿ طِبِّمُ ﴾

سورة الانعام :

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أي كانت له حلبيهم درجات وسمو وارتفاع ، لأن إقامة الحجة على الغير انتصار ، والاتصال وفتح للدرجة موضوعك ، وفتح أيضا لموضوع هملك . وسبحانه لا يشاء إلا من حكمة ، ولا يشاء

إلا من علم ، لأنه إن أطلقنا المشيئة لواحد من البشر فقد يفعل الفعل بدون حكمة ويدون علم ، أما الحق فثبتنا بأن مشيئته هي عن حكمة وعلم لصالح الخلق ، لأن مشيئته مبنية لا على هوى ، ولا على نفع من أحد ، فالله سبحانه له كل صفات الكمال والجلال والجمال قبل أن يخلق الخلق .

إن خلق الخلق وإيمانهم لا يريد في ملك الله ، وإن عصوا لا ينقص من ملك الله شيء ، ولكن الحكمة قد تفوت عن بعض الخلق فلا يهتدون إليها ، وسبحانه حين يجرى أمراً على خلقه ثم يقبلونه وإن لم يعلموا عنه يريهم جل وعلا الحكمة في الفعل الذي كان غير مقبول لهم ، لأنه سبحانه خلق الخلق ويعلم أنزل أن للخلق أهواء ومرادات ، ولو أعطى كل مخلوق مراده لأعطاه على حساب غيره ، والحق سبحانه عادل فلا ينفع واحداً وينعب الآخر .

والحق بحكمته يعلم ما يصلح أمر خلقه ، فلا يستجيب لدعوة حمقاء من عباده ، فسبحانه يعلم أنه ليس في صالح العبد أن يلقى له هذا الطلب . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالنَّخِيرِ وَكَانَ الْإِنْسُ عَجُولًا ۝١١١ ﴾

سورة الإسراء :

إن العبد يقول : يا رب اصنع لي كذا ، بترلى هذا الأمر ، وهو خير في عروقه ، وقد يكون هو الشر ، لأن الإنسان عجل . لذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأُوبِيَكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

من الآية ٣٧ من سورة الأنبياء :

إن الحق جل وعلا يضبط مرادات الخلق ، فالصالح يجرى عليهم .

﴿ رفع درجات من نشاء إن ذلك حكيم عليم ﴾ وكلمة ﴿ رب ﴾ حينما نرد لا بد أن نفهم منها معنى الخلق والتربية ، وساعة تأتي كلمة « الأرومة » فلنعلم أنها للتكليف ، لأن الله هو المعبود المطاع إن أمر لونهي ، ولكن الرب هو من خلق وربى ، وتمهد ، وأعطاك مقومات حياتك . إذن عطاء الربوبية شيء ، وعطاء الألوهية شيء آخر ،

وعطاء الربوبية يأخذه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ؛ لأن الله هو الذي استدعاهم للوجود ، وجعل الكون مستخراً لهم ، لكن عطاء الألوهية يتمثل في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، وهذا يدخل في منطقة الاختيار ، والذي يكفر بالله ويحسن الأخذ بالأسباب يأخذ نتائجها ، ومن يؤمن بالله ولا يحسن الأخذ بالأسباب لا يأخذ النتائج ؛ لأن الاستبطاء في الكون من عطاء الربوبية .

ويقول الحق :

﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٨٤

إننا نعرف أن إسحاق هو الابن الثاني لسيدنا إبراهيم بعد إسماعيل ، ويعقوب ابن إسحاق ، وساعة ترى الهيئة افهم أنها ليست هي الحق ، فالهيئة شيء ، ود الحق شيء آخر . الهيئة . إعطاء معط لمن لا يستحق ، لأنك حين تعطي إنساناً ما يستحقه ليس ذلك هبة بل حقاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تعبدوا أن أحداً من خلقى له حق عندي إلا ما أجمعه أنا حقاً له ، ولكن كل شيء هبة مني . والقيمة الأولى في الهبات والعطايا هي قيمة السيادة الأولى في الكون للإنسان ، ثم التكاثر من نوحه الذكر والأنثى ، حيث الذرية من البنين والبنات . يقول سبحانه :

﴿ رَبِّهِمْ مَكَاتُ الْكَوْكَبِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِمَّا ذَكَرًا أَوْ إِنَاثًا وَهُوَ بِمَا يَفْعَلُ خَبِيرٌ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ ﴿٢٩﴾

فهبة الأولاد لا تأتي من مجرد أنه خلق الرجل والمرأة ، وأنَّ التلقاه بينهما يوجد الأولاد بل يقول سبحانه :

﴿ أَوْ يَرْوِّحُهُمْ ذُرِّيًّا وَإِنَّا وَبِعَمَلٍ مِّنْ بَشَاءٍ عَظِيمٍ ﴾

« من الآية ٥٠ من سورة الشورى »

فلو أن المسألة مجرد إجراء ميكانيكى لجاء الأولاد ، لكن الأمر ليس كذلك ، فمن مهم في الملتكوت نعلمن أنفسه أن ذلك حاصل عن حكمة حكيم يعرف أنها هبة من الله ، حتى انعم هو هبة أيضاً ، فالذى يستقبله من الله على أنه هبة ويرضاه ، ولم ينظر إلى أبناء الغير بحقد أو بحدس سيجعل الله كل من تراه أبناء لك بلدون نحب في حمل أو ولادة ، وبدون عناية ورعاية منذ طول عمره . ومن يرضى بهبة الله من الإناث سيجد أنهن رزق من الله ويبحث له من الذكور من يتزوج الإنث ويكونون أطوع له من أبنائه ، لأنه رضى . إذن لابد أن نأخذ الهبة من انعماء ، والهبة في السخ .

والحق يوضح أنا وهبت لإبراهيم إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، والإنسان منا يعرف أن الإنسان بواقع أفضية الكون ميت لا محالة ، وحين يكبر الإنسان يرغب في ولد يصل اسمه في الحياة وكأنه ضمن ذلك ، فإن جاء حميد يكون الحد قد ضمن نفسه حياً آخر . ولكن لنعرف قول الحق :

﴿ أَلَمْ أَلْهَ الْيَهُودَ رِيسَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالتَّبَقُّطُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

أَمْلاً ﴾

« سورة الكهف »

وبقاء الدنجر في الدنيا لا لروم له إن كان الله يحط من قدر الإنسان في الآخرة !!

وسمح أن الحق قال في موقع آخر .

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنِّى ۖ إِلِىَّ يَرْجِعُونَ ۚ وَأَحْمِلْهُ رَبِّ رَحِيمٌ ۝ ﴾

« من الآية ٦ والآية ٦ سورة مريم »

وامتن الله على إبراهيم لا بإسحاق فقط بل بيعقوب أيضاً ، وفوق ذلك قال ﴿ كَلَّا

هدينا ﴿ أى انهما كانا من أهل الهداية . ﴿ وبوحا هدينا من قبل ﴾ أى أن الهداية لا تبدأ بإسحاق ويعقوب ، بل بوح من قبل . ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

ويطيع الحق :

﴿ وَرَكَرَبًا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ
الصَّالِحِينَ ﴾ (٨٥)

ولم يأت الحق بالثمانية عشر نبياً متابعين بل تسعة بحكمة ، فيقول :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكَانَ
فَضْلُنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٦)

ولا يقتصر الأمر على هؤلاء بل يقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْتَهُمْ
وَهَدَيْتَهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٨٧)

وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة والعشرين رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلاً . وقد جمعوا في قول الناظم :

في تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إندرس هود شبيب صالح . وكنا
ذو الكفل آدم بالمختار وقد ختموا

والحق سبحانه وتعالى لم يجعل من الأنبياء ملوكاً إلا اثنين . داود وسليمان حتى
يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يظهر خلقاً على شيء لا يقدر عليه أحد يبعث ملكاً
رسولاً ، لأن الملك لا يقدر عليه أحد لأن القدرة معه ، والمجتمع آنذاك كان في
حاجة إلى ملك يدير أمره ويضبط شئنه ، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوة والخوف
والرهيب إنما يريد بالاختيار ، ولذلك جعل أغلب الأنبياء ليسو ملوكاً .

وفي الحديث : « أفعلكتانها يجعلك أو عبداً رسولاً »^(١) فاختار أن يكون عبداً
رسولاً ، لأن الملك يأتي بسلطانه ويماله ، وقد يظنى .

وأراد الحق أن يكون سليمان ودلود من الأنبياء وهما ملكان ، وتمثل فيهما القدرة
وسعة الملك والسلطان . أما أيوب فقد أخذ رواية أخرى من الزوايا وهي الابتلاء
والصبر مع النبوة ، وكل من فيه قدر مشترك من النبوة ، وفيه تميز شخصي . وكذلك
يوسف أخذ الابتلاء أولاً ، ثم أخذ الملك والسلطان في النهاية . وموسى وهارون
أخذوا شهرة الاتباع ، وتكاد لا تعرف من الأديان إلا اليهودية والنصرانية ، أما زكريا
ويحيى وعيسى وإلياس فقد أخذوا ملكة الزهد .

وأما إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً فقد أخذوا ، زخرت به حياتهم من عظيم
الفعال وكريم المحصل والسلوك القويم والقدرة الطيبة وبقي لهم الذكر الحسن .

إذن فهناك زوايا متعددة للأنبياء

وعندما وقف العلماء عند « عيسى » هل يدخل في ذريتهم ، وجدوا من يستبطن
ويقول : من ذريتهم من ناحية الأم .

ولنا أمهات القوم أوعية

مستحدثات وللأحساب آباء

والعنصر البشرى فى عيسى هو الأم ويمثل هذا احتج أبو جعفر محمد الباقر أمام
سحاج حين قال له : أنتم تدعون أنكم من آل رسول الله ومن نسله ، مع أن
رسول الله ليس له ذرية !

قال له الإمام الباقر رضى الله عنه : كأنك لم تقرأ القرآن .

قال له : وأى شيء فى القرآن ؟

قال اقرأ : « ومن ذرية .. » إلى أن تقرأ : « وعيسى » ، فعيسى من ذرية
نوح ، من أب أم من أم ؟ .

قال له . من أم . فقال له : نعمن كذلك من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

ذَٰلِكَ هُدَىٰ ٱللَّهِ يَهْدِى ٱلَّذِينَ يَشَآءُ مِن عِبَادِهِۦ
وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

« ذلك » إشارة إلى شيء تقدم ، والمقصود به الهدى الذى هدانا به القوم ، وهو
هدى الله . ونجد كلمة « هدى » تدل على العاية المرسوم لها طريق قصير يوصل
إليها ، وهدانا هو الذى نعتق ، وهو الذى يوضح الغاية ، ويضع ويوضح بين الطريق
إلى العاية ، وحبر يضاف الهدى إلى الله فهو دلالة على المنبع والمصدر أى هدى
من الله . وكلمة « هدى » مرة تضاف إلى الراحب وهو الحق ، وتضاف إلى الأنبياء .
يقول الحق : « فبهداهم اقتل » .

وذلك إشارة إلى المنهج الذى أنزله الله على الرسل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يهدى الناس جميعاً بدلائلهم على الخير ، والذى يقبل

على هذه الدلالة احتراماً لإيمانه بعينه الله ، ويريد هدى ، وسبحانه يريد أن يثبت للإنسان أنه جعله مختاراً ، فإن اخترت أى شيء فأنت لم تحتره عصباً من ربنا ، إنما اخترته بمن خلقك مختاراً . ولا يوجد فعل فى الكون يحدث على غير مراد الله ، ولو أراد الله الناس جميعاً مهدين لما استطاع واحد أن يعصى ، إنما أرادهم مختارين ، وكل فعل يفعله أى واحد منهم ، فهو مراد من الله لكنه قد يكون مراداً غير محبوب ، ولذلك قال العلماء : إن هناك مراداً كونياً ، ومراداً شرعياً ، ومادام الشيء فى ملك الله فهو مراد الله ، والمراد الشرعى هو المأمور به ، وما يختلف عن ذلك فهو مراد كونى ، جاء من باب أنه خلقك مختاراً .

ومثال ذلك - وقف البئر الأعلى - أنت تعصى ابنك جميعاً ، والحبية قوة شرائية . فأخذ الحبية ونزل السوق وهو حر ليصرف فيه ، وتقول له : اسمع إن اشتريت به مصحفاً أو كتاباً جميلاً أو بعضاً من الحلوى وأكلتها أنت وإخوتك فسأكون مسروراً منك وسأكافئك مكافئة طيبة ، وإن اشتريت « كوشينة » ، أو صرفت الحبية فيما لا أوصى عنه فسوف أعصب منك ولن أعطيك بقوداً .

أنت بهذا القول أعطيت ابنك الحرية . وساعة ينزل السوق ويشتري « كوشينة » فهو لم يفعل ذلك قهراً منك لأنك أنت الذى أعطيت الاختيار ، لكنك قلت له : إنك تطلب من أن يحسن الاختيار ، وسبحانه وتعالى قد جنى الإنسان مختاراً ، فإن اختار الهدية أجزل له المعطاء ، وإن اختار الضلال عاقبه عليه .

وبالنسبة للأنبياء جاءت لهم الهداية من الله دلالة لهم وأقبلوا على مرادات الحق فأعطاهم هداية أخرى ، وذلك بأن يعشقهم فى العمل ويحب إليهم فعل الخير ، وبعد ذلك يوضح سبحانه : لياكم أن تظنوا أن هناك من يقلب منى ، لا بهم لو أشركوا لأحبطت أعمالهم .

إذن فالحق لم يخلق المخلوق مرغبين على عمل الطاعة بل خلقهم مختارين فى التكليف ، حتى ينالوا لذة اختيار منهج الله ولو أشركوا لحبط عملهم و﴿ لو ﴾ حرف امتناع لامتناع ، وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم ، ود المحبط ، هو الإطغال للعمل

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا
بِكَافِرِينَ ﴾ ٨١

والكتاب هو المنهج ، والحكم وهو ما أعطاه الله لبعضهم من السيطرة والعلة ،
والنبوّة ؛ أى أنّه جعلهم نماذج سلوكية للنشر .

﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ وسبحانه وتعالى
أعطانا نماذج من المهتدين فى الرسل ، والأنبياء ؛ وفيمن اجتباهم من آباءهم وذرياتهم
وأخوانهم ؛ فهؤلاء انقوم الذين جئت لتأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور ، فإن لم تنجح
بعض الناس عن الهداية فسوكل الله قوماً آخرين ليحملوا المناهج ليكونوا عنصر انخير
الباقى إلى أن تقوم الساعة .

ومنّ القوم ؟ . قال بعضهم المشار إليه هم عريش ، والمقصود من قومه . ﴿ فقد
وكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ هم أهل المدينة أى الأنصار . أوالمقصود من
النص الكريم كل ممتنع وكافر وكذلك كل مقبل على الله وحائث به أى إن يكفر بها
طائفة يوكل الله من يقوم بها ويدافع عنها ويحميها ؛ لأن الله لا ينزل قضية الخير فى
الخلق وبعد ذلك يطمسها بل لا بد أن يفيها كحجة على الخلق

﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾ وهذا يدل على أن أهل الخير دائماً
وكلاء عن الله ؛ لأن الذى يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله ؛ هذا الضعيف قد
استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لربنا ؛ لأنه
يقوم بالمطلوب له - سبحانه - وجعل من نفسه سبباً له ؛ لأن الله رب الجميع ، ومرى
الجميع ، ورعى الجميع ، ورزاق الجميع . وليثق من يقوم بالخير ويجعل من نفسه

ركباً عن الله في أن يشيع الخير في خلق الله ، ليثق أن الله سيكرمه أضعاف أضعاف ما أعطى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أَرْسَلْنَاكَ بِالَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيهِدْنَهُمْ أَقْنَدَةً
قُلْ لَا أَشْتَكِيكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ ﴾

﴿ هدى الله ﴾ هنا أيضاً هو هداية دلالة ، وهداية معونة ، بدليل أنه قال :
﴿ مبهداهم اقتنء ﴾ والخطاب لسيده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن «لؤلؤ»
أى المشار إليهم هم المتقدمون ، و«الكاف» خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَرْسَلْنَاكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَدَاهُمْ أَقْنَدَةً ﴾ وحين نقرأ هذا القول الكريم نقول
﴿ اقتد ﴾ ولا نقول ﴿ اقتنء ﴾ ولا نتلق الهاء إلا في الوقت ويسمونها «هاء
السكت» ، لكن إذا جاءت في الوصل لا ينطق بها ، وكل واحد من هؤلاء الرسل
السابق ذكرهم له خصلة تميز بها ، وفيه قدر مشترك بين الجميع وهو إخلاص
المبودية لله والإيمان بالله وأنه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أعماله ، وكلهم مشتركون
في هذه الأصول ، وتتميز كل منهم بخصلة في الخير ؛ فسيدنا سليمان وداود أخذوا
القدرة والسلطان والسلوك ، وأيوب أخذ القدرة في الصبر على البلاء ، ويوسف أخذ
القدرة في الصبر والتفوق في الحكم ، وسيدنا يونس أخذ القدرة كصارع إلى الله وهو
في بطن الحوت ، وإسماعيل كان صادق الوعد .

والمطلوب إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مُقتدياً بهم جميعاً ،
أى أن يكون كسليمان وكداود وكإسحاق وكيعقوب وكأيوب وكيعوسف وكينوس . وأن
يأخذ حصة التميز من كل واحد فيهم وأن يشترك معهم في الفضيلة العامة وهي

التوحيد لله . وبذلك يجتمع كل التميز الذي في جميع الأنبياء في سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً من ربه فلا بد أن نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم قد نفذ الأمر ، وما دام أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه مزايا الأنبياء فحق له أن يكون خاتم النبيين والمرسلين .

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

« من الآية ٩٠ سورة الأنعام .

ولماذا يُطلب الأجر ؟ أنت لا تطلب أجراً ممن فعلت أمامه أوله عملاً إلا إذا كان العمل الذي فعلته يعطيه منفعة تستحق أن تُعطى وتُمنح عليه أجراً ، فكان ما يؤدبه صلى الله عليه وسلم إلى الأمة كان يستحق عليه أجراً ، لكنه صلى الله عليه وسلم يبيع من ربه : قل لهم . إنك تولت عن هذا الأجر .

وقادروا بين من يقدم لأي واحد منكم منفعة قد لا تأخذ من وقته نصف ساعة في جزئية من جزئيات الحياة ، ومن يقوم بعمل يعممكم في ملئ يتعلنى الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة ثم يقول : أنا لا أريد منكم أجراً .

وعند طلب الأجر حصل من كل الرسل إلا رسولين اثنين ، فلم يرد في القرآن أن قالاهما ، وإذا ما جئت لسورة الشعراء مثلاً تجد أن الحق تكلم عن موسى ، وتكلم عن إبراهيم ، ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الرسل ولم تأت كلمة الأجر في قصة إبراهيم وكذلك في قصة موسى عليهما السلام . لكن جاء ذكر الأجر في غيرهما ، يقول سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أُخَوِّضُوا نُوحٌ الْأَشْفُونَ ۝ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاقْبَلُوا اللَّهَ ۝

وَأَطِيعُوا ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾

« سورة الشعراء »

وقال جل شأنه :

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تُتَّقُونَ ﴿١٢٦﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٢٨﴾
وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٢٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

سورة الشعراء

وعندما تستقريء سورة الشعراء تجد الأنبياء كلهم ، وتجد مع قول كل منهم ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ ، إلا سيدنا موسى ، وسيدنا إبراهيم ، لماذا ؟ ونقول : إن من ينزل عن الأجر ، هو من يقدم لهم منفعة .

وفي موسى عليه السلام نجد أنه قد وجهت وقدمت وسبقت له المنفعة من فرعون الذي قام بعريته ، كأنه قد أخذ الأجر مقدماً ، لذلك لم يقل موسى لفرعون «لا أسألك أجراً» لأن القرآن جاء بقول فرعون :

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِنِّي وَلِيدٌ﴾

«من الآية ١٨ سورة الشعراء»

وكذلك لم تأت مسألة الأجر في قصة سيدنا إبراهيم لأنه مخاطب إليه أزر ، ولم يكن من المقبول أن يقول له «لا أسألك أجراً» . وهكذا انطلمست مسألة الأجر في قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا موسى ، ربيت فيما عداها ، مما يدل على أن القرآن موضوع بأدق تفاصيله بحكمة ؛ لأن من يتكلم هو ربنا . ويمتاز سيدنا رسول الله أيضاً ويقول : «لا أسألكم أجراً» إلا آية واحدة استثنى فيها هذا النبي :

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾

«من الآية ٢٣ سورة الفرقان»

والمودة هي فعل الخير النashiء عن محبة قلب ، أما فعل الخير الذي لا ينبج من محبة في القلب فهو فعل معروف ؛ لأن المعروف يضعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب . ولذلك قال ربنا :

﴿وَلَا يَنْفَعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُكُمْ فِي السَّمَاءِ

مَعْرُوفًا﴾

«من الآية ١٥ سورة لقمان»

المعروف - إذن - هو عمل امتداده غير مطحي . والرسول حين يطلب المودة في القرى فهل هي قُرباه صلى الله عليه وسلم أو المودة في قُرباكم ؟ هي القرى على إطلاقها ، وهي القرى أيضا للمتكلم وهو الرسول الذي يبلغ عن الله .

وإن صُنفت على أنها « إلا المودة في القرى » أي القرى للمتكلم وهو سيدنا رسول الله لما استطعنا أن نُوفيه أجراً . أما حين يتحمل كل واحد منا مجالاً من الخير والمعروف في قومه ، هنا تتلاحم دوائر الخير في الناس جميعاً .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن هو إلا ذكري للعالمين » وهي ما تعطيا اجتماع البوائر ويصير كل واحد مُهتماً بالقاريه ويتنازع الناس ويتنافسون في مودة القرى ، وكل منهم يحرص على أن يوسع دائرة القرى . هنا يعم الخير ويدوم الود ويقول الحق بعد ذلك :

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْنَاهُم مَّا لَمْ يَعْلَمُوا آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَلَكِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ذَرِيمٌ فِي خَوَافِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾

الكلام من الذين رفضوا وثابروا عن الإيمان بالله . فبأنى الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يوضح لهم بأنهم لم يعطوا الله حق قدره ، ومعنى القُر معرفة المقدار ، وحق قدره سبحانه لا تقدر عليه نحن البشر ، لذلك تقدره على قدر طاعتنا أو على قدر ما نطلب منا ، وكما قال رسول الله .

(سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)^(١)

والإنسان منا حين يثنى على واحد فهذا دليل أنه قد قُيِّم قدره بقيمة الثناء ، وحين نقِّم قدر الله فعلينا أن نعرف أن صفات الكمال كلها فيه وهي لا تنتهي ولا يمكن أن نحصى . ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى أنه تحمَّل عنا صيغة الثناء عليه : كي لا يوقننا في حرج ، فليس لبشر من قُدر أن يحيط بجمال الله لو بجلاله حتى يثنى عليه بما يستحقه ، وإن أحاط عبد بذلك - وإن يحيط - فمن أين له العبارة التي تؤدي هذا الثناء ؟ ولا يوجد يلجأ لو كذِّب يستطيع أن ينطق العبارات التي تكفي لتقدير هذا الثناء على الله ، فلنوضح لنا الحق من خلال رسوله : أنا حملت عنكم هذه المسألة حتى تكونوا كلكم مواسية . قال رسول الله :

(سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)

وفي كلمة « الحمد لله » وحدها يتسلوَّى الناس جميعاً ، ومن رحمته سبحانه أن سرَّى بين الناس في معرفة صيغة الثناء عليه . ويأتى الحق هنا بالزاوية التي نفى فيها أنهم ما قدروا الله حق قدره . لماذا يارب لم يقدروك حق قدرك ؟ وتلئى الإجابة :

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَزَلَّ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

أى أنهم أنكروا أن يكون الله قد اختار من بعض خلقه من يجعلهم أملاً لتلقى سهجه لا يلاذه إلى خلقه . ويأتى الرد من الحق لرسوله رداً عليهم :

﴿ نُلِّمُ مَنْ أَزَلَّ أَفْئِسَتْ النَّاسُ لِمَا جَاءَهُمْ مِّن نُّورٍ وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

إذن لابد أن يكون القائلون هذا يؤمنون بأن موسى نُزِّل عليه كتاب لتكون الحجة في موصفها . وتكملة مكة كانوا غير مؤمنين بأى رسول ، لكنهم يعمدون أن هناك من هم أهل كتاب ، بدليل أنهم قالوا :

(١) رواه مسلم في الصلاة وبيروني في الصلاة والقرطبي في الجامع الصغير والترمذي في المعجم الكبير والبيهقي في السنن وابن أبي شيبة في المصنف ومالك في الموطأ في مس القرآن ورواه أحمد في المسند ٩٦/١ ، ٩٦٨

﴿ تَوَّانَ أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾

«س الآية ١٥٧ سورة الأنعام»

وتقول : لو دقت النظر في السورة لقد ينطبق الأمر على واحد مخصوص من الدين خلتهم الحجة . وفي تزيح السيرة نجد واحداً من الأخبار كان دائب الحواس في الإسلام ، وكان اسمه «مالك بن الصيف» تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم . والخبر هو عالم اليهود والمعتز في أن يكون من الرهاد فيهم منقطعاً للعلم إلا أنه كان سميماً على الرغم من أن من عادة المنقطعين للمباعدة وإلى العلم أنهم لا يأخذون من الراد إلا ما بقيت ، ويقيم الأود لأنه قد جاء في التوراة : «إن الله يخص الخبر السمين» .

لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مالك بن الصيف - وهو من أخبار اليهود - يخوض كثيراً في الإسلام قال له : «أهي توراتكم» «إن الله يخص الخبر السمين» فبهت الرجل ، وقال : «ما أنزل الله على بشر من شيء» «بهي ما أنزل الله على بشر من شيء» من الذي أنت تقوله ، وهكذا يعلم أن مثل هذا القول قد يأتي من أهل كتاب ، وحين قال مالك هذه القولة قدم عليه رجال من اليهود وقالوا له : كيف تقول . «ما أنزل الله على بشر من شيء» فقال لهم : أغضبي محمد ، فرددت على الغضب باطل .

وهنا قال من سمعه من اليهود : «إذن أنت لا تصلح أن تكون نبياً لأنك لصحتنا . وعزلوه ، وجعلوا يكذب بن الأشرف وولّوه مكانه .

﴿ قُلْ مَنْ أَرَادَ الْحِجَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ، مُؤْمِنٌ يُؤَدِّي لِلنَّاسِ بِمَعْلُومَاتِهِ فَرَأَيْتُمْ
تُبَدِّلُونَهَا وَيَقُولُونَ كَثِيرًا وَعَيْنُهُمْ مَالَهُ تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ وَلَا بَأْسَ كَرَّ قُلُوبُهُمْ ثُمَّ دَرَجَتْ فِي
خُرُوجِهِمْ يَلْمِزُونَ ﴾

«س الآية ٩١ سورة الأنعام»

الكتاب إذن هنا هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى وهو التوراة وقد جعلوه

قراطيس ، أرجعلوه أوراقاً منفصلة يظهر منها ما يريدون ، ويحرقون منها ما لا يريدون مثلما فعلوا في مسألة الرجم كعقاب للزنا . إذن فقد سبق لهم كتمان ما أنزل الله عليهم ، وبين الحق ذلك في آيات متعددة :

﴿ فَغَسَّوْا حَقًّا تَدْرُؤًا بِهِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة المائدة »

والسبى لم يسوه كتموا بعضه وأظهروا بعضه ، والذي لم يكتموه حرقوه ولووا به ألسنتهم ، إذن فهالك سيات ، وكنتمك ، وتحريف . وليتهم اقتصروا على هذا ووهوا عنده بل جاءوا بأشياء من عندهم وقالو هي من عند الله :

﴿ قَوْلَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِآيَاتِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ .

كُفًّا قَلِيلًا ﴾

« من الآية ٧٩ سورة البقرة »

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَيْكُمْ مَالٌ عَظِيمٌ وَلَٰكِن مَّا أَزْكُرْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

فإن كان الكلام في كفار مكة فقد جاءهم القرآن بما لم يعلموا لا هم ولا آباؤهم ؛ لأن الإسلام جاء على فترة من الرسل . وإن كان في أهل الكتاب فهو قول صدق ؛ لأنهم لما كتموا أشياء نصح القرآن ما كتموه وما حرقوه . وجاء القرآن بعدل لهم ، فكانهم عُلِّموا الحق ، ليسمحوا به الباطل الذي غيروه وحرقوه ، وقوله الحق . ﴿ قل الله ﴾ أى أن الذى أنزل الكتاب هو الله .

وساعة يأتي الحق سبحانه وتعالى بصيغة الاستفهام نعلم أن الاستفهام الحقيقي بالنسبة لله مُخَال ، لأنه يعلم كل شيء . وإنما يجيء بالاستفهام يقال له : « الاستفهام الإنكارى » أو « الاستفهام التقريرى » وهو يأتي بهذه الصيغة لأنه يريد جواباً فيه الإقرار من المعاندين ، فإن لم يقولوا واحتاروا أو عجلوا أن يقولوا فقل أنت لهم يا محمد :

﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

ومن الآية ٩١ سورة الانعام :

« والخوض » هو الدخول في الماء الكثير ، الذي لا تستيقظ العين فيه موضع القدم ، وربما نزل في هوة ، ثم استعمل واستعير للخوض في الباطل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » أي ان هذا لعب منهم ولن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة في طريقها ، ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكل الذي يصنعونه هو خوض في باطل ولعب لا جدوى منه ولا صلة له بالجد . ولكن هل معنى هذا أن يتروكهم محمد ؟ لا ، لأنه حين يجد آذانا منهم ينبههم ويذكرهم ، ثم بعد أن يفتح الأمر للإسلام ، فالذي يقيم في جزيرة العرب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف ، لأن المعجزة جاءت مباشرة بقرآن يعلم الكل إعجازه ، وسبحانه قد أنزل التوراة من قبل وأنزل القرآن ماركا ، فالحق يقول بعد ذلك :

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وكلمة « أنزلنا » الأصل فيها نون و زاي و لام ، وتستعمل بالنسبة للقرآن استعمالات متعددة ، فمرة يقول سبحانه :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾

(سورة القدر)

ومرة يقول عز وجل :

﴿وَزَلَّكَ تَنْزِيلًا﴾

« من الآية ١٠٦ سورة الإسراء »

ومرة يستند النزل للقرآن :

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾

« من الآية ١٠٥ سورة الإسراء »

ومرة يستند إلى من جاء به :

﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾

« سورة الشعراء »

هذه إذن تعابير متعددة ، وما دوعي هذا الاشتقاق ونحن نعلم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ليأشر القرآن مهمته في الوجود الجديد ، وكان ينزل كل نجم من النجوم حسب الأحداث . وه أنزل ، هنا للتعليق أى نقل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ليأشر مهمته ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

ونعلم أن القرآن نزل في ليلة القدر وفي غير ليلة القدر ، ولكنه نزل في ليلة القدر جميعه إلى سماء الدنيا ، ثم نزل منجماً ومفصلاً في بقية أيام الثلاث والعشرين سنة التي عاشها صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي ، فإذا ما أراد أنه أنزله من اللوح المحفوظ يأتي به همزة التعمية ، وإذا أراد النزل والمواصلة يقول : « نَزَّلَ » لأن فيها التسليم ، وإذا نزل به يأتي به « نَزَّلَ » لأن القرآن لم ينزل وحده بل نزل به الروح الأمين ، إذن فكلها مُلتقية في أن القرآن نَزَّلَ أو أنزل ، أو نُزِّلَ . وكلمة « نَزَّلَ » تعطينا لمحة ، وهو أنه جاء من أعلى ، ويستقبله الأدنى . وساعة يطلب الحق منا أن نصت لأنزال حكم يقول لنا هز وجل :

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنِزْلَ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾

« من الآية ١٥١ سورة الأنعام »

ومعنى « تعالوا » أي ارتفعوا ؛ لأننا نعبد على الأرض ، ولما كنم أن تشرع الأرض لكم ؛ لأن تشرع الأرض إذا لم يكن في ضوء منهج الله فهو حضيض . والله يريد تشرعها عالمياً ، ولابد لكم من أن تلتقوا من السماء أحكامكم ؛ حتى لا تبوها ولا تضلوا في باطل تشريعات لا تدور في إطار منهج الله .

والحق يقول هنا : « وهذا كتاب أوله مبارك » وهو قول يصدق على القرآن فقط برغم أن كل الكتب السماوية السابقة كانت كتب منهج ، وكانت المعجزة منفصلة عن المنهج ؛ معجزة موسى عليه السلام - كما نعرف - هي العصا ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تميز بأن معجزته عين منهجه ، لأن كل دين من الأديان السابقة كان لزمان محدود ، في مكان محدود . وجاء صلى الله عليه وسلم بالدين الجامع المانع ، لذلك جاءت المعجزة هي المنهج ، فهو أن معجزة صلى الله عليه وسلم كانت من جس معجزات السابقين ؛ أي كانت كوبة مرئية لانتهت . ونحن لم نصدق معجزات الأنبياء السابقين إلا لأن القرآن قالها وصارت خيراً ، وكل منها نلتق بالزمن المحدود والسكان المحدود . لكن الإسلام جاء ليجمع كل الأمانة وكل الأمكنة ، ولذلك لزم أن تكون المعجزة مستصعبة للمنهج ؛ حتى يستطيع من يأتي بعد عصر النبوة إلى قيام الساعة أن يقول : محمد رسول الله وتلك معجزة القرآن مبارك ، ونحن في أحرافنا حين نتكلم بالعمامة تأتي بالكلمة التي هي من صفح ويصح الاستعمالات التفصيطة التي سمعناها ، فنجد من يقول : « والله هذا الأكل فيه بركة » فهو مصنوع لاتنين وأكل منه أربعة وفاض وراى . . . إذن ، « ابركة » أن يعطى الشيء أكبر من حجمه المنظور .

وبركة القرآن غالبية ومهيمنة ، ولوقس كل إنسان حجم القرآن بحجم الكتب الأخرى لوجد حجم القرآن ثقل ، ومع ذلك فيه من الخير والبر والبركات والتشريعات والمعجزات والأسرار ما تضيق به الكتب ، ونجد من يؤلف ويفسر في أجزاء متعلقة ، ومع ذلك ما استطاع واحد أن يصل إلى حقيقة المراد من الله ، لأن القرآن لو جاء وأمرغ عطاه في القرن الذي عاش فيه الرسول فقل لى بالله : كيف نستقبله القرون الأخرى ؟ إنه يكون استقبالا عالميا من العناية به لأن سيكون كلاماً مكرراً .

إذن فقد بين فيه كل شيء ومنه أخذ كل إسمان ورومان قدر ذهنه ، ولو أن القرآن يراد تفسيره لما فسره أحد غير من انفع له نزولاً عليه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبسطه واحد بعد ذلك ان يقول شيئاً في التفسير ؟ إذن لو فسره الرسول صلى الله عليه وسلم لجمده لأنه لا يجرؤ أحد أن يأتي بتفسير بعد الرسول .

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن عطاءات القرآن لا تنتهى ، لذلك لم يفسره . بل أوضح بما تليقه العقول المعاصرة حتى لا ينصرفوا عنه . ولو كان القرآن قال : إن الأرض كرة وتدور حول الشمس ، أكان يصدقه أحد ؟ إن هناك حتى الآن من ينكر ذلك . وبعد القرآن يشير ويلمح إليها إلماحا خفياً إلى أن تسع العقول لها . فيقول الحق :

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾

« من الآية ١٠ سورة الزمر »

ومدام الليل يأتي وراء النهار ، والنهار يأتي وراء الليل في شبه كرة ، فالذي يأتي عليه الليل والنهار شكل الكرة . فكان كلاً من الليل والنهار دائر وراء الآخر حول كرة ، إذن فالحق يعطى اللمحة بميزان حتى تسع العقول للفهم . ويقول القرآن :

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

« من الآية ١٤٢ سورة البقرة »

وهذا قول واضح ، لأن كل واحد منا يعرب المشرق والمغرب . لكن حين يقول الحق :

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾

« سورة الرحمن »

أكان يهمها المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نعم ، لأنه ساعة ما يقول : إن الشمس أشرقت من المكان الفلاني ، وغابت عن مكان آخر ، فساعة شروقها عندك تغرب عندي ، وساعة تغرب عندك تشرق عندي ، وهكذا يصير كل مشرق معه مغرب ، إذن فقد صدق قول الله « رب المشرقين ورب المغربين »

ونعلم أن الشمس لها مشرق كل يوم ، ومن زار في الصعيد المعبد الذي توجد به ٣٦٥ طاقة - فتحة - وتطلع الشمس في كل يوم من طاقة معينة ولا تطلع من الفتحات الأخرى يتأكد من أن الشمس لها في كل يوم مشرق ، إذن هناك مشارق ومغارب ، وصديق الله القائل : رب المشارق والمغرب .

إن القرآن يخاطبنا بأسلوب يحتمله العقل المعاصر ، وإذا ما جدد جديد نجد الأمر مكنوزاً في القرآن ، ونجد تأويلاً جديداً لا يسخ التأويل الآخر ولكنه يرتقى به . إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يفسر القرآن التفسير الكاسي ، لأنه كان لابد أن يفسره بما تطيقه العقول المعاصرة له ، وإن فسره بما تطيقه العقول المعاصرة له فمعنى ذلك أنه لم يعطى القول التي تأتي بعد عذاء من القرآن ، لذلك ترك صلى الله عليه وسلم القرآن دون تفسير إلا في التوراة اليسير . وتجد ذلك في آيات الكون ، أما في الأحكام فالأمر محدد .

لكن في الأشياء التي يتجدد فيها العلم فقد تركها . ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام من القرآن : « لا تنقض حجابي » وكأنه ينفذنا إلى أن حجابي لا تنقض ولا تنتهي ، وكل يوم يعطى حجاب جديد . إذن فالقرآن مبارك بحكم ما هو مكنوز فيه إلى قيام الساعة . وأنت تلقت إلى الناس فتجدهم يتعبون في اكتشاف أسرار الكون ، وتجد القرآن قد مس ما يبحثون عنه مساً خفيفاً .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِبَارِكِ مُصَدِّقٍ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

وساعة نقول : « بين يدي الشيء » أي الشيء الذي يسبق ، والكتب السابقة هي التي نزلت بين يدي القرآن أي قبله ، والمقصود بها الكتب المعروفة المشهورة وهي التوراة والإنجيل إذ هما الكتابان الباقيان إلى الآن .

والقرآن يصديق الذي بين يديه ولا يعني ذلك تصديق المحرف بل تصديق « الأصل » . ولذلك نجد عبد الله بن سلام وغيره حينما جاءوا للإسلام اعترفوا بذلك ، ويقول عبد الله بن سلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انشرح صدري

للإسلام ، ولكنى أعلم أن اليهود قوم بهت - لى أنهم مكابرون - فانا أريد أن تسألهم
عنى قبل أن أسلم ، فقال رسول الله لهم : ما تقولون فى عبد الله بن سلام ؟ قالوا :
جبرنا وابن جبرنا وشيخنا ووليئنا ... إلخ .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ها بدأوا فى كبل
الباب لسيدنا عبد الله بن سلام فقال : ألم أقل لك يا رسول الله إني قوم بهت ؟

وقوله الحق : ﴿ مُصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ لى أنك إذا ما أردت أن تعرف صدق هذه
القضية فهات ما لا حاجة لهم فيه إلى تكذيبه ، ومستجد القرآن قد جاء موافقاً له . مثال
ذلك حين جاء القرآن بالرجم . هم حاولوا أن يخففوا حكم الرجم ، لأن امرأة زنت
ولم يردوا أن يجاملوا . فرفضوا أمرها للنبي وقال بعضهم لبعض : إن حكم بعلم الرجم
فهذا خير لنا ولها ، ومن المصيب أنهم غير مؤمنين بمحمد بينما يريدون الحكم منه ،
فيقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : هاتوا الكتاب ، ويأتون بالصحف الموحدة
عندهم ، فوجدوا آية الرجم : إذن فالقرآن مُصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من غير المكتوم ،
ولا المصروف ، ولا المؤول .

وإذا ما نظرت إلى القضايا التى يلتفتون إليها ، ولكنها تمر أمامهم خاطفة ، تجد
أنت هذه القضايا وسيلة يريد الله بها أن يكشف الفساد والكذب والتجبر ، حتى
لا يطمس أهل الباطل معالم الحق . ومثل هذه القضايا تحتاج إلى المُحَقِّقِ النَّبِيِّ .
ونجد سبحانه جاء فى التوراة بمثل للأمة المحمدية ، ويكرر هذا المثل فى القرآن
حين يقول سبحانه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أُشْدُّوا عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمًا بَرَّاهُمْ ﴾

من الآية ٢٩ سورة الفتح ،

وحين ننظر إلى كلمة (أشدوا) ، وكلمة (رحماً) ، نجد فى ظاهر الأمر تناقضاً
فى الطباع ، أما المدقق المحقق فيعلم من هذا القول أن الإسلام لا يطبع المسلم
على لون واحد ؛ لأنه يريد منه كل الألوان ، فهو يحلقه شديداً لفقدته مواطن الرحمة ،
ولو فطره وخلقه رحيماً لفقدته مواطن الشدة . والإسلام يطلب من المسلم الالتزام

بالتقييم الروحية والمادية لتحرس كل منهما الأخرى ، لأن المسبحين لوراحوا للمادة فقط لصلوات حضرتهم شرسة ، ولوراحوا للتقيم لما استطاعوا أن يقوموا حضارة نبى وتقوم ، والحق يريد حضارة تجمع بين الاثنين ، الروح والمادة ، لذلك يجمع الإسلام بين الاثنين ، الروح والمادة ، لأن اليهود فى فهمهم بها انتقدت الروح ، والنصرانية فى فهمهم لها غرقت فى الروحانيات وانتقدت المادة ، وجاء القرآن مُصدّقاً لما بين يديه ، وهكذا جاءت الآية بالبلاغ عن أهل الكتاب .

ويتابع البلاغ لأهل قرىش فاطنى مكة فيقول : ﴿ ولتذر أم القرى ﴾ ، ونعرف أن أم القرى تعنى مكة ، وقد حاول البعض أن يتخذ من هذه الآية حُجَّةً ويقول : إن القرآن قد نزل لجماعة العرب فقط ، وبهؤلاء يقول : أنتم لم تحسنوا الفهم للمعطيات اللفظ ، ونسأل : ما الحَوْل أولاً ؟ . الحَوْل هو المحيط الذى حول النقطة ، أى نقطة وكل نقطة ، وحول كل نقطة قَطْر وقد يكون القطر ٢٠ كيلومترا ، وقد يكون مائة كيلومتر ، وكلما بعدت المساحة فهى حول هذه النقطة ، إذن فكلما الحَوْل تشمل كل ما حوله ، وحول كل مكان يشمل كل مكان .

وبعازا سميت أم القرى ؟ ، إما لأن هاجر ، لما نزلت بابنها الرضيع يواد غير فى زرع ، وبعد ذلك تكاثر الناس فصارت هى أم القرى ، أو لأن فيها الكعبة ، وكل الناس يؤمنونها ، أو لأن الحاج يأتيها من كل صوب كما يهب ويسرح الأبناء ويلوذون بأبهم

﴿ وَلْيَذَرِ أُمُّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾

من الآية ٩١ سورة الأنعام ،

من - إذن - الذى يؤمن بهذا الكتاب الذى أنزل مُصدّقاً لما بين يديه ليتذر به أم القرى ومن حولها ، ومن هم الذين يؤمنون بالآخرة ؟ ولماذا جاء الربط بين أم القرى وما حولها وبين الذين يؤمنون بالآخرة ؟ . لأن أحداً لن يذهب لتعاليم القرآن لينخذها وينفذها إلا من يؤمن بأن هناك يوماً نذهب فيه جميعاً إلى الآخرة .

لذلك يخاف فيهرب من المعاصي ، ويرغب في الطاعة ؛ لأن هناك ثواباً وعقاباً ، أما الذي لا يؤمن بالآخرة فلا يسمعك ولا يصاح ولا يتناد لك حين تأمره بالعفة ؛ لأنه لا يرى ثواباً أو عقاباً ولا ينتهي عن السرقة أو الكسر أو المواقات جميعاً ؛ لأنه لا يخاف من الآخرة ؟ .

إذن فالذي يملكنا جميعاً هو الآخرة والخوف منها ، ومن لا يؤمن بالآخرة يقول : أنا غير مُلزم بشيء ، ولا شيء يقيد حريتي . ثم لماذا أقيّد حريتي ؟ !

وهنا نقول : أنت تأخذ الأمر بسطحيه ، فعلى فرض أن في قوانين السماء ما يقيد حريتك ، لكنه لا يقيد حريتك وحدك ، إنه يقيد حرية الكل ، فإن قيد حريتك بالنسبة لئناس ، فهذه القوانين السامية تقيد حرية الناس بالنسبة لك ، فحين يهلك الدين عن السرقة ، ونحن النظر إلى محارم المعصية فهو يقول لئناس كلها : لا تسرقوا من فلان ولا تنظروا إلى محارم فلان ، وبذلك تأخذ حركتها كاملاً ، وبهذا تعيش في نظام مثالي لا تنحب فيه ، لأن انجاري والمطلق عليك جاري على غيرك مع جبراته عليك .

لكن من يؤمن بالآخرة هم كل واحد يريد أن يسبق نفسه من العقاب ، ومن الوعيد . ويدخل نفسه في الوعد وفي الثواب . فمثلاً - والله المثل الأعلى - حين نقول للولد : اذهب لتلقى المعلم ، قد يرد : أنا لا أريد شهادة ، فيجبره والده في البداية أن يستذكر ، ثم نجد الشاب بعد مشوار المذاكرة يخاف من الرسوب وأن عليه أن يجتهد وأن ينجح . أما إن لم يوجد امتحان في آخر العام فالمذاكرة وعدمها سواء لديه . فمن أقرب - إذن - إلى الاستجابة لتداء العمل والخير ؟ إنه من يؤمن بالآخرة .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

(سورة الأنعام ٩٢ سورة الأنعام)

ولماذا جاء بالحفاظ على الصلاة هنا ؟ . نحن نعلم أن الصلاة هي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ونحن نحلل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تنزع من الطاعات لأنها تأخذ زمناً يجهلون أن يقضوه في اللعب ، ونحن نقول لواحد مثلاً : اترك

عملك وصل . قد يرد : لا ، لأنى حين أترك عملى يضيع على كذا . ولو كان طيباً
لذكر عندنا من مرضى سيكشف عليهم ، ولو كان عاملاً لقال : إن توقف الآلة فى أثناء
الصلاة يجعلنى أخسر كثيراً .

وعنا نقول : يا أخى تمال إلى الطاعة ، والبركة تعوض لك ما تظن أنك تخسره ،
وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال ابرمن بها لا تأخذ الكثير من
الوقت ، فشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله لا تحتاج منك إلا إلى أن تقولها مرة
واحدة ، وهذا ركن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه ، والركعة لا تأخذ منك
إلا ما تعطيه يوم الحصاد ، وهذا يستغرق وقتاً قليلاً ، وكذلك زكاة المال أحر العام ،
والصوم شهر فى السنة ، وإذا كان زمن الصوم أوسع قليلاً إلا أنه وقت لا يمر إلا كل
عام . والحج مرة فى العمر إن كنت مستطيعاً .

إن أنت تجد للتكاليف الركنية فى الإسلام بالنسبة للأرمان وقتها يسير وقليل لمن
يحرص عليها ، لكن الصلاة تؤدى فى كل يوم خمس مرات ، ورقعتها بالنسبة للزمن
أوسع . ولغاؤها يحتاج إلى طهارة من حدث أو جنابة وكذلك طهارة المكان ، لذلك
جاءت الصلاة ركناً أصيلاً فى الإسلام . وأنت لا تعرف الإنسان إن كان مسلماً إلا إذا
سمع الأخان وقام صلى . لذلك هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم ؛ لأن الأركان
الأخرى لزماتها محصورة ، ومع أنها كذلك إلا أنها انحلت من التشريع حفظها من
الركنية الأصيلة .

إن كل تشريعات الإسلام أركاناً وفروعاً جاءت بالوحي إلا الصلاة ؛ فقد جاءت
بالمبشرة ، لأن الصلاة دعاء الخالق خلقه لحضرته ، لذلك كان لا بد أن يكون
تشريعها بهذه الصورة الفريدة ، تشريعاً جاء بالحضرة الإلهية .

ونفى آخر ، ما دامت الصلاة هى العملة فى الدين فكان الصلاة تقول للأركان
الأخرى : أنا أجمعكم وأضمكم وأتسلكم جميعاً ، فالمسلم فى أثناء الصلاة يقول :
أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . والمسلم يصوم فى أثناء الصلاة عن
شهوات البطن والفرج بل وتكون الصلاة صوماً لا عن الأكل والشرب ، وشهوة الفرج

فقط بل هي إمساك عن كل حركة ، وفي الصلاة زكاة ، لأن الزكاة تعني أن تخرج بعضاً من مالك ، والعمل فرع العمل ، والعمل فرع الوقت وأنت حين تصلي إنما تزكي بالأصل وهو وقت العمل ، وأنت في الصلاة تتوجه إلى الكعبة كما يتوجه الحاج والمعتمر ، إذن هي الصلاة كل أركان الإسلام مجمعة .

إذن فاهمية الصلاة أنها قد اندمج فيها كل أركان الإسلام ، وبها يتحقق الاستطراق الاجتماعي للخلافة في الأرض ؛ لأن الخلافة في الأرض تقتضي مواهب متعددة ، وطاقات متعددة ، ولا يمكن لخلقة واحدة في الأرض أن يكون مجموع هذه المواهب بل لا بد أن تتفرق المواهب في المتفرق والشثيت من الناس ، فلا يمكن أن يكون الإنسان الواحد مهندساً وطيباً ومحامياً وصانعاً وحارثاً وزارعاً وتاجراً . ولذلك وزع الله سبحانه وتعالى مقتضيات الخلافة في الأرض على الحلفاء في الأرض توزيعاً يجعل الالتئام ضرورياً وليس تفضيلاً ، بحيث تكون أنت في حاجة إلى مواهب ليست عندك فتذهب لصاحبها . وصاحبها أيضاً يحتاج إلى مواهب عندك ليست عنده فيأتي إليك .

وانظروا إذا شاء واحد أن يستغنى في بعض الأشياء التي يقوم بها الغير كم يتعب ؟ ، فإذا ما أتممه السباكون والموه في الأجور . وحاول تعلم السباكة ، ولا بد له أن يتعلمها من سباك وكذلك حياكة الملابس . ومعي ذلك أن الله أبقى المواهب مفرقة مشتتة في الخلق ليجتاح كل خلق إلى كل الخلق والناس لا تنظر إلى جهة التميز إلا إلى شيء واحد هو : الفنى .

ونقول للفنى المالى أو العقارى هو نوع فقط من المواهب ؛ لأنك مثلاً إذا نظرت إلى العالم الذى يظل عشرين عاماً يستوهب العلم ، ثم يقابله من يستغنى في فتوى فيقول لها مجاناً ، لو علم هذا السائل ماذا تكلف الأستاذ الذى أفقده طوال عشرين سنة بحثاً في الكتب وسامعاً من الأساتذة واستنطاقاً من الأحكام لدفع مكافأة لهذه الفتوى ؛ لأن العالم كان مسخراً لمدة عشرين عاماً لأحد أنت الفتوى في نصيحتها النهائية في يسر وسهولة وتتضح بها .

وحين نرى من يمسح الحذاء ، ونجد صاحب الحذاء وهو يمد رجله والآخر يمسح الحذاء تقول لنفسك : لماذا كل هذا الزهد لصاحب الحذاء ، ولماذا هذا الانكسار لماسح الأحذية ؟ . وأقول : أنت رأيت صاحب الحذاء وقت راحته ، ورأيت ماسح الأحذية وهو في وقت عمله . ولو عرفت كيف جله صاحب الحذاء بالتقود التي سيدفعها لماسح الأحذية لعلمت أنه كان مسخرأ له بهامة كان يعمل ليحصل على التقود ليمطى منها ماسح الأحذية ، ولذلك قال الحق :

﴿ لِيُنَجِّدَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَزْزًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزمزم)

والناس لا تنظر في التسخير إلا للعنى والنعير ، ونقول : خلوا التسخير على أن كل واحد في الكون مُسَخَّرٌ في الموهبة التي عنده ، ومُسَخَّرٌ له في المواهب التي ليست عنده . ولواد الحق سبحانه وتعالى أن يربط الناس بهذا ربطاً قسراً وليس تفضيلاً ، لأن من عنده أولاد يريدون أن يأكلوا وامرأة تحتاج إلى أن تعلم ولا يملك مفوداً ، وليس أمامه من عمل سوى نزع المجارى ، فيلقى بالذوات نزع المجارى ، ويؤدي العمل ليعمل من يحولهم ، ولولا ارتباطه بضرورة الحياة له ولمن يعمل لما عمل في مثل هذا العمل ، إذن فهو مربوط ربطاً ضرورياً يؤدي خدمة في الكون . ولو كان كل البشر يعيشون في رغد العيش أكان هناك من يتطوع ليزج المجارى ؟ لا يحدث ذلك أبداً ، لأنه عمل لا يأتي بالتفضل بل بالاحتياج .

وهكذا نرى أن الخلافة في الأرض تقتضى استطرافاً ، وهذا الاستطراف لا يدوم كثيراً ، فمرة تكون القوة لإنسان ثم تذهب منه ، ومرة يكون الثراء لإنسان ثم ينحسر عنه هذا الجنى ، ولذلك أخبرنا الحق أنه جعل الأيام قولاً بين الناس ليستقيم العالم بالرباط الضرورة في بعض الأعمال ، وإن بدا لنا أن هناك مواهب تميز بين الناس في شكلهم ، وفي هئولهم ، وفي مطيعهم ، نجد الطبيب يعمل في أكثر من مكان ، وإن سار على رجليه لتعب ، لذلك يشتري سيارة ، ويظن من يراها أن السيارة امتياز لا مثيل له ، متناسياً أن هذه السيارة تقتضى مصالح الرجل ليعلم الآخرين .

مثال آخر : أنت إن نظرت إلى كوب الشاي الذي تشربه بمزاج وليس لضرورة

حيوية ، وإن جاءك من يقدم لك الشئ ليقول : إن الشئ قد نفذ من المنهى ، فتعلمه جنيهاً وتقول : مات كيهناً من الشئ من هذا البقال ، ويذهب العلام ليحضر عليه الشئ فيجد البقال وكأنه قد جهزها له ، وأنت لا تعرف أن عليه الشئ هذه قد أخذت وقتاً وعملاً من اثنين أو ثلاثة لتصل إليك ، لأن الحق قد كلف أناساً ليزرعوا الشئ في بعض البلاد ، وأناساً آخرين يستوردونه ، ثم تأتيك عليه الشئ لتتبع منها كويلاً لتشربه

إذن فالمسألة كلها تسخيراب ؛ لذلك توجد الموارد الاجتماعية التي تقتضيها أعمالنا ، ويذهب الحق هذه القوارق بأن جعل في الصلاة استطرافاً للجميع ، وتنتفت صاحبة يقول المؤذن : (الله أكبر) أن الكل قد جاء ، الضى قل الفقير ، والسخير مع الأمير ، ويخلق الجميع أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم لينساقوا في الصلاة ، ومن له رئيس يتكبر عليه يراه وهو ساجد مثله لله ، فتريحه لحظة استطراف العبودية . ولنمض أن كلامنا سيصل بمفرده في الصلاة اليومية ، لكن عندما يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة ، يأمرنا الحق أن نلذ ونترك كل شيء لنؤدى صلاة الجمعة معاً ويرى الضميف عظيم يتضرع مثله إلى الله ، ويرى القوى نفسه ويجانه الضميف ، وحين يعود كل ما إلى عمله تسقط أفعى القوة والزهو ؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد وكنا سواء .

إن هذا هو الاستطراف الاجتماعي ؛ لأننا حين نركب بعضها في أثناء الصلاة نجد أنفسنا في حضرة الرب الذي أعد لنا الكون ، وسخره لنا ، وأعطاه الطاقات ، وأعطانا المواهب ، وإذا تأملنا واحداً له وظيفة كبيرة جداً ، فأنت حين ترغب في لفاته تكسب التماساً ، ونظر في الالتماس ، فإما أن يوافقوا وإما لا يوافقوا على لعانك به . وإن وافقوا يسألوك : في أي أمر ستكلم ؟ وسبحة لك الوقت الذي ستجلس فيه معه وليكن ثلاث دقائق مثلاً ، وحين تجلس إليه وتنسى نفسك يقوم هو ليلذك على أن المقابلة انتهت ، لكن ربما يقول لنا : تعالوا لي في أي وقت ، وكلموني في أي شيء ، وأنا لا أمل حتى تملؤا ، وأنتم يا عبيدى من تهرون المفانية ، وهذا عطاء كبير جداً . يغدقه المولى عروجل على عباده .

هل هناك ربوبية أفضل من هذه ؟ .

إذن فالصلاة إذا نظرت إليها وجدت أنها : جماع كل فضائل الدين وفيها كل الفضائل للمجتمع ، لذلك جعلها الله عماد الدين .

ويقول الحق بعد ذلك .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٢﴾

ساعة يأتي الحق بأسلوب استنهامي فليس الهدف أن يستنهم . إنه - سبحانه - لا يريد أن يأتي الخبر من عنده ، وهو يقدر أن يقول : الذي يفترى ظالم ، لكنه هنا يأتي بالاستنهام الذي يؤكد أنه لا يوجد أظلم من الذي يفترى على الله كذباً ، ويعرض الله القضية على المؤمنين وكأنه يسأل ليعرض كل مؤمن القضية على ذاته ويستبطن الجواب . إن الذي يفترى على ربه والعنيل له كذباً يُوقع به العقاب ، فما بالك بمن يفترى على الله ؟ وحين تسمع أم هذا الكلام : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) . وتعرض الأمر فلا تجد أظلم منه ، وهكذا يستخرج الله الحكم من قم المقابل .

وكيف يفترى إنسان الكذب على الله ؟ كال يبلغ الناس ويذمى ويقول : أنا نبى

وهو ليس كذلك . هل تكون الفرية على الله ، وإليك أن نظن أنه يكذب على الناس ، لا ، إنه يكذب على الله ، لأنه أبلغ أن الله قد بعث وهو لم يبعث .

ورد الإنتراء : كذب مُتعمد مقصود ، ويطلق ذلك على النبوات التي ادعيت من مثل مهلمة الكذاب ، مسجح ، طليحة الأسدي ، الأسود العنسي ، كل هؤلاء ادعوا النبوة ، ومع ذلك لم يسألهم أحد عن المعجزة الدالة على نبوتهم ، لأن كل واحد منهم عندما أعلن نبوته جاء بما يخفف عن الناس أحكام الدين .

فواحد قال : أنا أخفف الصلاة ، والركعة لا داعي لها . لذلك تبعهم كل من أراد أن يتخفف من لوامر الدين ونواحيه ، موهما نفسه بأنه مُتدين ، دون أن يلتزم بالتزامات الدين ، وهذا هو السبب في أن أصحاب النبوات الكاذبة ، والادعاءات الباطلة يجدون لهم أنصاراً من المنافقين ، فالواحد من هؤلاء الاتباع قد يكون متفقاً ثم يصدق مياً دجالاً ، ويسأل التابع للدجال ويقول له : أسألت مذهي النبوة هذا ما معجرتك ؟ - وهذا أول شرط في النبوة - ولم نجد أحداً سأل هذا السؤال قط ، لماذا ؟

لأن التلئين فطرة في النفس ، ولكن الذي يصحب التلئين هو الالتزامات التي يفرضها الدين ، وعندما يرى التابع الضعيف النفس أن هناك من يبرحه من الالتزامات الدينية ، ويخففه أنه على دين ، يقلل الالتزامات عليه ، لذلك يتبعه ضعاف النفوس ، وتصبح المسألة فرضي .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الانعام)

هناك من ادعى وقال : أنا نبي ، وقال : سأنزل مثل هذا القرآن ، لماذا قال هذا الملهي وهو النصر بن الحارث ؟ يقول - في أمة أدنها أذن بلافية ، تتأثر بموسيقى اللفظ - : « والطاحات طحنا والمجنات عجننا والخابرات خبزنا » !! ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول - « والزراعات زرعنا والحارثات حرثنا » ثم يقول من ادعى أنه لوحى إليه : « والمجنات عجننا والخابرات خبزنا » ، وكان عليه أن يتبعها أيضاً :

« وَالْأَكْلَانِ أَكَلًا وَالْهَاضِمَاتِ هَضْمًا » .

وطبعاً كان هذا الكلام لوناً من هراء فلرخ ، لأن الحق إنما أنزل كلامه موزوناً جاذباً لمعانٍ لها قيمتها في الخبر ، ولذلك نزل القول الحق : ﴿ أَوْقَالَ أَوْحَى إِلَى وَلَمْ يَوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ۖ ﴾ ، وقد جاء واحد هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي وكان أختاً لسيدنا عثمان من الرضاعة وكان كاتباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد في حضرة النبي . فترلت الآية :

﴿ وَلَمَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا الْأَنْطُمَةَ طَلْقًا ۖ خَلَقْنَا الْأَنْفَ مَضْفًا ۖ خَلَقْنَا الْأُصْفَةَ عِظْمًا ۖ فَكَسَوْنَا الْفُصْفَةَ لَحْمًا ۖ ثُمَّ أَوْرَثْنَاهُ صَفًا ۖ فَانْصَرَفْ ۖ ﴾

(سورة المؤمنون)

وانبهر بالأطوار التي خلق فيها الحق الإنسان فقال : ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . فقال له رسول الله : اكتبها فقد نزلت . وأغتر الرجل وقال : إن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه ، وإن كان كاذباً لقد قلت كما قال ، فاعلم رسول الله عنه . وقال لصحابته : من رآه فليقلته . وفي عام الفتح جاء به عثمان رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله ، اعف عن عبد الله . فسكت رسول الله . قال عثمان رضي الله عنه : اعف عنه . فسكت رسول الله . وكررها ثالثاً : اعف عنه يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وكان لسيدنا عثمان منزلة خاصة عند رسول الله ، وأشار الرسول لسيدنا عثمان ابن عفان ، فأخذ الرجل وانصرف ، فلما انصرف قال الرسول لصحابته : ألم أقل لكم من رآه فليقلته ؟ قال سيدنا عباد بن بشر : يا رسول الله لقد جعلت إليك بصرى . أي وجهت عيني لك . لنشير على بقلته ، فقال رسول الله لعباد بن بشر : « ما ينبغي لرسول أن تكون له خاتمة الأعين » وأسلم ابن أبي سرح وحسن إسلامه

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وما هي عقوبات هؤلاء الذين
يفترون على الله الكذب ، ويحاولون لتفريروا بالناس مدعين أن الله أنزل
عندهم وحياً ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا
أَنْفُسَكُمْ أَفَرَأَيْتُمْ تُخْرَجُونَ عَذَابَ الْهُودِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عِبْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ
عَنِ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الأنعام)

وساعة تسمع « لو » هذه تعرف أنها شرطية ، وأنت تقول - مثلاً -
لوجاءني فلان لأكرمه . وحين نقرأ القرآن نجد كثيراً من « لو » ليس لها
حوب ، لماذا ؟ لأن الإتيان باحوب يعنى حصر الجواب في دائرة منظومة ،
فمن أردت الجواب السدى لا يمكن للفظ أن يحصره فانت تتركه للسامع
مثلما تجد شايأ يلعب دور الفتوة في الحجرة ويتعب سكانها ، ثم وقع في
أبدي الشرطة وأحدوه ليعاقبوه ، فيقول واحد من رآوه من قبل وهو يرمق
أهل الحارة . آه لو رأيتم لولد الفتوة وهو في يد الشرطة !

أين جواب الشرط هـ ؟ . نه لا يأتي ، لأنه يتسع لأمر عجيب يصيق
الأسلوب من أدائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات
الموت » لم يقل لي : ماذا ترى ؟ لأنك ستري عجباً لا يسؤديه اللفظ
والعمرات « هي الشدة التي لا يستطيع الإنسان منها فكاك ولا تخلصاً .

ويشاع الحق - « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم » . فمن هم
ملائكة الموت اسمين يقبضون الروح ؟ أو الكلام في ملائكة العذاب ؟
بها تشمل أسوعين ملائكة قبض الروح وملائكة العذاب

« والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم » كأن ملائكة قبض الروح

نقول لهم : إن كنتم متآيين على الله في كثير من الأحكام لقد تأييتم على الله إيماناً ، وتأييتم على الله أحكاماً ، وتأييتم على الله في تصديق الرسول ، مهاهمو ذا الحق قد أمرنا أن نقبض أرواحكم ، فهل أنتم قادرون على التمرد على مرادات الحق ؟ إن كنتم كذلك فليظهر كل منكم مهارته في التأني على قبض روحه ، أو أن الملائكة يبالغون في النكاية بهم كأن نقول لواحد : اخنق نفسك وأخرج روحك بيدك أو : أخرجوا أنفسكم من العذاب الذي يجيق بكم .

و«عذاب اخون» هو العذاب المؤلم وفيه دلة . وأساليب العذاب في القرآن متعددة ، فبعض مرة : « من العذاب المهين » أو « أعد لهم عذاباً مهيناً » أو « لهم عذاب أليم » فمرة يكون العذاب مؤلماً لكس لا ذلة فيه ، ومرة يكون العذاب مؤلماً وفيه دلة . وكما أن النعمة فيها تعظيم فالنقمة فيها ذلة . وأضرب هذا المثل — وهو امثل الأعلى ، فقله سبحانه مرة عن أي تشبيه — : قد نجد حاكماً يعقل إنساناً ويأمر بأن يجلس المعتقل في قصر فخيم له حديقة ، لكن حين يأتيه الطعام ، يقول له الحارس : خذ اتسمم ، وفي ذلك إهانة كبيرة .

ولماذا يذيقهم الحق العذاب المهين ؟ تأتي الإجابة من الله . « بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » . كأن يقول واحد : أوحى إلي ولم يوح إليه شيء . وهم أيضاً يستكبرون على الآيات التي يؤمن بها العقل الطبيعي ، ويقول الحق :

﴿ وَجَهِدُوا بِهَا وَأَمْتَصِّمُوا أَنْفُسَكُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ
شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ
تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ



وقوله الحق : « ولقد جتتمونا فرادى » أي أن كلًّا منكم يأتي إلى الله فراداً إما كان له في دنياه من مال أو ولد أو أتباع ، جاء كل منهم لله وليس معه الأصنام التي ادعى أنها شركاء لله ، وأحمدهم شفعاء له .
« فرادى » جمع « فردان » أو « فريد » مثل « سكارى » جمع « سكران »
« أسارى » جمع « أمير » ، إنهم يأتون إلى الله زمراً وجماعات ، ولكن كل منهم جاء منفرداً عما كان له في الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع ،
بدليل أنه قال : « وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » .

« خولّه » أي جعل له خدماً من الأتباع ومن المریدين ، ومن المقدر والمضيق عليهم في الرزق ومن العائشين في نعمته ، جاء كل منهم منفرداً عما له في الدنيا كما خلقكم الله أول مرة ، أي كما دخلتم في الدنيا .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادًى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

وقوله الحق : « جتتمونا » أي كان الإنسان الذي أذنّب يكاد يقدم نفسه للعذاب معترفاً أنه يستحق هذا العذاب إقراراً منه بالذنب ، فكان الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله والتوبخ لنفسه التي انصرفت عن الحق فيقول لنفسه : أنت تستحقين العذاب .

﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ لِلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾

أَنْتُمْ فِئَكُمُ شُرَكَائُكُمْ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

« البين » هو ما يفصل أو ما يصل . فعندما نجد اثنين قاعدين بينهما « بين » فهذا البين فاصل وواصل . فإن اعتبرته واصلًا ، أقول : تقطع هنا ، أى وقع التقطع بينكما ، وانقصمت الروابط بينكم وتشتت جمعكم ، وإن كان البين فاصلا فقد وصلوا أنفسهم بالأصنام .

وماذا كانت صلة هؤلاء بالأصنام التى يشركونها فى العبادة ؟ كانوا يقدمون لها القرابين ، وغير ذلك . وهذه الأصنام وكل من جعلوه شريكًا مع الله سيفر منهم يوم القيامة . وهكذا يتحقق قوله الحق : « لقد تقطع بينكم » .

ويواصل سبحانه : « وضئ حنكم ما كنتم تزعمون » ، ود ضئ : أى تاه وغاب ، ما كنتم تبعدون عنهم فلا تهلونهم مصداقا لقوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْخَيْطِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَإِنَّ تَوْفَكُونَ ﴾

بعد ما تكلم الحق عن الترحيد والتبوات ، ومن كانوا يعاكسون ويمارضون وينادون تلك التبوات ويكلمونها وقالوا فيها الإفك أراد الله أن يلفت خلقه إلى ما أعلمهم استيقاء حياتهم ، وكيف سخر لهم كل الكون بما فيه .. جادا ونباتا وحيوانا ، وكأنه سبحانه يوضح : إن كنت لا ترى أن

الخالق يستحق عبادتك فانظر إلى ما أنعم عليك به من المم ، ومادام العبد المخلوق له كل نعم الخالق الأعلى فلماذا لا يسمع كنيته سبحانه ؟ أيها المخلوق أنت تربي على مائدة الرحمن وهو خالقك فانظر وتأمل وأعرف .

« إن الله فائق الحب والنوى » وساعة نسمع لفظ الجلالة أي علم واجب الوجود وهو الله ، فعليك أن تأخذ لفظ الجلالة بكل ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الخيال ما عرفته وما لم تعرفه ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله وهو قديم عليه ، وهذا الخلق وتلك انقيومية فعل يقتضي صفات متعددة تقتضي قدرة ، وحكمة ، وعلماً واسعاً ورحمة ، وبسطاً وقضاً وغير ذلك ، وبدلاً من أن يأتي لك بصفات قدره ، وصفات الجمال و يذكرها ويعددتها لك يقول سبحانه عن نفسه . « الله » ؛ لأنه الاسم الجامع لكل صفاته . ونحن نقول في بدء كل عمل . بسم الله ، وفي ذلك يجهز لما يحتاج إليه أي عمل ، لأن أي عمل يحتاج إلى قدرة ، فنقول : باسم القادر ، ويحتاج إلى علم فنقول . « باسم العليم » ويحتاج إلى حكمة فنقول : « باسم الحكيم » ويحتاج عونه فنقول « باسم العزيز » وقد يحتاج إلى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه في حرب فنقول . « باسم القاهر » إذن كل عمل يحتاج إلى حشد من صفات لكمال والجلال بخدم الفعل ، وبدلاً من أن نقول باسم القادر وباسم الخليم وباسم العليم وباسم القاهر ، يوفر عليك سبحانه كل ذلك فنقول : بسم الله ؛ لأن اسم الجلالة وهو « الله » هو الجامع لكل صفات الكمال .

« إن الله فائق الحب والنوى » ، فائق أي شائق ، جاعل الحب والنوى كل منهما فائتين « والحب » ما لا نواة له مثل الشعير والقمح والأرز وهناك ما له نوى مثل البلح والخوخ ، ونجد في قلب النواة شيئاً آخر وهناك نوع آخر له بذور مثل الطبخ ، وفي كل بذرة نجد فيها شيئاً ، فيوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن عظمتي تتجلى في أسمى أخلق الحب وأخلق النوى ، وهناك حبوب مفروقة جاهزة ، مثل حبة القمح مثلاً وحبّة العدس

وأنت إذا ما نظرت إلى هذه العملية وجدت شيئاً عجيباً !!

فحين تأتي لسواة لبلح أو حبة الشعير ، ونضعها في الأرض في بيئة استخراجها ، وبقليل من الرطوبة ، نجد الفلقتين قد خرج منها نبتة وتكاد النواة أن تنفلق ليخرج منها الزبان الضعيف بين الفلقتين ويتكون ما يسمى بالجذير . وهكذا نجد سر الحياة يأتي من الفلقتين ، وإن نزعنا هذا الجذير تنتهي الحياة . ولذلك وجدنا من يتعجب حين اقتحم أمشاط النمل ووجد في العش قطعاً صغيرة مفتحة بيضاء بجانب العش ، واكتشفوا أن هذه هي زبانات الحب الذي يدخله النمل للعش ، فلو أن النمل أدخل الحبوب كاملة لقد تأتي لفحة من رطوبة فتكبر هذه الحبة ، وتتمو وتصير شجرة تفكك بالعش ، فس لذي هدى النمل إلى أن تفعل هكذا ؟ إنه الله . ونجد النمل يخلق حبة نبات « الكزبرة » إلى أربع قطع لأنه لو قطعها إلى اثنتين قد تنبت ، من الذي علمه ؟ إنه سبحانه :

﴿ الَّذِي خَلَقَ قَسْوَى ① وَالَّذِي يَمْدِدْ فَهَيْئَى ② ﴾

(سورة الأمل)

والعجيب أنك حين ترى النبتة الضعيفة ساعة أن تخرج إلى الحياة وهي التي ستكون من بعد ذلك جذراً إنها مشة وضعيفة إن أمسكتها بيدك تسحقها ، لكنها تخترق قلب الأرض الصلبة التي لو ضربتها بسكين لانكسرت السكين ، لكن الجذير الضعيف يدخل في قلب الصخر والأرض ، فأى قوة أعطته ذلك ؟ أي قوة تخترق له الأرض ؟ وهل الجذير هو الذي خرق الأرض أو تحرقت له ؟ لقد خرق الحق الأرض للبيرة لتستخرج منها غذاء للزروع ، إنها قدرة الحق سبحانه « فائق الحب » الذي ادحر في فلقتين اثنتين قوتاً للنبات إذا مسته رطوبة تغذى عليها الربيعة إلى أن ترى الجلود ، ويستمد النبات غذاءه من الفلقتين إلى أن يثبت ويتمكن في الأرض ثم تتحول الفلقتان إلى ورقتين خضراوين .

ويتابع الحق سبحانه : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » .
وحين تأمل العلماء هذا القول وأرادوا أن يوضحوا لنا ما الحي ؟ وما الميت ؟

فإن الجميع أن يعرفوا ما هي الحياة؟ الحياة هي قيام الوجود بما يؤدي به مهمته ،
فحياة الإنسان فيها حركة وحس وجرى ، ثم هناك حياة ثانية لى الحيوان ، وحياة
ثالثة فى النبات، وحياة ذات طابع مختلف فى الجماد . مثلما علمونا فى المدارس
حين كان المدرس يمسك بقضيب مغنط ليجذب برادة الحديد ، حتى الحديد الصلب
فيه لون معين من الحياة . وكلنا رأينا فى المدارس الانبوبة الزجاجية التى وضعو فيها
برادة الحديد وكيف تتأثر بقضيب المغناطيس ، وتمتد وتضيق وتغير فى مسترى واحد ،
وهكذا نعرف أن الحياة هي الطاقة الموجودة فى كل كائن لىؤدي مهمته حتى الأحجار
بمختلف فيها أشكال الحياة، فهناك حجر يأخذ شكل الرخام ، وأخر يأخذ شكل
المرمر، وكل لون من الأحجار له شكل من أشكال الحياة .

ونقرأ فى القرآن :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وجاء الحق بمقابل الهلاك وهو الحياة ؛ فالهلاك ضد الحياة والحياة ضد الهلاك ،
ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

إذن ما دام كل شيء هالكا ، فكل شيء فيه حياة ، والخطأ أن نظن أن كل حياة
تشابه فى الحس والحركة مع الإنسان ، لا ، إن الحياة فى كل شيء بحسبه ، إلى أن
تقوم القيامة ، فكل شيء حى به حياة تناسبه ، ونحن نسمع :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ لَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَسَوْفَ لَأُفْقَهُنَّ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الإسراء)

نقول : نعم كل من يسبح بحمده يقول قولاً ، وإياك أن تقول إنه تسبيح دلالة ،
لأن بعضهم يقول : إن هذا تسبيح دلالة على الخلق ، ويقول : لو أن الذي يقصده
الله تسبيح دلالة على خالقه لما قال : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

يقن : فلا أحد منا يفهم لغة التسبيح ، وعرفنا من قبل حين سمع سليمان عليه
السلام قول النملة ونيسم لها ضاحكاً ، وكذلك ما سمعه من الهدهد ، وكذلك
تسخير الجبال لتسبح مع داود عليه السلام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالْفَوْى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ
ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (١٥) ﴾

(سورة الاسم)

إن كل كلمة لها دلالتها ومعناها فكل كلمة المعلم تدلنا على إحاطة علمه بكل
شيء فى الوجود ، وكلمة الحكمة تدلنا على أن كل شيء ما يصدر عن حكمة .
وكلمة الرزاق تدلنا على أن كل موزوق فى الوجود إنما أخذ من قبضه وخيره ،
وهكذا إلى ما لا نهاية لكمالها من صفات ذاته . وكلمة « الله » تدل على كل صفات
الجلال والجمال والكمال ، فإذا قال : « الله » بهذا الاسم : يشمل القاهر ، المالم ،
الحكيم ، القدير ، وكل صفات الحق ما علمت منها وما لم تعلم ، ما دلت ذاته
سبحانه وتعالى متصفة بكل صفات الكمال ، فالواجب أن يكون كل فعل يصدر عن
ذاته المتصفة بالكمال له مطلق القدرة والجمال والكمال .

إذن فحين يقول الحق ذلك قائماً يلفتنا إلى أن كل شيء كائن فى الوجود إنما هو من
خلق الله ، وأن له حياة تناسب مهمته ، فالإنسان له حياة تناسب مهمته . والحيوان له
حياة تناسب مهمته . والنبات له حياة تناسب مهمته . والجماد له حياة تناسب مهمته .
وإذا نظرت إلى الأشياء كلها بهذه المعنى وجدت أن كل موجود فيه حياة ، ولكن الحياة
الكاملة بكل مقوماتها وجدت فى الأعلى من المخلوقات وهو الإنسان ، والله سبحانه
وتعالى خلق فى الإنسان الحياة حساً وحركة ، ثم أعطاه حياة أخرى هى التى تُصعد

حياته وتجمل لحيته قيمة ؛ لأن حياتنا التي نعيشها إنما يتمتع بها المؤمن والكابر ، وقصارى ما فيها أن نعطينا الحس والحركة قدر عمرنا فى الحياة ، ولكن حياة الإيمان بما يبعث الله لنا من منعم على يد الرسول . نعطينا حياة أوسع ، وأخلد ، وأوغد ، وهذه هى الحياة الحققة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة المتكوت)

وهذه هى الحياة الحقيقية وقول الحق : « إن الله خالق الحب والنوى » هو المقدمة الأولى للحياة ، ثم تكلم فى الحياة وأنه يخرج حياً من ميت ، وهو هنا قد حاطبنا على مقدار أوليات علمنا بالأشياء ، فالشئ إذا لم يكن له حس وحركة نعتبره ميتاً لكن لو نظرت إلى الحقيقة لوجدت كل شئ فى الوجود له حياة . مصداق ذلك قوله جلّت قدرته : « كل شئ - هالك إلا وجهه » .

وما دام كل شئ هالِكاً فكل شئ قبل أن يهلك كان فيه حياة

والله سبحانه القائل :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَنَّكَ الْمَلِكُ تَوَتَّى الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَذَلُّ مَنْ تَشَاءُ يَهْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٦ ﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِقَدْرِ حِسَابٍ ٢٧ ﴾

(آل عمران)

ولسادا جاء فى هذه الآية بـ « تخرج » وجاء فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها قوله : « ومخرج الميت من الحي » ، إن الذين يعيشوا هنا البحث نظروا نظرة سطحية فى المنايعة الخزئية فى الآية ، وهى : « يخرج

الحى من الميت ؟ وقال : «ومخرج الميت من الحى ؟ ونسوا أنه سبحانه قال : إنه يخرج الحى من الميت ؟ بهيان أن الله فائق الحب والنوى ليخرج الحى من الميت أى أن الله قلن وشق الحب والنوى لاجل أن يخرج الحى من الميت . .

ثم قال «ومخرج الميت من الحى ؟ هو مقابل لفائق فلا تأخذها مقابلة للجزمية فى الآية ؟ ولأن الاسم يدل على التهوت ، والمفعلى يدل على الحدوث ؟ فالحق سبحانه وتعالى له صفة فى ذاته ، وصمة فى متصفقات هذه الذات ، فهو سبحانه وتعالى رزاق ، قبل أن يكون له مخلوق يرزقه ، هو رزاق ، وبعد ما خلق من يرزقه هو رازق ؛ لأنه هو الخالق ، والخلق صفة لطادات وإن لم يوجد المتعق ، وهو سبحانه للحى قبل أن يوجد من يحىه ، لأن صفته فى ذاته أنه يحى ، بحيث قبل أن يميت من يريد أن يميته ؛ لأن الصفة موجودة فى ذاته .

وسبحانه فائق الحب والنوى أى قبل أن يوجد الحب والنوى الذى يخلق ، ومخرج الحى من الميت هو صفة ثابتة فى ذاته قبل أن يوجد متعلقها . وله صفة - أيضاً - بعد أن يوجد المتعق ، فإن أراد الصفة قبل أن يوجد المتعلق جاء بالاسم « فائق ومخرج » وإن كان يريد للصفة بعد أن توجد ، يقول : « يخرج » ، « يخرج » .

وبدليل الحق الآية :

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ قَاتِي تُوْفِكُونَ ﴾

(فى الآية « سورة الانعام »)

و «ذا» اسم إشارة لما تقدم ، وهو سبحانه فائق الحب والنوى ومن يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى وهو الله والكاف فى قوله « ذلكم » لى مخاطبتهم وهم نفس ، أما اللام من « ذلكم » فهى لتباعد الميم للمجمع . فعين يريد الحق أن يحاطب رسول ، يقول :

﴿ ذَلِكَ أَنْكِسِبُ لَارِبِّ فِيهِ ﴾

(من الآية ٢ سورة الفرق)

ولكنه ها يخاطبنا فيقول : « دلكم » إشارة إلى قور الحق سبحانه وتعالى الله ، وفائق ، ومخرج ، والخطاب لجمهور المحاطين بالقرآن ، فإذا كان الله بهذه الصفات فكيف ينصرفون عن الإيمان به وتوحيده ؟ وذكر لنا أن مقوم من مقومات الحياة وهو النبات وهو مأكله ، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الحق الحب ويخلق السوي ليخرج الحي من الميت وهو مخرج الميت من الحي فهو أولى بأن يكون إلهاً معبوداً فكيف تصرفون عنه ؟ وإلى من تصرفون ؟ إلى من توجد فيه صفات أرقى من هذه الصفات ؟ لا يوجد من فيه صفات مثل هذه ، ولا أرقى من هذه الصفات

وإذا سمعت كلمة : « أنى » فافهم منها أنها تأتي للتعجب ، تأتي وتطلب أن يدلنا واحد على كيفية انصرافهم عن الله وتوحيده مع وضوح الدلالات والبراهين

ومرة يقول الحق سبحانه

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

هو سبحانه يخاطب الناس ويقول لهم : كيف تكفرون بالله ؟ غلله في ذاته يستحق ألا يكفر به ؛ لأنه هو الذي خلق من عدم ، وأمد من عدم ، ولم يشاركه أحد أو سارعه في هذا الأمر ، وإليه نرجع جميعاً ، فكيف تكفرون به ؟ وهذا تعجب كبير ؛ لذلك يقول سبحانه ها : « تأتي تؤفكون » أى فكيف تصرفون عن الحق وتعبدون عنه إلى الساطل فتعبدون - مع الله - إلهاً آخر بعد أن تعلموا أن هذه الصفات له - سبحانه - وليست لغيره ؟ وكل تعجب يأتي في « أنى » مثل قوله الحق :

﴿أَلَيْسَ يُحْيِي مَنِلَهُ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى هذه الله بعد موتها ؟

ويقول سيدنا زكريا سيدتنا مريم . (أليس لك هذا)

إذن فانتعجب ملأهم لكلمة « ألى » فكأن الضمات التي تقدمت
صمات موحدة للإيهام بالله واحداً قهاراً مريداً عادلاً حكيماً يرجع إليه
جميعاً ، فقولوا لنا كيف تكفرون بهذا الإله ؟ وإلى من تسجدون إذا كان
هذا الإله يُكفر به ؟ أمالك شيء ادعى أنه خالق وأسه رزق ؟ لو أن شيئا
ادعى أنه خلق أو رزق كك بعدركم ، لكن لم يلدع شيء في الوجود بأنه
خلق أو رزق ، والمدهوة تثبت لصاحبها ما لم يقهها معاصراً

« فَأَتَى تَوَفَّكُونَ » وكلمة « ألى توفكون » تعنى كيف تعرفون انصروا
كذباً ، لأن « الإلهك » معناه الكذب المتعمد

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦١﴾﴾

وسبحانه يأتى بآية أخرى من لآيات المعجزة كما جاء بآية الأولى في
أنه هو الذى خلق لنا ما يقيم حياتنا

« فالق الإصباح وجعل الليل سكناً » . ومعنى « فالق » أي جعل
الشيء شقين ، وهما نعمتان متقابلتان لا تكفى واحدة عن الأخرى ، إذ

لا بد أن يوجد إصباح ويوجد الليل سكاماً ؛ لأن الإصباح هو زمان وضوح
لأشياء أمام رؤية العين ، لأسما نعم أن الظلمة تجعل الإنسان يضطرب مع
الأشياء ، فإن كنت أقوى من هذه الأشياء حطمتها ، وإن كانت أقوى
منك حطمتك إن السير في الظلمات التي لا يوجد فيها نور يهدي الإنسان
إلى مراقبه قد يؤدي إلى حسارة الأشياء

إنما في الصباح عمل وسعي في الأرض ، ونملاً الدنيا حركة فإذا ما
أصبنا الكد والتعب والصب من الحركة فالحظ الطبيعي للكائن الحي أن
يسريج ويهدأ ويسكن لا يحركه فقط ولكن سيكون كل شيء حوله ؛
لأنك إن كنت سكاماً ويأتى بك صوم فهو يؤثر في تكوينك ، ولذلك
يقولون الآن ان « الأشعة » التي يكتشفون بها أسرار ما في داخل جسد
الإنسان ترك آثاراً .

إذن فالإشعاع الصادر من الشمس يجمع عنك ليلاً حتى يسريج
الجسم من كل شيء ، من كل حركة ناشئة فيه ، ومن حركة واحدة عليه ،
ومكذا تكون نعمة سيكون انبيل وطمنه مثل نعمة إصباح ، وكلاهما تتم
الأخرى ، ولذلك قلنا : إذ الحق سبحانه وتعالى في أول السورة قدم
الظلمات على النور .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَحَمَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

١ من الآية ١ سورة الأنعام

لأنك أنت لا تستطيع أن تسرع بحركتك في النور إلا إذا كنت شيطاً
ومرتاحاً أثناء الليل ، فإن لم ترتج كنت مرفقاً ولن تستطيع العمل بدقة في
حركة النهار . إذن فإطعمة مقصودة في الوجود . ولذلك فالخضرة الراقية
هي التي تنظم حياة الإنسان ليكمل نهاراً ويسريج ليلاً ، حتى لا يستأف
عمله في الصباح مكثوداً . ومن يزور ديف مصر هذه الأيام يهاجاً بأن
أهل الريف قد سهروا طوال الليل مع أجهزة لترجيه ، ويقومون إلى العمل
في الصباح وهم مكثودون مرفقون

ويقول : لأخذ الحصار من قمتها ، ولا بأحد لخصاره من أسعدها ؛

فحين تذهب إلى أوروبا تجد الناس تحمد وتسكن ليلاً ، ومن يسير في الشارع لا يسمع صوتاً ولا يجد من يجرح من بينه ، ولا تسمع صوت ميكروفون في الشارع ؛ حتى ينال كل إنسان قسطه من الهدوء ، ويختلف الأمر في بلادنا : هالشوارع تمتلئ بالضجيج ، والمريض لا يستطيع أن يرتاح ، ومن يذاكر لا يجد الهدوء اللازم ، ومن يتعبه تخرجه الضوضاء من جو العبادة ، وبعد من يصف ذلك بأنه نقمة حصارية !!

ونقول : لتأخذ كل نعمة من نعم الله على قدر معطياتها في الوجود النافع لك ، وحين يأتي الليل عليك أن تصلي المصباح حتى تهج ولا تشاعب فيك جرثباتك وتكرينك

وسبحانه يقول : « فائق الإصباح » . و « فائق » - كما قلنا - تعني شائق ، فهل الإصباح ينعلق ؟ . وبماذا ؟ . ونقول . إن « فائق » هي اسم فاعل ، مثلها قول . « قاتل الضربة » أي أن الضربة من يده قاتلة

و « فائق الإصباح » معناها أن الصباح ينعلق عن الظلمة ، لأن الظلمة متراكمة وحين يأتي الإصباح فكأنه فلق الظلمة وشقها بيخرج النور ، وتعني « فائق الإصباح » بوضوح أن الفلق واقع على الإصباح فيأتي من بعده الظلام ، وهذه من دقة الأداء البياني في القرآن ؛ لأن الذي يتكلم إليه

وامرؤ القيس قال .

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى

صبح وما الإصباح منك بأمثل

والصبح والإصباح معناها واحد

هل الصبح من طلوع الشمس ؟ أو الصبح من ظهور الضوء قبل أن تشرق الشمس ؟ يأتي الإصباح أولاً وهو النور المادي ، وبعد أطباء العيون بعد إجراء جراحة ما لإنسان في عينيه يقومون بعك الأربطة التي

يساعد الجرح على الالتئام ، يفكونها بالتدريج حتى لا يخطف الضوء البصر فوراً ، ومن رحمة الله أن خلق فترة الصبح بضوئها الهادئ قبل أن تطلع الشمس بضوئها كله دفعة واحدة . فكان الصبح جاء ليقتل ظلمة الليل فلقاً هادئاً ، ثم جاءت الشمس فعلقت الصبح .

إذن الإصباح فائق مرة لأنه شقّ الظلمة وقلعها ومفلوق مرة أخرى ، لأن الظلمة جاءت بعده . إذن فاسم الماعل قد أدى مهمتين . المهمة الأولى : خالق الإصباح أي دخل بضوء الشمس . وإن قلنا : إصباحه فائق ، أي ظلمة الليل الأولى تعلقت . إذن فالإصباح فائق مرة ، ومفلوق مرة أخرى . ومباحثه حين يقول : افائق الإصباح وجعل الليل سكناً ، يريد أن يعطى شقين اثنين ، لأنه هو في ذاته فائق الإصباح . فيأتي بالاسم ليعطى لها صفة الثبوت ، ثم جاء بـ « وجعل الليل سكناً » صفة الحدوث بعد وجود المتعلق . فإذا أراد الصفة اللازمة له قبل أن يوجد المتعلق يأتي بالاسم . وإن أراد الصفة بعد أن وجد المتعلق يأتي بالفعل .

ولذلك نجد القرآن الكريم يصور اثبات في قوله الحق :

﴿ وَكَانَ لَهُمْ نَسِيمٌ دِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الكهف)

الكلب هنا على هذه الصورة الثابتة ، وحين يريد القرآن أن يأتي بالصيغة التي تنفي ، يأتي بالفعل .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

وكان المباس أن يقول . فاصبغت الأرض مخضرة ؛ لأنه قال : « أنزل » لكنه يأتي بالتجديد الذي يحدث « فتصبح » لأرض مخضرة .

ويتابع الحق : « والشمس والقمر حسيباً » ونحن نعرب الشمس والقمر وجاء بعد ذلك بكلمة « حسيباً » ، على وزن فُعْلان ، وهذا ما

يدل عادة على المبالغة مثلاً تقول : فلان وأعياف بالله كفر كفسراناً . ومثلما تدعو .
فقر الله لك عفسراناً . فحين نحب أن يبالغ نأى بصيغة فُعْلان . وجاء القرآن بكلمة
« حسيان » في موضعين اثنين فيما يتصل بالشمس والقمر جاء بها هنا في الآية التي
نحن بصدد خروا طرباً عنها « والشمس والقمر حسياناً » ، وفي سورة الرحمن يقول
الحسن سبحانه .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (٥)

(سورة الرحمن)

وما الفرق بين التعبيرين ؟ « حسيان » هنا تعني أن نحسب الأشياء ، فنحن
نحسب السنة بدورة الشمس بـ ٣٦٥ يوماً وربع اليوم وهي تمر بالبروج فيها خلال هذه
المدّة ، والقمر يبدأ بروجيه كل شهر في ثمانية وعشرين يوماً وبعض اليوم ، ونحن
نحسب بالشمس اليوم ، ونحسب بها العام ، ولكننا نحسب الشهر بالقمر ، وأنت
لا تقدر أن تحسب الشهر بالشمس ، بل نحسب الشهر بالقمر لأنه يظهر صغيراً ثم
يكبر ويكبر ويكبر . ولذلك يثبت رمضان حينئذ بالقمر لا بالشمس . واليوم نشبه
بالشمس

وهكذا عرفنا أن الشمس والقمر يقومان ويعملان في حسابنا للأيام والشهور ،
والأثنان حبان الشمس بها حساب ، والقمر له حساب وإذا ما نظرت إلى كلمة
« حسيان » تفهم أن الشمس والقمر ، كليهما مخلوق ليحسب به شيء آخر ، لأنهما
خلقنا بحسيان ، أي أنهما قد أريد بهما الحساب الدقيق ، لأن الشمس مخلوقة
بحساب ، وكذلك القمر .

وتعال إلى الساعة التي نجعلها ، ألا يوجد بها عقرب للساعات ، وآخر
للدقائق ، وثالث للثواني ؟ . وهنا أقل ما قدرنا عليه ، وإن كان من الممكن أننا
نقسم الثانية إلى أجزاء مثلاً حملنا في المساحات ، فهناك المتر ، وانستيمتر ،
والميليمتر ، ثم بعد ذلك قلنا الميكرومليمتر . إذن ، كلما ترتقى في التقدم العلمي
نحسب الحساب الأدق . ولم تكن الشمس والقمر حساباً لنا بحسب بهما الانشاء إلا
إذا كانت مخلوقة بحساب .

إنك حين تنظر إلى ساعتك تدرك قصرة عقرب الشواني ولكنك لا تدرك

حركة عقرب الدقائق ، وكذلك لا تدرك حركة عقرب الساعات ، وكل من
العقارب الثلاثة يدور «بمرسلك» وترس معين . إن انحلت الحركة في رصبتك
أو ترس ، يعكس هذا الخلل على بقية العقارب ، والثانية محسوبة على
الدقيقة ، والدقيقة محسوبة على الساعة

وهكذا فإن لم تكن الساعة مصنوعة بهذا الحساب الدقيق فهي لن تعمل
جيداً . وهكذا لا تعتبر الساعة معياراً لحساب أزمانها إلا لأنها في ذاتها
خلقت بحساب الحق سبحانه يقول « الشمس والقمر بحسبان » أي
لنحسب بهما لأنها مخلوقتان بحسبان أي بحساب دقيق ، ولما لم يقل
الحق حساب وحده بحسبان ، وحسبان في آية سورة الرحمن ٩ . ذلك لأن
لأمر يقتضى مبالغة في الدقة . فهذا ليس مجرد حساب ، لكنه حساب

ويدين الحق لأية قوله . «لئن تقدير العزيز العليم» ، وكلمة «العزيز»
تعيد العدة والمهر فلا يستطيع أحد أن يعلم عليه . فهذه الأحكام التي
يراهن أقوى منك ولا تتداولها يدك ، إنها تؤدي لك مهمة بدون أن تقرب
منها ، فأنت لا تقرب من الشمس لتبسطها ، مثلاً تفعل في الساعة لكي
اخرعها إساناً مثلك ، والشمس لها قوة قد أمدتها الله خالقها بها ولا شيء
في صنعته ولا في حيله يساوي عليه . فهذا هو تقدير العزيز العليم ، وهو
سبحانه يعطينا حثيثاً الثقة في كونه حساباً لحسب عليها فهو جل
وعلا خالقها بتقدير عزيز لا يعلم ، وهو عزيز يعلم علماً مطلقاً لا نهاية له
ولا حدود . ويقول الحق من بعد ذلك

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتٍ

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾

وبعد أن أوضح سبحانه أنه قد خلق الشمس والقمر بحسبان لتكون
حساباً بتقدير منه ، وهو العزيز العليم ، إنه - سبحانه - يصف لنا مهمة
النجوم فقال « تهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » ، والنجوم هي

الأجرام الالامعة التي نراها في السماء تهتدي بها في ظلمات البر والبحر ،
ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خلقه ستضطربهم حركة الحياة إلى الضرب
في الأرض ، والسير ليلا في الأرض أو البحر مثل من يهوسون ويشتبهون
الأمس في الدنيا ولا يمكن أن يناموا بالليل بل لا بد أن يسهروا لحراستا ،
كل ذلك أراد الله تقدير عزيز حكيم عليم ، ولذلك ترك لنا المجوم
لهتدي بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضرعون في الأرض أو يمشون في البحر
يسمهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء هليل يهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون
بالنجم ، يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلاني أمام عبيك ، وسرفوق
الحق للفلاني واجعل النجم الفلاني عن يسارك وامش تجد كذا ، أو اجعل النجم
الفلاني خلفك وامش تجد كذا .

ومن لم طمئت الطبيعة لمعت الحركة بالليل ، وهي حركة تدبصر إليها الكائن
الحق ، فجعل الحق المجوم هداية لمن تجبرهم الحياة على الحركة في الليل .

وعلى ذلك فالمجوم ليست فقط للاعتداء بها في ظلمات البر والبحر ، لأنه لو كان
المصدر منها أن تهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، فكانت كلها متساوية في الأحكام ،
لكننا نرى نجما كبيرا ، وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر في الواقع من النجم
الكبير لكنه يبعد عنها بمسافة أكبر ، وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية
بها في حركة الإنسان برأ وبحراً ، فليست هذه هي كل الحكمة ، هذه هي الحكمة التي
يدركها العقل العطري ألا ، لذلك يأسي الحق في أمر المجوم يقول كريم آخر ليوضح لنا
ألا نحصر الحكمة في الهداية بها ليلا برأ وبحراً فيقول : « وعلامات البر والنجم هم يهتدون »
فلم يقل - سبحانه - يهتدون في ظلمات البر والبحر إذ - النجوم - لها مهمة أخرى ،
إنه جلت قدرته يقول :

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَرْقِعِ النُّجُومِ (٧٧) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٨) ﴾ (سررة الواقعة)

وكن يوم يتقدم العلم يبين لنا الحق أشياء كثيرة ، فما هو ذا الملف الذي يقولون عنه
الكثير ، وما هي ذي نجوم جديدة تكشف تأكيداً لقول الحق :

﴿وَالْمَاءَ بَيِّنَتَهَا بِأَيْمِيهِ وَإِنَّا لَنُوسِعُونَ﴾ (١٧)

(سورة الداربات)

أى أنه سبحانه قد خلق عالماً كبراً وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قدر إدراكاتك وامداداتك في لطر الطيى الذى لا تستخدم فيه آلة إصبار ، وأخذت منه بالنظر المعان الذى تستخدم فيه التليكب والميكروسكوب ، وغير ذلك من أقيار صاعدة ولذلك يقول الحق سبحانه : « فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم » وبعض العلماء يقول : إن كل إنسان يوجد في الوجود له نجم ، وترتبط حياته بهذا النجم ، وحين يأفل النجم يأفل قريته على الأرض ، وهناك نجوم لامعة يدرك حمصاتها ، ونجوم أخرى غير لامعة وبعملة عنا ، ويقال إنها تخص آدمياً لا يدري هم أحد نقلة تأثيرهم بأعمالهم في الحياة . ويستخدم العلم كل يوم ويربط لنا أشياء بأشياء وكأن الحق يوضح إيسى خلقت لكم الأشياء بما قد زعمت بغيركم أن تصلوا إلى شيء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا هذه متهى الحكمة ، بل وراها حككم أهل ، سبحانه هو الحكيم القادر ، إيت قد تدرك جانبا يسرا من حكم الله ، ولكن عليك أن تعلم أن كمال الله غير متب ، ولا يزال في ملك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته إلى أن ينهى الله الأرض ومن عليها

ويقول الحق سبحانه في تدليل الآية : « لقد فضلنا الآيات لقوم يعلمون » والآية هي أشرف العجب ، ويطلق على آيات كوبة .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾

(من الآية ٢٧ سورة صلت)

ونطلق كلمة «آية» على الطائفة من القرآن التي لها فاصلة بين هذه آيات قرآنية ، وآيات كوبة ، والآيات الكوبة تعتبر معصرة للآيات القرآنية ، فنفسل الآيات في الكون مبراه من بعددها أنكلاً والبراهن وحكمها وغايات . وتفصيل الآيات في القرآن هو مايسها إليه الحق في قرانه وليلفت النظر إلى أن ذلك التفصيل في آيات الكون وذلك الحق العجيب الحكيم

الذى لا يمكن ان يكون إلا لاله قادر حكيم يستحق ان يكون إلهاً موحداً ، ويستحق ان يكون إلهاً معبوداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ
قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٧٨﴾

وقد تكلم سبحانه لنا - أولاً - عن الآيات المحيطة بنا والتي بها تقوم حياتنا من خلق الحب والنوى ، وبعد ذلك تكلم عن الشمس والقمر ، ثم تكلم عن النجوم ، كل هذه آيات حوك ، ثم يتكلم عن شيء من دوائنا ليكون الدليل أقوى ، إنه - سبحانه - يأتي لك بالدليل في ذاتك وفي نفسك ؛ لأن هذا الدليل لا يحتاج منك إلى أن تمد عينك إلى ما حولك ، بل الدليل في ذاتك ونفسك ، يقول سبحانه :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٨)

(سورة الفرقان)

أى يكفى أن تجعل من نفسك عدلاً ، هذا العالم موجود فيه كل ما يشهد قدرة الحق ، وأحقته بأن يكون إلهاً واحداً ، وإلهاً معبوداً .

وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة " ينطبق على هذا القول أنه إخبار من الله ، وأنه - أيضاً - استقراء في الوجود ، الذى نسمي التناول للماضى ؛ لأنك لو نظرت إلى عدد العالم في هذا القرن ، ثم نظرت إلى عدد العالم في القرن الذى مضى تحده نصف هذا العدد ، وإذا نظرت إليه في القرن الذى قبله ، تحده ربع تعداد السكان الحاليين . وكلما توغلنا في الزمن اناغى وتذهب فيه وتبعد ، يقل العدد ويتناهى إلى أن نصل إلى "نفس واحدة" ، وهذا ما ذكره الله لنا ، ولقائل أن يقول . كيف تكون نفساً واحدة وهو القائل :

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

(سورة الداريم)

ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى خلق النفس الواحدة ، وأوضح أيضاً أنه خلق من النفس الواحدة روحها ، ثم بدأ التكاثر . إذن فالاستقراء الإحصائي في الزمن الماضي يدل على صدق القضية وكذلك كل شيء متكاثر في الوجود من نبات ومن حيوان . تهدف تواصل التكاثر وإن رجعت بالإحصاء إلى الماضي تجد أن الأعداد تقل وتقل إلى أن تنتهي إلى أصل منه التكاثر إنه يحتاج إلى اثنين .

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ولماذا جاء الحق هنا بقوله «من نفس واحدة» ولم يقل روحين ؟ أوضح العلماء أن ذلك دليل على الانحدام الشديد ، لأننا حين نكون من نفس واحدة فكلنا - كل الخلق - فيها أعضا من النفس الواحدة ، وفلت من قل إذا لو أننا نستثمر مكعب من مادة ملونة حمراء مثلاً ثم وضعناها في قارورة ، ثم رججها القارورة نجد أن المستثمر المكعب من المادة الحمراء قد سح في القارورة وصار في كل قطرة من القارورة جزء من المادة الملونة ، ومب أن أحد القارورة ووضعناها في برميل ، ثم رججنا البرميل جيداً سجد أيضاً أن في كل قطرة من البرميل جزء من المادة الملونة . إذاً أحدا البرميل ورمياه في البحر مستنساب المادة الملونة ليصير في كل قطرة من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة

إذن مادام آدم هو الأصل ، ومادامنا باثنين من آدم ، ومادام الحق قد أخذ حواء من آدم الخى فصارت حية ، إذن محبتها موصولة بآدم ومحب من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جزء حي ، وبذلك يردن حي سبحانه إلى أصل واحد ، لينير ويحرك لب أصول الزاحم والنبوء . واتعاطف

وبقول سبحانه «مستغفر ومستودع» والمستغفر له معان متعددة

يشرحها الحق سبحانه وتعالى في قرآنه . وفي قصة عرش بلقيس نحمد سيدنا سليمان
يقول .

﴿ أَتُكْمِلُنِي بِعَرْشِيهَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة النمل)

وأجاب على سيدنا سليمان عفت من الجن ، وكذلك أجاب من عنده علم من
الكتاب . ويقول الحق سبحانه

﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾

(من الآية ٤ سورة النمل)

مستقر هنا إذن تعنى حاصراً ، لأن العرش لم يكن موجوداً بالجلوس بل أحضر
إليه . وفي مسألة الرؤية التي شاءها الحق لسيدنا موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقْرَ مَكَانَهُ
فَسَوْفَ نَرَاكَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الاحزاب)

ونعلم أن الجبل كان له استقرار قبل الكلام ، إذن فـ «استقر» تأتي بمعنى حصر ،
وتأتي مرة أخرى بمعنى ثبوت

والحق يقول

﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الاحزاب)

وذلك نلحظ من مدة وجودنا في الدنيا ، وكذلك يقول الحق .

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الفرقان)

إذن فالجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار مستقر للكافرين ، يقول عنها الحق :

﴿ إِنَّمَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقْلَمًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

إذن فالمستقر تأتي بمعنى حاضِر ، أو ثابت ، أو كتعبير عن مدة ورمز للحياة في الدنيا ، والجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار ، ولذلك احتج العلماء ونظر كل واحد منهم إلى معنى ، منهم من يقول : « مستقر » لالأصلاب ثم استودعها الحق في الأرحام ، ومنهم من رأى أن « مستقر » مقصود به البقاء في الدنيا ثم نستودع في القبور

ونقول : إن الاستقرار أساسه « قرار » حضور أو ثبات ، وكل شيء بحسبه ، وبجبه استقرار يتلوه استقرار يتلوه استمرار إلى أن يوجد الاستقرار الأخير ، وهو ما يطمع فيه المؤمن .

وهذا هو الاستقرار الذي ليس من بعده حركة ، أما الاستقرار الأول في الحياة فقد يكون فيه تغير من حال إلى حال ، لقد كنا مستقرين في الأصلاب ، ثم بعد ذلك استودعنا الحق في الأرحام ، وكنا مستقرين في الدنيا ثم استودعنا في القبور حتى مستقر في الأخرى . إن كل عالم من العلماء أخذ معنى من هذه المعاني . ولشاعر يقول :

وما المال والأهلون إلا ودائع

ولابد يوماً أن ترد الودائع

ونلاحظ أن هناك كلمة « مُسْتَقَرَّ » وكلمة « مستودع » ، و « مستودع » هو شيء أوقع غيره عليه أن يودع . لكن « مُسْتَقَرَّ » دليل على أن المسألة ليست خاضعة لإرادة الإنسان . فكل واحد منا « مُسْتَقَرَّ » به

ويقول الحق « قد فصلت الآيات لقرم يفقهون » والتفصيل يعني أب حياء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة ؛ لأن الألفاظ مجملة ، وطريف الاستقبال للمعاني مختلفة ، تفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل

تفصيل حالة من حالات النفس البشرية ؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً في ألا يفقه ، ولم يترك لأحد مجالاً في ألا يتعسم ، ونلاحظ أن تذييل الآيتين المختابيتين مختلف ، هناك يقول سبحانه :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة الانعام)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى -

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٩٨ سورة الانعام)

و« الفقه » هو أن تفهم ، أى أن يكون عندك ملكة تفهم تفهم بها ما يقال لك علماً ، فالفهم أول مرحلة والعلم مرحلة تالية

وأراد الحق بالتفصيل الأول من قوله « لقوم يعلمون » الدعوة للنظر في آيات خارجة عن ذات الإنسان ، وهنا أى من قوله سبحانه : « لقوم يفقهون » لفت للنظر والتدبر في آيات داخلية في ذات الإنسان .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ

نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ

حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ

وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ

مُتَشَبِهٍ أَنْظِرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي

ذَلِكُمْ لَا يَكُنْ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٩﴾

كان السياق يقتضى أن يقول سبحانه . أنزل من السماء ماء « فأخرج »

لكنه هنا قال . « فأخرجنا » : لأن كل شيء لا يوجد لله فيه شبهة شريك ؛ فهو من عمله فقط ، ولا يقولن أحد إنه أنزل المطر وأخرج السات لأن الارض أرض الله المحلقة له ، والبذور خلقها الله ، والإنسان يفكر بعن خلقه الله وبالبطاقة المخدونة له . وأنت حين تنسب الحاجات كلها إلى صانعها الأول ، فهو إذن الذى فعل ، لكنه احترام تعبك ، وهو يوضح لك حين قال : « فأخرجنا » أى أنا وأسبابى التى منحتها لك ، أنا خلقت الأسباب ، والأسباب عملت معك . فإذ نظرت إلى مسبب الأسباب فهو الفاعل لكل شيء . وإن نظرت إلى ظاهريه التجميع والحركة فالأسباب التى باشرفها الإنسان موجودة ؛ لذلك يقول . « فأخرجنا » .

وسبحانه جل وعلا قد يتكلم فى بعض المواضع فيثبت للإنسان عملاً لأنه قد قام به بأسباب الله الممنوحة له ، ولكنه ينفى عنه عملاً آخر ليس له فيه دخل بأى صورة من الصور ؛ مثل قوله الحق .

﴿ أَهَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (سورة الواقعة)

سبحانه هنا ينسب لنا الحراث لأننا قمنا به ولكن بأسباب منه - سبحانه - فهو الذى أنزل لنا الحديد الذى صمما منه الحراث وهدانا إلى تشكيبه بعد أن آتاه لنا بالنار التى خلقها له ، وبالبطاقة التى أعطانا بهاها ، أما الزراعة فليس لأحد منا فيها عمل وكذلك يقول سبحانه :

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَمَعْنَاهُ حِطَّتًا فَوَظَّيْمًا فَتُكْفَرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الواقعة)

ها - سبحانه - أتى باللام فى قوله تعالى . (لجمعناه) للتاكيد ؛ لأن الإنسان له فى هذا الأمر عمل ، إنه حراث ونعهد ما زرعه بالري والكد

حتى به وأثمر ، يكن قد نصيبه آفه نفى عليه ، فالأسباب وإن كانت قد عملت إلا أنها لا تنصر الانتفاع بشجرة السورج ، ذلك لأن الأسباب لا تنمو ، ولا تنبى على الله ولا تخرج عليه ، إنها تؤدى ما يريد منها الله ، وقد يعطى سبحانه أم في قوله تعالى : « أفأرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا » ، إنه سبحانه لم يقل جعلناه ، لأنه ليس لأحد فيه عمل لذلك لم يؤكد باللام .

ويقول سبحانه .

﴿ أَمْرًا يَوْمَ النَّارِ الَّتِي تُورُونَ ﴾ ١٦ « أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ صُورَهَا أَمْ لَحْنُ الْمُسْهِرُونَ ﴾ ١٧ لَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكُرَةً وَزَعْرًا لِلْمُقَوِّينَ ﴿ ١٨ ﴾

(سورة الواقعة)

ب كل شيء يذكره الحق يذكر معه أيضاً ما ينقضه ، ذلك حتى لا يفتخر الإنسان بوجود الأشياء ، وعلمه أن يستغل الأشياء مع إمكان إعدامها وإذا ما كان الإنسان هو الذى يحرث فالحق بطلاقة قدرته قد يجعل أسات عظاماً ، ومن قبل قال عن مقومات الحياة .

﴿ أَمْرًا يَوْمَ مَا تُخْسِرُونَ ﴾ ١٩ « أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ لَحْنُ الْخَلِيفُونَ ﴾ ٢٠

(سورة الرقعة)

ثم جاء سبحانه بما ينقضه فقال : « نحن قدرنا بينكم الموت » ، أما عن النار فلم يقل - سبحانه - إنه يعفى عليها ويخمددها ويطفئها ، إنه - جل شأنه - أبهاها ليعلننا ويدكرنا بنار الآخرة « نحن جعلناها تذكرة » أى لا بد أن نتركها أمامكم حتى لا يعيب عنكم العذاب الأخرى « ومتعب للمقربين » أى ونتركها - دون نفض لها وذلك لأمر آخر هو « ضعف في لذيذ اللذنين يملكون أماكن خالية فقراء أو لذين خلعت بطونهم وأوعيتهم ومزادهم من الطعام لأن لسا تنفعهم وتساعدهم على إعداد طعمهم استبقاء لحياتهم :

﴿ فَاتَّخَذَ مِنْهُمْ بَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة النمل)

والشئ هو ما يُجَبَّر عنه ؛ الهبادة شئ ، واللدرة شئ وكل حاجة اسمها شئ ، ومعنى نبات كل شئ : أن كل حاجة مثل النبات تنحصر . رأيا الحجارة التي يقول عنها العلماء هذه جرانيت ، وتلك رحام وتلك مرمر ، ولو نظرت إلى أصلها وحدتها أعماراً للحجارة ، طال عمر حجر ما فصّاراً فحماً ، وطال عمر آخر فصّار جرانيتاً ، وهكذا وكل حاجة لها حياة لتثبت لنا القضية الأولى ، وهي :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ عَمَّا يُكَلِّمُ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

أو نبات كل شئ ترون فيه نمواً وحياة ، والعقل الفطري يأخذها هكذا ، لكن العقل المستوعب يأخذ منها قضايا كثيرة ، ويتعلق في الكون ويجد الآية ساحة معه وهو سائح معها

ويتابع سبحانه . « فأخرج منه حضراً يخرج منه حباً متراكباً » وإذا قلت كلمة « خضر » فقد تعنى اللون المعروف لنا وهو الأخضر ، لكن « خضر » فيها وصف زائد قليلاً عن أخضر ؛ لأن « أخضر » يخرج عن لون فقط ، واللون متعلقه العين ، لكن « خضر » يعطى اللون ، ويعطى العضاضة ونعرفها « بالجنس » . ونحن نلمسه تجد العمومة .

إذن « خضر » فيها أشياء كثيرة ؛ « لون » معلق العين ، « رعضاضة » نعرفها بالجنس وفيها نعومة نعرفها باللمس وهذا اللون الأخضر يكون داكناً جداً أى أن خضرته شديدة حتى إنها تصير إلى السواد ؛ لذلك سمع من يقول « سواد العراق » أى الأرض الخصبة التي في العراق ، ويسمونها سواد العراق لأنها خضراء خضرة شديدة وأدلت تكون مائلة إلى السواد ، ويقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَمِنْ دُرِّهِمَا حَقٌّ ۖ قَبَائِي ۖ أَلَا رَبُّكَ تَكْذِبُكَ ۚ مَدَامَتَانِ ۝١٤﴾

(سورة الرحمن)

و « مدهامة » أى مثل دمة الليل ؛ كأنها من سلسلة خضرتها صارت كدمة الليل . ويتبع الحق « حضراً » يخرج منه حباً متراكباً ، والحب هو

ماليس له نواة مثل حبة الشعير وحبة القمح وحبة العدس وحبة اللوبيا
و«متراكبا» تعنى أنه حب مرصوص متساند .

«ومن النخل من طلعها قنوان دانية» والنخل عند العرب له مكانة
عالية لأنه يعطى هم الغذاء الدائم فيذكرهم به «ومن النخل من طلعها
قنوان دانية»

و «الطلع» هو أول شيء يبدو من ثمر النخل ، وهو ماسميه في الريف
«الكوز الأخضر» وهو في الذكر من النخل الذي يسمى «المنجل» ويوجد
أيضاً في الأنثى . وأول ما يبدو من ثمر النخل يسمى الطلع ، ثم يشق
الطلع ويخرج منه القنوت أو المزق أو العرجون ، وهو الجزء الذي توجد فيه
الشماريخ التي تتعلق بها الملح

والطلع دن هو الثمرة الأولى للنحلة قبل أن تنشق ويطلع منها القنوان
وهو «الساطة» كما سمىها في الريف

«قنوان دية» ويصفها الحق بأنها دانية لأنك حين تنظر طلع المنجل أول
ما يطلع تجده يشق ويحمى نفسه بشوك الجريد حتى لا تأكله الحشرات ثم
يثقل وينحى ويكاد يزل على الأرض فيكون دانياً قريباً ، فإن كانت هناك
«ساطة» شادة تجد من يحجبها يدخل يده بين الشوك ليصل إليها وسبحانه
يزك بنا هلنات لنعرف نعمة الله في أنه جعلها تسدلي لأنها لو كانت كلها
دانية . قد لا يلتفت إليها ، لذلك يزك واحدة بين الشوك لينتعب الإنسان
حتى يحصل عليها نعرف أنه سبحانه قد دنى لك المافى وهذه نعمة من
الله

ويطلق الطلع مرة على الأكمام و «الكيم» هو ما توجد في قلبه لثمار ،
ومرة يطلق على النمر نفسه

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ فَمَا طَلَعَ بَحْصِيدٌ ۝﴾

(سورة ق)

وأنت سرى الملح سارلاً من «الشماريخ» ، وكل شمروح به عسده من

البلح، ثم نرى «الشمر» متصلاً بالأم ، وفي ذلك ترى عظمة افدسة العجيبة في ترتيب الثمار . وكل شيء محسوب في هذا الأمر بهندسة عجيبة وعندهم نظر إلى ما تعلمناه في حياتنا حين نصمم شبكة توصيل المياه وشبكة الصرف الصحي ، إن شبكة المياه التي تعطى الماء الذي نستخدمه ، وشبكة الصرف الصحي التي تأخذ الزائد من المياه والفضلات عندما ننظر إلى هذه الشبكة أو تلك نجد هندسة كل منها دقيقة ، لأن أي غفلة في التصميم تسبب المتاعب . فحين نريد توصيل المياه إلى حارة ، فأب تسخدم ماسورة قطرها كذا بوصة ، وفي الحارة هناك عطات فتحضر لكل عطفة ماسورة أقل قطراً من الأولى ، ثم ماسورة أقل بليوت ، وماسورة أقل بكثير لكل شقة ، لقد قام المهندسون بحساب دقيق هذه المسائل

فإذا كانت هذه هي هندسة البشر ، فما لنا بهندسة الخالق ؟ أت نجد المرق وهو حامن الرطب يأخذ من الحلة ، وكل حلة فيها كذا «سباطة» وفي كل «سباطة» هناك «اشبارينج» ، ثم هناك البلح وكل سبحة تأخذ شعرة لغذاتها . وهكذا نجد كل شيء محسوب بدقة بالغة . إنها هندسة كوية عجيبة مصنوعة بعول الحق كر ، وهذا الله القائل

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

« وهو الذي أرسل من السماء ماء » وكلمته «وهو الذي أرسل من السماء ماء» لم يكن معروف ماوراءها ، كنا نعرف فقط أن السماء هي كل ما علاك فاطنك ، والماء يأتي من السحاب ، وكل من يرى السماء تمطر . وكلنا نعرف التعبير القطري الذي يقول غامت السماء ، ثم أمطرت ، وهناك من قال تصحك الأرض من بكاء السماء لأنها تستقبل الماء الذي يروى منها من دور لكن ماوراء عملية الإمزال هذه ؟

إن هناك عملية أخرى تحدث في الكون دون شعور منا ، عرفناها فقط حين تقدم العلم وحين قمنا بتفطير المياه ، فأحضرنا مرقداً ووضعنا فوقه قارورة ماء ، وحين وصل إلى نقطة الغليان خرج البخار ، وسار البخار في

الأنابيب وعمرت الأنابيب في أوساط باردة فتكثمت المياه ونزلت ماء مقطراً ،
ومثل ذلك يحدث في المطر ، وانظر كم يكثرنا كوب واحد من الماء المقطر
الذي نشربه من الصيدلية ؟ وقارن ذلك بالسماء التي تنزل بهاء منهمر ،
ولا ندري كيف صنع . ولذلك يقول الحق :

﴿ هَآأَنَّمْ أَنزَلْنَاهُ مِنَ الْمَرْنِ أَمْ تَحْنُ أَنْمَزِلُونَّ ۝٦٦﴾

(سورة الواقعة)

هكذا ينزل الماء من السماء ، ولم نكن نعرف كيف يحدث ذلك وسبحانه
يقول هنا :

﴿ وَمِنَ النَّسْلِ مَن طَلَعَهَا فَنَزَلَ دَآئِيَةً وَجَنَّتْ مِّنْ أَغْطَابٍ وَالرُّمَادُ مُشْتَبِهًا
وَّغَيْرَ مُشْتَبِهٍ ۝٦٧﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنعام)

وحين يقول سبحانه «مشبهها وغير متشابه» يصدق ، مثال حبه الخوخ ،
هناك حبة من نوع سمي «الخوخ السلطاني» ، حين تمسك بالثمرة الواحدة
تتعلق لتخرج البذرة نظيفة ، وحبه أخرى يعلقها نحن فتجد البذرة فيها
بعض لحم العاكة ويحد فيها أيض بعضاً من الألياف . وهذه لها لون
والأخرى لها لون ، هذه لها طعم وتلك لها طعم مختلف .

﴿ يُنْقِ بِمَا وَاحِدٍ وَنُفْصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ لِّلْأَكْلِ ۝٦٨﴾

(من الآية ٦٧ سورة الرعد)

هذا ليعرف الإنسان أن طلاقة القدره تحقق ما يريد الخالق ، وبعد ذلك
تلتصق فتجد العصا بل ، بهذا يرتقال منه بسرة ، ومنه يرتقال بلدى
ويرتقال بدقه ثم ليسمى . وبذلك سجد في الحة ما يحدثنا عنه سبحانه
فيقول .

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنهَا مِن تَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَآأَنَّا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنَّا بِهٖ مُّشْتَبِهَةٌ ۝٦٩﴾

(من الآية ٦٨ سورة البقرة)

وحين يأكل منه ساكن الجنة يكتشف أن لفاكهة الجنة طعما مختلفا . ومن طلاقة القدرة أنه بعد التحليلات التي قام بها العلماء المعملون - جراحهم الله عما حراما - له حبة العنب وحدود أن القشرة التي تعلفها لها طبيعة «الباردة» و«اليابس» ، واللحم لحبة العنب طبعته مختلفة «حار رطب» ثم البذرة «بارد يابس» ، وهذه ثلاث طبائع في الحبة الواحدة ، وهذا شيء عجب التكوين . وكذلك «الأترجة» وهي حبة كالناريج تحبب القشرة «حارة يابسة» ، واللحم فيها «بارد رطب» ، والسائل الذي في اللحم «بارد يابس» والبذرة «حار يابس» ، طبائع أربعة في الشيء الواحد ، كيف ؟ وبأية قدرة ؟

إن العلماء قد تعبوا حتى عرفوا تكوينها ليظهروا لنا المسألة ، وتلقت لتجد ثمرة تأكل ظاهرها ، وباطنها سيرة . وثمره ثابته تأكل ما في داخلها كالبجوز أو اللوز ، وتقشر القشرة وتلفف . والحوحة تأكل لحبها وتترك بذرتها ، وذلك لتعرف أن المسألة ليست آية خلق بل إبداع خلاق . وبعد الشيء له اللون ، واللون بلا طعم ، ثم الرائحة الممطرة . وكل ذلك دليل على طلاقة القدرة . وهذا هو السبب في أن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن ثمار الجنة يأتي بثمار مثلها في الدنيا ؛ لأنه لو أحصر ثمارا يابس لها مثل في الدنيا لقال الإنسان هذه طبيعة الثمار ، ولو وجدت في الدنيا لكان لها طعم مماثل . لكن هاهنا ذي تشابه ، وطعمها مختلف . إنها طلاقة القدرة .

ويقول الحق : « انظروا إلى ثمره إذا أتبع ويتبعه » الحق سبحانه وتعالى لا يعطي الإنسان حتى يملا بطنه بحسب لا ، ولكنه يعطي كل الملكات في العصر الإنسانية حتى ملكات النوى ، وملكات الخيال ، وملكات الحس ، فيوضح لك قل أن تأكل : انظر للثمر وشكبه ' لتعدي عيبك بالمنظر الخليل حين ترى الثمرة طائعة وتتبعها حتى نصبح ، إنها مراحل حجة تدل على أن الصانع قويم ، وكل يوم لها شكل مختلف وحجم مختلف ، وإن أكلتها اليوم فستجد طعمها يختلف عما إذا أكلتها بعد ذلك بيوم . وهذا دليل على أن خالقها قويم عليها . سادست كل لحظة من اللحظات فيها شكل ، وفيها لون وفيها طعم وفيها رائحة جديدة .

«انظروا إلى ثمره إذا أثمر وريعه، و «ينعه» أى وصلت إلى النضج وذلك إشاعة للتمتع بهم الكون لأن النظر إلى الثمر لا يعنى أننى أملكه ، فقد أراه فى حمل جارى وأنظر له وأتمتع بشكله . إذن فالخلق سبحانه وتعالى يريد أن يشبع الانتاع بهم الله حتى عند غير واجدها ، لأن أحداً لن يعمى من أن أنظر ، فأبسط ، فمن ناحية الكمال الإنسانى هناك عبء الملكات النفس ! لأن النفس ليست ملكات جوع وعطش فقط بل هى ملكات متعددة ، وكل ملكة ها غذاؤها . ولذلك فقبل أن يقول لى : إن الخيل والبغال تحمل الأثقال .. قال سبحانه :

﴿ وَلَئِكَ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرَبِّجُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَشْكُرُونَ ۝ بَدِيعِهِ إِلَّا يَتَّبِعِ الْأَنْفُسَ إِنْ رَأَيْتُمْ لِرَأَوْفٍ رَّحِيمٌ ۝ ﴾

(سورة النحل)

إذن فهو يعطى فائدة حمل الأثقال ؛ لأن حمل الأثقال لمن يملكها ، إنما الذى لا يملكها فهو يرى الحصان يسير بحمال ، فيسعد برؤيته فيتمتع بها لا يملك ، هذه إشاعة لحجم الله على خلقه

ويدين الحق الآية الكريمة بقوله : « إِنْ فِيهِ لَكُمْ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

أى يؤمنون بأد الإله الذى آمنوا به يستحق صفات الجلال والجمال فيه أن يُؤمن به ، وكلما رأى الإنسان خلقاً جميلاً قال : الله ، إذن أبدأ إيماني صحيح والآيات تؤكد صدق إيماني بالإله الذى خلق كل هذا ، وكل يوم تبدو لى حاجة عجيبة تريدنى إيماناً ، وعملى الذى وهبه الله لى هداى إلى الإيمان بهذا الإله

ومن العجيب أن هناك من جعلوا لله شركاء !! إله له كل هذه الصفات من أول خلق الحب والنوى ، وخلق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس ، والقمر ، حسيماً وبحباناً ، والنجوم تهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وأمر لى من السماء ماء ، وأخرج لنا البساتين منه حصر ، كل هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس إلى أن الله وحده هو الخالق المستحق للعبادة ، ولا تتجه أبداً بالعبادة أو بالإيمان بغيره ، لكن

هاك من جموا لله شركاء ، وجاء بها سبحانه بعد كل ذلك حتى يحفظنا ويصوننا
عليهم لنحذرهم وننتبههم .

وإذا احفظنا عليهم استعملنا أى استوجب علينا حمده إذ أنه هنكنا إلى الإيمان ،
فنقول : الحمد لله الذى هدانا إلى الإيمان .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُمُ
بَيْنَ وَبَيْنَ بَغْيٍ عِلْمٍ مُبِينٍ وَتَعَلَّى عَمَّا
يَصِفُونَ

وعادة الجن هي « الجيم » و« النون » وكذا تدل على السر والتغطية والتغليظ ،
ومها الجنون ، لأن العقل في هذه الحالة يكون مستورا ، ونحن لا نرى الجن ، فهم
مستورون ، والملائكة كذلك ، والمادة كلها مادة « الجيم » و« النون » تدل على اللف
والتغطية .

« وجعلوا لله شركاء الجن » و« الجن » هو الخفى من كل شيء ، والجن - كما
نعلمون - هم خلق من خلق الله سبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الجن
مستورا حتى لا يعتقد أن خلق الله لى كلن ، يجب أن يشمل فى هذا القالب
المادى ، بل سبحانه يخلق ما شاء كما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لا تُرى ، ولها
حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها . كل ذلك بطلاقة قدرة
الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية : لأن عقولنا قد تقف فى بعض الأشياء التى
لا تدرك ولا ترى ، لأننا لا نعلم وجوماً لشيء إلا إذا أحسننا .

إن الحق سبحانه يوضح ذلك . فلماذا أن ظن أنك تستطيع أن تدرك

كل ما خلقه الله ، فليس حرك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك لأن حرك له قوتين
تضبطه ، فانت ترى ، ولكنك ترى جنانون ، بحيث إذا بعد المرئى عنك امتداداً فوق
امتداد بصرك فلا تراه وكذلك أذنك تسمع ، فإن بعد الصوت أو مصدر الصوت
عنك بحيث لا تصل الذبذبة إليك ، فلا تسمع ، كذلك عقلك ، قد تفهم أشياء ولا
تفهم أشياء أخرى ، ثم ضرب لنا فى وجودنا الذى أمثالا تقرب لنا ذلك الخلق الخفى
من الجس ومن الملائكة .

لقد وجدنا الحق البشري عند هذه الله الذي قدر فهدى ، إلى أن يكتشف شيئاً اسمه « الميكروب » و « الميكروب » كائن حي دقيق جداً بحيث إن البصر العادي لا يدركه ، ولكنه كان موجوداً ، وفعل الأقاصيل في الناس ودخل في أجسامهم دون أن يتعروا كيف دخل وعمل فيهم وفي صحتهم ما عمل من الهلاك والموت مثل أمراض الطاعون والكوليرا وغيرها ، ومع ذلك فالميكروب كان موجوداً ومن جنس وجودنا ، أي هو مادة وله حياة وله فعل ، وله نفوذ في الهيكل الذي يدرك وهو الإنسان .

وهكذا رأينا أن شيئاً خفياً لا يترك ويهدد إنساناً ضخماً يترك ، فهل معنى اكتشاف الميكروب أننا أوجدناه ؟ لا ، إن وجود الميكروب شيء ، وإدراك وجوده شيء آخر ، وإذا حللنا « الميكروب » نجد أنه من مادة الإنسان ولكنه دقيق جداً حتى إن العين المجردة لا تراه ، فلما اكتشف المجهر وكبرناه عرفناه ، وهذا الكائن الحى إن كنت لا تراه ، فمقدم رؤيتك له سابقاً لا تعنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ولكنك لم تدركه ، ثم اكتشفت - أيها الإنسان - آلة جعلتك تدركه ، ولنعرف أن وجود شيء لا يعنى أنك من الضروري أن تدركه ، فإذا قال الله لك : لى ملائكة من خلقى ، ولى جن من خلقى ، ولكنكم لا ترونهم وهم يرونكم ، فقول : صدقت يا ربى ، لأن شيئاً من جنس مادتنا كان موجوداً ولا نراه ثم بعد ذلك رأيناه .

إذن فالأشياء التي نكتشفها الآن هي دليل على صلب البلاغ القرآني بما

أعبر به من الأمور الغيبية، الجس مستور ، والمادة كلها - كما هي - تذل على السر ، فالجنون غيب العقل ، وجن الليل ، أى سر وخطى ، والجنة لأن فيها أشجاراً وغير ذلك بحيث لا يظهر الذى يسير فيها فتكون سائرة لمن يدنوها .

إذن المادة كلها تذل على السر ، وهل الذى مصحوب به أنهم جعلوا الجس شركاء ، أو أن التعجيب ليس من جعل الجن شركاء بل من اتخاذ مبدأ الشركاء ، سواء أكان جنأ أم غير جن ، إن التعجيب هنا من المبدأ نفسه ، فمن لا نعترض فقط على أن الجن شركاء ، بل نحن نعترض على المبدأ نفسه ، أن يكون لله شريك من جن أو من ملائكة أو من غير ذلك ، ولهذا قدم المجهول - وهو الشريك - على المجهول به - وهو الجس - مع أن السادة أن يقدم المجهول منه على المجهول ، فنقول جعلت الطين إبريقاً أى : أن الطين كان موجوداً ، وأنتجت منه الذى لم يكن موجوداً وهو الإبريق .

ثم هل كان الشركاء موجودين وطراً الجن عليهم ؟ أو كان الجن موجوداً وطراً الشركاء عليهم ؟ فى هذه الحالة كان يجب القول . وجعلوا الجس لله شركاء ، إذن فالمعجبة ليس فى أن يكون الجن شركاء ، المعجبة فى المبدأ نفسه ، وكيف ترد فكرة الشركاء على أنعائهم سواء أكان الشركاء من الجس أم من غير ذلك ، ولهذا قال سبحانه : « وجعلوا لله شركاء » وسأحة تسمها تقول : أعوذ بالله « جعلوا لله شركاء » لا ولا يهمك من هم الشركاء ، لأن مطلق معنى شريك لله هو الأمر للعجيب ، سواء كان من الجن أم من الملائكة وكيف جعلوا الجس شركاء ؟ ألم يقل الحق فى كتابه إن إبراهيم قال :

﴿ يَسَاءَ مَا يَحْكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (سورة مريم)

وما هى العبادة ؟ العبادة هى أن يطيع العابد المعبود فيما يأمره به ، وما داموا يطيعون الشياطين فى وسوستهم فكأنهم عبدوهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَفَسَوْا لَهُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٤٠)

(سورة سبا ٤٠ الآية ٤٠)

فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ .

﴿ قَالُوا سُبْحَنكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾

(٤١)

(سورة سبا)

وكيف كانوا يعبدون الجن ؟ إنهم كانوا يطيعونهم فيما يأمرونهم به ويسعونهم عنه ، لأن العبادة هي الطاعة ، وأنت أيها العابد لا تقترح العبادة بل تنظر فيما طلب منك أن تقترب به إلى المعبود ، إذن « افعل ولا تفعل » هي الأصل .

« وجعلوا لله شركاء الجن » ولماذا جاءوا لله بشركاء ؟ لماذا لم يعبدوهم وحنهم ويستبعدوا الله من العبادة ؟ لأن وجود شركك دليل على الاعتراض بالله أيضاً فلمماذا جعلوا له شركاء ؟ ولماذا لم يلحدوا وينكروا يكفروا بالله وتنتهي المسألة ؟ لا . لم يفعلوا ذلك ، لأنهم رأوا أن الشركاء ليس لهم مطلوبات تعبدية وحين عبدها - مثلاً - لم تقل بهم « اجعلوا » و « لا تفعلوا » وليس هناك منهج لاتباعه ، لكن أحداثاً فوق أسيابهم ولا يستطيعون لها دعماً قد تحدث فلمن يجأرون ؟ الآلهة التي يعتقدون كذبها وبهتانها وأنها لا تنفع ولا تصرف ؟ لذلك احتفظوا باعترافيهم بالله ليلجأوا إليه فيما لا يقدرعون على دفعه لا هم ولا من اتخدوهم شركاء ، ولذلك يقول الحق .

﴿ وَإِذَا مِنَ الْإِنْسَانِ الْأَعْرُ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُشَّةَ مَرِّ

كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ شُرَِّمِئَةٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يوسف)

كانه يريد عبادة الله للمصلحة فقط

« وجعلوا لله شركاء الجن » . ومن المجيب - إذن - أنهم جعلوا لله شركاء ، مع أن الله هو الذى خلق العابد والعبود ، والتعجب من أمرين اثنين - أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، والمجيبه الأخرى أنه «خلقهم وخرقوا له بنين وبنات بنهر علم» وما معنى خرقوا له ؟ معناها أنهم اختلقوا ؛ لأن الخرق إيجاد فجوة فى الشيء المستوى على قانون السلامة ، ولذلك قال فى السفينة :

﴿ أَخْرَقَهَا لِنُفْرٍ أَهْلِهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

وخرقوا له أى عملوا خرقاً فى الشيء السليم الذى تأبى الفطرة أن يكون .

﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الأنعام)

أما القسم الذى ادعى أن الله البين فهم أهل الكتاب ؛ إنهم قالوا ذلك :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة التوبة)

أما من جعموا لله البنات ، فهم بعض العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله .

﴿ أَفَأَمْسَكْتُمْ رُكُومَ الْبَاقِينَ وَاتَّخَذْتُم مِّنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الإسراء)

وقال سبحانه .

﴿ أَمْطَلَى السَّمَاتِ عَلَى الْبَاقِينَ (١٥٢) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَعْبُدُونَ (١٥١) ﴾

(سورة الصافات)

وسبحانه القائل :

﴿الْكُفْرُ وَالْأُتَى (٢١) تِلْكَ إِذَا لِسْمَةِ عِزِّي (٢٢)﴾

(سورة النجم)

هناك من العرب من جعل بين الله وبين الجن صلة نسب مصداقاً لقول الحق :

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الصافات)

يقدر انتمروا على الحق وادعوا أن اتصالاً تم بين الله وبين الجنة فخلقت وولدت

الملائكة

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنُّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٠)﴾

(سورة الأنعام)

ولماذا يقول الحق : « بغير علم » لأن العلم يؤدي إلى التيقن ، فالعلم قضية

استقرائية معتقدة واقعة يقام عليها الدليل ، وهذا شيء لا واقع له ، ولا يمكن أن

يوجد عليه دليل لذلك فهو قول بغير علم بل هو بجهل . هي إذن جهالة بأن يصدقوا

في حاجة وأنها واقعة وهي ليست واقعة ، ولا يقام عليها دليل لأنها غير موجودة ،

ولو استقام الدليل عندهم بنظرتهم المستقبلية لأدلة البيان وأدلة الكون لتبرأوا مما

اعتقدوا ، ولرفضوا أن يتحملوا الله شركاء .

وقد عرّص الحق قضية طرأت على الأفكار المشوشة وقالوا « شركاء »

فقال : « سبحانه » ، أي تنزيهاً له عن الشرك في الذات وفي الصفات ، وفي

الأفعال ؛ لأن ذاته ليست ككس الذات ، وأفعاله ليست ككس الأفعال ، وصعاقبه

ليست ككس الصفات ، ولذلك تأتي « سبحانه » في كل أمر يناقض

نواميس الكون الموجودة . وخذ كل أمر يتعلق بالإله الحق في إطار « سبحانه »
ولذلك حينما جاء الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس
ثم خرج به في ليلة واحدة وكان ذلك أمراً عجيبة ، أمرنا الحق أن نتقبلها في إطار
قوله الحق :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَنَيْنَا خَوْلَهُ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١ ﴾

(الآية ١ سورة الإسراء)

إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يقل : أنا سريت من مكة إلى بيت المقدس ،
إنما قال : « أسري بي » ، وما دام قد أسرى به فالقائمون في الإسراء هم قانون الحق
سبحانه . فحلها في إطار سبحانه ، وهو القائل .

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يس)

ثم يأتي بما هو أوسع من إدراكك فيقول :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يس)

كأننا سوف نعلم فيما بعد أشياء فيها زرجية ، وقد أرح الكنف العلمي في
القرن العشرين بعضاً من ذلك ، فمرفنا الموجب والسالب في الكهرباء
والإلكترونيات ، وقوله : « وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » يفسح المجال لقضايا الكون التي تحدث
بنشاطات المعقول المكتشفة

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ١٠٠ ﴾

(سورة الأنعام)

ف (سبحانه) تنزيها له وتقديسا عن أن يقاس بالكاثر الموجود . تعالى
اسمه ، وتعالى ذاته ، وتعالى صفاته وأفعاله « عما يصفون » بأوصاف لا
تليق بذاته

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ يَدْبِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ۝١﴾

والحق سبحانه وتعالى قال في آيات أخرى :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ۝٢﴾

(من الآية ٥٢ سورة غافر)

فإن كنت ترى في نفسك عجائب كثيرة ، وكل يوم يعطيك العلم
التشريحي أو علم وظائف الأعضاء سرا جديدا فلا تتمتع من هذا الأمر ؛
لأن السماء والأرض إبداع من عدم ، وسبحانه هنا يقول : « يدبِع » أى أنه
- سبحانه - خلقهما على غير مثال سابق ، فمن الناس من يصنع أشياء على
صوة حشرات أو مآذح سابقة ، لكن الحق سبحانه يدبِع السموات والأرض ،
وقد عرفنا بالعلم أن الأرض التى يعيش عليها وهى كوكب تابع من توبيع
الشمس ، وقدبها كانوا يقولون عن توبيع الشمس إنها سعة ، ولذلك حذغ
كثير من العلماء والمفكرين وقالوا : إن السعة التوبيع هى السموات ، فأراد
الحق أن يبطل هذه المسألة بعد أن قدر سعة . فقد اكتشف العلماء أنها
ثمنا للشمس ، ثم اكتشفوا التسع . ثم صارت تسويات عشرة ، ثم راد
الامر إلى توبيع لا يعرفها . وأين هذه مجموعة شمسية من السموات ؟
وكلها مجرد زينة لسماء الدنيا ، وعدم كتشت حدها وفالات التى

تقرب البعيد رأيا « الطريق السبي » أو « مكة النبوة » ووجدناها مسجرة وفيها مجموعات شمسية لا حصر لها ، ووجدت مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية . هذه مجرة واحدة ، وعندنا ملايين المجرات ، ونجد عالماً في العلك يقول . لو امتلكننا آلات جديدة لسنكتشف مجرات جديدة .

ولنسمع قول الله :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (٤٧)

(سورة الذريات)

إذن يجب أن نأخذ خلق السموات والأرض في مرتبة أهم من مسألة خلق الناس .

﴿ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ اَنۡتَ بِكُوۡنِهِۦ وَاَنۡتَ لَمۡ تَكُنۡ لَّهِ مَنۡحِيۡةً وَّخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيۡمٌ ﴾ (١٠١)

(سورة الانعام)

وما دام سبحانه بديع السموات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية العاقبة خلق السموات والأرض الأكبر من خلق الناس ، إذن فلو أن أراد ولداً لطرأ عليه هذا الابن بيليلاد ، ولا يمكن أن يسمى ولداً إلا إذا ولد ، وسبحانه متره عن ذلك ، ثم لهذا يريد ولداً ، وصفات الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يكن الكون ناقصاً قبل ادعاء البعض أن للحق سبحانه ولداً . إن الكون مخلوق بدات الحق سبحانه وتعالى ، والناس تحتاج إلى الولد لاستداد الذكرى ، وسبحانه لا يموت ؛ مصداقاً لقوله

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النجم)

والنفس يحتاجون إلى الإعجاب ليعاودهم أولادهم ، وسبحانه هو القوي الذي خلق وهو حي لا يموت ، لذلك فلا معنى لأن يدعى عليه ذلك

وما كان يصح أن تناش هذه المسألة عقلا ، ولكن الله - لطفا بخلقه -
وضّح وبين مثل هذه القضايا .

يقول جل وعلا : « ولم تكن له صاحبة » . ومادا يريد الحق من
الصاحبة ؟ إنه لا يريد شيئا ، فلماذا هذه اللجاجة في أمر الألوهية ؟ . فلا
الولد ولا الصاحبة يزيدان له قدرة لمخلق ، ولا حكمة ترنب ، ولا علما
يذهب ، ولا أى شيء ، ويجرد هذا اللون من التصور حيث ، فإذا كان الشركاء
ممتعين ، والقصد من الشركاء أن يعاونوه في الملك ؛ إله بأحد ملك
السماء ، وإله آخر بأحد ملك الأرض . وإله للطلعة ، وإله للسور . مثليا
قال الأعريق لقدامى حين نقبوا لها للشر . وإما للخير ، وغير ذلك
واحق واحد أحد يس له شركاء يعاونونه فيما المقصود بتولد والصاحبة ؟
أعود بالله ! الأبتنع ويرندع هؤلاء من مثل هذا القول .

« وهو بكل شيء عليم » سبحانه هو الخالق للكون والعليم بكل ما فيه
ولا يحتاج إلى معاونة من أحد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

انظر التقديم بكلمة رب ، قبل « لا إله إلا هو » كلمة « رب » هذه
هي حيثية « لا إله إلا هو » ؛ لأن إما تعنى معبودا ، ومعبودا يعنى
مطاعا ، ومطاعا يعنى له أوامر ونواه ، ولماذا ولاى سب ؟ السبب أنه
الرب المتولى الإيجاد والتربية ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه ؛
لأنه هو الرب والخالق وهو الذى يرزق ، بدليل أننا حين نسأل أهل الكفر
في غلة شعواتهم : من خلق السموات والأرض ؟ نطق فطرتهم ويقولون .

الله هو الذى خلق السموات والأرض . أما إن كان السؤال موجهاً و
محاكاة مستهينة فانت تهم المكر والكذب .

وحين تريد أن تسرع منهم قضية صدق وتضع وتطل قضية كذب
فلتأخذهم على غفلة ودون تحصيل فيقولون إن الذى خلق هو الله .

ورأنا الآلات التى صمموها ليكتشفوا الكذب ، ولبرو لعملية العقلية
التي تهمد الكذاب ، أما صاحب الحق فلا يُجهد ؛ لأن صاحب الحق
يستقرىء واقف ينطق به ولا يصيبه الجهد ، لكن الذى يكذب يجهد نفسه
ويتردد بين أمور ويضطرب ولا يدري بأىها يأخذ ويحيب بإجابات متفكة
في الشيء الواحد

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

وَكَيلٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وبدام هو خالق لكل شيء وهو الباقي فهو الأحق بالعبادة ؛ لأن
العبادة — كم قلنا — معاشها طاعة لأمر وطاعة النهى — وما دام سبحانه
لذى حق فهو الذى يصنع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإن خالفت
المسجع يمسد الكون والإنسان ، وإذا مسد الكون أو الإنسان مات تلجأ إلى
مسجع الخالق لمعيد لكل مهمل صلاحته ؛ بذلك هو الأولى بالمادة
(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو) .

وهذه شهادة شهد بها لدائه قبل أن يخلق كل شيء ، وقبل أن يخلق
الملائكة ، وشهدت بها ملائكته ، وشهد بها أولو العلم

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

إذن فالله شهد بالوحيته من البداية ، ومن أسماؤه « المؤمن » ونحن
مؤمنون بالله ، وديننا المؤمن بأله واحد ، وهذا الإتيان منه أنه إله واحد ،

يحاطب كل شيء، ويريده وهو يعلم أن أي شيء لا يقدر أن يخالفه، إنه يحاطبه بقوله: «كن فيكون» ولأنه إله واحد يعلم أن أحداً أو شيئاً لم يخالفه، لذلك يباشر منكبه وهو يعلم أن الغير خاضع لأمره ولا يمكن أن يتحلف عن مراداه، أو يقول: «مؤمن» لما حلل ولمس حقيق، أي منحهم لأمن والأمان فهو سبحانه الغالب

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

(سورة غاشية)

لقد أوصح الجوع سبحانه لنا أنتم حلمي قبل أحسن مني طعمكم من الجوع وآمنكم من الخوف. (ذلكم الله ربكم لا اله إلا هو خالق كل شيء)

إذن فاستطاع يفرض علينا عبادته سبحانه، والأمر المسجوع مع المقدمة، أن لا رب، ولا إله إلا هو، إنه خالق كل شيء؛ لذلك تكون عبادته ضرورة، ويتمثل ذلك أن نطيعه فيما أمر، ونهيها هي

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الأنعام)

وهذه دقة الأداء البياني في القرآن، فحين في أعراف تقول: فلان وكيل لفلان أي يقوم لمصلحته بالأمر التي يريدتها، وسبحانه ليس وكيلاً لك، بل هو وكيل عليك؛ لأن الوكيل بك يعتمد أوامرك، لكن هو وكيل عليك، مثل الرصعي على المصير هو وكيل عليه، ويقول للمصير: افعل كذا فافعل، وسبحانه وكيل علينا، ولذلك نحن نطلب منه وهو الذي يستجيب لدعائنا بالخير، فلا ينهد رعباتنا الطائشة، ونجد الأحق من يقول: لقد دخرت الله ولم يستجب لي، ويقول: إياك تفهم لاستجابته أنه يؤدي لك مطلوبك، وسبحانه أعلم بما يناسبك لأنه وكيل عليك ومعدل من تصرفاتك، وساعة تطلب حاجه، إن كان فيها خير يعطيها لك، وإن كنت تظن أنها خير، لكنها ستأتي بالشر لا يعطيها لك.

وعلى من يسدعو ألا يتعجل الإجابة . قال صلى الله عليه وسلم :
« يسجاب لأحدكم ما لم يعجل » يقول : قد دعوت فلم يستجب لي » (١) .

« وهو على كل شيء وكيل » أى سواء أكان هذا الشيء مختاراً أم غير مختار ؟ لأن المختار قد يجازى شراً ، ولأن الله وكيل عبه يقول له : لا ، وغير المكلف ولا اختيار له ، مظهر لإرادة الله مثل السار ، فهي مأسورة أن تحرق ، لكنه أمرها ألا تحرق سيد إبراهيم وتقيه سليماً .

ونأتى الآية التالية لتؤكد دواعى عظمتة سبحانه فيقول :

﴿ لَا تَذَرِكُ إِلَّا بَصَرُكَ وَهُوَ يَذَرُكَ إِلَّا بَصَرُكَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٢)

ولماذا لا تدركه الأنصار ؟ لأن البصر آلة إدراك لها قنوبها بأن ينعكس الشعاع من المرنى إلى الرائى ويجده ، فلو أن الأنصار تدركه لحدته ، وأصبح من يراه قادراً عليه ، ولصار مقدوراً لكم ، لأنه دخل في إدراككم . فهو أنت أدركت الله فكأن الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا يتقلب مقدوراً أبداً ، إذن فمن عظمه أنه لا يُدرك : أنت قد ترى الشمس ، ولكن أندعى أنك أدركتها ؟ لا . لأن الإدراك معناه الإحاطة . وحين يقال « أدركه » أى لم يمت منه ، وليلذك عنكما صلو قوم فرعون وراء موسى وقومه قال أصحاب موسى : (إنا لمدركون) .

أى لا فائدة ، لأن البحر أماننا ، إن تقدمنا فغرق ، وإن تأخرنا أهلكنا وقتلونا إذن « تدرك » يعنى يحاط به . فإذا أحاطت الأنصار بالله انقلب البصر قادراً ، وصار الله مقدوراً عليه . والقادر بذاته - كما قلنا - لا يتقلب مقدوراً خلفه أبداً .

(١) رواه البخارى ومسلم وابر داود والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٢﴾﴾

(سورة الأنعام)

وكل ما عدا الله محتج إلى الله لبقاء كنهه ، وكنونه سبحانه ليست عند أحد ؛ لذلك « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » لأن إن قدر على الأبصار كلها فهو قادر بداته ، واليسافى مقدور له ؛ لأنه محقق له ، ومما دام محققا له يكون مقدورا عليه ولم نظراً عن المخلوقين شيء حديد يجعلهم قادرين بدواتهم (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)

وعد وقف العباد وقفه كبره واحتسبوا هل الإنسان يرى ربه أو لا يراه سواء في الدنيا أم في الآخرة ؟ بعضهم قال . لا أحد يرى الله بنص الآية « لا تدركه الأبصار » ويقول . لكن هناك آيات في القرآن تقول

﴿وَحُورٌ يُؤْتِيهِنَّ يُحْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ بَطْنَ أَرْجُلٍ فَبِأَنِّ رَبَّنَّ لَا تُفِطِرُ ﴿١٧﴾﴾

(سورة الفلق)

و « ناظرة » تضمن الرؤية وتفيدها ، وأيضا فانه يعاقب من كفر به شأن يوجب عنه ؛ لأنه القاتل

﴿كَلَّا لَا تَتَّبِعْ عَنِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُ لِمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

(سورة الطه)

فالكافرون محجورون عن رؤية الله عفاها هم ولو اشركنا معهم وحجبتنا كما حجبوا فما ميزنا كمزمين ؟ ، إذن فالعلماء لم يشهدوا إلى أن هذا حرقا بين الأداء القرآني وما يقولون ؟ وحين يمنح عالم منهم بأن رؤية الله غير ممكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى

﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَتَرَانِي﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

فليأذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق :

﴿ فَلْيَاخِذْ بِرِزْقِ رَبِّكَ جَمْعَهُ دَعَاكَ وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ صَعِدُ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

إذن والله يحل لي بعض خديقه ، أما أن يراه الخلق في الدنيا فلا ؛ لأن تكويها غير مؤهل لأن يري الحق ، بل دليل أن الأصعب والأقوى منا وهو أجمل حينما تحلى ربه عليه بذلك فلما اندك الحل خر موسى صعباً ، فإذا كان موسى قد حر صعب لرؤية المتحن عليه وهو الحل فكيف لو رآه ؟
 إذن فهو غير معذ له

لقد احتسف العمياء عند هذه الآية ، وتغلب حلافهم إلى أبعد حد ؛ منهم محير لرؤية ، ومنهم صكر هـ ، وأرى أن حلافهم في غير محل نزاع ؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية ، والكلام هنا عن نفس الإدراك ، والإدراك إحاطة ، والرؤية تكون إحداً ، بما لاحظه ليست بمكة ، وعن تقدير أن الرؤية والإدراك متحذان في المفهوم نفس لماذا يكون الخلاف في أمر الآخرة ؟ لو أن الخلاف في أمر الرؤية في الدنيا لكان هذا كلاماً حيللاً ، ولكن الخلاف جعلتموه في الآخرة

إن آيات القرآن صريحة في أن رؤية الحق سبحانه ونعالي من نعم الله على المؤمنين ، وهي ريادة في الحسبي عليهم ، وحججه سبحانه عن الكفار لون من العنوية هم ويقول - أيضاً - لماذا لا تقولون إن الإدراك سيوجد في الآخرة بكيفية ليست موجودة في دنيانا ؟ لأننا في هذه الدنيا معذورون بإعداد أسباب - وفي الآخرة سيكون معذرين إعداداً لغير أسباب

أنت هنا إذا أحبب أن تشرب تطلب الماء أو تذهب للماء وتشرب ، وحين تريد أن تأكل الشيء العلاني ، تقول لأهل البيت : اصمروا لي كذا أو تشتري ما تريد ، إنما هناك في الآخرة بمجرد أن يخطر ببالك ما تشتهي تجده أمامك ، وهذا قانون جديد لا ارتساض له بقانون الدنيا ، فلماذا لا يكون في تكويها في الآخرة أيضاً قانون يمكن به أن نرى الله وفي إطار ليس كمثلته شيء ؟

إن في الأجرة فصاياً يتفق الجميع على أنها تخالف فوبين الدنيا ونواميس العالم لمعاصر لنا الآن في الأكل ولشرب ، والتخلص من الفضلات ، لكن في الأجرة مأكلاً ونشرب ويمكن أن توجد فضلات ؛ لأنك أنت الآن تطهى ونهضم ، ولله المصم أنت تأخذ بعض الطعام ويبقى منه فضلات لا بد أن تخرج ، لكن الطهى والنهضم في الأجرة — « كس » وليس له فضلات ، إنه طعام بقدرة لعافر ، في الحية كل ما تريده ستأكله دون أن ينمذ ، ولله الدنيا أى شيء يوحد منه ينقص ، أما في الأجرة فلا شيء ينقص لأن له مدداً من القيومية

ويعقب الحق سبحانه وتعالى بعد القضييتين : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ويقول « وهو اللطيف الخبير » ولطيف تناسب « لا تدركه الأبصار » و « خبير » يناسب « وهو يدرك الأبصار » ولطيف ها معنى حاصر ، فالشيء اللطيف يستعمل في دقيق الكوب — والله المثل الأعلى — إن الميكروب لم يعرفه إلا مؤخرأ لأنه بلغ من النطف والدقة بحيث لا تدركه العين ، لكن عذمت احتزعا الميكروسكوب رياه ، وإن دق الميكروب عن ذلك فمن مره ، وقد كشف « الفيروس » وحاول معرفة المزيد عن خصائصه ، إذن كلما دق الشيء يلفظ ولا يمكن أن نراه ، فالشيء إذا لطف شرف وعلا ويقول — والله المثل لأعز — فلا لعيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف في داته ويلطف بعباده

إنك ساعة ما تسمع « لا تطف » فهذا اسم فاعل ، مثله مثل « آكل » ، وحين تقول « لطيف » فهو مباعدة في اللطف ؛ لأنه لا تطف بكل إنسان وكل كائن وهذا يحتاج إلى مباعدة ، ولذلك يقول رحيم ، وهي صيغة مباعدة ؛ لأنه يسع رحمته على عباده ، وأول مظهر من مظاهر اللطف هو تدبير أسرارهم الدفقة تدبيراً يحقق مصالحهم في وجودهم إننا حين ندبر كوب ماء لكل إنسان تدبر الكثير في بالنا تدبير اللطيف بعباده ٩

لقد خلق لنا الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، والربع يابس ، لأنه جل وعلا يريد أن يوسع رتبة الماء لأن المياه كلما اتسعت رقعتها ، كان البحر فيها أسهل وأكثر ، لكن لو كانت المياه عميقة ومساحتها قليلة فالبحر يكون على مستوى السطح فقط ، وهذا لا يأتي السحاب بها يكفي الخلق من

الاءاء لقد وسع الله سبحانه رقعته لواء كى يتجر الاءاء ثم يعقد كسحب
في السماء ، ويصادف منطقة باردة لينزل لب لياه العدة لشرب منها ،
ونشرب الاءاء ، ونسقى البرع ، وكل ذلك من نطف التدبر

ومن مظهر اللطف في الحق نجد أموراً لا توصف ، ولذلك كل واحد
من العبداء يفعل براوية من روايا نطف الله على حلقه فواحد قال
هو « سبع انعم » وقال الثاني « دقة التدبر » وقال الثالث إن من
مظاهر لطف الحق أنه يستغل كثر النعم على حلقه ، فسمع التي منحها
خلفه غلبة لأن حرارته - سبحانه - ملأى وعطياه لا تعد ولا يعترى
نقص ، ولذلك قال سبحانه

﴿ تَبٰرَكَ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ۚ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَهُوَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٤٠﴾

١ من الآية ٧ سورة البراق

أي أن نعمه الكثيرة على عباده قليلة ، وفي الفصل يستكثر قبل الطاعة
من حلقه أي يعتبرها - فضلاً منه - كثيرة ، لأنه هو الذي يجري الحسة
بعشر أمش

إذن فمظهر اللطف لا حصر له ، وعن قدر دونه اللطف يكون دقة
مأته وإحصائه ، فهو اللطف الذي إذا ناديه لك ، وإذا صدته أراك ،
وإذا أحسنت أدياك ، وإذا أطعمه كافاك وإذا أعطيه وأقرضه من فضله
وماله الذي منحك عاذاك ، وإذا أعرضك عنه دعاك فهو الغافل ^(١) يس
آدم إن ذكرنى في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرنى في ملأ ذكرتك
في ملأ خير منهم ، وإن دوت مني شراً دوت منك دراعاً ، وإن دوت
مني دراعاً دوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمنى أبنتك أهول ^(٢) وكلها
مظاهر نطف وهو المسادى « توبوا إلى الله » والرسول صلى الله عليه
وسلم هو لقائل « لله أشد فرحاً بسوية عبده من أحدكم إذا سقط على
بعيره قد أصابه بأرض فلاة » ^(٣) وإذا قربت من الله هداك

(١) رواه أحمد عن أس

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أس

ويأتى عالم آخر من افعال الصفات اللطيف ، فيقول . الذى يجازيك
 بوقت ، ويعفو عنك إن قصرت ، وعالم آخر بصيف إلى معانى اللطف
 فيقول : من افتخر به أعوه ، ومن انتصر إليه أضناه ، وعالم بفعل انفعالاً
 آخر بمظاهر اللطف فيقول . من عطاؤه خير ، ومنعه دحيرة . أى أنه لو
 منع عبده شيئاً فإنه يذخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف ، وهذا
 مناسب لقوله الحق : « لا تدركه الأبصار » إن لطفه سبحانه يتغلغل
 فيما لا يستطيع أن يدركه ، ونحن نحلل أى أمر قد لا تصل إلى فهم
 النعمة ، وإن وصلت فأنت لا تهتد أن تؤدي الحمد على تلك النعمة .

وقوله الحق . « وهو يدرك الأبصار » مناسب لكلمة « خير » ، ونحو
 في حياتنا نسمع كلمة « خير » فعندما نقابل أى مشكلة من المشكلات
 نجد من يقول : سريده أن نسمع رأى الخير فيها ، وى الفصاء نجد
 القصصى يستدعى خيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى من هو متخصص
 فيه وعليم به ، إذن فالخير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما
 سألنا بالخبر الأعلى الذى لا يستعصى عليه شيء فى ملكه ، وهو الذى
 يدرك الأنصار ، فقوله . « لا تدركه الأبصار » يناسبها قوله : « لطيف »
 تماماً كما أن « وهو يدرك الأنصار » يناسبها « خير » ، وهذا ما يسموه
 فى النعمة « لف وبشر » وهو أن يأتى بأمرين أو ثلاثة ثم يأتى بها يعاينها ،
 مثال ذلك قوله الحق

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة القصص)

فمن مظاهر رحمة الله سبحانه أن جعل لنا الليل والنهار ، ثم قال .

﴿ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ قَضَائِهِ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

تسكن فى الليل ، وتبغى فضله فى النهار ، وهذا اسمه - كما قلنا -
 « لف وبشر »

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ
فَلَِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيفٍ ۝١٤﴾

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة للمعنويات والإشرقات التي تأتي في
القلوب كالنصر بالنسبة للعين ، و « الكون » يعطيكم أدلة الإبصار ،
والقرآن يعطيكم أدلة البصائر ، فكما أن الله هدى الإنسان فحضره وهاء عن
المعاصي ومنحه السور الذي يتجلى به الأشياء فيسير على هدى فلا يرتطم
ولا يصطدم ، كذلك جعل المعنويات نوراً ، والنور الأول في البصر يأخذه
الكافر والمؤمن ، وكلت شركاء فيه مثله مثل الرق ، لكن النور الثاني في
البصائر يأخذه المؤمن فقط ، وسلك يقول رب

﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

(من الآية ١ سورة الحديد)

وهو سور الهداية في بصائر المعنويات ، فيوضح أن حقيقتهم خلقاً
ووضعت لكم قوانين لصيانتكم فقانون الصيانة في ماديات الدنيا للمؤمن
والكافر ، وقانون الصيانة في معنويات الحياة خاصة بالمؤمن

وهو الفائل .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَهُوَ مِنَ الضُّلُمِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النور)

ويعلم أن البصائر من المعنويات والمجىء للأمر الحسى ؛ كقولنا « جاء
ريد » أو « جاء عمرو » ولك أن تتصور البصائر وهي تأتي ، قال الحق .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة البقرة)

إله سبحانه قد أعطانا نورا صحيحا واضحا وهو يأتي إلينا بمشيئته

« قد جاءكم بصائر من ربكم ، لئى أنى بلمت من كسبها أنى أصبحت كأنها أشياء محسنة تحيى ، ولا يصح أن تقولوا إى لم تصلكم لأنى تحيى من الرب الذى حلفا بقدرته وأمدى فى كل شىء بقبوليه ، ومن لوازم الربوبية أن يعطى ما يهدى ، وقد حكم الله أن الصائر حاءتا ، وحكم بأن رسوله قد نفع ، فسبحانه أعطى لرسوله ، والرسول ناوئا ، والحق قد شرع ورسوله قد بلغ وبقي أن تؤدوا ولاعذر بكم من المشرع الأعلى الذى خلق وهو الرب ولا من المبيع المعصوم وهو الرسول »

ويقول الحق تبارك وتعالى

﴿ قَمِنْ أَبْصَرَ فَلْيَقْبِهِ وَمِنْ عَمَى فَلْيُطِئْ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الأنعام)

وبه المثل الأعلى ، نجد الولد يدخل البيت فجده أمه ويقول لها : ماذا أعددت لنا من طعام ؟ فنقول : لاشىء ، ويقول الأس لفقد بعث أبى اللحم والأرز واحضار ، فكأنه يقول لها : أين عملك يا أمى ؟

وربما سبحانه يوضح أنا خلقناكم ، وعملت لكم قانون حياة ، وأرسلت لكم رسولا تعرفون عنه أنه صادق فى بلاغه ، وأدى هذه الرسالة ، لذلك فابانى من المسألة عندكم أنى ، وكل واحد عليه أن يؤدى ما عليه من عمل ، إن أبصر فليفسه ، وإن عمى فليطئ . فرباكم أن تفهموا أنى كلتكم بما يعود على فى ذاتى ، ولا ما يريد من سلفائى شيئا ؛ لأن حيرها لكم أنى ، ولا آمن على لتشريع بمن لا يفيد من التشريع ، لأن من يستعد منه قد يشرع لصلحته ، أما الحق فهو مأمون على التشريع لأنه غير مستعد به .

يقول سبحانه :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ لَنْ أَبْعَثَ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ مُطَافِيَةً وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهِ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولأن الرسول عليه لبلاغ فقط والحق قد حفظه وعصمه من الكفر وهو يعلمكم المصحح ، وقد خلق الله كل إنسان مختاراً وهو بهذا الاختيار يدخل نفسه في الحكم أو يخرج نفسه من الحكم ، وسبحانه لم يبعث الرسول خيراً بل بعثه رحباً ؛ لذلك يقول الله في حق رسوله صل الله عليه وسلم : «وما أنا عليكم بحفيظ» والحفيظ من أسماء الله ، وهو الحفيظ لأب شرع ليحفظ الخلق ويريد أن يجعلهم على مثال حسن وإع والرسول هو المستمع والحق يقول :

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾

(من الآية ١٥ سورة ق)

إذن فكل واحد حر يدخل نفسه في الحكم أو يخرج نفسه من الحكم . وقد حارب الرسول ليحمي الاختيار بديلين أن لبلاد التي فتحها الإسلام تجد بعضاً من سكانها قد طردوا على كفرهم ولم يرعهم أحد على الإيهان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُبَيِّنَ لَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

«كذلك نصرّف» أي أنه يأتي لك بالخال بعد الحال ويكرر ويعيد ، وتأتي الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع ، ويفرق قلوبهم ، ويأتي بمادح من الرسل ، ومواقف أهمهم حتى تصادف في كل حال قلباً مستقبلاً لأنه قال مرة واحدة وصكت وكان هناك أناس قلوبهم مصرفة

فمتى ما يكرر الأحداث وينزل فيها من التشريع والمواظف فقد ترق قلوبهم للإيمان
وتستوعب القلوب الهداية

« وكذلك نصرف الآيات ويقولوا درست » ما معنى « » وليقولوا درست « ؟
إننا نعلم أن السماء تتدخل حين يطم الفساد ، لكن إن وجد في الذات الإنسانية نفس
لؤامة فهي مناعة للنفس ووقاية لها . فإن فعل الإنسان ذنباً قلومه نفسه فيرجع ، وإن
احتفت النفس اللؤامة وصارت النفس أمارة بالسوء ، امتنع في المجتمع الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، فمعنى ذلك أن الفساد قد طم . وهنا تتدخل السماء وتأتي ببيان
جديد ومعجزة جديدة .

إن الفساد لا يشأني إلا من وجوه طبقات تطحن في طبقات ، والذين يطحنون
بالفساد هم من يستقبلون المنهج بشرق ، لكن الطاحين المستفيد من الفساد هو الذي
يعارض المنهج . ولذلك فإن كل جماعة حاربت الرسل هم من الطاحين للناس ،
لكن المطحونين إنما يريدون من يتقدمهم .

إذن فكل صاحب دعوة سماوية جعل الله له عدواً من المجرمين ، لأن السماء لم
تدخل إلا حين صار الإجرام لا يقارن له . وهكذا يجعل الله لكل نبي ورسول عدواً
من المجرمين ، وهذا العدو يفتي به الناس ، ويميل به ضعاف العقائد . والحق
يصرف الآيات حالاً بعد حال حتى لا يثبت مع الداعي الحق إلا المؤمنون الصادقون .

وبذلك نجد أن الإسلام قد جاء وغربل الأمور ، مشلاً تأتي حادثة الإسراء فمن
كان إيمانه مهتزاً يكر للإسراء ، وذلك من أجل أن يذهب الرد ويبقى من يحمل
الدعوة بمنهج الحق . أما من كان إيمانه ضعيفاً أو كان يعبد الله على حرف فالإسلام
لا يرضه .

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾

(من الآية ١٧ سورة التوبة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد صرف الآيات لينصر المطحونين ، وحينما قال
الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قالوا درست وادعوا أنه كان قاصداً في الجبل ،
وتعلم من أعجمي . ولذلك نجد الحق يقول :

﴿وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة النحل)

ويأتى الرد من الحق

﴿لِسَانُ اللَّهِ يُلَاحِظُونَ إِلَيْهِ أَعْيُنٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

إن سيدنا عمر رضي الله عنه حينما كان في الطواف جاء عبد الحجر الأسود وقال : « والله إني لأفيلك وإني أعلم أنك ححر وأنت لا تنضر ولا تنع وبولا إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك »^(١)

فعل سيدنا عمر ذلك حتى يعلم ما إذا ما جاء بعض الهامس وقال ما سبب هذه تغير الحجر الأسود^٢ فيكون اجواب حاصرا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وهذا شريع

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿أَنبِئْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾

ومسألة يتكلم متكلم لمخاطب بأمر هو فيه وقائم عليه ومؤد له فلا بد أن يفهم حقيقة المراد ، مثلما يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

وبأى شيء نادى الله خلقه المؤمنين ها ؟ لقد قال : يا أيها الذين آمنوا ، فكيف يقول : آمنوا ؟ لقد ناداهم لأهم آمنوا إيماناً مستوجب لخطابهم بالتكليف ، والإنسان ابن أعمار . فهو ضح أن الإيمان الذي استعملتم به التكليف من خطابين داوموا أيضاً عليه ، وجاء الأمر به بدوامه ، أى كما آمنتم إيماناً جعلكم أهلاً للتكليف فى محاببتكم وقلت لكم يأبى الدين آمنوا : الزموا هذا وداوموا على إيمانكم . وقول الحق : اتع ما أوحى إليك هو قول لرسول متبع ، إذن فهو يحمل الأمر بالمداومة على الاتع ، ولا يجرئك ما يقولون يا محمد : أنت مؤيد من ربك ويتولى الدفاع عنك ويلقىك الحجة

﴿ وَلَا يَأْتُوكَ يَمَثِلُ إِلَّا جِثَّتْكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

(سورة الفرقان)

ويقول الحق بعد ذلك موحى حديثه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اتع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين)

ويعلم أن الروحى هو إعلام بصفة ، وكل وحرى هو إعلام بصفة وقد أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة ، ولكن كس ما يتصل ويختص بالقرآن كان بواسطة جبريل وقبوه الحق (اتع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين)

أى أنه لا يوجد إله إلا هو سبحانه ، ولا يمكن أن يعبر أنت الملهج النازل إليك منه ، وعليك أن تعرض عن المشركين ، فلا تجالسهم ، ولا تخالطهم ، ولا تودهم . إنه إعراض القطعة والإرشاد والبلاغ ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ وَكِيلٌ ﴾

لحق سبحانه وتعالى يعطينا قضية لا بد أن نستصحبها في تاريخنا
الإيماني، والقضية هي : أن أي كافر لم يكفر قهرا عن الله ، وإبما كهر لأن
الله أرحم له الرمام بالاختيار أي خلفه مختارا ، ولذلك فالكافر إنما يفعل
كل فعل به آتاه الله من الاختيار لاعصا عن ربه أو قهرا ، بدليل أن
الكون الذي نجبا فيه مقهور بالأمم ، لا يمكن أن يختار إلا صراده الله منه ،
ركل مافي لكون يسير إلى مراد الله

إذن فمن كهر لم يكفر قهرا عن الله ، لأن طبيعة الاختيار ممنوحة من
الله . وحين اختص الله الإنسان بالاختيار وضع المنهج الذي يرتب عليه
النواب والعقاب . ولذلك نزل التكليف بالأفعال " لا تفعل " .
وسبحانه إن أراد قهرا بعد قهر كل الأجاس في الكون ؛ قهرها بطول
العمره وأنها تؤدي مهنتها كما أراد الله منها ، إنه قهر الشمس ، وقهر
القمر ، وقهر اسجوم ، وقهر الماء ، وكل حاجة في لكون مفهورة له حتى
الملائكة خلفهم :

﴿ لَا يَقْضُونَ إِلَهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النجم)

إذن صفة القهر أخذت متعلقها كاملا ولكن يريد الله من خلقه أن
يكونوا مقهورين على ما يريد ؟ لا ، بل يريد سبحانه أن يكونوا عاقلين لا
يجهل ، وإن كانوا مختارين أن يفعلوا ما لايجب ، كأن خلق القمر في
الأحاس كان لإثبات طلاقة لقدرة ، وانه لا يمكن لمحبوب أن يشد عن
مراد الله منه . وبقي الاختيار في الإنسان ليدل على أن أدينا من خلقه
سبحانه يذهبون إليه حل وعلا وهم قادرون ألا يذهبوا إليه ، وهذه تشب
صفة المحبة

وحيث يختار المختار الطاعة ، وهو قادر ألا يصيغ ، ويحار الإيمان وهو
قادر أن يكفر فقد جاء إلى الله محبة لا قهرا ، ولذلك يقول ربنا لرسوله صلى
الله عليه وسلم :

﴿لَعَلَّكَ بَئِيعَ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّصِينَ ﴿٧﴾﴾

(سورة الشعراء)

أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحرماً على عدم إيمان قومك بها جنت به من عند ربك ، أتريد يا محمد أن أقهرهم ؟ أتريد أعناقنا أوقلوبا؟ إنك يا محمد تعلم أن منهجك انذار إليك من ربك يريد قلوبنا ، وقلوب تأتى بالاختيار . فلو شئت إيمانهم لأرسلنا معجزة تأخذ قلوبهم فيؤمنون قهرا عليهم .

ولذلك إذا حُذِش الاختيار يفقد أى عنصر من عناصره يزول التكليف . بدليل أنه لا تكليف على فاقد العقل ، لأن آلة الاختيار عندما هى العقل . وكذلك لا تكليف لمن لم يصح بل يتركه الحق إلى أن ينضج . وبصير قادرا عن إيجاب مثله وأن يصل إلى التكوين الكيماوى السليم . ويمسح عنه الإكراه بأى قوة أعلى منه تفهده على أن يفعل شيئا على غير مراده ، وهما يأتى التكليف

إذن فالتكليف بمحتاج إلى أمور ثلاثة . وجود عقل ، بذلك فلا تكليف لمجنون ، وعقل رشيد ناصح ، فكل السلوك لا تكليف ولا إكراه حتى يسلم الاختيار ، لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق سبحانه .

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول الحق سبحانه .

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ آمَةٍ﴾

عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾

وتتضمن هذه الآية الكريمة منهجاً ضرورياً من مناهج الدعوة إلى الله ، هذه الدعوة التي حملها الرسل السابقون ، وختمهم الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلها سبحانه ختماً لاتصال السماء بالأرض ، لذلك كان لابد من أن يتوحد الإسلام كل أقطبه تتعلق بالدعوة إلى الله بحملها أميناً عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والامة المحمدية التي شرفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها من يحملون أمانة دعوة الله إلى الخلق امتداداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكل مسم يعلم حكماً من أحكام الله مطلوب منه أن يعلمه لغيره ، قرب مبلغ أومى من سامع حتى وإن كان الله لم يورقه للعمل بما جاء فيما بلغ ، قرب حامل فقه إلى من هو آفقه منه ، فإذا فاته أن يعمل فالراجب ألا يفوت من يعلم قضية من قضايا دينه ثواب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق ، ولكن عليه أن يعمل ليكون قدوة سلوكية يتأسى به غيره حتى لا يقع تحت طائلة قوله تعالى : « كبير مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

وإن كان بعض الشعراء يلحون على هذه المسألة . فيقولون :

ونخذ بعمى ولا نركن إلى عملى

واجس الثمار ونحلّ العود للثار

إذن فالبلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضرورى ، وهو امتداد لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه بلغ صلى الله عليه وسلم عن الحق مراده من الخلق . وبقي أن يشهد الناس الذين اتبعوا هذا الرسول أنهم بلغوا إلى الناس ما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

إذن فكما أن الرسول سيشهد بأنه بلغنا ، فمن صميم المنهج أن يشهد أتباعه أنهم بلغوا الناس ، فإن حدث تقصير في البلاغ إلى الناس ، فستكون المسئولية على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤد أمانة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس أجمعين . ومنهج الدعوة منهج صعب ؛ لأن الدعوة إلى الله تتطلب أن يأخذ الداعي يد الدين ينحرفون عن منهج السماء أتباعا لشهوات الأرض ، وشهوات الأرض جاذبة دنا للخلق ؛ لأنها تحقق العاجل من متع النفس . واتباع منهج الدين - كما يقولون - يحقق نفعاً آخراً . وفي هذا القول طعم للدين ؛ لأن الدين قبل أن يحقق للناس متعة آجلة ، فهو يحقق - أيضاً - المتعة العاجلة ؛ لأن الناس إن تمسكوا بمنهج الله في « اعمل ولا تفعل » يعيشون حياة طيبة لا حقد فيها ، ولا استغلال ، ولا خفس ولا حسد ولا سيطرة ، ولا حروب ، فيصبح الناس جميعاً في أمان .

إذن فلا تقولوا إن الدين ثمرته في الآخرة بل قولوا ليست مهمة الدين هي الآخرة فحسب بل مهمة الدين هي الدنيا أيضاً ، والآخرة إنما هي ثواب على النجاح في هذه المهمة ؛ لأن الله إنما يجازي في الآخرة من أحسن العمل في الدنيا . ومن اتبع منهج الله كما قال الله « فلنحييه حياة طيبة » ومن أعرض عن منهج الله فإن له معيشة ضكاً ويحدث ذلك قتل الآخرة ، ثم يأتي يوم القيامة لينتقى العقاب من الله .

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ فِي الْأَرْضِ أَعْمًى ﴾

(سورة طه)

فإذا كان الدين يأخذ بالناس من شهواتهم الماطة إلى منهج الله العالی ، فتكون مهمة الداعي شاقة على النفس ، ولذلك قالوا : إن الصالح بالغير يجب أن يكون لبقاً ؛ لأنه يريد أن يجمع الناس مما أحبوا وألفوا من الشر ؛ لذلك يجب على الداعي ألا يجمع عليهم إخراجهم مما ألفوا بأسلوب يكرهونه بل لابد أن يثير جناتهم ووزغتهم في اتباع المنهج ، ولذلك جاءت هذه الآية :

﴿ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَيْنَا رُجُوعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٨) (سورة الانعام)

لقد قال الحكماء : النصيح تفصيل فلا يرسله جبلاً ولا نجعله جدلاً ، والحقائق مرة ، فاستمعوا لها خمة البيان . والحقة في النصيح تولد قلب المنصوح ، وحسك منه أن تخلعه عما آلف وأحب . إلى ما لم يتعود ، فلا يكون خلعه مما آلف بأسلوب عييف . ولذلك علمنا الحق هذه القضية حين ندعو الخصوم إلى الإيمان به ، وهؤلاء الخصوم يتحدون من دون الله أنناداً : أي جسدوا الله ومعه شركاء .

إنهم إذن أرادوا التسعة العاجلة بالابتعاد عن المنهج ، ثم احتفظوا بالله مع الشركاء ؛ لأنه قد تأتي لهم ظروف عصيبة ، لا تقدر أسباب الأرض على دفعها ، ومن مصلحتهم أن يكون لهم إله قادر على أن ينجيهم عما هم فيه . فهم لا يكذبون أنفسهم . والحق سبحانه هو القائل في مثل هؤلاء إن أصروا على الشرك .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ (٩٨)

(سورة الانبياء)

حصب جهنم إذن هم المشركون ومعهم الأصنام التي كانوا يعبدونها ويشتكون وقدراً للشر التي يمدحون بها . وبعض من الناس السطحيين يظن أن هذا عذاب للأحجار ، لا ، بل هي غيرة ومعمة وغضب من الأحجار على خروج المشركين عن سبيل الله في توحيد الله . فنقول الأحجار : لقد كنتم مفترينين بي ولذلك سأكون أنا أداة إحراقكم . إنا نجد المعتوين في الآلهة من البشر أو الآلهة من لأشجار أو الآلهة من الكواكب أو الآلهة من الأحجار يصيبهم الله بالعذاب ، والأحجار التي عبدوها تقول كما قال بعضهم فيها شعراً .

عبدونا ونحس أحمقاً — لأنه من القائمين في الأسفار

واتخذوا صماتاً علينا دليلاً — وغشونا لهم ونودوا الشر

للمعالي جوازه والمعالي فيه تنجيته رحمة الغفار

ولذلك يأتي الأمر بالألا ست ما يعده الذين أشركوا بالله ؛ لأن الأصنام لاذب لها ، والواقع كان يقتضى أن تلتطخوا بالأحجار فهي لاذب لها في المعتنوين بها ، والحق سبحانه وتعالى يعلمنا ويوضح لنا ألا نلزم المتخذ لها ؛ لأنه معذور ، والسب هو ذكر الفحيح ، والشتم ، والذم ، والهجاء ، إنك إن سببت وقبعت ما عبده من دون الله فإن العابد لها بغاوته سيسب إلهك فتكون أنت قد سببت لها باطلا ، وهم سبوا الإله الحق ، وبذلك لم نكسب شيئا ؛ فانتبهوا .

ويعذرنا القرآن من الوقوع في ذلك في قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تُسَبِّحُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(س الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وهم سيفعلون ذلك عدوًّا وعدوانا وطغيانا مغير علم بقيمة الحق وقدميته سبحانه وتعالى ؛ لذلك يجب أن نصور الألسنة عن سب آلهتهم حتى لا نجرىء الألسنة التي لا تؤمن بالله عن سب الله

إن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا اللطف في منهج الدعوة ؛ لأنك تريد أن تحن قلوبهم لتستعملهم إلى الأبد ولن يكون ذلك إلا بالأسلوب الطيب .

صحيح أن المؤمنين معذرون في حماسهم حين يدخلون في مناقشة مع المشركين ولكن ليتذكر المؤمن الفبيعة النهائية وهي الخير للدعوة وليسأل الله أن يرزقنه الصبر على المشركين ، ويعلمنا الحق كيف نسير في منهج الدعوة ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا نوحا عليه السلام الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وظل يدعو ويتحنن في الدعوة ، إلى أن قالوا له في آخر المطاف : أنت تفتري هذا الكلام من عندك ، فعلمه الله سبحانه وتعالى أن يقول :

﴿ قُلْ إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ وَأَنَا يَتَّبِعُهُ اللَّهُ فَعَلَّامٌ مَبْهُوتُونَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة هود)

ويقول الحق سبحانه معلماً رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة نبا)

أى من الذى يعطيكم فرام الحياة ؟ وأنت حين تسألهم سؤالاً يناقض ما هم عليه . فيتلذذون ، فيسعف الله رسوله فيوضح سبحانه ويأمره أن يقول لهم .

﴿ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة نبا)

و « إنا » أى رسول الله ومن معه . « أو إياكم » المقصود بها الكافرون بالله ، ولم يقتل لهم أنا وحدى على هدى وأنتم على ضلال ، بل قال : منهجنا ومنهجكم لا يتقان ، ولا يد أن يكون هناك منهج على هدى ومنهج على ضلال ، ولن أقول من هو الذى على هدى ، ومن هو الذى على ضلال ، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم واثق من أنهم لو أداروا المسألة على عقولهم وعلى بصائرهم : فإن يجسوا جواباً ، إلا أن رسول الله على الهدى وأنهم على الضلال . فتركهم هم ليقولوا

ولتأمل أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾

(سورة نبا)

لم يقل الحق لهم هم الذين يجرمون ، بل جعل الجرم - إن صح - على المؤمنين ، وجعل العمل - وإن فسد - مع الكافرين وعلى الأقل كانت المساواة تقتضى ولا نسأل عما نجرمون ولكنه لم يقل ذلك . وهذا هو الأدب

العالي والعلف ، لان الحق سبحانه وتعالى يريد ألا يترك الرسول لغرائزهم مكاناً للإباء عليه ، وألا يجدوا وسيلة ليتعصروا من الدعوة . ولهذا علمنا هذا الأسلوب فيقول :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٨ ١ سورة الاحقاف)

وبذلك نحقق لطف الجدل . ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتُّالِكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الاحقاف)

وان كنتم تريدون كشف حقيقة تلك الاصنام فهي أيضاً مخلوقة لله وهي تعبده ، واسألوهم ولن يجيبوا ، وهم لا أرجل لهم يمشون عليها ، ولا لهم أيدي يمشون بها ، ولا لهم أعين يصرون بها ، ولا لهم آذان يسمعون بها . وفوق ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحج)

وهل هناك ما هو أقل من الذباب لي عرفكم ؟ نعم ، يقول الحق :

﴿ وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحج)

فإن جاءت ذبابة وحطت على ما فأكل ، أتستطيع أن تسترجع منها شيئاً ؟ لن تستطيع ، وإن كنت جباراً وفتوة فامسك الذبابة وخذ منها الطعام الذي أخذته ، لن تستطيع ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهذا هو الجدل الذي يحل اسجادل نجعل من نفسه ، لكن إذا ثرت في وجهه وتغصبت فأنت نجعل له عدواً في الحفيظة عليك والعصب منك واهجوم عليك ، وفي الانصراف من مسبح الله ، ونسأل الله أن يعطينا طول البال وسعة الحلم والأناة على الجدل اللطيف .

﴿ وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَدُوًّا يَغْیَرُ عَنْهُ كَذَٰلِكَ زُیِّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ مَّا عَمِلُوا ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأعراف)

وحين يعمى الحق الخذل اللعيب لدعوته فهذا يرين للدعوة ، والدعوة في ذات حبسه ، لذلك لابد أن تكون عرضها جيلاً

والمثال من حياتنا أنت يذهب إلى الساحر وعنده بصاعة قد تكون متممة حد لكنه لا يرتها ولا يحس عرضها ؛ لذلك قد تنمر منه وتذهب إلى ساحر آخر قد تكون بصاعه أقل جودة ، لكنه يحس عرضها ، وهذا هو التريين أي تصعيد الخسر ، ولذلك سُمي الخلى وما تنحس به المرأة ربة وامرأة قد تميلك أسوثة حملة ، وهي مع حماها تقوم بتزيين نفسها بخي ، وبخواهر والمجلس ارامي ، وكان العربي حين يمتدح امرأة بقعة حمية يقول هذه عاية ، أي استعت بحمها عن أن تزيين ، لأن ما سوف يدريه بالعمد احمل من انعقد

والريين إذن حمار العرص للاستئالة والامحادات ، ونحن حين نرين امراً في عطفه وفار وحسا وسريده حملاً . (كديث ربنا لكل أمة عندهم) ولأمة هي الجماعة اسى ها انباء يجمع أفرادها ، مثل أمة العرب أي أن المسمى إليها هم العرب والأمة الإنجليزية أي أن المسمين اليها انجليز . أما أمة الإسلام فيدخل فيها العرب ، ولعمم ، ولأسود والأبيض ، والأصفر ، وهي أوسع بقعة ، فإن كانت الامم السابقة ريت لتسب عصر محدود وربما محدود ، ومكانا محدودا فمن مريكم تزييناً بسب كل أدواق الدنيا؛ لأنكم ستوجهون كل هذه الامم ، فلا بد أن يكون في دعوتكم اسملة هذا وهذا وهذا

وفى هذه الدعوة - وكانت حيثئذ ضعيفة نجد - رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الأمة ، فيكون بلال الحبشي هو من يؤذن ، وتجلده يقول عن - سلمان وهو فارسي - : سلمان منا آل البيت^(١) وأناى سيدنا عمر يقول عن صهيب - وهو رومي - . نعم العبد صهيب لو سم يخف الله لم يعصه ، أى أن عدم عصيانه لله طبيعة فيه حتى وإن لم يكن يخاف عقاب الله .

فإذا كنا قد ريت لكل أمة من الأمم الماضية عملهم فتزيين أعتكم يجب أن يكون مناسباً لمهمتها زماناً ومكاناً وأجناساً ، والروافد ، ولغات ، ولا بد أن نزيينكم أيضاً بحسن أسلوب العرض منهج الدعوة . ويجب أن يتناسب مع جمالها ، وأنتم أولى بالترزين ؛ لأنكم مستوعبون لكل حضارات الدنيا ، وانتماءات الدنيا ، فيجب أن يكون تزيينكم مناسباً لمهمتكم .

﴿ كَذَلِكَ رَبَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ﴾

(من الآية ٨-١٠ سورة الأنعام)

أى أننا رضينا لهم منهج نقل الدعوة إلى الغير ، وما ينال للحسن والمطيع من ثواب فى الآخرة ، والمؤمنون حينما يتعمون بتعليم الآخرة فهذا يعيم بغير حدود ؛ لأنه على قدر طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى ، وهم حين يتعمون بكل هذه النعم يستشرفون إلى لقاء الختم به ، ويتجلى الله عليهم .

وكتب ربنا للأمم السابقة أعمالهم قد زيناكم لأنكم أمة الإجابة ، وهذا التزيين الخاص يرمى الدعاء إلى مهج الله ، ولو نطق خيركم إلى ما فى منهجكم من ربة لبحثوا فى هذا المنهج ولقام كل منهم باستقراء الوجود الذى بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ولوحد أن لكل كائن مهمة ، ولا نصم إلى المنهج التبعدى .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ ﴾

(سورة الذريات)

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرک.

و « ليمبدون » تسمى أن يطبعوا في « الفعل كذا » و « لا تفعل كذا » وإذا قال الحق : « كذلك ربا لكل أمة عملهم » فمعنى ذلك أنه سبحانه قد بين العمل بفوائده

و أنت حين تتأمل ظواهر الوجود حولك تجد أن من غير عليك بمهمة إنما أراد الحق على هذا التمييز ليضعك أنت ، ويتجلى هذا الأمر في كل النعم : فالحجار الحادقة والمتقن تعود صحتك عليك ، ومصمم الملابس الذي يظن عمله سيعود خير صنته عليك ، ومن مصلحة كل إنسان أن يكون خيره متصوفاً ، وأن يكون هو أيضاً متصوفاً في عمله ، وأن يحمده ربا لأن خيره سيعود على غيره أيضاً ، وبذلك نحيا في مجتمع راق يتكون من أمم وطوائف مثالية ، إذن فالمقصود في شيء يجب ألا يحقد على غيره من أبناء المجتمع ، لأن خير تقوفه سيعود على كل فرد فيه ومن المصلحة أن يصير الكل إلى التصوف

فإذا قال الله : « كذلك ربا لكل أمة عملهم » أي جعل الله لكل ما حسلاً في الحياة ، ولا بد أن يتضح به في الدنيا ، ويتضح به في الآخرة أيضاً ويأخذ كل منا ثواب الله عليه ، فقلدي يأخذ التزيين بفعل على العمل ، والدي لا يأخذ التزيين عليه الذهب ، وكل واحد إنما يزين عمله على مقدار الطموح الذي يظلمه لنفسه ، ونحن نرى أمثلة لذلك في الحياة ، ونلاحظ لنجد إنساناً له دخل محدود ، لكنه يفتح على نفسه أبواباً من الترف أكثر من اللازم ، ولا يدخر شيئاً ويحقق لنفسه المتعة العاجلة ، ولحمد إنساناً آخر يعيش على قدر الضروريات ويدخر لجدته من بعد ذلك قد طور من أسلوب حياته بالسكن اللائق ومنع الحياة ، إن الأول ربح له عمله الترف العاجل ، والثاني ربح له عمله الترف المسمى ، فرباك أن تنظر إلى شهوة العاجلة ، ولكن انظر إلى الجدوى التي تأتي منها .

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

(من الآية ٨ ١ سورة الانعام)

وما دام المرجع لمن أوجد العمل منهجاً في « الفعل » و « لا تفعل » والمرجع لمن وضع التزيين في العمل لتأخذ المهج الكريم منه ، وعلى مقدار

ما أحدث من مهجة تأخذ من كرامته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ
أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾

« وأقسموا بالله » ، هنا قسم : ومقسم به ، ومقسم عليه ، فالمقسم به هو الله ، والمقسم هم الجماعة المخالمون لرسول الله ، ولماذا يقسمون ؟ لقد أقسموا حين أحدهم الخذل بمطلق الحق فعلهم هم أقسموا بالله وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبادته ، واجهد أيمانهم « تعرف بها الجهد وهو المشقة أي أنهم بانقضوا في القسم منالفة بجهدهم ليبينوا لمن يقسمون لهم أنهم حريصون على أن يدروا بالقسم ، فأفزعوا جهدهم ومثقتهم في لقسم ، وهذا معه أنهم أعلنوا أنهم يقيمون قسما يحربوا لهم ، والمحسوب لهم أكثر من يعدوا هذا القسم ، وهذا يدل في مظهره على إخلاصهم في القسم

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة الأنعام)

ألم تأت الرسول صلى الله عليه وسلم بآية واضحة ؟ لقد جاءهم من عظم ابنه وهى القرآن ، وعدم عرفانهم بذلك هو أول مصيبة منهم ، ألم يقل لكم إني رسول بعد أن أعلن الآية وهى برول القرآن وأنتم تعرفون أنه صادق في التبليغ عن الله ، وكان ذلك هو قومه لما حكاه منهم ، وساروا على ذلك حين أقروا هم الآيات عن الله ، ألم يقولوا

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَقْطُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوءًا﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ

تُخِيلُ وَيُغِيبُ فَنُفِخَ بِالنَّفِيرِ الْآتِهَرِ خَلْسَلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُغَمَتْ عَلَيْنَا
كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾

(سورة الإسراء)

وَأَرَادَ الْحَقُّ بِذَلِكَ أَنْ يَبَيِّنَ لَنَا أَنَّ الْقِسْمَ الَّذِي أَقْسَمُوا بِهِ قِسْمٌ مَدْخُولٌ فَقَدْ قَالُوا:
« كَمَا زُغَمَتْ عَلَيْنَا » وَالزَّعْمُ - كَمَا نَعْلَمُ - مَطْيَةُ الْكُذْبِ وَهَذَا أَوَّلُ غِلَلٍ فِي الْقِسْمِ .
ويقول الحق :

﴿ إِنْ نَشَأْ نُغَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾

(من الآية ٩ سورة ميثا)

هم إذن غير مؤمنين بالآية الأصلية وهي القرآن ، فيسجدونه في أنه ينزل
بالروحى ، فيحلفونا الحق أن نصدق زعمهم ، فهو القائل :
﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ فَتْرَةٍ لَّفُتِّنَ بِهِمُ الْبَاطِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا
إِلَّا صَحْرٌ مُهَيَّئٌ ﴾ ﴿٧﴾

(سورة الاحقاف)

وحتى إن نزلت الآية فلن يصدقوا ، فالحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ هُمْ قَوْمٌ مُّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سحركم . فلماذا لم يسحروهم ليؤمنوا
بالله ؟

وهكذا نرى أن الحق قد ذكر لنا في كتابه أن كل ما يقولونه في هذه

السألة هو مَزْرُوق وهروب من الاستجابة للدهوة ، لانه لا توجد آية أعظم من الآية التي نزلت عليهم وهي القرآن ، وكل الآيات التي اقترحوها لا تسمو على هذه الآية ، لانهم أمة نحو وحرف وبلاغة وبيان وادب ، فجاء لهم بالمعجزة التي تفوقوا فيها . وهم لم يتفوقوا في الاشياء التي ذكروها واقترحوها . إنما تأتي لهم بمعجزة من جنس ما تفوقوا فيه ، لأن المعجزات دائماً تأتي على هذا الأساس : فكل قوم تفوقوا في مجال يأتي الله لهم بشيء يتفوق عليهم في مجال تفوقهم ليثبت صدق الرسول في البلاغ عنه .

ولقد قلنا : إن المعجزات تأتي خرقاً لنواميس الكون الثابتة لأن نواميس الكون لها قوانين عرفها البشر ، وأمبحت متواترة أمامهم ، فإذا ما جاء أمر يخرق الناموس السائد المعترف به بينهم يلتفتون مشاككين كيف خرق الناموس وذلك ليعرف كل واحد منهم أن الذي خلق الناموس هو الذي خرق الناموس ، لكن يثبت صدق هذا البلاغ عنه . وقد جاءكم المعجزة من جنس ما نبغتم فيه ، والذي يدل على ذلك أنهم لا يتكلمون في المعجزة بل في المنهج وفي شخص من جاء بالمنهج ، فحدهم يقولون :

﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة الانعام)

فيوضح القرآن أن الملك بطبيعة تكوينه لا يرى منكم ، هو يراكم وأنتم لا ترونه ، وإذا أرسلنا ملكاً فكيف تعرفونه ؟ إذن سيطلب لإرسال ملك أن نخلق عليه وضع البشر ، وأن ينزله الحق في صورة بشر ، وإن نزل في صورة بشر فستقولون : إنه ليس بشراً وإنما ملزمين بما جاء به :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ١١ ﴾

(سورة الانعام)

وكان سيدنا جبريل - على سبيل المثال - ينزل إلى رسول الله أحياناً في صورة رجل قادم من السفر ويقعد ويتكلم مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يأت جبريل عليه السلام - إذن - بطبيعة تكوينه بل جاء

بطبيعة البشر . وهناك خلق آخر مثل الجن . ونحن لانقدر أن نرى الجن ، ولا نستطيع بقوانيننا وقوانين الجن أن نراه ، لكن إن أراد الجن أن يربنا نفسه فهو يتشكل بشكل مادي يرى ؛ يتشكل بشكل حيوان ، يتشكل بشكل قطة ، يتشكل بشكل جمل ، يتشكل بشكل رجل ، وهكذا ، ولو كانت هذه المسألة غير مقبدة بتقنين يحفظ توازن الأمر بين الجنسين - الإنس والجن - لتعب الناس ؛ لأنه ساعة يظهر جن للإنسان ويقف أمامه ثم يختفي يسود الرعب بين البشر على الرغم من أن الجن تخاف من الإنسان أكثر مما نخاف نحن منهم ؛ لأن الجن يعرف أن قانونه يسمح له أن يتشكل بشكل إنس أو أي شكل مادي ، وحيث يحكمه قانون الإنس وإن التفت بشخص معه مسدس - مثلاً - فقد يضربه بالرصاص ويقتله ، ولذلك يخاف الجن أن يظهر للإنسان مدة طويلة ، وإنما يظهر كومة البرق ويختفي ؛ لأنه يخاف كما قلنا - من الإنسان . إذن هالتوازن موجود بين الجن والإنس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن عفريتاً من الجن جعل يفتك على البازجة ليقطع على الصلاة وإن الله أمكنني منه فذعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أوكلكم ثم ذكرت قول أخى سليمان : « رب اغفرلى وهب لى ملكاً لا ينقى لأحد من بعدى » فرده الله خامساً ، وفى رواية : « والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » (١) .

وهكذا تعلم أن القسوم إذا اقترحوا آية ، ثم جاء الله بالآية ، فإن كذبوا بها أخذهم أخذ عزيز مقتدر ولا يؤجل ذلك للأخرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُجِيبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

(١) روى مسلم واللفظ له فى الصلاة فى كتاب المساجد . ورواه البخارى فى الصلاة . ورواه أحمد ومضى

(بذلك) : بأخذ فى غفلة وخديعة وفى رواية (تفلت) ومعنى (فذعته) بذل مذبذبة وتخفيف العين المهمة أى

خففته وفى رواية أخرى (فذعته) بالذال المهمة أى دلفته دلفاً شديداً ومضى (سارية) إسطوانة

إذن فحتى الكفار به نالهم شيء من رحمته .

﴿ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُسْمِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٣﴾

(سورة الأنعام)

هنا يبلغ الحق رسوله أن يقول لهم : أنا لآتئى بالآيات من عندي ولا آتئى بها بفسانون قدرتي ؛ لأن قانتون قدرتي مساو لكم . ولست متفوقا عنكم غير أنه يوحى إلى وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . إن الله هو الذي يناولني آيات القرآن ، ولا يوجد خلق يقترح على الله الآية ؛ لأن ما سبق في الرسائل السابقة يؤكد أن الحق إذا ما استجاب لآية طلبها الخلق ولم يؤمنوا فسيحاطه بهلكهم ويستأصلهم أو يفرقهم أو يرسل عليهم رجلا صرصرا أو يخسف بهم الأرض ، والحق هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فبعض أهل الرسائل السابقة اقترحوا الآيات وحققها الله لهم ثم كذبوا بها . إذن فالتكذيب هو الأصل عندهم .

والمفروض أن تأتي الآية كما يريد الله لا أن يقترحها أحد عليه . ولذلك يأمر الحق رسوله أن يبلغهم : « قل إنما الآيات عند الله » ثم يأتي خطاب جديد لأناس يختلفون عن المشركين هم المؤمنون ، فيقول الحق لهم : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » فكانهم حينما قال أهل الشرك ذلك أراد المؤمنون أن يخففوا عنهم مع رسول الله فقالوا له : يا رسول الله ، اسأل الله أن ينزل لهم آية حتى نرتاح من لجأجنهم ، فينجه الله بالود على من قرظ هذا السؤال موضحا : أنتم مؤمنون ووطنكم حسن ، وفكرتكم طيبة في أنكم تريدون أن تكسروا حدة العنت ، لكن ما يشعركم : أي ما يعلمكم أن الآية التي اقترحوها إن جئت بها لا يؤمنون . فكان المؤمنون أيّدوا قول هؤلاء المشركين في طلب الآية منعا للدجاج .